تفسير القرآن العظيم

للإمام المحدث ابن كثير
(٧٠١ - ٧٧٤هـ)

تحقيق
د. محمد إبراهيم البنا

الجزء الثالث
سورة النساء - سورة الأعراف
الآية ٩٤ — الآية ١٥٧

مؤسسة علوم القرآن — شركة دار القبلة

دار ابن حزم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار القبلة للثقافة الإسلامية

المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - ت: ٦٧١....- تلكس: ٨٠....٤ - دلة. س ج

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص ب ٤٦٢٠ - ت ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص ب ١٣/٥٢٨١

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

تفسير القرآن العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، وحُسَين بن محمد، وخَلَف بن الوليد، قالوا: حدثنا إسرائيل، عن سماكٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: مَرَّ رجل من بني سُلَيم بنفرٍ من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم فقالوا: ما سَلَّم علينا إلا ليتعوَّذَ منا. فَعَمدوا إليه فقتَلُوه، وأتوا بغَنَمه النبي ـ ﷺ ـ فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ . . . إلى آخرها[1].

ورواه الترمذي في التفسير، عن عبد بن حميد، عن عبد العزيز بن أبي رِزْمَةَ، عن إسرائيل، به. وقال: هذا حديث حَسَن، وفي الباب عن أسامة بن زيد[2].

ورواه الحاكم من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، به. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[3].

ورواه ابن جرير من حديث عبيد الله بن موسى وعبد الرحيم بن سليمان، كلاهما عن إسرائيل، به[3]. وقال في بعض كتبه غير التفسير، وقد رواه من طريق عبد الرحيم[3] فقط، وهذا خبر عندنا صحيح سنده، وقد يجب أن يكون على مذهب الآخرين سقيماً، لِعِلَلٍ منها: أنـه لا يعرف له مَخْرَجٌ عن سماك إلا من هذا الوجه، ومنها: أن عكرمة في روايته عندهم نظر، ومنها أن الذي أنزلت فيه الآية مختلف فيه، فقال بعضهم: أُنزِلَتْ في مُحلِّم بن جَثَّامة، وقال بعضهم: أسامة بن زيد. وقيل غيرُ ذلك.

قلتُ: وهذا كلامٌ غريبٌ، وهو مردودٌ من وجوه؛ أحدها: أنه ثابت عن سماك، حَدَّث به عنه غير واحد من الكبار. الثاني: أن عكرمةَ محتجٌّ به في الصحيح. الثالث: أنه مروى من غير هذا الوجه عن ابن عباس، كما قال البخاري:

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيانُ، عن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾ قال: قال ابن عباس: كان رجل في غُنَيْمةٍ له، فَلَحِقَه المسلمونَ، فقال: السلامُ عليكُمْ. فقتلوه وأخذوا غُنَيمَته، فنزلت: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾[4].

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من طريق سفيان بـن عيينة، به[4].

وأما قصة محلِّم بن جَثَّامة فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بـن عبد الله بن قُسَيط، عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد، عن أبيه عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه

(١) المصدر السابق، مسند أحمد ١/ ٢٢٩، ٢٧٢.
(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١١/ ١٥٩ ـ ١٦٠، والمستدرك، تفسير سورة النساء ٢/ ٢٣٥، وتفسير الطبري ٥/ ٢٢٣.
(٣) في الأصل: عبد الرحمن. ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٥٨، وتفسير الطبري ٥/ ٢٢٣.

قال: بعثنا رسولُ الله - ﷺ - إلى إضَم، فَخرجت في نَفرٍ من المسلمين، فيهم: أبو قتادة الحارث بن رِبْعيّ، ومحلِّم بن جَثّامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضَمٍ مرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجَعِيّ، على قَعُود له، معه مُتيِّعٌ ووَطْبٌ من لبن[١]، فلما مَرَّ بنا سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه مُحلِّم بن جَثّامةَ فقتله، بشيء كان بينه وبينه، وأخذَ بعيره ومُتَيِّعه، فلما قدمنا على رسول الله - ﷺ - وأخبرناه الخَبَر، نزل فينا القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إذا ضربتم في سبيل الله﴾ إلى قوله تعالى: ﴿خبيرا﴾.

تفرد به أحمد[٢].

وقال ابنِ جرير: حدثنا ابنُ وكيع، حدثنا جَرير، عن ابن إسحاق، عن نافع أنَّ ابن عمر قال: بعثَ رسول الله - ﷺ - مُحَلِّم بن جثامةَ مبْعَثاً، فَلَقِيهم عامرُ بنَ الأضبط، فحيَّاهم بتحيَّة الإسلام، وكانت بينهم حِنَةٌ[٣] في الجاهلية، فرمـاهُ مُحَلِّم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله - ﷺ - فتكلم فيه عُيَينة والأقرع، فقال الأقرع: يا رسول الله سُنَّ اليوم وغَيِّر غدا. فقال عيينة: لا والله، حتى تذوق نساؤه من الثكل ما ذاق نسائي. فجاء محلِّم في بردين، فجلس بين يدي رسول الله - ﷺ - ليستغفر له، فقال رسول الله - ﷺ -: لا غَفَر الله لك. فقام وهو يتلقى دُمُوعَه بِبُرْدَيه، فما مضت له سابعة حتى مات، ودَفَنُوه فلفظته الأرض، فجـاؤوا إلى النبي - ﷺ - فذكروا ذلك له، فقال: إن الأرض تقبل من هو شرٌّ من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم من حرمتكم. ثم طرحوه بين صَدَفي جبل[٤]، وألقَوا عليه الحِجَارةَ، ونزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضَرَبتم في سبيل الله فَتَبَيَّنُوا﴾[٥].. الآية.

وقال البخاري: قال حبيب بن أبي عَمْرَة، عن سعيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - للمقداد: إذا كان رجل ممَّن يُخْفِي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانَهُ فقتلتَه، فكذلك كُنتَ أنتَ تُخفِي إيمانَكَ بمكة من قبل.

هكذا ذكر البخاري هذا الحديث معلقاً مختصراً[٦]، وقد رُوِيَ مُطَوَّلاً موصولاً، فقال الحافظ أبو بكر البزار:

حدثنا أحمد[٧] بن علي البغدادي، حدثنا جعفر بن سلمة، حدثنا أبو بكر بن علي بن مقدم، حدثنا حبيب ابن أبي عمرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: بعث رسول الله - ﷺ - سريةً، فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القومَ وَجَدُوهم قد تَفَرَّقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إلَه إلا الله. فأهوى إليه المقدادُ فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رَجُلاً شهد أن لا إلَه إلا الله؟ والله لأذكرَنَّ ذلك للنبي - ﷺ -. فلما قَدِموا على رسول الله - ﷺ - قالوا: يا رسولَ الله، إنَّ رَجُلاً شهدَ أن لا إلَه إلا الله، فقتله المِقدادُ. فقال ادعوا لي المقداد. يا مقداد، أقتلتَ رَجُلاً يقول: «لا إلَه إلا الله» فكيف لك بلا إلَه إلا الله غداً؟! قال: فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إذا ضَرَبتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام: لست مؤمناً.

---

(١) القعود: البعير الذي يقتعده الراعي في كل حاجة. والمُتَيِّع: تصغير المتاع. والوطب: وعاء اللبن.
(٢) مسند أحمد ٦/ ١١.
(٣) عداوة وحقد.
(٤) أي: جانبي جبل.
(٥) تفسير الطبري ٥/ ٢٢٢.
(٦) فتح الباري، كتاب الديات ١٢/ ١٨٧.
(٧) في نسخة: حماد، وأخرى: حمدان. والمثبت عن كشف الأستار.

تبتَغُون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا﴾. فقال رسول الله - ﷺ - للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه، فقتلته، وكذلِكَ كنتَ تُخفِي إيمانك بمكة قبل»(١).

وقولُه: ﴿فعنـد الله مغانمُ كثيرةٌ﴾ أي: خيرٌ مما رَغِبتم فيه من عَرَضِ الحياة الدنيا، الذي حملكم على قَتْلِ مثل هذا الذي ألقَى إليكم السلامَ، وأظهَرَ إليكم الإيمانَ، فتغافلتم عنه، واتّهمتُمُوه بالمصانعة والتقية، لِتَبتَغُوا عَرَضَ الحياة الدنيا، فما عند الله من المغانم الحلال خير لكم من مال هذا.

وقولُه: ﴿كذلك كنتمُ من قبل فمنَّ الله عليكم﴾ أي: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يُسِرّ إيمانه ويُخفيه من قَوْمِه، كما تقدَّم في الحديث المرفوع آنفاً، وكما قال تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ . . . الآية. وهذا هو مذهبُ سعيد بن جُبير، كما رواه الثوريُّ، عن حَبيب بن أبي عَمْرة، عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ تخفون إيمانكم في المشركين.

ورواه عبدُ الرزَّاقِ، عن ابن جُرَيج، أخبرني عبد الله بن كثير، عن سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ تستخفون بإيمانكم، كما استخفى هذا الراعي بإيمانه. وهذا اختيارُ ابن جرير(٢).

وقال ابن أبي حاتم: وذُكر عن قيس، عن سالم، عن سعيد بن جُبَير قوله: ﴿كذلك كنتم من قبل﴾ لم تكونوا مؤمنين ﴿فمن الله عليكم﴾ أي: تاب عليكم، فَحَلَف أسامة لا يقتل رجلاً يقول: «لا إله إلاّ الله» بعد ذلك الرجل، وما لقي من رسول الله - ﷺ - فيه.

وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ تأكيدٌ لما تقدم. وقوله: ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ قال سعيد بن جُبَير: هذا تهديدٌ ووعيدٌ.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

قال البخاريُّ: حدثنا حَفْصُ بن عُمَر، حدثنا شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، عن البراءِ قال: لما نزلت: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ دعا رسول الله - ﷺ - زيداً، فكتبها، فجاء ابنُ أم مكتومٍ فشكا ضَرارَتَه، فأنزل الله: ﴿غير أولي الضرر﴾(٣).

حَدَّثنا محمدُ بن يوسف، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن البَراءِ قال: لما نزلت ﴿لا يستوي القاعدُون من المؤمنين﴾ قال النبي - ﷺ - : ادع فلاناً فجاءه ومعه الدواةُ واللوحُ أو الكتف(٤) فقال: اكتُبْ: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدونَ في سبيل الله﴾ وخَلف النبيِّ - ﷺ - ابنُ أُمِّ مكتوم، فقال: يا رسولَ الله، أنا ضرير؟! فنزلت مكانها: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾(٣).

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، تفسير سورة النساء ٣/ ٤٥.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٤) هو عظم عريضٌ في أصل الكتف، كانوا يكتبون فيه.

وقال البخاري أيضاً: حدثنا إسماعيلُ بن عبد الله، حدثني إبراهيمُ بن سعدٍ، عن صالحُ بن كيسانَ، عن ابن شهاب: حَدَّثني سَهلُ بن سَعدٍ الساعديُّ: أنه رأى مَرْوان بن الحكم في المسجد، قال: فأقبلتُ حتى جلستُ إلى جَنْبه، فأخبَرنا أن زيدَ بن ثابتٍ أخبَره: أن رسول الله ـ ﷺ ـ أملى عليّ: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾. فجاءه ابنُ أُمِّ مكتوم، وهو يُمليها عليَّ، قال: يا رسولَ الله، والله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ ـ وكان أعمى ـ فأنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ وفَخذهُ على فخذي، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تَرُضَّ[١] فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله: ﴿غيرُ أولي الضَّرَرِ﴾.

انفرد به البخاريُّ[٢] دون مُسْلمٍ، وقد رُوِي من وجه آخر عن زيد فقال الإمام أحمد.

حدثنا سليمان بن داود، أنبأنا عبدُ الرحمن بن أبي الزناد، عن خارجةَ بن زيد قال: قال زيدُ بن ثابت: إني قاعدٌ إلى جنب رسول الله ـ ﷺ ـ إذ أُوحِيَ إليه، قال: وغشيته السكينةُ، قال: فوقع فَخذه على فَخذِي حين غَشيته السكينةُ. قال زيدٌ: فلا والله ما وجدتُ شيئاً قَطُّ أثقلَ من فَخذِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ثم سُرِّيَ عنه فقال: اكتُب يا زيد. فأخذتُ كَتِفاً فقال: اكتُبْ ﴿لا يستوي القاعِدُون من المؤمنين والمجاهدون﴾ إلى قوله: ﴿أجراً عظيماً﴾. فكتبتُ ذاك في كَتِفٍ، فقام حين سَمِعها ابنُ أم مكتومٍ ـ وكان رجلاً أعمى ـ فقام حين سَمِع فضيلةَ المجاهدين فقال: يا رسولَ الله، وكيف بمن لا يستطيع الجهادَ ممَّن هو أعمى وأشباهُ ذلك؟ قال زيد: فوالله ما مضى كلامه ـ أو ما هو إلا أن قضى كلامَه ـ غَشِيَت النبيَّ ـ ﷺ ـ السكينةُ، فَخذُه على فَخذِي، فوجدتُ من ثقلها كما وجدتُ في المرَّةِ الأولى، ثم سُرِّي عنه فقال: اقرأ. فقرأتُ عليه: ﴿لا يستوي القاعِدُون من المؤمنينَ والمجاهدونَ﴾ فقال النبي ـ ﷺ ـ: ﴿غيرُ أولي الضرر﴾. قال زيد: فألحقتُها، فوالله لكأنِّي أنظُرُ إلى مُلْحَقِها عند صَدْعٍ كان في الكَتِفِ[٣].

ورواه أبو داودٍ، عن سعيدِ بن مَنصُورٍ، عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن خارجةَ بن زيد بن ثابت، عن أبيه، به نحوه[٣].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَر، عن الزهريِّ، عن قَبيصَةَ بن ذُؤَيبٍ، عن زيدِ بن ثابتٍ قال: كنت أكْتُب لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال: اكتب ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾. فجاء عبد الله ابن أم مكتوم فقال: يا رسول الله، إني أُحِبُّ الجهادَ في سبيل الله، ولكن بي من الزَّمانَةِ ما قد تَرَى، قد ذهب بَصَري. قال زيد: فَثَقُلَت فَخِذُ رسول الله ـ ﷺ ـ على فَخِذِي، حتى خَشيت أن تَرُضَّها، ثم سُرِّي عنه، ثم قالَ: اكتُبْ: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضَّرَرِ والمجاهدُون في سبيلِ الله﴾.

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير[٤].

وقال عبد الرزاق: أخبرني ابنُ جُرَيج، أخبرني عبدُ الكريم ـ هو ابنُ مالك الجَزري ـ أن مِقْسماً مولى عبد الله بن الحارث أخبره، أن ابن عباس أخبره: ﴿لا يستوي القاعدونَ من المؤمنين﴾ عن بدر، والخارجون إلى بدر[٤].

انفرد به البخاريُّ[٥] دون مسلم: وقد رواه الترمذيُّ من طريق حجاج، عن ابن جُرَيج، عن عبد الكريم،

---

(١) أي: تدقّها وتكسرها.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٥٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/١٩٠ ـ ١٩١، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/١١.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٢٢٩.

(٥) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٦٠.

عن مِقْسَم، عن ابن عباس قال: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾ عن بدر، والخارجون إلى بدر، لَمَّا نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش[١] وابنُ أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله، فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر﴾ وفَضَّل الله المجاهدين على القاعدين درجة، فهؤلاء القاعدون غيرُ أولي الضرر ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ درجات منه على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر[١].

هذا لفظُ الترمذيِّ، ثم قال: «هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه»[٢].

فقولُه ﴿لا يستوي القَاعِدُونَ من المؤمنين﴾ كان مطلقاً، فلما نَزَلَ بوحيٍ سريعٍ ﴿غيرُ أولي الضرر﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المُبيحة لترك الجهاد ـ من العَمَى والعَرَجِ والمَرَضِ ـ عن مساواتهم للمجاهدين في سبيلِ الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم أخبر تعالى بفضيلةِ المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولي الضرر. وكذا ينبغي أن يكون لما ثبت في الصحيح عند البخاري من طريق زُهَير بن معاوية، عن حُمَيد، عن أَنسٍ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم من مَسِيرٍ، ولا قطعتُم من وادٍ إلا وهم معكم فيه. قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: نعم حَبَسَهم العُذْرُ»[٣].

وهكذا رواه الإمامُ أحمد عن محمد بن أبي عَدِيٍّ، عن حُمَيد، عن أنس، به[٣]: وعلقه البخاري مجزوماً. ورواه أبو داود، عن حماد بن سلمة، عن حُمَيد، عن موسى بن أنس بن مالك، عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لقد تركتُم بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم مسيراً، ولا أنفقتُم من نفقةٍ، ولا قطعتُم من وادٍ إلا وَهُم معكم فيه. قالوا يا رسول الله، وكيف يكونُون معنا وهم بالمدينة؟ قال حَبَسَهُم العذْرُ»[٣]. لفظ أبي داود.

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يـا راحلينَ إلى البَيت العَتيق لَقَـدْ ... سـرْتُم جُسُوماً وسِرْنـا نحنُ أرواحـا
إنّـا أقَمنـا عَلَى عُـذْرٍ وَعَنْ قَـدَرٍ ... وَمَنْ أقَـامَ على عُـذْرٍ فَقَـدْ رَاحـا

وقولُه: ﴿وكلًّا وعد الله الحسنى﴾، أي: الجنةَ والجزاء الجزيل. وفيه دلالـةٌ على أنَّ الجهاد ليس بفرضِ عينٍ، بل هو فرضٌ على الكفاية.

ثم قال تعالى: ﴿وَفضَّلَ الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾.

ثم أخبر تعالى بما فَضَّلهم به من الدرجات، في غرف الجِنَان العالياتِ، ومغفرة الذنوب والزلَّاتِ، وحُلُولِ الرحمة والبركاتِ، إحساناً منه وتكريماً، ولهذا قال تعالى: ﴿درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً، وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ٨/ ٢٦٢ تعليقاً على رواية الترمذي: «هكذا أورده سياقاً واحداً، ومن قوله «درجة» إلخ مدرج في الخبر من كلام ابن جريج، بينه الطبري، فأخرج من طريق حجاج نحو ما أخرجه الترمذي إلى قوله «درجة» ووقع عنده، «فقال عبد الله بن أم مكتوم وأبو أحمد بن جحش». وهو الصواب في ابن جحش، فإن عبد الله أخوه، وأما هو فاسمه عبد، بغير إضافة، وهو مشهور بكنيته». وانظر تفسير الطبري ٥/ ٢٢٩.

(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١١/ ١٦١.

(٣) فتح الباري، كتاب الجهاد ٦/ ٤٦ ـ ٤٧، ومسند أحمد ٣/ ١٠٣، وسنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ١٢.

وقد ثبَتَ في الصَّحِيحَين عن أبي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: إن في الجنةِ مائة درجةٍ، أعدَّها الله للمجاهِدِين في سَبيله، ما بين كُلِّ درجَتَين كما بينَ السماءِ والأرض(١).

وقال الأعمش، عن عمرو بن مُرّة، عن أبي عُبَيدَةَ، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «من بَلَغ بسهم فله أجرُه درجةٌ» فقال رجل: يا رسول الله، وما الدرجة؟ فقال: «أما إنها ليست بعتَبَة أمك، ما بين الدرجتين مائة عام»(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

قال البخاريُّ: حدثنا عبدُ الله بن يزيدَ المقرىءُ، حدثنا حيوةُ وغيره قالا: حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسودِ قال: قُطِعَ(٣) على أهلِ المدينة بَعْثٌ، فاكتُتِبْتُ فيه، فلقيتُ عكرمةَ مولى ابن عباس فأخبرتُهُ، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابنُ عباس أنَّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يُكَثِّرون سوادَ المشركين على رسول الله ـ ﷺ ـ يأتي السهمُ يُرْمى به، فيصيبُ أحدَهم فيقتُلُه، أو يُضْرَبُ فيُقْتَلُ، فأنزل الله: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾. رَوَاه الليث عن أبي الأسود(٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا أبو أحمد ـ يعني الزُّبَيريَّ ـ حدثنا محمد بن شريك المكي، حدثنا عَمْرو بن دينار، عن عكرمةَ، عن ابن عَبَّاسٍ قال: كان قومٌ من أهلِ مكَّةَ أسلموا، وكانوا يَتخفَّونَ بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضُهم بفعل بعض، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا. فاستَغْفَروا لهم، فنزلت: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾... الآية، قال: فكتب إلي من بَقِيَ من المسلمين بهذه الآية: لا عُذْرَ لهم. قال: فَخَرجُوا فَلَحِقَهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾(٥)... الآية.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآيةُ في شبابٍ من قُريش، كانوا تكلَّموا بالإسلام بمكة، منهم: علي بن أمية بن خَلَفٍ، وأبو قيس بن الوليد بن المُغِيرة، وأبو العاص بن مُنَبِّه بن الحجاج، والحارث بن زَمَعَة(٦).

وقال الضحاكُ: نَزَلت في ناسٍ من المنافقين، تَخلَّفوا عن رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة، وخَرَجوا مع

(١) فتح الباري، كتاب الجهاد ٦/ ١١، وكتاب التوحيد ١٣/ ٤٠٤ عن أبي هريرة، ومسلم، كتاب الإمارة ١٥٠١.
(٢) أخرجه النسائي بإسناده إلى الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن شرحبيل بن السمط، عن كعب بن مُرَّة، انظر كتاب الجهاد ٦/ ٣٧، وكذلك أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٣) أي: ألزموا بإخراج جيش لقتال أهل الشام، وكان ذلك في خلافة عبد الله بن الزبير على مكة.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٦٢.
(٥) الآية ١٠ من سورة العنكبوت. وقد أخرجه الطبري في تفسيره من هذه الطريق ٥/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٦) تفسير الطبري ٥/ ٢٣٤، وسيرة ابن هشام ١/ ٦٤١. وفي السيرة: العاص بن منبه.

المشركين يوم بدر، فَأُصِيبُوا فيمن أُصِيبَ، فنزلت هذه الآيةُ الكريمةُ عامَّةً في كلِّ من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادرٌ على الهجرة، وليس متمكناً من إقامةِ الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكبٌ حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي: بترك الهجرة ﴿قالوا: فيم كنتم﴾ أي: لم مَكثتم ها هنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قالوا: كنا مُستضعَفِين في الأرض﴾ أي: لا نقدر على الخروجِ من البلد، ولا الذهابِ في الأرض ﴿قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة﴾ . . . الآية.

وقال أبو داودَ: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، حدثني يحيى بن حَسَّان، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داودَ، حدثنا جعفر بن سعد بن سَمُرة بن جُندَب، حدثني خُبَيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سَمرة، عن سَمُرةَ بن جُندَبٍ: أما بعد، قال رسول الله ـ ﷺ ـ من جامع المشركَ وسكن معه فإنه مثلُه[1].

وقال السدِّيُّ: لما أُسِرِ العباسُ وعَقِيلٌ ونوفلٌ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ للعباس: افدِ نفسك وابن أخيك. قال: يا رسولَ الله، ألم نصلِّ قبلتَكَ، ونشهد شهادتك؟ قال: يا عباس، إنكم خاصمتم فخُصِمْتم[2]. ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة﴾ . . . الآية. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُه: ﴿إلا المستضعفين﴾ . . . إلى آخر الآية. هذا عذرٌ من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلُّص من أيدي المشركين، ولو قَدَرُوا ما عَرَفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لا يستطيعون حِيلةً﴾، قال عكرمة: يعني نهوضاً إلى المدينة، ﴿ولا يهتدون سبيلاً﴾. قال مجاهد، وعكرمة، والسدِّيُّ: يعني طريقاً.

وقولُه: ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أي: يتجاوز عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجِبَةٌ ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

قال البخاري: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا شيبانُ، عن يحيى، عن أبي سَلَمَة، عن أبي هُرَيرة قال: بينا النبيُّ ـ ﷺ ـ يُصلِّي العِشاءَ إذ قال: سَمِعَ الله لمن حَمِدَه. ثم قال قبل أن يَسجُدَ: اللهم نجِّ عياشَ بن أبي ربيعة، اللهم نجِّ سَلَمَةَ بنَ هشام، اللهم نجّ الوليدَ بن الوليد، اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وَطْأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنين كَسِني يوسُفَ[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا أبو معمر المقري، حدثنا عبد الوارث، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بـن المسيَّب، عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رفع يَده بعد ما سلَّم، وهو مستقبلُ القبلةِ، فقال: «اللهمَّ خلِّص الوليدَ بن الوليدِ، وعياشَ بن أبي رَبيعةَ، وسَلَمة بن هِشَامٍ، وضَعَفة المسلمين الذين لا يستطيعُون حيلةً ولا يهتدُونَ سَبيلاً من أيدِي الكُفَّار».

وقال ابنُ جَريرٍ: حدثنا المثنى، حدثنا حَجّاج، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن عبد الله ـ أو إبراهيم ابن عبد الله القرشي ـ عن أبي هُرَيرة: أن رسول الله ـ ﷺ كان يدعو في دُبُر صلاة الظهر: «اللهم خلِّص الوليدَ، وَسَلَمة بن هشام، وعياشَ بن أبي ربيعة، وضَعَفَةَ المسلمين من أيدي المشركين، الذين لا يستَطِيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً»[4].

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٣/ ٩٣.

(٢) أي: غُلبتم. وانظر الأثر في تفسير الطبري ٥/ ٢٣٥.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٦٤.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٢٣٧.

ولهذا الحديث شاهد في الصحيح، من غير هذا الوجه، كما تقدم.

وقال عبد الرزَّاق: أنبأنا ابن عُيَينة، عن عُبَيد الله بن أبي يزيد قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان.

وقال البخاريّ: أنبأنا أبو النعمان، حدّثنا حَمَّاد بن زيد، عن أيوبَ، عن ابن أبي مُلَيكَةَ، عن ابن عباس ﴿إلا المستضعفين﴾ قال: كانت أمي ممن عَذَرَ الله عز وجل(١).

وقولهُ: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعَةً﴾، وهذا تحريضٌ على الهجرة، وترغيبٌ في مفارقة المشركين، وأن المؤمنَ حيثما ذَهَب وَجَدَ عنهم مندوحةً وملجأً يتحصَّن فيه، «والمُرَاغَمُ»: مصدر، تقول العرب: راغَمَ فلانٌ قومه مُراغماً ومراغَمَةً، قال نابغةُ بني جَعْدَةَ(٢):

كَطَوْدٍ يُلاذُ بأرْكَانِهِ عَزيزِ المراغَمِ وَالْمَهْرَبِ

وقال ابنُ عباس: «المراغم»: التحوُّل من أرض إلى أرض. وكذا رُوي عن الضحّاك، والربيع بن أنس، والثوري، وقال مجاهدٌ: ﴿مراغماً كثيراً﴾ يعني: مُتَزَحْزَحاً عما يَكْرَهُ. وقال سفيان بن عُيَينة ﴿مراغماً كثيراً﴾ يعني: بُرُوجاً.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه المُمْتَنَع الذي يُتَحصَّن به، ويُرَاغَم به الأعداء.

قولُه: ﴿وَسَعَةً﴾ يعني: الرِّزق. قاله غيرُ واحدٍ، منهم: قتادةُ حيث قال في قوله: ﴿يجد في الأرض مُرَاغماً كثيراً وَسَعةً﴾ أي ـ والله ـ من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى.

وقولُه: ﴿ومن يخرُجْ من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يُدْرِكْه الموتُ فقد وَقَعَ أجرُه على الله﴾ أي: ومن خرج من مَنْزله بنِيَّةِ الهجرة فمات في أثناءِ الطريق فقد حَصَل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن، من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن علقمة بن وَقّاص اللَّيثي، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُه لدنيا يُصِيبها، أو امرأة يَتَزوَّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(٣).

وهذا عامٌّ في الهجرة وفي كلِّ الأعمال. ومنه الحديث الثابت في الصحيحين، في الرجل الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً. ثم أكمل بذلك العابدِ المائة، ثم سأل عالماً: هل له من توبةٍ؟ فقال: ومن يحولُ بينكَ وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحوَّل من بلده إلى بلد آخر يعبدُ الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً. وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعدُ. فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أقربَ كان منها، فأمر الله هذه أن يُقرِّب من هذه. وهذه أن تبعُد، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجَرَ إليها بِشِبْرٍ، فقبضته ملائكةُ الرحمة.

(١) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٦٣.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٣٨.

(٣) فتح الباري، باب بدء الوحي ١/ ٩، ومسلم، كتاب الإمارة ١٥١٥ ـ ١٥١٦، وسنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢/ ٢٦٢، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل الجهاد ٧/ ١٥١ ـ ١٥٢، والنسائي، كتاب الطهارة ١/ ٥٨ ـ ٦٠، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤١٣، ومسند أحمد ١/ ٢٥، ٤٣.

وفي رواية: أنه لما جاءه الموتُ ناء[١] بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا محمَّدُ بن إسحاقَ، عن مُحمَّدِ بن إبراهيمَ، عن محمد ابن عبد الله بن عَتيك، عن أبيه عبد الله بن عَتيك قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: من خَرَج من بيته مُهاجراً[٣] في سبيل الله ـ ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث: الوسطى والسبابة والإبهام، فَجَمَعُهنَّ وقال: وأين المجاهدون ـ؟ فخرَّ عن دابته فمات، فقد وَقَع أجره على الله، أو لدغته دابةٌ فمات فقد وقع أجرُه على الله، أو مات حَتْفَ[٤] أنفه فقد وقع أجره على الله ـ والله إنها لكلمة ما سَمِعتها من أحد من العَرَبِ قبلَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ومن قتل قَعْصاً[٥] فقد استوجب المآب»[٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شَيْبَة الحِزَامي، حدثني عبد الرحمن بن المغيرة الحِزَامي، عن المنذر بن عبد الله، عن هشام بن عُرْوة، عن أبيه أن الزبير بن العوام قال: هاجر خالدُ بن حِزَام إلى أرض الحبشة، فَنَهَشَتْه حيَّةٌ في الطريق فمات، فنزلت فيه: ﴿ومن يخرُجْ من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾، قال الزبير: وكنتُ أتوقَّعُه وأنتظر قُدُومه وأنا بأرض الحبشة، فما أحزَنَني شيءٌ حُزْنَ وفاته حين بلغني، لأنه قَلَّ أحدٌ ممَّن هاجَرَ من قُريش إلا معه بعضُ أهله، أو ذَوِي رَحِمِه، ولم يكن معي أحدٌ من بني أسد بن عبد العزَّى، ولا أرجُو غيره.

وهذا الأثرُ غريب جداً، فإن هذه القصةَ مكية، ونزول هذه الآية مَدَنِيَّة. فلعله أراد أنها أنزلت تَعُمُّ حكمه مع غيره، وإن لم يكن ذلك سببَ النزول، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا سليمان بن داود مولى عبد الله بن جعفر، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان، عن الأشعث ـ هو ابن سَوَّار ـ عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباسٍ قال: خَرَج ضَمْرَةُ بن جُنْدَب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فمات في الطريق قبل أن يَصِلَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فنزلت: ﴿ومن يخرُجْ من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾ الآية.

وحدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن سالم، عن سعيد بن جُبَير عن أبي ضَمْرَةَ بن العِيص الزُّرَقِيّ، الذي كان مُصَابَ البَصَر، وكان بمكة، فلما نزلت: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدانَ لا يستطيعون حيلة﴾ فقلت: إني لغني، وإني لذو حِيلَةٍ، فتجهَّزَ يريد النبيَّ ـ ﷺ ـ، فأدركه الموتُ بالتنعيم، فنزلت هذه الآية: ﴿ومن يخرُجْ من بيتِهِ مُهاجِراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت﴾ . . . الآية.

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى: حدثنا إبراهيم بن زياد سَبَلانُ، حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن إسحاق، عن حُمَيد بن أبي حُمَيد، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من خرج حاجّاً فمات كُتِبَ له أجرُ الحاج إلى يوم القيامة، ومن خَرَج معتمراً فمات كُتِبَ له أجرُ المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خَرَج غازياً في سبيل الله فمات كُتِبَ له أجر الغازي إلى يوم القيامة».

وهذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.

(١) أي: تقدَّم.
(٢) تقدَّم الحديث عند الآية ٩٣ من هذه السورة وخرجناه هنالك.
(٣) في المسند: مجاهداً.
(٤) أي: مات على فراشه. والحتفُ: الهلاكُ. كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه، فإن جرح خرجت من جراحته.
(٥) القعصُ: أن يضرب الإنسان فيموت مكانه. وأراد بوجوب المآب: حسن المرجع بعد الموت.
(٦) مسند أحمد ٤/ ٣٦.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ أي: سافرتم في البلاد، كما قال تعالى: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يَضربون في الأرض يبتغُونَ من فضل الله﴾... الآية.

وقوله: ﴿فليس عليكم جناحٌ أن تَقْصُروا من الصلاة﴾ أي: تُخفِّفوا فيها، إما من كَمِّيتها بأن تُجعَلَ الرباعيةُ ثنائيةً، كما فهِمَه الجمهورُ من هذه الآية، واستدلُّوا بها على قَصْر الصلاة في السفر، على اختلافهم في ذلك: فمن قائل لا بدّ أن يكون سفر طاعة، من جهاد، أو حَجٍّ، أو عمرةٍ، أو طلب علم، أو زيارة، وغير ذلك، كما هو مرويٌّ عن ابن عمرٍ وعطاء، ويحكى عن مالك في رواية عنه نحوهُ، لظاهر قوله: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾.

ومن قائل: لا يُشْتَرَطُ سَفَر القُربة؛ بل لا بدّ أن يكونُ مباحاً، لقوله: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم﴾... الآية. أباح له تناول الميتة مع اضطراره إلا بشرط ألَّا يكونَ عاصياً بِسَفَرِه. وهذا قولُ الشافعيِّ وأحمَد وغيرهما من الأئمة.

وقد قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا وكيعٌ، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم قال: جاء رجلٌ فقال: يا رسول الله، إني رجلٌ تاجرٌ أختلِفُ إلى البحرين؟ فأمره أن يُصَلِّي ركعتَين. وهذا مرسل.

ومن قائل: يكفي مطلق السفر، سواء كان مباحاً أو محظوراً، حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل، تَرَخَّص، لوجود مُطْلَق السفر. وهذا قولُ أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ والثوريِّ وداودُ، لعموم الآية، وخالفهم الجمهورُ، وأما قوله: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدإ الإسلام بعد الهجرة كان غالبُ أسفارِهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غَزْوٍ عام، أو في سَرِيَّةٍ خاصة، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله، والمنطوقُ إذا خَرَجَ مخرجَ الغالب أو على حادثةٍ فلا مفهومَ له، كقوله: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾ وكقوله: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾... الآية.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا ابنُ إدريسَ، حدثنا ابن جُرَيج، عن ابن أبي عَمَّار، عن عبد الله بن بَابَيْهِ، عن يعلى بن أمية قال: سألتُ عمر بن الخطاب قلت: ﴿ليس عليكم جناح أن تَقصُروا من الصلاة إن خِفتُم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمَّن الله الناس؟ فقال لي عمر: عَجِبتَ منه، فسألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن ذلك، فقال: «صدَقَة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقَته»(١).

وهكذا رواه مسلم وأهل السُّنَن، من حديث ابن جُرَيج، عن عبد الرحمن بن عبدالله بن أبي عمار، به: وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال علي بن المديني: هذا حديث صحيحٌ من حديث عُمَر، ولا يُحفَظ إلا من هذا الوجه، ورجالُه معروفون(٢).

وقال أبو بكر بن أبي شيبةَ: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا مالك بن مِغْوَلٍ، عن أبي حَنْظَلة الحذاء قال: سألت

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ٢٥.

(٢) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٤٧٨ ـ ٤٧٩، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ٣، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١١/ ١٦٢ ـ ١٦٣، والنسائي، كتاب تقصير الصلاة ٣/ ١١٦ ـ ١١٧، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٣٩.

ابن عمر عن صلاة السفر فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله تعالى: ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنةُ رسولِ الله ﷺ(١).

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبدالله بن محمد بن عيسى، حدثنا علي بن محمد بن سعيد، حدثنا منجاب، حدثنا شريك، عن قيس بن وهب، عن أبي الوَدَّاك: سألتُ ابنَ عمر عن ركعتين في السفر؟ فقال: هي رُخْصَةٌ، نزلت من السماء، فإن شئتم فَرُدُّوها.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا ابنُ عون، عن ابن سيرين، عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ـ ﷺ ـ بين مكة والمدينة، ونحن آمنون، لا نخافُ بينهما، ركعتَينِ ركعتَينِ.

وكذا رواه النسائي، عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد الحذاء، عن عبدالله بن عون، به. قال أبو عمر ابن عبد البر: وهكذا رواه أيوبُ، وهشامٌ، ويزيدُ بن إبراهيم التُّسْتَرِيُّ، عن محمد بن سِيرينَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ ﷺ ـ مثله.

قلت: وهكذا رواه الترمذي والنسائيّ جميعاً، عن قُتيبة، عن هُشيم، عن منصور بن زاذَان، عن محمد ابن سيرين، عن ابن عباس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج من المدينة إلى مكة، لا يخافُ إلا ربَّ العالمين، فصلى ركعتين». ثم قال الترمذي: صحيح(٢).

وقال البخاري: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبدُ الوارث، حدثنا يحيى بن أبي إسحاق قال: سَمِعتُ أنساً يقول: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ من المدينة إلى مكة، فكان يُصلِّي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة، قلتُ: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أَقمنا بها عشراً(٣).

وهكذا أخرجه بقيةُ الجماعةِ من طُرُقٍ عن يحيى بن أبي إسحاق الحضرمي، به(٣).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سُفْيان، عن أبي إسحاقَ، عن حارثةَ بن وهبٍ الخُزَاعِي قال: صليتُ مع النبي ـ ﷺ ـ الظهر والعصر بمنىً ـ أكثرَ ما كان الناسُ وآمنه ـ ركعتين(٤).

ورواه الجماعة سوى ابن ماجه من طُرُق، عن أبي إسحاقَ السَّبِيعي، عنه(٥) به. ولفظ البخاري:

حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبةُ، أنبأنا أبو إسحاقَ، سمعت حارثة بن وَهْبٍ قال: صلى بنا رسول الله ـ ﷺ ـ آمنَ ما كان بمنىً ركعتين(٦).

وقال البخاريُّ: حدثنا مُسَدَّدُ، حدثنا يحيى، حدثنا عُبَيد الله، أخبرنا نافع، عن عبد الله بن عمر قال: صليتُ مع النبي ـ ﷺ ـ ركعتين، وأبي بكر وعمر، ومع عثمانَ صَدْراً من إمارته، ثم أتمها(٦).

وكذا رواه مسلم من حديث يحيى بن سعيد القطان، به(٦).

(١) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى أبي حنظلة بنحوه، انظر المسند ٢/ ٣١.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٣/ ١٧ ـ ١٨، والنسائي، كتاب تقصير الصلاة في السفر ٣/ ١١٧.

(٣) فتح الباري، كتاب تقصير الصلاة ٢/ ٥٦١، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٤٨١، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ١٠، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٣/ ١٨، وسنن النسائي، كتاب تقصير الصلاة ٣/ ١١٨، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٤٢.

(٤) مسند أحمد ٤/ ٣٠٦.

(٥) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٤٨٣، وسنن أبي داود، كتاب المناسك ٢/ ٢٠٠، وعارضة الأحوذي، أبواب الحج ٤/ ١١٢، والنسائي، كتاب تقصير الصلاة ٣/ ١١٩ ـ ١٢٠.

(٦) فتح الباري، كتاب تقصير الصلاة ٢/ ٥٦٣، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٤٨٢.

وقال البخاري: حدثنا قُتيبةُ، حدثنا عبد الواحد، عن الأعمش، حدثنا إبراهيمُ، سَمِعتُ عبد الرحمن بن يزيد يقُول: صَلَّى بنا عثمانُ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بمنىً أربعَ رَكَعَاتٍ، فقيل في ذلك لعبدِ الله بن مسعود، فاسترجع ثم قال: صَلَّيتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ بمنىً ركعتين، وصليت مع أبي بكر بمنى ركعتين، وصليت مع عُمَر بن الخطاب بمنى ركعتين، فليت حظِّي مع أربع ركعات ركعتان متقبلتان[(١)].

ورواه البخاري أيضاً من حديث الثَّورِيِّ، عن الأعمش، به. وأخرجه مسلمٍ من طُرُقٍ، عنه. منها عن قُتيبةُ كما تَقَدَّمَ[(١)].

فهذه الأحاديثُ دالَّة صريحاً على أن القَصْر ليس من شرطه وجودُ الخوف، ولهذا قال من قال من العلماء: إن المراد من القصر ها هنا إنما هو قصرُ الكيفية لا الكمية. وهو قولُ مجاهدٍ، والضحاك، والسدِّي كما سيأتي بيانه، واعتضدوا أيضاً بما رواه الإمام مالك، عن صالح بن كيسانَ، عن عُروة بن الزبير، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: فُرِضت الصلاةُ ركعتَين في السَّفَر والحضَر، فأُقِرَّت صلاةُ السفرِ، وزِيدَ في صلاة الحَضَر[(٢)].

وقد رَوَى هذا الحديث البخاري عن عبد الله بن يوسف التِّنِّيسِيِّ، ومسلم عن يحيى بن يحيى، وأبو داود عن القعنبي، والنسائي عن قُتَيبة، أربعتهم عن مالك، به.

قالوا: فإذا كان أصلُ الصلاة في السفر هي الثنتين، فكيف يكون المرادُ بالقصر ها هنا الكمية، لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾؟

وأصرحُ من ذلك دلالةً على هذا، ما رواه الإمامُ أحمدُ:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان ـ وعبد الرحمن حدثنا سفيان ـ عن زُبَيد اليامِيِّ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: صلاةُ السفرِ ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعةِ ركعتان، تمام غير قَصْرٍ، على لسان محمد ـ ﷺ ـ.

وهكذا رواه النسائي وابن ماجه، وابن حِبَّان في صَحِيحه، من طرق عن زُبَيد اليامِيِّ[(٣)]، به. وهذا إسنادٌ على شرط مسلم، وقد حَكَم مسلم في مقدمة كتابه بسماع ابن أبي ليلى، عن عمر[(٤)]. وقد جاء مُصَرَّحاً به في هذا الحديث وفي غيره، وهو الصوابُ إن شاء الله. وإن كان يحيى بن مَعِين وأبو حاتمٍ والنَّسائي قد قالوا: إنه لم يسمَعْ منه. وعلى هذا أيضاً فقد وَقَع في بعض طرق أبي يعلى الموصلي، من طريق الثوري، عن زُبَيدٍ، عن عبد الرحمن، عن الثقة، عن عُمَر فذكره[(٥)]. وعند ابن ماجه من طريق يزيد بن أبي زياد بن أبي الجعد، عن زُبَيد، عن عبد الرحمن، عن كعب بن عُجْرَةَ، عن عمر، به[(٦)]. فالله أعلم.

وقد روى مسلم في صَحِيحه، وأبو داودَ، والنسائي، وابن ماجه، من حديث أبي عوانة الوضَّاح بن عبد الله اليشكري، زاد مسلم والنسائي: وأيوب بن عائذ، كلاهما عن بُكَير بن الأَخْنَسِ، عن مجاهد، عن عبد الله

---

(١) فتح الباري، كتاب تقصير الصلاة ٢/ ٥٦٣، وكتاب الحج ٣/ ٥٠٩، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٤٨٣.

(٢) الموطأ، كتاب قصر الصلاة في السفر ١٤٦، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٤٧٨، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ٣. والنسائي، كتاب الصلاة ١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٣) مسند أحمد ١/ ٢٣٧، وسنن النسائي، كتاب تقصير الصلاة في السفر ٣/ ١١٨، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٣٨، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الجمعة ٤/ ١٩٧.

(٤) مسلم، المقدمة ٣٤.

(٥) مسند أبي يعلى ١/ ٢٠٧. وفيه يروي ابن أبي ليلى عن عُمَر رضي الله عنه.

(٦) سنن ابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٣٨.

ابن عباس قال: فَرَض الله الصلاةَ على لسانِ نَبِيِّكم في الحَضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوفِ ركعةً، فكما يصلى في الحضر قبلها وبعدها، فكذلك يصلى في السفر(١).

ورواه ابنُ ماجه من حديثِ أسامةَ بن زيد، عن طاوس نفسه(١).

فهذا ثابتٌ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ولا ينافي ما تقدَّم عن عائشة، لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان، ولكن زِيدَ في صلاة الحضر، فلما استقر ذلك صَحَّ أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع، كما قال ابن عباس، والله أعلم. لكن اتفق حديثُ ابن عباس وعائشةَ أن صلاة السفر ركعتان، وأنها تامَّةٌ غيرُ مقصورةٍ، كما هو مُصَرَّح به في حديث عمر رضي الله عنه، وإذا كان كذلك، فيكون المرادُ بقوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ قَصْرَ الكيفية كما في صلاةِ الخوف، ولهذا قال: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾. . . الآية ولهذا قال بعدها: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾. . . الآية، فبين المقصود من القصر ها هنا وذكر صفته وكيفيته، ولهذا لما عقد البخاري كتاباً لصلاةِ الخوفِ، صَدَّره بقوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ إلى قوله: ﴿إن الله أَعَدَّ للكافرين عذاباً مُهيناً﴾(٢).

وهكذا قال جُويبرٌ، عن الضحّاك في قوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصُروا من الصلاة﴾ قال: ذاك عند القتال، يُصَلِّي الرجلُ الراكبُ بتكبيرتين حيث كان وجهه.

وقال أسباط، عن السدِّيِّ في قوله: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم﴾. . . الآيـة: إن الصلاة إذا صُلِّيت ركعتينِ في السفر فهي تَمامٌ، والتقصيرُ لا يَحِلُّ، إلا أن تخافَ من الذين كفروا أن يفتِنُوكَ عن الصلاة، فالتقصير ركعةٌ(٣).

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهدٍ: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ يوم كان النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه بعُسْفان والمشركون بضَجْنان، فتواقَفُوا، فصلى النبي ـ ﷺ ـ بأصحابه صلاةَ الظهر أربعَ ركعات، ركُوعُهم وسجُودُهم وقيامُهم معاً جميعاً، فهَمّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم.

روى ذلك ابن أبي حاتم. ورواه ابن جَرير(٤)، عن مجاهد والسدِّي، وعن جابر وابن عُمَر، واختار ذلك أيضاً، فإنه قال بعد ما حكاه من الأقوال في ذلك: وهو الصواب.

وقال ابن جَرير: حدثني محمدُ بنُ عبدِ الله بن عبدِ الحَكَم، حدثنا ابن أبي فَدِيك، حدثنا ابنُ أبي ذِئْبٍ، عن ابن شهاب، عن أُمَيَّةَ بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد: أنه قال لعبد الله بن عُمَر: إنا نجد في كتاب الله قصرَ صلاةِ الخوفِ، ولا نجد قصر صلاةِ المسافرِ؟ فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ـ ﷺ ـ يعمل عملاً عَمِلنا(٤) به.

فقد سَمَّى صلاة الخوف مقصورة، وحمل الآية عليها، لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عُمَر على ذلك، واحتجَّ على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع، لا بنص القرآن.

وأصرحُ من هذا ما رواه ابنُ جَريرٍ أيضاً:

---

(١) مسلم، كتاب صلاة المسافرين ٤٧٩، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ١٧، والنسائي، كتاب صلاة الخوف ٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٣٩ ـ ٣٤١.

(٢) فتح الباري، كتاب الخوف ٢/ ٤٣٩.

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٤٧.

(٤) تفسيرَ الطبري ٥/٢٥٤.

حدثني أحمدُ بن الوليد القرشي، حدثنا محمَّد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن سماكٍ الحنفي: سألت ابن عُمر عن صلاة السفر، فقال: ركعتان تَمامٌ غير قَصْرٍ، إنما القصرُ صلاةُ المخافةِ. فقلتُ: وما صلاةُ المخافةِ؟ فقال: يُصَلِّي الإمام بطائفةٍ ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلي بهم ركعة، فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعةٌ ركعةٌ[١].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

صلاةُ الخوف أنواعٌ كثيرة؛ فإن العدوّ تارة يكون تُجاهَ القبلةِ، وتارةً يكون في غير صَوْبها، والصلاةُ تارةً تكون رُباعيةً وتارةً ثُلاثيةً كالمغرب، وتارة ثنائية، كالصبح وصلاة السَّفَرِ، ثم تارةً يصلُّون جماعةً، وتارة يلتحمُ الحربُ فلا يقدرون على الجماعة، بل يُصلُّونَ فرادى مستقبلي القبلةِ وغيرَ مُستقبليها، ورجالاً وركباناً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضربَ المتتابعَ في متنِ الصلاة.

ومن العلماءِ من قال: يصلون والحالة هذه ركعةً واحدةً؛ لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمدُ بن حنبل. قال المنذري في الحواشي: وبه قال عطاءٌ، وجابرٌ، والحسن، ومجاهد، والحكم، وقتادة، وحماد. وإليه ذهب طاوسٌ والضحاك.

وقد حكى أبو عاصم العَبَّادِيُّ[٢]، عن محمد بن نَصْرٍ المروزيِّ أنه يرى رَدّ الصبح إلى ركعةٍ في الخوف. وإليه ذهب ابنُ حزمٍ أيضاً.

وقال إسحاقُ بن راهويه: أما عند المسايفة فيجزيك ركعةٌ واحدةٌ، تومِىء بها إيماءً، فإن لم تقدر فسجدةٌ واحدةٌ، لأنها ذكر الله.

وقال آخرون: تكفي تكبيرةٌ واحدة. فلعله أراد ركعةً واحدةً، كما قاله أحمدُ بن حنبل وأصحابه وبه قال جابرٌ وابن عُمَرَ والسدِّيُّ. رواه ابن جرير[١]، ولكن الذين حَكَوه إنما حَكَوه على ظاهره في الاجتزاءِ بتكبيرةٍ واحدةٍ، كما هو مذهبُ إسحاق بن راهويه، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بُخْتٍ المكي، حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يَتْرُكْها في نفسه، يعني بالنيَّةِ، رواه سعيد بن منصور في سننه عن إسماعيل بن عياش، عن شُعَيب بن دينارٍ، عنه. فالله أعلم.

ومن العلماءِ مَن أباحَ تأخيرَ الصلاةِ لعذر القتالِ والمناجزة، كما أخر النبي ـ ﷺ ـ يوم الأحزاب صلاة العصر، قيل: والظهر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صَلَّى بعدهما المغرب ثم العشاء. وكما قال بعدها يومَ بني قُرَيظَةَ، حين جَهَّزَ إليهم الجيشَ: «لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ منكم العصرَ إلا في بني قُرَيظَةَ. فأدركتهم الصلاةُ في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يُرِد منا رسول الله ـ ﷺ ـ إلا تعجيل المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن

(١) تفسير الطبري ٥/٢٤٧.
(٢) هو الإمام القاضي محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله العبَّادي الهروي، مترجم في طبقات الشافعية ٤/ ١٠٤، عاش بين سنتي ٣٧٥ـ ٤٥٨ هـ. وأما محمد بن نصر المروزي فأحد أعلام الأمة وعبادها، وهو مترجم في طبقات الشافعية ٢/ ٢٤٦، توفي سنة ٢٩٤ هـ.

وقتها. فَصَلَّوا الصلاةَ لوقتها في الطريق، وأخَّر آخرون منهم العَصْرَ، فصلُّوها في بني قُرَيظَةَ بعد الغروب، ولم يُعنِّف رسولُ الله ـ ﷺ ـ أحداً من الفريقين(١). وقد تكلَّمنا على هذا في كتاب السِّيرَة، وبيَّنا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقربُ إلى إصابةِ الحقِّ في نفس الأمر، وإن كان الآخرونَ معذورينَ أيضاً، والحجَّةُ ها هنا في عُذْرِهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد، من الطائفة الملعونة اليهود. وأما الجمهورُ فقالوا: هذا كله منسوخٌ بصلاةِ الخوفِ، فإنها لم تَكُن نزلت بعد، فلما نَزَلَت نُسِخَ تأخيرُ الصلاة لذلك، وهذَا بيِّن في حديث أبي سعيد الخدري، الذي رواه الشافعي وأهل السُّنَنِ، ولكن يُشْكِل على هذا ما حكاه البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه، حيث قال:

«بابُ الصلاة عند مناهَضَةِ الحُصُونِ ولقاءِ العدُوِّ: قال الأوزاعيُّ: إن كان تَهَيَّأَ الفتحُ ولم يقدِرُوا على الصلاة، صلُّوا إيماءً، كلُّ امرىءٍ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماءِ أَخَّروا الصلاةَ حتى ينكشفَ القتالُ، أو يأمَنُوا فَيصلُّوا ركعتين. فإن لم يقدِرُوا صَلُّوا ركعةً وسجدَتَين، فإن لم يَقدروا لا يجزئُهم التكبير، ويؤخروها حتى يأمنوا. وبه قال مكحولٌ، وقال أنس بن مالك: حَضَرْتُ مناهَضَةَ حِصْنِ تُسْتَرَ عند إضاءةِ الفجر، واشتدَّ اشتعالُ القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نُصَلِّ إلا بعد ارتفاع النهارِ، فَصَلَّيناها ونحنُ مع أبي موسى، فَفُتِحَ لنا، قال أنس: وما يسرُّني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها»(٢).

انتهى ما ذكره، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزابِ، ثم بحديث أمرِه إياهم أن لا يصلُّوا العَصْرَ إلا في بني قُرَيظَةَ، وكأنه كالمختار لذلك، والله أعلم.

ولمن جَنَح إلى ذلك أن يحتجَّ بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تُسْتَرَ، فإنه يشتَهِرُ غالباً، ولكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب، ولم ينقل أنه أنكر عليهم، ولا أحدٌ من الصحابة، والله أعلم.

قال هؤلاء: وقد كانت صلاةُ الخوف مشروعةً في الخندق؛ لأن ذاتَ الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي، وممن نصّ على ذلك محمدُ بن إسحاقَ، وموسى بن عقبة، والواقدي(٣) ومحمد بن سعد كاتبه، وخليفة بن خياط وغيرهم. وقال البخاري وغيره: كانت ذات الرقاع بعد الخندق، لحديث أبي موسى وما قَدِم إلا في خَيبر(٤)، والله أعلم. والعجبُ كلُّ العجب أن المُزَنيَّ، وأبا يوسفَ القاضِي، وإبراهيمَ بن إسماعيلَ بـن عُلَيَةَ ذهبوا إلى أنَّ صلاة الخوف منسوخةٌ بتأخيره ـ عليه السلام ـ الصلاةَ يوم الخندق. وهذا غريبٌ جداً، وقد ثبتت الأحاديثُ بعد الخندقِ بصلاةِ الخوفِ، وحَمْلُ تأخيرِ الصلاةِ يومئذٍ على ما قاله مكحولٌ والأوزاعيُّ أقوى وأقربُ، والله أعلم.

فقولُه تعالى: ﴿وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاة﴾ أي: إذا صَلَّيتَ بهم إماماً في صلاة الخوفِ، وهذه حالةٌ غير الأولى، فإن تلك قَصرها إلى ركعة، كما دَلَّ عليه الحديث، فرادى ورجالاً وركباناً، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. ثم ذكر حالَ الاجتماع والائتمام بإمام واحد. وما أحسنَ ما استدلَّ به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتُفِرَتْ أفعالٌ كثيرةٌ لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبةٌ لما ساغَ ذلك، وأما من استدلَّ بهذه الآية على أن صلاةَ الخوفِ منسوخةٌ بعد النبي ـ ﷺ ـ لقوله: ﴿وإذا كنتَ فيهم﴾ فبعدَه تفوت

---

(١) فتح الباري، كتاب الخوف ٢/ ٤٣٦، وكتاب المغازي ٧/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨. ومسلم، كتاب الجهاد والسير ١٣٩١.
(٢) فتح الباري، كتاب الخوف ٢/ ٤٣٤.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٣، ومغازي الواقدي ٨، ٣٩٥.
(٤) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/ ٤١٦ ـ ٤١٧.

هذه الصفة - فإنه استدلالٌ ضعيف ويُرَدّ عليه، مِثْلُ قول مانعي الزكاة، الذين احتجُّوا بقوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ قالوا: فنحن لا ندفع زكاتنا بعده - ﷺ - إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته، أي: دعاؤه، سكن لنا ومع هذا رَدَّ عليهم الصحابة وأبَوا عليهم هذا الإستدلال، وأجبَرُوهُم على أداءِ الزكاةِ، وقَاتلُوا من مَنَعها منهم.

وَلْنَذكُر سببَ نزولِ هذه الآيةِ الكريمةِ أوّلاً قبلَ ذِكْرِ صفتها:

قال ابن جرير: حدثني المثنى: حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الله بن هاشم، أنبأنا سيف، عن أبي رَوْق، عن أبي أيوب، عن علي - رضي الله عنه - قال: سأل قومٌ من بني النجّار رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا رسول الله، إنا نضربُ في الأرض، فكَيف نُصلِّي؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾. ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحَوْل غزا النبي - ﷺ - فصلى الظّهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظُهُورِهم، هلا شَدَدْتُم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلَها في إثْرِها. قال فأنزل الله - عز وجل - بين الصلاتين: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ . . . الآيتين، فنزلت صلاة الخوف[1].

وهذا سياقٌ غريب جداً، ولكن لبعضِه شاهدٌ من رواية أبي عياش الزُّرَقِي، واسمه زيدُ بنُ الصامِتَ - رضي الله عنه - قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا الثَّوريُّ، عن منصور، عن مجاهد، عن أبي عَيّاشٍ قال: كنا مع رسول الله - ﷺ - بعُسْفان، فاستقبَلَنا المشركون، عليهم خالدُ بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي - ﷺ - الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أَصَبْنا غِرَّتهم. ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريلُ بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ﴾. قال: فحضرت فأمرهم النبي - ﷺ - فأخذوا السلاحَ، فَصَفَّنا خلفه صَفَّين، قال: ثم ركع فَركعنا جميعاً، ثم رَفَع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي - ﷺ - بالصفِّ الذي يليه والآخرون قيامٌ يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جَلَسَ الآخرون فَسجدوا في مكانهم ثم تقدَّم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، ثم رَكَع فركَعوا جميعاً، ثم رَفَع فرفَعُوا جميعاً، ثم سَجَد النبي - ﷺ - والصَفُّ الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جَلَسُوا جَلَس الآخرون فَسَجَدُوا، ثم سَلَّم عليهم، ثم انصرفَ. قال: فَصلَّاها رسولُ الله - ﷺ - مرتين: مَرَّة بعُسْفَان، ومَرَّةً بأرض بني سُلَيم[1].

ثم رواه أحمدُ، عن غُندَرٍ، عن شُعبَةَ، عن منصور، به نحوَه[1]. وهكذا رواه أبو داود[1]، عن سعيد بن منصور، عن جرير بن عبد الحميد، والنسائي من حديث شعبة وعبد العزيز بن عبد الصمد، كلهم عن منصور، به[1].

وهذا إسناد صحيح، وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري حيث قال:

حدثنا حَيوَةُ بن شُرَيح، حدثنا محمد بن حرب، عن الزُّبيدي، عن الزُّهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتْبَة، عن ابن عباس قال: قام النبي - ﷺ - وقام الناس معه، فكبَّر وكَبَّروا معه، وركَعَ وركَعَ ناسٌ منهم، ثم سَجَدَ وسَجَدُوا معه، ثم قام الثانية فقام الذين سَجدوا، وحَرَسُوا إخوانهم، وأتت الطائفةُ الأخرى فركَعُوا

(١) تفسير الطبري ٥/ ٢٤٤. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ١١ - ١٢، وسنن النسائي، كتاب صلاة الخوف ٣/ ١٧٦ - ١٧٨.

وسَجَدُوا معه، والناسُ كلُّهم في الصلاة، ولكن يحرُسُ بعضهم بعضاً[١].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادة، عن سليمان اليَشْكُرِيِّ: أنه سأل جابر بن عبد الله عن إقصار الصلاة: أيَّ يوم أُنزل؟ أو: أيَّ يوم هُو؟ فقال جابر: انطلقنا نتلقى عِير قُرَيش آتيةً من الشام، حتى إذا كنا بنَخْل[٢] جاء رجلٌ من القوم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا محمد. قال: نعم. قال: هل تخافني؟ قال: لا. قال: فما يمنعُكَ منّي؟ قال: الله يمنعني منك. قال: فَسَلَّ السيفَ ثم تهدَّده وأوعدَه، ثم نادى بالترحل وأخذ السلاح، ثم نُودِي بالصلاة، فصلَّى رسول الله ـ ﷺ ـ بطائفة من القوم وطائفةٌ أخرى تحرسهم. فصلى بالذين يَلُونه ركعتين، ثم تأخر الذين يلونه على أعقابهم فقاموا في مصافِّ أصحابهم، ثم جاء الآخرون فصلَّى بهم ركعتين والآخرون يحرسونهم، ثم سلم. فكانت للنبي ـ ﷺ ـ أربع ركعات، وللقوم ركعتين ركعتين. فيومئذ أنزل الله في إقصار الصلاة وأمر المؤمنين بأخْذ السلاح[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيجٌ، حدثنا أبو عوانةَ، عن أبي بشر، عن سليمانَ بن قيس اليَشْكُرِيِّ، عن جابر بن عبد الله قال: قاتلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ محارب خَصفَةٍ، فجاء رجلٌ منهم يقال له: «غَوْرَثُ بـن الحارث» حتى قام على رسول الله ـ ﷺ ـ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله. فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ومن يمنعك مني؟ قال: كن خيرَ آخذٍ. قال: أتشهد أن لا إلَه إلا الله وأني رسول الله؟ قال: لا. ولكني أعاهدك ألَّا أقاتِلَكَ ولا أكونَ مع قوم يُقاتِلُونَكَ. فَخَلَّى سَبيله، فأتى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس. فلما حضرت الصلاة ـ صلَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ صلاة الخوفِ، فكان الناس طائفتين: طائفةٌ بإزاء العدو، وطائفة صَلُّوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين، وانصرفوا، فكانوا بمكان أولئك الذين بإزاءِ عَدُوِّهم. وانصرف الذين بإزاء عَدُوِّهم فَصَلُّوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ ركعتين، فكان لرسول الله ـ ﷺ ـ أربع ركعات، وللقومِ ركعتينِ ركعتين.

تفرد به من هذا الوجه[٤].

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثنا أحمدُ بن سِنانٍ، حدثنا أبو قطن عَمْرو بن الهيثم، حدثنا المسعودي، عن يزيد الفقير قال: سألت جابر بن عبد الله عن الركعتين في السفر: أقصرهما؟ قال: الركعتان في السفر تمامٌ، إنما القصر واحدة عند القتالِ، بينما نحنُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ في قتالٍ إذْ أُقِيمَت الصلاةُ، فقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَصَفَّ طائفةً، وطائفةٌ وَجْهُها قِبَلَ العدو، فصلَّى بهم ركعةً وسجَدَ بهم سجدتين، ثم الذين خَلَفُوا انطلقوا إلى أولئك فقاموا مقامهم ومكانهم نحو ذا، وجاء أولئك فقاموا خَلْفَ رسول الله ـ ﷺ ـ فصلَّى بهم ركعةً وسَجَد بهم سجدتين، ثم إن رسول الله ـ ﷺ ـ جلس وسلم، وسَلَّم الذين خلفه، وسَلَّم أولئك، فكانت لرسول الله ـ ﷺ ـ ركعتين، وللقومِ ركعةً ركعةً، ثم قرأ: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن الحكم، عن يزيدَ الفقير، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ـ ﷺ ـ صلَّى بهم صلاةَ الخوفِ، فقام صَفٌّ بين يديه، وصفٌّ خلفه، فصلى بالذي خَلْفَه ركعة وسجدَتينِ، ثم تقدَّم هؤلاءِ حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك حتى قامُوا مقامَ هؤلاء،

(١) فتح الباري، كتاب الخوف ٢/ ٤٣٣.
(٢) نَخْل: قرية لبني فزارة بن عوف، على بعد ليلتين من المدينة.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٤٦.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٩٠.

فَصلَّى بهم رسولُ الله - ﷺ - ركعة وسجدتين، ثم سَلَّم. فكانت للنبي - ﷺ - ركعتين ولهم ركعةً[١].

ورواه النسائي من حديث شعبة[١] ولهذا الحديث طُرقٌ عن جابر، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر بلفظ آخر[١]. وقد رواه عن جابر جماعةٌ كثيرون في الصحيح والسنن والمسانيد.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نُعيم بن حَمَّادٍ، حدثنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا معمَرٌ، عن الزُّهريِّ، عن سالم، عن أبيه قال: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ قال: هي صلاة الخوف، صَلَّى رسول الله - ﷺ - بإحدى الطائفتين ركعةً، والطائفة الأخرى مقبلةٌ على العدو، وأقبلت الطائفةُ الأخرى التي كانت مقبلةً على العدو فصلى بهم رسولُ الله - ﷺ - ركعةً أخرى، ثم سَلَّم بهم، ثم قامت كلُّ طائفةٍ منهم فصلَّت ركعةً ركعةً.

وقد روى هذا الحديث الجماعةُ في كتبهم من طريق معمر[٢]، به. ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة، وقد أجاد الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في سَرْدِ طُرُقه وألفاظه، وكذا ابنُ جرير، وَلْنُحرِّره في كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله، وبه الثقةُ.

وأما الأمرُ بحمل السلاح في صلاةِ الخوفِ، فمحمولٌ عند طائفةٍ من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولَي الشافعيِّ، ويدلّ عليه قولُه: ﴿ولا جناحَ عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم﴾ أي: بحيث تكونون على أُهبةٍ إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

يأمر الله تعالى بكثرةِ الذِّكر عقيبَ صلاةِ الخوف، وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن ها هنا آكد، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يُوجَدُ في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فلا تظلموا فيهنَّ أنفسكم﴾ - وإن كان هذا منهيّاً عنه في غيرها، ولكن فيها آكد، لِشدَّةِ حُرْمَتها وعِظَمِها، ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾، أي: في سائر أحوالكم.

ثم قال: ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاةَ﴾ أي: فإذا أَمِنتم وذَهَب الخوف، وحَصَلتِ الطمأنينة ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي: فأتموها وأقيموها كما أمرتم بِحدودها، وخشوعها، وسجودها وركوعها، وجميع شؤونها.

وقولُه: ﴿إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾، قال ابن عباس: أي مفروضاً. وكذا رُوِيَ عن مجاهدٍ، وسالم بن عبد الله وعلي بن الحُسَين، ومحمد بن علي، والحسن، ومقاتل، والسدِّيِّ، وعطيةَ العوفيِّ.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ قال ابن مسعود: إن للصلاة وقتاً كوقتِ الحجِّ.

(١) مسند أحمد ٣/ ٢٩٨، وسنن النسائي، كتاب صلاة الخوف ٣/ ١٧٤ - ١٧٥، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٧٤ - ٥٧٥.
(٢) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/ ٤٢٢، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٧٤.

وقال زيدُ بن أسلَم: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ قال: منجَّماً، كُلَّما مضى نجمٌ جاء نجمٌ، يعني: كلما مضى وقتٌ جاء وقتٌ.

وقولُه: ﴿ولا تهِنُوا في ابتغاء القوم﴾ أي: لا تضعُفُوا في طَلَب عَدُوِّكم، بل جِدُّوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كلَّ مرصد ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾ أي: كما يُصيبكم الجراحُ والقتلُ، كذلك يحصلُ لهم، كما قال: ﴿إن يَمْسَسْكُم قرحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثله﴾.

ثم قال: ﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ أي: أنتم وإياهم سواءٌ فيما يُصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجونَ من الله المثوبةَ والنصرَ والتأييدَ، وهم لا يرجونَ شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهادِ منهم، وأشدُّ رغبةً في إقامة كلمة الله وإعلائها.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي: هو أعلمُ وأحكَمُ فيما يقدِّره ويَقضِيه، ويُنْفِذُه ويُمضِيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمودُ على كلِّ حالٍ.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخاطباً لرسوله محمد ـ ﷺ ـ: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ﴾ هو حقٌّ من الله، وهو يتضمَّن الحقَّ في خَبَرِه وطَلَبه.

وقولُه: ﴿لتحكُمَ بين الناس بما أراكَ الله﴾ احتجَّ به من ذَهَبَ من عُلَماء الأصول إلى أنه كان ـ عليه السلام ـ له أن يحكُمَ بالاجتهاد بهذه الآية، وبمَا ثبتَ في الصحيحين من رواية هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن زينبَ بنتِ أمِّ سلمةَ، عن أمِّ سلمةَ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ سَمع جَلَبَةَ خَصْمٍ بباب حُجْرَته، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بَشَرٌ، وإنما أقضِي بنحو مما أسمعُ، ولعلَّ أحدكم أن يكون ألحَنَ بحجَّتِه من بعض، فأقضي له، فمن قضيتُ له بحقِّ مسلم فإنما هي قطعةٌ من نار فَلْيحمِلْها أو لِيَذَرْها»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، حدثنا أسامةُ بن زيدٍ، عن عبد الله بن رافع، عن أُمِّ سلمةَ قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ـ ﷺ ـ في مواريثَ بينهما قد دَرَسَتْ، ليس عندهما بينةٌ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولعلَّ بعضكم ألحَنَ بحُجَّتِهِ من بعضٍ، وإنما أقضي بينكم على نحوِ ممَّا أسمع، فمن قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً فلا يأخذه؛ فإنما أقطعُ له قطعةً من النار، يأتي بها إسطاماً في عُنُقه يوم القيامة. فبكى الرجلان وقال كل منهما: حَقِّي لأخي. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما، ثم تَوخَّيا الحق، ثم استَهِما، ثم لِيُحْلِلْ كلُّ واحد منكما صاحبَه»(٢).

(١) فتح الباري، كتاب الشهادات ٥/ ٢٨٨، ومسلم، كتاب الأقضية ١٣٣٧. ألحن: أبلغ وأعلم بالحجة.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٣٢٠، وسنن أبي داود، كتاب الأقضية ٣/ ٣٠١ ـ ٣٠٢. إسطاماً، ويروى «سِطاماً»: هي الحديدة التي تحرّك بها النار وتُسْعر. والمراد: أقضي له ما يسعر به النار على نفسه ويشعلها.

وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد، به، وزاد: «إني إنما أقضي بينكما برأيٍ فيما لم ينزل علي فيه»[١].

وقد روى ابن مَرْدُويه، من طريق العَوْفيِّ، عن ابن عباس قال: إن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في بعض غزواته، فسُرِقَتْ دِرْعٌ لأحدهم، فأُظِنَّ بها رجلٌ من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: إن طعمة بن أُبَيرقٍ سَرَق درعي، فلما رأى السارقُ ذلك عَمَد إليها فألقاها في بيت رجل بريءٍ، وقال لنفر من عَشيرته: إني غَيَّبْتُ الدِّرع وألقيتها في بيت فلان، وستُوجَدُ عنده. فانطَلَقوا إلى نبي الله ـ ﷺ ـ ليلاً، فقالوا: يا نبي الله، إنَّ صاحبنا بريء. وإن صاحب الدِّرع فلانٌ، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذُرْ صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه. فإنه إنْ لاَ يَعْصِمه الله بكَ يهلِكْ، فقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فبرَّأه وعَذره على رؤوس الناس، فأنزل الله: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ لتحكُمَ بين الناس بما أراكَ الله ولا تَكُن للخائنين خَصِيماً، واستغفر الله إنَّ الله كَانَ غفوراً رحيماً، ولا تجادلْ عن الذين يختانُون أنفسَهُم﴾ . . . الآية . . ثم قال للذين أتوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ مُسْتَخْفين بالكَذِب: ﴿يَسْتَخْفُون من الناس ولا يستَخْفُون من الله﴾ . . . الآيتين. يعني الذين أتوا رسول الله ـ ﷺ ـ مُسْتَخفين يجادلون عن الخائنين، ثم قال: ﴿ومن يَعْمَل سوءاً أو يَظلِمْ نفسه﴾ . . . الآية، يعني: الذين أتوا رسول الله ـ ﷺ ـ مستخفين بالكذب، ثم قال: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ يعني: السارقَ والذين جادلوا عن السارق.

وهذا سياقٌ غريبٌ، وكذا ذكر مجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ، والسدِّيُّ، وابنُ زيدٍ وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في سارق بني أُبيرقٍ على اختلاف سياقاتهم، وهي متقاربةٌ.

وقد روى هذه الصِّفَةَ محمد بن إسحاقَ مطولةً، فقال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية من جامعه، وابن جرير في تَفْسِيره:

حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شُعَيبٍ أبو مسلم الحرَّانيُّ، حدثنا محمد بن سَلَمَة الحَرَّانيُّ، حدثنا محمد ابن إسحاقَ، عن عاصم بن عُمَر بن قتادَةَ، عن أبيه، عن جَدِّه قَتَادة بنِ النعمان قال: كان أهل بيتٍ منا يقال لهم: بَنُو أُبيرقٍ: بِشْر وبُشَير ومُبَشِّر، وكان بُشَير رجلاً منافقاً، يقولُ الشِّعر يهجُو به أصحابَ النبي ـ ﷺ ـ ثم يَنحلُه بعضَ العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشِّعرَ إلا هذا الخبيثُ[٢]، ؟ ـ أو كما قال: الرجلُ[٣] ـ وقالوا: ابنُ الأبيرق قالها. قالوا: وكانوا[٤] أهل بيتِ حاجةٍ وفاقةٍ في الجاهليةِ والإسلام، وكان الناسُ إنما طعامُهم بالمدينة التمرُ والشعيرُ، وكان الرجل إذا كان له يَسار فَقَدِمت ضافِطَةٌ[٥] من الشام من الدَّرْمَك ابتاع الرجلُ منها فخصَّ بها نَفْسَه، وأمَّا العيالُ فإنما طعامُهُم التمرُ والشعيرُ، فَقَدِمَت ضَافطَةٌ من الشام، فابتاع عمي رفاعةُ بن زيدٍ حمْلاً من

(١) المصدر السابق.

(٢) بعده في تفسير الطبري: «فقال:

أو كلَّما قال الرجال قصيدةً أَضِمُوا وقالوا: ابنُ الأبيرق قالها

وأَضِمُوا: غَضِبُوا.

(٣) شك الراوي بين لفظ «الخبيث» ولفظ «الرجل».

(٤) أي: بنو الأبيرق.

(٥) الضافطة: قوم من الأنباط كانوا يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما.

والدرمك: الدقيق النقي الأبيض.

الدَّرمك فَحطَّه في مَشْرَبة(١) له، وفي المشرَبةِ سلاحٌ وَدِرْعٌ وسيف، فَعُدِيَ عليه من تحت البيت، فَنُقِبت المشرَبَةُ وأخذ الطعامُ والسلاحُ. فلما أصبح أتاني عَمِّي رفاعة فقال: يا ابن أخي، إنه قد عُدِيَ علينا في ليلتنا هذه، فنُقِبَتْ مشربتنا وذُهِب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتجسَّسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرقٍ استوقَدُوا في هذه الليلة، ولا نُرَى فيما نُرَى إلا على بعض طعامكم.

قال: وكان بنو أُبَيرِقٍ قالوا ـ ونحن نسأل في الدار ـ: والله ما نُرَى صاحبكم إلا لَبيدَ بن سهل؟ رجلٌ منا له صلاحٍ وإسلام. فلما سَمِع لبيدٌ اخترطَ سيفَه وقال: أنا أسرق؟ والله ليخالطنَّكم هذا السيف، أو لَتُبيِّنَنّ هذه السرقةَ. قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نَشُكَّ أنهم أصحابها.

فقال لي عمِّي: يا ابنَ أخي، لو أتيتَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فذكرتَ ذلك له؟ قال قتادةُ: فأتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقلتُ: إن أهلَ بيت منا أهلَ جفاءٍ عَمَدُوا إلى عَمّي رفاعةَ بن زيد، فَنَقَبوا مَشْرَبَةً له، وأخذوا سلاحَه وطعامه. فَلْيردّوا علينا سلاحَنا، فأما الطعامُ فلا حاجةَ لنا فيه. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «سآمُرُ في ذلك».

فلما سَمِع بنو أبَيرق أتوا رَجُلاً منهم يقال له: أُسَير بن عُرْوةَ، فَكَلَّموه في ذلك، فاجتَمع في ذلك أناسٌ من أهل الدار فقالوا: يا رسولَ الله، إن قتادةَ بن النعمانِ وعَمَّه عَمَدا إلى أهلِ بيت منا أهل إسلامٍ وصلاحٍ، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيتُ النبي ـ ﷺ ـ فكلمتُه، فقال: «عَمَدْتَ إلى أهل بيت ذُكِرَ منهم إسلامٌ وصلاح تَرْمِيهم بالسرقة على غير ثَبَتٍ ولاَ بَيِّنَةٍ؟!».

قال: فرجعت ولَوَددتُ أني خَرَجت من بعض مالي ولم أُكَلِّم رسول الله ـ ﷺ ـ في ذلك، فأتاني عَمِّي [رفاعةُ] فقال: يا ابن أخي، ما صنعتَ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: الله المستعان. فلم نَلْبَثْ أن نَزَلَ القرآنُ: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ لتحكُمَ بين الناس بما أراكَ الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ بني أبيرق ﴿واستغفر الله﴾ مما قُلْتَ لقتادة: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً، ولا تجادِلْ عن الذين يختانون أنفسهم﴾ إلى قوله ﴿رحيماً﴾ أي لو استغفروا الله لغَفَر لهم ﴿ومن يكسِبْ إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾ إلى قوله: ﴿إثماً مبيناً﴾ قولُهم للبيد ﴿ولولا فضلُ الله عليك ورحمتُه﴾ إلى قولِهِ: ﴿فسوف نُؤتيه أجراً عظيماً﴾.

فلما نَزَلَ القرآنُ أتيَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ بالسلاح فَرَدَّه إلى رفاعة.

فقال قتادة: لما أتيتُ عمي بالسلاح وكان شيخاً، قد عَشَا أو عَسَا(٢) ـ الشك من أبي عيسى ـ في الجاهلية وكنتُ أُرَى إسلامَه مدخولاً(٣) فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابنَ أخي، هو في سبيل الله. فعرفتُ أنَّ إسلامَه كان صحيحاً، فلما نزل القرآنُ لَحِق بُشَيرٌ بالمشركين، فَنَزل على سُلافَة بنتِ سعد بن سُمَيَّة، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن يُشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى وَيتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولى ونُصْله جهَنَّم وساءت مَصيراً، إن الله لا يغفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضَلَّ ضلالاً بعيداً﴾. فلما نَزَلَ على سلافةَ رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رَحْلَه فوضَعتْه على رأسها، ثم خرجَتْ به فَرَمَت به في الأبطَحِ، ثم قالت: أهديتَ لي شِعْرَ حسان، ما كُنْتَ تأتيني بخير(٤)؟

لفظُ الترمذيِّ، ثم قال الترمذيُّ: «هذا حديثٌ غريبٌ لا نعلَم أحداً أسنده غَيْرَ محمَّدِ بن سَلَمَةَ الحَرّاني،

(١) أي: غرفة.

(٢) عسا: كَبِر وأسَنَّ. وعشا: ضعف بصره.

(٣) أي فيه دَخَلٌ، وهو: العيب والفساد. يريد أنه كان فيه نفاق.

(٤) انظر ديوانه ٢٨٥ ـ ٢٨٦، والمستدرك ٤/ ٣٨٧، وسيرة ابن هشام ١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

ورَوَى يونُس بن بُكَير وغيرُ واحد، عن محمد بن إسحاقَ، عن عاصم بن عُمَر بن قتادَةَ مرسلاً، لم يذكَرُوا فيه: عن أبيه عن جَدِّه»[١].

ورواه ابن أبي حاتم عن هاشم بن القاسم الحَرّاني، عن محمد بن سَلَمة، به بِبَعْضِهِ.

ورواه ابنُ المنذر في تفسيره: حدثنا مُحمَّد بن إسماعيل ـ يعني الصائغ ـ حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحَرَّاني، حدثنا محمد بن سَلَمة ـ فذكره بطوله.

ورواه أبو الشيخ الأصبهانيُّ في تفسيرِهِ، عن محمدِ بن العباس بن أيوب والحسن بن يعقوب، كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شُعَيب الحراني، عن محمد بن سَلَمة ـ به. ثم قال في آخره: قال محمد بن سلمة: سَمِع مني هذا الحديث يحيى بن معين وأحمدُ بن حنبل، وإسحاق بن إسرائيل.

وقد روى الحاكمُ أبو عبد الله النيسابوريُّ هذا الحديث في كتابه «المستدرك» عن أبي العباس الأصمِّ، عن أحمد بن عبد الجبار العُطَارِدِيِّ، عن يونس بن بُكَير، عن محمد بن إسحاق ـ بمعناه أَتَمَّ منه، وفيه الشعر، ثم قال: «وهذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه»[٢].

وقولُه: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفُون من الله﴾... الآية، هذا إنكارٌ على المنافقين في كونهم يسْتَخْفُون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويُجاهرون الله بها لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم. ولهذا قال: ﴿وهو معهم إذ يُبَيّتون ما لا يرضى من القول، وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ تهديد لهم ووعيد.

ثم قال: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾... الآية. أي: هَبْ أَنَّ هؤلاء انتصرُوا في الدنيا بما أبدوه أو أبدِيَ لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر ـ وهم مُتَعَبِّدون بذلك ـ فماذا يكون صنيعُهم يومِ القيامة بين يدي الله ـ عز وجل ـ الذي يعلم السرَّ وأخفى، ومن ذا الذي يتوكَّلُ لهم يومئذ في تَرْوِيجِ دعواهم؟ أي: لا أحدَ يكونُ يومئذ لهم وكيلاً، ولهذا قال: ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾؟

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن كَرَمه وجوده: أن كلَّ من تاب إليه تابَ عليه من أيِّ ذنبٍ كانَ، فقال تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾.

قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أنه قال في هذه الآية: أخبر الله عبادَه بحلْمِه وعَفْوه وكَرَمه، وسَعَة رحمته، ومَغْفِرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثم يستغفر الله يَجد الله غفوراً رحيماً﴾، ولو كانت

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١١/ ١٦٤ ـ ١٦٨، وتفسير الطبري ٥/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧.
(٢) المستدرك، كتاب الحدود ٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨.

ذنوبُه أعظَمَ من السمواتِ والأرضِ والجبالِ. رواه ابنُ جَريرٍ(١).

وقال ابنُ جَريرٍ أيضاً: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن أبي عَدِيٍّ، عن شعبةَ، عن عاصم، عن أبي وائلٍ قال: قالَ عبدُ الله: كان بنو إسرائيل إذا أصابَ أحدُهم ذنباً أصبحَ قد كُتِب كفارةُ ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البولُ شيئاً منه قَرَضه بالمقراض. فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيلَ خيراً، فقال عبدَ الله ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم، جعل الله الماءَ لكم طهوراً، وقال: ﴿والذين إذا فَعَلُوا فاحشةً أو ظَلَموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ وقال: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يَجِدِ الله غفوراً رحيماً﴾.

وقال أيضاً: حَدَّثني يعقوبُ، حَدَّثنا هُشَيم، حَدَّثنا ابن عَونٍ، عن حَبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأةٌ إلى عبد الله بن مُغَفَّلٍ، فسألته عن امرأةٍ فَجَرَتْ فَحَبِلَتْ، فلما وَلَدَتْ قَتَلَتْ ولدها؟ قال عبد الله بن مُغَفَّل: ما لها؟ لها النار! فانصرفَتْ وهي تبكي، فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحدَ أمرين: ﴿من يعملْ سوءاً أو يظلِمْ نفسَه ثم يستغفرِ الله يجدِ الله غفوراً رحيماً﴾. قال: فمسحَت عينها، ثم مضت.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الرحمن بن مهديٍّ، حدثنا شعبةُ، عن عثمانَ بن المغيرةِ قال: سمعت عليَّ بنَ ربيعةَ من بني أَسَدٍ يُحَدِّث عن أسماءَ ـ أو ابن أسماءَ من بني فزارة قال: قال علي ـ رضي الله عنه ـ: كنتُ إذا سَمِعتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعَني منه. وحَدَّثني أبو بكر ـ وصدقَ أبو بكر ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من مسلم يُذْنِبُ ذنباً ثم يَتوضأ فيصلِّي ركعتين، ثم يستغفِر الله لذلك الذنب إلا غَفَر له. وقرأ هاتين الآيتين: ﴿ومن يعملْ سوءاً أو يظلم نفسه﴾... الآية، ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾... الآية(٢).

وقد تَكَلَّمنا على هذا الحديث، وعَزيناه إلى من رواه من أصحاب السُّنن، وذَكَرنا ما في سنده من مقال في مسند أبي بكر الصديق، رضي الله عنه. وقد تقدم بعضُ ذلك في سورة آل عمران أيضاً(٣).

وقد رواه ابن مَرْدُويه في تفسيره من وجه آخر عن علي فقال: حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، حدثنا داود بن مهران الدباغ، حدثنا عمر بن يزيد، عن أبي إسحاق، عن عبد خير، عن علي قال: سَمِعتُ أبا بكر هو الصديق يقول: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما من عبدٍ أذنبَ فقامَ فتوضَّأ فأحسنَ وُضوءه، ثم قام فصلَّى واستغفر من ذنبه، إلا كان حقاً على الله أن يغفِرَ له، لأنه يقول ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾... الآية.

ثم رواه من طريق أبان بن أبي عياش، عن أبي إسحاق السَّبيعي، عن الحارث، عن علي، عن الصديق، بنحوه. وهذا إسنادٌ لا يَصِحُّ.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيم حدثنا أحمدُ بن حازم، حدثنا موسى بن مَرْوان الرقي، حدثنا مُبَشِّر بن إسماعيلَ الحلبي، عن تمام بن نَجِيحٍ، حَدَّثني كعبُ بن ذُهل الأَزْدِيُّ قال: سَمِعتُ أبا الدرداء يُحدِّث قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا جَلَسنا حوله، وكانت له حاجةٌ فقام إليها وأراد الرجوع، ترك نعليه في

(١) تفسير الطبري ٥/ ٢٧٣.
(٢) مسند أحمد ١/ ٨ ـ ٩.
(٣) انظر تفسير الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

مَجْلِسه أو بعضَ ما عليه، وإنه قام فترك نعليه ـ قال أبو الدرداء: فأخذ رَكْوَةً[١] من ماء فاتبعته، فمضى ساعة، ثم رجع ولم يقض حاجته، فقال: إنه أتاني آتٍ من ربِّي فقال: إنه: ﴿من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾، فأردت أن أُبَشِّر أصحابي. قال أبو الدرداء: وكانت قد شقَّت على الناس الآيةُ التي قبلها: ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ فقلت: يا رسولَ الله، وإن زنى وإن سَرَقَ، ثم استغفر ربه، غَفر له؟ قال: نعم. قلت الثانية، قال: نعم. قلت الثالثة، قال: نعم. وإن زَنى وإن سَرَقَ ثم استغفر الله غفر الله له على رَغْمِ أنف عُوَيمر[٢]. قال: فرأيتُ أبا الدرداء يضرب أنفَ نفسِه بأصبعه.

هذا حديثٌ غريب جداً من هذا الوجه بهذا السياق، وفي إسناده ضعفٌ.

وقولُه: ﴿ومن يكسِبْ إثماً فإنما يكسِبُه على نَفْسِه﴾ . . . الآية، كقوله تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾ . . . الآية، يعني أنه لا يجني أحدٌ على أحدٍ، وإنما على كلِّ نفس ما عملت، لا يحمل عنها غيرها. ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي: من عِلْمِهِ وحكمته، وَعَدْلِه ورَحْمَتِه كان ذلك.

ثم قال: ﴿ومن يكسب خَطيئة أو إثماً ثم يَرْم به بريئاً﴾ . . . الآية، يعني كما اتهم بَنُوا أبيرق بصنيعهم القبيحِ ذلك الرجلَ الصالحَ، وهو لَبِيدُ بن سهل، كما تقدم في الحديث، أو زيد بن السمين اليهودي على ما قاله الآخرون، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة، كما أطلع الله على ذلك رسولَه ـ ﷺ ـ. ثم هذا التقريعُ وهذا التوبيخُ عامٌّ فيهم وفي غيرهم ممن اتَّصَفَ مثلَ صِفَتِهِم، وارتكب مثل خَطِيئَتِهِم، فعليه مثلُ عُقُوبَتِهِم.

وقولُه: ﴿ولولا فضلُ الله عليكَ ورحمتُه لهمَّت طائفةٌ منهم أن يُضِلُّوك، وما يُضِلُّون إلا أنفسَهم، وما يضرُّونك من شيء﴾. قال الإمام ابن أبي حاتم:

أنبأنا هاشم بن القاسم الحراني فيما كتب إليَّ، حدثنا محمد بن سَلَمة، عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة الأنصاري، عن أبيه، عن جَدِّه قتادةَ بن النعمان، وذكر قِصَّةَ بني أُبَيرِقٍ، فأنزل الله: ﴿لهمت طائفة منهم أن يُضِلُّوك، وما يُضِلُّون إلا أنفسهم وما يَضُرُّونك من شيء﴾ يعني: أُسَيْر بن عروة وأصحابه. يعني بذلك لما أثنوا على بني أُبَيرِقٍ ولامُوا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم، وهم صُلَحاء بُرَآء، ولم يكن الأمر كما أَنْهَوه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ. ولهذا أنزل الله فَصْلَ القَضِيَّةِ وجلاءَها لرسوله ـ ﷺ ـ.

ثم امتنَّ عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعِصْمَتِه له، وما أنزلَ عليه من الكتاب، وهو القرآنُ، والحكمةِ، وهي السنةُ: ﴿وعَلَّمك ما لم تكن تعلم﴾ أي: قبل نزول ذلك عليك، كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ما كنت تَدْرِي ما الكتاب﴾ . . . إلى آخر السورة. وقال تعالى: ﴿وما كنتَ ترجو أن يُلْقَى إليك الكتابُ إلا رحمةً من ربك﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان فضلُ الله عليكَ عظيماً﴾.

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ يعني: كلامَ الناس ﴿إلا من أَمَر بصدَقةٍ أو معروفٍ أو

---

(١) الركوة: دلو صغيرة.
(٢) هو اسم أبي الدرداء.

إصلاحٍ بين الناس﴾ أي: إلا نجوى من قال ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مَرْدُويه.

حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا محمد بن سليمان بن الحارث، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيس قال: دخلنا على سفيان الثوريِّ نعودُه ـ وأومأ إلى دار العطارين ـ فدخل عليه سعيد بن حسان المخزومي فقال له سفيانُ الثوري: «الحديثُ الذي كنت حدثتني به عن أمِّ صالح أردُدْه علي. فقال: حدثتني أمّ صالح، عن صَفية بنت شَيبَة، عن أم حَبيبَة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ كلام ابن آدم كلُّه عليه لا له ما خلا أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر. [فقال(١ـ محمد بن يزيد: ما أشدَّ هذا الحديثَ ـ قال سفيان: وما شِدَّةُ هذا الحديث؟ إنما جاءت به امرأةٌ عن امرأةٍ، هذا في كتاب الله الذي أُرسِلَ به نبيُّكم ـ ﷺ ـ١)]. أوَ ما سَمِعت الله يقول في كتابه: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ فهو هذا بعينه، أوَ ما سَمِعت الله يقول: ﴿يوم يقوم الروحُ والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾، فهو هذا بعينه، أوَ ما سَمِعت الله يقول في كتابه: ﴿والعصر، إن الإنسان لفي خسر﴾... إلخ، فهو هذا بِعَينه».

وقد رَوَى هذا الحديث الترمذيُّ وابنُ ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خُنَيس، عن سَعِيد بن حسانَ، به. ولم يذكر أقوالَ الثوريِّ إلى آخرها، ثم قال الترمذيُّ: غريبٌ لا نعرفه إلا من حَدِيثِ ابن خُنَيسٍ(٢).

وقال الإمام أحمد: حَدَّثنا يعقوب، حدثنا أبي، حدثنا صالحُ بن كيسانَ، حدثنا محمد بن مسلم بن عُبَيد الله بن شهاب: أن حُمَيد بن عبد الرحمن بن عوف أخبَرَه، أن أُمَّه أمّ كلثوم بنتَ عُقبَة أخبرته: أنها سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «ليس الكذاب الذي يُصلِحُ بين الناس فَيَنْمي خيراً، أو يقول خيراً». وقال: لم أسمعهُ يَرخِّصُ في شيء مما يقوله الناس إلاّ في ثلاثٍ: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديثِ الرجل امرأته، وحديثِ المرأة زوجَها. قال: وكانت أمُّ كلثوم بنتُ عقبةَ من المهاجراتِ اللاتي بايعْنَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ(٣).

وقد رواه الجماعةُ، سوى ابن ماجه، من طرق، عن الزهري، به نحوه(٣).

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمشِ، عن عَمْرو بن مُرّة، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن أُمِّ الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا أخبركم بأفضلَ من درجة الصيام؛ والصلاة، والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ» قال: «وفسادُ ذاتِ البين هي الحالِقَةُ»(٤).

ورواه أبو داود والترمذيُّ، من حديث أبي معاويةَ، وقال الترمذيُّ: حسنٌ صَحيحٌ(٤).

وقال الحافظُ أبو بكر البَزَّارُ: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سُرَيج بن يونس، حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله بن عمر، حدثنا أبي، عن حُمَيد، عن أنس أن النبي ـ ﷺ ـ قال لأبي أيوب: ألا أَدُلُّك على تجارةٍ؟ قال: بلى: قال: تسعَى في صُلحٍ بينَ الناسِ إذا تفاسَدُوا، وتقَارب بينهم إذا تباعدوا.

ثم قال البَزَّارُ: وعبد الرحمن بـن عبد الله العُمَري لَيِّنٌ، وقد حَدَّث بأحاديثَ لم يتابَعْ عليها.

(١ ـ ١) عن الدر المنثور ٢/ ٢٢٠.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/ ٢٥٠، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣١٥.

(٣) مسند أحمد ٦/ ٤٠٣، وفتح الباري، كتاب الصلح ٥/ ٣٩٩، ومسلم، كتاب البرّ ٢٠١١، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٢٨١، وعارضة الأحوذي، أبواب البر ٨/ ١٢٢.

(٤) مسند أحمد ٦/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٢٨٠، وعارضة الأحوذي، أبواب القيامة ٩/ ٣١٣ ـ ٣١٤.

ولهذا قال: ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله﴾ أي: مخلصاً في ذلك محتسِباً ثوابَ ذلك عند الله ـ عز وجل ـ ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي: ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً.

وقولُه: ﴿ومن يشاقِقِ الرسولَ من بعد ما تَبيَّن له الهدى﴾ أي: ومن سَلَك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ـ ﷺ ـ فصار في شقٍّ والشرعُ في شقٍّ، وذلك عن عَمْد منه بعد ما ظهر له الحقُّ وتبيَّن له واتَّضح له. وقولُه: ﴿وَيتَّبع غَير سبيل المؤمنين﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفةُ لنصِّ الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضُمِنَتْ لهم العصمةُ في اجتماعهم من الخطإ، تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم. وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحةٌ كثيرةٌ، قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب «أحاديث الأصول». ومن العلماء من ادَّعى تواتر معناها، والذي عَوَّلَ عليه الشافعي ـ رحمه الله ـ في الاحتجاج على كونِ الإجماع حُجَّةً تَحرُم مخالفتُه هذه الآيةُ الكريمةُ(١)، بعد التروِّي والفِكْرِ الطَّويلِ. وهو من أحسن الاستنباطَات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك واستبعد الدلالة منها على ذلك.

ولهذا توعَّد على ذلك بقوله: ﴿نُوَلِّه ما تولى ونُصْلِه جهنَّمَ وساءت مصيراً﴾ أي: إذا سلك هذه الطريقَ جازيناه على ذلك، بأن نُحسِّنها في صدره ونُزَيِّنها له، استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْني ومن يكذِّب بهذا الحديث سَنَسْتَدْرِجُهم من حيث لا يعلمون﴾. وقال تعالى: ﴿فلما زاغُوا أزاغَ الله قُلُوبَهم﴾. وقوله: ﴿وَنَذَرُهم في طغيانهم يَعْمَهُون﴾.

وجعل النارَ مصيره في الآخرة، لأن من خَرَج عن الهُدَى لم يكن له طريقٌ إلا إلى النارِ يومَ القيامة، كما قال تعالى: ﴿احشُروا الذين ظَلَموا وأزواجَهم﴾... الآية، وقال: ﴿وَرأى المجرمون النارَ فَظَنُّوا أنهم مُوَاقِعُوها ولم يَجِدُوا عنها مَصْرِفاً﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾

قد تقدَّم الكلامُ على هذه الآية الكريمةِ، وهي قولُه: ﴿إن الله لا يغفرُ أن يُشرَكَ به ويغفرُ ما دونَ ذلك﴾... الآية، وذكرنا ما يتعلَّق بها من الأحاديث في صَدْرِ هذه السورة(٢).

وقد روى الترمذي حَديث ثُوَير بن أبي فاختةَ سَعيدِ بن عَلاَقَةَ، عن أبيه، عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه

(١) انظر روح المعاني للألوسي ٥/ ١٤٦.
(٢) انظر تفسير الآية ٤٨ من هذه السورة.

قال: ما في القرآن آية أحبُّ إليَّ من هذه الآية: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ . . . الآية، ثم قال: حسن غريب[١].

وقولُه ﴿ومن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ أي: فقد سَلَك غيرَ الطريق الحقِّ، وضلَّ عن الهُدَى وبَعُدَ عن الصواب، وأهلك نفسه وخَسِرَها في الدنيا والآخرة، وفاتته سعادةُ الدنيا والآخرة.

وقولُه: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾، قال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثنا أبي، حدثنا محمود بن غَيلانَ، أنبأنا الفضل بن موسى، أخبرنا الحسنُ بن واقدٍ، عن الربيع بن أنسٍ، عن أبي العالية، عن أبيِّ بن كعب: ﴿إن يدعونَ من دونه إلا إناثاً﴾ قال: مع كل صَنَمٍ جِنِّيَّةٌ[٢].

وحَدَّثنا أبي، حدثنا محمد بن سَلَمة الباهلي، عن عبد العزيز بن محمد، عن هِشَامٍ ـ يعني ابن عُرْوَةَ ـ عن أبيه، عن عائشةَ: ﴿إن يدعونَ من دونه إلا إناثاً﴾، قالت: أوثاناً.

ورُوِي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعُرْوَةَ بن الزبير، ومجاهد، وأبي مالك، والسدِّيِّ، ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقال جُوَيبر عن الضحاك في: ﴿إن يدعونَ من دونه إلا إناثاً﴾. قال المشركون: إن الملائكةَ بناتُ الله، وإنما نَعبُدُهم لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفَى، قال: اتخذوها أرباباً وصَوَّرُوهُنَّ صُوَرَ الجواري، فَحسَّنُوا وقَلَّدوا، وقالوا: هؤلاء يُشْبهن بنات الله الذي نعبده، يعنون الملائكة.

وهذا التفسيرُ شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ . . . الآيات، وقال تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ . . . الآية، وقال تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نَسَباً﴾ . . . الآيتين.

وقال علي بن أبي طلحة والضحاك، عن ابن عباس: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ قال: يعني موتى.

وقال مبارك ـ يعني ابن فَضَالة ـ عن الحسن: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ قال الحسن: الإناث كلُّ شيء مَيِّتٌ ليس فيه روحٌ، إما خشبةٌ يابسةٌ وإما حجرٌ يابس. ورواه ابن أبي حاتم وابن جَرير[٣]، وهو غريب.

وقولُه: ﴿وإن يدعُونَ إلا شيطاناً مريداً﴾، أي: هو الذي أَمَرَهُم بذلك وحَسَّنه لهم وَزيَّنه، وهم إنما يعبدونَ إبليسَ في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ . . . الآية. وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنَّهم يقولُون يوم القيامة عن المشركين الذين ادَّعوا عبادتَهم في الدنيا: ﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرُهم بهم مؤمنون﴾.

وقولُه: ﴿لعنه الله﴾ أي: طَرَده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره.

وقال: ﴿لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي: مُعَيَّناً مُقَدَّراً معلوماً، قال مقاتل بن حيان: من كلِّ ألفٍ تسعمائةٌ وتسعةٌ وتسعون إلى النار، وواحدٌ إلى الجنة.

﴿ولأُضِلَّنَّهُم﴾ أي: عن الحقِّ ﴿ولأمنِّيَنَّهُم﴾ أي: أُزَيِّن لهم تَرْكَ التوبة، وَأَعِدُهم الأماني، وآمرُهم بالتَّسْوِيف والتأخير، وأغرهم من أنفسهم.

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١١/ ١٦٨.
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن محمود بن غيلان بإسناده، انظر المسند ٥/ ١٣٥.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٧٩.

وقولُه: ﴿ولآمرنهم فَليُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام﴾، قال قتادةُ والسدِّيُّ وغيرُهما: يعني تشقيقها، وجعلها سِمَةً وعلامةً للبحيرة والسائبة.

﴿ولآمرنهم فَليغيّرنَّ خَلْق الله﴾ قال ابنُ عباس: يعني بذلك خِصَاءَ الدوابِّ. وكذا رُوي عن ابن عُمَر، وأنس، وسعيد بن المسيَّب، وعكرمةَ، وأبي عياض، وأبي صالح، وقتادة، والثوريِّ. وقد وَرَدَ في حديث النهي عن ذلك(١)

وقال الحسنُ بن أبي الحَسَنِ البَصْرِيُّ: يعني بذلك الوَشْم. وفي صَحِيح مُسْلمٍ النهيُ عن الوَشْم في الوَجْهِ، وفي لفظ: لعن الله من فعل ذلك. وفي الصحيح عن ابن مسعودٍ أنه قال: لَعَنَ الله الواشمات والمستَوْشِمَاتِ، والنامِصَاتِ والمتنمّصَاتِ، والمُتَفلّجات للحُسْن المغيِّرَاتِ خَلْق الله عز وَجلّ، ثم قال: ألا ألعنُ من لعن رسولُ الله - ﷺ - وهو في كتاب الله عز وجل، يعني قوله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهُوا﴾(٢).

وقال ابنُ عباس - في رواية عنه - ومجاهدٌ، وعكرمةُ أيضاً، وإبراهيم النخَعِيُّ، والحسن، وقتادةُ، والحكم، والسدِّيُّ، والضحاك، وعطاء الخراساني في قوله: ﴿ولآمرنَّهم فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله﴾ يعني: دين الله عز وجل. وهذا كقوله تعالى ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فِطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله﴾. على قول من جعل ذلك أمراً، أي: لا تبدِّلُوا فطرةَ الله، ودَعُوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في الصحيحين، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُلُّ مولود يولد على الفطْرة، فأبواه يُهَوِّدانه، ويُنَصِّرانه ويمجسانه»، كما تُولَدُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء هل يَحُسّون فيها من جدعاء(٣)؟ وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حِمَارٍ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: قال الله - عز وجل - (إنـي خَلَقْتُ عبادِي حُنَفـاءَ، فجاءتهم الشياطين فاجتالَتْهُم عن دينهم، وحَرَّمَت عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم)(٤).

وقولُه تعالى: ﴿ومن يَتَّخِذ الشيطان وليّاً من دون الله فقد خَسِر خُسْراناً مبيناً﴾. أي: فقد خَسِـرَ الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفائتها.

وقولُه: ﴿يَعِدُهم ويُمنّيهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غروراً﴾. وهذا إخبارٌ عن الواقع، لأنَّ الشيطانَ يعد أولياءه ويُمنِّيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كَذَبَ وافترى في ذلك. ولهذا قال: ﴿وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غروراً﴾. كما قال تعالى مخبراً عن إبليسَ يوم المعاد: ﴿وقال الشيطانُ لما قضي الأمر: إن الله وعدكم وَعْدَ الحقِّ ووعدتُكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان﴾. . . إلى قوله: ﴿وإن الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

وقولُه: ﴿أولئك﴾ أي: المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم ﴿مأواهم جهنَّمُ﴾ أي: مَصيرُهم ومآلهم يوم

---

(١) مسند أحمد عن ابن عُمَر ٢/ ٢٤.

(٢) مسلم، كتاب اللباس والزينة ١٦٧٨.

والنامصات: هي اللاتي تزيل الشعر من الوجه، والمتنمّصة: هي التي تطلب فعل ذلك بها. والمتفلّجات: اللاتي تبرد ما بين أسنانها. وتفعل ذلك العجوز إظهاراً لصغر سنها، لأن هذه الفُرْجَة بين الأسنان تكون للبنات الصغار.

(٣) أخرجاه في كتاب القدر، فتح الباري ١١/ ٤٩٣، ومسلم ٢٠٤٧.

بهيمة جمعاء: لم يذهب من بدنها شيء، سميت بذلك لاجتماع أعضائها.

(٤) مسلم، كتاب الجنة ٢١٩٧.

واجتالتهم: استخفتهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل.

حسابهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عنها محيصاً﴾ أي: ليس لهم عنها مندوحةٌ ولا مصرفٌ، ولا خلاصَ ولا مناصَ.

ثم ذكر حال السعداء الأتقياء وما لهم في مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: صَدّقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أُمِرُوا به من الخيرات، وتَرَكوا ما نُهوا عنه من المنكرات ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي: يُصَرِّفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي: بلا زوالٍ ولا انتقالٍ ﴿وَعْدَ الله حقاً﴾ أي: هذا وعدٌ من الله، ووَعْدُ الله معلوم حقيقة أنه واقعٌ لا محالةَ، ولهذا أكّده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حقاً﴾ ثم قال: ﴿ومن أصدقُ من الله قِيلاً﴾ أي: لا أحدَ أصدقُ منه قولاً وخبراً، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه. وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول في خُطْبَته: إنّ أصدقَ الحديثِ كلامُ الله، وخيرُ الهَدْي هَدْي محمد ـ ﷺ ـ وشرُّ الأمور مُحْدَثَاتُها، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلُّ ضَلالةٍ في النار(١).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

قال قتادةُ: ذُكِرَ لنا أنّ المسلمين وأهلَ الكتاب افتخروا، فقال أهلُ الكتاب: نبيُّنا قبل نَبيِّكم، وكتابُنا قبل كتابكم، فنحنُ أولى بالله منكم. وقال المسلمونَ: نحنُ أولى بالله منكم؛ نَبيُّنا خاتَم النبيين، وكتابنا يَقْضِي على الكُتُبِ التي كانت قبله فأنزل الله ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهلِ الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾، ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾... الآية. فأفلجَ الله حُجَّةَ المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان(٢).

وكذا رُوِي عن السُّدّي، ومسروقٍ، والضحاكِ، وأبي صالح، وغيرهم. وكذا رَوَى العَوْفِيّ، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: تخاصَمَ أهلُ الأديانِ فقال أهلُ التوراة: كتابُنا خيرُ الكُتُب، ونَبِيُّنا خير الأنبياء. وقال أهلُ الإنجيل مثلَ ذلك. وقال أهلُ الإسلام: لا دينَ إلا الإسلام، وكتابنا نَسَخ كلّ كتاب، ونَبِيُّنا خاتم النبيين، وأُمِرْتُم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا. فَقَضى الله بينهم فقال: ﴿ليس بأمانيّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، مَنْ يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾، وخَيَّر بين الأديان فقال: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ إلى قوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾.

وقال مجاهد: قالت العرب: لن نُبعَثَ ولن نُعَذَّب. وقال اليهودُ والنصارى: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، وقالوا: ﴿لن تَمسَّنا النار إلا أياماً معدوداتٍ﴾.

والمعنى في هذه الآية أن الدِّين ليسَ بالتحلّي ولا بالتمنّي، وليس كلُّ من ادَّعى شيئاً حَصَل له بمجرد دعواه، ولا كلُّ من قال: «إنه هو المُحِقُّ» سُمِعَ قولُه بمجرَّد ذلك، حتى يكون له من الله برهان. ولهذا قال

(١) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/ ٢٤٩، ومسلم، كتاب الجمعة ٥٩٢، وسنن ابن ماجه، المقدمة ١٨، ومسند أحمد ٣/ ٣١٠ ـ ٣١١، ٣٧١.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٨٨.

تعالى: ﴿ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهلِ الكتاب﴾ أي: ليس لكم ولا لهم النجاةُ بمجرَّدِ التمنِّي، بل العبرةُ بطاعةِ الله، واتباع ما شَرعَه على ألسنة رسله الكرام. ولهذا قال بعده: ﴿مـن يعمل سوءاً يجز به﴾ كقوله ﴿فمن يعمل مثقال ذَرّة خَيراً يَرَه. ومن يَعمَلْ مثقال ذَرَّةٍ شرّاً يره﴾.

وقد رُوِي أن هذه الآية لما نزلت شَقَّ ذلك على كثير من الصحابة؛ قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الله بن نُمَير، حدثنا إسماعيلُ، عن أبي بكر بن أبي زُهَير قال: أُخْبِرْتُ أَنَّ أبا بكر قال: يا رسول الله، كيف الصلاحُ بعد هذه الآية: ﴿ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، من يَعْمَلْ سوءاً يجز به﴾، فَكُلُّ سوءٍ عملناه جُزينا به؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «غَفَرَ الله لك يا أبا بكر، ألست تَمْرَضُ؟ ألست تَنْصَبُ؟ ألست تَحْزَن؟ ألست تُصيبُك اللأواءُ؟قال: بلى. قال: فهو ما تُجْزَونَ به»(١).

ورواه سَعِيدُ بن منصور، عن خلف بن خَلِيفَةَ، عن إسماعيل بن أبي خالد، به. ورواه ابن حِبَّان في صحيحه، عن أبي يَعلى(٢)، عن أبي خيثمة، عن يحيى بن سعيد، عن إسماعيلَ بن أبي خالد، به. ورواه الحاكم من طريق سفيانَ الثوريِّ، عن إسماعيل به(٣).

وقال الإمام أحمدَ: حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن زياد الجَصَّاص، عن عليِّ بن زيد(٤)، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: سمعت أبا بكر يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من يعمل سوءاً يُجْزَ به في الدنيا»(٤).

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن هُشَيم بن جُهَيمة، حدثنا يحيى بن أبي طالب؛ حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا زياد الجَصَّاص، عن علي بن زيدٍ، عن مجاهد قال: قال عبد الله بن عُمَر: انظروا المكانَ الذي به عبد الله بن الزُّبير مصلوباً ولا تمرُّنَّ عليه. قال: فَسها الغلام، فإذا ابنُ عمر ينظر إلى ابن الزبير فقال: يغفر الله لك ثلاثاً، أما والله ما عَلِمتُكَ إلا صوّاماً وصَّالاً للرَّحِم، أما والله إني لأرجُو مع متساوي ما أصبتَ ألَّا يعذبك الله بعدها: قال: ثم التفت إليَّ فقال: سَمِعتُ أبا بكر الصديق يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «من يعمل سوءاً في الدنيا يُجْزَ به».

ورواه أبو بكر البَزَّارُ في مسنَده، عن الفضل بن سهل، عن عبد الوهاب بن عطاء، به مختصراً. وقد قال في مسند ابن الزبير:

حدثنا إبراهيم بن المستمر العُرُوقي، حدثنا عبد الرحمن بن سليم بن حَيَّان، حدثني أبي، عن جَدِّي حيان بن بسطام، قال: كنت مع ابن عُمَر، فمرَّ بعبد الله بن الزبير وهو مصلوبٌ، فقال: رَحِمك الله أبا خُبَيب! سمعت أباك ـ يعني الزبير ـ يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «من يعمل سوءاً يُجْزَ به في الدنيا والأخرى».

ثم قال: لا نعلمه يُرْوَى عن الزبير إلا من هذه الوجه(٥).

---

(١) مسند أحمد ١/ ١١. واللأواء: الشدّة.

(٢) كذا، فقد رواه ابن حبان في صحيحه عن عمران بن موسى بن مجاشع، عن وهب بن بقية، عن خالد، عن إسماعيل. انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الجنائز ٤/ ٢٤٩. ولعلّه قد سقط مسند ابن حبان من الأصل، نقول هذا على الرغم من أن ابن حبان يروي عن أبي يعلى، وقد رواه أبو يعلى في مسنده ١/ ٩٨ بسنده الذي ساقه ابن كثير.

(٣) المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ٣/ ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) مسند أحمد ١/ ٦. وفي المسند: علي بن أبي زيد. وهو خطأ، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٦/ ١٨٦، وتهذيب الكمال، ترجمة زياد الجصاص ٩/ ٤٧٠.

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار، تفسير سورة النساء ٣/ ٤٦ ـ ٤٧.

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا أحمدُ بن كامل، حدثنا محمد بن سعد العوفي؛ حدثنا رَوح بن عُبادة، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني مولى بن سباع قال: سَمِعتُ ابن عُمَر يحدِّث عن أبي بكر الصدِّيق قال: «كنتُ عند النبيِّ ـ ﷺ ـ فنزلت هذه الآيةُ: ﴿من يعملْ سوءاً يُجْزَ به ولا يَجِدْ له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ يا أبا بكر، هل أُقرِئُك آيةً نَزَلَتْ عَليَّ؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأنيها، فلا أعلم إلا أني وجدتُ انقصاماً[(١)] في ظهري حتى تمطأت، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ ما لك يا أبا بكر؟ قلت: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله وأيُّنا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيُّون بكلِّ سوءٍ عَمِلناه؟! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أما أنت وأصحابك يا أبا بكر المؤمنون فَتُجزَون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله، وليس لكم ذنوبٌ، وأما الآخرون فَيُجمَعُ لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة».

وهكذا رواه الترمذيُّ عن يحيى بن موسى، وعَبْدِ بنْ حُمَيد، عن رَوح بن عُبادة، به. ثم قال: «وموسى ابن عُبَيدَةَ يُضَعَّفُ، ومولى بن سباع مجهول»[(٢)].

طريق أخرى عن الصديق، قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إسحاقَ العسكريُّ، حدثنا محمد ابن عامر السعديّ، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا فُضَيل بن عياض، عن سليمانَ بن مهران، عن مسلم بن صَبيح، عن مسروق قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أشد هذه الآية: ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاءٌ».

طريق أخرى، قال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أبي زياد وأحمد بن منصور قالا: حدثنا زيدُ بن الحباب، حدثنا عبد الملك بن الحسن الحارثي، حدثنا محمد بن زيد بن قُنفُذٍ، عن عائشةَ، عن أبي بكر قال: لما نزلَتْ ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ قال أبو بكر: يا رسولَ الله، كلُّ ما نَعْمَلُ نُؤاخَذُ به؟ فقال: يا أبا بكر، أليس يُصِيبك كذا وكذا؟ فهو كفارةٌ[(٣)].

حديث آخر، قال سعيد بن منصور: أنبأنا عبد الله بن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سَوَادة حَدَّثه، أن يزيد بن أبي يزيد حَدَّثه، عن عُبَيد بن عمير، عن عائشةَ: أن رَجُلاً تلا هذه الآيةَ: ﴿من يعمَلْ سُوءاً يُجْزَ به﴾ فقال: إنا لَنُجزَى بكلِّ عَمَلٍ؟ هَلَكنا إذاً. فبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: «نعم يُجزَى به المؤمنُ في الدنيا، في نفسه، في جسدهِ، فيما يؤذيه».

طريق أخرى، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن بَشِير، حدثنا هُشَيم، عن أبي عامر، عن ابن أبي مُليكة، عن عائِشَةَ قالت قلتُ: يا رسولَ الله، إني لأعلم أشدَّ آية في القرآن: فقال: ما هي يا عائشة؟ قلت: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾. فقال: هو ما يُصِيب العبدَ المؤمنَ حتى النكبةِ يُنْكَبُها.

ورواه ابنُ جَرِير من حديث هُشَيم، به. ورواه أبو داود، من حديث أبي عامر صاحل بن رُسْتُم الخَزَّازِ، به[(٤)].

طريق أخرى، قال أبو داود الطيالسي: حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أُمَيَّةَ أنها سألت عائشةَ عن هذه الآية . . . ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ فقالت: ما سألني عن هذه الآية أحد منذ سألت عنها رسولَ الله ـ ﷺ ـ، سألت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا عائشة، هذه معاتبةُ الله للعبد، مما يصيبه من الحمَّى

(١) أي: انكساراً. ويروى: انفصاماً، بالفاء.
(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١١/ ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٤.
(٤) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٥، وسنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/ ١٨٤.

والنَّكبة والشوكة، حتى البضاعة يضعها في كُمّه فيفزَع لها، فَيَجِدُها في جَيْبِه، حتى إنَّ المؤمِنَ ليخرُجُ من ذُنُوبِهِ كما يخرج التِّبر الأحمرُ من الكِير»[١].

طريق أخرى، قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو القاسم: حدثنا سُرَيج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، عن محمد بن إسماعيل، عن محمد بن زيد بن المهاجر، عن عائشة قالت: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ عن هذه الآية: ﴿من يعملْ سوءاً يجز به﴾ قال: «إن المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في الفَيْظِ[٢] عند الموت».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حُسَينٌ، عن زائدةَ، عن لَيْثٍ، عن مجاهدٍ، عن عائشةَ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كَثُرت ذنوبُ العبدِ، ولم يَكُن له ما يُكَفِّرها، ابتلاه الله بالحُزْنِ لِيُكفِّرها عنه»[٣].

حديث آخر، قال سعيدُ بن منصور، عن سفيان بن عُيَينة، عن عُمَر بن عبد الرحمن بن مُحَيْصِنٍ، سُمِع محمدِ بن قيس بن مَخْرَمَة، يخبر أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلَت: ﴿من يعمل سُوءا يجز به﴾ شَقَّ ذلك على المسلمين، فقال لهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «سَدِّدُوا وقارِبُوا؛ فإن في كلِّ ما يُصاب به المسلمُ كفارةً حتى الشوكةِ يشاكها، والنكبةِ يُنْكَبُها».

وهكذا رواه أحمد، عن سفيان بن عُيَينة. ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائي، من حديث سفيانَ بن عُيَينة، به[٤]. ورواه ابن مَرْدويه من حديث روح ومعتمر كلاهما، عن إبراهيم بن يزيد، عن عبد الله بن إبراهيم، سَمِعت أبا هُريرة يقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعملِ سوءاً يجز به﴾ بَكَينا وحَزنًا وقلنا: يا رسولَ الله، ما أبقتِ هذه الآيةُ من شيءٍ. قال: «أما والذي نفسي بيده إنّها لكما نزلت، ولكن أَبْشِرُوا وقارِبُوا وسَدِّدوا؛ فإنه لا يصيبُ أحداً منكم مصيبةٌ في الدنيا إلا كَفَّر الله بها خَطِيئَته، حتى الشوكةُ يُشاكها أحدكم في قدمه».

وقال عطاءُ بن يسار، عن أبي سَعيدٍ وأبي هُرَيرة: أنهمـا سَمِعَا رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «ما يُصِيبُ المؤمنَ من نَصَب ولا وَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن، حتى الهمِّ يُهِمُّه، إلا كُفِّر به من سيئاته» أخرجاه[٥].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى، عن سعد بن إسحاقَ، حَدَّثتني زينبُ بنت كَعْبٍ بن عُجْرَةَ، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رجلٌ لرسول الله ـ ﷺ ـ أرأيت هذه الأمراض التي تُصيبنا؟ ما لنا بها؟ قال: كفاراتٌ. قال أُبَي: وإن قَلَّتْ؟ قال: وإن شوكةٌ فما فوقَها قال: فدعا أُبَي على نفسه أنه لا يفارقه الوعكُ حتى يموت، في أَلَّا يشغله عن حَجٍّ ولا عُمْرَةٍ، ولا جهادٍ في سبيل الله، ولا صلاةٍ مكتوبةٍ في جماعة، فما مَسَّه إنسان إلا وجد حَرَّه، حتى مات رضي الله عنه. تفرد به أحمد[٦].

حديث آخر: روى ابن مَرْدُويه من طريق حُسَين بن واقد، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي ٢٢١. وأخرجه أحمد عن بهز عن حماد ٦/ ٢١٨، والترمذي في تفسير سورة البقرة بإسناده إلى حماد، انظر عارضة الأحوذي ١١/ ١١٢.

(٢) أي: خروج الروح.

(٣) مسند أحمد ٦/ ١٥٧.

(٤) مسند أحمد ٢/ ٢٤٨، ومسلم، كتاب البرّ ١٩٩٣، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١١/ ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٥) فتح الباري، كتاب المرضى ١٠/ ١٠٣، ومسلم، كتاب البرّ ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣.

(٦) مسند أحمد ٣/ ٢٣.

قال: قيل يا رسول الله، ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾؟ قال: نعم، ومن يعمل حسنةً يجزَ بها عشراً. فهلك من غَلَبَ واحدتَه عشراً.

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن وَكِيع، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا حَمَّاد بن سلمة، عن حُمَيد، عن الحسن: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾، قال: الكافر، ثم قرأ: ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾(١).

وهكذا رُوِيَ عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير: أنهما فَسَّرا السوء ها هنا بالشرك أيضاً.

وقولُه: ﴿ولا يَجِدْ له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. رواه ابن أبي حاتم.

والصحيحُ أن ذلك عامٌّ في جميعِ الأعمالِ، لما تقدَّم من الأحاديث، وهذا اختيارُ ابنِ جَرير، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾... الآية. لما ذكر الجزاء على السيئات، وأنه لا بدَّ أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له، وإما في الآخرة ـ والعياذ بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفحَ والعَفْوَ والمسامَحَةَ ـ شَرَعَ في بيان إحسانِه وكَرَمه ورَحْمَتِه في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذُكْرَانهم وإناثهم، بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير، وهو: النقرَةُ التي في ظهر نواة التمرة. وقد تقدم الكلام على الفَتِيل، وهو الخيطُ الذي في شقِّ النواة، وهذا النَّقِير وهما في نواة التمرة، وكذا القطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة، والثلاثة في القرآن(٢).

ثم قال تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممَّن أسلم وَجْهَه لله﴾: أخلص العملَ لربِّه ـ عز وجل ـ فعمل إيماناً واحتساباً ﴿وهو محسن﴾ أي: اتَّبَعَ في عمله ما شَرَعه الله له، وما أرسل به رسولَه من الهُدَى ودين الحقِّ. وهذان الشرطان لا يصحُّ عَمَلُ عامل بدونهما، أي: يكون خالصاً صواباً، والخالصُ أن يكون لله. والصوابُ أن يكون مُتَّبِعاً للشريعة فيصحُّ ظاهره بالمتابعة، وباطنُه بالإخلاص، فمتى فقد العملُ أحدَ هذين الشرطين فَسَد؛ فمن فقد الإخلاصَ كان منافقاً، وهم الذين يراءون الناس. ومن فقد المتابعةَ كان ضالاً وجاهلاً. ومتى جَمَعهما فهو عَمَلُ المؤمنين ﴿الذين يُتقبَّل عنهم أحسنُ ما عملوا ويُتجاوَزُ عن سيئاتهم﴾(٣)... الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾، وهم محمدٌ وأتباعُه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إنَّ أولى الناس بإبراهيمَ للذين اتَّبَعُوه وهذا النبي﴾... الآية. وقال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ والحنيفُ: هو المائل عن الشركِ قصداً، أي: تاركاً له عن بصيرةٍ، ومُقْبِلٌ على الحقِّ بِكُلِّيته، لا يصدُّه عنه صادٌّ، ولا يردُّه عنه رادٌّ.

وقولُه: ﴿واتخذَ الله إبراهيمَ خليلاً﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمامٌ يقتدى به، حيث وَصَلَ إلى غاية ما يتقرَّب به العبادُ له، فإنه انتهى إلى درجة الخُلَّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعتِه لربِّه، كما وصَفَه به في قوله: ﴿وإبراهيم الذي وفَّى﴾ قال كثيرون من السلف: أي قام بجميع ما أُمِرَ به

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٢.

(٢) تقدم ذكر الفتيل عند الآية ٤٩ من هذه السورة، والنقير عند الآية ٥٣ منها، وسيأتي ذكر القطمير عند الآية ١٣ من سورة فاطر.

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي: (نتقبّل، ونتجاوز، بالنون، و(أحسن) بالنصب.

وقرأ الباقون (يُتَقبَّل، ويُتَجاوزُ) بالياء مضمومة في الفعلين، ورفع نون (أحسن) على أنه نائب فاعل. انظر الإقناع لابن الباذش ٧٦٥.

ووفّى كلَّ مَقام من مَقامات العبادة، فكان لا يشغَلُه أمرٌ جليلٌ عن حقيرٍ، ولا كبيرٌ عن صغيرٍ. وقال تعالى: ﴿وإذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن﴾... الآية. وقال تعالى: ﴿إن إبراهيمَ كان أمةً قانتاً لله حَنيفاً ولم يكُ من المشركين﴾... الآية والآية بعدها.

وقال البخاري: حدثنا سُليمان بن حَرْب، حدثنا شُعبة، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن عمرو بن مَيْمُونٍ قال: إن معاذاً لما قَدِم اليمنَ صلَّى الصبحَ بهم: فَقَرأ: ﴿واتخذ الله إبراهيمَ خليلاً﴾. فقال رجلٌ من القوم: لقد قَرَّت عينُ أمِّ إبراهيمَ(١).

وقد ذكر ابنُ جَرير في تفسيره، عن بعضِهم: أنه إنما سماه الله خليلاً من أجل أنه أصابَ أهلَ ناحيته جَدْبٌ، فارتحل إلى خليلٍ له من أهل الموصل ـ وقال بعضهم: من أهل مصر ـ ليمتار طعاماً لأهله من قِبَله، فلم يُصِبْ عنده حاجته. فلما قُرُب من أهله مَرَّ بمفازة ذاتِ رَمْلٍ، فقال: لو ملأتُ غَرائِري(٢) من هذا الرمل، لئلا أُغَمَّ أهلي برجوعي إليهم بغير مِيرَةٍ، وليظنوا أني أتيتهم بما يحبُّون. ففعل ذلك، فَتَحَوَّل ما في غَرائِره من الرمل دقيقاً، فلما صار إلى منزله نام وقامَ أهلُه ففتحوا الغَرائر، فوجدوا دقيقاً فَعَجَنوا وخبزوا منه فاستيقظ. فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيق الذي جِئْتَ به من عند خليلك! فقال: نعم، هو من خليلي الله. فسماه الله بذلك «خليلا»(٣).

وفي صحَّةِ هذا ووقوعه نظرٌ، وغايتُه أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب، وإنما سُمِّي خليلَ الله لشدة محبة ربِّه ـ عز وجل ـ له، لما قام له من الطاعة التي يُحبُّها ويرضاها، ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال: «أما بعد، أيها الناس، فلو كنت مُتَّخِذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليلُ الله»(٤).

وجاء من طريق جُنْدب بن عبد الله البَجَلي، وعبد الله بن عَمْرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود، عن النبي ـ ﷺ ـ: «إن الله اتَّخذني خَليلاً كما اتَّخذَ إبراهيم خَليلاً»(٥).

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجُوزَجاني بمكة، حدثنا عُبَيد الله الحَنفي، حدثنا زَمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرامَ، عن عِكْرِمَة، عن ابن عباس قال: جلس ناسٌ من أصحابِ رسول الله ـ ﷺ ـ ينتظرونه، فخَرَج حتى إذا دنا منهم سَمِعهم يتذاكرون، فَسَمِع حديثَهم، وإذا بعضهم يقول: «عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً، فإبراهيم خليله! وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كَلَّم موسى تكليماً! وقال آخر: فعيسى روحُ الله وكلمته! وقال آخر: آدم اصطفاه الله! فخرج عليهم فسلَّم وقال: قد سَمِعتُ كلامكُم وتعجُّبكم أن إبراهيم خليلُ الله، وهو كذلك، وموسى كليمُه، وعيسى روحُه وكلمته، وآدم اصطفاه الله، وهو كذلك؛ ألا وإني حبيبُ الله ولا فخر، [وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فَخْرَ]، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّعٍ ولا فخر، وأنا أول من يُحَرِّك حِلَق

(١) فتح الباري، كتاب المغازي ٨/ ٦٥.
(٢) الغرائر: جمع غرارة، التي يوضع فيها الدقيق ونحوه.
(٣) تفسير الطبري ٥/٢٩٧ ـ ٢٩٨.
(٤) فتح الباري، كتاب الصلاة ١/ ٥٥٨، وكتاب فضائل الصحابة ٧/ ١٢، وكتاب مناقب الأنصار ٧/ ٢٢٧. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٤. ولم نجد فيهما: «ولكن صاحبكم خليل الله»، ومن رواية أبي سعيد، ولكنها في مسلم من رواية ابن مسعود في فضائل الصحابة ١٨٥٥ ـ ١٨٥٦.
(٥) مسلم، كتاب المساجد ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

الجنة، فيفتح الله فَيُدْخِلُنِيها ومعي فقراءُ المؤمنين ولا فخْرَ، وأنا أكرمُ الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فَخْر».

وهذا حديث غريبٌ من هذا الوجه، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها[1].

وقال قتادةُ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ أنه قال: أتعجبونَ من أن تكونَ الخُلَّة لإبراهيم، والكلامُ لموسى، والرؤيةُ لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

رواه الحاكم في مستدركه وقال: «صحيحٌ على شرط البخاري، ولم يخرجاه[2] وكذا رُوِيَ عن أنس بن مالك، وغير واحد من الصحابة والتابعين، والأئمة من السلف والخلف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عَبْدك القزويني، حدثنا محمد ـ يعني ابن سعيد بن سابق ـ، حدثنا عمرو ـ يعني ابن أبي قيس ـ عن عاصم، عن أبي راشد، عن عُبَيد بن عُمير قال: كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يُضِيفُ الناسَ، فخرج يوماً يلتمس إنساناً يُضِيفه، فلم يجد أحداً يُضيفُه، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً، فقال: يا عبد الله، ما أدخلك داري بغير إذني؟ قال: دخلتُها بإذن ربِّها. قال: ومن أنتَ؟ قال: أنا ملَكُ الموتِ، أرسلني ربي إلى عبد من عباده أُبَشِّره أنَّ الله قد اتخذه خليلاً. قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتينّه، ثم لا أبرح له جاراً حتى يفرق بيننا الموت. قال: ذلك العبد أنت. قال: أنا؟ قال: نعم قال: فبم اتخذني الله خليلاً؟ قال: إنك تعطي الناس ولا تسألهم.

وحدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد السلمي، حدثنا الوليد، عن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقي في قلبه الوَجَل، حتى إن كان خفقانُ قلبه لَيُسْمَعُ من بعيد، كما يُسمَع خَفَقان الطير في الهواء. وهكذا جاء في صفة رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه كان يُسْمَعُ لصدره أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء[3].

وقولُه: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: الجميعُ ملكه وعبيدُه وخلقُه، وهو المتصرِّفُ في جميعِ ذلك، لا رادَّ لما قضى، ولا مُعقِّب لما حَكَم، ولا يُسألُ عما يَفْعَلُ، لعظمته وقُدرته وعَدْله وحِكْمته ولُطفه ورَحْمته.

وقولُه: ﴿وكان الله بكلِّ شيءٍ محيطاً﴾ أي: علمُه نافذٌ في جميعِ ذلك، لا تخفَى عليه خافيةٌ من عباده، ولا يعْزُب عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في السموات ولا في الأرض، ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ، ولا تخفَى عليه ذرَّةٌ لما تراءى للناظر وما توارى.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾

قال البخاريّ: حدثنا عُبَيد بن إسماعيل، حدثنا أبو أُسامةَ قال: هشامُ بن عُروَةَ أخبرناه عن أبيه، عن عائشة: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يُفتيكم فيهن﴾ إلى قوله: ﴿وترغبُون أن تنكحُوهُنَّ﴾، قالت: هو الرجلُ تكونُ عنده اليتيمة، هو وَلِيُّها ووارثها قد شَرِكته في ماله، حتى في العَذْق، فيرغَب أن ينكحها، ويكره أن يُزَوِّجها

(١) أخرجه الترمذي عن علي بن نصر، عن عبيد الله الحنفي. انظر أبواب المناقب ١٢/ ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٢) المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٤٦٩.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٥، ٢٦.

رَجُلاً، فَيَشْرَكه في ماله بما شَرِكته فيعضُلها، فنزلت هذه الآية[١].

وكذلك رواهُ مُسلِمٌ، عن أبي كُرَيب، وعن أبي بكر بن أبي شيبةَ، كلاهما عن أبي أسامةَ[٢].

وقال ابنُ أبي حاتم: قرأتُ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابنُ وَهْب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، أخبرني عروةُ بن الزُّبير، قالت عائشةُ: ثم إن الناس استفتَوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ بعد هذه الآية فيهنَّ، فأنزل الله: ﴿ويستفتُونَكَ في النساء قل الله يُفتِيكم فيهنّ وما يُتلى عليكم في الكتاب﴾ . . . الآية، قالت: والذي ذَكَر الله أنه يُتلَى عليهم في الكتاب الآيةُ الأولى التي قال الله: ﴿وإن خفتم ألَّا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾.

وبهذا الإسناد، عن عائشةَ قالت: وقولُ الله ـ عز وجل ـ: ﴿وترغَبُون أن تنكِحُوهن﴾ رغبةُ أحدكم عن يتيمته التي تكون في حِجْرِه حين تكون قليلةَ المالِ والجَمَال، فنهُوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجَمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن.

وأصله ثابتٌ في الصحيحين، من طريق يونس بن يزيدَ الأَيْلي، به[٣].

والمقصودُ أنَّ الرجل إذا كان في حِجْره يتيمةٌ يحلُّ له تزويجها، فتارةً يرغَب في أن يتزوَّجها، فأمره الله ـ عز وجل ـ أن يَمْهَرَها أسوةَ أمثالِها من النساء، فإن لم يفعَلْ فَلْيَعْدِلْ إلى غيرها من النساء، فقد وَسَّع الله عز وجل. وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة[٤]. وتارةً لا يكون للرجل فيها رغبةٌ لدمامتها عنده، أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يعضلَها عن الأزواج خشية أن يَشْرَكوه في مالِهِ الذي بينه وبينها، كما قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿في يتامى النساء﴾ . . . الآية: فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمةُ، فَيُلْقِي عليها ثوبَه، فإذا فعل ذلك لم يقدِرْ أحدٌ أن يتزوَّجها أبداً، فإن كانت جميلةً وهَويها تَزَوَّجها وأكل مالها، وإن كانت دميمةً منعها الرجال أبداً حتى تَموتَ، فإذا ماتت وَرِثها. فَحَرَّم الله ذلك ونَهى عنه.

وقال في قوله: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾: كانوا في الجاهلية لا يُورِّثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾، فنهى الله عن ذلك، وبيَّن لكل ذي سهمٍ سَهْمه، فقال: ﴿للذكر مثلُ حظِّ الأنثيين﴾ صغيراً أو كبيراً.

وكذا قال سعيد بن جُبَير وغيره. وقال سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾: كما إذا كانت ذات جَمالٍ ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تَكُن ذاتَ جمالٍ ولا مالٍ فانكَحْها واستأثر بها.

وقولُه: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ تهييجٌ على فعل الخيرات وامتثالِ الأمر، وأن الله ـ عز وجل ـ عالم بجميع ذلك، وَسَيَجْزي عليه أوفرَ الجزاءِ وأتمَّه.

﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٦٥.
والعَلْقُ: النخلة.

(٢) مسلم، كتاب التفسير ٥/ ٢٣.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٣٩ من طريق صالح بن كيسان عن ابن شهاب، ومسلم، كتاب التفسير ٢٣١٣.

(٤) أي الآية رقم: ٣.

وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً ومشرِّعاً عن حال الزوجين: تارةً في حال نفورِ الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتِّفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها.

فالحالةُ الأولى: ما إذا خافت المرأةُ من زَوْجِها أن يَنْفِر عنها، أو يُعرض عنها، فلها أن تُسقِط حقَّها أو بعضَه، من نَفَقة أو كُسوة، أومَبيتٍ، أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها، فلا جُناحَ عليها في بَذْلِها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا جناح عليهما أن يصَّالحا[1] بينهم صلحاً﴾. ثم قال: ﴿والصلحُ خيرٌ﴾، أي: من الفراق.

وقولُه: ﴿وأحضرت الأنفسُ الشحَّ﴾ أي: الصلح عند المُشَاحَّة خيرٌ من الفراق، ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعةَ عَزمَ رسول الله ـ ﷺ ـ على فراقها. فصالحته على أن يُمسِكَها، وتترك يومها لعائشة، فَقَبِل ذلك منها وأبقاها على ذلك.

ذكرُ الروايةِ بذلك.

قال أبو داودَ الطيالسيُّ: حدثنا سليمان بن مُعَاذ، عن سماك بن حَرْبٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: خَشِيَتْ سَوْدَةُ أن يُطَلِّقها رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: يا رسولَ الله، لا تُطَلِّقني واجْعَل يومي لعائشةَ. ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما﴾. . . الآية، قال ابنُ عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز[2].

ورواه الترمذيُّ، عن محمد بن المثنَّى، عن أبي داودَ الطيالسي، به. وقال حَسَنٌ غريب[2].

وقال الشافعيُّ: أخبرنا مسلم، عن ابن جُرَيج، عن عطاءٍ، عن ابن عباسٍ، أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ تُوُفِّي عن تِسْعِ نِسْوةٍ، وكانَ يَقْسِمُ لثمانٍ[3].

وفي الصحيحين، من حديث هِشَام بن عُروة، عن أبيه، عن عائشةَ قالت: لما كَبِرت سَوْدةُ بنتُ زَمْعة وهبَتْ يومها لعائشة، فكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَقْسِمُ لها بيوم سَوْدَةَ[4].

وفي صحيح البخاريِّ، ومن حديثِ الزُّهريِّ، عن عروةَ، عن عائشةَ، نحوَه[5].

وقال سعيدُ بن منصور، أنبأنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام، عن أبيه عُرْوَةَ قال: أنزل الله تعالى: في سَوْدَة وأشباهها: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾، وذلك أن سودةَ كانت امرأةً قد أسنَّت، فَفَزِعَت أن يفارقها رسولُ الله ـ ﷺ ـ وضَنَّت بمكانها منه، وعَرفت من حُبِّ رسول الله ـ ﷺ ـ عائشةَ ومنزلتها منه، فوَهَبَت يومَها من رسولِ الله ـ ﷺ ـ لعائشةَ، فَقَبِل ذلك النبيُّ ـ ﷺ ـ.

(١) قرأ الكوفيون: (يُصْلِحا). وقرأ الباقون: (يَصَّالحا). انظر الإقناع لابن الباذش ٦٣٢.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٣٤٩، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة النساء ١١/ ١٧٠.

(٣) ترتيب مسند الشافعي ٢/ ٢٧.

(٤) فتح الباري، كتاب النكاح ٩/ ٣١٢، ومسلم، كتاب الرضاع ١٠٨٥.

(٥) فتح الباري، كتاب الهبة ٥/ ٢١٨.

قال البيهقي: وقد رواه أحمد بن يونس: عن أبي الزناد، موصولاً. وهذه الطريق رواها الحاكم في مستدركه فقال:

حدثنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه، أخبرنا الحسن بن علي بن زياد، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن هشام بن عُروَة، عن أبيه، عن عائشة: أنها قالت له: يا ابن أختي، كان رسول الله - ﷺ - لا يُفَضِّل بعضنا على بعض في مُكْثِه عندنا، وكان قَلَّ يومٌ إلا وهو يطوفُ علينا، فيدنو من كلِّ امرأةٍ من غير مَسِيسٍ، حتى يبلُغَ إلى مَن هو يومُها فيَبيتُ عندها، ولقد قالت سودةُ بنتُ زَمْعَةَ حين أسنَّت وفرقت أن يُفارِقَها رسول الله - ﷺ -: يا رسولَ الله، يومي هذا لعائشة. فَقَبِل ذلك رسولُ الله - ﷺ - قالت عائشةَ: ففي ذلك أنزل الله: ﴿وإن امرأةٌ خافت من بَعْلِها نُشوزاً أو إعراضاً﴾[1].

وكذا رواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، به. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[2].

وقد رواه ابن مَرْدُويه من طريق أبي بلال الأشعري، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، به نحوه. ومن رواية عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن هشام بن عروة، بنحوه مختصراً، والله أعلم.

وقال أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الدّغولي في أول معجمه: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا مسلم ابن إبراهيم، حدثنا هشام الدستوائي، حدثنا القاسم بن أبي بَزّة قال: بعث النبي - ﷺ - إلى سَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ بطلاقها، فلما أنْ أتاها جلست له على طريق عائشةَ، فلما رأته قالت له: أنشدُك بالذي أنزل عليك كَلامه واصطفاك على خَلْقه لَمَّا راجعتني، فإني قد كبرت ولا حاجة لي في الرجال، لكن أريد أن أُبعث مع نسائك يوم القيامة. فراجعها فقالت: إني جعلت يومي وليلتي لحِبَّةِ[3] رسول الله - ﷺ -. وهذا غريب مرسل.

وقد قال البخاريُّ: حدثنا محمدُ بن مُقاتل، أخبرنا عبد الله، أخبرنا هشام بن عُروة، عن أبيه، عن عائشة: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ قالت: الرجلُ تكون عنده المرأة، ليس بمستكثِر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍّ. فنزلت هذه الآية[4].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن هشامِ بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نُشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يُصْلِحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله ألا يكون يستكثر منها، ولا يكون لها ولد، ولها صحبة، فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني[5].

حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن مِنْهالٍ، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، عن هشام، عن عُروَةَ، عن عائشة في قوله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾، قالت: هو الرجلُ يكونُ له المرأتان: إحداهما قد كبرت، أو هي دميمةٌ، وهو لا يستكثر منها، فتقول: لا تطلقني، وأنت في حِلٍّ من شأني[5].

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين، من غير وجه، عن هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة، بنحو ما تقدم ولله الحمد والمنة[6].

(١) في نسخة: عن الحسن بن أبي الزناد. والمثبت عن سنن البيهقي، كتاب القسم والنشوز ٧/ ٢٩٧. وكتاب النكاح ٧/ ٧٤ - ٧٥.

(٢) المستدرك، كتاب النكاح ٢/ ١٨٦، وسنن أبي داود، كتاب النكاح ٢/ ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٣) الحِبَّة: الحبيبة.

(٤) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٦٥.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ٣٠٧.

(٦) فتح الباري، كتاب النكاح ٩/ ٣٠٤، ومسلم، كتاب التفسير ٢٣١٦.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد وابن وكيع قالا: حدثنا جَرير، عن أشعثُ، عن ابن سِيرين قال: جاء رجل إلى عُمَر ـ رضي الله عنه ـ فسأله عن آية، فَكَرِه ذلك وضَرَبه بالدِّرَّة، فسأله آخر عن هذه الآية: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾، فقال: عن مِثل هذا فَسَلُوا. ثم قال: هذه الامرأةُ تكونُ عند الرجل، قد خلا من سنها[١]، فيتزوج المرأة الشابة يلتمسُ وَلَدها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائزٌ[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهسنجاني، حدثنا مُسَدَّد، حدثنا أبو الأحوص، عن سماك ابن حرب، عن خالد بن عَرْعَرة قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فسأله عن قول الله عز وجل: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما﴾، قال علي: يكون الرجل عنده المرأة، فتنبُو عيناه عنها من دَمَامَتها، أو كبرها، أو سُوء خُلُقها، أو قَذَرها، فتكره فراقه، فإن وضَعت له من مهرها شيئاً حَلَّ له، وإن جعلت له من أيامها فلا حَرَج.

وكذا رواه أبو داود الطيالسي، عن شعبةَ وحَمّاد بن سلمة وأبي الأحوص، ورواه ابن جرير من طريق إسرائيل[٢]، أربعتهم عن سماك، به. وكذا فسرها ابن عباس، وعَبِيدةُ السَّلْماني، ومجاهد بن جَبْر، والشعبي، وسعيد بـن جُبَير، وعطاء، وعطية العوفي، ومكحول، والحكم بن عُتْبة، والحسن، وقتادةُ، وغير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم خلافاً في أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم.

وقال الشافعي: أنبأنا ابن عُيَينة عن الزُّهري، عن ابن المسَيَّب: أن ابنة محمد بن مَسْلَمَة كانت عند رافع ابن خَدِيجٍ، فَكَرِه منها أمراً إما كِبَراً أو غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تُطَلِّقني، واقسِمْ لي ما بدا لك. فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ . . . الآية[٣].

وقد رواه الحاكم في مستدركه، من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمرٍ، عن الزُّهرِيِّ، عن سَعيد بن المُسَيَّبِ وسليمانَ بن يسارٍ بأطول من هذا السياق[٣].

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو سعيد بن أبي عمرو، حدثنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المُزَنيُّ، أنبأنا علي بن محمد بن عيسى، حدثنا أبو اليمان، أخبرني شُعَيب بن أبي حَمْزَة، عن الزُّهري، أخبرني سعيد بن المسيب وسليمان بن يَسَار: أن السُّنَّة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوزَ المرءِ وإعراضَه عن امرأتِهِ في قوله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ إلى تمام الآيتين، أن المرء إذا نشز عن امرأته وآثر عليها، فإن من الحق أن يَعْرِضَ عليها أن يُطَلِّقها أو تستقرَّ عنده على ما كانت من أثرة في القَسْم من ماله ونفسه، فإن استقرَّت عنده على ذلك، وكَرِهَت أن يُطَلِّقها، فلا حَرَجَ عليه فيما آثر عليها من ذلك، فإن لم يَعْرِض عليها الطلاقَ، وصالحها على أن يُعْطِيَهـا من ماله ما ترضاه وتقرَّ عنده على الأثرة في القَسْم من ماله ونفسه، صلح له ذلك، وجاز صلحها عليه، وكذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصُّلْحَ الذي قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فلا جناح عليهما أن يَصَّالحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾. وقد ذكر لي أن رافع بن خَديج الأنصاري، وكان من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ، كانت عنده امرأة حتى إذا كَبِرت تَزَوَّج عليها فتاةً شابةً، وآثر عليها الشابةَ، فأنشدته الطلاقَ فطلقها تطليقة، ثم أمهلها حتى إذا كادت تَحلّ راجعها، ثم عاد فآثر الشابة عليها، فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة أخرى، ثم أمهلها، حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فآثر الشابة

(١) أي: كبرت ومضى معظم عمرها.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٠٦.
(٣) ترتيب مسند الشافعي ٢/ ٢٨، والمستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

عليها، فناشدته الطلاق فقال لها: ما شِئْتِ، إنما بَقِيت لك تطليقة واحدة، فإن شئت استقررت على ما ترين من الأثرة، وإن شئت فارقتك؟ فقالت: لا، بل أستقر على الأُثَرَة. فأمسكها على ذلك، فكان ذلك صُلْحَهما، ولم ير رافع عليه إثماً حين رَضِيت أن تستقرَّ عنده على الأُثَرَة فيما آثر به عليها(١).

وهذا رواه بتمامه عبد الرحمن بن أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي اليمان، عن شُعَيب عن الزهري، عن سعيد بن المسيَّب، وسليمان بن يسار، فذكره بطوله، والله أعلم.

وقولُه: ﴿والصلحُ خير﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني التخيير، أن يُخيِّر الزوجُ لها بين الإقامة والفراق خيرٌ من تمادي الزوج على أُثَرَة غيرها عليها.

والظاهرُ من الآية أن صُلْحَهما على تَرْكِ بعض حَقِّها للزوج، وقبول الزوج ذلك، خيرٌ من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي - ﷺ - سودَة بنت زَمْعة على أن تَرَكت يومها لعائشة - رضي الله عنها - ولم يُفارِقْها بل تَرَكها من جُملة نسائه، وفعله ذلك لتتأسى به أُمَّته في مشروعية ذلك وجَوَازه، فهو أفضل في حقه - عليه الصلاة والسلام - ولما كان الوفاقُ أحبَّ إلى الله من الفراق قال: ﴿والصلحُ خيرٌ﴾، بل الطلاقُ بغيضٌ إليه سبحانه وتعالى، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه جميعاً، عن كثير بن عبيد، عن محمد بن خالد، عن مُعَرِّف بن واصل(٢)، عن محارب بن دِثَار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: أبغضُ الحلالِ إلى الله الطلاق(٣).

ثم رواه أبو داود عن أحمد بن يونس، عن مُعَرِّف، عن محارب قال: قال رسول الله - ﷺ - فذكر معناه مرسلاً(٣).

وقولُه: ﴿وإن تُحسِنُوا وَتَتَّقُوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾: وَإن تَتَجشَّمُوا مشقَّةَ الصبر على من تكرهون منهنَّ، وتَقْسِمُوا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسَيَجْزيكم على ذلك أوفرَ الجزاء.

وقولُه تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حَرَصتُم﴾، أي: لن تستطيعوا - أيها الناس - أن تُساووا بين النساء من جميع الوُجُوه، فإنه وإن حصل القَسْم الصُّوري، ليلة ولَيلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قاله ابن عباس، وعَبِيدة السَّلْماني، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك بن مُزَاحم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا حسين الجُعْفِيّ، عن زائدة، عن عبد العزيز بن رفيع، عن ابن أبي مليكة قال: نزلت هذه الآية: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ في عائشة. يعني أن النبي - ﷺ - كان يحبُّها أكثر من غيرها، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله - ﷺ - يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك. يعني القلب.

لفظ أبي داود(٤)، وهذا إسناد صحيح، لكن قال الترمذي: رواه حَمَّاد بن زيد وغير واحد، عن أيوب، عن أبي قلابة مرسلاً قال: وهذا أصح(٥).

(١) سنن البيهقي، كتاب القسمة والنشوز ٧/ ٢٩٦.
(٢) مكان مُعَرِّف في سنن ابن ماجه: عبيد الله بن الوليد الرصافي.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الطلاق ٢/ ٢٥٥، وابن ماجه، كتاب الطلاق ٦٥٠.
(٤) سنن أبي داود، كتاب النكاح ٢/ ٢٤٢، والنسائي، كتاب عشرة النساء ٧/ ٦٣-٦٤، وابن ماجه، كتاب النكاح ٦٣٣، ومسند أحمد ٥٦/ ١٤٤.
(٥) عارضة الأحوذي، أبواب النكاح ٥/ ٧٩ - ٨٠.

وقولُه: ﴿فلا تميلوا كُلَّ الميل﴾، أي: فإذا ملتم إلى واحدة منهم، فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فتذروها كالمعلقة﴾، أي: فتبقى الأخرى مُعَلَّقة.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن، والضحاك، والربيع بن أنس، والسُّدِّيُّ، ومقاتل ابن حيان: معناه: لا ذاتَ زوج ولا مُطَلَّقة.

وقد قال أبو داود الطيالسي: أنبأنا همام، عن قتادة، عن النضر بن أنس، عن بَشير بن نَهيك، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شَقَّيه ساقط[1].

وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن، من حديث هَمّام بن يحيى، عن قتادةَ، به. وقال الترمذيُّ: إنما أسنده همام، ورواه هشام الدَّستوائي عن قتادةَ قال: «كان يُقالُ». ولا نعرِفُ هذا الحديثَ مرفوعاً إلا من حَديث هَمَّام[2].

وقولُـه: ﴿وإن تُصْلِحوا وتَتَّقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: وإن أصلحتم في أموركم، وقَسَمتم بالعَدْلِ فيما تملكون، واتَّقيتم الله في جميع الأحوال، غَفَر الله لكم ما كان من مَيْلٍ إلى بعضِ النساءِ دونَ بعضٍ.

ثم قال تعالى: ﴿وإن يتفرَّقا يغن الله كلاًّ من سعته وكان الله واسعاً حكيماً﴾. وهذه هي الحالة الثالثة، وهي حالةُ الفراق، وقد أخبر تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه بها من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ أي: واسعَ الفضلِ عظيمَ المَنِّ، حكيماً في جميع أفعاله وأقدارِه وشَرْعِه.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه مالكُ السمواتِ والأرضِ، وأنه الحاكمُ فيهما، ولهذا قال: ﴿ولقد وَصَّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم﴾ أي: وصَّيناكم بما وصيناهم به، من تَقْوَى الله ـ عز وجل ـ بعبادته وَحْدَه لا شريكَ له.

ثم قال: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾... الآية، كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيٌّ حَمِيدٌ﴾. وقال: ﴿فَكَفروا وتولّوا واستغنى الله، والله غنيٌّ حَميدٌ﴾، أي: غَنِيٌّ عن عباده، ﴿حميدٌ﴾ أي: محمود في جميع ما يُقدِّره ويُشرِّعه.

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي ٣٢٢.
وأحد شقيه ساقط، أي: نصفه مائل.

(٢) مسند أحمد ٢/ ٣٤٧، ٤٧١. وسنن النسائي، كتاب عشرة النساء ٧/ ٦٣، وابن ماجه، كتاب النكاح ٦٣٣، وعارضة الأحوذي، ابواب النكاح ٥/ ٨٠ ـ ٨١.

وقولُه: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: هو القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبت، الرقيبُ الشهيدُ على كلِّ شيء.

وقولُه: ﴿إن يشأ يُذهِبْكم أيها الناسُ ويأتِ بآخرينَ وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي: هو قادرٌ على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عَصَيتُموه، وكما قال: ﴿وإن تتولوا يَسْتَبدِلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾. وقال بعضُ السلف: ما أهونَ العبادَ على الله إذا أضاعوا أمره! وقال تعالى: ﴿إن يشأ يُذهِبكم ويأتِ بِخلقٍ جَديدٍ. وما ذلك على الله بعزيز﴾، أي: ما هو عليه بممتنع.

وقولُه: ﴿من كان يريدُ ثوابَ الدنيا فعند الله ثوابُ الدنيا والآخرة﴾ أي: يا من ليس هَمّه إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثوابَ الدُّنيا والآخرة، وإذا سألتَه مِنْ هذه وهذه أعطاكَ وأغناكَ وأقناكَ، كما قال تعالى: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذابَ النار. أولئك لهم نصيبٌ مما كسبوا﴾... الآية. وقال تعالى: ﴿من كان يُريدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له في حَرْثِهِ﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿من كان يُريد العاجلَةَ عَجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نُريدُ﴾ إلى قوله: ﴿انظر كيف فَضَّلنا بعضَهم على بعضٍ﴾... الآية.

وقد زعم ابنُ جرير أنَّ المعنى في هذه الآية: ﴿من كان يريد ثوابَ الدنيا﴾ أي: من المنافقين الذين أظهَروا الإيمان لأجل ذلك: ﴿فعند الله ثوابُ الدنيا﴾، وهو ما حَصَل لهم من المغانم وغيرها مع المسلمين. وقوله: ﴿والآخرة﴾ أي: وعند الله ثواب الآخرة، وهو ما ادَّخره لهم من العقوبة في نار جهنم. وجعلها كقوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ إلى قوله ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾[1].

ولا شكَّ أن هذه الآيةَ معناها ظاهرٌ، وأما تفسيرُه الآيةَ الأولى بهذا فَفيه نظرٌ، فإنَّ قوله: ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ ظاهرٌ في حُضُورِ الخير في الدنيا والآخرة، أي: بيده هذا وهذا، فلا يَقْتَصِرَنَّ قاصرُ الهِمَّةِ على السعي للدنيا فقط، بل لتكن هِمَّتُه ساميةً إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإنَّ مرجعَ ذلك كلِّه إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إلَه إلا هو، الذي قَسَم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة بين الناس وعدل بينهم فيما عَلِمه فيهم، ممن يستحق هذا، وممَّن يستحقّ هذا. ولهذا قال: ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

يأمرُ تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قَوامين بالقسط، أي: بالعدل، فلا يَعْدِلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يَصْرِفُهم عنه صارفٌ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

وقولُه: ﴿شهداء لله﴾ كما قال: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ أي: ليكن أداؤُها ابتغاءَ وجه الله، فحينئذ تكون صحيحةً عادلةً حقاً، خاليةً من التحريف والتبديل والكتمان، ولهذا قال: ﴿ولو على أنفسكم﴾، أي: اشهد بالحقِّ ولو عاد ضَرَرُها عليك، وإذا سُئلت عن الأمر فقل الحقَّ فيه، وإن كان مَضرَّته عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمرٍ يضيق عليه.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٢٠.

وقولُه: ﴿أو الوالدين والأقربين﴾ أي: وإن كانت الشهادةُ على والديك وقرابتك، فلا تُراعِهِم فيها، بل اشهَدْ بالحقِّ وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكمٌ على كلِّ أحدٍ، وهو مُقَدَّم على كلِّ أحدٍ.

وقولُه: ﴿إن يكُن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ أي، لا ترعاه لغناه، ولا تُشْفِق عليه لِفَقْره، الله يتولَّاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلَمُ بما فيه صلاحهما.

وقولُه: ﴿فلا تَتَّبِعُوا الهوى أن تعدلوا﴾، أي: فلا يحملنَّكم الهوى والعصبيةُ وبَغْضَةُ الناس إليكم على تَرْكِ العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدلَ على أيِّ حال كان، كما قال تعالى: ﴿ولا يجرمنَّكم شنآن قوم على ألَّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.

ومن هذا القبيل قولُ عبدالله بن رَواحة، لما بعثه النبي ـ ﷺ ـ يخرصُ على أهل خَيْبرٍ ثمارهم وزُرُوعَهم، فأرادوا أن يَرْشُوه ليرفُقَ بهم، فقال: «والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخَلْقِ إليَّ، ولأنتم أبغضُ إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حُبِّي إياه وبغضي لكم على ألَّا أعْدِلَ فيكم. فقالوا: بهذا قامت السمواتُ والأرضُ». وسيأتي الحديث مسنداً في سورة المائدة، إن شاء الله.

وقولُه: ﴿وإن تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا﴾، قال مجاهد وغير واحد من السَّلَف: ﴿تَلْوُوا﴾ أي: تُحَرِّفوا الشهادة وتُغَيِّروها، «واللَّيّ» هو التَّحريفُ وتَعَمُّدُ الكَذِب، قال الله تعالى: ﴿وإن منهم لفريقاً يَلْوُون ألسنتهم بالكتاب﴾ . . . الآية، «والإعراض» هو: كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾. وقال النبي ـ ﷺ ـ: «خيرُ الشُّهَداءِ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها»[(١)]، ولهذا تَوَعَّدَهُم الله بقوله: ﴿فإن الله كان بما تعملون خَبيراً﴾ أي: وسَيُجازيكم بذلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

يأمر الله تعالى عبادَه المؤمنيـــن بالدُّخول في جميع شرائع الإيمان وشُعَبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تَكْمِيل الكامِلِ وتقريره وتَثْبيته والاستمرار عليه، كما يقولُ المؤمن في كُلِّ صلاة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، أي: بَصِّرنا فيه، وزِدْنا هُدىً، وثَبِّتنا عليه. فأمرهُم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله﴾.

وقولُه: ﴿والكتاب الذي نَزَّل على رسوله﴾، يعنى القرآنَ ﴿والكتاب الذي أَنْزَلَ من قبل﴾، وهذا جنسٌ يشملُ جميعَ الكُتُبِ المتقدِّمة، وقال في القرآن: ﴿نَزَّل﴾ لأنه مفرقاً مُنَجماً على الوقائع، بحسب ما يحتاجُ العبادُ إليه في معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة. ولهذا قال: ﴿والكتاب الذي أَنْزَلَ من قبل﴾ ثم قال: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُلِه واليومِ الآخر، فقد ضَلَّ ضلالاً بعيداً﴾ أي: فقد خَرَجَ عن طريق الهُدَى، وبَعُد عن القَصْد كلَّ البعد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ

(١) مسلم، كتاب الأقضية ١٣٤٤، ومسند أحمد ٤/ ١١٧، ٥/ ١٩٢، ١٩٣، وابن ماجه، كتاب الأحكام ٧٩٢.

عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رَجع عنه، ثم عاد فيه ثم رَجع، واستمرَّ على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يَغفرُ الله له، ولا يَجعلُ له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى. ولهذا قال: ﴿لم يكنِ الله ليغفرَ لهم ولا ليهديَهم سبيلاً﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا حفص بن جُميع، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾، قال: تمُّوا[1] على كُفرهم حتى ماتوا. وكذا قال مجاهد.

وروى ابن أبي حاتم من طريق جابر الجُعْفيّ، عن عامر الشعبيّ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: يُستتابُ المرتد، ثلاثاً، ثم تلا هذه الآية: ﴿إن الذين آمنوا، ثم كفرُوا، ثم آمنُوا، ثم كفرُوا، ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله لِيَغْفِرَ لهم ولا ليهديَهم سبيلاً﴾.

ثم قال: ﴿بَشِّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ يعني: أن المنافقين من أهل هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا، فَطُبع على قلوبهم. ثم وَصَفهم بأنهم يتخذُون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم ويُسِرُّون إليهم بالمودَّة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحنُ معكم، إنما نحن مستهزئون. أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى مُنْكِراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾؟

ثم أخبر تعالى بأن العزَّة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال في الآية الأخرى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾. وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.

والمقصودُ من هذا التهييجُ على طلب العزَّة من جناب الله، والالتجاء إلى عُبوديته، والانتظامُ في جملةِ عباده المؤمنين الذين لهم النُصرة في هذه الحياةِ الدنيا، ويوم يقومُ الأشهادُ.

ويُناسِبُ أن يُذْكَرَ ها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا أبو بكر بن عَيَّاش، عن حُميد الكندي، عن عبادة بن نُسَيّ، عن أبي ريحانة أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من انتسب إلى تسعةِ آباءٍ كفارٍ، يُريد بهم عِزّاً وكِبْراً[2] فهو عاشرهم في النار[3]».

تَفَرَّد به أحمدُ. وأبو ريحانة هذا هو أزدي، ويقال: أنصاري. اسمه شَمعونُ بالمعجمة[4]، فيما قاله البخاري، وقال غيرُه: بالمهملة، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفَر بها ويُسْتَهزأ بها، فلا تقعدُوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذاً مِثلُهم﴾ أي: إذا ارتكبتم النهي بعد وُصُوله إليكم، ورَضِيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويُنتَقَصُ بها، وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم

(١) تمُّوا: استمرُّوا.

(٢) في المسند: وكَرَماً.

(٣) مسند أحمد ٤/ ١٣٤.

(٤) انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ١٣٢٢ ـ ١٣٢٣.

فيه. فلهذا قال تعالى: ﴿إنكم إذاً مثلُهم﴾ في المأثم، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلسْ على مائدةٍ يُدَارُ عليها الخمرُ»(١).

والذي أُحِيلَ عليه في هذه الآية من النهي في ذلك، هو قولُه تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾... الآية؛ قال مقاتل بن حيان: نَسَخَت هذه الآية التي في الأنعام. يعني نسخ قوله: ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾، لقوله: ﴿وما على الذين يَتَّقون من حسابهم من شيء، ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾.

وقولُه: ﴿إن الله جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جَهَنَّم جَميعاً﴾ أي: كما اشتركوا في الكفر، كذلك شارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً، وجَمَع بينهم في دار العقوبة والنكال، والقيودِ والأغلالِ، وشرابِ الحميم والغسلين لا الزّلال.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

يُخبِر تعالى عن المنافقين أنهم يَتربَّصُون بالمؤمنين دوائرَ السوء، بمعنى ينتظرون زوالَ دولتهم، وظهورَ الكفر عليهم، وذهابَ ملتهم. ﴿فإن كان لكم فتحٌ من الله﴾ أي: نصر وتأييد وظفر وغنيمةٌ ﴿قالوا: ألم نكن معكم﴾؟ أي: يتوددُون إلى المؤمنين بهذه المقالة، ﴿وإن كان للكافرين نصيبٌ﴾ أي: إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان، كما وَقَع يوم أُحد، فإنَّ الرسل تُبتلى ثم يكون لها العاقبة، ﴿قالوا: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾، أي: ساعدناكم في الباطن، وما ألوناهم خبالاً وتَخذيلا، حتى انتصرتم عليهم.

وقال السدّيّ: ﴿نستحوذْ عليكم﴾ نَغْلِب عليكم(٢) كقوله: ﴿استحوذَ عليهم الشيطان﴾، وهذا أيضاً تَوَدُّدٌ منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء، ليحظَوا عندهم ويأمنوا كيدَهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم، وقلة إيقانهم.

قال الله تعالى: ﴿فالله يحكُم بينكم يوم القيامة﴾ أي: بما يعلمه منكم ـ أيها المنافقون ـ من البواطن الرديئة، فلا تَغترُّوا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهِرُكم، بل هو يومٌ تبلى فيه السرائرُ ويُحصَّلُ ما في الصدور.

وقولُه: ﴿ولن يجعلَ الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾. قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري؛ عن الأعمش، عن ذرّ عن يُسَيْع الكِنْدِيّ قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فقال: كيف هذه الآية: ﴿ولن يجعلَ الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾؟ فقال علي ـ رضي الله عنه ـ ادنُهْ ادنُهْ. ثم قال: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾(٣).

وكذا رَوَى ابن جُرَيج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين

(١) مسند أحمد ١/ ٢٠، ٣/ ٣٣٩. وعارضة الأحوذي، أبواب الأدب ١٠/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/ ٣٤٩.
(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٣٢.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٣٣.

سبيلاً﴾ قال: ذاك يوم القيامة. وكذا روى السدّي عن أبي مالك الأشجعي: يعني يوم القيامة. وقال السدّيُّ: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي: حُجَّةً.

ويَحْتَمِلُ أن يكون المرادُ: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي: في الدنيا، بأن يُسَلَّطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظَفَرٌ في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾... الآية. وعلى هذا فيكونُ ردّاً على المنافقين فيما أَمَّلوه وتَرَبَّصُوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مَرَضٌ يسارعون فيهم﴾ إلى قوله: ﴿نادمين﴾.

وقد استدلَّ كثيرٌ من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصحِّ قولَي العلماء، وهو المنعُ من بيع العبد المسلم من الكافر، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملْكه عنه في الحال، لقوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

قد تَقَدَّم في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يخادِعُون الله والذين آمنوا﴾ وقال ها هنا: ﴿إن المنافقين يخادِعُون الله وهو خادعهم﴾. ولا شك أن الله تعالى لا يخادَع، فإنَّه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقِلَّة علمهم وعَقْلِهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجَرَت عليهم أحكامُ الشريعةِ ظاهراً، فكذلك يكون حكمُهم يوم القيامة عند الله، وأن أمرهم يروجُ عنده. كما أخبر عنهم تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والسَّداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، فقال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾... الآية.

وقولُه: ﴿وهو خادِعُهم﴾ أي: هو الذي يستدرجُهم في طغيانهم وضلالهم، ويُخذِّلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك في القيامة، كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: انظُرونَا نَقْتَبِسْ من نُورِكم﴾ إلى قوله: ﴿وبئس المصير﴾. وقد ورد في الحديث: «من سَمَّع سَمَّع الله به، ومن رَاءى راءى الله به»(١)، وفي حديث آخر: «إن الله يأمرُ بالعبدِ إلى الجَنَّة فيما يبدو للناس، ويَعْدِلُ به إلى النار» عياذاً بالله من ذلك.

وقولُه: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى﴾... الآية. هذه صفةُ المنافقين في أشرفِ الأعمالِ وأفضَلِها وخيرِها، وهي الصلاةُ. إذا قاموا إليها قاموا وهم كُسَالى عنها، لأنهم لا نيَّة لهم فيها، ولا إيمانَ لهم بها ولا خَشْيَةَ، ولا يعقلون معناها كما رَوَى ابن مَرْدُويه، من طريق عُبَيد الله بن زَحْر، عن خالد بن أبي عمران، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: يُكْرَهُ أن يقومَ الرجلُ إلى الصلاة وهو كسلانُ، ولكن يقوم إليها طَلْقَ الوَجْهِ، عظيمَ الرَّغبةِ شديدَ الفَرَح، فإنهُ يناجي الله، وإن الله أمامَهُ يغفرُ له ويُجيبه إذا دَعَاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾.

---

(١) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/ ٣٣٥ - ٣٣٦، ومسلم، كتاب الزهد ٢٢٨٩ - ٢٢٩٠.

ورُوِي من غير هذا الوجه، عن ابن عباس، نحوه.

فقولُه تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ هذه صفةُ ظواهرهم، كما قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾. ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُراءُون النَّاس﴾ أي: لا إخلاصَ لهم، ولهذا يتخلَّفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرَون غالباً فيها كصلاة العشاء وقتَ العَتَمَة، وصلاة الصبح في وَقْت الغَلَس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أثقلُ الصلاةِ على المنافقين صلاةُ العشاءِ وصلاةُ الفجر، ولو يعلَمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً، ولقد هَمَمْتُ أن آمُرَ بالصَّلاةِ فتقامُ، ثم آمُرَ رجلاً فيصلِّي بالناس، ثم أنطلق معي برجال، معهم حُزَم من حَطَبٍ إلى قومٍ لا يشهدون الصلاةَ، فأحرِّق عليهم بُيُوتَهم بالنار»(١).

وفي رواية: «والذي نفسي بيده، لو عَلِمَ أحدُهم أنه يَجدُ عَرْقاً سَميناً أو مَرْمَاتين حَسَنَتَين، لَشَهِد الصلاة، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لَحَرَّقْتُ عليهم بُيُوتَهم بالنار»(٢).

وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا محمد ـ هو ابن أبي بكر المقدَّمي ـ حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهَجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن أحْسَنَ الصلاةَ حيثُ يراه الناسُ، وأساءها حيثُ يَخلُو، فتلك استهانةٌ استهان بها ربَّه عزّ وجل».

وقوله: ﴿ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً﴾ أي: في صلاتهم لا يخشَعُون ولا يَدْرُون ما يقولُون، بل هم في صَلاتِهم ساهون لاهُونَ، وعما يُرادُ بهم من الخير مُعْرِضُون.

وقد رَوَى الإمام مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أنَس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «تلك صلاةُ المنافِق، تلك صلاةُ المنافِقِ، تلك صلاةُ المنافِق: يجلسُ يرقبُ الشَّمسَ حتى إذا كانت بين قرني الشيطانِ، قام فَنَقَر أربعاً، لا يذكرُ الله فيها إلا قليلاً»(٣).

وكذا رواه مسلم، والترمذيُّ، والنسائيُّ، من حديث إسماعيل بن جَعْفـر المدني، عن العلاء بن عبد الرحمن، به. وقال الترمذي: حسن صحيحٌ(٣).

وقولُه: ﴿مُذَبذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ يعني المنافقين مُحَيَّرين بين الإيمان والكفر، فلا هُم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشكُّ، فتارةً يميلُ إلى هؤلاء، وتارةً يميلُ إلى أولئك، ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾... الآية.

قال مجاهدٌ: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء﴾ يعني: أصحابَ محمد ـ ﷺ ـ ﴿ولا إلى هؤلاء﴾ يعني اليهودَ.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنَّى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر،

---

(١) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/ ١٤١، ومسلم، كتاب المساجد ٤٥١ ـ ٤٥٢.

(٢) مسند أحمد ٢/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

والعَرْق: العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم. والمرماة: ما بين ظِلْفَي الشاة.

يريد عليه السلام أنه لو دعي إلى شيء حقير لأجاب.

(٣) الموطأ، كتاب القرآن ٢٢٠، ومسلم، كتاب المساجد ٤٣٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ١/ ٢٧١، والنسائي، كتاب المواقيت ١/ ٢٥٤.

عن النبي - ﷺ - قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائِرةِ بين الغَنَمين، تَعِيرُ إلى هذه مَرَّةً، وإلى هذه مَرَّةً، ولا تَدْرِي أيتهما تَتْبَعُ»[١].

تَفَرَّد به مسلم[١]. وقد رواه[٢] عن محمد بن المثنى مرة أخرى، عن عبد الوهاب، فوقف به على ابن عمر، ولم يرفعه، قال: «حدثنا به عبد الوهاب مرتين كذلك».

قلت: وقد رواه الإمامُ أحمدُ، عن إسحاقَ بن يوسُفَ، عن عُبَيد الله به مرفوعاً[٣]. وكذا رواه إسماعيل بن عياش وعلي بن عاصم، عن عبيد الله، عن نافع عن ابنِ عُمَر مرفوعاً. وكذا رواه عثمان بن محمد بن أبي شيبة، عن عبدة، عن عبد الله، به مرفوعاً. ورواه حماد بن سلمة، عن عبيد الله - أو عبد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عُمَر مرفوعاً ورواه أيضاً صخر بن جُوَيرية، عن نافع عن ابن عمر: عن النبي - ﷺ - بمثله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا خَلَفُ بن الوليد، حدثنا الهُذَيل بن بلال، عن ابن عُبيد، عن أبيه: أنه جَلَس ذات يوم بمكة وعبد الله بن عُمَر معه، فقال أبي: قال رسول الله - ﷺ -: «إن مثَلَ المنافق يوم القيامة كالشاة بين الرّبيضَين من الغنم، إن أَتَتْ هؤلاء نَطَحَتْها، وإن أتت هؤلاء نَطَحَتْها. فقال له ابنُ عُمَر: كذبت. فأثنى القومُ على أبي خيراً - أو معروفاً - فقال ابن عُمَر: لا أظن صاحبَكم إلا كما تقولونَ، ولكني شاهدٌ نبيَّ الله إذْ قال: كالشاةِ بين الغَنَمين. فقال: هو سواء. فقال: هكذا سمعتُه[٤].

وقال أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا المسعودي، عن أبي جَعْفر مُحمدِ بن عليٍّ قال: بينما عُبَيد بن عُمَير يَقُصُّ، وعنده عبد الله بن عُمَر، فقال عُبَيد بن عُمَير: قال رسولُ الله - ﷺ -: «مثلُ المنافق كالشاة بين رَبِيضَين، إذا أتت هؤلاء نطحتها، وإذا أتت هؤلاءِ نَطَحَتها. فقال ابنُ عُمَر: ليس كذلك قال رسول الله - ﷺ - إنما قال رسول الله - ﷺ -: كشاة بين غَنَمين. قال فاحتفظَ الشيخُ وغَضِبَ، فلما رأى ذلك ابن عُمَر قال: أما إني لو لم أسمعه لم أَرْدُدْ ذلك عليك[٥].

طريقٌ أخرى عن ابن عُمَر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزّاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن عثمان بن بُوذُويه، عن يعفر بن رُوذِي قال: سمعت عُبَيد بن عُمير وهو يقصُّ يقول: قال رسول الله - ﷺ -: «مثلُ المنافقِ كمثل الشاة الرابضةِ بين الغَنَمين». فقال ابن عُمَر: وَيْلَكُمْ: لا تَكْذِبوا على رسولِ الله - ﷺ - إنما قال رسول الله - ﷺ - «مثلُ المنافِقِ كمثل الشاة العائِرَةِ بين الغَنَمين»[٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن إسحاقَ، عن أبي الأحوَص، عن عبد الله - هو ابن مَسْعُودٍ - قال: مثلُ المؤمِنِ والمنافقِ والكافر مثلُ ثلاثَةِ نَفَرٍ انتهوا إلى وادٍ، فوقع أحدهم فَعَبر، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شَفِير الوادي، ويلك! أين تذهبُ؟ إلى الهلكة؟ ارجع عَوْدَكَ على بَدْئِكَ. وناداه الذي عَبَر: هَلُمَّ إلى النجاة. فجعل ينظرُ إلى هذا مَرَّةً

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٣٦. ومسلم، كتاب صفات المنافقين ٢١٤٦.
العائرة: المترددة. تعير: تذهب وتتردد.
(٢) أي الطبري.
(٣) مسند أحمد ٢/ ٤٧.
(٤) مسند أحمد ٢/ ٦٨.
والربيضان: مثنى ربيض، وهو الغنم نفسها.
(٥) مسند أحمد ٢/ ٣٢.
(٦) مسند أحمد ٢/ ٨٨.

وإلى هذا مرَّةً، قال: فجاءه سيلٌ فأغرقَهُ، فالذي عَبَر المؤمنُ، والذي غَرِق المنافقَ: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ والذي مكث الكافر(١).

وقال ابنُ جرير: حدثنا بشر، حدثنا يَزيدُ، حدثنا سعيد عن قتادة ﴿مُذَبذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مُصَرِّحين بالشرك. قال: وذُكرَ لنا أن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يَضرِبُ مثلاً للمؤمن وللمنافق وللكافر، كمثل رهط ثلاثة دَفَعوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقَطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر: أن هَلُمّ إليَّ، فإني أخشى عليك. وناداه المؤمن: أن هَلُمّ إليّ، فإني عندي وعندي: يُحصِي له ما عنده. فما زال المنافق يتردَّدُ بينهما حتى أتى آذيٌ(٢) فغرّقه. وإن المنافقَ لم يزل في شَكٍّ وشُبهة، حتى أتى عليه الموت وهو كذلك. قال: وذُكرَ لنا أن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «مثلُ المنافِقِ كمثل ثاغِيةٍ(٣) بين غنمين، رأت غنماً على نَشزٍ(٤) فأتتها وشامَتها فلم تَعْرِف، ثم رأت غنماً على نَشزٍ فأتتها وشامَتها فلم تَعرِف»(٥).

ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يُضْلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾، أي: ومن صَرَفه عن طريق الهُدَى فلـن تجـد له وليـاً مرشـداً، فإنه ﴿من يُضْلِل الله فلا هادِيَ له﴾، والمنافقون الذين أضلَّهم عن سبيل النجاة فلا هادِيَ لهم، ولا مُنقِذ لهم مما هُم فيه، فإنه تعالى لا مُعقّب لحكمه، ولا يسألُ عما يَفْعَلُ وهم يُسألون.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

ينهى تعالى عبادَه المؤمنين عن اتِّخاذ الكافرين أَوْلياء من دون المؤمنين، يعني مصاحَبَتهم ومصادقَتهم. ومناصحتهم وإسرار المودّةِ إليهم، وإفشاءَ أحوالِ المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيءٍ إلا أن تتقوا منهم تُقاةً، ويُحذِّركم الله نفسه﴾، أي: يُحذِّركم عقوبَته في ارتكابكم نَهْيَه. ولهذا قال ها هنا: ﴿أتُريدُون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حُجَّةً عليكم في عقوبته إياكم.

قال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا سُفيان بن عُيَينة، عن عَمْرو بن دِينارٍ، عن عكرمة عن ابن عباس، قوله: ﴿سلطاناً مبيناً﴾: كلّ سلطان في القرآن حجَّةٌ.

وهذا إسنادٌ صحيح. وكذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب القُرَظي، والضحاك، والسّديُّ، والنضرُ بن عَرَبيّ(٦).

(١) الدرّ المنثور ٢/ ٧٢٠.
(٢) الآذيّ: الموج الشديد.
(٣) الثاغية: الشاة، وثغت: صاحت.
(٤) النشز: الموضع المرتفع. وشامتها: دنت لتعرف أهي أخواتها أم لا؟.
(٥) تفسير الطبري ٥/ ٣٣٦.
(٦) النضر بن عربي، أبو عمر، ويقال: أبو روح. مديني. روى عن عُمَر بن عبد العزيز ومجاهد وعطاء وغيرهم. روى عنه وكيع وغيره. ثقة. انظر الجرح لابن أبي حاتم ٨/ ٤٧٥.

ثم أخبر تعالى: ﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار﴾، أي: يوم القيامة، جَزَاءً على كفرهم الغَلِيظ، قال الوالبي، عن ابن عباس: ﴿في الدَّرْك الأسفل من النار﴾ أي: في أسفلِ النـار. وقال غيره: النار دركات، كما أن الجنة درجات.

وقال سفيان الثوريُّ، عن عاصم، عن ذكوانَ أبي صالح، عن أبي هُرَيرة: ﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار﴾. قال: في توابيت تُرْتَجُ عليهم. كذا رواه ابن جَرِير، عن ابن وكيع، عن يحيى بن يمان، عن سفيان، به[1].

ورواه ابنُ أبي حاتم، عن المنذر بن شاذان، عن عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾، قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تُطْبِقُ عليهم، فَتُوقَد من تحتهم ومن فوقهم.

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا عبد الرحمن، حدثنا سُفيان، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن خَيْثَمَة، عن عبد الله، يعني ابن مسعود، ﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ قال: في توابيت من نار تُطْبِقُ عليهم[1].

ورواه ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد الأشجِّ، عن وكيع، عن سفيان، عن سلمة، عن خَيْثمة، عن ابن مسعود: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾، قال: في توابيت من حديد مُبْهَمَةٍ عليهم.

ومعنى قوله: «مبهمة» أي: مغلقة مقفلة لا يُهتدى لمكان فتحها.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا علي بن زيد، عن القاسم بن عبد الرحمن: أن ابن مسعود سُئِل عن المنافقين، فقال: يُجْعَلُون في توابيتَ من نارٍ، فَتُطْبِق عليهم في أسفلِ دَرْكٍ من النار.

﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾، أي: يُنْقِذُهم مما هم فيه، ويُخرِجُهم من أليم العذاب.

ثم أخبر تعالى أن من تاب في الدنيا تاب عليه، وقَبِل نَدَمه، إذا أخلصَ في توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أَمْرِهِ، فقال: ﴿إلا الذين تابوا وأصلَحُوا واعتَصَمُوا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ أي: بَدَّلوا الرياءَ بالإخلاص، فينفعهم العملُ الصالح وإن قَلَّ.

قال ابن أبي حاتم: أخبرنـا يونس بن عبد الأعلى قراءةً، أنبأنا ابن وهب، أخبرني يحيى بن أيوبَ، عن عُبَيد الله بـن زَحْر!، عن خالد بن أبي عمران، عن عمرو بن مُرَّة، عن معاذ بن جَبَل: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أخلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ القليلُ من العَمَل».

﴿فأولئك مع المؤمنين﴾، أي: في زُمْرَتهم يوم القيامة، ﴿وسوف يُؤْتِ الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾.

ثم قال مخبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنما يُعَذِّب العبادَ بذُنُوبهم، فقال: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ أي: أصلحتم العملَ وآمنتُم بالله ورسوله. ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾، أي: من شَكَر شكر له. ومن آمن قلبُه به عَلِمَه، وجازاه على ذلك أوفَرَ الجزاءِ.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٣٨.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

قال ابنُ أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لا يحبُّ الله الجَهْرَ بالسُّوءِ من القول﴾، يقول: لا يحبُّ الله أن يدعُو أحدٌ على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أَرْخَص له أن يدعُوَ على ظلمه، وذلك قولُه: ﴿إلا مَن ظُلِمَ﴾، وإن صَبَر فهو خير له.

وقال أبو داود: حدثنا عُبَيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا سفيان، عن حَبيب، عن عطاء، عن عائشة قالت: سُرِق لها شيءٌ، فجعلت تدعُو عليه، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «لا تُسَبِّخي عنه»[١].

وقال الحسنُ البَصري: لا يَدْعُ عليه، ولْيقُلْ: اللهم أَعِنِّي عليه، واستخرجْ حقِّي منه. وفي رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظَلَمه من غير أن يَعْتَدِي عليه.

وقال عبد الكريم بن مالك الجَزَرِيّ في هذه الآية: هو الرجلُ يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فَلَا تَفْتَرِ عليه، لقولِهِ: ﴿وَلَمن انتصَرَ بعدَ ظُلْمِه فأولئك ما عليهم من سبيلٍ﴾.

وقال أبو داود: حدثنا القَعْنَبِيُّ، حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: المُسْتَبَّانِ ما قالا، فعلى البادِىء منهما، ما لم يَعْتَدِ المظلومُ»[٢].

وقال عبدُ الرزاق: أنبأنا المثنَّى بن الصبَّاح، عن مجاهد في قوله: ﴿لا يحبُّ الله الجَهْرَ بالسوء من القول إلا من ظلم﴾، قال: ضَاف رجلٌ رجلاً، فلم يُؤَدِّ إليه حَقَّ ضِيافَتِه، فلما خرج أخبَرَ الناسَ، فقال: «ضِفْتُ فلاناً فلم يؤدِّ إليَّ حق ضيافتي». فذلك الجهرُ بالسوءِ من القولِ إلا من ظُلِم، حين لم يُؤَدِّ الآخر إليه حق ضيافته[٣].

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿لا يحبُّ الله الجَهْرَ بالسوء من القول إلا من ظُلِم﴾ قال: هو الرجلُ ينزل بالرجلِ فلا يحسِنُ ضيافته، فيخرُجُ فيقول: «أساء ضيافتي، ولم يُحْسِن». وفي رواية: هو الضيف المحوِّل رحلَهُ، فإنه يجهر لصاحبه بالسوءِ من القول».

وكذا رُوِي عن غير واحد، عن مجاهد، نحو هذا. وقد روى الجماعةُ سوى النسائي والترمذي، من طريق الليث بن سعد، والترمذي من حديث ابن لَهيعةَ، كلاهما عن يزيدَ بن أبي حَبيب، عن أبي الخير مَرْثَد بن عبد الله، عن عقبةَ بن عامرٍ قال: قُلنا: يا رسولَ الله، إنك تَبعثُنا فننزلُ بقوم فلا يَقْرُونا، فما تَرَى في ذلك؟ قال: «إذا نزلتُم بقوم فَأَمَرُوا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبَلُوا منهم، وإن لم يفعَلُوا فَخُذوا منهم حَقَّ الضيفِ الذي يَنبَغِي لهم»[٤].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، سمعت أبا الجُودِيّ يحدِّثُ، عن سعيد بن

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٢٧٨.
لا تسبِّخي عنه: لا تُخفِّفي عنه العقوبة وتنقصي أجرك في الآخرة بدعائك عليه.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٢٧٤.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ٢ ـ ٣.
(٤) فتح الباري، كتاب المظالم ٥/ ١٠٧ ـ ١٠٨، ومسلم، كتاب اللقطة ١٣٥٣، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٣/ ٣٤٣، ومسند أحمد ٤/ ١٤٩، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢١٢، وعارضة الأحوذي، أبواب السير ٧/ ٨٦ ـ ٨٧.

المهاجر، عن المقدام أبي كريمة، عن النبي - ﷺ - أنه قال: «أيُّما مسلم ضَافَ قوماً، فأصبح الضَّيفُ محروماً، فإن حقاً على كل مسلم نصرُه حتى يأخذ بِقِرى ليلته من زَرْعِهِ وماله».

تفرد به أحمد من هذا الوجه[١].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا شعبة، حدثني منصور، عن الشعبي، عن المقدام أبي كريمة، سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «ليلةُ الضَّيفِ واجبةٌ على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محروماً كان ديناً عليه، إنْ شاء اقتضاه وإن شاء تركه[٢]».

ثم رواه أيضاً غُنْدَر عن شعبة[٣]. وعن زياد بن عبد الله البكائي[٤]. [و] عن وكيع، وأبي نعيم عن سفيان الثوري[٥] - ثلاثتهم عن منصور، به. وكذا رواه أبو داود من حديث أبي عوانة، عن منصور[٦]، به.

ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمدُ وغيره إلى وجوب الضيافة، ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البَزَّارُ.

حدثنا عمرو بن علي، حدثنا صفوان بن عيسى، حدثنا محمد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رجلاً أتى النبي - ﷺ - فقال: إن لي جاراً يُؤْذيني؟ فقال له: «أَخْرِجْ متاعَكَ فَضَعْه على الطريق». فأخذ الرجل متاعه فَطَرحه على الطريق، فَجعل كلُّ من مَرَّ به قال: ما لك؟ قال: جارِي يُؤْذِيني. فيقول: اللهمَّ العنه، اللهم اخْزِهِ! قال: فقال الرجلُ: ارجعْ إلى منزلك، والله: لا أُوذِيكَ أبداً».

وقد رواه أبو داود في كتاب الأدب، عن أبي توبة الربيع بن نافع، عن سليمان بن حَيّان أبي خالد الأحمر، عن محمد بن عَجْلان[٧] به.

ثم قال البَزّار: لا نعلمه يُروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، ورواه أبو جُحَيفة[٨] وهب بن عبد الله، عن النبي - ﷺ - ويوسف بن عبد الله بن سلام، عن النبي - ﷺ -.

وقولُه: ﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً﴾، أي: إنْ تُظْهِروا أيها الناس خيراً، أو أخفيتُموه، أو عَفوتم عمن أساء إليكم، فإنَّ ذلك مما يُقرِّبكم عند الله ويُجْزِل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يَعْفُوَ عن عباده مع قُدْرَتِه على عقابهم. ولهذا قال: ﴿فإن الله كان عَفُوّاً قديراً﴾. ولهذا ورد في الأثر: أنَّ حَمَلة العرش يُسَبِّحون الله، فيقول بعضهم: سُبحانك على حِلْمِك بعد عِلْمِكَ. ويقول بعضهم: سُبْحانك على عَفْوك بعد قُدْرتِكَ. وفي الحديث الصَّحيح: «ما نَقَص مالٌ من صَدَقةٍ، ولا زادَ الله عبداً بِعَفْوٍ إلا عِزّاً، ومن تَوَاضَعَ لله رَفَعه الله»[٩].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ

(١) مسند أحمد ٤/ ١٣٣.
(٢) مسند أحمد ٤/ ١٣٠.
(٣) مسند أحمد ٤/ ١٣٢ - ١٣٣.
(٤) مسند أحمد ٤/ ١٣٠.
(٥) مسند أحمد ٤/ ١٣٢.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣.
(٧) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٣٣٩.
(٨) رواية أبي جحيفة في كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البرّ ٢/ ٣٨٢.
(٩) مسلم، كتاب البر ٢٠٠١، وعارضة الأحوذي، أبواب البر ٨/ ١٨٤، والموطأ، كتاب الصدقة ١٠٠٠، ومسند أحمد ٢/ ٣٨٦.

وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

يَتَوَعَّد تعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنَّصارَى، حيث فرَّقوا بين الله ورُسُلِه في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء، وكَفَرُوا ببَعْض، بمجرَّدِ التشهي والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم، لا عن دَليلٍ قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيلَ لهم إلى ذلك، بل بمجرَّد الهوى والعصبية. فاليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله ـ آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنُوا بالأنبياءِ وكَفَرُوا بخاتمهم وأشرفهم مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ، والسَّامِرَةُ لا يؤْمنونَ بنبيّ بعد يُوشَع خَلِيفَةِ موسى بن عمرانَ، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبيٍّ لهم يقال له: زِرادِشْت، ثم كفروا بشَرْعِهِ، فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم.

والمقصودُ أن من كفر بنبيّ من الأنبياء، فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجبٌ بكل نبيٍّ بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رَدَّ نُبُوَّته للحَسَد أو العصبية أو التشهي تَبَيَّن أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو من غَرَضٍ وهوىً وعَصَبِيَّة، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾، فوَسَمَهُم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ويريدون أن يُفَرقوا بين الله ورسله﴾ أي: في الإيمان ﴿ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدُون أن يَتَّخِذُوا بين ذلك سبيلاً﴾ أي: طريقاً وَمَسْلَكاً.

ثم أخبر تعالى عنهم، فقال: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾، أي: كفرُهم مُحقَّقٌ لا محالة بمن ادَّعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رَسُولَ الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضحُ دليلاً وأقوى برهاناً منه، أو نَظَروا حَقَّ النظر في نبوته.

وقولُه: ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾، أي: كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله، وإعراضهم عنه، وإقبالهم على جَمْعِ حُطام الدنيا مما لا ضَرورة بهم إليه، وإمَّا بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما كان يفعله كثيرٌ من أحبار اليهود في زمانِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، حيث حَسَدُوه على ما آتاه الله من النبوَّةِ العظيمة، وخالَفُوه، وكَذَّبوه، وعادَوه، وقاتَلُوه، فَسلَّط الله عليهم الذلَّ الدنيويَّ الموصول بالذلِّ الأخرويِّ، ﴿وضُرِبت عليهم الذِّلَّةُ والمسكنةُ وباءُوا بغضَبٍ من الله﴾ في الدنيا والآخرة.

وقولُه: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ يعني بذلك: أمةَ محمد ـ ﷺ ـ، فإنهم يؤمنون بكلِّ كتابٍ أنزله الله وبكل نبي بَعَثه الله، كما قال تعالى: ﴿آمن الرسولُ بما أُنزلَ إليه من ربِّه والمؤمنونَ كل آمن بالله﴾... الآية.

ثم أخبر تعالى بأنه قد أعدَّ لهم الجزاءَ الجَزيلَ والثواب الجليلَ والعطاءَ الجميلَ، فقال: ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ على ما آمنوا بالله ورُسُلِه ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لذنوبهم، أي: إن كان لبعضِهم ذنوبٌ.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا

مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

قال محمَّد بن كَعْب القُرَظِيُّ، والسدّيُّ، وقتادةُ: سأل اليهودُ رسول الله ـ ﷺ ـ أن يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء، كما نُزِّلت التوراة على موسى مكتوبةً.

وقال ابن جُرَيج: سألوه أن يُنزِّل عليهم صُحُفاً من الله مكتوبةً إلى فلانٍ وفلانٍ وفلانٍ، بتصديقه فيما جاءهم به. وهذا إنما قالوه على سبيل التعنّت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفارُ قُريش قبلهم نَظِير ذلك، كما هو مذكور في سورة «سبحان»: ﴿وقالوا: لن نُؤْمِن لك حتى تَفْجُر لنا من الأرض ينبوعاً﴾[١]. الآيات. ولهذا قال تعالى: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرةً. فأخذتهم الصاعقةُ بظلمهم﴾، أي: بطغيانهم وغيهم، وعتوهم وعنادهم. وهذا مُفسَّر في سورة «البقرة»، حيث يقول تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾[٢].

وقولُه تعالى: ﴿ثم اتَّخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البيِّنات﴾، أي: بعد ما رَأوا من الآيات الباهرةِ والأدلَّة القاهرة على يد موسى ـ عليه السلام ـ في بلاد مصر، وما كان من إهلاك عَدُوِّ الله فرعون وجَمِيع جُنُودِهِ في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتَوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: ﴿اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة﴾. . . الآيتين.

ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطةً في سورة «الأعراف»، وفي سورة «طه» بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبَتَهُم من الذي صَنَعُوه وابتدعوه: أن يقتُلَ من لم يعبد العجلَ منهم مَن عَبَدَه، فجعلَ يقتُلُ بعضُهم بعضاً، ثم أحياهم الله عز وجل. فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ورفعنا فوقهم الطُّور بميثاقهم﴾، وذلك حين امتَنَعُوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظَهَر منهم إباءٌ عما جاءَهُم به موسى عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جَبَلاً، ثم أُلْزِمُوا فالتزموا وسجدوا، وجَعَلُوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خَشْيَةَ أن يسقُطَ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، خُذُوا ما آتيناكم بقوة﴾. . . الآية.

﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سُجَّداً﴾ أي: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سُجَّداً، وهم يقولون: حِطَّة. أي: اللهم حُطَّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونُكُولنا عنه، حتى تُهنا في التِّيهِ أربعين سنة. فدخلوا يزحَفُون على أستاههم، وهم يقولون: حِنطةٌ في شَعْرَةٍ.

﴿وقلنا لهم: لا تعدُوا في السَّبت﴾ أي: وَصَّيناهم بحفظ السَّبْتِ والتزام ما حَرَّم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي: شَدِيداً، فخالفوا وعَصَوْا وتحيَّلُوا على ارتكاب مناهِي الله ـ عز وجل ـ كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضِرَةَ البحر﴾[٣]. . .

---

(١) الآية ٩٠ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٥٥، ٥٦ من سورة البقرة.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٦٣ ـ ١٦٥.

الآيات. وسيأتي حديث صفوان بن عَسَّال، في سورة «سبحان» عند قوله: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾، وفيه: «وعليكم خاصَّةً يهُودَ ألاَّ تَعدُوا في السَّبْتِ»(١).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

وهذه مِن الذنوب التي ارتكبُوها، مما أوجب لَعْنَتَهُم وطَرْدَهم وإبعادَهم عن الهُدَى، وهو نقضُهم المواثيقَ والعهودَ التي أُخِذَت عليهم، وكُفْرِهم بآيات الله، أي: حجَجِه وبراهِينه، والمعجِزاتِ التي شاهَدُوها على أيدي الأنبياءِ عليهم السلام.

قولُه: ﴿وقَتْلِهِم الأنبياء بغير حق﴾، وذلك لكثرة إجْرَامِهم واجترائِهم على أنبياء الله، فإنهم قَتَلُوا جَمّاً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام.

وقولُهم: ﴿قلوبنا غلف﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، وعكرمةُ، والسدّيُّ، وقتادةُ، وغيرُ واحِدٍ: أي في غِطاء.

وهذا كقول المشركين: ﴿وقالوا: قُلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه﴾... الآية.

وقيل: معناه أنهم ادَّعوا أن قلوبهم غُلُف للعلم، أوعيةٌ للعلم قد حَوَتْه وحَصَّلته. رواه الكَلْبِيُّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وقد تَقَدَّم نظيره في سورة البقرة(٢).

قال الله تعالى: ﴿بل طَبَعَ الله عليها بكفرهم﴾، فعلى القول الأول كأنَّهم يعتذرُون إليه بأن قلوبهم لا تَعِي ما يقولُ، لأنها في غُلُفٍ وفي أكنة، قال الله: بل هي مطبوعٌ عليها بكفرهم. وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة(٣).

﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾، أي: مَرَنَتْ قلوبهم على الكفر والطغيان وقِلَّةِ الإيمان.

﴿وبكفرهم وقولهم على مَرْيم بهتاناً عظيماً﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «يعني أنهم رَمَوها بالزنا»(٢). وكذا قال السّديُّ، وجُوَيبر، ومحمَّدُ بن إسحاقَ وغير واحد. وهو ظاهر من الآية: أنهم رَمَوها وابنها بالعظائم، فَجَعلوها زانيةً وقد حَمَلت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقولُهم: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصِبَ قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يا أيها الذي نُزِّل عليه الذِّكْرُ إنك لمجنون﴾.

---

(١) سنن النسائي، كتاب تحريم الدم ٧/ ١١١ ـ ١١٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الإسراء ١١/ ٣٠١ ـ ٣٠٣.
(٢) انظر تفسير الآية ٨٨ من سورة البقرة.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ١٢.

وكان من خَبَر اليهودِ ـ عليهم لعائنُ الله وسَخَطُه وغَضَبُه وعِقابُه ـ أنه لما بَعَث الله عيسى ابن مريم بالبيِّنات والهُدَى، حَسَدُوه على ما آتاه الله من النبوَّةِ والْمُعْجِزَاتِ الباهِرَاتِ، التي كان يُبْرِىءُ بها الأكمه والأبرصَ ويحيي الموتى بإذن الله، ويُصَوِّر من الطين طائراً، ثم ينفُخ فيه فيكون طائـراً يشاهَدُ طيرانه بإذن الله عز وجل. إلى غير ذلك من المعجزاتِ التي أكرمَه الله بها وأجراها على يَدَيه، ومع هذا كَذَّبُوه وخالَفُوه، وسعَوْا في أذاه بكلِّ ما أمكنَهُم، حتى جعل نَبيُّ الله عيسى ـ عليه السلام ـ لا يُساكنُهم في بَلْدةٍ، بل يُكْثِر السياحة هو وأُمُّه عليهما السلام. ثم لم يُقْنِعهم ذلك حتى سَعَوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان ـ وكان رجلاً مشركاً من عَبَدَةِ الكواكب، وكان يُقال لأهل مِلَّته: اليونان ـ وأنهوا إليه: أن بِبَيْتِ المقدس رجلاً يفتِن الناسَ ويُضِلُّهم ويُفسِد على المَلِك رعاياه. فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاطَ على هذا المذكور، وأن يَصْلِبه ويضع الشوكَ على رأسه، ويكفَّ أذاه عن الناس. فلما وصل الكتابُ امتَثَل مُتولي بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفةٌ من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعةٍ من أصحابه، اثنا عشرَ أو ثلاثة عَشَر ـ وقيل: سبعةَ عشَر نفراً ـ وكان ذلك يومَ الجُمُعة بعد العصر ليلةَ السبتِ، فَحَصَرُوه هنالك. فلما أحسَّ بهم وأنه لا محالَة من دخولهم عليه، أو خروجه عليه قال لأصحابه: أيكم يُلْقَى عليه شَبَهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدَبَ لذلك شابٌّ منهم، فكأنه استصغَره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا يَنْتَدِبُ إلا ذلك الشابُّ، فقال: أنت هو. وألقى الله عليه شَبَه عيسى، حتى كأنه هو، وفُتحت رَوْزَنَةٌ[1] من سَقْفِ البيت، وأخذَتْ عيسى ـ عليه السلام ـ سِنَةٌ من النوم، فَرُفِع إلى السماء وهو كذلك، كما قال تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني مُتوفِّيكَ ورافعك إلي﴾ . . . الآية.

فلما رُفِعَ خَرَج أولئك النَفَر، فلما رأى أولئك ذلك الشابَ ظَنُّوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصَلَبُوه، وَوَضَعُوا الشَّوكَ على رأسه. وَأَظْهَر اليهودُ أنهم سَعَوا في صَلْبه وَتَبَجَّحُوا بذلك، وسَلَّم لهم طوائفُ النصارى ذلك، لجَهْلِهم وقِلَّة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شَاهَدُوا رَفْعه، وأما الباقون فإنَّهم ظَنُّوا كما ظَنَّ اليهودُ أن المَصْلُوبَ هو المسيحُ ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جَلَسَت تحت ذلك المصلوب وَبَكَتْ، ويقال: إنه خاطبها. فالله أعلم.

وهذا كُلُّه من امتحانِ الله عبادَه، لما له في ذلك من الحِكْمَةِ البالغة، وقد أوضحَ الله الأمرَ وجَلاَّه وبيَّنه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيَّد بالمعجزاتِ والبيِّناتِ والدلائلِ الواضِحَات. فقال تعالى وهو أصدقُ القائلين، وربُّ العالمين، المطَّلعُ على السرائر والضمائر، الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكونُ ـ: ﴿وما قَتَلُوه وما صَلَبُوه ولكن شُبِّه لهم﴾، أي: رأوا شَبَهه فظنُّوه إياه، ولهذا قال: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شَكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباعَ الظنِّ﴾ يعني بذلك: من ادَّعى قتله من اليهود، ومن سلَّمه من جُهَّال النصارى، كلُّهم في شك من ذَلِكَ وحيرةٍ وضَلالٍ وسُعُرٍ[2]. ولهذا قال: ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنَّه هو، بل شاكِّين مُتوهِّمين ﴿بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً﴾، أي: منيعَ الجنابِ، لا يُرام جنابُه، ولا يُضامُ من لاذَ ببابه ﴿حكيماً﴾ أي: في جميع ما يُقَدِّره ويَقْضِيه من الأمور التي يخلُقها، ولَه الحكمةُ البالغةُ، والحجَّةُ الدامغةُ، والسلطانُ العظيمُ، والأمرُ القديمُ.

---

(١) الرَّوْزَنَة: الكوة والخرقة في السقف.

(٢) السعر: الجنون، والضلال أيضاً.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو مُعاويةَ، عن الأعمش، عن المِنْهَالِ بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خَرَج على أصحابه ـ وفي البيت اثنا عشر رَجُلاً من الحواريِّين ـ يعني فخرج عليهم من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرةَ مَرَّةً، بعد أن آمن بي. ثم قال: أيكم يُلْقَى عليه شبهي، فَيُقْتَلَ مكاني ويكونَ معي في دَرَجتي؟ فقام شابٌّ من أحدَثِهم سناً، فقال له: اجلِسْ. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فَأُلقِيَ عليه شَبَهُ عيسى. ورُفع عيسى من رَوْزَنةٍ في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطَّلَبُ من اليهود، فأخذوا الشَّبه فقتلُـوه، ثم صَلَبُوه، وكفر به بعضهم اثنَتي عشرَةَ مرَّةً، بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاثَ فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء. وهؤلاء اليعقوبيَّةُ، وقالت فرقةٌ: كان فينا ابنُ الله ما شاء، ثم رَفَعه الله إليه. وهؤلاء النَّسطُورية، وقالت فرقة: كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلُوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بَعَث الله محمداً ـ ﷺ ـ.

وهذا إسنادٌ صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كُرَيب، عن أبي مُعاوية، بنَحْوِه، وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم: أيكم يُلْقَى عليه شَبَهي فَيُقْتَلَ مكاني، وهو رَفِيقي في الجنةِ؟.

وقال ابنُ جَريرٍ: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يعقوبُ القُمِّي، عن هارون بن عَنْتَرَة، عن وَهْب بن مُنَبِّه قال: أُتِيَ عيسى وعنده سَبعةَ عشر من الحواريِّين في بيت وأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليه صَوَّرهم الله ـ عز وجل ـ كلَّهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سَحَرْتُمونا. لَيَبْرزَنَّ لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه: من يَشْرِي نفسَه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجلٌ منهم: أنا. فخرج إليهم وقال: أنا عيسى ـ وقد صَوَّره الله على صورة عيسى، فأخذوه وقَتَلُوه وصَلَبُوه. فمن ثَمَّ شُبِّه لهم، فظنوا أنهم قد قَتَلُوا عيسى، وظَنَّت النصارى مثلَ ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك(١).

وهذا سياق غريب جداً.

قال ابنُ جَرير: وقد رُوِي عن وَهْب نحو هذا القول، وهو ما حدثني به المُثَنَّى، حدثنا إسحاقُ، حدثنا إسماعيلُ بن عبد الكريم، حَدَّثني عبد الصمد بن مَعْقِل: أنه سَمِع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريمَ لما أعلمه الله أنه خارجٌ من الدنيا، جَزِع من الموت وشقَّ عليه، فدعا الحواريِّين فَصَنع لهم طعاماً، فقال: احضروني الليلةَ، فإن لي إليكم حاجةً. فلما اجتمعوا إليه من الليل عَشَّاهم وقام يخدُمُهم. فلما فَرَغُوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويُوَضِّئهم بيده، ويمسَحُ أيديهم بثيابه، فتعاظموا ذلك وتكارهوه، فقال: ألا من رَدَّ عليَّ شيئاً الليلة مما أصنع، فليس مني ولا أنا منه. فأقرّوه، حتى إذا فَرَغ من ذلك قال: أمَّا ما صنعتُ بكم الليلة، مما خدمتكم على الطعام، وَغَسلت أيديكم بيدي، فَلْيكنِ لكم بي أسوةٌ، فإنكم تَرَون أني خيرُكم فلا يتعظَّم بعضُكم على بعض، وَلْيَبْذُلْ بعضُكم نفسَه لبعض، كما بذلتُ نفسي لكم. وأما حاجتي الليلة التي أستعينكم عليها فتدعُون لي الله، وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي. فلما نَصَبُوا أنفسهم للدعاء، وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً، فجعل يُوقِظهم ويقول: سبحان الله. أما تَصْبرون لي ليلةً واحدةً تُعِينُونني فيها؟ قالوا: والله ما ندري ما لنا. لقد كنا نسمرُ فَنُكثِرُ السَمَر، وما نُطيق الليلة سَمَراً، وما نريد دعاءً إلا حيل بيننا وبينه. فقال: يُذْهَبُ بالراعي وتتفرَّقُ الغنمُ. وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعَى به نفسه. ثم قال: الحقَّ، ليكفرن بي أحدُكم

(١) تفسير الطبري ٦/ ١٢ ـ ١٣.

قبل أن يَصِيح الديكُ ثلاثَ مرَّات، وليبيعنّي أحدُكم بدراهِمَ يسيرةٍ، وليأكُلنَّ ثمني. فخرجوا وتفرَّقوا. وكانت اليهود تطلبه، وأخذوا شَمْعُون أحدَ الحواريِّين، وقالوا: هذا من أصحابه. فجحد وقال: ما أنا بصاحبه. فتركوه، ثم أخذه آخرون، فجحد كذلك، ثم سمعَ صَوْتَ ديك فبكى وأحزنه، فلما أصبح أتى أحدُ الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دَلَلْتُكُمْ على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلَّهم عليه، وكان شُبِّه عليهم قبل ذلك، فأخذوه، فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، وجعلوا يقودونه ويقولون له: أنتَ كنتَ تُحيي الموتى، وتنهَرُ الشيطان، وتُبرِئُ المجنون، أفلا تُنْجِي نفسك من هذا الحبل؟ ويبصُقُون عليه، ويُلقون عليه الشوكَ، حتى أتوا به الخشبةَ التي أرادوا أن يَصْلُبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصَلبوا ما شُبِّه لهم. فَمَكث سبعاً.

ثم إن أمَّه والمرأةَ التي كان يداويها عيسى ـ عليه السلام ـ فأبرأها الله من الجنون، جاءتا تبكيان حيثُ المصلوبُ، فجاءهما عيسى فقال: عَلامَ تبكيان؟ فقالتا: عليك. فقال. إني قد رَفعني الله إليه، ولم يُصِبني إلا خيرٌ، وإنَّ هذا شُبِّه لهم. فَأْمُرَا الحواريِّين يَلْقَوني إلى مكان كذا وكذا. فَلَقُوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفَقَدُوا الذي كان باعَه ودَلَّ عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقالوا: إنه نَدِم على ما صَنَع فاختنقَ، وقَتَل نفسه. فقال: لو تاب لتاب الله عليه. ثم سألهم عن غلام كاد يتبعهم، يقال له: يحيى[1]، قال: هو معكم، فانطلقوا، فإنه سيُصبِحُ كلُّ إنسانٍ يحدِّثُ بلغة قومه، فَلْيُنْذِرْهُم ولْيَدْعُهُم[2].

سياق غريب جداً.

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا سَلَمة، عن ابن إسحاقَ قال: كان اسمُ مَلِكِ بني إسرائيلَ الذي بَعَث إلى عيسى ليقتله رَجُلاً منهم، يقال له: داود[3]، فلما أجمعوا لذلك منه، لم يُفْظَع عبدٌ من عباد الله بالموت ـ فيما ذكر لي ـ فَظَعُهُ، ولم يجزع منه جَزَعه، ولم يدع الله في صَرْفه عنه دعاءه، حتى إنه ليقول، فيما يزعمون، : «اللهم إن كنتَ صارفاً هذه الكأس عن أحد من خَلْقِك فاصرفْها عني». وحتى إن جلده من كَرْبِ ذلك ليتفصَّد دماً. فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يَدْخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه، وهم ثلاثة عشر بعيسى عليه السلام. فلما أيقن أنهم داخلون عليه قال لأصحابه من الحواريين ـ وكانوا اثني عشر رجلاً: فطرس، ويعقوب بن زبدى، ويُحنَّس أخو يعقوب، وأندراييس، وفِيلُبُّس، وأَبْرَثَلْما، ومتّى، وتوماس، ويعقوب بن حَلْفيا، وتداوسيس، وقثانيا، ويودُسُ زَكَريا يُوطا.

قال ابن حُمَيد، قال سلمة، قال ابن إسحاق: وكان ذُكِر لي رجلٌ اسمه سَرْجِس، فكانوا ثلاثة عشر رجلاً سوى عيسى عليه السلام، جَحَدته النصارى، وذلك أنه هو الذي شُبِّه لليهود مكان عيسى، قال: فلا أدري ما هو مِنَ الإثني عشر، أو كان ثالث عشر؟ فجحدوه حين أقروا لليهود بِصَلْب عيسى، وكفروا بما جاء به محمد ـ ﷺ ـ من الخبر عنه. فإن كانوا ثلاثةَ عَشَر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا، وهم بعيسى أربعة عشر، وإن كانوا اثني عشر، فإنهم دخلوا المدخَلَ حين دخلوا وهم ثلاثةَ عَشَرَ.

قال ابن إسحاق: وحَدَّثني رجل كان نصرانياً فأسلم، أن عيسى حين جاءه من الله: ﴿إني رافعك إليّ﴾ قال: يا معشَر الحواريِّين، أيّكم يُحِبُّ أن يكون رفيقي في الجنة [على أن] يُشَبَّه للقوم في صورتي، فيقتلوه في مكاني؟ فقال سَرْجِس: أنا، يا روحَ الله. قال: فاجلس في مجلسي فجلس فيه، ورُفع عيسى عليه السلام،

---

(١) في تفسير الطبري: يُحَنا.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٣.

(٣) في تفسير الطبري: داودا.

فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه، فكان هو الذي صَلَبُوه وشبّه لهم به، وكان عِدَّتهم حين دخلوا مع عيسى معلومةً، قد رأوهم وأحصَوا عدتهم. فلما دخلوا عليه ليأخذوه وجدوا عيسى فيما يُرون وأصحابه، وفقدوا رجلاً من العدَّة، فهو الذي اختلفوا فيه وكانوا لا يعرفون عيسى، حتى جعلوا ليودس زكريا يوطا ثلاثين دِرْهماً على أن يدُلُّهم عليه ويعرِّفهم إياه، فقال لهم: إذا دخلتم عليه فإني سأُقبِّله، وهو الذي أُقبِّل، فخذوه. فلما دخلوا وقد رُفع عيسى، ورأى سَرْجِس في صورة عيسى، فلم يُشكل أنه عيسى، فأكبَّ عليه فَقَبَّله، فأخذوه فصلبوه.

ثم إن يودس زكريا يوطا نَدِم على ما صنع، فاختنق بحبل حتى قَتَل نفسه، وهو ملعونٌ في النصارى، وقد كان أحد المعدودين من أصحابه، وبعضُ النصارى يزعمُ أن يودس زكريا يوطا هو الذي شُبِّه لهم، فَصَلَبوه وهو يقول: «إني لستُ بصاحبكم. أنا الذي دَلَلتكم عليه والله أعلم أي ذلك كان[1].

وقال ابن جرير، عن مجاهد: صلبوا رجلاً شُبِّهوه بعيسى، ورَفَع الله، عز وجل، عيسى إلى السماء حياً.

واختار ابن جرير أن شَبَه عيسى ألقي على جميع أصحابه.

وقولُه تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنـن به قبل مَوْته ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شهيداً﴾.

قال ابن جَرِير: اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معنى ذلك ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به﴾ يعني بعيسى ﴿قبلَ موته﴾، يعني: قبل موتِ عيسى، يُوَجِّه ذلك إلى أن جَميعهم يُصَدِّقون به إذا نزل لِقَتْل الدجال، فتصير المِلَلُ كُلُّها مِلَّةً واحدة، وهي ملةُ الإسلام الحَنِيفيَّةُ، دين إبراهيم عليه السلام[2].

ذكر من قال ذلك:

حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا عبدُ الرحمن، حدثنا سُفيان، عن أبي حُصَين، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس ﴿وإنَّ من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته﴾ قال: قبلَ موتِ عيسىٰ ابن مريم. وقال العوفِيُّ عن ابن عباس مثلَ ذلك.

وقال أبو مالك في قولِه: ﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾، قال: ذلك عندَ نُزولِ عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ لا يبقَى أحدٌ من أهل الكتاب إلا آمنَ به[2].

وقال الضحاكُ: عن ابن عباس: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته﴾، يعني: اليهودَ خاصَّةً.

وقال الحسنُ البصريُّ: يعني النجاشيَّ وأصحابه. رواهما ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال ابنُ جرير: حدَّثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أبو رجاء، عن الحَسَن: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته﴾ قال: قبل موت عيسى. والله إنه الآن حيٌّ عند الله، ولكن إذا نزل آمنُوا به أجمَعُونَ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن عثمان اللاحقي، حدثنا جُويرية بن بَشير قال: سَمِعتُ رجلاً قال للحسن: يا أبا سَعِيد، قَوْلُ الله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته﴾ قال: «قبل موت عيسى، إن الله رَفَعَ عيسى، وهو باعِثُه قبلَ يوم القيامة مقاماً يؤمِنُ به البرُّ والفاجرُ».

وكذا قال قتادةُ، وعبد الرحمنُ بن زيدِ بن أسلَمَ، وغيرُ واحد. وهذا القولُ هو الحقُّ، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

(١) تفسير الطبري ٦/ ١٤ ـ ١٥.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٨.

قال ابنُ جَرِير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به﴾[1] قَبلَ موت الكتابيِّ، ذَكَرَ من كان يُوَجِّه ذلك إلى أنه إذا عاينَ عِلْم الحقِّ من الباطل، لأنَّ من نَزَل به الموتُ لم تخرُجْ نفسُه حتى يَتبيَّن له الحقُّ من الباطلِ في دينِه[2].

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قولَهُ: ﴿وإن من أهلِ الكتابِ إلا ليؤمنَنَّ به قبلَ موتِهِ﴾ قال: لا يموتُ يهوديٌّ حتى يؤمنَ بعيسى.

حدثني المثنى، حدثنا أبو حُذَيفة، حدثنا شبلٌ، عن ابن أبي نَجيحٍ، عن مجاهدٍ في قوله: ﴿إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته﴾: كلُّ صاحب كتابٍ يؤمن بعيسى قبل مَوته، قبل موت صاحب الكتاب. وقال ابن عباس: لو ضُرِبت عُنُقه لم تَخرُجْ نَفْسُه حتى يؤمن بعيسى.

حَدَّثنا ابن حُمَيد، حدثنا أبونُمَيلَةَ يحيى بن واضح، حدثنا حُسَين بن واقد، عن يزيدَ النحويِّ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لا يموتُ اليهوديُّ حتى يشهدَ أن عيسى عبدُ الله ورسولُه، ولو عُجِل عليه بالسلاح.

حَدَّثني إسحاقُ بن إبراهيمَ بن حبيبِ بن الشهيدِ، حدثنا عَتّابُ بن بَشِير، عن خُصَيف، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ﴿وإن من أهل الكتابَ إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: هي في قراءة أُبيٍّ: ﴿قبل موتهم﴾، ليس يهوديٌّ يموت أبداً حتى يُؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرأيت إن خَرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلَّمُ به في الهُوِيِّ. فقيل: أرأيتَ إن ضُرِبَتْ عنقُ أحدٍ منهم؟ قال: يُلَجْلِجُ بها لسانُه.

وكذا رَوَى سفيان الثوريُّ عن خُصَيف، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ بهِ قبل موته﴾ قال: لا يموت يهوديٌّ حتى يؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ وإن ضُرِب بالسيف تَكَلَّم به، قال: وإن هَوَى تَكَلَّم وهو يَهْوِي.

وكذا روى أبو داودَ الطيالسي، عن شعبةَ، عن أبي هارونَ الغَنَويِّ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس. فهذه كلُّها أسانيدُ صحيحةٌ إلى ابن عباس، وكذا صَحَّ عن مجاهد، وعكرمةَ، ومحمد بن سيرينَ. وبه يقول الضحاكُ وجُوَيبِرٌ، والسدِّيُّ، وحكاه عن ابن عباس، ونقَلَ قراءة أُبَيِّ بن كعب: ﴿قبل مَوْتِهم﴾[3].

وقال عبد الرزاق، عن إسرائيل، عن فرات القَزّاز، عن الحسن في قوله: ﴿إلا ليؤمنَنّ به قبل موته﴾ قال: لا يموتُ أحدٌ منهم حتى يؤمنَ بعيسى قبل أن يموت.

وهذا يَحْتَمِلُ أن يكون مرادُ الحَسَن ما تقدَّم عنه، ويحتَمِلُ أن يكونَ مرادُه ما أراده هؤلاء.

قال ابنُ جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: وإن من أهل الكتابِ إلّا ليؤمنَنَّ بمحمدٍ ـ ﷺ ـ قبل موت الكتابي.

ذِكر من قال ذلك:

حَدَّثني ابن المثنى، حَدَّثنا الحجاج بن مِنْهَالٍ. حدثنا حَمّاد، عن حُمَيد قال: قال عكرمةُ: لا يموت النصرانيُّ ولا اليهوديُّ حتى يؤمنَ بمحمد ـ ﷺ ـ يعني في قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾.

(١) أي: بعيسى ابن مريم.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ١٩.
(٣) تفسير الطبري ٦/ ٢١.

ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحّة القولُ الأولُ، وهو أنه لا يبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد نزول عيسى - عليه السلام - إلا آمن به قبل مَوْتِهِ، أي: قبل موت عيسى عليه السلام. ولا شكَّ أن هذا الذي قاله ابنُ جَرِير هو الصحيحُ لأنه المقصودُ من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قَتْل عيسى وصَلْبه، وتسليم من سَلَّمَ لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشبيه وهم لا يتبيّنـون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باقٍ حيٌّ، وإنه سينزل قبلَ يوم القيامة، كما دَلّت عليه الأحاديثُ المتواترةُ - التي سَنُوردها إن شاء الله قريباً - فيقتلُ مَسِيح الضلالة، ويَكسِر الصليب، ويقتُل الخنزيرَ، ويضَعُ الجزيةَ - يعني: لا يقبلُها من أحدٍ من أهل الأديان، بل لا يقبلُ إلا الإسلام أو السيف - فأخبرت هذه الآيةُ الكريمةُ أنه يؤمِن به جميعُ أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلَّف عن التصديق به واحدٌ منهم، ولهذا قال: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبلَ موتِهِ﴾ أي: قبل موتِ عيسى، الذي زَعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قُتِل وصُلِب.

﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ أي: بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض. فأما من فَسَّر هذه الآية بأن المعنى: أن كلَّ كتابي لا يموتُ حتى يؤمنَ بعيسى أو بمحمد عليهما السلام، فهذا هو الواقع، وذلك أن كلَّ أحد عند احتضاره يَتَجلّى له ما كان جاهلاً به، فيؤمنُ به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد المَلَك، كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿وليست التوبةُ للذين يعملون السيئات، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾[1] الآية، وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾[2]. . . الآيتين. وهذا يدل على ضَعْفِ ما احتج به ابن جرير في رَدِّ هذا القول، حيث قال: ولو كان المرادُ بهذه الآية هذا، لكان كل من آمن بمحمَّدٍ أو بالمسيح - ممن كَفَر بهما - يكون على دينهما، وحينئذٍ لا يرثُه أقرباؤه من أهل دينه، لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته[3]. فهذا ليس بجيد؛ إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعُه إيمانُه أنه يصِيرُ بذلك مسلماً، ألا ترى إلى قول ابن عباس: «ولو تَرَدَّى من شاهق أو ضُرِب بسيف وافترسه سَبعٌ، فإنه لا بدَّ أن يؤمن بعيسى». فالإيمان في مثل هذه الحالات ليس بنافع، ولا ينقُلُ صاحبَه عن كُفْره لما قَدَّمناه، والله أعلم.

ومن تأمل هذا جَيِّداً وأمعَن النظر، اتضح له أن هذا وإن كان هو الواقع، لكن لا يلزمُ منه أن يكون المرادُ بهذه الآية هذا، بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى - عليه السلام - وبقاءِ حياته في السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، ليكذّب هؤلاء وهؤلاءِ من اليهود والنصارى الذين تبايَنَتْ أقوالُهم فيه وتضادَّت وتعاكَسَتْ وتناقَضَـتْ، وخلَت عن الحقِّ، ففرَّط هؤلاء اليهودُ وأفرطَ هؤلاء النصارى، تنَقَّصه اليهودُ بما رَمَوه به وأُمَّه من العظائم، وأطراه النصارى بحيثُ ادَّعوا فيه بما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوَّةِ إلى مقام الربوبيَّةِ، تعالى الله عن قول هؤلاء وهؤلاء عُلُواً كبيراً، وتَنَزَّه وتقدَّسَ، لا إلَه إلا هو.

ذكرُ الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء، في آخر الزمان قبلَ يوم القيامة، وأنه يدعُو إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له.

قال البخاري - رحمه الله - في كتاب ذكر الأنبياء، عن صحيحه المُتَلقَّى بالقَبُول: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام:

---

(١) الآية ١٨ من سورة النساء.

(٢) الآيتان ٨٤، ٨٥ من سورة غافر.

(٣) انظر تفسير الطبري ٦/ ٢١ - ٢٢.

حدثنا إسحاقُ بن إبراهيمَ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: والذي نفسي بيده لَيُوشكَنّ أن ينزلَ فيكم ابنُ مريم حَكَماً عدلاً، فيكسِرَ الصليبَ، ويقتلَ الخنزيرَ، ويضع الجزية[١]، ويفيضَ المالُ حتى لا يقبلَه أحدٌ، حتى تكون السجدةُ خيراً من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبو هُرَيرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وإن من أهل الكتابِ إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شهيداً﴾[٢].

وكذا رواه مسلم عن الحسن الحُلْواني وعَبْد بن حُمَيد كلاهما، عن يعقوب[٢]، به. وأخرجه البخاري ومسلم أيضاً من حديث سفيان بن عُيَينة، عن الزهري[٢]، به. وأخرجاه من طريق اللَّيث عن الزُّهري به[٢].

ورواه ابن مَرْدُويه من طريق محمد بن أبي حفصة، عن الزُّهري، عن سَعِيد بن المسيب، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يوشك أن يكون فيكم ابنُ مريَم حكماً عدلاً، يقتلُ الدَّجال، ويقتلُ الخِنْزيرَ، ويكسِرُ الصليب، ويضع الجِزْيَة، ويَفِيض المال، وتكون السجدةُ واحدةً لله رب العالمين». قال أبو هُرَيرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن به قبل موته﴾، موت عيسى ابن مريم، ثم يعيدُها أبو هُريرة ثلاثَ مراتٍ.

طريقٌ أخرى عن أبي هُرَيرة، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا رَوحٌ، حدثنا مُحمَّد بن أبي حفصَةَ، عن الزُّهريِّ، عن حَنظلَةَ بن علي الأسلمِيِّ، عن أبي هُرَيرَةَ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لَيُهِلَّنَّ عيسى ابنُ مريَمَ بفجِّ الروحاءِ بالحجِّ أو العمرةِ أو ليثنيهما جميعاً»[٣].

وكذا رواه مسلم منفرداً به من حديث سفيان بن عيينة، والليث بن سعد، ويونس بن يزيد، ثلاثَتُهم عن الزُّهري به[٣].

وقال أحمدُ: حدَّثنا يزيدُ، حدثنا سفيان ـ هو ابن حُسَين ـ عن الزُّهريِّ، عن حنظلَةَ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ينزلُ عيسى ابن مريم فيقتلُ الخِنْزيرَ، ويمحُو الصليبَ، وتجمَعُ له الصلاة، ويُعطِي المال حتى لا يقبل، ويضَعُ الخراجَ، وينزلُ الروحاءَ فيحجُّ منها أو يعتمر أو يجمَعُهما. قال: وتلا أبو هريرة: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ . . . الآية، فزعم حنظلةُ أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري هذا كلُّه حديثُ النبي ـ ﷺ ـ أو شيءٌ قاله أبو هُرَيرة[٤].

وكذا رواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن أبي موسى محمد بن المثنَّى، عن يزيدَ بن هارونَ، عن سفيان ابن حُسَين، عن الزهريِّ، به.

طريق أخرى، قال البخاري: حدثنا ابنُ بُكَير، حدثنا اللَّيثُ، عن يونُس، عن ابن شهابٍ، عن نافعٍ

---

(١) في رواية: ويضع الحرب.

(٢) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٩٠ ـ ٤٩١، ومسلم، كتاب الإيمان ١٣٥ ـ ١٣٦، وفتح الباري، كتاب المظالم ٥/ ١٢١، وكتاب البيوع ٤/ ٤١٤.

(٣) مسند أحمد ٢/ ٥١٣، ومسلم، كتاب الحج ٩١٥.

فَجُّ الروحاء: بين مكة والمدينة، وكان طريق رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بدر وإلى مكة عام الفتح وعام حجة الوداع. ويثنيهما: يقرن بينهما.

(٤) مسند أحمد ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.

مولى أبي قتادةَ الأنصاريِّ أن أبا هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابنُ مريم، وإمامكم منكم؟ تابعه عُقَيلٌ والأوزاعيُّ[(١)].

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عبد الرزاق، عن معمر، وعن عثمان بن عمر، عن ابن أبي ذِئْبٍ كلاهُما، عن الزُّهريِّ، به[(١)]. وأخرجه مسلمٌ من رواية يونُس والأوزاعيِّ وابن أبي ذِئْبٍ[(١)].

طريقٌ أخرى، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا هَمَّامٌ، أنبأنا قتادةُ، عن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرة أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الأنبياءُ إخوةٌ لعلَّاتٍ أمهاتهم شَتَّى ودينُهم واحدٌ، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريمَ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ، وإنه نازلٌ، فإذا رأيتُموه فاعرفُوه: رجلٌ مَرْبُوعٌ إلى الحُمْرَة والبياض، عليه ثوبان مُمَصَّرَان، كأن رأسَه يقطرُ وإن لم يُصِبْه بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضَعُ الجزيَةَ، ويدعو الناسَ إلى الإسلام، ويُهلِك الله في زمانه الملل كلَّها إلا الإسلام، ويُهلِك الله في زمانه المسيحَ الدجَّالَ، ثم تقع الأمَنَةُ على الأرض، حتى ترتَعَ الأسودُ مع الإبل والنِّمارُ مع البقر، والذئابُ مع الغنم، ويلعبَ الصبيانُ بالحيَّاتِ لا تضرُّهم، فيمكثُ أربعين سنة، ثم يُتَوَفَّى ويصلِّي عليه المسلمون»[(٢)].

وكذا رواه أبو داود، عن هُدْبَة بن خالد، عن همام بن يحيى[(٢)]. ورواه ابن جَرير ـ ولم يورد عند هذه الآية سواه ـ عن بشر بن معاذ، عن يزيدَ بن هارونَ، عن سَعِيد بن أبي عَرُوبةَ ـ كلاهما عن قتادة[(٢)]، عن عبد الرحمن ابن آدم ـ وهو مولى أمّ بُرثُن ـ صاحب السِّقاية، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكر نحوه، وقال: فيقاتل الناس على الإسلام[(٢)].

وقد رَوَى البخاريُّ، عن أبي اليمان، عن شُعَيب، عن الزُّهْريِّ، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «أنا أولى الناسِ بعيسى ابنِ مريَمَ، والأنبياءُ أولادُ عَلَّاتٍ، ليس بيني وبينه نبيٌّ»[(٣)].

ثُمَّ روى عن محمد بن سنان، عن فُلَيح بن سليمان، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرَةَ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا أولى الناسِ بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوةٌ لِعلَّاتٍ، أمهاتُهم شَتَّى ودينُهم واحد» وقال إبراهيمُ بن طهمانَ، عن موسى بن عقبةَ، عن صفوانَ بن سُلَيم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ[(٤)].

حديث آخر: قال مسلم في صحيحه: حدثني زُهَير بن حرب، حدثنا مُعَلَّى بن منصور، حدثنا سُلَيمان بن بلال، حدثنا سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تقوم الساعةُ حتى ينزِلَ الرومُ بالأعماق[(٥)]، أو بدابق، فيخرُجُ إليهم جيشٌ من المدينة، من خيارِ أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تَصافُّوا قالت الروم: خَلُّوا بيننا وبين الذين سَبَوا منا نُقَاتِلْهم. فيقول المسلمون: لا، والله لا نُخَلِّي بينكم وبين إخواننا.

---

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٩١، ومسند أحمد ٢/ ٢٧٢، ٣٣٦. ومسلم، كتاب الإيمان ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٢) مسند أحمد ٢/ ٤٠٦، وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/ ١١٧ ـ ١١٨، وتفسير الطبري ٦/ ٢٣.
والممصّر من الثياب: التي فيها صفرة خفيفة.
(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨.
(٤) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٧٨.
(٥) الأعماق: موضع في أطراف المدينة. ودابق: اسم سوق المدينة. والشك من الراوي. وقال بعضهم: المراد من المدينة حلب، وأعماق ودابق: موضعان بقربها. وقيل: المراد دمشق.

فيقاتلونَهُم، فينهزم ثُلُثٌ لا يَتوبُ الله عليهم أبداً(١)، ويُقتَلُ ثُلثُهم، أفضلُ الشهداء عند الله، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُث لا يفتنون أبداً(٢). فَيَفْتَتِحُون قُسْطَنْطينِيَّةَ، فبينما هم يقسمون الغنائم، قد عَلَّقوا سيوفهم بالزيتون، إذْ صاح فيهم الشيطانُ: إن المسيحَ قد خَلَفَكم في أهليكم(٣). فيخرُجُونَ، وذلكَ باطل. فإذا جاءوا الشام خَرَجَ، فبينما هم يُعِدُّون للقتال: يُسَوُّون الصفوف، إذْ أقيمت الصلاةُ، فينزل عيسى ابنُ مريم فأَمَّهم(٤)، فإذا رآه عَدُوُّ الله ذاب كما يذوب الملحُ في الماء، فلو تركه لانـذابَ حتى يهلِكَ، ولكن يقتُلُه الله بيده، فيريهم دَمَه في حَرْبَتِهِ»(٥).

حديث آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هُشَيم، عن العَوَّامِ بن حَوْشَبٍ، عن جَبَلة بن سُحَيـمٍ، عن مُؤثر ابن عَفَازَة، عن ابن مَسعُودٍ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لَقِيتُ ليلةَ أُسريَ بي إبراهيمَ وموسى وعيسى عليه السلام، فتذاكروا أَمْرَ الساعة، فردُّوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أَمْرَهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فَرَدُّوا أَمْرَهم إلى عيسى، فقال: أما وَجْبَتُها فلا يعلَم بها أحدٌ إلا الله، وفيما عَهِدَ إليَّ ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ أن الدجال خارجٌ ومعي قَضِيبان، فإذا رآني ذابَ كما يَذُوبُ الرصاص، قال: فَيُهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلمُ، إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله، ثم يرجعُ الناسُ إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرجُ يأجوجُ ومأجوجُ، وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُون، فَيَطؤُون بلادَهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرُّون على ماء إلا شَربوه، قال: ثم يرجع الناس [إليَّ] يشكونهم، فأدعو الله عليهم، فَيُهلكهم ويُميتهم، حتى تَجْوَى(٦) الأرضُ من نَتْن ريحهم، ويُنزِلُ الله المطَرَ، فَتُجرَفُ أجسادَهم حتى يَقذِفَهم في البحر، ففيما عهد إليَّ ربي ـ عز وجل ـ أنَّ ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المُتِمِّ(٧) لا يدري أهلها متى تفجَؤُهم بولادها ليلاً أو نهاراً»(٨).

ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بَشَّار، عن يزيدَ بن هارونَ، عن العوَّام بن حَوْشَبٍ، به نحوه(٣).

حديثٌ آخرُ، قال الإمام أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا حَمَّاد بن سلمةَ، عن علي بن زيدٍ، عن أبي نَضْرَةَ قال: أتينا عثمانَ بن أبي العاص في يوم جُمُعة؛ لنعرضَ عليه مصحفاً لنا على مُصْحَفِه، فلما حضرتِ الجُمعةُ أمرنا فاغتسلنا، ثم أُتِينا بِطيبٍ فَتَطيَّبنا، ثم جئنا المسجدَ فجلسنا إلى رجل، فحدَّثنا عن الدجَّال. ثم جاء عثمانُ بن أبي العاص فقمنا إليه، فجلسنا فقال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يكونُ للمسلمين ثلاثةُ أمصارٍ: مصرٌ بمُلتقى البحرين، ومصرٌ بالحيرة، ومصرٌ بالشام. فيفزَعُ الناسُ ثلاثَ فَزَعاتٍ، فيخرجُ الدجَّال في أعراضِ(٩) الناس، فيهزم من قبل المشرق، فأول مِصْرٍ يَرِدُه المصرُ الذي بِمُلْتَقى البحرَين، فيصيرُ أهلُه(١٠) ثلاث فِرَقٍ: فرقة تُقيم تقول: نُقيم، نُشَامُّه(١١) ننظرُ ما هو؟ وفرقة تلحقُ بالأعراب، وفرقة تلحقُ بالمِصْرِ الذي يَلِيهم.

---

(١) أي: لا يلهمهم التوبة.
(٢) أي: لا يقع بينهم فتنة.
(٣) أي: في دياركم. والمراد بالمسيح: الدجالُ، سمّي بذلك لأن عينه ممسوحة.
(٤) أي: قصدهم.
(٥) مسلم، كتاب الفتن ٢٢٢١.
(٦) أي: تُنْتن.
(٧) الحامل المتم: التي شارفت الوضع.
(٨) مسند أحمد ١/ ٣٧٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٦٥.
(٩) أي: معظمهم.
(١٠) في الأصل: أهلها.
(١١) أي: نختبره.

ومع الدّجال سبعونَ ألفاً عليهم السِّيجان[١] وأكثر مَن مَعَه اليهودُ والنساءُ [ثم[٢] يأتي المِصْرَ الذي يليه، فيصير أهله ثلاث فرق: فرقة تقولُ: نُشامُّه وننظر ما هو؟ وفرقة تلحقُ بالأعراب، وفرقة تَلْحَقُ بالمصر الذي يليهم بغربي الشام[٢]] وينحاز المسلمون إلى عَقَبةِ أُفيقَ[٣] فيبعثون سَرْحاً[٤] لهم، فيصاب سَرْحهم، فَيشتدُّ ذلك عليهم، وتُصيبهم مجاعةٌ شديدةٌ وجهدٌ شديدٌ، حتى إن أحدهم ليحرق وتر قوسه فيأكله، فبينما هم كذلك إذا نادى منادٍ من السَّحَر: يا أيها الناس، أتاكم الغوث، ثلاثاً. فيقول بعضُهم لبعض: إن هذا لَصَوْتُ رجلٍ شبعانَ، وينزلُ عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ عند صلاة الفجر، فيقول له أميرهم: يا روحَ الله، تقدّمْ صلِّ. فيقول: هذه الأمةُ أمراء، بعضُهم على بعض. فيتقدم أميرُهم فيصلي، فإذا قَضَى صلاته أخذ عيسى حَرْبته، فيذهبُ نحو الدَّجال، فإذا رآه الدَّجالُ ذاب كما يذوبُ الرَّصاصُ، فيضعُ حَرْبَته بين ثَنْدُوَتِه[٥]، فيقتله، وينهزم أصحابه، فَلَيس يومئذٍ شيءٌ يواري منهم أحداً، حتى إن الشجرة لتقول: يا مؤمنُ، هذا كافر. ويقول الحجر: يا مؤمن، هذا كافر».

تفرد به أحمد من هذا الوجه[٦].

حديثٌ آخَرُ، قال أبو عبد الله محمد بن يزيدَ بن ماجه في سُنَنِه المشهورَة:

حدَّثنا علي بن محمد، حدثنا عبد الرحمن المُحَاربي، عن إسماعيلَ بن رافع أبي رافع، عن أبي زُرْعَة الشيبانيِّ يحيى بن أبي عَمْرو، عن أبي أُمامة الباهِليِّ قال: خَطَبَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فكان أكثرُ خُطْبَتِه حديثاً حَدَّثَناه عن الدَّجال، وَحَذَّرَنَاهُ، فكان من قوله أن قال: «لم تكنْ فتنةٌ في الأرض، منذ ذرأ الله ذُرِّيَّة آدمَ ـ عليه السلام ـ أعظمَ من فِتْنَةِ الدَّجال، وإن الله لم يَبْعَثْ نبياً إلا حَذَّر أُمَّته الدجالَ. وأنا آخرُ الأنبياء، وأنتم آخرُ الأمم، وهو خارج فيكم لا محالةَ، فإن يخرُجْ وأنا بين ظَهْرَانيكم، فأنا حَجيجٌ لكلِّ مُسلِم. وإن يَخْرُجْ من بعدي فكلُّ حجيجُ نفسِه، والله خَليفتي على كلِّ مسلم. وإنه يخرُج من خَلَّةٍ[٧] بين الشام والعراق، فَيَعيثُ يَميناً ويعيث شِمَالاً».

«يا عبادَ الله، أيُّها الناسُ، فاثبتُوا. وإني سَأَصِفه لكم صفةً لم يَصِفْها إيَّاه نبيٌّ قبلي: إنه يبدأ فيقول: «أنا نبيٌّ» ولا نَبيَّ بعدي. ثم يُثَنِّي فيقولُ: «أنا ربكم»، ولا تَرَون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعورُ وإن ربَّكم ـ عز وجل ـ ليس بأعورَ، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرَؤُه كلُّ مؤمنٍ، كاتبٍ وغير كاتبٍ. وإن مِنْ فِتْنَته أن مَعَه جنةً وناراً، فنارُه جنةٌ وَجَنَّتُهُ نارٌ. فمن ابتُلِيَ بناره فَلْيَستَغِثْ بالله وَلْيَقْرَأْ فواتحَ الكهف، فتكون عليه بَرْداً وسَلاماً، كما كانت النارُ على إبراهيمَ وإنَّ من فِتْنَتِه أن يقول لأعرابي: أرأيتَ إن بَعَثْتُ لك أباك وأمك أتشهَدُ أني ربُّك؟ فيقول: نَعَمْ. فَيَتَمثَّلُ له شيطانان في صورةِ أبيه وأُمِّه، فيقولان: يا بُنَيَّ، اتَّبِعْهُ، فإنه ربُّك. وإن من فِتْنَتِهِ أن يُسَلَّط على نفسٍ واحدةٍ فيقتلَها وينشرَها بالمنشار، حتى يُلْقَى شِقَّين، ثم يقولُ: انظروا إلى عَبْدِي هذا، فإني أبعثُهُ الآن، ثم يزعم أن له ربّاً غيري. فيبعثُه الله، فيقول له الخبيثُ: من ربُّك، فيقول: رَبِّي الله. وأنت عَدُوُّ

---

(١) السيجان: جمع ساج، وهو الطيلسان الأخضر.

(٢) عن المسند.

(٣) أفيق: قريةٌ بالشام مشرفة على الأردن.

(٤) السرح: الماشية.

(٥) الثندوة للرجل كالثدي للمرأة.

(٦) مسند أحمد ٤/ ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٧) أي: طريق بينهما.

الله، أنتَ الدَّجَّالُ، والله ما كنتُ بعدُ أشدَّ بصيرةً بك منّي اليومَ»

قال أبو الحسن الطنافسيُّ: فحدثنا المُحارِبي، حدثنا عبيد الله بن الوَليد الوَصَّافِي، عن عَطِيَّة، عن أبي سَعِيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ذلك الرجلُ أرفعُ أُمَّتي درجةً في الجنة».

قال: قال أبو سَعِيد: والله ما كُنَّا نُرَى ذَلِكَ الرجلَ إلا عمر بن الخطاب، حتى مَضَى لسبيله.

قال المحاربي: ثم رَجَعنا إلى حديث أبي رافع قال: وإن من فتنته أن يأمُرَ السماء أن تُمْطِر، فتُمطِرَ ويأمُرَ الأرضَ أن تُنبتَ، فتُنبِتَ. وإن من فتنته أن يَمُرَّ بالحيِّ فيكذبونه، فلا تبقي لهم سائمة إلاَّ هَلَكت. وإن من فِتْنَتِه أن يمرَّ بالحيِّ فَيُصدِّقونه، فيأمر السماءَ أن تُمطِرَ، فتمطِرَ. ويأمر الأرض أن تُنْبِت، فتُنبِتَ. حتى تروحَ مواشيهم من يومهم ذلك أسمنَ ما كانت وأعظَمَه، وأَمَدَّه خواصِرَ، وأَدَرَّه ضُروعاً. وإنه لا يبقى شيءٌ من الأرض إلا وَطِئَه وظَهَر عليه، إلاّ مَكّة والمدينة، فإنه لا يأتيهما من نَقْب من نقابهما إلاّ لَقِيته الملائكةُ بالسيوف صَلْتَةً(١)، حتى ينزل عند الظُّرَيب(٢) الأحمر، عند مُنْقَطع السَّبْخَة(٣)، فترجفُ المدينة بأهلها ثلاثَ رَجَفاتٍ، فلا يبقَى منافق ولا منافقة إلا خَرَجَ إليه، فَتَنْفِي الخَبَثَ منها كما تنفي الكِيرُ خَبَثَ الحديد، ويُدعى ذلك اليومُ يومَ الخلاص.

فقالت أم شَريك بنت أبي العَكَر: يا رسولَ الله، فأين العَرَبُ يومَئِذٍ؟ قال: «هم قليل، وجُلُّهم ببيت المقدسِ، وإمامهم رجلٌ صالحٌ، فبينما إمامهم قد تَقَدَّم يُصلِّي بهم الصبحَ إذ نَزَل عليهم عيسى ابنُ مريم ـ عليه السلام ـ الصبحَ، فرجَعَ ذلك الإمامُ ينكصُ، يمشِي القَهْقَرى، ليتقدَّم عيسى يصلي بالناس، فيضعُ عيسى ـ عليه السلام ـ يده بين كتفيه ثم يقول: تقدم فصلِّ، فإنها لكَ أُقيمَتْ. فيصلِّي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى ـ عليه السلام ـ: افتحوا الباب. فَيُفْتَحُ، ووراءه الدجالُ، معه سبعون ألفَ يهوديٍّ، كُلُّهم ذو سيف مُحلًّى وسَاج(٤)، فإذا نظر إليه الدجال ذابَ كما يذوبُ الملحُ في الماء، وينطلق هارباً، ويقول عيسى: إن لي فيك ضَرْبَة لن تَسْتَبِقَني بها. فيدركه عند باب لُدٍّ الشرقي(٥)، فيقتُلُه، ويَهزِمُ الله اليهود، فلا يبقى شيءٌ مما خلق الله تعالى يتوارى به يهوديٌّ إلا أنطق الله ذلك الشيءَ، لا حجَرَ، ولا شَجَرَ، ولا حائطَ، ولا دَابَّةَ ـ إلا الغَرْقَدة(٦) فإنها من شَجَرِهم لا تنطِقُ ـ إلا قال: يا عبدَ الله المسلِمَ، هذا يهوديٌّ، فتعال اقتُلْهُ.

قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «وإن أيامه أربعون سنة، السنةَ كنصفِ السنةِ، والسنةُ كالشهر، والشهرُ كالجُمُعةِ، وآخرُ أيامِهِ كالشَّرَرَهِ، يصبح أحدُكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يُمْسِي». فَقيل له: يا نبي الله كيف نصلي، في تلك الأيام القصار؟ قال: «تَقْدُرُونَ فيها الصلاةَ كما تَقْدُرُون في هذه الأيام الطوال. ثم صَلُّوا».

قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «فيكون عيسى ابن مريَم في أُمَّتي حكماً عدلاً، وإماماً مُقسِطاً، يَدُقُّ الصَّليب ويَذْبَحُ الخنزير، ويَضَع الجزية، ويترك الصَّدَقة فلا يُسْعَى على شاة ولا بَعِيرٍ، وتُرْفَعُ الشحناء والتباغض، وتُنْزَع

(١) أي: مجرّدةً.

(٢) الظُّرَيب: تصغير ظَرِب، وهو: الجبل الصغير، وجمعه ظِرَابٌ.

(٣) السَّبْخَةُ: الأرض تملؤها الملوحة.

(٤) الساج: الطيلسان الأخضر.

(٥) باب لُدّ: موضع بالشام. وقيل: بفلسطين.

(٦) الغرقدة: شجر الشوك.

حُمَةٍ[١] كلِّ ذاتِ حُمَةٍ، حتى يُدخِلَ الوليدُ يَدَه في الحَيَّةِ فلا تَضُرُّه، وتُفِرُّ[٢] الوليدةُ الأسدَ فلا يَضُرُّها ويكون الذئبُ في الغَنَم كأنه كلبُها، وتُملأ الأرضُ من السِّلْم كما يُملأُ الإناءُ من الماء، وتكون الكَلِمَةُ واحدةً، فلا يُعبَدُ إلا الله، وتَضَعُ الحربُ أوزارَها، وتُسْلَبُ قريشٌ مُلكَها، وتكون الأرض كفاثُور[٣] الفضَّة تُنبِتُ نباتها كعَهْدِ آدَم، حتى يجتمع النفر على القِطْف من العِنَبِ فيُشبِعُهم، ويجتمع النَّفرُ على الرُّمانة فتُشْبِعُهم، ويكون الثورُ بكذا وكذا، من المال، ويكون الفرسُ بالدريهمات».

قيل يا رسولَ الله، وما يُرخِّص الفرسَ؟ قال: «لا تُرْكَبُ لحربٍ أبداً» قيل له: فما يُغْلِي الثورَ؟ قال: «تُحرَثُ الأرضُ كُلُّها».

وإنَّ قبل خروج الدجال ثلاثَ سنواتٍ شِدادٌ يصيبُ الناسَ فيها جوعٌ شديدٌ، يأمر الله السماءَ في السنة الأولى أن تَحبِسَ ثُلُثَ مَطرِهَا، ويأمر الأرضَ فتحبسَ ثُلُثَ نباتها، ثم يأمر السماء في الثانية فَتحبسَ ثُلُثَي مطرها، ويأمر الأرض فَتَحبِسَ ثُلُثَي نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتحبسَ مطرها كُلَّه، فلا تَقْطُر قَطْرَةً، ويأمر الأرضَ فَتَحبِسُ نباتها كلَّه، فلا تُنْبِتُ خَضْراءَ، فلا تبقى ذات ظِلْفٍ إلا هَلَكت، إلا ما شاء الله».

فقيل: فما يُعِيشُ الناسَ في ذلك الزمان؟ قال: «التَّهليل والتَّكبير والتَّسبيحُ والتَّحميد، ويُجْرَى ذلك عليهم مَجْرَى الطعام».

قال ابن ماجه: سمعت أبا الحسن الطَّنافسي يقول: سمعت عبد الرحمن المُحَاربي يقول: يَنْبَغِي أن يُدْفَعَ هذا الحديثُ إلى المؤدِّب، حتى يُعَلِّمه الصبيان في الكُتَّاب[٤].

هذا حديث غريبٌ جداً من هذا الوجه، ولبعضه شواهِدُ من أحاديثَ أُخر، ولْنَذْكُر حديث النَّواسَ بن سِمْعان ها هنا لِشَبَهِه بسياق هذا الحديث، قال مُسلِمُ بن الحجاج في صَحِيحه:

حدثنا أبو خيثمة زُهَير بن حَرْبٍ، حَدَّثنا الوليد بن مُسلم، حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حِمْصَ، حدثني عبد الرحمن بن جُبَير، عن أبيه جُبَير بن نُفَير الحَضْرميّ أنه سَمِع النواس بن سِمْعَان الكِلابيِّ (ح) وحدثنا محمد بن مِهْران الرازيّ حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن يحيى بن جابر الطائي، عن عبد الرحمن بن جُبير، عن أبيه جُبَير بن نُفَير، عن النوّاس بن سِمْعَانَ قال: ذكر رسولُ الله ـ ﷺ ـ الدجالَ ذاتَ غداةٍ، فخفَّض فيه ورفَّع[٥]، حتى ظَنَنَّاه في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عَرَف ذلك فينا فقال: ما شأنكم؟ قلنا: يا رسولَ الله، ذكرت الدجالَ غداةً فخفَّضْتَ فيه ورفَّعْتَ حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غيرُ الدجال أخْوَفُني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجيجُه دونكم، وإن يَخْرُجْ ولست فيكم فامرؤٌ حَجيجُ نفسِه، والله خَلِيفتي على كل مسلم: إنه شابٌ قَطَطٌ[٦] عينه طافية[٧]، كأني أُشَبِّهُهُ

(١) الحُمَة: إبرة العقرب التي يخرج منها السم.

(٢) أي: تحمله على الفرار.

(٣) الفاثور: طست أو جام من فضة.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٥٩ ـ ١٣٦٣.

(٥) خفَّض: حقَّر. ورفَّع: عظَّم. وقيل: خفَّض من صوته ليستريح، ثم رفع ليبلغ صوتُه كلَّ احد.

(٦) أي: شديد جعودة الشعر.

(٧) يروى: «كأن عينه عنبةٌ صافيةٌ»، وهي الحبة التي خرجت عن حدّ نِبْتَةِ أخواتها من الحبِّ، فنتات وظهرت وارتفعت. وقيل: أراد به الحبَّة الطافية على وجه الماء، شبَّه عينه بها.

بعبد العزّى بن قَطَنٍ، من أدركه منكم فَلْيَقرَأْ عليه فواتحَ سُورَةِ الكهف، إنَّه خارجُ خَلَّةً[1] بين الشأم والعراق، فعاثَ يميناً وعاثَ شمالاً. يا عبادَ الله، فاثبتوا.

قلنا: يا رسولَ الله، وما لَبْثُه في الأرض؟ قال: أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجُمُعة، وسائر أيامه كأيامكم.

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليومُ الذي كسنة أتكفينا فيه صلاةُ يوم؟ قال: لا، اقدروا له قَدْره.

قلنا: يا رسول الله، وما إسراعُه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبَرَتْه الريحُ.

فيأتي على قوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماءَ فتُمطِرُ، والأرضَ فتُنبتُ، فتروح عليهم سارحتُهم[2] أطولَ ما كانت ذُرًى، وأسبغَه ضُرُوعاً، وأمدَّه خواصِرَ. ثم يأتي القومَ فيدعوهم، فَيَرُدُّون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصحبون مُمحلين[3] ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمرُّ بالخِربَةِ فيقول لها: أخرجي كُنوزَكِ. فتتبعُهُ كنوزُها كيعاسيب[4] النحل. ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزْلين رَمْيَةَ الغرض[5]، ثم يدعوه فيُقبلُ ويتهلَّلُ وجهُه، يضحَك.

فبينما هو كذلك إذ بَعَثَ الله المسيحَ ابن مريم عليه السلام، فَيَنزل عند المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق، بين مَهْرُودتَين[6]، واضعاً كَفَّيه على أجنحةِ مَلَكين، إذا طأطأ رأسَه قَطَر، وإذا رَفَعه تَحدَّر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ[7]، لا يحَل[8] لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات، ونَفَسُهُ ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبُه حتى يُدْرِكَه بباب لُدٍّ، فيقتله.

ثم يأتي عيسى ـ عليه السلام ـ قوماً قد عَصَمهم الله منه فيمسَحُ عن وجوههم، ويُحدِّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله ـ عز وجل ـ إلى عيسى أني قد أخرجتُ عباداً لي لا يدَانِ[9] لأحد بقتالهم، فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور.

ويبعث الله يأجوجَ ومأجوج وهم من كل حَدَب[10] يَنْسلون، فيمرّ أوائلهم على بحيرة طَبَرِيَة، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مَرَّةً ماءٌ. ويُحْصَر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغَبُ[11] نبي الله عيسى وأصحابُه، فيرسِلُ الله عليهم النغَفَ[12] في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى كموتِ نَفْسٍ واحدة.

---

(١) أي: بينهما.

(٢) السارحة: الماشية. وتروح: ترجع. وذُرًى: جمع ذُرْوَة، والمراد بالذرى: الأعالي والأسنمة. وأسبغه: أطوله ضروعاً لكثرة اللبن. وأمده خواصر: لكثرة امتلائها من الشبع.

(٣) أي: مجدبين، والمحلُ: الجدبُ والقحط.

(٤) هي ذكورها. وقيل: المراد جماعة النحل، لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب لأنه أميرها.

(٥) أي: فيصيب إصابة رمية الغَرَض، فيقطعه قطعتين، والجزلة: القطعة.

(٦) أي: ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران. وقيل: هما شقتان، والشقة: نصف الملاءة.

(٧) الجمان: حباتٌ من الفضة، تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار.

(٨) لا يحلّ: لا يمكن ولا يقع.

(٩) أي: لا قدرة له.

(١٠) الحَدَبُ: الأكمة والمكان المرتفع. وينسلون: يمشون مسرعين.

(١١) أي: يرغبُ إلى الله. أو: يدعو.

(١٢) هو دودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم. وفَرْسَى: قتلى، جمع فَرِيس.

ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابُه إلى الأرض، فلا يَجِدُون في الأرض مَوضِعَ شبر إلّا ملأه زَهَمُهُمْ[١] ونَتْنُهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْتِ[٢]، فتحمِلُهم فتطرَحُهم حيث شاء الله.

ثم يرسل الله مطراً لا يُكِنُّ[٣] منه بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفةِ[٤]، ثم يقال للأرض: اخرجي ثَمَرَكِ ورُدِّي بركتك. فيومئذ تأكلُ العصابةُ من الرُّمانة، ويستظلُّون بقِحْفِها[٥]، ويبارك الله في الرِّسْل[٦] حتى إن اللِّقْحَة من الإبل لتكفي الفِئَام من الناس، [٧- واللِّقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللِّقحة من الغَنَم لتكفي الفَخْذَ من الناس -٧] فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبةً، فتأخذُهم تحت آباطِهم، فتقبِضُ روحَ كُلِّ مؤمن وكلِّ مسلم، ويبقى شرارُ الناسِ يتهارَجُون فيها تهارُجَ الحُمُر، فعليهم تقومُ الساعة[٨].

ورواه الإمام أحمد وأهل السُّنَنِ من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابرٍ[٨]، به. وسنذكُره أيضاً من طريق أحمدَ، عند قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾... الآية.

حديثٌ آخر، قال مسلم في صحيحه أيضاً: حدثنا عُبَيد الله بن مُعَاذِ بن مُعاذٍ العنبريُّ، حدثنا أبي، حدثنا شُعبةُ، عن النعمان بن سالم قال: سمعتُ يعقوبَ بن عاصمِ بن عُروةَ بن مسعودٍ الثقفيِّ يقول: سمعت عبدَ الله ابن عَمْرو ـ وجاءه رجل فقال ـ: ما هذا الحديثُ الذي تُحدِّثُ به؟ تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا. فقال: سبحان الله! ـ أو: لا إله إلا الله، أو كلمةً نحوها ـ لقد هَمَمتُ ألّا أحدِّث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلتُ: إنكم سَتَرونَ بعد قليل أمراً عظيماً: يُحَرَّقُ البيتُ، ويكونُ ويكونُ. ثم قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يخرجُ الدَّجالُ في أُمَّتِي، فيمكث أربعين ـ لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً ـ فيبعث الله عيسى ابن مريَم، كأنه عروةُ بنُ مسعودٍ، فيطلُبُه فيُهلِكُهُ، ثم يمكثُ الناسُ سبعَ سنينَ ليس بين اثنين عداوةٌ، ثم يرسل الله ريحاً باردةً من قِبَل الشام، فلا يبقَى على وَجْهِ الأرض أحد في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من خير أو إيمانٍ إلا قَبَضتهُ، حتى لو أن أحدكم دخل في كَبِد[٩] جبل لَدَخلَتْهُ عليه حتى تَقبِضَه. قال: سَمِعتها من رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فيبقى شرارُ الناس في خِفَّة الطير وأحلام السِّباع[١٠]، لا يعرفون معروفاً، ولا يُنكِرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبُونَ؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرُهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رِزقهم[١١]: حسن عيشهم. ثم يُنفَخ

---

(١) الزهم: النَّتْنُ.
(٢) البُخت: جمالٌ طوالُ الأعناق.
(٣) أي: لا يصون منه شيءٌ.
(٤) الزَّلَفَةُ: المرآة.
(٥) القِحْف: مُقعَّر قشرها، شبهها بقحف الرأس، وهو الذي فوق الدماغ.
(٦) الرِّسل: اللبن. واللقحة: القريبة العهد بالولادة.
والفئام: الجماعة الكثيرة. والفخذ: الجماعة من الأقارب.
(٧) عن صحيح مسلم.
(٨) مسلم، كتاب الفتن ٢٢٥٠ ـ ٢٢٥٥. ومسند أحمد ٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩/ ٩١ ـ ٩٦، وابن ماجه. كتاب الفتن ١٣٥٦ ـ ١٣٥٩.
(٩) أي: وسطه وداخله.
(١٠) أي: يكونون في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطير، وفي العدوان وظلم بعضهم بعضاً في أخلاق السباع العادية.
(١١) أي: كثير.

في الصُّور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتاً ورفع لِيتاً[١]، قال: وأولُ من يَسمَعُه رجلٌ يَلُوط[٢] حَوْضَ إبله، قال: فَيَصْعَقُ ويَصْعَقُ الناسُ. ثم يرسِلُ الله ـ أو قال: ينزل الله ـ مطراً كأنه الطلّ[٣] ـ أو قال: الظِّل ـ نُعْمَانُ الشاكُّ ـ فتنبُتُ منه أجسادُ الناس، ثم يَنْفخُ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون. ثم يقال: يا أيها الناس، هَلُمُّوا إلى ربكم: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾. قال: ثم يقال: أخرجوا بَعْثَ النار. فيقال: مِنْ كَم؟ فيقال: من كلِّ ألفٍ تِسْعَمائة وتسعةٍ وتسعين. قال: وذلك يومَ يجعلُ الولدانَ شِيباً، وذلك يوم يُكْشَفُ عن سَاق»[٤].

ثم رواه مسلم والنسائي في تفسيره جميعاً عن محمد بن بشار، عن غُنْدَرٍ، عن شعبةَ، عن النعمان بن سالم، به[٤].

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري عن عبد الله بن عُبَيد الله ابن ثعلبة الأنصاري، عن عبد الله بن يزيدَ الأنصاري، عن مُجَمِّع بن جارية قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يقتل ابنُ مريم المسيحَ الدجَّال بباب لُدٍّ أو: إلى جانِبِ لدٍّ»[٥].

ورواه أحمدُ أيضاً، عن سفيانَ[٦] بن عُيَينة، ومن حديث اللَّيث والأوزاعي، ثلاثتهم. عن الزُّهريِّ، عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الرحمن بن يَزيد عن عَمِّه مجمِّع بن جارية، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقتل ابن مريمَ الدجَّال بباب لُدٍّ»[٦].

وكذا رواه الترمذيُّ، عن قتيبةَ، عن اللَّيث، به. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ. قال: وفي الباب عن عمرانَ ابن حُصَين، ونافع بن عتبةَ، وأبي بَرْزَة، وحُذَيفةَ بن أَسِيدٍ، وأبي هُريرة، وكيسانَ، وعثمانَ بن أبي العاص، وجابر، وأبي أمامة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسَمُرَة بن جُنْدَبٍ، والنواس بن سِمْعان، وعمرو بن عوف، وحُذيفة بن اليمان رضي الله عنهم[٧].

ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذِكْرُ الدجال. وقتلُ عيسى ابنِ مريَمَ ـ عليه السلام ـ له، فأما أحاديثُ ذكر الدجال فقط فكثيرةٌ جداً، وهي أكثر من أن تُحصَر لانتشارها وكثرة رُواتها في الصحاح والحسان والمسانِيدِ، وغير ذلك.

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُفيان، عن فُرات، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذَيفة بن أَسِيد الغِفَارِيِّ قال: أشرف علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ من عرفة ونحن نتذاكَرُ الساعة، فقال: لا تقومُ الساعةُ حتى ترون عشر آيات: طلوعَ الشمس من مغربها، والدخان، والدابةَ، وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ، ونزولَ عيسى ابنِ مريَمَ، والدَّجال، وثلاثةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العَرَب. ونار تخرُجُ من قعر عَدَن، تسوق ـ أو تحشر ـ الناس، تَبِيتُ معهم حيث باتوا، وتَقِيلُ معهم حيث قالوا»[٨].

---

(١) أصغى: أمال. واللِّيتُ: صفحة العنق وجانبه.

(٢) أي: يطيِّنه ويصلحه.

(٣) قيل: الأصحّ الطلّ، وهو أضعف المطر.

(٤) مسلم، كتاب الفتن ٢٢٥٨ ـ ٢٢٥٩، ٢٢٦٠.

(٥) مسند أحمد ٣/ ٤٢٠.

(٦) رواية أحمد عن سفيان ـ كما في المسند ـ عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الله بن يزيد، لا عبد الرحمن بن يزيد. انظر المسند ٣/ ٤٢٠.

(٧) عارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩ ـ ٩٨/ ٩٩.

(٨) مسند أحمد ٤/ ٦، ومسلم، كتاب الفتن ٢٢٢٥، ٢٢٢٦، وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/ ١١٤ ـ ١١٥، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩/ ٣٠ ـ ٣١، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٤٧.

وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث فُرَات القَزّاز، به. ورواه مسلم أيضاً من رواية عبد العزيز بن رفيع، عن أبي الطفيل، عن أبي سَرِيحة حُذَيفة بن أَسِيد الغِفَارِيّ، موقوفاً[١]. والله أعلم.

فهذه أحاديثُ متواترةٌ عن رسول الله ـ ﷺ ـ من رواية أبي هُرَيرَة، وابن مَسْعُود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنَّوَّاس بن سِمْعان، وعبد الله بن عَمْرو بن العاص، ومُجَمِّع بن جارية، وأبي سَرِيحة حُذَيفة بن أَسِيد، رضي الله عنهم.

وفيها دَلَالة على صفة نزوله ومكانه، من أنه بالشام، بل بدِمَشْق، عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكونُ عند إقامة الصلاة للصبح. وقد بُنيت في هذه الأعصار، في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارةٌ للجامع الأموي بيضاء، من حجارة منحوتةٍ، عِوَضاً عن المنارة التي هُدِمت بِسَبَبِ الحريق المنسوب إلى صَنِيع النصارى ـ عليهم لعائنُ الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ وكان أكثرُ عمارتها من أموالهم، وقَوِيت الظنون أنها هي التي ينزل عليها عيسى ابنُ مريم ـ عليه السلام ـ فيقتل الخنزير، ويكسِرُ الصليب، ويَضَع الجزية، فلا يَقبل إلا الإسلامَ كما تقدَّم في الصحيحين، وهذا إخبارٌ من النبي ـ ﷺ ـ بذلك، وتقريرٌ وتشريعٌ وتسويغٌ له على ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاحَ عِلَلُهم، وترتفع شُبَهُهم من أنفسهم، ولهذا كلُّهم يدخلون في دين الإسلام مُتابَعَة لعيسى ـ عليه السلام ـ وعلى يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾. . . الآية.

وهذه الآيةُ كقوله: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ وقُرِىء: ﴿عَلَم﴾[٢] بالتحريك، أي إشارةٌ ودليلٌ على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خُرُوج المسيح الدجال، فيقتله الله على يديه، كما ثبت في الصحيح: «أن الله لم يخلق داءً إلّا أنزل له شفاء». ويبعث الله في أيامه يأجوجَ ومأجوجَ، فَيُهلكهم الله ببركة دعائه، وقد قال تعالى: ﴿حتى إذا فُتِحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَبٍ ينسلون، واقترب الوعد الحق﴾. . . الآية.

صفة عيسى عليه السلام:

قد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم، عن أبي هُرَيرة: «فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع، إلى الحُمْرَة والبياض، عليه ثوبان مُمَصَّرَان، كأنَّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلَل». وفي حديث النواس بن سمعان: «فينزل عند المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق، بين مَهْرُودَتين واضعاً كفَّيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسَه قَطَر، وإذا رفعه تَحَدَّر منه مثل جُمان اللؤلؤ، ولا يحِلّ لكافر يَجِدُ ريح نَفَسِه إلا مات وَنَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه».

وروى البخاري ومسلم، من طريق الزهري، عن سعيد بن المُسَيَّب، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليلة أسري بي لقيتُ موسى، قال: فَنعته فإذا رجل حَسِبتُه قال: مضطرب، رَجِلُ الرأس، كأنه من رجال شَنُوءَة. قال: وَلقِيتُ عيسى، فنعته النبي ـ ﷺ ـ فقال: رَبْعَة أحمر، كأنما خَرَج من ديماس ـ يعني الحمام ـ ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به. . .[٣] الحديث.

وَرَوَى البخاريُّ، من حديث مجاهد، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «رأيت موسى وعيسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمَرُ جَعْدٌ عريضُ الصَّدر، وأما موسى فآدمُ جَسِيمٌ سَبِطٌ، كأنَّه من رجال الزُّط[٤].

(١) المصدر السابق.
(٢) الآية ٦١ من سورة الزُّخرف، وتنسب هذه القراءة إلى ابن عباس وأبي هريرة. انظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٧.
(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧، ومسلم، كتاب الإيمان ١٥٤.
ورجل الرأس: يعني أن شعره ليس شديد الجعودة ولا شديد السبوطة، بل وسط بينهما.
(٤) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٧٧.

وله ولمسلم من طريق موسى بن عقبةَ، عن نافع قال: قال عبدُ الله بن عمر: ذكَر النبي - ﷺ - يوماً بين ظَهْرَاني الناس المسيحَ الدجَّالَ فقال: «إن الله ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى. كأن عَينه عنَبَةٌ طافيةٌ، وأراني الله عندَ الكعبة في المنام، فإذا رجلٌ آدمُ، كأحسَن ما ترى من أُدْم الرجال، تضرب لِمَّتُه بينَ مَنْكِبَيْه، رَجِلُ الشَّعر، يقطُر رأسهُ ماءً، واضعاً يديه على منكبي رَجُلين، وهو يطوفُ بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو المسيحُ ابنُ مريَمَ، ثم رأيت رَجُلاً وراءه جَعْداً قَطِطاً، أعوَر عينِ اليُمنى، كأشبه من رأيت بابن قَطَنٍ، واضعاً يديه على مَنْكِبَي رجُلٍ يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قالوا: المَسيح الدجال». تابعه عُبَيد الله عن نافع[(١)].

ثم رواه البخاريُّ عن أحمدَ بن محمد المكيِّ، عن إبراهيم بن سعد، عن الزُّهري، عن سالم، عن أبيه قال: لا، والله ما قال النبيُّ - ﷺ - لعيسى: أحمر، ولكن قال: بينما أنا نائم أطوف بالكعبة، فإذا رجل آدمُ سَبْط الشعر، يُهادي بين رجلين يَنْطِف رأسُه ماءً - أو يُهرَاق رأسُه ماءً - فقلت: من هذا؟ فقالوا: ابنُ مريَمَ. فذهبتُ ألتفت، فإذا رجل أحمرُ جَسِيمٌ، جَعْد الرأس، أعورُ عينِه اليمني، كأن عينَه عِنَبةٌ طافيةٌ. قلت: من هذا؟ قالوا: الدجال. وأقربُ الناس به شبهاً ابن قَطَن. قال الزهري: رجلٌ من خزاعَةَ هَلَكَ في الجاهلية[(١)].

هذه كلُّها ألفاظ البخاري - رحمه الله - وقد تَقَدَّم في حديث عبد الرحمَن بن آدَمَ، عن أبي هُرَيرة: أن عيسى - عليه السلام. يمكثُ في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، ثم يُتَوفَّى، ويصلِّي عليه المسلمون. وفي حديث عبد الله بنِ عمرو عند مسلم أنه يمكُث سبعَ سنين، فيحتمل - والله أعلم - أن يكون المرادُ بلبثه في الأرض أربعينَ سنةً مجموعَ إقامته فيها قبلَ رَفْعِهِ وبعد نزوله، فإنه رُفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح، وقد ورد ذلك في حديثٍ في صفةِ أهل الجنَّة أنهم على صورةِ آدمَ وميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة. وأما ما حكاه ابن عساكر عن بعضهم أنه رُفع وله مائةٌ وخمسون سنة، فشاذٌ غريبٌ بعيد. وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة عيسى ابن مريم من تاريخه، عن بَعْضِ السلف: أنه يُدفَن مع النبي - ﷺ - في حُجْرَته، فالله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾، قال قتادةُ: يشهَدُ عليهم أنه قد بَلَّغهم الرسالَةَ من الله، وأقرَّ بالعبوديَّة لله، عز وجل. وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريَمَ: أأنتَ قلتَ للناس﴾ إلى قوله: ﴿العزيز الحكيم﴾.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه بِسَبَبِ ظُلم اليهود بما ارتكبوه من الذُنوبِ العظيمة، حَرَّم عليهم طيباتٍ كان أحلَّها لهم، كما قال ابن أبي حاتم:

حدَّثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المُقرِي، حدثنا سُفيان بن عُيَينة، عن عمرو قال: قرأ ابن عباس: ﴿طيباتٍ كانت أُحِلَّت لهم﴾.

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٧٧، ومسلم، كتاب الإيمان ١٥٥.
اللمّة: الشعر المتدلّي الذي جاوز شحمة الأذن. وابن قَطَنٍ هو: عبد العُزّى بن قطن. وأمّه هالة بنت خالد. فتح الباري ٦/ ٤٨٨.

وهذا التحريمُ قد يكون قدرياً، بمعنى أنه تعالى قَيَّضهم لأن تأولوا في كتابهم، وحَرَّفوا وبدَّلوا أشياءَ كانت حلالاً لهم، فَحَرَّموها على أنفسهم، تَشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنطعاً. ويحتَملُ أن يكون شرعياً بمعنى أنه تعالى حَرَّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿كلُّ الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حَرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾. وقد قَدَّمنا الكلام على هذه الآية[1] وأن المراد: أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم، من قبل أن تنزل التوراة، ما عدا ما كان حَرَّم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبلِ وألبانها. ثم إنه تعالى حرم أشياءَ كثيرةً في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: ﴿وعلى الذين هادوا حَرَّمنا كلَّ ذي ظُفُر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شُحُومَهما إلا ما حَمَلت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم بِبَغْيهم وإنا لصادقون﴾[2] أي: إنما حَرَّمنا عليهم ذلك، لأنهم يَستحقُّون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولَهم واختلافهم عليه: ولهذا قال: ﴿فبظلم من الذين هادوا حَرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم، وبِصَدِّهم عن سبيل الله كثيراً﴾، أي: صَدُّوا الناسَ وَصَدُّوا أنفسَهم عن اتباع الحق. وهذه سجيَّةٌ لهم مُتَّصِفُون بها من قديم الدهر وحَديثه، ولهذا كانوا أعداءَ الرسل، وقَتَلُوا خَلْقاً من الأنبياء، وكَذَّبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما.

وقولُه: ﴿وأَخْذِهم الربا وقد نُهوا عنه﴾، أي: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الحِيَلِ وصُنُوفٍ من الشُّبَهِ، وأكلوا أموالَ الناسِ بالباطل. قال الله تعالى: ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لكن الرَّاسِخُون في العلم منهم﴾، أي: الثابتون في الدِّين لهم قَدَمٌ راسخة في العلم النافع. وقد تَقَدَّم الكلام على ذلك في سورة آل عمران[3].

﴿والمؤمنون﴾ عطفٌ على الراسخين، وخبرَه ﴿يؤمنون بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِل من قبلك﴾.

قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن سَلَام، وثعلبة بن سعيةَ، وزيد بن سَعْيَةَ، وأسد بن عُبَيد[4]، الذين دخلوا في الإسلام، وصَدَّقوا بما أرسل الله به محمَّداً ـ ﷺ ـ.

وقولُه: ﴿والمقيمين الصلاة﴾، هكذا هو في جميع المصاحف الأئمة، وكذا هو في مصحف أُبَيِّ بن كعب. وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود[5]: ﴿والمقيمون الصلاة﴾، قال: والصحيح قراءة الجميع. ثم رَدَّ على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا﴾. قالوا: وهذا سائغ في كلام العرب، كما قال الشاعر[6]:

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين هُمُو سُمّ العُداة وآفة الجُزْرِ
النازلينَ بكل مُعْتَركٍ والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزْرِ

---

(١) انظر تفسير الآية ٩٣ من سورة آل عمران.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٤٦.

(٣) الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٤) انظر تفسير الآية ١١٣ من سورة آل عمران، وتفسير الطبري ٤/ ٥٢، وسيرة ابن هشام ١/ ٥٥٧.

(٥) انظر تفسير الطبري ٦/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٦) البيتان للخرنق بنت بدر بن هفان، ديوانها ٢٩. وانظر الكتاب لسيبويه ١/ ٢٠٢، ٢/ ٥٧، ٦٤، والجمل للزجاجي ١٥، ونتائج الفكر للسهيلي ٢٤١ ـ ٢٤٨.

وقال آخرون: هو مخفوضٌ عطفاً على قوله: ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ يعني: وبالمقيمين الصلاة، وكأنه يقول: وبإقامةِ الصلاة، أي: يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم. أو أن المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة. وهذا اختيار ابن جرير، يعني: يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالملائكة. وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقولُه: ﴿والمؤتون الزكاة﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ زكاةَ الأموال، ويَحْتَمِلُ زكاةَ النفوس، ويَحْتَمِلُ الأمرين، والله أعلم.

﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: يُصدِّقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خَيْرِها وشَرِّها.

وقولُه: ﴿أولئك﴾ هو الخبر عما تقدَّم ﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ يعني: الجنة.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

قال مُحَمَّد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال سُكَين وعَديّ بن زيد: يا محمدُ، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيءٍ بعد موسى. فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾... إلى آخر الآيات[١].

وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: أنزل الله: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾... إلى قوله: ﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾، فلما تلاها عليهم - يعني على اليهود - وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة، جَحَدوا كلَّ ما أنزل الله، وقالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيءٍ، ولا موسى ولا عيسى، ولا على نبي من شيء. قال: فحَلّ حُبْوَته[٢]، وقال: ولا على أحد.. فأنزل الله عز وجل: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيءٍ﴾[٣].

وفي هذا الذي قاله محمَّدُ بن كعب القُرَظِيِّ نظرٌ؛ فإن هذه الآية في سورة الأنعام[٤]، وهذه الآية التي في سورة النساء مدنية، وهي رَدٌّ عليهم لما سألوا النبي - ﷺ - أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، قال الله تعالى: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾. ثم ذكر فضائحهم ومعايبهم وما كانوا عليه، وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء. ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد - ﷺ - كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ إلى قوله: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٦٢، وتفسير الطبري ٦/ ٢٨.

(٢) الحبوة - بضم الحاء وفتحها، وسكون الباء: الثوب الذي يحتبى به، وذلك بأن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشدّه عليهما. وقد يكون الاحتباء باليدين عوضاً عن الثوب.

(٣) تفسير الطبري ٦/ ٢٨.

(٤) سورة الأنعام، آية ٩١.

والزَّبور: اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام. وسنذكر ترجمةَ كلِّ واحدٍ من هؤلاء الأنبياء، عليهم من الله الصلاة والسلام، عند قِصَصِهم في السور الآتية، إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان.

وقولُه: ﴿ورسلاً قد قَصَصناهم عليك من قبلُ، ورسلاً لم نَقْصُصهم عليك﴾، أي: من قبل هذه الآية، يعني: في السور المكية وغيرها.

وهذه تسميةُ الأنبياءِ الذين نُصَّ على أسمائهم في القرآن، وهم: آدمُ، وإدريسُ، ونوحٌ، وهودٌ، وصالحٌ، وإبراهيمُ، ولوطٌ، وإسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ، ويوسفُ، وأيوبُ، وشعيبٌ، وموسى، وهارونُ، ويونسُ، وداودُ، وسليمانُ، وإلياسُ، واليسعُ، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكذا ذو الكفلِ عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمدٌ ـ ﷺ ـ.

وقولُه: ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي: خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن، وقد اختُلِف في عدة الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك حديث أبي ذَرٍّ الطويل، وذلك فيما رواه ابن مَرْدُويه ـ رحمه الله ـ في تفسيره، حيث قال:

حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا جعفر بن محمد بن الحسن والحُسين بن عبد الله بن يزيد قالا: حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثني أبي، عن جدي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذَرٍّ قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: يا رسولَ الله، كم الرسلُ منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثةَ عشر جَمٌّ غفيرٌ. قلت: يا رسولَ الله، من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله، نبيٌّ مرسلٍ؟ قال: نعم، خلقه الله بيده، ونَفَخَ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً. ثم قال: يا أبا ذَرٍّ أربعةٌ سريانيون: آدمُ وشيثٌ، ونوحٌ، وخَنُوخُ، وهوإدريسُ، وهو أول من خط بقلم. وأربعة من العرب: هودٌ، وصالحٌ، وشعيبٌ، ونبيك يا أبا ذر: وأول نَبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. وأول النبيين آدمُ وآخرهم نبيك».

وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البُستيُّ في كتابه «الأنواع والتقاسيم»(١) وقد وَسَمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج ابن الجَوزيّ، فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات، واتَّهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تَكَلَّم فيه غير واحد من أئمة الجَرْح والتعديل من أجل هذا الحديث، فالله أعلم.

وقد رُوِي الحديث من وجه آخر، عن صحابي آخر، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاعة، عن علي بن يزيدَ، عن القاسم، عن أبي أمامة قال، قلت: يا نبيَّ الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، من ذلك ثلاثمائة وخمسةَ عشر جَمّاً غَفِيراً.

معان بن رفاعة السلامي ضعيف، وعلي بن يزيدَ ضعيف، والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيفٌ أيضاً.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن إسحاقَ أبو عبد الله الجوهري البَصريّ، حدثنا مكي ابن إبراهيم، حدثنا موسى بن عُبَيدة الرَّبَذِيُّ، عن يزيدَ الرَّقاشي، عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بَعَث الله ثمانيةَ آلافِ نبيٍّ، أربعةَ آلافٍ إلى بني إسرائيلَ، وأربعةَ آلافٍ إلى سائرِ الناس»(٢).

وهذا أيضاً إسنادٌ ضعيفٌ، فيه الرَّبَذِيُّ ضعيفٌ، وشيخهُ الرَّقاشيُّ أضعفُ منه أيضاً. والله أعلم.

---

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان ١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩.
(٢) مسند أبي يعلى ٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو الربيع، حدثنا محمد بن ثابت العَبْدِيُّ، حدثنا معبد[(١)] بن خالد الأنصاري، عن يزيد الرَّقاشي، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانيةُ آلافِ نبيٍّ، ثم كان عيسى ابنُ مريَمَ، ثم كُنتُ أنا»[(١)].

وقد رويناه عن أنس من وجه آخر، فأخبرني الحافظ أبو عبد الله الذَّهبي، أخبرنا أبو الفضل بن عساكر، أنبأنا الإمام أبو بكر القاسِمُ بن أبي سعيد الصفار، أخبرتنا عمة أبي عائشة بنتُ أحمد بن منصور بن الصفار، أخبرنا الشريف أبو السنابك هبة الله بن أبي الصهباء محمد بن حيدر القرشي، حدثنا الإمام الأستاذ أبو إسحاقَ الأسفراييني قال: أخبرنا الإمام أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق، حدثنا مسلم بن خالد، حدثنا زياد بن سعد، عن محمد بن المنكدر، عن صفوان بن سُلَيم، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بُعِثت على أثر من ثلاثة آلاف نَبيٍّ من بني إسرائيل».

وهذا غريبٌ من هذا الوجه، وإسناده لا بأسَ به، رِجالُه كلهم معروفون إلا أحمدَ بن طارقٍ هذا فإني لا أعرفه بعدالةٍ ولا جَرْحٍ، والله أعلم.

حديث أبي ذَرٍّ الغفاري الطويل في عَدَدِ الأنبياء عليهمُ السلام:

قال محمد بن الحسين الآجُرِّي: حدثنا أبو بكر جعفر بن محمد بن الفِرْيابي إملاء في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين، حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، حدثنا أبي، عن جدِّي، عن أبي إدريسَ الخَوْلانِيّ، عن أبي ذَرٍّ قال:

دخلت المسجد فإذا رسولُ الله ـ ﷺ ـ جالِسٌ وحدَه، فجلستُ إليه فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّكَ أمرتَني بالصلاة، [فما الصلاةُ[(٢)]؟] قال: الصلاةَ خيرٌ موضوع، فاستكثِرْ أو استقلَّ. قال قلت: يا رسول الله، فأيُّ الأعمال أفضلُ؟ قال: إيمان بالله وجهادٌ في سبيلِهِ. قلتُ: يا رسولَ الله، فأيّ المؤمنين أفضلُ؟ قال: أحسنُهم خُلُقاً. قلت: يا رسولَ الله، فأي المسلمين أسلم؟ قال: من سَلِم الناس من لسانِه ويَدِهِ. قلت: يا رسولَ الله، فـأيُّ الهجرةِ أفضلُ؟ قال: من هَجَر السيئاتِ. قلت: يا رسولَ الله، فأيُّ الصلاة أفضل؟ قال: طولُ القُنوتِ. قلتُ: يا رسولَ الله، فأيُّ الصيامِ أفضلُ؟ قال: فرض مجزىءٌ وعند الله أضعاف كثيرة. قلت: يا رسولَ الله، فأيُّ الجهاد أفضلُ؟ قال: من عَقَر جواده وأُهريق دمُه. قلت: يا رسول الله، فأيُّ الرقابِ أفضلُ؟ قال: أغلاها ثمناً وأنفَسُها عند أهلها. قلتُ: يا رسولَ الله، فأيّ الصدقة أفضلُ؟ قال: جَهْدٌ من مُقلٍّ، وسِرٌّ إلى فَقير. قلت: يا رسول الله، فأيّ آية ما أُنزلَ عليك أعظمُ؟ قال: آيةُ الكرسِيِّ. ثم قال: يا أبا ذَرٍّ، وما السموات السبع مع الكرسيِّ إلا كحَلْقةٍ مُلقاةٍ بأرضِ فلاةٍ، وفضلُ العرش على الكرسيِّ كفَضْلِ الفَلاة على الحَلْقَةِ.

قال قلت: يا رسولَ الله، كم الأنبياءُ؟ قال: مائة ألف وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً. قال قلتُ: يا رسولَ الله، كم الرسلُ من ذلك؟ قال: ثلاثمائةٍ، وثلاثةَ عَشر، جمٌّ غفير، كثيرٌ طَيِّب. قلتُ: فمن كان أوَّلَهم؟ قال: آدم. قلت: أنبيٌّ مرسل؟ قال: نعم، خَلَقه الله بيده، ونَفَخ فيه من رُوحِهِ، وسَوَّاه قَبيلاً[(٣)].

(١) مسند أبي يعلى ٧/ ١٣١ ـ ١٣٢. وفي نسخة بدل معبد بن خالد: محمد بن خالد. وهو خطأ، صوابه من مسند أبي يعلى، وتهذيب الكمال، ترجمة محمد بن ثابت العبدي.

(٢) عن كتاب الأربعين للآجري.

(٣) أي: عياناً ومقابلةً، ويروى: قِبَلاً. وهو بمعناه.

ثم قال: يا أبا ذرّ، أربعةٌ سُريانيون: آدمُ، وشِيثٌ، وخَنُوخٌ ـ وهو إدريس، وهو أولُ من خطَّ بقلم ـ ونوحٌ. وأربعةٌ من العَرَب: هودٌ، وشعيبٌ، وصالحٌ، ونبيُّك يا أبـا ذرٍّ. وأوّلُ أنبياءِ بني إسرائيلَ موسى، وآخِرُهم عيسى. وأولُ الرُّسُلِ آدم، وآخرهم مُحمَّدٌ.

قال قلت: يا رسول الله، كم كتاباً أنزله الله؟ قال: مائةُ كتابٍ وأربعةُ كُتُبٍ، أنزل الله على شيثٍ خمسين صحيفةً، وعلى خَنُوخَ ثلاثين صحيفةً، وعلى إبراهيم عَشرَ صَحائِفَ، وأنزل على موسى من قَبْلِ التوراة عَشْرَ صحائِفَ(١)، والإنجيـلَ والزبورَ والفُرقانَ.

قال قلت: يا رسولَ الله، ما كانت صُحُف إبراهيم؟ قال: كانت [أمثالاً](٢) كلّها: يا أيها الملك المسلَّطُ المبتلَى المغرورُ، إني لم أبْعثْك لتجمَعَ الدنيا بعضَها على بعض، ولكني بعثتك لتردَّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردُّها ولو كانت من كافر. وكان فيها مثالٌ: «وعلى العاقِلِ أن يكونَ له ساعاتٌ: ساعةٌ يناجي فيها ربَّـه، وساعةٌ يحاسِبُ فيها نفسَه، وساعة يُفكِّر في صنع الله، وساعةٌ يخلو فيها لحاجَتِهِ من المطعم والمشرب. وعلى العاقلِ ألاَّ يكون ظاعِناً إلا لثلاث: تزودٌ لمعاد، أو مَرَمَّةٌ لمعاشٍ، أو لَذَّةٌ في غيرِ مُحَرَّم. وعلى العاقل أن يكون بَصِيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حَسَب كلامَه من عَمَلِهِ قَلَّ كلامُه إلا فيما يعنيه».

قال قلتُ: يا رسولَ الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كان عِبَراً كلُّها: عَجِبتُ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرَحُ، عَجِبْتُ لمن أيقن بالقدر ثم هو يَنْصَبُ، وعَجِبتُ لمن يرى الدنيا وتَقَلُّبها بأهلها ثم يطمَئنُّ إليهـا، وعَجِبتُ لمن أيقن بالحساب غداً ثُمَّ هو لا يعمـل».

قال قلتُ: يا رسولَ الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيمَ وموسـى وما أنزل الله عليك؟ قال: نعم، اقرأ يا أبا ذَرٍّ: ﴿قد أفلح من تَزكَّى. وذَكَر اسم ربِّه فصلَّى. بل تُؤثِرُون الحياة الدنيا. والآخرة خيرٌ وأبقى. إن هذا لفي الصُّحُف الأولى. صُحُفِ إبراهيمَ وموسى﴾.

قال قلتُ: يا رسولَ الله، فأوصني. قال: أُوصِيكَ بتقوى الله، فإنه رأسُ أمرِكَ.

قال قلت: يا رسول الله، زِدْني. قال: عليكَ بتلاوة القرآن، وذكْر الله، فإنه ذِكْرٌ لك في السماء، ونورٌ لك في الأرض.

قال قلتُ: يا رسولَ الله، زِدْني. قال: إيَّاك وكثرةَ الضَّحِكِ. فإنه يُميتُ القلبَ، ويَذْهبُ بنورِ الوجه.

قلتُ: يا رسولَ الله، زِدْني. قال: عليك بالجهاد، فإنه رهبانيَّة أُمّتي.

قلت: زِدْني. قال: عليك بالصَّمت إلا من خيرٍ، فإنه مَطْرَدَةٌ للشيطان، وعَوْن لك على أَمْرِ دينك.

قلتُ: زِدْني. قال: انظُر إلى من هو تحتك، ولا تنظُر إلى من هُو فوقَكَ، فإنه أجدَرُ لك ألاَّ تزدرِي نعمة الله عليك.

قلت: زِدْني. قال: أَحِبَّ المساكين وجالسهم، فإنه أجدر ألاَّ تزدريَ نعمة الله عليك.

قلت: زِدْني. قال: صِلْ قَرابَتَكَ وإن قطعُوكَ. قلت: زِدْني. قال: قُلْ الحقَّ وإن كان مُرّاً.

قلت: زِدْني. قال: لا تَخفْ في الله لومَةَ لائمٍ.

---

(١) بعده في الأربعين للآجري: «وأنزلت التوراة والإنجيل...».

(٢) عن كتاب الأربعين للآجري.

قلت: زِدْني. قال: يَرُدّك عن الناس ما تعرفُ من نفسك، ولا تَجِدُ عليهم فيما تحبُّ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك، أو تَجِدُ عليهم فيما تُحِبُّ.

ثم ضَرَبَ بيده صَدْري، فقال: يا أبا ذَرٍّ، لا عَقْلَ كالتدبير، ولا وَرَع كالكَفِّ، ولا حَسَب كحُسْنِ الخُلُق»(١).

وروى الإمام أحمدُ، عن أبي المغيرة، عن معـان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة: أن أبا ذَرٍّ سأل النبي ـ ﷺ ـ فذكر أمر الصلاة، والصيام، والصدقة، وفَضْل آية الكرسيِّ، ولا حولَ ولا قُوَّة إلا بالله، وأفضلَ الشُّهداءِ، وأفضلَ الرِّقاب، ونبوَّة آدمَ، وأنه مُكَلَّم، وعدد الأنبياء والمرسلين، كنحو ما تقدم(٢).

وقال عبد الله ابنِ الإمام أحمد: وجدت في كتاب أبي بخطِّه: حدثني عبد المتعالي بن عبد الوهاب، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي، حدثنا مُجالد، عن أبي الودَّاكِ قال: قال أبو سعيد: هل تقول الخوارجِ بالدجَّال؟ قال قلت: لا. فقال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني خاتم ألفِ نبيٍّ أو أكثر، وما بُعِثَ نَبيٌّ يُتَّبَعُ إلا وَقد حَذَّر أُمَّته منه، وإني قد بُيِّن لي ما لم يُبَيَّن لأحد، وإنه أعورُ، وإنَّ ربَّكم ليس بأعوَرَ، وعينُه اليُمنَى عوراءُ جاحِظَةٌ لا تَخْفَى، كأنها نخامةٌ في حائط مُجَصَّص، وعينُه اليسرى كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ، معه من كلِّ لسان، ومعه صورة الجَنّةِ خضراء، يجري فيها الماءُ، وصورة النار سوداء تَدْخُنُ»(٣).

وقد رويناه في الجزء الذي فيه رواية أبي يعلى الموصلي، عن يحيى بن معين، حدثنا مروان بنُ معاوية، حدثنا مجالد، عن أبي الودَّاك، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إني أختم أَلْفَ أَلْفِ نَبيٍّ أو أكثرَ، ما بعث الله من نَبيٍّ إلى قومِه إلا حَذَّرهم الدجال». . . وذكر تمام الحديث، هذا لفظه بزيادة «أَلْفٍ» وقد تكونُ مُقْحَمَةً، والله أعلم. وسياق رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة، ورجالُ إسنادِ هذا الحديثِ لا بأس بهم.

ورُوِي هذا الحديثُ من طريق جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال الحافظُ أبو بكر البزَّارُ:

حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا مجالد، عن الشعبيِّ، عن جابر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إني لخاتِمُ ألفِ نبيٍّ أو أكثر، وإنه ليس منهم نبيٌّ إلا وقد أنذَرَ قومَهَ الدَّجَّالَ، وإنه قد تَبَيَّن لي ما لم يَتبيَّن لأحدٍ منهم، وإنه أعورُ، وإنَّ ربَّكم ليس بأعورَ»(٤).

وقولُه: ﴿وكلَّم الله موسى تكليماً﴾، وهذا تشريـفٌ لموسى عليه السلام بهذه الصفة، ولهذا يقال له: الكليمُ. وقد قال الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُويه:

حدثنا أحمد بن محمد بن سليمان المالكي، حدثنا مُسَبِّح بن حاتم، حدثنا عبد الجبار بن عبد(٥) الله قال: جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال: سَمِعت رجلاً يقرأ: «وكَلَّم اللهَ موسى(٦) تكليماً». فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافرٌ، قرأتُ على الأعمشِ، وقرأ الأعمشُ على ابن وَثّاب، وقرأ يحيى بن وَثّابٍ على أبي عبد الرحمن

(١) كتاب الأربعون حديثاً لأبي بكر الآجرّي ١٢٧ ـ ١٣٢.
(٢) مسند أحمد ٥/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.
(٣) مسند أحمد ٣/ ٧٩. وذَخَنت النار تَدْخَن: ارتفع دخانها.
(٤) كشف الأستار عن زوائد البزّار، كتاب الفتن ٤/ ١٣٥.
(٥) كذا، ولعله عبد الجبار بن محمد الدارمي أو العطاردي، مترجم في غاية النهاية ١/ ٣٥٨.
(٦) أي: بفتح الهاء من لفظ الجلالة.

السُّلَمي، وقرأ أبو عبد الرحمن، على عليٍّ بن أبي طالبٍ، وقرأ عليٌّ بن أبي طالبٍ على رسولِ الله ـ ﷺ ـ: ﴿وكلَّم الله موسى تَكْلِيماً﴾.

وإنما اشتد غَضَبُ أبي بكر بن عياش ـ رحمه الله ـ على مَن قرأ كذلك، لأنه حَرَّف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة[1] الذين يُنْكِرون أن الله كلَّم موسى ـ عليه السلام ـ أو يكلم أحداً من خلقه، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: «وكلم اللهَ موسى تكليماً» فقال له: يا ابن اللَّخْناء[2]، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه﴾؟ يعني: أنَّ هذا لا يحتمل التحريفَ ولا التأويلَ.

وقال ابن مَرْدُوَيه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن الحسين بن بهرام، حدثنا محمد ابن مرزوق، حدثنا هانىء بن يحيى، عن الحسن بن أبي جعفر، عن قتادة، عن يحيى بن وَثَّاب، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لمَّا كلم الله موسى كان يبصر دبيبَ النمل على الصَّفا في الليلة الظلماء».

وهذا حديثٌ غريبٌ، وإسنادُه لا يصحُّ، وإذا صحَّ موقوفاً كان جيداً.

وقد روى الحاكم في مستدركه وابن مَرْدُوَيه، من حديث حُمَيدِ بن قَيس الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كان على موسى يومَ كلَّمه ربُّه جبَّةُ صوفٍ، وكساءُ صوفٍ، وسراويلُ صوفٍ، ونعلانِ من جلدِ حمارٍ غير ذكي».

وقال ابنَ مَرْدُويه بإسناده عن جُوَيبر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: إن الله ناجى موسى بمائة ألف كلمة وأربعين ألفَ كلمةٍ، في ثلاثة أيام، وصايا كلها، فلما سمع موسى كلام الآدميين مَقَتَهم مما وقع في مسامعه من كلام الرب، عز وجل.

وهذا أيضاً إسناد ضعيف، فإن جُوَيبراً ضعيف، والضحاك لم يُدْرِك ابنَ عباس، رضي الله عنه. فأما الأثر الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدُويه وغيرهما من طريق الفضل بن عيسى الرَّقاشي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: لما كلَّمَ الله موسى يوم الطور، كلَّمه بغير الكلام الذي كلَّمه يوم ناداه، فقال له موسى: يا ربِّ، هذا كلامُك الذي كَلَّمتني به؟ قال: لا يا موسى، أنا كلَّمتك بقُوَّةِ عشرة آلاف لسانٍ، ولي قُوَّةُ الألسنة كلها، وأنا أقوى من ذلك. فلما رَجَع موسى إلى بَني إسرائيل قالوا: يا موسى، صف لنا كلامَ الرحمن. قال: لا أستطيعه. قالوا: فَشَبِّه لنا. قال: ألم تسمَعُوا إلى صوت الصواعِقِ فإنها قريبٌ منه، وليس به.

وهذا إسنادٌ ضعيفٌ، فإن الفضلَ هذا الرَّقاشي ضعيفٌ بمرَّةٍ.

وقال عبد الرازق: أخبرنا مَعْمر، عن الزهري، عن أبي بكر بنِ عبد الرحمن بن الحارث، عن جَزْءِ بن جابر الخثعمي، عن كَعب قال: إن الله لما كلم موسى كلمه بالألسنة كلِّها سوى كلامه، فقال له موسى: يا رب، هذا كلامك؟ قال: لا، ولو كَلَّمتُك بكلامي لم تستقم له. قال: يا ربِّ، فهل من خَلْقِكَ شيءٌ يشبهُ كلامَكَ؟ قال: لا، وأشدُّ خلقي شبهاً بكلامي أَشَدُّ ما تسمعون من الصواعقِ.

فهذا موقوفٌ على كعب الأحبار، وهو يحكِي عن الكُتُب المتقدمة المشتملة على أخبارِ بني إسرائيل، وفيها الغثُّ والسَّمينُ.

---

(١) انظر مجمع الزوائد ٧/ ١٢ ـ ١٣.
(٢) اللخن ـ بفتح الخاء ـ نَتْنُ الريح. واللخناء أيضاً: التي لم تُخْتَن.

وقولُه: ﴿وَرُسلاً مُبشِّرين ومنذرين﴾ أي: يُبَشِّرون من أطاع الله واتَّبع رِضْوانه بالخيراتِ، ويُنْذِرُون من خالف أمرَه وكَذَّب رُسُلَه بالعقاب والعذاب.

وقولُه: ﴿لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي: إنه تعالى أنزل كُتُبَه وأرسل رُسُلَه بالبِشارة والنِّذارة، وبيَّن ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذرٌ، كما قال تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا: رَبّنا، لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتَّبع آياتك من قبل أن نَذِلَّ ونخزَى﴾، وكذا قوله تعالى: ﴿ولولا أن تُصِيبهم مصيبة بما قَدَّمت أيديهم﴾... الآية.

وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا أحدَ أغْيَرُ من الله، من أجل ذلك حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من الله، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحبُّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك بعثَ النبيين مبشرين ومنذرين». وفي لفظ: «مِنْ أَجْلِ ذلك أرسلَ رُسُله، وأنزلَ كتبه»[1].

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

لما تَضمَّن قولُه تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾... إلى آخر السياق، إثباتَ نبوَّته ـ ﷺ ـ والردّ على من أنكر نُبُوَّته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لكن الله يشهدُ بما أنزل إليك﴾، أي: وإن كَفَر به مَنْ كفر به ممن كَذَّبك وخالفك، فالله يشهَدُ لك بأنك رسولهُ الذي أنزل عليه الكتابَ، وهو القرآنُ العظيمُ الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفهِ، تنزيل من حَكيم حَميدٍ﴾. ولهذا قال: ﴿أنزله بعلمه﴾ أي: فيه عِلْمُه الذي أراد أن يُطْلِعَ العبادَ عليه، من البيِّنات والهُدَى والفرقانِ، وما يحبُّه الله ويرضاه، وما يكرَهُه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسلٌ ولا ملكٌ مُقرَّبٌ، إلا أن يُعْلِمَه الله به، كما قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾، وقال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا الحسن بن سهل الجعفري وخُزَز بن المبارك قالا: حَدَّثنا عمران بن عُيَينة، حدثنا عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحدٌ اليومَ أفضلَ منك إلا بِعَملٍ، ثم يقرأ: ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾.

وقولُه: ﴿والملائكة يشهدون﴾ أي: بصدق ما جاءك وأوحَى إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله تعالى لك بذلك ﴿وكفى بالله شهيداً﴾.

وقد قال محمد بن إسحاقَ، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأنعام ٨/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦، ومسلم، كتاب التوبة ٢١١٣ ـ ٢١١٥.

قال: دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ جَماعةَ من اليهود، فقال لهم: «إني لأعلم، والله إنكم لتعلمون، أني رسولُ الله. فقالوا: ما نعلمُ ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾. . . الآية[١].

وقولُه: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلُّوا ضلالاً بعيداً﴾، أي: كفروا في أنفسهم، فلم يَتّبعوا الحق، وسَعَوا في صَدِّ الناس عن اتباعه والاقتداء به، قد خَرَجوا عن الحق وضلوا عنه، وبَعدُوا منه بعداً عظيماً شاسعاً.

ثم أخبر تعالى عن حُكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصدِّ عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه، بأنه لا يغفر لهم ﴿ولا يَهديهم طريقاً﴾ أي: سبيلاً إلى الخير ﴿إلا طريق جهنَّم﴾. وهذا استثناءٌ منقطع ﴿خالدين فيها أبداً﴾. . . الآية.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناسُ، قد جاءكم الرسولُ بالحقِّ من ربكم، فآمنوا خيراً لكم﴾ أي: قد جاءكم محمدٌ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بالهدى ودينِ الحقِّ. والبيان الشافي من الله، عز وجل، فآمنوا بما جاءكم به واتَّبعُوه يكن خيراً لكم.

ثم قال: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض﴾ أي: فهو غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرَّرُ بكفرانكم، كما قال تعالى: ﴿وقال موسى: إن تكفُرُوا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيٌّ حميدٌ﴾. وقال ها هنا: ﴿وكان الله عليماً﴾ أي: بمن يستحقُّ منكم الهداية فَيهدِيه، وبمن يستحق الغَوَاية فَيُغوِيه، ﴿حكيماً﴾ أي: في أقواله وأفعاله وشَرْعِه وقَدَرِه.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾

ينهَى تعالى أهلَ الكتاب عن الغلوِّ والإطراء، وهذا كثيرٌ في النصارى، فإنَّهم تجاوزُوا التصديق بعيسى، حتى رَفَعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حَيِّز النبوَّة إلى أن اتخذوه إلَهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلَوا في أتباعه وأشياعِه، مِمَّن زعم أنه على دينه، فادَّعوا فيهم العصمَةَ واتَّبعُوهم في كلِّ ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً. ولهذا قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾. . . الآية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم قال: زَعَم الزهري، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ بن مسعود، عن ابن عباس، عن عُمَر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تُطْرُوني كما أطرَتِ النصارى عيسى ابن مَرْيَم، فإنما أنا عبد الله ورسوله»[٢].

ثم رواه هو وعلي بن المَدِيني، عن سفيان بن عُيَينة، عن الزهريِّ كذلك. وقال علي بن المديني: هذا حديثٌ صحيح سندهُ. وهكذا رواه البخاريُّ، عن الحُمَيديِّ، عن سُفيان بن عُيَينَة، عن الزُّهريِّ، به. ولفظهُ: «فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه»[٣].

(١) تفسير الطبري ٦/ ٣١.
(٢) مسند أحمد ١/ ٢٣.
(٣) مسند أحمد ١/ ٢٤، وفتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٧٨.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن بن موسى، حدثنا حمَّاد بن سلمة، عن ثابت البُناني، عن أنس بن مالك: أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سَيِّدنا، وخَيْرَنا وابن خَيْرِنا. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا أيها الناس، عليكم بقولكم ولا يستهوينَّكم الشيطانُ، أنا محمد بنُ عبدِ الله، عبدُ الله ورسولُه، والله ما أُحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»(١).

تَفَرَّد به من هذا الوجه.

وقولُه: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحقّ﴾ أي: لا تفتروا عليه وتجعلُوا له صاحبةً وولداً، تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، وتنزَّه وتقدَّس وتوحَّد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إلَه إلا هُوَ، ولا ربَّ سواه. ولهذا قال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريَمَ رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريَم وروحٌ منه﴾، أي: إنما هو عبدٌ من عباد الله وخَلْق من خَلْقِهِ، قال له: كن، فكان، ورسولٌ من رُسُله، وكلمته ألقاها إلى مريَمَ، أي: خلقَه بالكلمة التي أرسَلَ بها جبريلَ ـ عليه السلام ـ إلى مريَمَ، فنفخ فيها من رُوحه بإذن ربِّه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله عَزَّ وجلَّ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جَيْب دِرْعها، فنزلت حتى ولَجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأمِّ، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمةُ الله وروحٌ منه. لأنه لم يكن له أبٌ تولَّد منه، وإنما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكانَ. والروحِ التي أرسَلَ بها جبريلَ، قال الله تعالى: ﴿ما المسيحُ ابن مَريَمَ إلا رسولٌ قد خلَت من قبله الرسل، وأمه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام﴾. وقال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن، فيكونُ﴾. وقال تعالى: ﴿والتي أحصنت فرجَها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾. وقال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجَها﴾، إلى آخر السورة. وقال تعالى اخباراً عن المسيح: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾. . . الآية.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾، هو كقوله: «كن»، فكان.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سَمِعت شَاذَّ بن يحيى يقول: في قول الله: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ قال: ليست الكلمةُ صارَتْ عيسى، ولكن بالكلمةِ صار عيسى.

وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله: ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي: أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ أي: يعلمك بكلمة منه(٢)، ويجعل ذلك كما قال تعالى: ﴿وما كنت ترجو أن يُلْقَى إليك الكتابُ إلا رحمةً من ربك﴾. بل الصحيحُ أنها الكلمةُ التي جاء بها جبريلُ إلى مريَم، فنفَخَ فيها بإذن الله، فكان عيسى عليه السلام.

وقال البخاري: حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا الوَليد، حدثنا الأوزاعيُّ، حدثني عُمَير بن هانىء، حدثني جُنَادة بن أبي أمية، عن عبادَة بن الصَّامتِ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من شهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريكَ له، وأن محمداً عبدُه ورسولُه، وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، والجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، أدخلَه الله الجنةَ على ما كان من العمل».

قال الوليد: فَحدَّثني عبد الرحمن بن يزيدَ بنِ جابرٍ، عن عُمَير بن هانىء، عن جُنادَةَ زاد: «من أبواب الجنة الثمانة من أيِّها شاء»(٣).

(١) مسند أحمد ٣/ ١٥٣.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٣٥.
(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/ ٤٧٤، ومسلم، كتاب الإيمان ٥٧.

وكذا رواه مسلم، عن داود بن رُشَيد، عن الوليد، عن ابن جابر، به. ومن وجه آخر، عن الأوزاعي، بـه.

فقولُه في الآية والحديث: «وروحٌ منه»، كقوله: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي: مِنْ خَلْقه ومن عنده، وليست «مِنْ» للتبعيض، كما تقوله النصارى ـ عليهم لعائنُ الله المتتابعةُ ـ بل هي لابتداء الغاية، كما في الآية الأخرى.

وقد قال مجاهدٌ في قوله: ﴿وروحٌ منه﴾ أي: ورسولٌ منه. وقال غيره: ومحبّةٌ منه. والأظهرُ الأولُ، وهو أنّه مخلوق من روحٍ مخلوقٍ، وأضيفتِ الروحُ إلى الله على وجه التشريفِ، كما أُضيفتِ الناقة والبيت إلى الله، في قوله: ﴿هذه ناقةُ الله﴾. وفي قوله: ﴿وطَهِّر بيتي للطائفين﴾، وكما ورد في الحديثِ الصحيحِ: «فأدخل على رَبِّي في داره». أضافها إليه إضافةَ تشريفٍ لها، وهذا كلُّه من قبيلٍ واحد، ونَمَطٍ واحدٍ.

وقولُه: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾، أي: فَصَدِّقوا بأن الله واحد أحد، لا صاحبةَ له ولا ولد، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبدُ الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا: ثلاثة﴾. أي: لا تجعلوا عيسى وأمَّه مع الله شريكَينِ، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

وهذه الآيةُ والتي تأتي في سورة «المائدة» حيث يقول تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، وما من إلَه إلا إلَه واحد﴾. وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وإذ قال الله: يا عيسى ابن مَرْيَم، أأنتَ قلتَ للناس: اتخذوني﴾. . . الآية، وقال في أولها: ﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيحُ ابن مريَمَ﴾. . . الآية، فالنصارى ـ عليهم لعنةُ الله ـ من جَهْلِهم ليس لهم ضابطٌ، ولا لكفرهم حَدٌّ، بل أقوالهم وضلالُهم منتشرٌ، فمنهم من يعتقده إلَهاً، ومنهم من يعتقدُه شريكاً، ومنهم من يعتقدُه ولداً. وهم طوائف كثيرةٌ لهم آراءٌ مختلفة، وأقوال غيرُ مؤتلفة. ولقد أحسنَ بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرةٌ من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير، وهو سعيد بن بطريق، بَتْرَكُ الإسكندرية في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبويَّةِ، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانةَ الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرةُ الصغيرة! وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبطُ ولا ينحصرُ، فكانوا أزيدَ من ألفين أسقفاً، فكانوا أحزاباً كثيرة، كل خمسين منهم على مقالةٍ، وعشرونَ على مقالةٍ، ومائةٌ على مقالة، وسبعون على مقالةٍ، وأزيدُ من ذلك وأنقصُ. فلما رأى عصابةً منهم قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفراً، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونَصَرها وأَيَّدها ـ وكان فيلسوفاً داهيَة ـ ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دَسْتُ أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبُنِيَتْ لهم الكنائس، ووضَعُوا لهم كتباً وقوانين، وأحدَثُوا الأمانة التي يُلَقِّنونها الولدان من الصغار، ليعتقدوها ويُعَمِّدونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم المَلْكانيّة. ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً، فحَدَث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النَّسطُورية. وكل هذه الفِرَق تُثبتُ الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم؟ هل اتحدا، أو ما اتحدا، بل امتزجا أو حَلَّ فيه؟ على ثلاث مقالات وكلٌّ منهم يُكَفِّر الفرقة الأخرى، ونحن نكفِّرُ الثلاثةَ، ولهذا قال تعالى: ﴿انتهُوا خيراً لكم﴾ أي: يَكُن خيراً لكم ﴿إنما الله إلَه واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي: تعالى وتقدَّس عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، ﴿له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾، أي: الجميعُ ملكُه وخلقُه، وجميعُ ما فيها عبيدُه، وهم تحت تدبيره وتَصْريفه، وهو وكيلٌ على كلِّ شيء، فكيف

يكون له منهم صاحبةٌ أو ولد؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿بديعُ السموات والأرض أنّى يكونُ له ولدٌ﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدّاً﴾ إلى قوله: ﴿فرداً﴾.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيمُ بن موسى، حدثنا هشام، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عَبّاس، قولُه: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾، لن يَستكبِرَ.

وقال قتادة: لن يحتشم ﴿المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾، وقد استدل بعضُ من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿ ولا الملائكة المُقَرَّبون ﴾. وليس له في ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضلَ.

وقيل: إنما ذُكِـرُوا لأنهـم اتُّخِذُوا آلهةً مع الله، كما اتُّخِذَ المسيحُ، فأخبر تعالى أنهم عَبيدٌ من عبيده وخلْق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، سبحانه، بل عباد مكرمون﴾... الآيات.

ثم قال: ﴿ومن يَستنكِفْ عن عبادَتِه ويَسْتكبر فسيحشُرُهم إليه جميعاً﴾ أي: فيجمَعُهم إليه يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العَدْلِ، الذي لا يجورُ فيه ولا يَحيفُ. ولهذا قال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فَيُوفِّيهم أجورَهم ويزيدُهم من فضله﴾، يعني: فَيُعطيهم من الثوابِ على قَدْرِ أعمالهم الصالحة، ويَزِيدُهم على ذلك من فضله وإحسانه وسَعَة رَحْمَتِه وامتنانه.

وقد روى ابن مَرْدُويه من طريق بقيةَ، عن إسماعيلَ بن عبد الله الكندي، عن الأعمش، شقيق(1)، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿فيوفيهم أجورَهم ويزيدهم من فضله﴾ قال: أجورهم: أدخلَهُم الجنة. ﴿ويزيدهم من فضله﴾ قـال: الشفاعة فيمن وجَبتْ له النارُ ممن صنع إليهم المعروفَ في دنياهم.

وهذا إسنادٌ لا يثبتُ، وإذا رُوِيَ عن ابن مسعود موقوفاً فهو جَيِّدٌ.

﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾، أي: امتنَعُوا من طاعةِ الله وعبادَتِه واستكبروا عن ذلك، ﴿فيعذِّبهم عذاباً اليماً، ولا يَجِدُون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخُلُونَ جهنَّمَ داخرين﴾، أي: صاغِرين حَقِيرين ذَلِيلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾

يقولُ تعالى مخاطباً جميعَ الناسِ، ومخبراً بأنّه قد جاءهم منه برهانٌ عظيمٌ، وهو الدليل القاطع للعُذْر،

(1) في الأصل: سفيان. وهذا سند معروف، فالأعمش يروي عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن عبد الله.

والحجة المزيلةِ للشُّبهَة، ولهذا قال: ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ أي: ضياءً واضحاً على الحقّ، قال ابنُ جُرَيج وغيره: وهو القرآن.

﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصمُوا به﴾، أي: جَمَعوا بين مقامَي العبادةِ والتوكُّلِ على الله في جميع أمورهم. وقال ابن جُرَيج: آمنوا بالله واعتصَمُوا بالقرآن. رواه ابن جرير(١).

﴿فَيُدخِلُهم في رحمةٍ منه وفضلٍ﴾، أي: يرحَمُهم فَيُدخِلُهم الجنةَ ويَزيدُهم ثواباً ومضاعفةً ورفعاً في درجاتهم، من فضله عليهم وإحسانه إليهم، ﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾. أي: طريقاً واضحاً قَصْداً قَوَاماً لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف. وهذه صفةُ المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاجِ الاستقامةِ وطريقِ السلامةِ في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراطِ الله المستقيم المُفْضِي إلى رَوْضاتِ الجناتِ. وفي حديث الحارثِ الأعورِ، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «القرآنُ صراطُ الله المستقيمُ، وحبل الله المتين»(٢). وقد تقدم الحديثُ بتمامه في أول التفسير، ولله الحمد والمنة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

قال البخاريُّ: حدثنا سليمان بن حَرب، حدثنا شُعبةُ، عن أبي إسحاقَ قال: سَمِعتُ البراءَ قال: آخرُ سورة نزلت «براءةٌ»، وآخر آية نَزَلت «يستفتونكَ»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن محمد بن المنكدِرِ قال: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: دخل عَلَيَّ رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا مريضٌ لا أعقِلُ، قال: فتوضأ، ثم صَبَّ عَلَيَّ ـ أو قال: صبُّوا عليه ـ فَعَقَلْتُ: إنه لا يَرِثُني إلا كلالةٌ، فكيف الميراث؟ قال: فنزلت آية الفرائض(٤).

أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة، ورواه الجماعة من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، به. وفي بعض الألفاظ: فنزلت آيةُ الميراثِ: ﴿يستفتونك قل الله يُفتيكم في الكَلالة﴾... الآية(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا سفيان: وقال أبو الزبير قال ـ يعني جابراً ـ نزلت فِيَّ: ﴿يستفتونك قل الله يُفتِيكم في الكلالة﴾.

وكأنَّ معنى الكلام ـ والله أعلم ـ يستفتونك عن الكلالة، قل الله يفتيكم فيها، فدل المذكورُ على المتروكِ.

(١) تفسير الطبري ٦/ ٣٩.
(٢) عارضة الأحوذي، أبواب ثواب القرآن ١١/ ٣٠ ـ ٣١. وانظره أول التفسير في كتاب فضائل القرآن.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة النساء ٨/ ٢٦٧.
(٤) مسند أحمد ٣/ ٢٩٨.
(٥) فتح الباري، كتاب الوضوء ١/ ٣٠١، ومسلم، كتاب الفرائض ١٢٣٥. وأبو داود والترمذي وابن ماجه في الفرائض، انظر عارضة الأحوذي ٨/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨، وسنن أبي داود ٣/ ١١٩، وابن ماجه ٩١١.

وقد تَقَدَّم الكلام[١] على الكلالة واشتقاقها، وأنها مأخوذةٌ من الإكليل الذي يُحيط بالرأس من جوانبه، ولهذا فَسَّرها أكثر العلماء: بمن يموت وليس له ولدٌ ولا والدٌ. ومن الناس من يقول: الكلالةُ مَن لا ولد له، كما دلَّت عليه هذه الآية: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾.

وقد أشكلَ حكمُ الكلالةِ على أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كما ثَبَت عنه في الصحيحين أنه قال: «ثلاث وَدِدْتُ أنْ رسول الله ـ ﷺ ـ كان عَهِد إلينا فيهنَّ عهداً ننتهي إليه: الجدُّ، والكلالة، وأبواب من أبوابِ الربا[٢]».

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيلُ، عن سعيدِ بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن مَعْدَانَ بن أبي طلحةَ قال: قال عُمَر بن الخطاب: ما سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن شيء أكثر مما سألتُه عن الكلالَةِ، حتى طَعَن بأصبعه في صَدْرِي وقال: «تَكفيكَ آيةُ الصيف التي في آخر سورة النساء»[٣].

هكذا رواه مختصراً، وقد أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا[٣].

طريق أخرى، قال أحمدُ: حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا مالك ـ يعني ابن مِغْوَلٍ ـ سَمِعتُ الفُضَيل بن عمرو، عن إبراهيم، عن عُمَر قال: «سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ عن الكَلاَلة، فقال: يكفيكَ آيةُ الصَّيفِ. فقال: لأن أكون سألتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ عنها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي حُمْر النَّعَم»[٤].

وهذا إسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً بين إبراهيم وبين عُمَرَ، فإنه لم يُدْرِكْه.

وقال الإمام أحمدُ: حَدَّثنا يحيى بن آدمَ، حدثنا أبو بكر، عن أبي إسحاقَ، عن البراءِ بن عازبٍ قال: جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فسأله عن الكَلاَلة، فقال: يكفيكَ آيةُ الصيف[٥].

وهذا إسنادٌ جيدٌ، رواه أبو داودَ والترمذيّ من حديث أبي بكر بن عياش، به[٥]. وكأن المراد بآية الصيف أنها نزَلَتْ في فَصْلِ الصَّيف، والله أعلم.

ولما أرشدَه النبي ـ ﷺ ـ إلى تَفهُّمها ـ فإن فيها كفاية ـ نَسِي أن يسأل النبي ـ ﷺ ـ عن معناها، ولهذا قال: «فلأن أكونَ سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عنها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي حُمْرُ النَّعم».

وقال ابن جَرِير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا جرير، عن الشيباني، عن عمرو بن مُرَّة، عن سعيد بن المسيَّب قال: سأل عُمَر بن الخطابَ النبيَّ ـ ﷺ ـ عن الكلالة، فقال: أليس قد بَيَّن الله ذلك؟ فنزلت: ﴿يستفتونك﴾ . . . الآية[٦].

وقال قتادة: «ذُكِر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خُطْبَته: ألا إن الآية التي أُنْزِلَتْ في أول «سورة النساء» في شأن الفرائض، أنزلها الله في الولد والوالد. والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوةِ من الأم. والآية التي خَتَم بها «سورةَ النساء» أنزلها في الإخوةِ والأخواتِ من الأب والأم، والآية التي خَتَمَ بها «سورة الأنفال» أنزلها في أولي الأرحام، بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله، مما جَرَّت الرحم من العَصَبة». رواه ابن جرير[٦].

---

(١) انظر تفسير الاية ١٢ من هذه السورة.

(٢) فتح الباري، كتاب الأشربة ٨/ ٤٥، ومسلم، كتاب التفسير ٣٣٢٢.

(٣) مسند أحمد ١/ ٢٦، ومسلم، كتاب الفرائض ١٢٣٦.

قال الواحدي: أنزل الله في الكلالة آيتين، إحداهما في الشتاء وهي التي في أول النساء، والأخرى في الصيف، وهي التي في آخرها.

(٤) مسند أحمد ١/ ٣٨.

(٥) مسند أحمد ٤/ ٢٩٣، وسنن أبي داود، كتاب الفرائض ٣/ ١٢٠، وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١١/ ١٧١.

(٦) تفسير الطبري ٦/ ٤١.

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان

قولُه تعالى: ﴿إن امرؤٌ هَلَكَ﴾، أي: مات، قال الله تعالى: ﴿كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه﴾ كل شيء يَفْنَى ولا يبقَى إلا الله ـ عز وجل ـ كما قال: ﴿كلُّ من عليها فانٍ. ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام﴾.

وقوله: ﴿وليس له ولدٌ﴾ تمسَّكَ به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاءُ الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو روايةٌ عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح[١] إليه. ولكنِ الذي يُرْجَعُ إليه هو قولُ الجمهور وقضاءُ الصدّيق أنه مَنْ لا ولد له ولا والد، ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿وله أختٌ فلها نصف ما ترك﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً، لأنه يحجبُها بالإجماع، فَدَلَّ على أنه من لا ولدَ له بنصِّ القرآن، ولا والدَ بالنصِّ عند التأمل أيضاً، لأن الأختَ لا يفرضُ لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراثٌ بالكلية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن عبدالله[٢]، عن مكحول وعطية وضمرة[٣] وراشد، عن زيد بن ثابت: أنه سُئِل عن زوج وأخت لأب وأم، فأعطى الزوج النصفَ والأخت النصفَ. فَكُلِّم في ذلك، فقال: حَضَرْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قَضَى بذلك[٤].

تَفرَّد به أحمدُ من هذا الوجه، وقد نقل ابنُ جَرير وغيره عن ابن عباس وابن الزُّبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت، لقوله: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك﴾. قال: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً، فلا شيء للأخت[٥]. وخالفهما الجمهورُ، فقالوا في هذه المسألة: للبنتِ النصفُ بالفَرْض، وللأخت النصفُ الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية، وهذه نَصّت أن يُفْرَض لها في هذه الصورة، وأما وِراثتُها بالتعصيب فلما رواه البخاريُّ من طريق سُلَيمانَ، عن إبراهيمَ، عن الأسود قال: قَضَى فينا معاذُ بن جَبَلٍ، على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ: النصفُ للابنة، والنصفُ للأخت. ثم قال سليمانُ: قَضَى فينا. ولم يذكر: «على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ»[٦] وفي صحيح البخاري أيضاً عن هُزَيل بن شُرَحبيل قال: سُئِل أبو موسى الأشعريُّ عن ابنةٍ وابنةِ ابن وأختٍ، فقال: للابنة النصف، وللأخت النصفُ وأتِ ابن مَسعود فسيُتابِعُني. فَسُئِل ابنُ مسعود ـ وأُخبِرَ بقول أبي موسى ـ فقال: لقد ضَلَلْتُ إذاً وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبيُّ ـ ﷺ ـ للابنة النصفُ، ولابنةِ الابن السدسُ، تكملة الثلثين، وما بقي فللأختِ، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحَبْرُ فيكم»[٧].

وقولُه: ﴿وهو يَرِثُها إن لم يكن لها ولد﴾ أي: والأخ يُرِثُ جميعَ مالها إذا مَاتَتْ كلالةً وليس لها ولدٌ، أي: ولا والد، لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإنْ فُرِضَ أنّ معه من له فَرْضٌ صُرِف إليه فرضُه، كزوج، أو أخ من أم، وصُرف الباقي إلى الأخ، لما ثبت في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائضُ فالأولى رجلٍ ذكر»[٨].

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٤٣.

(٢) في المسند: أبو بكر بن عبد الله بن مكحول. وهو: أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم، وهو يروي عن مكحول.

(٣) في الأصل: وحمزة. والصواب ما في المسند: «وضمرة»، وهو ابن حبيب.

(٤) مسند أحمد ٥/ ١٨٨.

(٥) تفسير الطبري ٦/ ٤٤ ـ ٤٥.

(٦) فتح الباري، كتاب الفرائض ١٢/ ٢٤.

(٧) فتح الباري، كتاب الفرائض ١٢ / ١٧.

(٨) أخرجاه في الفرائض، فتح الباري ١٢/ ١٦، ومسلم ١٢٣٣.

وقولُه: ﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾، أي فإن كان لمن يموتُ كلالةً أختان، فُرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن ها هنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استُفِيدَ حكمُ الأخوات من البنات، في قوله: ﴿فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾.

وقولُه: ﴿وإن كانوا إخوةً رجالاً ونساءً فللذكر مثلُ حظِّ الأنثيين﴾. هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين ومن الإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أُعطِيَ الذَّكرُ منهم مثلَ حظِّ الأنثيين.

وقولُه: ﴿يُبَيِّن الله لكم﴾ أي: يَفْرِض لكم فرائِضَه، ويَحُدُّ لكم حدودَه، ويُوضِّح لكم شرائِعَه.

وقولُه: ﴿أن تضلّوا﴾ أي: لئلا تَضِلّوا عن الحق بعد البيان. ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي: هو عالم بعواقِبِ الأمورِ ومصالحها، وما فيها من الخيرِ لعبادِه، وما يستحقُّه كلُّ واحدٍ من القرابات بحسب قُرْبِه من المتوفَّى.

وقد قال أبو جعفر بن جَرير: حَدّثني يعقوبُ، حَدَّثني ابن عُلَيَّة، أنبأنا ابن عَون، عن محمد بن سيرين قال: كانوا في مَسيرٍ، ورأسُ راحلةِ حُذَيفة عند رِدْفِ راحلةِ رسول الله ـ ﷺ ـ ورأسُ راحلةُ عُمَر عند رِدْف راحلة حُذَيفة. قال: ونزلتْ: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾، فلَقَّاها رسولُ الله ـ ﷺ ـ حُذَيفة، فَلَقَّاها حُذَيفة عُمَـرَ، فلما كان بعد ذلك سأل عُمَرُ عنها حذيفة، فقال: «والله إنك لأحمقُ إن كنتَ ظننتَ أنه لَقّانيها رسول الله ـ ﷺ ـ فلقيتكها كما لقانيها، والله لا أزيدك عليها شيئاً أبداً. قال: فكان عمر يقول: اللهمَّ إن كنتَ بَيَّنْتها له فإنها لم تُبَيَّن لي»[1].

كذا رواه ابنُ جَرير. ورواه أيضاً عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزَّاق، عن مَعْمر، عن أيوب، عن ابن سيرين كذلك بنحوه. وهو منقطع بين ابن سيرين وحُذَيفة[1].

وقد قال الحافظُ أبو بكر أحمدُ بن عمرو البَزّارُ في مسنده: حدثنا يوسف بن حماد المعنَّى، ومحمد بن مرزوق قالا: حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى، حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي عُبَيدة ابن حذيفة، عن أبيه قال: «نزلت الكلالةُ على النبيِّ ـ ﷺ ـ وهو في مسير له، فوقف النبي ـ ﷺ ـ وإذا هو بحُذَيفة، وإذا رأسُ ناقة حُذَيفة عند مُؤتَزَر النبي ـ ﷺ ـ فلَقَّاها إيَّاه، فَنظَر حُذَيفة فإذا عُمَر ـ رضي الله عنه ـ فلقاها إيَّاه، فلما كان في خلافة عُمَر نَظَر عُمَر في الكَلالَة، فدعا حذيفة فسأله عنها، فقال حُذَيفة: لقد لَقّانيها رسول الله ـ ﷺ ـ فَلَقَّيْتُك كما لَقّاني، والله إني لصادق، ووالله لا أزيدك على ذلك شيئاً أبداً».

ثم قال البَزّار: وهذا الحديثُ لا نعلم رواه إلا حذيفة، ولا نعلم له طريقاً عن حذيفة إلا هذا الطريق[2]، ولا رواه عن هشام إلا عبد الأعلى. وكذا رواه ابن مَرْدُويه من حديث عبد الأعلى.

وقال عثمانُ بن أبي شَيْبَةَ: حدثنا جَريرٌ، عن الشيباني، عن عمرو بن مُرّة، عن سعيد بن المُسَيَّب: «أن عمر سأل رسول الله ـ ﷺ ـ كيف تُوَرِّثُ الكَلالةُ؟ قال: فأنزل الله: ﴿يستفتونك﴾. . . الآية، قال: فكأن عُمرَ لم يفهم. فقال لحفصَةَ: إذا رأيتِ من رسول الله ـ ﷺ ـ طِيب نَفْس فَسَليه عنها، فرأت منه طيب نفسٍ فسألته عنها،

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٤٢.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، تفسير سورة النساء ٣/ ٤٧.

فقال: أبوك ذَكَر لك هذا؟ ما أرى أباك يعلَمُها. قال: وكان عُمَر يقول: ما أراني أعلَمُها، وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ ما قال».

رواه ابن مردويه، ثم رواه من طريق ابن عُيَينـة، عن عمرو، عن طاوس. «أن عمر أمر حَفْصَةَ أن تسأل النبي ـ ﷺ ـ عن الكلالة، فأملاها عليها في كتِف، فقال: من أمرك بهذا؟ أعمر؟ ما أراه يقيمها، أو ما تكفيه آية الصيف؟ وآيةُ الصيفِ التي في النساء: ﴿ وإن كان رجلٌ يورّثُ كلالةً أو امرأةٌ ﴾. فلما سألوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ نزلت الآيةُ التي هي خاتمةُ النساءِ، فألقى عمر الكتف». كذا قال في هذا الحديث، وهو مرسَلٌ.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عَثَّام، عن الأعمش، عن قَيس بن مُسلم، عن طارق بن شهاب قال: «أخذ عُمَر كَتِفاً وجمع أصحاب النبي ـ ﷺ ـ، ثم قال: لأقضيَنَّ في الكَلالة قضاءً تُحدِّث به النساءُ في خُدُورهنَّ. فخرجت حينئذ حيَّةٌ من البيتِ، فتفرَّقوا، فقال: لو أراد الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يَتِـمّ هذا الأمرُ لأتمَّه». وهذا إسنادٌ صَحِيحٌ(١).

وقال الحاكـم أبو عبدالله النيسابوري: حدثنا علي بن محمد بن عُقبة الشيباني بالكوفة، حدثنا الهيثَمُ بن خالد، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا ابن عُيَينة، عن عَمْرو بن دينار، سمعت مُحمَّد بن طلحةَ بن يزيد بن ركانة يُحدِّث عن عمر بن الخطاب قال: «لأن أكونَ سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ عن ثلاثٍ أحبُّ إليّ من حُمْر النعم: مَن الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نُقِرّ بالزكاة في أموالنا ولا نؤدِّيها إليك، أيحلُّ قتالُهم؟ وعن الكلالة». ثم قال: صَحِيحٌ على شرط الشيخين، ولم يخرجاه(٢).

ثم رَوَى بهذا الإسناد إلى سفيان بن عُيَينة، عن عمرو بن مُرَّة، عن مُرَّة، عن عُمَر قال: «ثلاثٌ لأنْ يكونَ النبيُّ ـ ﷺ ـ بَيَّنَهُنَّ لنا أحبَّ إليّ من الدنيا وما فيها: الخلافةُ، والكلالةُ، والرِّبا». ثم قال: صَحِيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه(٢).

وبهذا الإسناد إلى سفيان بن عيينة قال: سمعت سُلَيمان الأحول يحدِّث، عن طاوس قال: سَمِعتُ ابن عباس قال: كنتُ آخِرَ الناسِ عهداً بعُمَرَ، فَسَمِعتُه يقولُ: القولُ ما قُلْتَ. قلتُ: وما قُلْتَ؟ قال قلتُ: الكلالةُ، من لا ولد له». ثم قال: صَحِيحٌ على شرطِهما ولم يخرجاه(٢).

وهكذا رواه ابن مَرْدُوَيـه من طريق زَمْعَةَ بن صالح، عن عَمْرو بن دينار وسُلَيمان الأحول، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كنتُ آخِرَ الناسِ عهداً بعُمَرَ بن الخطاب، قال: اختلفت أنا وأبو بكر في الكَلالَةِ، والقولُ ما قلتُ: قال: وذُكِرَ أن عمر شَرَّك بينَ الإخوة للأب وللأم وبين الإخوة للأم في الثلث إذا اجتمعوا، وخالفه أبو بكر رضي الله عنهما.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن حُمَيد المعمري، عن مَعْمر، عن الزُّهري، عن سعيد ابـن المسيـب: أن عمر كَتَب في الجد والكلالة كتاباً، فمكث يستخير الله [فيه]، يقول: اللهُمَّ إنْ عَلِمتَ فيه خيراً فَأَمْضِهِ. حتى إذا طُعِن دعا بِكِتاب(٣) فَمُحيَ، ولم يَدْرِ أحدٌ ما كتب فيه. فقال: «إنِّي كنتُ كتبتُ في الجَدِّ والكلالَةِ كتاباً، وكنتُ استخرتُ الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليـه».

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٤٣.

(٢) المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٣٠٣ـ ٣٠٤.

(٣) في تفسير الطبري: بالكتاب.

قال ابن جرير: وقد رُوي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إني لأستحيي أن أخالِفَ فيه أبا بكر. وكان أبو بكر، رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد والوالد[١].

وهذا الذي قاله الصِّدِّيق عليه جمهورُ الصحابة والتابعين والأئمة، في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهبُ الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة. وقولُ علماء الأمصار قاطبةً، وهو الذي يدلُّ عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بَيَّن ذلك ووضَّحَه في قوله: ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا، والله بكل شيء عليم ﴾.

* * *

(١) تفسير الطبري ٦/ ٤٣.

تفسير

سُورَةُ المَائِدَة

وهي مدنية

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية شيبان، عن لَيث، عن شَهْر بن حَوشَب، عن أسماء بنت يزيدَ قالت: «إني لآخذةٌ بزمام العضباء، ناقةِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إذ نزلت عليه «المائدة» كلُّها، وكادت من ثِقَلِها تَدُقّ عَضُدَ الناقة»(١).

ورَوَى ابن مَرْدُويه من حديث صالح بن سُهَيل، عن عاصم الأحول قال: حدثتني أُم عَمْرو، عن عَمِّها: «أنه كان في مسير مع رسول الله ـ ﷺ ـ فنزلت عليه «سورة المائدة»، فاندقّ عُنق الراحلة من ثِقَلها».

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثني حُيَيّ بن عبدالله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبدالله بن عمرو قال: «أُنزِلَتْ على رسول الله ـ ﷺ ـ «سورة المائدة» وهو راكبٌ على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها».

تفرد به أحمد(٢). وقد رَوَى الترمذي عن قُتَيبة، عن عبدالله بن وهب، عن حُييّ، عن أبي عبد الرحمن عن عبدالله بن عمرو قال: «آخر سُورةٍ أنزلت: سورة المائدة والفتح» ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن. وقد رُوِي عن ابن عباس أنه قال: «آخر سورة أنزلت إذا جاء نصر الله والفتح»(٣).

وقد روى الحاكم في مستدركه، من طريق عبدالله بن وَهْبٍ بإسناده، نَحْوَ رواية الترمذي، ثم قال: صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه(٤).

وقال الحاكم أيضاً: حدثنا أبو العباس محمد بن يَعقُوبَ، حدثنا بحر بن نَصْرٍ قال: قُرِىءَ على عبدالله بن وهب، أخبرني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهِريَّةِ، عن جُبَير بن نُفَير قال: «حَجَجْتُ فَدخلتُ على عائشةَ فقالت لي: يا جُبَير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سُورةٍ نَزَلت، فما وجَدتم فيها من حلال فاستَحِلُّوه، وما وجدتم فيها من حرام فَحَرِّمُوه». ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه(٤).

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦/٤٥٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٦.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١١/١٨٥.

(٤) المستدرك، تفسير سورة المائدة ٢/٣١١.

ورواه الإمامُ أحمدُ، عن عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن معاويةَ بن صالحٍ، وزادَ: «وسألتها عن خُلُق رسول الله - ﷺ - فقالت: القرآن»(١). ورواه النسائي من حديث ابن مهدي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ﴾

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نُعَيم بن حَمَّاد، حدثنا عبدالله بن المبارك، حدثنا مِسْعَر، حدثني معن وعوف، أو أحدهما، أن رجلاً أتى عبدالله بن مسعود فقال: اعهَدْ إليّ. فقال: إذا سَمِعتَ الله يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأَرْعِها سَمْعَك، فإنه خيرٌ يأمُر به، أو شَرٌّ ينهَى عنه.

وقال: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم - دُحَيم - حدثنا الوليد، حدثنا الأوزاعيُّ، عن الزهريِّ قال: إذا قال الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ افعلوا، فالنبي - ﷺ - منهم.

وحدثنا أحمد بن سنان، حدثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا الأعمش، عن خَيثَمَةَ قال: كلُّ شيءٍ في القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهو في التوراة: «يا أيها المساكين».

فأما ما رواه عن زيد بن إسماعيل الصائغ البغدادي، حدثنا معاويةُ - يعني ابن هشام - عن عيسى بن راشد، عن علي بن بَذِيمَةَ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «ما في القرآن آية ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ إلا أن علياً سَيِّدُها وشريفها وأميرُها، وما من أصحاب النبي - ﷺ - أحد إلا قد عُوتبَ في القرآن إلا علي بن أبي طالب، فإنه لم يعاتَبْ في شيء منه».

فهو أثرٌ غريبٌ، ولفظهُ فيه نَكارةٌ، وفي إسناده نظرٌ، قال البخاري: عيسى بن راشد هذا مجهول، وخبره منكر. قلت: وعلي بن بذيمة، وإن كان ثقة، إلا أنه شيعي غالٍ، وخَبَرُه في مثل هذا فيه تُهَمَةٌ فلا يقبل. وقوله: «ولم يبق أحد من الصحابة إلا عوتب في القرآن إلا علياً» إنما يشير به إلى الآية الآمرة بالصدقة بين يدي النجوى، فإنه قد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ أنه لم يعمل بها أحد إلا علي، ونزل قوله: ﴿ أأشفقتم أن تُقَدِّموا بين يدي نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ﴾ ... الآية. وفي كون هذا عتاباً نظر؛ فإنه قد قيل: إنّ الأمر كان نَدْباً لا إيجاباً، ثم قد نُسِخَ ذلك عنهم قبل الفعل، فلم يُرَ من أحد منهم خلافه. وقوله عن علي: «إنه لم يعاتَب في شيء من القرآن»، فيه نظر أيضاً، فإنّ الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبة على أخذ الفداء عَمَّت جميع من أشار بأخذه، ولم يسلم منها إلا عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فعُلِم بهذا وبما تقدم ضَعْفُ هذا الأثرِ، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حَدَّثني المثنى، حدثنا عبدالله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني يُونس قال، قال محمد

(١) مسند الإمام أحمد ١٨٨/٦.

ابن مسلم: قرأتُ كتابَ رسول الله ـ ﷺ ـ الذي كُتِب لعمرو بن حزم حين بَعثه إلى نَجْرانَ، وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم، فيه: «هذا بيان من الله ورسوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقودِ ﴾، فكتب الآيات منها حتى بلغ: ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾»[(١)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا يونس بن بُكَير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه قال: هذا كتابُ رسول الله ـ ﷺ ـ عندنا، الذي كتبه لعمرو بن حَزم، حين بعثه إلى اليمن يُفَقِّه أهلها ويُعَلِّمهم السنة، ويأخُذ صَدقاتهم. فكتب له كتاباً وعهداً، وأمره فيه بأمْرِه، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ من الله ورسوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، أوفوا بالعقود ﴾ عَهْدٌ من محمد رسول الله ـ ﷺ ـ لعمرو بن حزم، حين بَعَثه إلى اليَمنِ، أمَره بتقوى الله في أمره كلِّه، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم مُحسِنُونَ»[(٢)].

قولهُ تعالى: ﴿ أوفوا بالعقود ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود: العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك. قال: والعقود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحِلْفِ وغيره. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ يعني بالعهود، يعني ما أَحَلَّ الله وما حَرَّم، وما فَرَض وما حَدّ في القرآن كله، فلا تَغدُروا ولا تَنكُثوا، ثم شَدَّد في ذلك فقال: ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ . . . إلى قوله: ﴿ سوءُ الدار ﴾.

وقال الضَّحاك: ﴿ أوفوا بالعقُود ﴾ قال: ما أحلَّ وما حَرّم، وما أخذ الله من الميثاق على من أقرَّ بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام.

وقال زيد بن أسلم: ﴿ أوفوا بالعقود ﴾: هي ستة: عهد الله، وعقد الحِلْفِ، وعَقْدُ الشَّركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين.

وقال محمدُ بن كعبٍ: هي خمسةٌ، منها: حلفُ الجاهلية، وشركةُ المفاوضة[(٣)].

وقد استدلَّ بعضُ من ذهب إلى أنه لا خِيار في مجلس البيع بهذه الآية: ﴿ أوفوا بالعقود ﴾، قال: فهذا يَدُلّ على لزوم العقد وثبوته، فيقتضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهبُ أبي حنيفة، ومالك. وخالفهما الشافعي، وأحمد بن حنبل، والجمهور. والحجةُ في ذلك ما ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «البَيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا». وفي لفظ للبخاري: «إذا تبايع الرجلان فكلُّ واحدٍ منهما بالخيار ما لم يتفرقا»[(٤)]. وهذا صريحٌ في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامهُ من تمامِ الوفاء بالعقد.

وقولُه تعالى: ﴿ أُحِلَّت لكم بهيمةُ الأنعام ﴾ هي: الإبل، والبقر، والغنم، قاله الحسن وقتادةُ وغيرُ واحدٍ. قال ابن جَرير: «وكذلك هو عند العرب». وقد استدلَّ ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذُبِحت، وقد ورد في ذلك حديثٌ في السنن، رواه أبو داود والترمذي

---

(١) تفسير الطبري ٦/٤٩.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل بإسناده إلى يونس بن بكير ٥/٤١٣.

(٣) المفاوضة: مصدر فاوضه في كذا: إذا جاراه وفعل مثل فعله، والناس فوضى في الأمر، أي: سواء، لا تباين بينهم، ومنه شركة المفاوضة، وهي التي يكون جميع ما يملكانه سواء بين الشريكين أو الشركاء.

(٤) أخرجاه في البيوع، فتح الباري ٤/٣٠٩، ٣١٢، ٣٢٧ - ٣٢٨، ٣٣٢ - ٣٣٣. ومسلم ١١٦٣، ١١٦٤.

وابن ماجه، من طريق مجالد، عن أبي الودَّاك جَبْرِ بن نَوْفٍ، عن أبي سَعِيد، قال قلنا: «يا رسولَ الله، ننحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أَنلقيه أم نأكله؟ فقال: كُلُوه إن شئتم؛ فإن ذكاته ذكاة أمه». وقال الترمذي: حديث حسن(١).

قال أبو داود: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا إسحاقُ بن إبراهيمَ، حدثنا عَتَّاب بن بَشير، حدثنا عُبَيد الله بـن أبي زياد القداح المكي، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبدالله، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه». تفرد به أبو داود(٢).

وقولهُ: ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني بذلك: الميتةَ، والدمَ، ولحمَ الخنزيرِ.

وقال قتادة: يعني بذلك الميتة، وما لم يُذْكَر اسم الله عليه.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بذلك قوله: ﴿ حرمت عليكم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع ﴾؛ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا قال: ﴿ إلا ما ذكيتم وما ذُبح على النصب ﴾ يعني منها، فإنه حرام لا يمكن استدراكه، وتلاحقُه. ولهذا قال تعالى: ﴿ أُحِلَّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾، أي: إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال.

وقولهُ: ﴿ غير مُحلِيِّ الصيد وأنتم حُرم ﴾، قال بعضهم: هذا منصوب على الحال. والمراد من الأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشيّ كالظباء والبقر والحمر. فاستثنى من الإنسي ما تقدم واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام.

وقيلَ: المراد أحللنا الأنعام لكم في جميع الأحوال، فَحَرِّموا الصيدَ في حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه، ولهذا قال: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾.

ثم قال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، لا تحلوا شعائر الله ﴾، قال ابن عباس: يعني بذلك مناسكَ الحجِّ.

وقال مجاهد: الصفا والمروة، والهديُ والبُـدنُ من شعائر الله.

وقيل: شعائرُ الله محارمُه، أي: لا تُحِلُّوا محارم الله التي حَرَّمها تعالى، ولهذا قال: ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم. كما قال تعالى: ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾. وقال تعالى: ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ﴾.. الآية.

وفي صحيح البخاريِّ، عن أبي بَكْرَةَ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القَعْدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جُمادى وشعبان»(٣).

وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأضاحي ٣/١٠٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الصيد ٦/٢٦٩، وابن ماجه، كتاب الذبائح ١٠٦٧.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الأضاحي ٣/١٠٣ ـ ١٠٤.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة براءة ٨/٣٢٤.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ يعني: لا تستحلوا قتالاً فيه. وكذا قال مقاتل بن حَيَّان، وعبد الكريم بن مالك الجَزري، واختاره ابن جرير أيضاً. وقد ذهب الجمهورُ إلى أن ذلك منسوخ، وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجُّوا بقوله: ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ قالوا: والمراد أشهر التسيير الأربعة، قالوا: فلم يستثن شهراً حراماً من غيره.

وقد حكى الإمامُ أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتالَ أهل الشرك في الأشهر الحرم، وغيرها من شهور السنة، قال: «وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قَلَّد[1] عنقه أو ذراعيه لحاءَ جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقدُ ذمةٍ من المسلمين أو أمان». ولهذه المسألة بحث آخر، له موضع أبسط من هذا.

وقوله: ﴿ ولا الهدي ولا القلائد ﴾، يعني: لا تتركوا الإهداءَ إلى البيت؛ فإن فيه تعظيماً لشعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هَدْيٌ إلى الكعبة فيجتنبها من يريدُها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هَدْيٍ كان له من الأجر مثلُ أجورِ من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً. ولهذا لما حَج رسول الله ـ ﷺ ـ بات بذي الحُلَيْفة ـ وهو وادي العقيق ـ فلما أصبح طاف على نسائه، وكُنَّ تسعاً، ثم اغتسل وتَطَيَّب وصلى ركعتين، ثم أشعر هَدْيَه وقَلَّدَه، وأهلَّ بالحج والعمرة وكان هَدْيُه إبلاً كثيرة تَنِيف على الستين، من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾.

قال بعضُ السلف: إعظامُهـا استحسانُها واستسمانُها.

وقال علي بن أبي طالب: «أمرنا رسول الله ـ ﷺ ـ أن نستشرف العين والأذن». رواه أهل السنن[2].

وقال مقاتلُ بن حَيَّان: ﴿ ولا القلائد ﴾ فلا تَسْتَحِلّوا. وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم، قَلَّدوا أنفسهم بالشعَر والوَبَر، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجر الحرم، فيأمنون به. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال:

حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حُسَين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: «نُسِخَ من هذه السورة آيتان: آية القلائد، وقوله: ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾».

وحدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا زكريا بن عَدِيّ، حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون قال، قلت للحسن: نسخ من المائدة شيء؟ قال: لا.

وقال عطاء: كانوا يَتَقلَّدُون من شجر الحرم، فيأمنون، فَنَهى الله عن قَطْعِ شَجَره. وكذا قال مُطَرف بن عبدالله.

وقولهُ: ﴿ ولا آمِّين البيتَ الحرامَ يبتغُونَ فضلاً من ربِّهم ورضواناً ﴾، أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين

(١) كان المشركون يأخذون من شجر مكة من لحاء السُّمُر فيتقلّدونه، فيأمنون بها في الناس.

(٢) أخرجوه في الأضاحي، سنن أبي داود ٣/٩٧، وعارضة الأحوذي ٦/٢٩٦، وابن ماجه ١٠٥٠، ومسند أحمد ١/٩٥.
أن نستشرف العين والأذن: أي نبحث عنهما ونتأمل في حالهما لئلا يكون فيهما عيب.

إلى بيت الله الحرام، الذي من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً في رضوانه، فلا تَصُدّوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه.

قال مجاهدٌ، وعطاء وأبو العالية ومُطَرِّف بن عبدالله، وعبدالله بن عُبَيد بن عُمَير، والربيع بن أنس، وقتادةُ ومقاتلُ بن حيان في قوله: ﴿ يبتغون فضلاً من ربهم ﴾، يعني بذلك: التجارة.

وهذا كما تقدم في قوله: ﴿ ليس عليكم جناحٌ أن تبتَغُوا فضلاً من ربكم ﴾.

وقولهُ: ﴿ ورضواناً ﴾، قال ابن عباس: يَتَرضَّونَ الله بحجِّهم.

وقد ذكر عكرمة، والسدّيُّ، وابن جُرَيج: أن هذه الآية نزلت في الحُطَم بن هند البكري، كان قد أغار على سَرْح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعضُ الصحابة أن يعترضُوا في طريقه إلى البيت، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ﴾.

وقد حكى ابنُ جَرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتلُه، إذا لم يكن له أمان، وإنْ أمَّ البيت الحرام أو بيت المقدس؛ وأنَّ هذا الحكم منسوخٌ في حقهم، والله أعلم. فأما مَن قَصَده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يُمنع، كما قال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقرَبُوا المسجد الحرامَ بعد عامهم هذا ﴾. ولهذا بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عام تسع لما أمَّر الصديقُ على الحجيج عَلياً، وأمره أن ينادى على سبيلِ النيابة عن رسول الله ـ ﷺ ـ ببراءة، وألاَّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان[(١)].

وقال ابنُ أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ ولا آمين البيت الحرام ﴾: يعني من تَوَجَّه قِبَل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجُّون البيتَ الحرام، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً يحجُّ البيت أو يَعرِضُوا له من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿ إنما المشركون نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾، وقال تعالى: ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ﴾، وقال: ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾. فنفى المشركين من المسجد الحرام[(٢)].

وقال عبد الرزاق: حدثنا معمرٌ، عن قتادَةَ، في قوله: ﴿ ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام ﴾، قال: منسوخٌ، كان الرجل في الجاهلية إذا خَرَج من بيته يريد الحج تَقَلَّد من الشَّجَر، فلم يعرضْ له أحد، وإذا رجع تَقلد قلادة من شَعَرٍ فلم يعرضْ له أحدٌ. وكان المشرك يومئذ لا يَصُدُّ عن البيت، فأمروا ألاَّ يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت، فنسخها قوله: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾[(٢)].

وقد اختار ابنُ جرير أن المراد بقوله: ﴿ ولا القلائد ﴾ يعني: إن تقلد قلادة من الحرم فَأَمِّنوه، قال: ولم تزل العرب تُعَيِّر من أخفر ذلك، قال الشاعر[(٣)]:

أَلَمْ تَقْتُلا الحِرْجَين إذ أعوَرَا لكم   يُمِرَّانِ بالأيدي اللِّحاء المُضَفَّرا

وقولهُ: ﴿ وإذا حَلَلتم فاصطادوا ﴾، أي: إذا فَرَغتم من إحرامكم وأحلَلْتم منه، فقد أبَحنا لكم ما كان

(١) فتح الباري، كتاب الصلاة ١/٤٧٧ ـ ٤٧٨.

(٢) تفسير الطبري ٦/٦١.

(٣) هو حذيفة بن أنس الهذلي، ديوان الهذليين ٣/١٩، وفيه يروي: إذ أعوراكما.
والحرجان: مثنى حِرْج، وهي الودعة. وعنى بهما رجلين، شبههما بالودعة في بياضها. وأعورا لكم: بدت لكم عورتهما. وأمرُّ الحَبل: فتله. واللحاء: قشر الشجر. والمضفَّر: المجدول ضفائر. وانظر تفسير الطبري ٦/٥٧.

مُحَرَّماً عليكم في حال الإحرام من الصيد. وهذا أمر بعد الحظر، والصحيح الذي يثبت على السَّبْر[١] أنه يُرَدُّ الحُكْمُ إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رَدَّه واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. ومن قال: «إنه على الوجوب». ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال: «إنه للإباحة» يرد عليه آيات أخر، والذي ينتظِمُ الأدلَّة كلَّها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم.

وقولهُ: ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكم شنآن قوم إن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾. ومن القُرَّاء من قرأ[٢]: ﴿ أن صدوكم ﴾ ـ بفتح الألف من «أن» ـ ومعناها ظاهر أي: لا يحملنَّكم بغضُ قومٍ قد كانوا صَدُّوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تَعْتَدُوا حكم الله فيكم، فتقتصُّوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحد. وهذه الآيةُ كما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُم شنآنُ على ألَّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾، أي: لا يحملنكم بغضُ أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد، في كل حال.

وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بـمثل أن تطيع الله فيه، والعَدْلُ به قامت السمواتُ والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا عبدالله بن جعفر، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ بالحديبية وأصحابه حين صَدَّهُمْ المشركون عن البيت، وقد اشتدَّ ذلك عليهم، فمر بهم أناسٌ من المشركين من أهل المشرق، يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ـ ﷺ ـ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم. فأنزل الله هذه الآية.

والشنآن هو: البُغْضُ. قاله ابنُ عباس وغيره، وهو مصدر من «شَنَأْتُه أشنؤه شَنَآناً» بالتحريك، مثل قولهم: «جَمَزَان، ودَرَجَان ورَفَلان»، من «جَمَزَ، ودَرَجَ ورَفَلَ»، قال ابن جرير: من العرب من يسقط التحريك في شنآن، فيقول: شَنَان، قال: ولم أعلم أحداً قرأ بها، ومنه قول الشاعر[٣]:

وَمَا العيشُ إلا ما يُحَبُّ ويُشْتَهى ... وَإنْ لَامَ فيه ذو الشَّنان وفَنَّدَا

وقولهُ: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾، يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات، وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم.

قال ابنُ جرير: الإثم: تَرْكُ ما أمر الله بفعله، والعدوانُ: مجاوزةُ ما حَدَّ الله في دينكم، ومجاوزةُ ما فرض عليكم في أنفسكم وفي غيركم[٤].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم، حدثنا عُبَيد الله بن أبي بكر بن أنس، عن جده أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قيل: يا رسولَ اللهِ، هذا نصرتُه مظلوماً، فكيف أنصرُه إذا كان ظالماً؟ قال: تحجُزه تمنعه، فإن ذلك نصره»[٥].

---

(١) أي: الاختبار.
(٢) قرأ بكسر الهمزة ابن كثير وأبو عمرو من السبعة، وبفتحها من عداهما. انظر الإقناع ٦٢٤. وانظر البحر المحيط ٤٢٢/٣.
(٣) الأحوص بن محمد الأنصاري، انظر تفسير الطبري ٦٥/٦، والشعر والشعراء ٥١٩، واللسان: شنأ.
(٤) تفسير الطبري ٦٦/٦.
(٥) مسند الإمام أحمد: ٩٩/٣.

انفرد به البخاريُّ من حديث هُشَيم، به نَحْوَه(١) وأخرجاه من طريق ثابتٍ، عن أنَس قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قيل: يا رسول الله، هذا نصرْتُه مظلوماً، فكيف أنصُرُه ظالماً؟ قال: تَمنعُه من الظُّلم فذاك نَصْرُك إياه»(٢).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، حدثنا سفيان بن سعيد، عن يحيى بن وَثّاب، عن رجل من أصحاب النبي - ﷺ - قال: «المؤمن الذي يُخالِطُ الناسَ ويَصبِرُ على أذاهم أعظمُ أجراً من الذي لا يخالِطُ الناسَ ولا يصبِرُ على أذاهم»(٣).

وقد رواه أحمد أيضاً في مسند عبدالله بن عمر: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي - ﷺ - أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»(٤).

وهكذا رواه الترمذيّ، من حديث شعبةَ - وابنُ ماجه من طريقِ إسحاقَ بن يوسفَ - كلاهما عن الأعمش، به(٤).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن عبدالله بن محمد أبو شيبة الكوفي، حدثنا بكر بن عبد الرحمن، حدثنا عيسى بن المختار، عن ابن أبي ليلى، عن فُضَيل بن عمرو، عن أبي وائل، عن عبدالله قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الدالُّ على الخير كفاعِلِه». ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد.

قلت: وله شاهد في الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، لا يَنْقُص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً»(٥).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن زِبْريق الحِمْصي، حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبدالله بن سالم، عن الزُّبيديّ، قال عَيَّاش بن مُؤْنِس: إن أبا الحسن نِمْرانَ بن مِخْمَر حَدَّثه (٦-[أن أوس بن شُرحَبيل أحَدَ بني المُجمِّع حَدَّثه]-٦) أن رسول الله - ﷺ - قال: «من مَشَى مع ظالمٍ لِيُعينه، وهو يعلمُ أنه ظالمٌ، فقد خَرَج من الإسلام»(٧).

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ

---

(١) فتح الباري، كتاب المظالم ٩٨/٥، وكتاب الإكراه ٣٢٣/١٢.
(٢) لم نجده فيهما من هذه الطريق، وانظر مسلم، كتاب البر ١٩٩٨ - ١٩٩٩.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣٦٥/٥.
(٤) المسند ٤٣/٢، وعارضة الأحوذي، أبواب القيامة ٣١٢/٩، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣٨.
(٥) مسلم، كتاب العلم ٢٠٦٠، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٢٠١/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب العلم ١٤٢/١٠، وابن ماجه، المقدمة ٧٥.
(٦) عن المعجم الكبير.
(٧) المعجم الكبير ٢٢٧/١.

﴿فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾

يخبرُ تعالى عباده خبراً مُتضمِّناً النهي عن تعاطي هذه المحرَّمات من الميتة، وهي: ما مات من الحيوان حَتْفَ أنفه، من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرَّة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين والبدن فلهذا حرمها الله ـ عزّ وجلّ ـ ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك في موطئه، والشافعي وأحمد في مسنديهما، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم، وابن خُزَيمة وابن حِبَّان في صحيحيهما، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ سُئل عن ماء البحر، فقال: «هو الطَّهُورُ ماؤه الحِلّ ميتتهُ»(١).

وهكذا الجراد، لما سيأتي من الحديث، وقوله: ﴿والدم﴾ يعني: المسفوحَ، لقوله: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾. قاله ابن عباس وسَعِيد بن جُبَير.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا كثير بن شهاب المَذْحِجِيّ، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو ـ يعني ابن قيس ـ عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه سئل عن الطِّحَالِ فقال: كلوه فقالوا: إنه دم. فقال: إنما حُرم عليكم الدم المسفوح.

وكذا رواه حماد بن سلمة، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة قالت: إنما نهى عن الدم السافح.

وقد قال أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي: حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أُحِلّ لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوتُ والجراد، وأما الدمان فالكَبد والطِّحال»(٢).

وكذا رواه أحمد بن حنبل، وابن ماجه. والدارقطني، والبيهقي، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف. قال الحافظ البيهقي: ورواه إسماعيل بن أبي أُوَيس، عن أسامة، وعبدالله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، مرفوعاً(٢).

قلت: وثلاثتهم ضعفاء، ولكن بعضهم أصلح من بعض. وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات، عن زيد بن أسلم عن ابن عمر، فوقفه بعضهم عليه. قال الحافظ أبو زرعة الرازي: وهو أصح.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا بَشِير ابن سُرَيج، عن أبي غالب، عن أبي أمامة ـ وهو صُدَيُّ بن عَجْلانَ ـ قال: بَعَثَني رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى قومي أدعُوهم إلى الله ورسولِهِ، وأعرضُ عليهم شرائعَ الإسلام، فأتَيْتُهم، فبينا نحنُ كذلك إذْ جاءوا بِقَصْعَةٍ من دم، فاجتمعوا عليها يأكلونها، قالوا: هلم يا صُدَيّ، فَكُلْ. قال قلتُ: ويحكم! إنما أتَيْتُكم من عند مُحرِّمِ هذا عليكم، وأنزل الله عليه. قالوا: وما ذاك؟ قال: فتلوتُ عليهم هذه الآية: ﴿حُرِّمت عليكم الميتةُ والدمُ﴾... الآية.

ورواه الحافظ أبو بكر بـن مَرْدُويه من حديث ابن أبي الشوارب بإسناده مثله، وزاد بعد هذا السياق:

---

(١) الموطأ، كتاب الطهارة ٢٢، ومسند أحمد ٢/٢٣٧، ٣٦١، وسنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجه في الطهارة، أبا داود ١/٢١، وعارضة الأحوذي ١/٨٨، وابن ماجه ١٣٦، والنسائي، كتاب المياه ١/١٧٦.

(٢) مسند الشافعي على الأم ٦/٢٥٦، ومسند أحمد ٢/٩٧، وابن ماجه، كتاب الأطعمة ١١٠٢، والدارقطني ٤/٢٧١ ـ ٢٧٢، وسنن البيهقي، كتاب الضحايا ١٠/٧.

«قال: فجعلت أدعوهم إلى الإسلام، ويأبَوْنَ عليّ، فقلت لهم: ويحكم، اسقُوني شربةً من ماء فإني شديد العطش ـ قال: وعليّ عباءتي ـ فقالوا: لا، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً. قال: فاغتممتُ وضربتُ برأسي في العباء، ونمتُ على الرمضاء في حر شديد، قال: فأتاني آت في منامي بقَدَح من زجاج لم ير الناس أحسن منه، وفيه شراب لم ير الناس ألذ منه، فأمكنني منها فشربتها، فحيث فرغت من شرابي استيقظت، فلا والله ما عطشت ولا عَرِيت بعد تيك الشربة.

ورواه الحاكم في مستدركه، عن علي بن حُمْشاذ، عن عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثني عبدالله بن سَلَمة بن عياش العامري، حدثنا صدقة بن هرمز[١]، عن أبي غالب، عن أبي أمامة، فذكر نحوه، وزاد بعد قوله: «بعد تيك الشربة»: «فسمعتهم يقولون: أتاكم رجل من سَراة قومكم، فلم تَمْجَعوه[٢] بمَذْقة، فأتوني بِمَذْقة، فقلت: لا حاجة لي فيها، إن الله أطعمني وسقاني، وأريتهم بطني فأسلموا عن آخرهم[٣].

وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق[٤]:

وإيـاكَ والـميتـاتِ لا تقـربنَّهـا ... ولا تَـأْخُذَنْ عـظماً حـديداً لِتَفْصِدا

أي: لا تفعل كما يفعل الجاهلية، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع أخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه، فيفصد به بعيره أو حيواناً من أي صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة، ثم قال الأعشى[٤]:

وذا النُّصُبَ المنصـوبَ لا تَـأتِيَنَّـه ... ولا تَعْبُـدِ الأوثـانَ والله فـاعبُـدَا

وقوله: ﴿ ولحم الخنزير ﴾، يعني: إنسيَّه ووحشِيَّه، واللحمُ يعمُّ جميع أجزائه حتى الشحم. ولا يُحَتاجُ إلى تحذلق الظاهرية في جُمودهم هاهنا وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿ فإنه رجس أو فسقاً ﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿ إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس ﴾، أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير، حتى يَعُمّ جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أن اللحم يعم جميعَ الأجزاءِ كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العُرْفِ المطرد، وفي صحيح مسلم، عن بُرَيدة بن الحُصَيبِ الأسلمِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من لَعِبَ بالنَّرْدَشِير فكأنما صَبَغ يَدَه في لحم الخنزير وَدَمِه»[٥]. فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به. وفيه دلالة على شُمُول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره.

وفي الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله حَرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام. فقيل: يا رسولَ الله، أرأيتَ شحومَ الميتة فإنها تُطْلَى بها السفن، وتُدْهَنُ بها الجلود، ويَسْتَصْبِحُ بها الناس؟ فقال: لا، هو حرام»[٦].

---

(١) في الأصل: هرم. والمثبت عن المستدرك والجرح ٤/٤٣١.
(٢) المجع: أن يأكل التمر ويشرب عليه اللبن، ومثله التمجع. والمذقة: الشربة من اللبن.
(٣) المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ٣/٦٤١ ـ ٦٤٢.
(٤) سيرة ابن هشام ١/٣٨٧.
(٥) مسلم، كتاب الشعر ١٧٧٠. والنردشير: النرد.
(٦) فتح الباري، كتاب البيوع ٤/٤٢٤، ومسلم، كتاب المساقاة ١٢٠٦.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان: أنه قال لِهِرَقْلَ ملكِ الروم: «نهانا عن الميتة والدم».

وقوله: ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ أي: ما ذُبِح فذكر عليه اسم غير الله، فهو حرام؛ لأن الله أوجب أن تُذبَح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عُدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك، من سائر المخلوقات، فإنها حرامٌ بالإجماع. وإنما اختلف العلماء في المتروك التسمية عليه، إما عمداً أو نسياناً، كما سيأتي تقريرهُ في سورة الأنعام.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسن الهِسِنْجَاني، حدثنا نُعَيم بن حماد، حدثنا ابن فُضَيل، عن الوليد بن جميع، عن أبي الطفيل قال: نزل آدم بتحريم أربع: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وإن هذه الأربعة الأشياء لم تُحَلَّ قط، ولم تَزَل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض، فلما كانت بنو إسرائيل حَرَّم الله عليهم طَيِّباتٍ أحلت لهم بذنوبهم، فلما بعث الله عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ نزل بالأمر الأول الذي جاء به آدم، وأحل لهم ما سوى ذلك، فكذبوه وعصوه.

وهذا أثر غريب.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا ربعي بن عبدالله قال: سمعت الجارود بن أبي سبرة ـ قال: هو جدي ـ قال: كان رجلٌ من بني رِيَاح يقال له: ابن وَثِيل ـ وكان شاعراً نافر «غَالِباً» أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة، على أن يعقر هذا مائةً من إبله، وهذا مائة من إبله. إذا وردت الماء، فلما وَرَدت الماءَ قاما إليها بالسيوف، فجعلا يَكْسِفان عَرَاقيبها[1]. قال: فَخَرج الناسُ على الحمرات والبغال يريدون اللحم ـ قال: وعَليٌّ بالكوفة ـ قال: فخرج عليّ على بغلة رسول الله ـ ﷺ ـ البيضاء وهو ينادي: يا أيها الناس، لا تأكلوا من لحومها فإنما أهل بها لغير الله[2].

هذا أثر غريبٌ، ويشهَدُ له بالصِّحة ما رواه أبو داود:

حدثنا هارون بن عبدالله، حدثنا حَمّاد بن مَسْعَدَةَ، عن عوف، عن أبي رَيحانَةَ، عن ابن عباس قال: «نهى النبي ـ ﷺ ـ عن معاقرة الأعراب».

ثم قال أبو داود: محمد بن جعفر ـ هو غُنْدَر ـ أوقفه على ابن عباس[3]. تفرَّد به أبو داود.

وقال أبو داود أيضاً: حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء، حدثنا أبي، حدثنا جَرير بن حازم، عن الزبير ابن خِرِّيت قال: سمعتُ عكرمة يقول: «إن رسول الله ـ ﷺ ـ نَهَى عن طعام المتبارِيين أن يُؤكَلَ»[4].

ثم قال أبو داود: «أكثر من رواه عن جرير لا يذكر فيه ابنَ عباس»[4]. تفرد به أيضاً.

وقوله: ﴿ والمُنْخَنِقَةُ ﴾، وهي التي تموتُ بالخنق إما قصداً أو اتفاقاً، بأن تَتَخَبَّل في وَثاقها فتموت به، فهي حرام.

وأما ﴿ الموقوذَة ﴾ فهي التي تُضرَب بشيءٍ ثقيلٍ غَيْرِ مُحدَّدٍ حتى تموتَ، كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخَشَب حتى تُوقَذ بها فتموت.

---

(١) كسف عرقوب الناقة: قطعه بالسيف. والعرقوب: الوتر الذي خلف الكعبين بين مفصل القدم والساق من ذوات الأربع.
(٢) انظر خبر المنافرة في أمالي القالي ١١٧/٢، ٥٤/٣، واللآلي ٧٤٦ ـ ٧٤٧.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الأضاحي ١٠١/٣.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣٤٤/٣.

وقال قتادةُ: كان أهلُ الجاهلية يضربونها بالعصيّ حتى إذا ماتت أكلوها.

وفي الصحيح أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمي بالمِعْراض الصيدَ فأصيب. قال: إذا رميتَ بالمِعْراض[1] فَخَزَقَ فَكُلْه، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وَقِيذٌ فلا تأكله»[2]. فَفَرَّق بين ما أصابه بالسهم، أو بالمِزْرَاق[3] ونحوه بحدِّه فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيذاً فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم هاهنا، واختلفوا فيما إذا صَدَم الجارحةُ الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه، على قولين هما قولان للشافعي، رحمه الله، أحدهما: لا يَحِلُ، كما في السهم، والجامع أن كلاً منهما ميت بغير جُرح، فهو وَقِيذ. والثاني: أنه يَحلُّ، لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب، ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه، لأنه قد دخل في العموم. وقد قررت لهذه المسألة فصلاً فليكتب هاهنا.

فصـــل

اختلف العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه، أو صدمه، هل يحل أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أن ذلك حلال، لعموم قوله تعالى: ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾. وكذا عمومات حديث عَديّ[4] بن حاتم. وهذا قولٌ حكاه الأصحاب عن الشافعي ـ رحمه الله ـ وصَحَّحه بعض المتأخرين كالنووي والرافعي.

قلت: وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأمّ والمختصر، فإنه قال في كلا الموضعين: «يحتمل معنيين». ثم وَجَّه كلاً منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا في المسألة قولين عنه، اللهم إلا أنه في بحثه حكايته للقول بالحل رَشَّحه قليلاً، ولم يُصَرِّح بواحد منهما ولا جزم به. والقولُ بذلك ـ أعني الحل ـ نقله ابنُ الصباغ عن أبي حَنِيفة، من رواية الحسن بن زياد، عنه، ولم يذكر غير ذلك. وأما أبو جعفر بن جرير فحكاه في تفسيره عن سلمانَ الفارسي، وأبي هُرَيرة، وسعد بن أبي وقاص، وابن عمر. وهذا غريبٌ جداً، وليس يوجَد ذلك مصرحاً به عنهم، إلا أنه من تصرفه، رَحِمه الله ورضي عنه.

والقولُ الثاني: أن ذلك لا يحل، وهو أحد القولين عن الشافعي ـ رحمه الله ـ واختاره المُزَني. ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحُه أيضاً، والله أعلم، ورواه أبو يوسف ومحمد عن أبي حنيفة، وهو المشهور عن الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ وهذا القولُ أشبهُ بالصواب، والله أعلم، لأنه أجْرَى عن القواعد الأصولية، وأمَسّ بالأصول الشرعية. واحتجّ ابن الصباغ له بحديث رافع بن خَديج: «قلت: يا رسول الله، إنا لاقُو العدوّ غداً وليس معنا مُدىً، أفنذبح بالقصب؟ قال: «ما أنهر الدمَ وذُكِر اسم الله عليه فكلوه». الحديث بتمامه وهو في الصحيحين[5].

وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص، فالعبرةُ بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول

---

(١) المعراض: سهم يرمى به بلا ريش ولا نصل يمضي عرضاً فيصيب بعرض العود لا بحدّه. وخَزَق السهم وخَسَق: إذا أصاب الرمية ونفذ فيها.

(٢) فتح الباري، كتاب الذبائح ٥٩٩/٩، ومسلم، كتاب الصيد ١٥٣٠.

(٣) المزراق: رمح قصير.

(٤) فتح الباري، كتاب الذبائح ٦٠٩/٩، ومسلم، كتاب الصيد ١٥٢٩.

(٥) فتح الباري، كتاب الذبائح ٦٢٣/٩، ومسلم، كتاب الأضاحي ١٥٥٨.

والفروع، كما سئل ـ عليه السلام ـ عن البِتْع ـ وهو نبيذُ العَسَل ـ فقال: «كلُّ شراب أسكر فهو حرام»[١] أفيقول فقيه: إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل؟. وهكذا هذا، سألوه عن شيء من الذكاة فقال لهم كلاماً عاماً يشمل ذاك المسؤول عنه وغيرَه، لأنه ـ عليه السلام ـ قد أوتي جوامع الكلم.

إذا تقرر هذا، فما صَدَمه الكلب أو غَمَّه بثقله، ليس مما أُنْهِرَ دَمُه، فلا يحلُّ لمفهوم هذا الحديث. فإن قيل: هذا الحديث ليس من هذا القبيل بشيء، لأنهم إنما سألوا عن الآلةِ التي يُذَكَّى بها، ولم يسألوا عن الشيء الذي يُذكِّي. ولهذا استثنى من ذلك السنَّ والظُّفُرَ، حيث قال: «ليس السنَّ والظُّفُرَ، وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فَمُدَى الحبشة». والمستثنى يدلُّ على جِنْسِ المستثنى منه، وإلا لم يكن متصلاً، فدل على أن المسؤول عنه هو الآلة، فلا يبقَى فيه دلالة لما ذكرتم.

فالجوابُ عن هذا: بأن في الكلام ما يُشكل عليكم أيضاً، حيث يقول: «ما أنْهَر الدم وذُكِر اسم الله عليه فكلوه». ولم يقل: «فاذبحوا به» فهذا يُؤخَذ منه الحكمان معاً، يؤخَذُ حكم الآلة التي يُذَكَّى بها، وحكم المذكِّي، وأنه لا بد من إنهار دمه بآلة ليست سِنّاً ولا ظفراً. هذا مسلك.

والمسلك الثاني: طريقة المُزني، وهي أن السهم جاء التصريحُ فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل، وإن خزَّق فَكُل. والكلبُ جاء مطلقاً، فيحمل على ما قيد هناك من الخَزْق، لأنهما اشتركا في المُوجب، وهو الصيد، فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب، كما وَجَب حمل مطلق الإعتاق في الظهار على تقييدِه بالإيمان في القتل، بل هذا أولى. وهذا يتوجه له على من يسلم له أصل هذه القاعدة من حيث هي، وليس فيها خلافٌ بين الأصحاب قاطبةً، فلا بدَّ لهم من جوابٍ عن هذا. وله أن يقول: هذا قَتلَه الكلب بثقله، فلم يحلَّ قياساً على ما قتلَه السهم بعَرْضه، والجامع أن كلاًّ منهما آلة للصيد، وقد مات بثقله فيهما. ولا يُعارَضُ ذلك بعموم الآية، لأن القياسَ مقدم على العموم، كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور، وهذا مسلكٌ حسن أيضاً.

مسلكٌ آخرُ، وهو أن قولَه تعالى: ﴿ فكلوا مما أمسكْنَ عليكم ﴾ عامٌّ فيما قتلن بجرحٍ أو غيره، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازَع فيها لا يخلو: إما أن يكون نطيحاً أو في حكمه، أو مُنْخَنِقاً أو في حكمه، وأياً ما كانَ فيجبُ تقديمُ هذه الآية على تلك لوجوهٍ:

أحدها: أن الشارعَ قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد، حيث يقول لعَديّ بن حاتم: «وإن أصابه بعَرْضِه فإنما هو وَقيذ فلا تأكله». ولم نعلم أحداً من العلماء فَصَلَ بين حكم وحكم من هذه الآية، فقال: إن الوقيذَ معتبر حالة الصيد، والنطيحُ ليس معتبراً، فيكون القول بِحِلِّ المتنازَع فيه خرقاً للإجماع لا قائلَ به، وهو محظورٌ عند كثير من العلماء.

الثاني: أن تلك الآية: ﴿ فكلوا مما أَمْسَكْنَ عليكم ﴾ ليست على عمومها بالإجماع، بل مخصوصةٌ بما صدن من الحيوان المأكول، وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق، والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ.

المسلك الآخر: أن هذا الصيدَ والحالةُ هذه في حكم الميتة سواء، لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات، فلا يحلُّ قياساً على الميتة.

المسلك الآخر: أن آية التحريم أعني قوله: ﴿ حُرِّمت عليكم الميتة ﴾ إلى آخرها، محكمة لم يدخلها

(١) أخرجاه في كتاب الأشربة، فتح الباري ٤١/١٠، ومسلم ١٥٨٥.

نسخ ولا تخصيص، وكذا ينبغي أن تكون آية التحليل محكمة، أعني قوله: ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾. . . الآية، فينبغي ألاَّ يكون بينهما تعارض أصلاً، وتكون السنة جاءت لبيان ذلك، وشاهدُ ذلك قصة السهم، فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية، وهو ما إذا خَزَقَه المِعْرَاض فيكون حلالاً، لأنه من الطيبات، وما دخل في حكم تلك الآية آية التحريم، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل، لأنه وقيذٌ، فيكون أحدُ أفراد آية التحريم، وهكذا يجبُ أن يكون حكم هذا سواء، إن كان قد جَرَحه الكلبُ فهو داخل في حكم آية التحليل، وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله فهو نطيحٌ أو في حكمه فلا يكون حلالاً.

فإن قيل: فلم لَمْ يُفَصِّل[١] في حكم الكلب، فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال، وإن لم يجرحه فهو حرام؟

فالجواب: أن ذلك نادر، لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابه أو بهما معاً، وأما اصطدامه هو والصيد فنادر، وكذا قتلهُ إياه بثقله، فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره، أو لظهور حكمه عند من عَلِم تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردِّية والنطيحة. وأما السهمُ والمعراضُ فتارةً يخطىء لسوء رمي راميه أو للهواء أو نحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته، فلهذا ذكر كلاً من حكميه مفصلاً، والله أعلم. ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد، ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد، فقال: «إن أكَلَ فلا تأكُلْ، فإني أخافُ أن يكونَ أمسكَ على نَفْسِه» وهذا صحيحٌ ثابتٌ في الصحيحين[٢] وهو أيضاً مخصوصٌ من عموم آية التحليل عند كثيرين، فقالوا: لا يحلّ ما أكل منه الكلب، حُكِي ذلك عن أبي هريرة، وابن عباس. وبه قال الحسنُ، والشعبيُّ، والنَّخَعِيُّ. وإليه ذَهَب أبو حنيفة وصاحباه، وأحمدُ بن حنبل، والشافعيُّ في المشهور عنه. وروى ابنُ جرير في تفسيره عن علي، وسعد، وسلمان، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس: أن الصيد يُؤكل وإن أكل منه الكلبُ. حتى قال سعد، وسلمان، وأبو هُرَيرة، وابن عمر، وغيرهم: يؤكل ولو لم يبق منه إلا بَضْعَةٌ. وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم، وأومأ في الجديد إلى قولين، قال ذلك الإمام أبو نصر بن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه.

وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوي، عن أبي ثَعْلبَةَ الخُشَنِيِّ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال في صيد الكلب: «إذا أرسلتَ كلبك وذكرتَ اسم الله فَكُلْ وإن أكل منه، وكُلْ ما رَدَّت عليك يدك»[٣].

ورواه أيضاً النسائي، من حديث عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جده: «أن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة» قال: يا رسولَ الله. . . فذكر نحوه.

وقال محمد بن جرير في تفسيره: حدثنا عمران بن بكار الكَلَاعي، حدثنا عبد العزيز بن موسى ـ هو اللاحوني ـ حدثنا محمد بن دينار ـ هو الطاحي ـ عن أبي إياس ـ وهو معاوية بن قُرَّة ـ عن سَعيد بن المسيِّب، عن سَلمان الفارسي، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكَل منه، فَلْيَأكُل ما بَقِي»[٤].

ثم إن ابن جرير عَلَّله بأنه قد رواه قتادةُ وغيره عن سعيد بن المسيب، عن سلمان موقوفاً. وأما الجمهور

---

(١) في الأصل: فلم لا فصل.

(٢) فتح الباري، كتاب الذبائح ٦/٦١٢، ومسلم، كتاب الصيد ١٥٣٠.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الصيد ٣/١٠٩.

(٤) تفسير الطبري ٦/٩٧.

فقدموا حديث «عَديّ» على ذلك، وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره: وقد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انتظر صاحبه وطال عليه الفصلُ ولم يجيء، فأكلَ منه لجوعه ونحوه فإنه لا بأس بذلك، لأنه والحالة هذه لا يُخشَى أنه أمسك على نفسه، بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه، والله أعلم.

فأما الجوارحُ من الطير فنصُّ الشافعي على أنها كالكلاب، فَيَحْرُم ما أكَلَتْ منه عند الجمهور، ولا يحرمُ عند الآخرين. واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيورُ والجوارح، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يُعلَّم الكلبُ بالضرب ونحوه، وأيضاً فإنها لا تُعلَّم إلا بأكلها من الصيد، فَيُعفى عن ذلك. وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير. وقال الشيخ أبو علي في «الإفصاح»: إذا قلنا يحرم ما أكل منه الكلبُ ففي تحريم ما أكل منه الطير وجهان، وأنكر القاضي أبو الطيب هذا التفريع والترتيب، لنص الشافعي ـ رحمه الله ـ على التسوية بينهما، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

وأما ﴿ المتردية ﴾ فهي: التي تقعُ من شاهقٍ أو موضع عالٍ فتموتُ بذلك، فلا تَحِلُّ.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ المتردِّية ﴾ التي تسقط من جبل. وقال قتادةُ: هي التي تتردى في بئر.

وقال السدّي: هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر.

وأما ﴿ النطيحة ﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حَرَام، وإن جَرَحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها.

والنطيحة فعيلةٌ بمعنى مفعولة، أي: منطوحةٍ. وأكثرُ ما ترد هذه البِنْيَة في كلام العرب بدون تاء التأنيث، فيقولون، «كَفُ خَضِيبٌ» و «عينٌ كحيل»، ولا يقولون: «كف خضيبة» ولا: «عين كحيلة». وأما هذه فقال بعض النحاة: إنما استعمل فيها تاء التأنيث لأنها أجريت مجرى الأسماء، كما في قولهم: «طريقة طويلة». وقال بعضهم: إنما أتي بتاء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة، بخلاف: «عين كحيل وكف خضيب». لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام.

وقولهُ: ﴿ وما أكل السبُعُ ﴾ أي: ما عدا عليها أسدٌ، أو فَهد، أو نَمِر، أو ذِئْبٌ، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدماءُ ولو من مذبحها، فلا تَحِلّ بالإجماع. وقد كان أهلُ الجاهلية يأكلونَ ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك. فحرم الله ذلك على المؤمنين.

وقوله: ﴿ إلا ما ذَكَّيتم ﴾ عائدٌ على ما يمكن عودُه عليه، مما انعقد سببُ موته فأمكن تداركُه بذكاة، وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: ﴿ والمنخنقة والموقوذة والمتردِّية والنطيحةُ وما أكل السبع ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إلا ما ذَكَّيتم ﴾، يقول: إلا ما ذَبحتم من هؤلاء وفيه روح، فكلوه، فهو ذَكِيّ. وكذا رُوي عن سعيد بن جُبَير، والحسن البصري، والسدّيّ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيدِ الأشجُ، حدثنا حَفْصُ بن غياث، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: ﴿ وما أكلَ السبع إلاّ ما ذَكَّيتم ﴾ قال: إن مَصَعت[1] بذَنَبها، أو رَكَضَت برجلها، أو طَرَفَت بعينها فَكُلْ.

(١) أي: حركته وضربت به.

وقال ابن جَرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا هُشَيم وعباد قالا: حدثنا حجاج، عن حُصَين، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: إذا أدركْتَ ذكاةَ الموقوذة والمترديّة والنطيحة، وهي تُحرِّك يداً أو رجلاً، فكُلْها[١].

وهكذا رُوي عن طاوس، والحسن، وقتادة، وعُبَيد بن عُمير، والضحاكِ، وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركَةٍ تدلّ على بقاءِ الحياةِ فيها بعد الذبح، فهي حلالٌ. وهذا مذهبُ جمهورِ الفقهاء، وبه قال أبو حنيفةَ، والشافعيُّ، وأحمدُ بن حَنْبَلٍ.

وقال ابن وَهْب: سُئِلَ مالكٌ عن الشاة التي يَخرِقُ جَوْفَها السَّبُعُ حتى تخرُج أمعاؤها؟ فقال مالك: لا أرى أن تذكّى، أيّ شيء يُذَكّى منها.

وقال أشهب: سُئِل مالكٌ عن الضَّبُع يعدو على الكبش، فَيَدُق ظهره، أترى أن يذكى قبل أن يموت، فيؤكل؟ قال: إن كان قد بلغ السُّحْرة[٢] فلا أرى أن يؤكل. وإن كان أصاب أطرافه، فلا أرى بذلك بأساً. قيل له: وثب عليه فدق ظهره؟ فقال: لا يعجبني، هذا لا يعيش منه. قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء؟ فقال: إذا شق بطنها فلا أرى أن تُؤْكَلَ.

هذا مذهب مالك ـ رحمه الله ـ وظاهرُ الآية عام فيما استثناه مالك ـ رحمه الله ـ من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية، والله أعلم.

وفي الصحيحين عن رافع بن خَديج أنه قال: «قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدوِّ غداً، وليس معنا مُدًى، أفنذبحُ بالقصب؟ فقال: ما أنهر الدمَ وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السنَّ والظُّفُرَ، وسأحدِّثكم عن ذلك، أما السن فعظم، وأما الظفرُ فمدى الحبشة»[٣].

وفي الحديث الذي رواه الدارقطني مرفوعاً ـ وفيه نظر، ورُوي عن عُمَر موقوفاً، وهو أصحُّ ـ: «ألا إن الذكاة في الحلق واللَّبَّةِ، ولا تعجلوا الأنفس أن تَزْهَق»[٤].

وفي الحديث الذي رواه الإمامُ أحمدُ وأهل السنن، من رواية حَمَّاد بن سَلَمَةَ، عن أبي العُشَراء الدارمي، عن أبيه قال: قلت: يا رسولَ الله، أما تكونُ الذكاة إلا من اللَّبَّـةِ والحلق؟ فقال: «لو طعنت في فَخذها لأجزأ عنك»[٥].

وهو حديثٌ صحيحٌ، ولكنه محمولٌ على ما لا يُقْدَرُ على ذَبْحِهِ في الحلق واللَّبَّةِ.

وقولهُ: ﴿ وما ذُبِح على النُّصُب ﴾، قال مجاهد وابن جُرَيج: كانت النصبُ حجارةً حول الكعبة. قال ابن جُرَيج وهي ثلاثمائة وستون نُصُباً، كان العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضَحُون[٦] ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويُشَرِّحون اللحم ويضَعُونه على النُّصُب.

---

(١) تفسير الطبري ٧٢/٦.

(٢) أي: القلب.

(٣) تقدّم الحديث من قريب وخرجناه.

(٤) سنن الدارقطني ٢٨٣/٤.

(٥) مسند الإمام أحمد ٣٣٤/٤، وسنن أبي داود، كتاب الأضاحي ١٠٣/٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الصيد ٢٧٣/٦ ـ ٢٧٤، وابن ماجه، كتاب الذبائح ١٠٦٣.

(٦) أي: يَرُشُّون.

وكذا ذكره غيرُ واحد، فنهى اللهُ المؤمنين عن هذا الصنيع، وحَرَّم عليهم أكْلَ هذه الذبائحِ التي فُعِلت عند النصب حتى ولو كان يُذْكَر عليها اسمُ الله في الذبح عند النصب، من الشرك الذي حَرَّمه الله ورسوله. وينبغي أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.

وقولهُ تعالى: ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾، أي: حُرِّم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام. واحدها زُلَمٌ، وقد تفتح الزاي فيقال: «زَلَم». وقد كانت العربُ في جاهليَّتها يتعاطَون ذلك، وهي عبارة عن قِداحٍ ثلاثةٍ، على أحدها مكتوبٌ: «افعَلْ»، وعلى الآخر: «لا تفعَلْ»، والثالث غُفْل ليس عليه شيء. ومن الناس من قال: مكتوبٌ على الواحد «أمرني ربي»، وعلى الآخر «نهاني ربي». والثالث غُفْلٌ ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع السهمُ الأمر فَعَله، أو الناهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد.

والاستقسام: مأخوذٌ من طلب القَسْمِ من هذه الأزلام. هكذا قَرَّر ذلك أبو جعفر بن جَرير[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا الحجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ قال: والأزلام قِداحٌ، كانوا يَسْتَقسِمُون بها في الأمور.

وكذا رُوِي عن مجاهدٍ، وإبراهيمَ النَّخَعِيِّ، والحسنِ البصري، ومقاتلِ بن حَيَّانَ.

وقال ابن عباس: هي القداح، كانوا يستقسمون بها في الأمور. وذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أعظم أصنام قُرَيش صنم كان يقال له: هُبَل، وكان داخل الكعبة، منصوبٌ على بئر فيها توضَع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه، مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رَجَعوا إليه ولم يعدلوا عنه.

وثبت في الصحيح أن النبي ـ ﷺ ـ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مُصَوَّرين فيها، وفي أيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله! لقد علموا أنهما لم يَسْتَقْسِما بها أبداً»[2].

وفي الصحيح: أن سراقة بن مالك بن جُعْشُم لما خرج في طَلَب النبيِّ ـ ﷺ ـ وأبي بكر، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين، قال: فاستقْسَمْتُ بالأزلام هَلْ أضرُّهم أم لا؟ فخرج الذي أكرَه: لا تَضُرُّهم، قال: فعصَيتُ الأزلامَ واتبعتهم، ثم إنه استقسم بها ثانيةً وثالثةً، كلُّ ذلك يخرجُ الذي يكره: لا تَضُرُّهم، وكان كذلك، وكان سراقةُ لم يسلم إذ ذاك، ثم أسلم بعد ذلك[3].

وروى ابن مَرْدُويه من طريق إبراهيم بن يزيد، عن رَقَبَةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن رجاء بن حيوة، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لن يلج الدرجاتِ من تَكَهَّنَ أو استقسَمَ أو رَجَع من سفر طائراً»[4].

وقال مجاهد في قوله: ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ قال: هي سهامُ العربِ، وكعابُ فارسٍ والرومِ، كانوا يتقامرون بها[5].

---

(١) تفسير الطبري ٦/٧٥ ـ ٧٦.

(٢) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٣٨٧.

(٣) فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/٢٢٨ ـ ٢٢٩، ومسند الإمام أحمد ٤/١٧٥ ـ ١٧٦.

(٤) أي: متطيِّراً. وانظر مجمع الزوائد ٥/١١٨.

(٥) تفسير الطبري ٦/٧٦ ـ ٧٧.

وهذا الذي ذُكِر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعةٌ للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة، وفي القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه قد فرّق بين هذه وبين القمار ـ وهو الميسر ـ فقال في آخر السورة: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسرُ والأنصابُ والأزلام رجسٌ من عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريدُ الشيطانُ أن يوقع بَينكم العداوةَ والبغضاءَ ﴾ إلى قوله: ﴿ منتهون ﴾. وهكذا قال هاهنا: ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ﴾، أي: تعاطيه فسق وغيّ وضلالٌ وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنينَ إذا تردَّدُوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه، ثم يسألوه الخيَرة في الأمر الذي يُريدونه، كما رواه الإمام أحمد والبخاريّ وأهلُ السُّنن، من طرق عن عبد الرحمن بن أبي المَوالي، عن محمد بن المُنْكَدِرِ، عن جابر بن عبدالله قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُعَلِّمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا هَمَّ أحدُكم بالأمر فَلْيركع ركعتَين من غير الفريضة، ثم ليقُلْ: اللهم إني أستخيرُك بعلمك، وأستقدِرُك بقدرتك، وأسألك من فَضْلِك العظيم ؛ فإنك تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علام الغيوب. اللهمَّ إن كنتَ تعلَمُ هذا الأمر ـ ويسميه باسمه ـ خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدُرْه لي ويسِّره لي وبارك لي فيه، اللهُمَّ وإن كنتَ تعلمه شرّاً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرِفْني عنه، واصرِفْه عني، واقدُرْ لي الخيرَ حيث كانَ، ثم رَضِّني به».

لفظ أحمدَ(١)، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حَسَنٌ صحيح غَرِيب، لا نعرفُه إلا من حديثِ ابن أبي المَوالي(١).

قولُهُ: ﴿ اليومَ يئس الذين كفروا من دينكم ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: يعني يئِسوا أن تراجعوا دينهم(٢).

وكذا رُوي عن عطاء بن أبي رباح، والسّدِّيّ ومقاتل بن حَيّان. وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الشيطان قد يَئِس أن يعبدَه المصلُّون في جَزِيرة العرب، ولكن بالتَّحْرِيش بينهم»(٣).

ويَحتمِلُ أن يكون المرادُ: أنهم يَئِسُوا من مشابهة المسلمين، بما تميَّز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله، ولهذا قال تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتُوا في مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحداً إلا الله، فقال: ﴿ فلا تخشوهم واخشونِ ﴾، أي: لا تخافوا منهم في مخالفتكم إيّاهُم واخشوني، أنصُركم عليهم وأُبيدُهم وأُظْفِرْكُم بهم، وأشْفي صدوركم منهم، وأجعلْكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

وقولهُ: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتمَمْتُ عليكم نعمتي ورَضِيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾، هذه أكبرُ نِعَمِ الله ـ عزّ وجلّ ـ على هذه الأمة، حيث أكملَ تعالى لهم دينَهم، فلا يحتاجُون إلى دينٍ غيره، ولا إلى نبيٍّ غير نبيهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولهذا جَعَله الله خاتمَ الأنبياء، وبعثَه إلى الإنس والجن، فلا حلالَ إلا ما أحلَّه، ولا حرامَ إلا ما حرَّمه، ولا دينَ إلا ما شَرَعه، وكلُّ شيءٍ أخبر به فهو حقٌّ وصِدقٌ لا كَذِبَ فيه ولا خُلْفَ، كما قال تعالى: ﴿ وتمَّتْ كَلِمَةُ ربِّك صدقاً وعدلاً ﴾، أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي،

(١) مسند أحمد ٣٤٤/٣، وفتح الباري، كتاب التهجد ٤٨/٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الوتر ٢٦٢/٢ ـ ٢٦٣، وسنن ابن ماجه، أبواب الإقامة ٤٤٠.

(٢) تفسير الطبري ٧٨/٦، ولفظه: «ترجعوا الى دينهم».

(٣) مسلم، كتاب صفات المنافقين ٢١٦٦.
والمعنى: ولكنه يسعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن وغيرها.

فلما أكملَ الدِّين لهم تمتِ النعمةُ عليهم، ولهذا قال: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾، أي: فارضَوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدينُ الذي رَضِيه الله وأحبَّه، وبَعَث به أفضلَ رُسُلِه الكرام، وأنزل به أشرَفَ كتبه.

قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينَكُم ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه - ﷺ - والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمانَ، فلا يحتاجُون إلى زيادةٍ أبداً، وقد أتمّه الله فلا ينقصُه أبداً، وقد رَضِيه الله فلا يَسْخَطُه أبداً[(١)].

وقال أسباطُ عن السدِّيِّ: نزلت هذه الآيةُ يوم عَرَفَة، فلم ينزلْ بعدها حلالٌ ولا حرامٌ، ورجع رسول الله - ﷺ - فمات. قالت أسماءُ بنتَ عُمَيس: حَجَجْتُ مع رسول الله - ﷺ - تلك الحجة، فبينما نحن نسير إذ تجلّى له جبريلُ فمال رسول الله - ﷺ - على الراحلة، فلم تُطِق الراحلةُ من ثِقَلِ ما عليها من القرآن، فَبَركت، فأتيته فسجَّيت عليه بُرْداً كان عليّ.

قال ابن جُرَيج وغير واحد: ماتَ رسول الله - ﷺ - بعد يوم عَرَفَة بأحد وثمانين يوماً. رواهما ابن جرير[(٢)].

ثم قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن فُضَيل، عن هارون بن عَنْتَرَةَ، عن أبيه قال: لما نزلَت ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾، وذلك يومَ الحجِّ الأكبر، بكى عُمَر، فقال له النبي - ﷺ -: ما يُبْكِيك؟ قال: أبكاني أنّا كُنّا في زيادة من دِينِنا، فأما إذْ أكْمِلَ فإنه لم يكمُلْ شيءٌ إلا نَقَصَ. فقال: صدقت»[(٢)].

ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت: «إنَّ الإسلام بدأ غريباً، وسيعودُ غريباً، فَطُوبى للغُرَباء»[(٣)].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُمَيس، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنكم تقرؤون آيةً في كتابكم، لو علينا معشَرَ اليهود نَزَلت لاتَّخذنا ذلك اليومَ عيداً. قال: وأيُّ آية؟ قال قولهُ: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ﴾. فقال عمر: والله إني لأعلم اليومَ الذي نزلت فيه على رسول الله - ﷺ - والساعةَ التي نزلت فيها على رسول الله - ﷺ - عَشيَّةَ عرفة في يوم جُمُعة[(٤)].

ورواه البخاريّ عن الحسن بن الصباح، عن جعفر بن عون، به. ورواه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي، من طرق عن قيس بن مسلم، به[(٤)].

ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوريّ، عن قَيس، عن طارق قال: قالت اليهود لِعُمَرَ: إنكم تقرءون آيةً لو نزلَت فينا لاتَّخذناها عيداً. فقال عمر: إني لأعلَمُ حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسولُ الله - ﷺ - حيث أُنزلت: يومَ عرفةَ، وإنّا والله بعرفَةَ. قال سفيان: وأشُكُّ كان يومَ الجُمُعة أم لا: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾. . . الآية[(٥)].

---

(١) تفسير الطبري ٦/٧٩.
(٢) تفسير الطبري ٦/٧٩ - ٨٠.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان ١٣٠.
(٤) مسند أحمد ١/٢٨، وفتح الباري، كتاب الإيمان ١/١٠٥، ومسلم، كتاب التفسير ٣٣١٢ - ٣٣١٣، وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١١/١٧١ - ١٧٢، والنسائي، كتاب الإيمان ٨/١١٣ - ١١٤.
(٥) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٨/٢٧٠.

وشكُّ سفيانَ ـ رحمه الله ـ إن كان في الرواية فهو تورُّع، حيث شكَّ هل أخبره شيخُه بذلك أم لا؟ وإن كان شكاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة، فهذا ما إخاله يصدُر عن الثوري، رحمه الله، فإن هذا أمر معلوم مقطوعٌ به، لم يختلف فيه أحدٌ من أصحاب المغازي والسِّيَر ولا من الفقهاء، وقد وَرَدت في ذلك أحاديثُ متواترة لا يُشَكُّ في صحتها، والله أعلم، وقد رُوِي هذا الحديثُ من غير وجه عن عمر.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني يعقوبُ بنُ إبراهيمَ، حدثنا ابن عُلَيَّة، أخبرنا رجاءُ بن أبي سلمة، أخبرنا عبادة بن نُسَيٍّ، أخبرنا أميرنا إسحاق ـ قال أبو جعفر بن جَرير: هو إسحاقُ بن خَرَشَة[1] ـ عن قَبِيصة ـ يعني ابن ذُؤيب ـ قال: قال كعب: لو أنَّ غير هذه الأمة نَزَلت عليهمَ هذه الآية لَنَظَرُوا اليومَ الذي أُنْزِلت فيه عليهم، فاتَّخذُوه عيداً يجتمعون فيه. فقال عمر: أيُّ آيةٍ يا كعبُ؟ فقال: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾. فقال عُمَر: قد عَلِمت اليوم الذي أُنزِلَتْ فيه، والمكان الذي أنزلت فيه، نزلت في يوم جُمُعَةٍ، ويوم عَرَفَة، وكلاهما بحمد الله لنا عيدٌ[2].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا قَبِيصَةُ، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمَةَ، عن عَمَّار ـ هو مولى بني هاشم ـ أن ابن عباس قرأ: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورَضِيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾. فقال يهودي: لو نزلت هذه الآيةُ علينا لاتخذنا يومَها عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نَزَلَتْ في يومِ عيدين اثنين: يوم عيدٍ ويوم جُمُعةٍ[3].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا يحيى بن الحِمَّاني[4]، حدثنا قيس بن الربيع، عن إسماعيل بن سَلْمان، عن أبي عُمَر البَزَّار، عن ابن الحَنَفِيَّة، عن علي قال: نزلت هذه الآيةُ على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو قائمٌ عشيةَ عرفةَ: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾.

وقال ابن جَرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عَمْرو السَّكُونيُّ، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابنَ عَيَّاش، حدثنا عمرو بن قيسٍ السَّكُونيّ: أنه سَمع معاويةَ بن أبي سفيان على المنبر يَنْتَزع[5] بهذه الآية: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ حتى ختمها، فقال: نزلت في يوم عرفة، في يوم جُمُعة[2].

وروى ابن مَرْدُويه، من طريق محمد بن إسحاق، عن عُمَرَ بن موسى بن وَجيه، عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة قال: نزلت هذه الآية: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورَضِيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾، يوم عَرَفَةَ ورسولُ الله ـ ﷺ ـ واقفٌ على الموقف.

فأما ما رواه ابن جَرِيرٍ، وابن مَرْدُويه، والطبرانيّ من طريق ابن لَهِيعة، عن خالد بن أبي عمرانَ، عن حَنَش بن عبدالله الصَّنعاني، عن ابن عباس قال: وُلِد نبيكم ـ ﷺ ـ يوم الاثنين، وخَرَج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وأنزلت سورةُ المائدةِ يوم الاثنين: ﴿ اليومَ أكملت لكم دينكم ﴾، ورُفع الذِّكر يوم الاثنين[6]. فإنه أثر غَريبٌ، وإسناده ضعيف، وقد رَوَاه الإمام أحمد:

حدثنا موسى بن داودَ، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن خالد بن أبي عِمْرانَ، عن حَنَشٍ الصَّنعَانِيِّ، عن ابن عباس

(١) انظر تفسير الطبري ٩/٥٢٧، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر.
(٢) تفسير الطبري ٦/٨٣.
(٣) تفسير الطبري ٦/٨٢.
(٤) هو يحيى بن عبد الحميد الحِمّاني. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/١٦٨.
(٥) أي: يتمثل.
(٦) تفسير الطبري ٦/٨٤، والمعجم الكبير ١٢/٢٣٧، وفيه: «ورفع الركن» بدل: «ورفع الذكر».

قال: ولد النبي ـ ﷺ ـ يوم الاثنين، واستُنبِئ يوم الاثنين، وخَرَج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، ووضع الحجر الأسود يوم الاثنين(١).

هذا لفظ أحمد، ولم يذكر نزول المائدة يوم الاثنين، فالله أعلم. ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عيدين اثنين كما تقدم، فاشتبه على الراوي، والله أعلم.

قال ابنُ جَرير: وقد قيل ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس؛ ثم رَوَى من طريق العَوفيِّ عن ابن عباس في قوله: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾ يقول: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس.

قال: وقد قيل: إنها نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ في مَسِيره إلى حَجَّة الوداع. ثم رواه من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس(٢).

قلتُ: وقد روى ابن مَرْدُويه من طريق أبي هارون العَبْدي، عن أبي سعيد الخدري: أنها نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ يوم غَدير خُمّ(٣)، حين قال لعلي: «من كنتُ مولاه فعلي مولاه». ثم رواه عن أبي هُرَيرة، وفيه: أنه اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، يعني مرجعَه عليه السلام من حجة الوداع.

ولا يصحُّ هذا ولا هذا، بل الصوابُ الذي لا شكَّ فيه ولا مِرْيَة أنها أنزلت يوم عَرَفة، وكان يومِ جُمُعة، كما رَوَى ذلك أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب، وعليُّ بن أبي طالب، وأول ملوكِ الإسلام معاويةُ بن أبي سفيان، وترجمان القرآن عبدالله بن عباس، وسَمُرة بن جُندَب رضي الله عنهم، وأرسلَه الشعبي، وقتادةُ بن دِعامة، وشهرُ بن حَوْشَبٍ، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبري رحمه الله.

وقولهُ: ﴿ فمن اضطر في مخمصةٍ غير متجانفٍ لإثم فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ ﴾، أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرَّمات التي ذَكَرها تعالى، لضرورةٍ ألجأتْهُ إلى ذلك، فله تناولُ ذلك، والله غفورٌ رحيمٌ له، لأنه تعالى يعلم حاجةَ عبدِه المضطرِّ، وافتقارَه إلى ذلك، فيتجاوزُ عنه ويغفرُ له. وفي المسنَدِ وصحيح ابن حبان، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله يحبُّ أن تؤتَى رُخْصَته، كما يكره أن تؤتَى معصيته» لفظ ابن حِبَّان(٤). وفي لفظ لأحمد: «من لم يقبل رُخْصَةَ الله كان عليه من الإثم مثلُ جبالِ عَرَفة»(٥). ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناولُ الميتة واجباً في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على مُهْجَتِه التلفَ ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، ويكون مباحاً بحسب الأحوال.

واختلفوا: هل يتناولُ منها قَدْرَ ما يسدُّ به الرَّمَق، أو له أن يشبَعَ، أو يشبع ويتزوَّد؟ على أقوال، كما هو مقرر في كتاب الأحكام. وفيما إذا وجد مَيْتَةً وطعامَ الغير، أو صيداً وهو محرم: هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام ويضمَن بدله؟ على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، كما قد يتوهَّمه كثيرٌ من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له، وقد قال الإمام أحمد:

---

(١) مسند أحمد ٢٧٧/١، وفيه: «ورفع الحجر».

(٢) تفسير الطبري ٨٤/٦.

(٣) غدير خم: موضع بين مكة والمدينة، به مسجد للرسول ﷺ.

(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الصلاة، باب المسافر ١٨٢/٤، وكتاب الصوم، باب صوم المسافر ٢٣١/٥. ومسند أحمد ١٠٨/٢.

(٥) مسند أحمد ٧١/٢، ١٥٨/٤.

حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثنا حسان بن عطية، عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تُصِيبنا بها المخمَصَةُ، فمتى تَحِلُّ لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوا ولم تغتبقوا، ولم تَجتفئوا بَقْلاً فشأنكم بها»(١).

تَفرَّد به أحمد من هذا الوَجْهِ، وهو إسنادٌ صحيح على شرط الصحيحين. وكذا رواه ابن جرير، عن عبد الأعلى بن واصل، عن محمد بن القاسم الأسدي، عن الأوزاعي، به(٢). لكن رواه بعضهم عن الأوزاعي عن حسان بن عطية، عن مسلـم بن يزيد، عن أبي واقد، به. ومنهم من رواه عن الأوزاعي، عن حسانٍ، عن مَرْثَدٍ ـ أو أبي مَرْثَدٍ ـ عن أبي واقدٍ، به. ورواه ابن جَرير عن هَنَّاد بن السَّرِيِّ، عن عيسى بن يونُس، عن حَسَّان، عن رجل قد سُمِّي له. . . فذكره(٣). ورواه أيضاً عن هناد، عن ابن المبارك، عن الأوزاعي، عن حسان، مرسلاً(٣).

وقال ابن جَرير: حدثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن عَوْنٍ قال: وجدتُ عندَ الحسنِ كتابَ سَمُرة، فقرأتُهُ عليه، فكان فيه: «ويُجْزِىء من الاضطرار غَبُوق أو صَبُوح»(٣).

حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا هُشَيم، عن الخَصِيب بن زيد التَّميمي، حدثنا الحسن: أن رجلاً سأل النبي ـ ﷺ ـ فقال: «متى يحلُّ الحرامُ؟ قال: فقال: إلى متى يُرْوَى أهلُك من اللبن، أو تَجِيءُ مِيرتُهم»(٣).

حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا سَلَمة، عن ابن إسحاقَ، حدثني عُمرَ بن عبدالله بن عُروَةَ، عن جَدِّه عُروةَ بن الزُّبير، عن جَدَّته: أن رجلاً من الأعراب أتى النبي ـ ﷺ ـ يستفتيه في الذي حَرَّم اللهُ عليهِ والذي أَحَلَّ له. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «تَحِلُّ لك الطيباتُ، وتحرمُ عليك الخبائثُ، إلا أن تَفْتَقِرَ إلى طعام لا يَحِلُّ لك، فتأكل منه حتى تستغني عنه. فقال الرجلُ: وما فَقْري الذي يُحِلُّ لي؟ وما غناي الذي يُغْنِيني عن ذلك؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: «إذا كنتَ ترجُو نِتاجاً فَتبلَّغْ بلحوم ماشيتِكَ إلى نتاجِكَ، أو كنت ترجُو غِنىً تَطْلُبه فَتَبَلَّغْ من ذلك شيئاً، فأطعِمْ أهلك ما بدا لك حتى تستغني عنه». فقال الأعرابي: ما غناي الذي أدعه إذا وجدتهُ؟ فقال ـ ﷺ ـ: «إذا أَرْوَيتَ أهلكَ غَبُوقاً من الليـل فاجتنِبْ ما حَرَّم الله عليكَ من طَعَامٍ، [وأما] مالُكَ فإنه ميسورٌ كلُّه، ليس فيه حرامٌ(٣).

ومعنى قوله: «ما لم تصطَبِحوا» يعني بـه الغداء «وما لم تَغْتَبِقُوا»: يعني به العشاء. «أو تجتفئوا بقلاً فشأنكم بها: فكلُوا منها». وقال ابن جرير: يروى هذا الحرف ـ يعنـي قوله: «أو تَحْتفئـوا» على أربعة أوجه: «تجتفئوا» بالهمزة، «وتحتفيوا» بتخفيف الياء والحاء، «وتَحْتَفُّوا» بتشديدٍ، «وتحتَفُوا» بالحاء وبالتخفيف، ويحتمل الهمزة كذا ذكره في التفسير.

حديث آخر، قال أبو داود: حدثنا هارونُ بن عبدالله، حدثنا الفضل بن دُكَين، حدثنا عُقبةُ بنُ وهبِ بن

---

(١) مسند أحمد ٥/٢١٨.

والاصطباح: أكل الصبوح، وهو الغداء، والاغتباق: أكل الغبوق، وهو العشاء. ولم تجتفئوا بقلا: لم تقتلعوه وترموا به. ويروى: «تختفوا بقلا، اي: تظهروه، يقال: اختفيت الشيء: إذا أظهرته. كما يروى: «تحتفئوا»، بالحاء، من الحفا، وهو البردى، يقال: احتفأ الحفا: اقتلعه من منبته.

قال الأزهري: وصوابه: تحتَفُوا، بتخفيف الفاء من غير همز. وكلّ شيءٍ استؤصل فقد احتفى، ومنه: إحفاء الشعر. قال: واحتفَى البقل: إذا أخذه من وجه الأرض بأطراف أصابعه، من قِصَره وقلّته.

(٢) تفسير الطبري ٨٦/٦.

(٣) تفسير الطبري ٨٧/٦.

عُقبةَ العامريُّ، سَمِعتُ أبي يحدِّث عن الفُجَيع العامرِيِّ: أنه أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ما يحل لنا من الميتةِ؟ قال: ما طعامكم؟ قلنا: نغتبقُ ونصطبح. قال أبو نُعيم: فَسَّره لي عقبة: قدحٌ غُدْوَة، وقدحٌ عَشِيةً. قال: ذاك وأبى الجوعُ. وأحلَّ لهم الميتةَ على هَذِه الحالِ[1].

تَفَرَّد به أبو داود. وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يَكْفِيهم، فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم، وقد يحتج به من يرى جَواز الأكلِ منها حتى يبلُغَ حد الشِّبع، ولا يتقيد ذلك بِسَدِّ الرَّمَق، والله أعلم.

حديث آخر، قال أبو داودَ: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، حدثنا سِماكٌ، عن جابر بن سَمُرَةَ: «أن رجلاً نزل الحرَّة، ومعه أهلُه وولدُه، فقال له رجل: إن ناقة لي ضَلَّتْ، فإن وجدتها فأمسكها، فوجدَها ولم يجد صاحبها، فَمَرِضَتْ، فقالت امرأته: انحرها. فأبى، فَنَفَقت، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نُقَدِّدَ شحمها ولحمها فنأكلَه. فقال: حتى أسألَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأتاه فَسأله، فقال: هل عندك غِنيً يُغْنِيك؟ قال: لا. قال: فكلوها، قال: فجاء صاحِبُها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنت نَحَرْتَها؟ قال: استحيَيْتُ مِنْك»[2]. تفرَّد به.

وقد يحتجُّ به من يُجوِّز الأكلَ والشبع، والتزوُّد منها مدَّةً يَغلِبُ على ظنِّه الاحتياجُ إليها، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ غير متجانِفٍ لإثم ﴾ أي: متعاطٍ لمعصيةِ الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسَكَت عن الآخر، كما قال في سُورةِ البقرة: ﴿ فمن اضطُرَّ غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم ﴾[3].

وقد استدلَّ بهذه الآية من يقول بأن العاصِيَ بسفره لا يترخَّص بشيء من رخص السفر، لأن الرُّخَصَ لا تُنَال بالمعاصي، والله أعلم.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما حَرَّمه في الآية المتقدمة من الخبائِث الضَّارة لمتناولها، إما في بدنه، أو في دينه، أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: ﴿ وقد فَصَّل لكم ما حَرَّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ﴾. قال بعدها: ﴿ يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم. قل: أحل لكم الطيبات ﴾، كما في سورة الأعراف في صفة محمد ـ ﷺ ـ: أنه ﴿ يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ﴾[4].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا يحيى بن عبدالله بن بُكَير، حدثني عبدالله بن لَهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جُبَير، عن عَدِيِّ بن حاتم، وزيد بن المُهَلهَل الطائيَّين سألا رسول الله ـ ﷺ ـ فقالا: يا رسول الله، قد حَرَّم الله الميتةَ، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلتْ: ﴿ يسألونك: ماذا أحل لهم؟ قل: أحل لكم الطيبات ﴾.

قال سعيد: يعني الذبائحَ الحلالَ الطيِّبةَ لهم. وقال مقاتل: فالطيباتُ ما أُحِلَّ لهم من كُلِّ شيءٍ أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق. وقد سُئِلَ الزهري عن شرب البولِ للتَّداوي فقال: ليس هو من الطيِّبات. رواه ابن أبي حاتم.

(١) سنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٥٨ ـ ٣٥٩. وأبو نعيم هو الفضل بن دكين.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٥٨.
(٣) الآية ١٧٣ من سورة البقرة.
(٤) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

وقال ابنُ وَهْبٍ: سُئِل مالك عن بيع الطين الذي يأكُله الناس. فقال: ليس هو من الطيِّبات.

وقوله تعالى: ﴿وما عَلَّمتُم من الجوارح مُكلِّبين﴾، أي: أُحلَّ لكم الذبائحَ التي ذُكِر اسمُ الله عليها والطيباتُ من الرزق، وأُحلَّ لكم ما اصطدتموه بالجوارح، وهي من الكلاب والفُهود والصُّقور وأشباه ذلك، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وممن قال ذلك عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما عَلَّمتُم من الجوارح مُكَلِّبين﴾: وهن الكلابُ المعلمة، والبازي، وكلُّ طير يُعَلَّمُ للصَّيدِ، والجوارِحُ: يعني الكلاب الضواري، والفهود، والصقور، وأشباهها.

رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروى عن خَيْثَمَةَ، وطاوسَ، ومجاهدٍ، ومكحولٍ، ويحيى بن أبي كثير، نحو ذلك. ورُوِي عن الحسن أنه قال: البازُ والصقرُ من الجوارح. ورُوِي عن علي بن الحسين مثلهُ. ثم رُوِي عن مجاهد أنه كَرِه صيدَ الطير كلِّه، وقرأ قولَ الله: ﴿ وما عَلَّمتم من الجوارح مُكَلِّبين ﴾. قال: ورُوِي عن سعيد ابن جُبَير نحوُ ذلك. ونقله ابنُ جَرِير عن الضحاك والسدِّيِّ، ثم قال:

حدثنا هَنَّاد، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن جُرَيج، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: أما ما صاد من الطير البُزاةُ وغيرها من الطير، فما أدركتَ فهو لك، وإلا فلا تطعَمْه[1].

قلتُ: والمحكيُّ عن الجمهور أنَّ صيدَ الطيور كَصَيدِ الكلاب، لأنها تَكْلَبُ الصيدَ بمخالبها، كما تَكْلَبُه الكِلَابُ، فلا فرق. وهذا مذهبُ الأئمةِ الأربعةِ وغَيْرِهم، واختارَه ابنُ جَرير، واحتَجَّ في ذلك بما رواه عن هَنَّاد، حدثنا عيسى بـن يونس، عن مجالد، عن الشعبيِّ، عن عَدِيِّ بن حاتم قال: «سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن صيد البازي، فقال: ما أمسك عليك فكل»[2].

واستثنى الإمام أحمدُ صيدَ الكلبِ الأسودِ، لأنه عنده مما يجبُ قتلُه ولا يحتل اقتناؤه، لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذَرٍّ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يقطع الصلاة الحمارُ والمرأةُ والكلب الأسود. فقلت: ما بالُ الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: الكلب الأسودُ شيطان»[3]. وفي الحديث الآخر أن رسول الله ـ ﷺ ـ أمر بِقَتْلِ الكلاب، ثم قال: «ما بالُهم وبالُ الكلابِ، اقتلوا منها كلَّ أسودَ بَهيمٍ»[4].

وسُمِّيت هذه الحيواناتُ التي يصطاد بهن: الجوارح، من الجَرْح، وهو: الكَسْبُ. كما تقول العرب: فلان جَرَح أهله خيراً، أي: كَسَبهم خيراً. ويقولون: فلان لا جارح له، أي: لا كاسبَ له، وقال الله تعالى: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جَرَحتم بالنهار ﴾، أي: ما كسبتُم من خيرٍ وشَرٍّ.

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة الحديث الذي رواه ابنُ أبي حاتم:

حدثنا حَجّاج بن حمزة، حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني موسى بن عُبَيدة، حدثني أبانُ بن صالح، عن القعقاع بن حَكِيم، عن سلمى أُمِّ رافع، عن أبي رافع مولى رسول الله ـ ﷺ ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أمر بقتل الكلاب فَقُتِلت، فجاء الناس فقالوا: يا رسولَ الله، ما يحـلُّ لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت، فأنزل الله: ﴿ يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم قل أحل لكم الطيبات وما عَلَّمتم من الجوارح مكلِّبيـن ﴾.. الآية. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا أرسل الرجلُ كَلْبَه وسَمَّى، فأمسَكَ عليه، فلْيأكُلْ ما لم يأكل».

(١) تفسير الطبري ٦/٩٠.
(٢) تفسير الطبري ٦/٩١.
(٣) مسلم، كتاب الصلاة ٣٦٥.
(٤) مسلم، كتاب المساقاة ١٢٠٠ ـ ١٢٠١، وسنن أبي داود، كتاب الصيد ٣/١٠٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الصيد ٦/٢٨٢ ـ ٢٨٣، وسنن ابن ماجه، كتاب الصيد ١٠٦٩.

وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيب، عن زيد بن الحباب بإسناده، عن أبي رافع قال: جاء جبريلُ إلى النبي ـ ﷺ ـ ليستأذن عليه، فأذن له فقال: قد أذِنَّا لك يا رسولَ الله[١]. قال: أجل، ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب. قال أبو رافعٍ: فأمرني أن أقتل كُلَّ كلب بالمدينة. فقتلتُ، حتى انتهيتُ إلى امرأة عندها كلبٌ ينبَحُ عليها، فتركته رحمةً لها، ثم جئت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلتُه. فجاءوا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرتَ بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم قل أُحِلَّ لكم الطيباتُ وما عَلَّمتم من الجوارح مُكَلِّبين ﴾[٢].

ورواه الحاكم في مستدركه من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، به. وقال: صحيح ولم يخرجاه[٢].

وقال ابن جَرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيج، عن عِكْرِمةَ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعثَ أبا رافع في قتل الكلاب، حتى بلغ العوالِيَ فدخل عاصم بن عديٍّ، وسعد بن خَيْثَمَةَ، وعُوَيم ابن ساعدة، فقالوا: ماذا أُحِلَّ لنا يا رسولَ الله؟ فنزلت: ﴿ يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم؟ قل: أُحِلَّ لكم الطيبات وما عَلَّمتم من الجوارح مُكَلِّبين ﴾[٢].

ورواه الحاكم من طريق سماك، عن عكرمة؛ وهكذا قال محمد بن كعب القُرَظِيُّ في سبب نزول هذه الآية إنه في قتل الكلاب.

وقولهُ تعالى: ﴿ مُكَلِّبين ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ عَلَّمتم ﴾ فيكون حالاً من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو «الجوارح» أي: وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلَّبات للصيد، وذلك أن تَقتنِصَه بمخالبها أو أظفارها. فيستدلّ بذلك ـ والحالةُ هذه ـ على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصَدْمَتِه أو بمِخْلابه وظفره أنه لا يَحِلُّ، كما هو أحدُ قولَي الشافعيِّ وطائفةٍ من العلماء، ولهذا قال: ﴿ تُعلِّمونهن مما علمكم الله ﴾، وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى[٣]، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾، فمتى كان الجارحةُ معلَّماً وأمسَكَ على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حَلَّ الصيد وإن قَتَله بالإجماع.

وقد وردت السنةُ بمثل ما دَلّت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثَبت في الصحيحين عن عدّي بن حاتم قال، قلت: «يا رسول الله، إني أرسلُ الكلابَ المعلَّمة وأذكُر اسم الله. فقال: إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرْتَ اسمَ الله، فكل ما أمسك عليك. قلت: وإن قَتَلْنَ؟ قال: وإن قتلن ما لم يَشْركها كلبٌ ليس منها، فإنك إنما سَمَّيت على كلبك ولم تُسَمِّ على غيره. قلت له: فإني أرْمِي بالمِعْرَاض الصيد فأصيبُ؟ فقال: إذا رميتَ بالمعراض فَخزق، فَكُلْه، وإن أصابه بعَرْضٍ فإنه وَقِيذٌ، فلا تأكله». وفي لفظ لهما: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليكَ فأدركته حيّاً فاذبحه، وإن أدركته قد قَتل ولم يأكل منه فَكُلْه، فإنَّ أَخْذَ الكلب ذكاتُه». وفي رواية لهما: «فإن أكَلَ فلا تأكُلْ، فإني أخاف أن يكون أمسَكَ على نفسه»[٤].

---

(١) المراد برسول الله جبريل عليه السلام.

(٢) تفسير الطبري ٦/٨٨ ـ ٨٩، والمستدرك، تفسير سورة المائدة ٢/٣١١.

(٣) أشلاه: دعاه.

(٤) فتح الباري، كتاب الذبائح والصيد ٩/٥٩٨، ٦٠٣، ٦٠٤. ومسلم، كتاب الصيد ١٥٢٩ ـ ١٥٣١.

والمعراض: خشبة ثقيلة، أو عصا في طرفيها حديدة، وقد تكون بغير حديدة. وخَزَق: نفذ. والوقيذ: الذي يقتل بغير محدّد من عصا أو حجر ونحوهما.

فهذا دليلٌ للجمهور، وهو الصحيحُ من مذهب الشافعي، وهو أنه إذا أكل الكلبُ من الصَّيد يحرُم مطلقاً، ولم يَسْتَفْصِلوا كما ورد بذلك الحديث. وحُكِيَ عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يَحرُمُ مطلقاً.

ذكر الآثار بذلك:

قال ابن جرير: حدثنا هَنّاد، حدثنا وكيع، عن شُعبةُ، عن قتادةَ، عن سَعِيد بن المسيَّب قال: قال سلمانُ الفارسيُّ: «كُل وإن أكل ثُلُثَيهِ ـ يعني الصيد ـ إذا أكَل منه الكلبُ»[١].

وكذا رواه سَعِيدُ بن أبي عَرُوبة، وعُمَر بن عامرٍ، عن قتادة. وكذا رواه محمد بن زَيدٍ، عن سعيد بن المسيَّبُ، عن سلمان.

ورواه ابن جرير أيضاً عن مجاهد بن موسى، عن يزيدَ، عن بكر بن عبدالله المزني والقاسمِ: أن سلمان قال: إذا أكل الكلب فَكُلْ، وإن أكل ثُلُثَيه[١].

وقال ابن جرير: حدثنا يونُسُ بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وَهْب، أخبرني مَخْرَمَةُ بن بُكَيرٍ، عن أبيه عن حميد بن مالك بن خُثَيم الدُّؤَلي: أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيدِ يأكلُ منه الكلبُ، فقال: كُلْ، وإن لم يُبقِ منه إلا حِذْيَة يعني: بَضْعَةً[١].

ورواه شعبةُ، عن عبد رَبِّهِ بن سعيد، عن بُكَير بن الأشجِّ، عن سعيد بن المسيَّب، عن سعد بن أبي وَقَّاصٍ قال: «كل وإن أكل ثُلُثَيه».

وقال ابن جَرير: حدثنا ابن المثنَّى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داودُ، عن عامر، عن أبي هُرَيرة. قال: «لو أرسلت كلبكَ فأكلَ منه، فإن اكل ثُلُثَيه وبقي ثلثهُ فَكُلْ».

وقال ابن جَرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر قال، سمعت عُبَيد الله ـ وحدثنا هَنَّاد، حدثنا عَبْدَةُ، عن عُبَيد الله بن عمر ـ عن نافع، عن عبدالله بن عمر قال: «إذا أرسلت كلبَكَ المعلَّم وذكرتَ اسمَ الله، فَكُلْ ما أمسَكَ عليك، أكل أو لم يأكل».

وكذا رواه عُبَيد الله بن عُمَر وابن أبي ذِئْبٍ وغير واحد، عن نافعٍ.

فهذه الآثار ثابتةٌ عن سلمان، وسعد بن أبي وقاص، وأبي هُرَيرة، وابن عُمَر. وهو محكيٌّ عن علي، وابن عباس. واختلف فيه عن عطاء، والحسن البصري. وهو قول الزُّهريِّ، وربيعةَ، ومالكٍ. وإليه ذهب الشافعيُّ في القديمِ، وأومأ إليه في الجديد.

وقد رُوِي من طريق سلمانَ الفارسيِّ مرفوعاً، فقال ابن جرير:

حدثنا عِمران بن بكار الكَلَاعي، حدثنا عبد العزيز بن موسى اللَّاحُونِيُّ، حدثنا محمد بن دينار ـ هو الطاحي ـ عن أبي إياس معاوية بن قُرَّة، عن سعيد بن المسيَّب، عن سلمانَ الفارسيِّ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا أرسل الرجلُ كَلْبَه على الصَّيدِ فأدركَه، وقد أكَلَ منه، فَلْيَأكُل ما بقي».

ثم قال ابن جرير: وفي إسناد هذا الحديث نَظَرٌ، وسعيدٌ غيرُ معلومٍ له سماع من سلمان، والثقات يروونه من كلام سلمانَ غير مرفوع[٢].

---

(١) تفسير الطبري ٦/٩٥.
(٢) تفسير الطبري ٦/٩٧.

وهذا الذي قاله ابن جرير صحيحٌ، لكن قد رُوي هذا المعنى مرفوعاً من وجوه أُخر، فقال أبو داود:

حدثنا محمد بن منهال الضرير، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا حَبيب المعلم، عن عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه: «أن أعرابياً يقال له: أبو ثعلبةَ قال: «يا رسول الله، إن لي كلاباً مُكَلَّبة، فأفتني في صَيْدِها. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «إن كان لك كلابٌ مُكَلَّبةٌ فكل مما أمسكْنَ عليك». فقال: ذكياً وغير ذكي؟ [قال: نعم. قال](١): وإن أكلَ منه؟ قال: نعم، وإن أكل منه. قال: يا رسول الله، أفتني في قَوْسِي. فقال: كُلْ ما رَدَّتْ عليكَ قوسُكَ. قال: ذكياً وغير ذكيٍّ؟ قال: وإن تَغيَّبَ [عَني، قال: وإن(١) تَغَيَّب] عنك ما لم يَصِلْ(٢)، أو تجد فيه أثَرَ غيرِ سهمك» قال: أفتني في آنية المجوس إذا اضطُرِرنا إليها. قال: اغسلها وكُلْ فيها»(٣).

هكذا رواه أبو داود، وقد أخرجه النسائي. وكذا رواه أبو داود، من طريق بُسْر بن عبيد الله(٤)، عن أبي إدريسَ الخَولانيِّ، عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، وإن أكل منه، وكل ما رَدَّت عليك يَدُكَ»(٥).

وهذان إسنادان جيدان، وقد رَوَى الثوريُّ، عن سِماكِ بن حَرْب، عن عَدِيٍّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما كان من كلب ضَارٍ أمسَكَ عليكَ، فَكُلْ. قلت: وإن أكَلَ؟ قال: نعم».

وروى عبدُ الملك بن حَبِيبٍ: حدثنا أسد بن موسى، عن ابن أبي زائدةَ، عن الشعبيِّ، عن عَدي، مثله.

فهذه آثارٌ دالَّة على أنه يغتفر إن أكل منه الكلبُ. وقد احتجَّ بها من لم يُحرِّم الصيد بأكْلِ الكلب وما أشبهه، كما تقدم عمن حكيناه عنهم.

وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكلَ عَقِب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم. وللعلة التي أشار إليها النبي ـ ﷺ ـ: «فإن أكل فلا تأكلْ فإني أخاف أن يكونَ أمسك على نفسه». وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وَجاع، فأكلَ من الصَّيدِ لجوعه، فإنه لا يُؤثر في التحريم. وحَملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخُشَني، وهذا تفريقٌ حسن، وجمع بين الحديثين صحيحٌ. وقد تمنَّى الأستاذ أبو المعالي الجُويني في كتابه «النهاية» أن لو فَصَّلَ مُفَصِّلٌ هذا التفصيلَ، وقد حقَّق الله أمنيته، وقال بهذا القول والتفريق طائفةٌ من الأصحاب منهم.

وقال آخرون قولاً رابعاً في المسألة، وهو: التفرقةُ بين أكْلِ الكلب فيحرُم لحديثِ عَدِيّ، وبين أكْلِ الصُّقُورِ ونحوها فلا يحرم، لأنه لا يُقبَلُ التعليمُ إلا بالأكْلِ.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا أبو إسحاق الشيبانيّ، عن حَمّاد، عن إبراهيم، عن ابن عباس أنه قال في الطير: «إذا أرسلته فَقَتَل فَكُلْ، فإنَّ الكَلْبَ إذا ضَرَبته لم يَعُدْ، وإن تَعلُّمَ الطيرُ أن يرجع إلى صاحبه وليس بِضَرْبٍ، فإذا أكل من الصيد ونَتَفَ الريش فَكُل»(٦).

---

(١) عن سنن أبي داود.

(٢) ما لم يَصِلَّ: ما لم يُنْتِن. وفي سنن أبي داود: يضل، بالضاد المعجمة، وهو خطأ.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الصيد ٣/١١٠ ـ ١١١، والنسائي، كتاب الصيد ٧/١٩١.

(٤) في الأصل: يونس بن سيف. ورواية يونس عن أبي إدريس في سنن أبي داود ٣/١١٠، والمثبت هنا رواية بسر بن عبيد الله، فاستبدلنا يونس بسراً.

(٥) سنن أبي داود ٣/١٠٩.

(٦) تفسير الطبري ٦/٩٣.

وكذا قال إبراهيم النخعيُّ، والشعبيُّ، وحمّاد بن أبي سليمان. وقد يُحتجُّ لهؤلاء بما رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد، حدثنا المحاربي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن عديِّ بن حاتم قال، قلت: «يا رسول الله، إنا قومٌ نصيد بالكلاب والبُزَاة، فما يحـلُّ لنا منها؟ قال: يحلُّ لكم ما عَلَّمتم من الجوارح مُكَلِّبين، تعلمونهن مما علمكم الله، فكلوا مما أمسكن عليكم، واذكروا اسم الله عليه» ثم قال: «ما أرسلت من كَلْب وذكرت اسم الله عليه فَكُلْ ما أمسك عليك. قلت: وإن قَتَل؟ قال: وإن قَتَل ما لم يأكل. قلت: يا رسول الله، وأن خالطَتْ كلابَنا كلابٌ غيرُها؟ قال: فلا تأكل حتى تعلم أن كَلْبَكَ هو الذي أمسكَ. قال، قلت: إنا قومٌ نَرْمي، فما يحل لنا؟ قال: ما ذكرتَ اسم الله عليه وخَزَقْتَ فَكُلْ».

فوجه الدلالة لهم أنه اشترط في الكلب أَلاَّ يأكـل، ولم يشترط ذلك في البُزَاة، فدل على التفرقة بينهما في الحكم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ أي: عند الإرسال، كما قال النبي ـ ﷺ ـ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كَلْبَك المعلَّم، وذكرتَ اسم الله، فكل ما أمسك عليك». وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً: «إذا أرسلتَ كلبـك فاذكر اسم الله، وإذا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فاذكُرِ اسم الله»[١] ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كأحمد ـ في المشهور عنه ـ التسمية عندَ إرسالِ الكلب والرَّمْي بالسهم لهذه الآية وهذا الحديثِ، وهذا القولُ هو المشهور عن الجمهور: أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسميةِ عند الإرسالِ، كما قال السدِّيُّ وغيرُ واحدٍ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ واذكروا اسم الله عليه ﴾، يقول: إذا أرسلت جَارِحَك فقل: باسم الله، وإن نَسِيت فلا حَرَجَ[٢].

وقال بعض الناس: المرادُ بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ـ ﷺ ـ عَلَّم رَبِيبه عُمَر بن أبي سلمة فقال: «سَمِّ الله، وَكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يَلِيكَ»[٣]. وفي صحيح البخاري، عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إنَّ قوماً يأتوننا ـ حديثٌ عهدُهم بكفر ـ بلُحْمانٍ لا نَدْري أَذُكِرَ اسمُ اللهِ عليها أم لا؟ فقال: سَمُّوا أنتم وكُلُوا»[٤].

حَديثٌ آخرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا يزيدُ، حدثنا هِشَامٌ، عن بُدَيل، عن عبدالله بن عُبَيد بن عُمَير، عن عائشة: «أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يأكُلُ الطعامَ في ستة نَفَرٍ من أصحابه، فجاء أعرابيٌّ فأكلَه بلُقمتَيـن، فقال النبي ـ ﷺ ـ: أما إنه لو كان ذَكَر اسمَ الله لكفاكُم، فإذا أكل أحدكم طعاماً فَلْيذكُرِ اسمَ الله، فإن نَسِي أن يذكُرَ اسم الله في أوله، فَلْيَقُلْ: باسمِ الله أولَه وآخِرَه»[٥].

وهكذا رواه ابنُ ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون، به[٥]. وهذا منقطع بين عبدالله بن عُبَيد بن عُمَير وعائشة، فإنه لم يسمَعْ منها هذا الحديث، بدليل ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الوهاب، أخبرنا هشام ـ يعني ابن أبي عبدالله الدَّسْتَوائي ـ عن بُدَيل، عن عبدالله بن عُبَيد بن

(١) فتح الباري، كتاب الذبائح والصيد ٩/٦٠٤ ـ ٦٠٥، ومسلم، كتاب الصيد ١٥٣٢.
(٢) تفسير الطبري ٦/٩٩.
(٣) فتح الباري، كتاب الأطعمة ٩/٥٢١، ومسلم، كتاب الأشربة ١٥٩٩.
(٤) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٧٩.
مسند أحمد ٦/١١٣، وابن ماجه، كتاب الأطعمة ١٠٨٦.

عُمير، أن امرأة منهم ـ يقال لها: أم كلثوم ـ حَدَّثته، عن عائشة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يأكُلُ طعاماً في ستة من أصحابه، فجاء أعرابيٌّ جائعٌ فأكَلَه بلُقْمتَين، فقال: أما إنه لو ذَكَر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدُكم فلْيَذْكرِ اسم الله. فإن نَسِي اسم الله في أوله فَلْيقل: باسم الله أوله وآخرَه»[١].

رواه أحمد أيضاً، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، من غير وجه، عن هشام الدستوائي، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[١].

حديثٌ آخرُ، وقال أحمد: حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا يحيى بن سُعَيد، حدثنا جابر بن صُبْحٍ، حدثني المثنى بن عبد الرحمن الخزاعي، وصَحِبتُه إلى واسط، فكان يسمي في أول طعامه، وفي آخر لُقْمةٍ يقول: باسم الله أوله وآخره. فقلت له: إنك تُسمِّي في أول ما تأكلُ، أرأيت قولك في آخر ما تأكل: باسم الله أوله وآخره؟ فقال: أُخبِرُك عن ذلك، إن جدي أميةَ بن مَخْشِيٍّ ـ وكان من أصحاب النبيِّ ـ ﷺ ـ سَمِعتهُ يقول: إنَّ رجُلاً كان يأكل، والنبي ـ ﷺ ـ ينظُرُ، فلم يسمِّ، حتى كان في آخر طعامِه لقمةٌ، فقال: باسم الله أولَه وآخِرَه. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «والله ما زال الشيطان يأكُلُ معه حَتَّى سَمَّى، فلم يبقَ شيءٌ في بطنه حتى قاءه»[٢].

وهكذا رواه أبو داود[٢] والنسائي، من حديث جابر بن صُبْحٍ الراسبيِّ أبي بِشْرٍ البَصْرِي، ووثَّقه ابن مَعِين والنسائيُّ، وقال أبو الفتح الأزديُّ: لا تقومُ به الحجةُ.

حديثٌ آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن خَيْثَمَةَ، عن أبي حُذَيفة ـ قال أبو عبد الرحمن عبدالله ابن الإمام أحمد: واسمه سلمة بن الهيثم بن صُهَيب، من أصحاب ابن مسعود ـ عن حُذَيفة قال: «كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام، لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسولُ الله فيضَعَ يدَه، وإنا حَضَرْنا معه طعاماً فجاءت جارية، كأنما تُدفع[٣] فذهبَتْ تَضَعُ يدَها في الطعام، فأخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيدها، وجاء أعرابيٌّ كأنما يُدْفَعُ فذهب يضَعُ يدَه في الطعام، فأخذ رسولُ الله بيده. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الشيطان يَسْتحِلُّ الطعام إذا لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية لِيستَحِلَّ بها، فأخذتُ بيدها، وجاء بهذا الأعرابي ليستحِلَّ به، فأخذتُ بيده. والذي نفسي بيده، إن يَدَه في يدي مع يَدِهما. يعني الشيطان».

وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث الأعمش، به[٤].

حديث آخر، روى مسلم وأهلُ السُّنَن إلا الترمذيَّ، من طريق ابن جُرَيج، عن أبي الزُّبير، عن جابر بن عبدالله عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا دخل الرجلُ بيتَه، فذكر الله عند دُخُولِه وعند طَعَامه، قال الشيطان: لا مَبِيتَ لكم ولا عَشَاءَ، وإذا دخَلَ فلم يذكُرِ اسم الله عند دُخُوله قال الشيطان: أدركتُم المبيتَ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طَعَامه قال: أدركتم المَبِيتَ والعشاءَ» لفظ أبي داود[٥].

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد رَبِّه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وَحْشِيِّ بن حَرْبِ بن

(١) مسند أحمد ٦/٢٦٥، ٢٤٦، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٤٧، وعارضة الأحوذي، أبواب الأطعمة ٨/٤٦.
(٢) مسند أحمد ٤/٣٣٦، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٤٧ ـ ٣٤٨.
(٣) أي: يدفعها دافع.
(٤) مسند أحمد ٥/٣٨٢ ـ ٣٨٣، ومسلم، كتاب الأشربة ١٥٩٧، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٤٧.
(٥) سنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٤٧، ومسلم، كتاب الأشربة ١٥٩٨.

وَحْشِيّ بن حربٍ عن أبيه، عن جَدِّه: أن رجلاً قال للنبي ـ ﷺ ـ: «إنا نأكل وما نَشبعُ؟ قال: فَلَعلَّكُم تأكلون متفرِّقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله، يبارك لكم فيه»(١).

ورواه أبو داود، وابن ماجه، من طريق الوليد بن مسلم(١).

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ⑤ ﴾

لما ذكر تعالى ما حَرَّمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحلَّه لهم من الطيبات، قال بعده: ﴿ اليوم أُحِلَّ لكم الطيبات ﴾.

ثم ذكر حُكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: ﴿ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم ﴾. قال ابن عباس، وأبو أمامة، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وعكرمة، وعطاء، والحسن، ومكحول، وإبراهيم النَّخعي، والسُّدِّي، ومقاتل بن حَيَّان: «يعني ذبائحهم».

وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أنّ ذبائحهم حلالٌ للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذَّبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسمَ الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هُو مُنزَّه عن قولهم، تعالى وتقدس. وقد ثَبَتَ في الصحيح عن عبدالله بن مُغَفَّل قال: «دُلِّي بجراب من شَحْمٍ يوم خيبرَ فاحتضنته وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً، والتفتُّ فإذا النبي ـ ﷺ ـ يتَبسم»(٢).

فاستدلّ به الفقهاء على أنه يجوز تناولُ ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القِسْمَة، وهذا ظاهر. واستدل به الفقهاءُ الحنفيةُ والشافعيةُ والحنابلةُ على أصحاب مالك في منعهم أكْلَ ما يعتقد اليهودُ تحريمه من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حَرّم عليهم، فالمالكية لا يُجوِّزون للمسلمين أكلَه، لقوله تعالى: ﴿ وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌ لكم ﴾، قالوا: وهذا ليس من طعامهم. واستدلّ عليهم الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظرٌ، لأنه قَضِيةُ عينٍ، ويَحتَمِلُ أنه كان شحماً يعتقدون حلَّه، كشحم الظهر والحوايا ونحوهما، والله أعلم.

وأجود منه في الدلالة ما ثَبت في الصحيح: أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ـ ﷺ ـ شاة مَصْليَّة، وقد سَمُّوا ذراعها، وكان يُعجبه الذِّراعُ، فتناوله فنَهَشَ منه نَهْشَة، فأخبره الذراعُ أنه مسمومٌ، فلفظه، وأثَّر ذلك السم في ثنايا رسول الله ـ ﷺ ـ وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن مَعْرُورٍ؛ فمات، فقتل اليهودية التي سَمَّتها، وكان اسمُها زينبَ، فَقُتِلَت ببشر بن البراء(٣).

وَوَجهُ الدلالةِ منه أنه عَزَم على أكلها ومن معه، ولم يسألهم: هل نَزَعوا منها ما يعتقدون تَحرِيمه من شَحْمِها أم لا؟.

---

(١) مسند أحمد ٥٠١/٣، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣٤٦/٣، وابن ماجه، كتاب العام ١٠٩٣.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٦٥/٣، والنسائي، كتاب الضحايا ٢٣٦/٧، ومسند أحمد ٨٦/٤. وفتح الباري كتاب فرض الخمس ٢٥٥/٦، ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٩٣.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الديات ١٧٣/٤ ـ ١٧٥. مصليَّة: مشوية. والأبهر: عرق في العنق.

وفي الحديث الآخر: أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أضافه يهوديٌّ على خُبزِ شَعيرٍ وإهالة سَنِخَةٍ، يعني: وَدَكاً زَنِخاً(١).

وقال ابن أبي حاتم: قُرِىء على العباس بن الوليد بن مَزْيدٍ، أخبرنا محمد بن شُعَيب، أخبرني النعمان بن المنذر، عن مكحول قال: أنزل الله: ﴿ ولا تأكلُوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ثم نسخها الربُّ ـ عزّ وجلّ ـ ورَحِم المسلمين، فقال: ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات، وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾، فنسخها بذلك، وأحلّ طعامَ أهلِ الكتاب.

وفي هذا الذي قاله مكحول ـ رَحِمه الله ـ نظرٌ، فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحةُ أكْلِ ما لم يذكر اسم الله عليه، لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم، وهم مُتَعبِّدون بذلك، ولهذا لم يُبِح ذبائحَ من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم، لأنهم لم يَذْكُروا اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكُلُون الميتَةَ، بخلاف أهْلِ الكتابين ومن شاكلهم من السَّامِرة والصَّابئة، ومن تَمَسّك بدين إبراهيم وشيث وغيرهما من الأنبياء، على أحد قَولي العلماء، ونصارى العرب كبني تَغْلِب وتَنُوخ وبَهْرَاء وجُذام ولَخْم وعَامِلة ومن أشبههم، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور.

قال أبو جعفر بن جَرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن محمد، عن عَبِيدَةَ قال، قال علي: لا تأكلوا ذبائحَ بني تَغلِبَ، لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر(٢).

وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف.

وقال سعيدُ بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيَّب والحسن: أنهما كانا لا يريان بأساً بذَبِيحةِ نصارى بني تَغْلِب(٢).

وأما المجوس فإنهم وإن أُخِذَت منهم الجزيةُ تَبَعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب، فإنهم لا تؤكل ذَبَائِحُهم ولا تُنكَح نساؤُهم، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمدَ بن حنبلٍ، ولما قال ذلك واشتهر عنه أنكر عليه الفقهاءُ ذلك، حتى قال عنه الإمام أحمد: أبو ثور كاسمه! يَعْني في هذه المسألة، وكأنه تَمسَّك بعُمُوم حديث رُوِي مرسلاً عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب»(٣). ولكن لم يثبُتْ بهذا اللفظ، وإنما الذي في صحيح البخاري، عن عبد الرحمن بن عوف: أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أخذَ الجزيةَ من مَجُوسِ هَجَرَ(٤). ولو سُلِّم صِحَّةُ هذا الحديثِ فعمُومه مخصوصٌ بمفهوم هذه الآيَة: ﴿ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم ﴾، فدل بمفهومه ـ مفهوم المخالفة ـ على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يَحِلّ.

وقولهُ: ﴿ وطعامُكُم حلٌّ لهم ﴾، أي: وَيَحِلُّ لكم أن تُطْعِمُوهم من ذبائحكم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهمَّ إلا أن يكونَ خبراً عما أُمِروا به من الأكل من كلِّ طعام ذُكِر اسم الله عليه، سواء كان من أهل مِلّتهم أو غيرها. والأول أظهرُ في المعنى، أي: ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم، كما أكلتم من ذبائحهم.

---

(١) مسند أحمد ٣/٢١٠ ـ ٢١١.
والإهالة: ما يؤتدم به من الدهن. والسَّنِخَةُ: المتغيرة الريح. والودك: دَسَمُ الدهن.
(٢) تفسير الطبري ٦/١٠١.
(٣) الموطأ، كتاب الزكاة ٢٧٨.
(٤) فتح الباري، كتاب الجزية ٦/٢٥٧.

وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبيُّ ـ ﷺ ـ ثَوْبَه لعبدِالله بن أُبَيّ بن سَلُولَ حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كَسَا العباس حين قدم المدينة ثوبَه، فجازاه النبي ـ ﷺ ـ ذلك بذلك، فأما الحديث الذي فيـه: «لا تصحَبْ إلا مُؤمناً، ولا يأكُلْ طعامَك إلا تقِيٌّ»(١). فمحمولٌ على النَّدْبِ والاستحباب، والله أعلم.

وقولهُ: ﴿ والمحصناتُ من المؤمنات ﴾، أي: وأُحِلَّ لكم نكاحُ الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله: ﴿ والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾، فقيل: أراد بالمحصَناتِ: الحرائرَ دونَ الإماء. حكاه ابن جرير عن مجاهد(٢). وإنما قال مجاهد: المحصناتُ الحرائرُ، فَيحتمِلُ أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويَحْتَمِلُ أن يكون أراد بالحرَّة العفيفةَ، كما قاله مجاهد في الروايةِ الأُخرى(٣) عنه. وهو قولُ الجمهور هاهنا، وهو الأشبهُ، لئلا يجتمع فيها أن تكون ذِمِّية وهي مع ذلك غير عَفِيفة، فيفسد حالها بالكلية، ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل: «حَشَفاً وسُوءَ كِيلَةٍ»(٤) والظاهرُ من الآية أن المراد بالمحصنات: العفيفاتُ عن الزِّنا، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿ محصناتٍ غيرَ مسافحاتٍ ولا متخذات أخدان ﴾(٥).

ثم اختلف المفسِّرون والعلماء في قوله: ﴿ والمحصناتُ من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلكم ﴾: هل يعم كُلَّ كتابية عفيفة، سواء كانت حُرَّةً أو أمة؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف، ممن فَسَّر المحصنَةَ بالعفيفة. وقيل: المرادُ بأهل الكتاب هاهنا الإسرائيليات، وهو مذهبُ الشافعي. وقيل: المراد بذلك: الذمِّيات دون الحَرْبِيَّات، لقوله: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ . . . الآية.

وقد كان عبـد الله بن عُمَر لا يرى التزويجَ بالنصرانية، ويقول: لا أعلَـمُ شِرْكاً أعظَمَ من أن تقول: إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿ ولا تَنْكِحُوا المشركات حتى يؤمن ﴾ . . . الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن حاتم بن سليمان المؤدِّب، حدثنا القاسم بن مالك ـ يعني المُزَنِيَّ ـ حدثنا إسماعيل بن سُمَيع، عن أبي مالك الغِفَارِيِّ، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآيةُ: ﴿ ولا تَنْكِحُوا المشركَات حتى يؤمنَّ ﴾، قال: فحجز الناس عنهنَّ حتى نزلت التي بعدها: ﴿ والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾، فنكح الناس نساء أهل الكتاب.

وقد تَزَوَّج جماعةٌ من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأساً، أخْذاً بهذه الآية الكريمة: ﴿ والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾، فجعلوا هذه مُخَصِّصةً للآية التي في سورَةِ البقرة: ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤمنَّ ﴾، إنْ قيلَ بدخول الكتابيَّاتِ في عمومها، وإلاّ فلا معارضَةَ بينها وبينها، لأن أهل الكتاب قد يُفْصَل في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كما قال تعالى: ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكِّين حتى تأتيهم البينة ﴾، وكقوله: ﴿ وقل للذين أوتوا الكتب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتَدَوا ﴾ . . . الآية.

---

(١) مسند أحمد ٣٨/٣.
(٢) تفسير الطبري ١٠٤/٦.
(٣) تفسير الطبري ١٠٥/٦.
(٤) هذا مثل، ويروى بالاستفهام: احشفاً وسُوءَ كِيْلَة؟! والحَشَفُ: أردأ التمر. وكيلة ـ بكسر الكاف ـ: المراد بها حال الكيـل، أي: كيل فيه بخس وظلم. والمعنى: كيف تجمع إلى الحشف سوة الكيل. يضرب لمن يجمع بين خصلتين مذمومتين.
(٥) سورة النساء، الآية ٢٥.

وقوله: ﴿ إذا آتيتموهُنَّ أجورهُنَّ ﴾، أي: مُهورهُنَّ، أي: كما هُنَّ محصنات عفائف فابذُلوا لهن المهورَ عن طيب نفس. وقد أفتى جابر بن عبدالله، وإبراهيم النخَعِيُّ، وعامر الشعبيُّ، والحسنُ البصريُّ بأن الرجل إذا نَكَحَ امرأةً فزنَتْ قبلَ دخوله بها: أنه يُفرِّقُ بينه وبينها، وتَرُدُّ عليه ما بَذَل لها من المهر. رواه ابنُ جَريرٍ عنهم.

وقولُهُ: ﴿ مُحصِنين غير مسافحين ولا مُتَّخِذِي أخدان ﴾، فكما شرط الإحصان في النساء، وهي العفةُ عن الزنا، كذلك شَرَطَها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً مُحْصِناً عفيفاً، ولهذا قال: ﴿ غير مسافحين ﴾ وهم: الزناة الذين لا يرتَدِعُون عن معصيةٍ، ولا يَرُدُّون أنفسَهُم عمن جاءهم، ﴿ ولا مُتَّخِذِي أخدان ﴾، أي: ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء[١]. ولهذا ذَهَب الإمامُ أحمدُ بن حنبل ـ رحمه الله ـ إلى أنه لا يصحُّ نكاحُ المرأة البَغيِّ حتى تَتُوبَ، وما دامت كذلك لا يصحُّ تزويجُها من رجل عَفِيف، وكذلك لا يَصِحُّ عنده عقدُ الرجلِ الفاجرِ على عفيفةٍ حتى يتوبَ ويُقلعَ عما هو فيه من الزِّنا، لهذه الآية وللحديثِ الآخر: «لا ينكحُ الزاني المجلودُ إلا مثلَه»[٢].

وقال ابن جَرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا سُلَيمان بن حَرْبٍ، حَدَّثنا أبو هلال، عن قتادَةَ، عن الحَسَن قال: قال عُمَر بن الخطاب: «لقد هَمَمْتُ ألاَّ أدَعَ أحداً أصابَ فاحِشَةً في الإسلام أن يتزوَّجَ محصَنَةً». فقال له أُبيّ بن كعب: يا أميرَ المؤمنين، الشركُ أعظم من ذلك، وقد يقبَلُ منه إذا تاب[٣].

وسيأتي الكلامُ على هذه المسألة مستقصىً عند قوله: ﴿ الزاني لا ينكِحُ إلا زانيةً أو مُشرِكةً، والزانيةُ لا يَنكِحُها إلا زانٍ أو مشركٌ، وحُرِّم ذلك على المؤمنين ﴾[٤] ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حَبِطَ عملُه، وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ ﴾

قال كَثيرٌ من السَّلَفِ في قوله: ﴿ إذا قُمتم إلى الصلاة ﴾: معناه وأنتم مُحدِثون.

وقال آخرون: إذا قُمتم من النوم إلى الصلاة، وكلاهما قريبٌ.

وقال آخرون: بل المعنى أعمُّ من ذلك، فالآية آمرةٌ بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن في حَقِّ المُحدثِ على سبيل الإيجاب، وفي حَقِّ المتطهر على سبيل النَّدْبِ والاستحباب. وقد قيل: إنَّ الأمر بالوُضُوءِ لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرحمنِ، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مَرْثَدٍ، عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يتوضأُ عِنْدَ كُلِّ صلاةٍ، فلما كان يومُ الفَتْحِ تَوَضَّأَ ومسحَ على خُفَّيه،

(١) انظر تفسير الآية ٢٥ من سورة النساء.
(٢) سنن أبي داود، كتاب النكاح ٢/٢٢١، ومسند أحمد ٢/٣٢٤.
(٣) تفسير الطبري ٦/١٠٥.
(٤) الآية ٣ من سورة النور.

وصلى الصلوات بوضوء واحد. فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله؟ قال: «إني عمداً فَعَلتُه يا عُمَر»[(١)].

وهكذا رواه مُسلمٌ وأهل السُّنَن من حديث سفيانَ الثوريِّ، عن علقمة بن مَرْثَدٍ[(١)]. ووقع في سُنَنِ ابن ماجه، عن سفيان، عن مُحارِبِ بن دِثَارٍ ـ بدل علقمة بن مَرْثَدٍ ـ كلاهما عن سليمان بن بُرَيْدَةَ، به. وقال الترمذي: «حَسَنٌ صَحِيحٌ»[(١)].

وقال ابن جَرير: حدثنا محمد بن عَبَّاد بن موسى، أخبرنا زياد بن عبدالله بن الطُّفيل البكـائـي، حدثنا الفضل بن المُبَشِّر قال: رأيت جابر بن عبدالله يصلي الصلواتِ بُوضُوءٍ واحدٍ، فإذا بال أو أحدث، تَوَضَّأ ومَسَح بفَضْلِ طَهُورِهِ الخُفَّين. فقلت: يا أبا عبدالله، شيءٌ تصنعه برأيك؟ قال: بل رأيت النبي ـ ﷺ ـ يصنعه فأنا أصنعه، كما رأيت رسولَ الله يصنَعُ[(٢)].

وكذا رواه ابن ماجه، عن إسماعيل بن تَوْبة، عن زياد البكائي، به[(٢)].

وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان الأنصاري، عن عُبَيد الله بن عبدالله بن عُمَر قال: [قلت له]: أرأيت وُضوءَ عبدالله بن عُمَر لكل صلاة طاهراً أو غير طاهر، عمَّن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زَيد بن الخطاب أن عبدالله بن حَنْظَلَةَ الغسيل حَدَّثها، أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان أمر بالوضوء لكل صلاة، طاهراً كان أو غَيْرَ طاهر، فلما شقَّ ذلك على رسولِ الله ـ ﷺ ـ أمر بالسِّواك عند كل صلاة، وَوُضِعَ عنه الوُضوء، إلا من حَدَثٍ. فكان عبدالله يرى أن به قُوَّةً على ذلك، كان يفعله حتى مات[(٣)].

وكذا رواه أبو داود، عن محمد بن عوف الحمصي، عن أحمد بن خالد الذَّهبي، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن يحيى بن حَبَّانَ، عن عبدالله بن عبدالله بن عمر. ثم قال أبو داود: ورواه إبراهيم بن سعد، عن محمد بن إسحاق فقال: عُبَيد الله بن عبدالله بن عُمَر[(٣)]. يعني كما تقدم في رواية الإمام أحمد.

وأياً ما كان فهو إسنادٌ صَحِيحٌ، وقد صرَّح ابنُ إسحاق فيه بالتَّحديث والسماع من محمد بن يحيى بن حَبَّانَ، فزال محذُورُ التدليس. لكن قال الحافظ ابن عساكر: رواه سَلَمة بن الفضل وَعلي بن مجاهد، عن ابن إسحاقَ، عن محمد بن طلحةَ بن يزيدَ بن رُكَانة، عن محمد بن يحيى بن حَبَّان، به. والله أعلم، وفي فعل ابن عُمَر هذا، ومُداوَمَتِهِ على إسباغ الوضوء لكلِّ صلاة، دَلالةٌ على استحبابِ ذلك، كما هو مذهبُ الجمهورِ.

وقال ابن جَرير: حدثنا زكريا بنُ يحيى بنِ أبي زائدةَ، حدثنا أزهر، عن ابن عَونٍ، عن ابن سِيرينَ: أن الخلفاء كانوا يتوضَّؤون لكل صلاة[(٤)].

وقال ابن جَرير: حدثنا محمد بن المثنّى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبةَ، سمعت مسعود بن عَلِيٍّ الشيباني، سَمِعتُ عكرمة يقول: كان علي ـ رضي الله عنه ـ يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾[(٤)]... الآية.

---

(١) مسند أحمد ٥/٣٥٨، ومسلم، كتاب الطهارة ٢٣٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الطهارة ١/٧٩، وسنن ابن ماجه، كتاب الطهارة ١٧٠.
(٢) تفسير الطبري ٦/١١٢، وسنن ابن ماجه، كتاب الطهارة ١/١٧٠.
(٣) مسند أحمد ٥/٢٢٥، وسنن أبي داود ١/١٢ - ١٣.
(٤) تفسير الطبري ٦/١١٢.

وحدثنا ابن المثنى، حدثني وَهْبُ بن جَرير، أخبرنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسرة، عن النزَّال بن سَبْرَةَ قال: رأيتُ علياً صلى الظهر، ثم قعد للناس في الرَّحْبَةِ، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه، ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: هذا وضوء من لم يُحْدث.

وحَدَّثني يعقوبُ بن إبراهيم، حدثنا هُشَيم، عن مُغِيرَةَ، عن إبراهيم: أن علياً اكتال من حُبٍّ(١)، فتوضأ وُضوءاً فيه تَجَوُّزٌ فقال: هذا وُضوءُ من لم يُحْدِثْ. وهذه طرق جيدة عن علي يقوي بعضها بعضاً.

وقال ابن جَرير أيضاً: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عَديٍّ، عن حُمَيد، عن أنس قال: «توضأ عُمَر بن الخطاب وُضوءاً فيه تَجَوُّزٌ، خفيفاً، فقال: هذا وضوءُ من لم يُحدِث». وهذا إسناد صحيح.

وقال محمد بن سِيرينَ: كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة.

وأما ما رواه أبو داود الطيالسيُّ، عن أبي هلال، عن قتادَةَ، عن سعيد بن المسيِّب أنه قال: الوضوءُ من غير حَدَثٍ اعتداءٌ. فهو غريبٌ عن سَعِيد بن المسيِّب، ثم هو محمولٌ على أنَّ من اعتقدَ وُجُوبَه فهو مُعْتدٍ، وأما مشروعيته استحباباً فقد دلَّتِ السنةُ على ذلك. وقال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن عَمْرو بن عامرِ الأنصاري، سَمِعتُ أنس بن مالك يقول: «كان النبي ـ ﷺ ـ يتوضَّأُ عند كل صلاة، قال قلت: فأنتم كيفَ كنتُم تصنعونَ؟ قال: كنا نُصَلِّي الصلواتِ بوضوء واحد ما لم نُحدِثْ»(٢).

وقد رواه البخاريُّ وأهل السُّنَنِ من غير وَجْهٍ عن عَمْرو بن عامرٍ، به(٢).

وقال ابن جَرير: حدثني أبو سعيد البغدادي، حدثنا إسحاقُ بن منصورٍ، عن هُرَيم، عن عبد الرحمن بن زيادٍ، هو الأفريقي، عن أبي غُطَيف، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من توضأ على طُهْر كُتِب له عشر حسنات»(٣).

ورواه أيضاً من حديث عيسى بن يونُسَ، عن الأفريقي، عن أبي غُطَيف، عن ابن عمر، فذكره، وفيه قصة(٣). وهكذا رواه أبو داود، والترمذيّ، وابن ماجه من حديث الأفريقي، به نحوه. وقال الترمذي: وهو إسناد ضعيف(٣).

قال ابنُ جَرير: وقد قال قومٌ: إن هذه الآيةَ نزلَت إعلاماً من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة، دون غيرها من الأعمال، وذلك لأنه ـ عليه السلام ـ كان إذا أحدَثَ امتنَعَ من الأعمال كلها حتى يتوضأ.

حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن جابر، عن عبدالله بن أبي بكر بن عَمْرو بن حزم، عن عبدالله بن علقمة بن الفَغْواء، عن أبيه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أراق البول نُكَلِّمه فلا يُكَلِّمنا، ونسلم عليه فلا يَرُدُّ علينا، حتى نَزَلت آيةُ الرُّخصَةِ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ . . . الآية.

ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم، عن أبي كُرَيب، به نحوه. وهو حديثٌ غريب جداً، وجابر هذا هو ابن يزيد الجُعْفي، ضعفوه.

---

(١) الحبّ: الجرّة الكبيرة.

(٢) مسند أحمد ١٣٢/٣، وفتح الباري، كتاب الوضوء ٣١٥/١، وأخرجوه في كتاب الطهارة، سنن أبي داود ٤٤/١، وسنن النسائي ٨٥/١، وسنن ابن ماجه ١٧٠.

(٣) تفسير الطبري ١١٥/٦، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة ١٦/١، وعارضة الأحوذي، أبواب الطهارة ٧٨/١.

وقال أبو داود: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا إسماعيلُ، حدثنا أيوبُ، عن عبدالله بن أبي مُلَيكَةَ، عن عبدالله بن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج من الخلاء فقُدِّم إليه طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمتُ إلى الصلاة»[١].

وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع، والنسائي عن زياد بن أيوب، عن إسماعيل وهو ابن عُلَيَّة، به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن[١].

وروى مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيانَ بن عُيينة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن الحويرث، عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ـ ﷺ ـ فأتى الخلاء، ثم إنه رجع فأُتِيَ بطعام، فقيل: يا رسول الله، ألا تتوضَّأ؟ فقال: «لِمَ؟ أأصلّي فأتوضأ؟»[٢].

وقوله: ﴿فاغسِلُوا وجوهَكُم﴾ قد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ على وُجُوبِ النيَّةِ في الوضوء، لأن تقديرَ الكلام: «إذا قُمتُم إلى الصلاة فاغسِلُوا وجوهَكُم لها»، كما تقول العرب: «إذا رأيت الأمير فقم» أي: له. وقد ثبت في الصحيحين حديث: «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نَوى»[٣].

ويستحبُّ قبلَ غَسل الوجه أن يذكُر اسم الله تعالى على وُضُوئه، لما ورد في الحديث من طرق جَيِّدَة، عن جماعة من الصحابة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا وُضُوءَ لمن لم يذكُر اسم الله عليه»[٤].

ويستحبّ أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في الصَّحيحين عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا استيقظَ أحدُكم من نَومِه، فلا يُدْخِلْ يده في الإناءِ قبل أن يَغْسِلَها ثلاثاً؛ فإن أحدكم لا يدري أين باتَتْ يدُه؟»[٥].

وحَدُّ الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس ـ ولا اعتبار بالصَّلَع ولا بالغَمَم[٦] ـ إلى منتهى اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عَرْضاً، وفي النَّزَعتين[٧] والتَّحذيف خلاف، هل هما من الرأس أو الوجه، وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان، أحدهما: أنه يجب إفاضةُ الماءِ عليه لأنه تقع به المواجهة. ورُوِيَ في حديثٍ أن النبي ـ ﷺ ـ رأى رجلاً مُغَطِّياً لحيته، فقال: اكشِفْها، فإن اللحية من الوجه. وقال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام إذا نبتت لحيته: طلع وجهُه.

ويستحبُّ للمتوضىء أن يُخلِّل لحيته إذا كانت كَثَّةً، قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل، عن عامر بن شَقِيق بن جَمْرَة، عن أبي وائل قال: رأيت عثمان تَوَضَّأ ـ فذكر الحديث ـ قال: وخَلَّل اللحية ثلاثاً حين غَسَل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ فعل الذي رأيتموني فعلت.

---

(١) سنن أبي داود ٣/٣٤٥، وعارضة الأحوذي، أبواب الأطعمة ٨/٣٧، والنسائي، كتاب الطهارة ١/٨٥ ـ ٨٦.

(٢) مسلم، كتاب الطهارة ٢٨٣. وفي الأصل: «لم أصلِّ فأتوضأ»، والمثبت نصّ مسلم.

(٣) فتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/٩، ومسلم، كتاب الإمارة ١٥١٥ ـ ١٥١٦.

(٤) أخرجوه في كتاب الطهارة، سنن أبي داود ١/٢٥، وعارضة الأحوذي ١/٤٣، وابن ماجه ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٥) فتح الباري، كتاب الطهارة ١/٢٦٣، ومسلم، كتاب الطهارة ٨٧ ـ ٨٨.

(٦) الغَمَم: أن يسيل الشعر من الرأس في الوجه والقفا حتى تضيق الجبهة ويصغر القفا.

(٧) النَّزَع: انحسارُ مُقدَّم شعرِ الرأس عن جانبي الجَبْهَة، وموضعُه النَّزَعة. والتحذيف من الرأس: ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه، وهو القدرُ الذي يقع في جانب الوجه مهما وُضِعَ طرف خيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين.

رواه الترمذيُّ وابن ماجه، من حديث عبد الرزاق، وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صَحيح، وحَسَّنه البخاري[١].

وقال أبو داود: حدثنا أبو توبة الربيعُ بن نافع، حدثنا أبو المَلِيح، حدثنا الوليد بن زَوْرَانَ، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حَنَكه، يُخلِّل به لحيته، وقال: «هكذا أمرني به ربي عزّ وجلّ»[٢].

تَفَرَّدَ به أبو داودَ. وقد رُوِيَ هذا من غيرِ وجهٍ عن أنس. قال البيهقي: وروينا في تخليل اللحية عن عمار، وعائشة، وأم سَلَمة عن النبي ـ ﷺ ـ ثم عن علي وغيره، وروينا في الرخصة في تَرْكِهِ عن ابن عمر، والحسن بن علي، ثم عن النخَعِي، وجماعةٍ من التابعين.

وقد ثَبَتَ عن النبي ـ ﷺ ـ من غير وجه في الصحاح وغيرها: أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك: هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد بن حنبل، رحمه الله؟ أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي ومالك؟ لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن وصَحَّحه ابن خُزَيمة، عن رفاعة بن رافع الزُّرَقِيِّ: أن النبي ـ ﷺ ـ قال للمُسِيءِ في صلاته: «تَوَضَّأ كما أمَرَكَ الله». أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حَنِيفة؟ أو يجب الاستنشاق دون المضمضة، كما هو رواية عن الإمام أحمد، لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من توضأ فَلْيَسْتَنْثر»[٣] وفي رواية: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في مِنْخَرَيهِ من الماء ثم لِيَنْتَثِره»[٣] والانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة الخُزَاعي، حدثنا سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن عَطاء بن يسار، عن ابن عباس، أنه توضَّأ فَغَسل وجهه، ثم أخذ غَرْفَةً من ماء فَتَمَضْمَضَ بها واستَنْثَرَ، ثم أخذ غَرْفَةً فجعل بها هكذا، يعني أضافها إلى يَدِه الأخرى، فغسل بها وجهه. ثم أخذ غَرْفَةً من ماء فَغَسَلَ بها يدَه اليمنى، ثم أخذ غَرْفَةً من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غَرْفَةً من ماء، ثم رَشَّ على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غَرْفَةً أخرى فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ[٤]. يعني يتوضأ.

ورواه البخاري، عن محمد بن عبد الرحيم، عن أبي سَلَمة منصورِ بن سَلَمة الخُزَاعِيِّ، به[٤].

وقولهُ: ﴿ وأيديكم إلى المرافق ﴾ أي: مَعَ المرافق، كما قال تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حُوباً كبيراً ﴾.

وقد رَوَى الحافظُ الدارقُطْني وأبو بكر البَيْهَقِيُّ، من طريق القاسم بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عَقِيل، عن جَدِّه، عن جابر بن عبدالله قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا تَوَضَّأ أدار الماء على مِرْفَقَيهِ»[٥]. ولكن القاسم هذا متروك الحديث، وجدّه ضعيف، والله أعلم.

ويُستَحَبُّ للمتوضِّىء أن يشرعَ في العضد فَيغسِلَه مع ذراعيه؛ لما روى البخاريُّ ومسلم، من حديث نُعيمٍ المُجْمِرِ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أمتي يُدْعَونَ يوم القيامة غُرّاً مُحَجَّلِين من آثار

(١) أخرجاه في كتاب الطهارة، عارضة الأحوذي ٤٩/١، وابن ماجه ١٤٨، ولم نجده في مسند أحمد.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الطهارة ٣٦/١.
(٣) فتح الباري، كتاب الوضوء ٢٦٢/١، ٢٦٣. ومسلم، كتاب الطهارة ٢١٢ ـ ٢١٣.
(٤) مسند أحمد ٢٦٨/١، وفتح الباري، كتاب الوضوء ٢٤٠ ـ ٢٤١.
(٥) سنن الدارقطني، كتاب الطهارة ٨٣/١، وسنن البيهقي، كتاب الطهارة ٥٦/١.

الوُضُوءِ، فمن استطاع منكم أن يُطيلَ غُرّته فَلْيفعَلْ»(١).

وفي صحيح مسلم، عن قتيبة، عن خَلَفِ بن خَلِيفَةَ، عن أبي مالك الأشجعيِّ، عن أبي حازِمٍ، عن أبي هُرَيرة قال: سَمِعتُ خَلِيلي ـ ﷺ ـ يقول: «تبلغ الحِلْيَةُ من المؤمن حيثُ يبلغ الوضوء»(٢).

وقولهُ: ﴿ وامسَحُوا برءُوسكم ﴾ اختلفوا في هذه «الباء» هل هي للإلصاق ـ وهو الأظهر ـ أو للتبعيض ـ وفيه نظر ـ على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فَلْيُرجَع في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه: أن رجلاً قال لعبدالله بن زيد بن عاصم ـ وهو جَدُّ عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ: هل تستطيعُ أن تُرِيني كيفَ كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يتوضأ؟ فقال عبدالله بن زيد: نعم، فدعا بوَضُوءٍ، فأفرغَ على يديه، فَغَسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغَسَل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين ثم مَسَح بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدَّمِ رأسه ثم ذَهَب بهما إلى قفاه، ثم رَدَّهما حتى رَجَع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غَسَل رِجْلَيه(٣).

وفي حديث عبد خَيرٍ، عن عليٍّ في صفة وُضُوءِ رسول الله ـ ﷺ ـ نحو هذا. وروى أبو داود، عن معاوية والمقدام بن معديكرب، في صفة وضوء رسول الله ـ ﷺ ـ مثله(٤).

ففي هذا الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأسِ، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خَرَجت مَخْرَجَ البيانِ لما أُجمِلَ في القرآن.

وقد ذهب الحنفية إلى وُجُوبِ مسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية.

وذهب أصحابُنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسمُ مَسْحٍ، لا يتقدر ذلك بحدّ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه.

واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شُعبَةَ، قال: «تَخلَّفَ النبي ـ ﷺ ـ فتخلَّفتُ معه، فلما قَضَى حاجته قال: هل معك ماء؟ فأتيتُه بِمطهَرةٍ فغسَلَ كفَّيه ووجهَه، ثم ذهب يحسِرُ عن ذراعيه فضاق كُمُّ الجُبَّة، فأخرج يديه من تحت الجُبَّة وألقى الجُبَّة على مَنكِبَيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته، وعلى العمامة وعلى خُفَّيه...» وذكر باقي الحديث، وهو في صحيح(٥) مسلم، وغيره.

فقال لهم أصحابُ الإمام أحمدَ: إنما اقتصَرَ على مَسْح الناصِيَةِ لأنه كَمَّل مَسْحَ بقيَّةِ الرأس على العمامة. ونحنُ نقولُ بذلك، وأنه يقع عن الموقع كما وَرَدت بذلك أحاديثُ كثيرةٌ، وأنه كان يمسَحُ على العمامة وعلى الخُفَّين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالةٌ على جَوازِ الاقتصارِ على مَسْحِ الناصية أو بعض الرأس من غير تَكْمِيل على العمامة، والله أعلم.

ثم اختلفوا في أنه: هل يُستَحَبُّ تكرار مسح الرأسِ ثلاثاً، كما هو المشهورُ من مذهب الشافعيِّ. أو إنما

(١) فتح الباري، كتاب الوضوء ١/٢٣٥، ومسلم، كتاب الطهارة ٢١٦. الغُرَّة: بياضٌ في جبهة الفرس. والتحجيل: بياض في يديها ورجليها. والمعنى بيض مواضع الوضوء.

(٢) مسلم، كتاب الطهارة ٢١٩.

(٣) فتح الباري، كتاب الوضوء ١/٢٨٩، ومسلم، كتاب الطهارة ٢١٠ ـ ٢١١، والموطأ، كتاب الطهارة ١٨.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/٢٧، ٣٠، ٣١.

(٥) مسلم، كتاب الطهارة ٢٣٠.

يحسِرُ عن ذراعيه: يكشف كمّيه عن ذراعيه ليغسلهما.

يُستحَبُّ مسحةً واحدةً كما هو مذهب أحمد بن حَنبل ومن تابعه، على قولين، فقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن حُمْران بن أبان قال: رأيت عثمان بنَ عفان تَوضَّأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسَلَهما، ثم مَضْمَضَ واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قَدَمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله - ﷺ - توضَّأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: من توضَّأ نحو وُضوئي هذا ثم صَلَّى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نَفْسَه، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبِه»[١].

أخرجه البخاريُّ ومُسلِمٌ في الصَّحيحين، من طريق الزُّهريِّ به نحوَ هذا. وفي سُنَنِ أبي داودَ من رواية عبدالله بن عُبَيد الله بن أبي مُلَيكة، عن عُثمانَ في صِفَة الوُضوءِ: «ومَسَحَ برأسِه مَرَّةً واحدةً»[٢]. وكذا من رواية عبد خَيرٍ، عن علي مثله.

واحتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صَحِيحه، عن عثمان - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - توضأ ثلاثاً ثلاثاً»[٣].

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا الضحاك بن مَخْلَدٍ، حدثنا عبد الرحمن بن وَرْدَانَ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، حدثني حُمران قال: «رأيت عثمان بن عفان تَوضَّأ. . .»، فذكر نحوه، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق، قال فيه: «ثم مسح رأسه ثلاثاً، ثم غسل رِجْليه ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول الله - ﷺ - تَوَضَّأ هكذا» وقال: «من تَوضَّأ دون هذا كَفَاه»[٤].

تفرد به أبو داود، ثم قال: وأحاديثُ عثمانَ الصِّحاحُ تدلُّ على أنه مَسَح الرأسَ مَرَّةً واحدةً[٤].

وقولهُ: ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾، قُرِىء ﴿ وأرجلَكم ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا وُهَيب، عن خَالد، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس: أنه قرأها ﴿ وأرجلَكم ﴾ يقول: رجعت إلى الغسل.

ورُوِي عن عبدالله بن مسعود، وعُروَةَ، وعطاء، وعِكْرِمَةَ، والحسن، ومجاهد، وإبراهيم، والضحاك، والسدّيّ، ومقاتلِ بن حَيَّانَ، والزُّهريِّ، وإبراهيم التيميِّ نحوَ ذلك.

وهذه قراءةٌ ظاهرةٌ في وجوب الغَسْلِ، كما قاله السلف، ومن هاهنا ذَهَب من ذَهَب إلى وجوب الترتيب، كما هو مذهبُ الجمهورِ، خلافاً لأبي حنيفةَ حيث لم يشترط الترتيبَ، بل لو غسل قَدَميه ثم مَسَح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك، لأن الآية أمرت بغَسْلِ هذه الأعضاء، و«الواو» لا تدلّ على الترتيب.

وقد سلك الجمهورُ في الجواب عن هذا البحث طُرُقاً، فمنهم من قال: الآيةُ دلَّت على وُجُوبِ غسل الوجه ابتداءً عند القيام إلى الصلاة، لأنه مأمورٌ به بفاءِ التعقيب، وهي مقتضيةٌ للترتيب، ولم يقل أحدٌ من الناس بوُجُوبِ غسل الوجه أولاً، ثم لا يجب الترتيب بعده. بل القائل اثنان، أحدهما: يوجب الترتيب، كما هو واقع

(١) مسند أحمد ١/٥٩.
(٢) فتح الباري، كتاب الوضوء ١/٢٥٩، ومسلم، كتاب الطهارة ٢٠٥، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/٢٦ - ٢٧.
(٣) مسلم، كتاب الطهارة ٢٠٧.
(٤) سنن أبي داود ١/٢٦ - ٢٧.

في الآية. والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع، حيث لا فارقَ.

ومنهم من قال: لا نُسلِّم أنَّ «الواو» لا تدلّ على الترتيب، بل هي دالَّةٌ كما هو مذهبُ طائفةٍ من النحاة وأهلِ اللغة وبعضِ الفقهاء. ثم نقول: بتقدير تسليم كونها لا تَدُلّ على الترتيب اللغوي: هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتَّب، والدليل على ذلك أنه ـ ﷺ ـ لما طاف بالبيت، خَرَجَ من باب الصَّفا وهو يَتلُو قولَه تعالى: ﴿ إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ثم قال: «أَبدأُ بما بدأ الله به» لفظُ مسلم [(١)]، ولفظُ النَّسائيِّ: «ابدءَوا بما بَدَأ الله به» وهذا لفظ أمرٍ، وإسنادهُ صحيح، فدل على وجوب البَدَاءَة بما بَدَأ الله به، وهو معنى كونها تدلُّ على الترتيب شَرْعاً، والله أعلم.

ومنهم من قال: لما ذَكَر تعالى هذه الصِّفَةَ في هذه الآية على هذا الترتيبِ، فَقَطع النَّظِيرَ عن النَّظِير، وأدخل الممسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب.

ومنهم من قال: لا شَكَّ أنه قد رُوِي عن أبو داودَ وغيرِهِ من طريق عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ توضأ مَرَّةً مَرَّةً، ثم قال: هذا وضوءٌ لا يقبل الله الصلاةَ إلا به»[(٢)]. قالوا: فلا يخلو إما أن يكون توضأ مرتَّباً فيجبُ الترتيبُ، أو يكون توضأ غير مرتَّب فيجب عدمُ الترتيب، ولا قائل به، فوجب ما ذكره.

وأما القراءةُ الأخرى، وهي قراءة من قرأ ﴿ وأَرْجُلِكم ﴾ بالخفض. فقد احتجَّ بها الشيعة في قولهم بوجُوب مسح الرجلين، لأنها عندهم معطوفة على مَسْحِ الرأس. وقد رُوي عن طائفة من السَّلَفِ ما يوهم القول بالمسح، فقال ابن جرير:

حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، حدثنا حُمَيد قال: قال موسى بن أنس لأنس ونحنُ عنده: يا أبا حمزةَ، إن الحجاج خَطَبَنا بالأهواز ونحنُ معه، فذكر الطُّهُور فقال: «اغسلوا وُجوهَكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلِكم، وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خَبَثِه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما». فقال أنس: صدق الله وكذَب الحجاج، قال الله: ﴿ وامسحوا برءُوسكم وأرجُلِكم ﴾. قال: وكان أنس إذا مَسَح قدميه بَلَّهما»[(٣)]. إسناد صحيح إليه.

وقال ابن جَرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا مُؤمَّل، حدثنا حَمَّاد، حدثنا عاصم الأحولِ، عن أنس قال: «نزل القرآن بالمَسْحِ، والسنةُ الغسلُ»[(٣)]. وهذا أيضاً إسناد صحيح.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا محمد بن مُيَسَّر الصاغاني[(٤)]، عن ابن جُرَيج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «الوضوء غَسْلَتان ومَسْحَتان».

وكذا روى سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادَةَ.

---

(١) مسلم، كتاب الحج ٨٨٨.

(٢) الذي وقع لنا من هذه الطريق في سنن أبي داود، كتاب الطهارة ٣٣/١: «هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم». فأما متن الحديث المذكور ففي سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة ١٤٥، من رواية معاوية بن قرة عن ابن عمر.

(٣) تفسير الطبري ١٢٨/٦.

(٤) في أصلنا: «محمد بن ميسّر»، وتكملة ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٠٥/٨، قال: «محمد بن ميسّر، أبو سعد الصاغاني»، وقال: روى عن ابن جُرَيج. والذي في تفسير الطبري ١٢٨/٦: محمد بن قيس الخراساني، وكذا أثبته الأستاذ محمود شاكر في نشرته ٥٨/١٠ وقال: «محمد بن قيس الخراساني، لم أجد له ذكراً، ولم أعرف من يكون، وعسى أن يكون محرّفاً».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو مَعْمَر المِنْقَرِيُّ، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا علي بن زيد، عن يوسف بن مِهران، عن ابن عباس: ﴿ وامسحوا برءُوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ قال: «هو المسحُ». ثم قال: ورُوِي عن ابن عُمَر، وعلقمة، وأبي جعفر محمد بن علي، والحسن ـ في إحدى الروايات ـ وجابر بن زيد، ومجاهد ـ في إحدى الروايات ـ نَحوُه.

وقال ابن جَرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا أيوب، قال: رأيت عكرمة يمسح على رجليه، قال: وكان يقوله.

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابنُ إدريسَ، عن داود بن أبي هند، عن الشعبيِّ قال: نزل جبريل بالمسح. ثم قال الشعبي: ألا ترى أن التيمُّمَ أنْ يُمسَحَ ما كان غَسْلاً، ويُلْغَى ما كان مَسْحاً(١).

وحدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيدُ، أخبرنا إسماعيلُ، قلت لعامرٍ: إن ناساً يقولون: إن جبريلَ نزل بغسل الرجلين؟ فقال: نزل جبريل بالمسح(١).

فهذه آثارٌ غريبةٌ جداً، وهي محمولةٌ على أن المرادَ بالمسحِ هو الغسلُ الخفيف، لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين. وإنما جاءت هذه القراءةُ بالخفض إما على المجاوَرة وتناسب الكلام، كما في قول العرب: «جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ» وكقوله تعالى: ﴿ عاليهم ثيابُ سُندُسٍ خضرٍ وإستبرقٍ ﴾ وهذا سائغ ذائع، في لغة العرب شائع.

ومنهم من قال: هي محمولة على مَسْحِ القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله أبو عبدالله الشافعي رحمه الله.

ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين، ولكن المرادَ بذلك الغسلُ الخفيف، كما وردت به السنة.

وعلى كل تقدير فالواجب غسلُ الرجلين فرضاً لا بدَّ منه للآية والأحاديث التي سَنُورِدُها، ومِن أحسَنِ ما يُستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي، حيث قال:

أخبرنا أبو علي الرُّوذْباريُّ، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن مَحمُويه العسكري، حدثنا جعفر بن محمد القَلانِسيُّ، حدثنا آدمُ، حدثنا شُعبَةُ، حدثنا عبد الملك بن مَيْسرة، سمعت النَّزّال بن سَبْرَة يُحدِّث عن علي بن أبي طالب: أنه صلى الظهر، ثم قَعَد في حوائج الناس في رَحَبَةِ الكوفة حتى حَضَرت صلاةُ العصر، ثم أُتِيَ بكوزٍ من ماء، فأخذ منه حفنةً واحدة، فمسح بها وَجْهه ويدَيه ورأسَه ورجليه، ثم قام فَشَرِب فضله وهو قائم، ثم قال: «إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رَسُول الله صَنَع ما صنعتُ. وقال: هذا وَضوءُ من لم يُحْدِثْ»(٢).

رواه البخاري في الصحيح، عن آدم، ببعض معناه(٢).

ومن أوجب من الشيعة مَسْحَهما كما يُمسَحُ الخفُّ، فقد ضلَّ وأضلَّ. وكذا من جَوَّز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غَسْلَهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية، فلم يحقق مَذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يَجِبُ دَلْكُ الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوءِ، لأنهما يليان الأرضَ والطينَ وغير ذلك، فأوجب دَلْكَهما ليذهبَ ما عليهما، ولكنه عَبَّر عن الدلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوبَ الجَمْع بين غَسْلِ الرجلين ومَسْحِهما، فحكاه من

---

(١) تفسير الطبري ٦/١٢٩.

(٢) سنن البيهقي، كتاب الطهارة ١/٧٥. وفتح الباري، كتاب الأشربة ١٠/٨١.

حكاه كذلك، ولهذا يَسْتَشْكِله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المَسْح والغَسْلِ سواء تقدّمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه، وإنما أراد الرجلُ ما ذكرتُه، والله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين، في قوله: ﴿ وأرجلكم ﴾ خفضاً على المسح وهو الدَّلْك، ونصباً على الغَسْلِ، فأوجبهما أخْذاً بالجمع بين هذه وهذه.

ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في غَسْلِ الرِّجلين وأنه لا بُدَّ منه:

قد تَقَدَّم في حديث أميرَي المؤمنين عثمان وعليٍّ، وابن عباس ومعاوِيَةَ، وعبدالله بن زيد بن عاصم، والمقداد بن معديكرب: أن رسول الله ـ ﷺ ـ غسل الرجلين في وُضُوئه إما مرّةً، وإما مرَّتين، أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم.

وفي حديث عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ تَوَضَّأ فَغَسَل قدميه، ثم قال: «هذا وضوءٌ لا يقبل الله الصلاة إلا به».

وفي الصحيحين، من رواية أبي عَوَانة، عن أبي بشر، عن يوسف بن مَاهَكَ، عن عبدالله بن عَمْرٍو قال: تَخلَّفَ عنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ في سَفْرَةٍ سافرناها، فأدركَنا وقد أرْهَقَتْنا الصلاةُ صلاةُ العَصْر ونحن نتوضّأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «أسبِغُوا الوُضُوء، ويل للأعقاب من النار»[١].

وكذلك هو في الصَّحِيحَين عن أبي هُرَيرة[٢]. وفي صحيح مسلم، عن عائشة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «أسبِغُوا الوضوء ويل للأعقاب من النار»[٣].

ورَوَى الليثُ بن سَعْدٍ، عن حَيْوَةَ بن شُرَيح، عن عُقبة بن مسلم، عن عبدالله بن الحارث بن جَزْءٍ أنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ويلٌ للأعقابِ وبُطونِ الأقدامِ من النار». رواه البيهقي والحاكم، وهذا إسناد صحيح[٤].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا محمدُ بن جعفرٍ، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق أنه سَمِعَ سَعِيد بن أبي كَرِب ـ أو شُعَيبَ بـن أبي كَرِب ـ قال: سمعتُ جابر بن عبدالله وهو على جَمَلٍ يقول: سَمِعْتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ويل للعراقيب من النار»[٥].

وحدثنا أسودُ بن عامر، أخبرنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن سَعِيدِ بن أبي كَرِب، عن جابر بن عبدالله قال: «رَأى النبي ـ ﷺ ـ في رِجْلِ رَجُلٍ منا مثْلَ الدِّرهم لم يَغْسِلْه، فقال: «ويلٌ للعَقِب من النار»[٦].

ورواه ابنُ ماجه، عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن الأَحْوَصِ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد، به نحوه[٧]. وكذا رواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج، وغير واحد، عن أبي إسحاق السَّبِيعي، عن سعيد بن أبي كَرِب، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ مثله[٧]. ثم قال:

---

(١) فتح الباري، كتاب الوضوء ١/٢٦٥، ومسلم، كتاب الطهارة ٢١٤. أرهقتنا: أدركتنا.

(٢) فتح الباري، كتاب الوضوء ١/٢٦٧، ومسلم، كتاب الطهارة ٢١٥.

(٣) مسلم، كتاب الطهارة ٢١٤.

(٤) المستدرك، كتاب الطهارة ١/١٦٢.

(٥) مسند أحمد ٣/٣٦٩.

(٦) مسند أحمد ٣/٣٩٠.

(٧) سُنَن ابن ماجه، كتاب الطهارة ١٥٥، وتفسير الطبري ٦/١٣٢ ـ ١٣٣.

حدثنا علي بن مسلم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا حفص، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى قوماً يتوضَّئُونَ، لم يُصِبْ أعقابَهم الماءُ، فقال: ويلٌ للعراقيب من النار»[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا خَلَفُ بن الوليد، حدثنا أيوب بن عُتْبَةَ، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمَةَ، عن مُعَيقِيب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ويلٌ للأعقابِ من النار». تفرَّد به أحمدُ[٢].

وقال ابن جرير: حدثني عليُّ بن عبد الأعلى، حدثنا المُحارِبي، عن مُطَرِّح بن يزيد، عن عبيد الله بن زَحْرٍ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ويل للأعقاب من النار. ويل للأعقابِ من النار. قال: فما بَقِي في المسجد شَرِيفٌ ولا وَضِيعٌ، إلا نظرت إليه، يُقلِّب عُرْقوبيه، ينظرُ إليهما»[٣].

وحدثنا أبو كريب، حدثنا حُسين، عن زائدةَ، عن ليثٍ، حدثني عبد الرحمن بن سابط، عن أبي أمامةَ ـ أو عن أخي أبي أمامة ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أبصر قوماً يتوضَّئُون وفي عَقِب أحدهم ـ أو كَعْبِ أحدهم ـ مثلُ موضع الدرهم ـ أو: موضعُ الظفر ـ لم يَمَسَّه الماء، فقال: «ويل للأعقاب من النار». قال: فجعل الرجلُ إذا رأى في عَقِبه شيئاً لم يُصِبه الماءُ أعاد وضوءه[٣].

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فَرْضُ الرِّجلين مَسْحَهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما تَوَعَّد على تركه، لأن المسح لا يَسْتوعب جميعَ الرِّجْلِ، بل يجري فيه ما يجري في مَسح الخف، وهكذا وَجَّه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جَرير، رحمه الله.

وقد روى مسلم في صحيحه، من طريق أبي الزبير، عن جابر، عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً توضأ فَتَرك موضع ظُفُر على قَدَمه، فأبصره النبي ـ ﷺ ـ فقال: «ارجعْ فأحسِنْ وُضُوءَك»[٤].

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق الصاغاني، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثنا جَرير بن حازم: أنه سمع قتادةَ بن دِعامة قال: حدثنا أنس بن مالك أن رجلاً جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ قد تَوَضَّأ، وترك على قَدَمِه مثل موضع الظُّفُرِ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «ارجع فأحسن وضوءك»[٥].

وهكذا رواه أبو دَاود عن هارونَ بن معروف، وابنُ ماجه عن حَرملَةَ بن يحيى، كلاهما عن ابن وَهب، به[٦]. وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، لكن قال أبو داود: ليس هذا الحديثُ بمعروف، لم يَرْوِهِ إلا ابنُ وهب.

وَحَدَّثنا موسى بنُ إسماعيلَ، حدثنا حَمَّادُ، أخبرنا يُونُس وحُمَيد، عن الحسن: «أن رسول الله ﷺ . . . بمعنى حديث قتادة»[٧].

---

(١) سُنَن ابن ماجه، كتاب الطهارة ١٥٥، وتفسير الطبري ٦/١٣٢ ـ ١٣٣.
(٢) مسند أحمد ٣/٤٢٦.
(٣) تفسير الطبري ٦/١٣٤.
(٤) مسلم، كتاب الطهارة ٢١٥.
(٥) سنن البيهقي، كتاب الطهارة ١/٧٠.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/٤٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الطهارة ٢١٨.
(٧) سنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/٤٥.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا بقية، حدثني بَحِير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن بعض أزواج[(١)] النبي - ﷺ - أن رسول الله - ﷺ - رأى رجلاً يُصَلِّي وفي ظَهْرِ قَدَمِه لُمْعَةٌ قدرُ الدِّرهم لم يُصِبها الماء، فأمره رسول الله - ﷺ - أن يعيد الوضوء»[(٢)].

ورواه أبو داود من حديث بقية، وزاد: «والصلاة»[(٢)]. وهذا إسناد جيد قويٌّ صحيحٌ، والله أعلم.

وفي حديث حُمْران، عن عثمان، في صِفَة وضوء النبي - ﷺ -: «أنه خَلَّل بين أصابعه».

وروى أهل السنن من حديث إسماعيل بن كثير، عن عاصم بن لَقِيط بن صَبِرَةَ، عن أبيه قال، قلت: يا رسولَ الله، أخبرني عن الوضوء. فقال: «أسبغ الوضوءَ، وخَلِّلْ بين الأصابعِ، وبالِغْ في الاستنشاقِ إلا أن تكون صائماً»[(٣)].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدالله بن يزيدَ أبو عبد الرحمن المقرئُ، حدثنا عِكْرِمَةُ بن عَمّار، حدثنا شَدّاد بن عبدالله الدِّمشقي قال: قال أبو أمامة: حدثنا عَمْرو بن عَبَسَةَ قال، قلت: «يا نَبِيَّ الله، أخبِرْني عن الوضوء. قال: «ما منكم من أحد يقرب وضوءَه، ثم يتمضمض ويستنشِقُ وينتثر، إلا خَرَّت خطاياه من فمه وخَيَاشيمه مع الماء حين يَنْتَثِرُ، ثم يغسل وجهه كما أَمَره الله إلا خَرَّت خطايا وجهه من أطرافِ لحيته مع الماء، ثم يغسِلُ يديه إلى المرفقين، إلا خَرَّت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح رأسه، إلا خَرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله، إلا خَرَّت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقومُ فيحمد الله ويُثْنِي عليه بالذي هو له أهلٌ، ثم يركَع ركعتين إلا خَرَج من ذُنُوبه كيوم وَلَدَتْه أُمُّه. قال أبو أمامة: يا عَمْرو، انظر ما تقول. سَمِعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ أيعطى هذا الرجلُ كلَّه في مَقامه؟ فقال عمرو بن عَبَسَةَ: يا أبا أُمَامة، لقد كَبِرت سني، وَرَقَّ عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذِب على الله، وعلى رسولِ الله ﷺ، لو لم أسمعه من رسول الله - ﷺ - إلا مَرَّة أو مَرَّتين أو ثلاثاً، لقد سَمِعتُه سبعَ مراتٍ أو أكثرَ من ذلك[(٤)].

وهذا إسنادٌ صَحِيحٌ، وهو في صحيحِ مسلم من وَجْهٍ آخَرَ، وفيه: «ثم يغسِلُ قَدَميه كما أمره الله»[(٤)]. فدلَّ على أن القرآن يأمر بالغسل.

وهكذا روى أبو إسحاق السَّبِيعي، عن الحارث، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: «اغسِلُوا القَدَمين إلى الكعبين كما أُمِرْتم»[(٥)].

ومن هاهنا يَتَّضح لك المراد من حديث «عبد خَير» عن علي: أن رسول الله - ﷺ - رَشَّ على قدميه الماء وهما في النعلين فَدَلَكهما. إنما أراد غَسْلاً خفيفاً وهما في النعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها، ولكن في هذا رَدٌّ على المتعمقين والمتنطعين من المُوَسْوِسِينَ.

وهكذا الحديثُ الذي أورَدَه ابنُ جرير على نفسه، وهو من روايته، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن

(١) في سنن أبي داود، ومسند أحمد: «عن بعض أصحاب».
(٢) مسند أحمد ٤٢٤/٣، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة ٤٥/١.
(٣) سنن أبي داود، كتاب الطهارة ٣٥/١، وعارضة الأحوذي، أبواب الصوم ٣١٢/٣، وابن ماجه، كتاب الطهارة ١٥٣.
(٤) مسند أحمد ١١٢/٤، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٥٧٠ - ٥٧١.
(٢) تفسير الطبري ١٢٨/٦.

حذيفة قال: «أتى رسول الله ـ ﷺ ـ سُبَاطَة[1] قوم، فبال عليها قائماً، ثم دعا بماء فتوضأ، ومَسَح على نعليه»[2]. وهو حديث صحيح[3]. وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقاتِ الحفاظ رَوَوه عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حُذَيفة قال: «فبال قائماً، ثم توضأ ومسح على خُفَّيه»[4].

قلت: ويحتمل الجمع بينهما بأن يكونَ في رجليه خُفَّان، وعليهما نعلان.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمدُ بن حَنبل: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثني يَعْلَى، عن أبيه، عن أوْسٍ بن أبي أوْسٍ قال: «رأيت رسولَ الله ـ ﷺ ـ توضأ ومسح على نعليه، ثم قام إلى الصلاة»[5].

وقد رواه أبو داود عن مسدد وعباد بن موسى كلاهما، عن هُشَيم، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن أوس ابن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ أتى سُبَاطَةَ قوم فبال، وتوضأ ومَسَح على نعليه وقدميه[6].

وقد رواه ابن جرير من طريق شعبة، ومن طريق هُشَيم، ثم قال: وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير مُحدِث[7]؛ إذ كان غير جائزٍ أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافيةً متعارضةً، وقد صَحَّ عنه ـ ﷺ ـ الأمرُ بعموم غَسل القدمين في الوضوء بالماء، بالنقل المستفيض القاطع عُذْرَ من انتهى إليه وبَلَغه.

ولما كان القرآنُ آمراً بغَسْلِ الرجلين كما في قراءة النصب ـ وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها ـ توهم بعضُ السلف أن هذه الآية ناسخةٌ لرخصة المسح على الخفين، وقد رُوي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن لم يصح إسنادهُ، ثم الثابت عنه خلافهُ، وليس كما زَعَموه، فإنه قد ثبت أن النبي ـ ﷺ ـ مَسَحَ على الخفَّين بعد نزول هذه الآية الكريمة.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبدالله بن عُلَاثة، عن عبد الكريم بن مالك الجَزَري، عن مجاهد، عن جَرِير بن عبدالله البَجَلي قال: «أنا أسلمتُ بعد نزول المائدة، وأنا رأيتِ رسول الله ـ ﷺ ـ يمسَحُ بعدما أسلمتُ» تفرد به أحمد[7].

وفي الصحيحين، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن هَمَّام قال: «بال جريرٌ، ثم توضَّأ ومَسَح على خُفَّيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ بال، ثم توضَّأ ومسحَ على خُفَّيه. قال الأعمش: قال إبراهيم: فكان يُعجِبهم هذا الحديثُ، لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة» لفظ مسلم[8].

وقد ثَبَت بالتواتر عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ مشروعيةُ المَسْحِ على الخُفَّين قولاً منه وفِعْلاً، كما هو مقرَّرٌ في كتاب «الأحكام الكبير»، وما يحتاج إلى ذكره هناك، من تأقيت المسح أو عدمه أو التَّفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه. وقد خالفت الروافضُ ذلك كُلَّه بلا مستنَدٍ، بل بجهلٍ وضلالٍ، مع أنه ثابت في صحيح مسلم،

---

(١) السُّبَاطة: الموضع الذي يرمى فيه التراب والأوساخ وما يكنس من المنازل.
(٢) تفسير الطبري ٦/١٣٤.
(٣) فتح الباري، كتاب الوضوء ١/٣٢٨، ومسلم، كتاب الطهارة ٢٢٨.
(٤) تفسير الطبري ٦/١٣٥.
(٥) مسند أحمد ٤/٨، وفي المسند: «يعلى بن أبيه»، مكان: «يعلى عن أبيه». وهو خطأ، فيعلى هو ابن عطاء.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/٤١.
(٧) مسند أحمد ٤/٣٦٣.
(٨) فتح الباري، كتاب الصلاة ١/٤٩٤، ومسلم، كتاب الطهارة ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١]. كما ثَبَت في الصحيحين عنه، عن النبي - ﷺ - النهي عن نِكاح المُتعةِ وهم يَستَبيحونَها[٢]. وكذلك هذه الآيةُ الكريمةُ دالَّةٌ على وجوب غَسْلِ الرجلين، مع ما ثَبَت بالتواتر من فِعْلِ رَسُولِ الله - ﷺ - على وَفْقِ ما دلَّت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كُلِّه، وليس لهم دليلٌ صحيحٌ في نفس الأمر، ولله الحمد.

وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كلِّ رِجْلٍ كعب، وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم. قال الربيع: قال الشافعي: «لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتئان، وهما مَجْمَعُ مَفْصِلِ الساقِ والقدم»، هذا لفظه فعند الأئمة - رحمهم الله - في كل قَدَمٍ كعبان كما هو المعروف عند الناس، وكما دَلَّت عليه السنة، ففي الصحيحين من طريق حُمْرانَ عن عثمان: «أنه تَوَضَّأَ فَغَسَلَ رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مِثْلَ ذلك»[٣].

ورَوَى البخاري تَعْليقاً مجزوماً به، وأبو داود[٤]، وابنُ خُزَيمة في صَحِيحه، من رواية أبي القاسم الحُسَين ابن الحارث الجَدَلِي، عن النعمان بن بَشِير قال: «أقبل علينا رسول الله - ﷺ - بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لَتُقِيمُنَّ صفوفكم أو ليخالِفَنَّ الله بين قلوبكم». قال: فرأيت الرجل يُلْزِق كَعْبَه بكَعْبِ صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومَنْكِبه بمَنْكِبِه». لفظُ ابنِ خُزَيمَةَ.

فليس يمكن أن يُلزِقَ كعبَه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظمُ الناتىءُ في الساق، حتى يحاذِي كعبَ الآخَرِ، فدلَّ ذلك على ما ذكرناه، من أنهما العظمان الناتئان عند مَفْصِل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة.

وقد قال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي، حدثنا إسماعيلُ بن موسى، أخبرنا شَريك، عن يحيى بن عبدالله ابن الحارث التيمي - يعني الجابرَ - قال: نظرت في قتلي أصحاب زَيدٍ، فوجدت الكَعبَ فوق ظهر القَدَم، وهذه عُقُوبة عُوقِب بها الشيعة بعد قتلهم، تنكيلاً بهم في مخالفتهم الحق وإصرارهم عليه.

وقوله: ﴿ وإن كنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء، فلم تجدوا ماء، فَتيمَّموا صعيداً طيباً، فامسحُوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾. كل ذلك قد تَقَدَّم الكلام عليه في تفسير آية النساء[٥]، فلا حاجة بنا إلى إعادته، لئلا يطول الكلامُ. وذكرنا سبب نزول آية التيمُّم هناك، لكن البخاري روى هاهنا حديثاً خاصّاً بهذه الآية الكريمة، فقال:

حدثنا يحيى بن سُلَيمان، حدثنا ابن وَهْب، أخبرني عَمْرو بن الحارث، أن عبدَ الرحمن بن القاسم حَدَّثه، عن أبيه، عن عائشة: سقطت قلادةٌ لي بالبيداءِ، ونحن داخلونَ المدينة، فأناخَ رسولُ الله - ﷺ - ونزل، فَثنى رأسه في حَجْري راقداً، أقبل أبو بكر فَلَكَزَني لَكْزَةً شديدةً، وقال: حَبَسْتِ الناسَ في قلادة؟! فَبِيَ الموتُ لمكان رسول الله ﷺ، وقد أوجعني، ثم إن النبي - ﷺ - استيقظَ وحَضَرَتِ الصبحُ، فالتُمِسَ الماءُ فلم

(١) مسلم، كتاب الطهارة ٢٣٢.
(٢) أخرجاه في كتاب النكاح، فتح الباري ١٦٦/٩ - ١٦٧، ومسلم ١٠٢٦.
(٣) فتح الباري، كتاب الصيام ١٥٨/٤، ومسلم، كتاب الطهارة ٢٠٤ - ٢٠٥.
(٤) فتح الباري، كتاب الأذان ٢١١/٢، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١٧٨/١.
(٥) انظر تفسير الآية ٤٣ من سورة النساء.

يُوجَدْ، فنزلت: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قُمتُم إلى الصلاة فاغسِلُوا وجوهَكُم ﴾ هذه الآية، فقال أُسَيْدُ بن الحُضَير: لقد باركَ الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بَرَكَةٌ لهم[١].

وقولهُ: ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حَرَج ﴾، أي: فلهذا سَهَّل عليكم ويَسَّر ولم يُعَسِّر، بل أباح التيمُّم عند المرض، وعند فَقْد الماء، توسِعةً عليكم ورحمةً بكم، وجَعَله في حق من شُرِعَ له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه، كما تَقَدَّم بيانُه، وكما هو مُقَرَّرٌ في كتابِ «الأحكامِ الكبير».

وقولهُ: ﴿ ولكن يُريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾، أي: لعلكم تشكرون نِعَمَه عليكم فيما شَرَعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة.

وقد وردت السنة بالحث على الـدعـاء عَقِب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومُسلم وأهل السنن، عن عُقبة بن عامر قال: كانت علينا رعايةُ الإبل، فجاءت نوبتي فَرَوَّحتُها بعَشيٍّ، فأدركت رسولَ الله ـ ﷺ ـ قائماً يُحدِّثُ الناس، فأدركت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيُحسِنُ وُضُوءه، ثم يقوم فيصلِّي ركعتين مُقْبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وَجَبت له الجنةُ. قال قلت: ما أجودَ هذه! فإذا قائل بين يديَّ يقول: التي قَبْلَها أجودُ منها. فنظرتُ فإذا عُمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: إني قد رأيتك جئت آنِفاً، قال: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ فَيُبْلِغ ـ أو: فَيُسْبِغ ـ الوضوءَ، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدهُ ورسولهُ، إلا فُتِحَت له أبوابُ الجنةِ الثمانيةُ، يدخلُ من أيِّها شاءَ». لفظ مسلم[٢].

وقال مالك، عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُريرَة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا تَوَضَّأ العبدُ المسلِمُ ـ أو: المؤمن ـ فَغَسل وَجْهَه، خَرَج من وجهه كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينيه مع الماء ـ أو: مع آخرِ قَطْر الماء ـ فإذا غَسَل يديه خَرَج من يديه كلُّ خطيئةٍ بَطَشَتها يداه مع الماء ـ أو: مع آخر قَطْر الماء ـ فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو: مع آخر قطر الماء ـ حتى يخرج نَقِيّاً من الذنوب»[٣].

رواه مسلم عن أبي الطاهر، عن ابن وَهْب، عن مالك، به[٣].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سُفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن كعب بن مُرَّة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من رجلٍ يتوضأ فيغسِلُ يَدَيه: أو ذِرَاعَيهُ ـ إلا خرجت خطاياه منهما، فإذا غَسَل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، فإذا مَسَح رأسه خرجت خطاياه من رأسه، فإذا غَسَل رجليه خرجت خطاياه من رجليه»[٤].

هذا لفظه، وقد رواه الإمام أحمد، عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن مُرَّةَ بن كعب أو كعب بن مُرَّة السُّلَمِيِّ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «وإذا توضأ العبد فَغَسل يديـه خرجت خطاياه من بين يديه، وإذا غَسَل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، وإذا غَسَل ذراعيه خَرَجت خطاياه من ذِرَاعَيْه، وإذا غَسَل رجليه خَرَجت خطاياه من رجليه». قال شعبة: «ولم يذكر مسح الرأس» وهذا إسناد صحيح[٥].

وروى ابنُ جَرير من طريق شِمْرِ بن عطية، عن شَهْر بن حَوْشبٍ، عن أبي أمامة قال: قال رسول

(١) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٢٧٢/٨.
(٢) مسلم، كتاب الطهارة ٢٠٩ ـ ٢١٠، ومسند أحمد ١٤٥/٤ ـ ١٤٦. وآنفاً: قريباً.
(٣) الموطأ، كتاب الطهارة ٣٢/١، ومسلم، كتاب الطهارة ٢١٥.
(٤) تفسير الطبري ١٣٨/٦.
(٥) مسند أحمد ٢٣٤/٤ ـ ٢٣٥.

الله ـ ﷺ ـ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، خرجت ذنوبُه من سَمْعِه وبَصَرِه ويديه ورجليه»[١].

وروى مسلم في صحيحه، من حديث يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سَلَّام، عن جدّه مَمْطُورٍ، عن أبي مالك الأشعري: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الطُّهورُ شَطْرُ الإيمان، والحمد لله تملأُ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضِياء، والقرآن حُجَّة لك أو عليك، كل الناس يَغدُو، فبائع نفسه فمعتِقُها، أو مُوبِقُها»[٢].

وفي صحيح مسلم، من رواية سِماك بن حَرْب، عن مُصْعَب بن سعد، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يقبل الله صدقة من غُلُولٍ، ولا صلاة بغير طَهُورٍ»[٢].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت أبا المَلِيح الهُذَلي يُحدِّث عن أبيه قال: «كنت مع رسول الله ـ ﷺ ـ في بيت، فسمعته يقول: «إن الله لا يقبل صلاةً من غير طَهُورٍ، ولا صدقةً من غُلُولٍ»[٣].

وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي وابن ماجه، من حديث شعبة[٣].

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى مُذَكِّراً عبادَه المؤمنين نعمتَه عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرسالِه إليهم هذا الرسولَ الكريمَ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايَعَتِه على متابَعَتِه ومناصَرَتِهِ ومؤازرته. والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه، فقال: ﴿ واذكروا نعمةَ الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به، إذ قلتم سَمِعنا وأطعنا ﴾، وهذه هي البيعةُ التي كانوا يبايعون رسول الله ـ ﷺ ـ عليها عند إسلامهم، كما قالوا: «بايعنا رسولَ الله ـ ﷺ ـ على السمع والطاعة، في مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا، وأثرةً علينا، وألَّا ننازِعَ الأمرَ أهلَه»[٤]، وقال تعالى: ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين؟ ﴾.

وقيل: هذا تذكارٌ لليهود مما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ـ ﷺ ـ والانقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

---

(١) تفسير الطبري ١٣٨/٦.

(٢) مسلم، كتاب الطهارة ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٣) مسند أبي داود الطيالسي ١٨٧، ومسند أحمد ٧٤/٥، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة ١٦/١، والنسائي، كتاب الزكاة ٥٩/٥، وابن ماجه، كتاب الطهارة ١٠٠.

(٤) فتح الباري، كتاب الفتن ٥/١٣، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٧٠.

وقيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم: ﴿ ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا ﴾، قاله مجاهد، ومقاتل بن حيان. والقول الأول أظهر، وهو المحكي عن ابن عباس، والسدي. واختاره ابن جرير[١].

ثم قال تعالى: ﴿ واتقوا الله ﴾ تأكيدٌ وتحريضٌ على مواظَبَةِ التقوى في كل حال.

ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر والسَّرائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿ إن الله عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ ﴾.

وقولهُ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونُـوا قَوَّامين لله ﴾، أي: كونوا قائمين بالحقِّ لله ـ عزّ وجلّ ـ لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿ شُهَداء بالقسط ﴾، أي: بالعَدْلِ لا بالجور. وقد ثَبَت في الصحيحين، عن النعمان ابن بَشِير أنه قال: «نحلني أبي نَحْلاً، فقالت أمي عَمْرَةُ بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشْهِدَ رسول الله ﷺ. فجاءه لِيُشْهِدَه على صَدَقَتِي، فقال: أكُلَّ ولدك نحلتَ مثله؟ قال: لا. قال: اتقوا الله، واعدِلُوا في أولادكم. وقال: إني لا أشهد على جَور. قال: فرجع أبي فَرَدَّ تلك الصدقة»[٢].

وقولهُ: ﴿ولا يجرمنَّكم شنآنُ قَوْمٍ على ألاَّ تعدلوا﴾، أي: لا يحمِلَنَّكم بُغْضُ قوم على تَرْكِ العَدْلِ فيهم، بل استعملوا العَدْلَ في كلِّ أحدٍ، صديقاً كانَ أو عدواً، ولهذا قال: ﴿ اعدِلُوا هو أقربُ للتقوى ﴾، أي: عَدْلُكم أقرب إلى التقوى من تركه. ودَلَّ الفعل على المَصْدَرِ الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله: ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾.

وقولهُ: ﴿هو أقربُ للتقوى﴾، من باب استعمال أفعل التفضيل في المحلّ الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله: ﴿ أصحابُ الجنة يومئذ خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً ﴾ وكقول بعض الصحابيات لعمر: «أنت أفَظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ»[٣].

ثم قال تعالى: ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾، أي: وسيجزيكم على ما عَلِم من أفعالكم التي عَمِلتُمُوها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ولهذا قالَ بعده: ﴿ وَعَد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرةٌ ﴾ أي: لذنوبهم ﴿ وأجر عظيم ﴾، وهو: الجنةُ التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برَحْمَةٍ منه وفَضْلٍ، وإن كان سببُ وصولِ الرحمة إليهم أعمالَهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نَيْلِ رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكلُّ منه وله، فله الحمدُ والمنةُ.

ثم قال: ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾، وهذا من عَدْلِه تعالى، وحِكْمَتِهِ وحُكْمه الذي لا يجورُ فيه، بل هو الحَكَم العدلُ الحكيمُ القديرُ.

وقولهُ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نِعْمَةَ الله عليكم، إذ هَمَّ قوم أن يبسُطوا إليكم أيديهم، فكفَّ أيديهم عنكم ﴾.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، ذكره عن أبي سَلَمَة، عن جابر: أن النبي ـ ﷺ ـ نزل منزلاً، وتَفَرّق الناس في العِضَاهِ[٤] يستظلون تحتها، وعَلَّق النبي ـ ﷺ ـ سلاحه بشجرةٍ، فجاء أعرابي إلى سَيْفِ

(١) تفسير الطبري ٦/٥٧ ـ ٥٨.
(٢) أخرجاه في كتاب الهبة، فتح الباري ٥/٢١١، ومسلم ١٢٤٢ ـ ١٢٤٤.
(٣) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٢٣٩، ومسلم، كتاب لفضائل الصحابة ١٨٦٣ ـ ١٨٦٤.
(٤) العضاه: أعظم الشجر، واحده: عِضَاهَةٌ.

رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأخذه فسَلَّه، ثم أقبل على النبي ـ ﷺ ـ فقال: من يمنَعُك مني؟ قال: الله! قال الأعرابي مرَّتين أو ثلاثاً: من يمنَعُكَ منيّ؟ والنبي ـ ﷺ ـ يقول: الله! قال: فشَامَ[1] الأعرابيُّ السيفَ، فدعا النبي ـ ﷺ ـ أصحابه فأخبرهم خبَرَ الأعرابي، وهو جالس إلى جَنْبِهِ ولم يُعاقِبْه، قال معمر: وكان قتادةُ يذكر نحو هذا، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ـ ﷺ ـ فأرسلوا هذا الأعرابي، وتأول: ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾. . . الآية[2].

وقِصَّةُ هذا الأعرابيِّ ـ وهو غَوْرَثُ بنُ الحارثِ ـ ثابتةٌ في الصَّحِيح[3].

وقال العَوْفي، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، اذكروا نعمة الله عليكم، إذ همّ قوم أن يبسُطوا إليكم أيديهم، فكف أيديهم عنكم ﴾: وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ـ ﷺ ـ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم، فأوحى الله تعالى إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام، وأمر أصحابه فَأَبَوْهُ[4]. رواه ابن أبي حاتم.

وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أن يَغْدُروا بمحمد وأصحابه في دار كعب بن الأشرف. رواه ابن أبي حاتم.

وذكر محمد بن إسحاق بن يَسَارٍ، ومجاهد وعكرمة، وغيرُ واحد: أنها نَزَلَتْ في شأن بني النَّضِير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ـ ﷺ ـ الرَّحَى، لما جاءهم يستعينهم في دِيَةِ العامريَّين، وَوَكَّلُوا عمرو بن جِحَاش بن كعب بذلك، وأمَروه إن جلس النبي ـ ﷺ ـ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يُلْقِي تلك الرحَى من فوقه، فأطلع الله رسولَه على ما تمالئوا عليه، فرجَع إلى المدينة وتَبِعَه أصحابُه، فأنزل الله في ذلك: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، اذكروا نعمة الله عليكم، إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم، فكف أيديهم عنكم، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[5].

ثم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يغدو إليهم، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم.

وقولُه تعالى: ﴿ وعلى الله فَلْيتوكَّلِ المؤمنونَ ﴾: يعني: من توكَّل على الله كفاه الله ما أهمَّه، وحَفِظَه من شرِّ الناس وعَصَمه.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ

---

(١) شام السيف: أغمده.

(٢) تفسير الطبري ١٤٦/٦.

(٣) فتح الباري، كتاب الجهاد ٩٦/٦، ومسلم، كتاب الفضائل ١٧٨٦ ـ ١٧٨٧.

(٤) في الأصل: فأتوه. والمثبت عن تفسير الطبري ١٤٦/٦.

(٥) سيرة ابن هشام ١٩٠/٢، وتفسير الطبري ١٤٤/٦.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

لما أمر تعالى عبادَه المؤمنين بالوفاء بعهدِه وميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ـ ﷺ ـ وأمرهم بالقيام بالحقِّ والشهادة بالعَدْلِ، وذكَّرهم نِعَمَه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحقِّ والهدى، شَرَعَ يبين لهم كيف أخذ العهودَ والمواثيقَ على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم، وطرداً عن بابه وجَنابه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهُدَى ودينِ الحقِّ، وهو العلمُ النافعُ والعَمَلُ الصالحُ، فقال تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيلَ وبعثنا منهم اثني عَشَر نقيباً﴾ يعني: عُرَفاء على قبائلهم بالمبايعة، والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه.

وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد، أن هذا كان لما توجّه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة، فَأُمِرَ بأن يُقِيم النقباء، من كل سِبْط نقيبٌ ـ قال محمد بن إسحاق: فكان من سبط روبيل: شامون بن زَكُور، ومن سبط شمعون: شافاط بن حُرّي، ومن سبط يهوذا: كالب بن يوفنّا، ومن سبط أبين: فيخاييل بن يوسف، ومن سبط يوسف، وهو سبط أفرايم: يوشع بن نون، ومن سبط بنيامين: فلطمى بن رفون، ومن سبط زبلون: جدى بن سودى، ومن سبط يوسف وهو منشا بن يوسف: جدي بن سوسي، ومن سبط دان: حملائيل ابن جمل، ومن سبط أسير: ساطور بن ملكيل، ومن سبط نفتالى: نحى بن وفسى، ومن سبط جاد: جولايل بن ميكى.

وقد رأيتُ في السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماءً مخالفة لما ذكره ابن إسحاق، والله أعلم، قال فيها: فعلى بني روبيل: الصونى بن سادون، وعلى بني شمعون: شموال بن صورشكي، وعلى بني يهوذا: يحشون بن عمبياذاب، وعلى بني يساخر: شال بن صاعون، وعلى بني زبلون: الياب بن حالوب، وعلى بني يوسف إفرايم: منشا بن عمنهود، وعلى بني منشا: حمليائيل بن يرصون، وعلى بني بنيامين: أبيدن بن جدعون، وعلى بني دان: جعيذر بن عميشذى، وعلى بني أسير: تحايل بن عجران، وعلى بني حاز: السيف بن دعوايل، وعلى بني نفتالي: أجزع بن عمينان.

وهكذا لما بايع رسولُ الله ـ ﷺ ـ الأنصارَ ليلة العَقَبة، كان فيهم اثنا عَشَر نقيباً، ثلاثةٌ من الأوس وهم: أُسَيد بن الحُضَير، وسعد بن خَيْثمة، ورفاعة بن عبد المنذر ـ ويقال بدله: أبو الهيثم بن التَّيِّهان ـ رضي الله عنهم ـ وتسعةٌ من الخزرج، وهم: أبو أمامة أسعدُ بن زُرَارة، وسعدُ بن الربيع، وعبدالله بن رَوَاحة، ورافع بن مالك بن العَجْلان، والبراء بن مَعْرُور، وعُبادَةُ بن الصَّامِتِ، وسَعْدُ بن عُبَادة، وعبدالله بن عَمْرو بن حَرَام، والمنذِرُ بن عَمْرو بن خُنَيس رضي الله عنهم. وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له، كما أورده ابن إسحاق رحمه الله[١].

والمقصودُ أنَّ هؤلاء كانوا عُرَفاء على قومهم ليلتئذٍ عن أمر النبي ـ ﷺ ـ لهم بذلك، وهم الذين وَلُوا المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنبي ـ ﷺ ـ على السمع والطاعة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، عن مجالد، عن الشعبيِّ، عن مسروق قال: «كنا جلوساً عندَ عبدالله بن مسعود، وهو يُقرِئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبدِ الرحمن، هل سألتم

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٤٣ ـ ٤٤٥.

رسول الله - ﷺ -: كم يملك هذه الأمةَ من خَليفةٍ؟ فقال عبدالله: ما سألني عنها أحدٌ منذ قَدِمتُ العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألنا رسول الله - ﷺ - فقال: «اثنا عشر كعِدَّة نُقباء بني إسرائيل»(١).

هذا حديثٌ غَريبٌ من هذا الوجه، وأصلُ هذا الحديث ثابتٌ في الصحيحين من حديث جَابر بن سَمُرة قال: سَمِعتُ النبي - ﷺ - يقول: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً. ثم تكلم النبي - ﷺ - بكلمة خَفِيَتْ عَلَيّ، فسألت أبي: ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: كلهم من قريش».

وهذا لفظ مسلم(٢). ومعنى هذا الحديثِ البشارةُ بوجود اثني عَشَر خليفةً صالحاً، يُقيم الحقَّ ويعدلُ فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابعُ أيامهم، بل قد وُجِد منهم أربعة على نسق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي - رضي الله عنهم - ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شكٍّ عند الأئمة، وبعضُ بني العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتُهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهديَّ المبشَّر به في الأحاديث الوارِدَة بذكره: أنه يواطىء اسمُه اسمَ النبي - ﷺ - واسمُ أبيه اسمَ أبيه، فيملأ الأرضَ عدلاً وقسطاً، كما مُلِئَت جوراً وظُلماً، وليس هذا بالمنتظَر الذي يَتَوَهَّم الرافضةُ وجودَه ثم ظهورَه من سرداب سَامَرّا. فإن ذاك ليس له حقيقةٌ ولا وجودٌ بالكلِّية، بل هو من هَوَس العقولِ السخيفة، وتوهُّم الخيالات الضعيفة، وليس المرادُ بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الذين يَعتقِدُ فيهم الاثنا عشريةُ من الروافض، لجَهلهم وقلَّةِ عقلهم. وفي التوراة البشارةُ بإسماعيل عليه السلام، وأن الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيماً، وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود، وجابر بن سَمُرة. وبعضُ الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترَن بهم بعضُ الشيعةِ يُوهِمُونَهم أنَّهم الأئمةُ الاثنا عَشَر، فَيَتشيَّع كثيرٌ منهم جهلاً وسفهاً، لقلَّةِ علمهم وعِلْمِ من لَقَّنَهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي ﷺ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وقال الله: إنّي معكم ﴾ أي: بحفظي وكَلاءتي وَنَصْري ﴿ لئن أقمتُم الصلاةَ وآتيتم الزكاةَ وآمنتم برسلي ﴾ أي: صَدَّقتُموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وعَزَّرتُموهم ﴾ أي: نَصَرتُموهم وآزرتُموهم على الحق ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ وهو: الإنفاقُ في سبيله وابتغاءِ مرضاتِه ﴿ لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ﴾ أي: ذنوبَكم، أمحوها وأسترها، ولا أؤاخذكم بها ﴿ ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي: أدفع عنكم المحذور، وأحصِّلُ لكم المقصود.

وقولُه: ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾، أي: فمن خالف هذا الميثاقَ بعد عَقْدِه وتَوْكيده وشَدِّه، وجَحَده وعامله مُعاملة من لم يَعْرِفه، فقد أخطأ الطريقَ الحقَّ، وعَدَلَ عن الهُدَى إلى الضَّلال.

ثم أخبر تعالى عما أحلَّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لَعَنَّاهم ﴾ أي: فبسبب نقضهم الميثاقَ الذي أُخِذ عليهم لَعنَّاهم، أي: أبعدناهم عن الحقِّ وطردناهم عن الهُدَى، ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسيةً ﴾، أي: فلا يَتَّعِظُون بموعظةٍ لغلظتها وقَساوتها، ﴿ يُحرِّفون الكَلِم عن مواضعه ﴾، أي: فَسَدت فُهومهم، وساء تَصَرُّفهم في آيات الله، وتأوَّلوا كتابه على غير ما أنزله، وحَملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يَقُل، عياذاً بالله من ذلك، ﴿ ونَسُوا حَظّاً مما ذُكِّروا به ﴾، أي: وتَرَكُوا العَمَل به رغبةً عنه.

قال الحسن: تَرَكُوا عُرَى دينهم ووظائفَ الله التي لا يقبل العملَ إلا بها. وقال غيرهُ: تَرَكُوا العَمَل فصاروا

(١) مسند أحمد ١/٣٩٨.
(٢) مسلم، كتاب الإمارة ١٤٥٢، وفتح الباري، كتاب الأحكام ١٣/٢١١.

إلى حالة رديئةٍ، فلا قلوبَ سليمةً، ولا فِطَرَ مستقيمةً، ولا أعمالَ قويمةً.

﴿ ولا تزال تَطَّلِعُ على خائنة منهم ﴾ يعني: مكرهم وغدْرهم لك ولأصحابك. قال مجاهدٌ وغيره: يعني بذلك تمالؤَهم على الفَتْكِ بالنبي ﷺ.

﴿ فاعفُ عنهم واصفَح ﴾ وهذا هو عينُ النَّصر والظفر، كما قال بعضُ السلف: «ما عاملت من عَصَى الله فيك بمثل أن تُطيع الله فيه». وبهذا يحصُلُ لهم تأليفٌ وجَمْعٌ على الحقِّ، ولعلَّ الله أن يهديَهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾، يعني به: الصفَح عمن أساءَ إليك.

وقال قتادةُ: هذه الآيةُ ﴿ فاعفُ عنهم واصفَحْ ﴾ منسوخةٌ بقوله: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾... الآية.

وقوله: ﴿ ومن الذين قالوا: إنا نصارى، أخذنا ميثاقهم ﴾، أي: ومن الذين ادَّعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهودَ والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمانِ بكل نبيٍّ يُرسِلُه الله إلى أهل الأرض، أي: فَفعلُوا كما فَعَلَ اليهودُ، خالفوا المواثيق ونقضوا العهودَ، ولهذا قال: ﴿ فنَسُوا حظّاً مما ذُكِّروا به، فأغرينا بينهم العداوَةَ والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾، أي: فألقينا بينهم العداوَةَ والتباغُضَ لبعضهم بعضاً، ولا يزالُون كذلكَ إلى قيامِ الساعة. وكذلك طوائفُ النَّصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين مُتَعادِينَ، يُكَفِّر بعضُهم بعضاً، ويَلْعَنُ بعضُهم بعضاً؛ فكلُّ فرقة تُحَرِّم الأخرى ولا تَدَعُها تَلِجُ معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النَّسطورية والآريوسيَّة، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهادُ.

ثم قال تعالى: ﴿ وسوف يُنَبِّئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ للنصارى على ما ارتَكَبُوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نَسَبُوه إلى الربِّ ـ عزّ وجلّ، وتعالى وتَقدَّس عن قولهم عُلُوّاً كبيراً ـ مِنْ جعلهم له صاحبةً وولداً، تعالى الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِد ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُواً أحدٌ.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسِه الكريمة: أنه قد أرسل رسولَه محمداً ـ ﷺ ـ بالهدى ودين الحقِّ إلى جَميع أهل الأرض، عَرَبِهم وعَجَمِهم، أُمِّيهم وكِتَابيِّهم، وأنه بعثه بالبيِّنات والفَرْقِ بين الحقِّ والباطل، فقال تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّن لكم كثيراً مما كنتم تُخفُون من الكتاب ويَعفُو عن كثيرٍ ﴾، أي: يُبيِّن ما بَدَّلوه وحَرَّفوه وأوَّلوه، وافترَوا على الله فيه، ويَسكتُ عن كثيرٍ مما غيَّروه ولا فائدة في بيانه.

وقد روى الحاكم في مستدركه، من حديث الحسين بن واقد، عن يزيدَ النحويِّ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: «من كفر بالرَّجْم فقد كَفَر بالقرآن من حيث لا يحتَسِبُ، قوله: ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾، فكان الرجمُ مما أخفَوه».

ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(١).

ثم أخبر تعالى عن القرآنِ العظيم الذي أنزلَه على نبيِّه الكريم فقال: ﴿ قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ. يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُلَ السلام ﴾، أي: طرق النجاةِ والسلامةِ ومناهجَ الاستقامةِ ﴿ ويخرجُهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾، أي: يُنَجِّيهم من المهالك، ويُوضِّح لهم أبينَ المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصِّلُ لهم أنجبَ الأمورِ، ويَنْفِي عنهم الضلالةَ، ويُرشِدُهم إلى أقومِ حالة.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبِراً وحاكماً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريَم ـ وهو عبدٌ من عباد الله، وخَلقٌ من خَلْقهِ ـ أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم عُلُوّاً كبيراً.

ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحتَ قهره وسلطانه: ﴿ قل: فمن يَملكُ من الله شيئاً إن أراد أن يُهلِكَ المسيحَ ابن مريم وأُمَّه ومن في الأرضِ جَميعاً ﴾، أي: لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنَعُه؟ أو من ذا الذي يَقْدِرُ على صَرْفِهِ عن ذلك؟.

ثم قال: ﴿ ولله ملكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما يخلق ما يشاء ﴾ أي: جميعُ الموجودات ملكهُ وخلقه، وهو القادر على ما يشاء، لا يُسْأل عما يفعل، لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ.

ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كَذِبهم وافترائهم: ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ أي: نحن مُنتسِبُون إلى أنبيائه وهم بَنُوه وله بهم عناية، وهو يُحِبُّنا. ونقلوا عن كتابهم أن الله قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكري». فحملوا هذا على غير تأويله، وحَرَّفوه. وقد رَدَّ عليهم غيرُ واحد ممن أسلم من عُقَلائهم، وقالوا: هذا يُطلَقُ عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهبٌ إلى أبي وأبيكم، يعني: رَبِّي وربِّكم. ومعلوم أنهم لم يَدَّعوا لأنفسهم من البنوَّة ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك مَعَزَّتهم لديه وحُظْوَتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناءُ الله وأحباؤه.

قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾؟ أي: لو كنتم كما تَدَّعون أبناءَه وأحباءَه، فَلِمَ أعدَّ لكم نار جهنَّم على كُفْركم وكَذِبكم وافترائكم؟. وقد قال بعض شيوخ الصوفيَّة لبعض الفقهاء: أين تجدُ في القرآن أن الحبيب لا يُعذِّبُ حبيبه؟ فلم يردَّ عليه، فتلا الصوفيُّ هذه الآيةَ: ﴿ قل فلم يُعَذِّبكم بذنوبكم ﴾؟ وهذا الذي قاله حسنٌ، وله شاهد في المسند للإمام أحمدَ حيث قال:

---

(١) المستدرك، كتاب الحدود ٤/٣٥٩.

حدثنا ابن أبي عديٍّ، عن حُميد، عن أنس قال: مَرّ النبي ـ ﷺ ـ في نفر من أصحابه، وصَبيٌ في الطريق، فلما رأت أمُّه القومَ خَشِيت على ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعَى وتقول: ابني ابني! وَسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسولَ الله، ما كانت هذه لِتُلقي ابنَها في النار. قال: فخفَّضَهم[1] النبي ـ ﷺ ـ فقال: لا، والله ما يلقي حبيبه في النار. تفرَّد به[2].

﴿ بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو تعالى هو الحاكم في جميع عباده ﴿ يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء ﴾، أي: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿ وإليه المصير ﴾، أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور.

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «وأتى رسول الله ـ ﷺ ـ نعمان بن أضاء، وبحري بن عمرو، وشأس بن عَدِيّ، فكلَّموه وكلَّمهم رسول الله ـ ﷺ ـ ودعاهم إلى الله وحَذَّرهم نِقْمَتَه، فقالوا: ما تُخوِّفنا يا محمد! نحن والله أبناءُ الله وأحباؤهُ. كقول النصارى، فأنزل فيهم: ﴿ وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾. . إلى آخِرِ الآية. رواه ابنُ أبي حاتم، وابن جَرير[3].

وروِيا أيضاً من طريق أسباط عن السدِّيِّ في قول الله: ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى: نحن أبناءُ الله وأحباؤه ﴾: «أما قولُهم: ﴿ نحنُ أبناءُ الله ﴾ فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيلَ أنَّ ولدَكَ ـ بِكْرَكَ من الوَلَدِ ـ فيدخلهم النار[4]، فيكونون فيها أربعينَ ليلة حتى تُطَهِّرهم وتأكُلَ خطاياهم، ثم ينادي منادٍ: أن أخرِجوا كلَّ مَخْتُونٍ من وَلَدِ إسرائيل. فأخرجُوهم، فذلك قولهُم: ﴿ لن تمسَّنا النارُ إلا أياماً معدوداتٍ ﴾.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾

يقولُ تعالى مخاطباً أهلَ الكتاب مِن اليهود والنصارى: إنه قد أرسلَ إليهم رسولَه محمداً خاتَم النَّبِيِّين، الذي لا نَبِيَّ بعده ولا رسولَ، بل هو المُعَقِّب لِجَمِيعهم. ولهذا قال: ﴿ على فترةٍ من الرُّسُلِ ﴾ أي: بعد مدَّةٍ متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم.

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة، كم هي؟ فقال أبو عثمان النَّهدي وقتادة ـ في رواية عنه ـ: كانت ستمائة سنة. ورواه البخاري عن سلمان الفارسِيِّ[5]. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقال مَعْمَر، عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون سنةً. وقال الضحاك: أربعمائة وبضعٌ وثلاثون سنةً.

---

(١) أي: هدَّاهم.
(٢) مسند أحمد ٣/١٠٤.
(٣) تفسير الطبري ٦/١٦٤، وسيرة ابن هشام ١/٥١٤.
(٤) نص الطبري: «أن ولداً من ولدك أدخلهم النار».
(٥) فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار ٧/٢٧٧.

وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسى عليه السلام، عن الشعبيِّ أنه قال: ومِنْ رَفْعِ المسيح إلى هِجْرَةِ النبي - ﷺ - تسعمائة وثلاث وثلاثونَ سنة.

والمشهور هو الأول، وهو أنها ستمائة سنةٍ. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرونَ سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنةٍ شمسيةٍ، والآخر أراد قمريةً، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنينٍ. ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾، أي: قمرية، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومةً لأهل الكتاب. وكانت الفترةُ بين عيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل وبين محمد خاتمِ النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هُرَيرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «إنَّ أوْلَى الناس بابن مريم لأنا، لأنه لا نَبيَّ بيني وبينه»[1]. وهذا فيه ردٌّ على من زَعَم أنه بعث بعد عيسى نَبيٌّ، يقال له: «خالد بن سنان» كما حكاه القُضَاعي وغيرهُ.

والمقصودُ أن الله بعث محمداً - ﷺ - على فترة من الرسل، وطُمُوس من السُّبُلِ، وتَغَيُّرِ الأديان، وكثرةِ عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمةُ به أتمَّ النعم، والحاجةُ إليه أمرٌ عَمَمٌ، فإن الفساد كان قد عَمَّ جميعَ البلاد، والطغيانَ والجهلَ قد ظَهَر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دينِ الأنبياء الأقدمينَ، من بعضِ أحبار اليهود وعُبَّاد النصارى والصابئين، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشامٌ، حدثنا قتادةَ، عن مُطَرف، عن عياضِ بنِ حِمار المجاشعي - رضي الله عنه -: أن النبي - ﷺ - خَطَب ذاتَ يومٍ فقال في خطبته: «وإنَّ ربي أمَرني أن أُعَلِّمكم ما جهلتُم مما علَّمني في يومي هذا: كلُّ مال نحلتهُ عبادي حلالٌ، وإني خلقت عبادي حُنَفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلَّتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهُم أن يُشركوا بي ما لم أُنْزل به سلطاناً. ثم إن الله - عزَّ وجلَّ - نظر إلى أهلِ الأرضِ فمقتهم عجمهم وعَرَبهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليَك وأبتلي بك، وأنزلتُ عليكَ كتاباً لا يغسله الماء تَقْرَؤُه نائماً ويقظَانَ. ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: يا رب، إذن يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خُبْزَة[2]. فقال: استَخْرِجهم كما استخرجوك واغزهم نُغْزِك[3]، وأنفق عليهم فَسَنُنْفِقُ عليك، وابعَثْ جنداً نبعَثْ خمسةَ أمثاله، وقاتِلْ بمن أطاعك من عصاك. وأهلُ الجنة ثلاثةٌ: ذو سلطان مُقْسط مُتَصدِّق موفق، ورجل رحيمٌ رقيقُ القلبِ بكل ذي قربى ومسلم، ورجلٌ عَفِيفٌ فَقِيرٌ مُتَصدِّق. وأهلُ النارِ خمسةٌ: الضعيفُ الذي لا زَبْرَ[4] له الذين هم فيكم تَبَعاً أو تُبَعاء - شك يحيى - لا يبتغون أهلاً ولا مالاً[5]، والخائنُ الذي لا يخفَى له طمع وإن دَقَّ إلا خانه، ورجلٌ لا يُصبحُ ولا يمسي إلا وهو يخادِعُكَ عن أهلك ومالك، وذكر البُخْلَ أو الكذب، والشِّنْظير: الفاحش[6].

ثم رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي من غير وجه، عن قتادَةَ، عن مُطَرِّف بن عبدالله بن الشِّخير. وفي رواية شُعْبَةَ عن قتادة التصريحُ بسماع قتادة هذا الحديث من مُطَرِّف[7]. وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده: أن قتادة لم يسمعه من مطرف، وإنما سَمِعه من أربعة، عنه. ثم رواه هو عن روح، عن عوف، عن حكيم الأثرم،

---

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٧٧ - ٤٧٨.

(٢) يثلغوا: يشدخوا. ويدعوه خُبْزَةً: أي مكسوراً كالخبزة.

(٣) أي: نعينك على غزوهم.

(٤) أي: لا عقل له.

(٥) أي: لا يسعون في تحصيل منفعة دينية ولا دنيوية.

(٦) مسند أحمد ٤/١٦٢، ٢٦٦، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٩٧ - ٢١٩٨.

(٧) مسلم، كتاب الجنة ٢١٩٨.

عن الحسن قال: حدثني مُطَرِّف، عن عياض بن حمَار، فذكره[١]. ورواه النسائي من حديث غُنْدَرٍ، عن عوف الأعرابي، به.

والمقصودُ من إيراد هذا الحديث قولُه: «وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتهم: عَرَبهم وعَجَمهم إلا بقايا من بني إسرائيل». وفي لفظ مسلم: «من أهل الكتاب»[٢]. وكان الدين قد التبسَ على أهلِ الأرض كُلِّهم، حتى بعث الله محمداً ـ ﷺ ـ فهدى الخلائِقَ وأخرجَهُم الله به من الظلماتِ إلى النُّور، وتركَهُم على المحجَّةِ البيضاءِ، والشريعةِ الغَرَّاء، ولهذا قال تعالى: ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نَذير ﴾، أي: لئلا تحتجُّوا وتقولوا ـ يا أيها الذين بَدَّلوا دينهم وغيَّروه ـ ما جاءنا من رسول يُبَشِّر بالخير ويُنْذِرُ من الشر» فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ، يعني محمداً ـ ﷺ ـ ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾.

قال ابن جَرير: «معناه: إني قادرٌ على عقاب من عَصَاني، وثوابِ من أطاعني»[٣].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى مُخبراً عن عبده ورسوله وكَليمه موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ فيما ذَكَّر به قومَه نِعَمَ الله عليهم وآلاءَه لديهم، في جَمْعِه لهم خيري الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة ـ فقال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه: يا قوم، اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ أي: كلما هَلَك نبيٌّ قام فيكم نبيٌّ، من لَدُن أبيكم إبراهيمَ وإلى ما بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياءُ يدعُونَ إلى الله ويُحذِّرون نِقْمَتَه، حتى خُتِموا بعيسى ـ عليه السلام ـ ثم أوحى الله إلى خاتم الرسل والأنبياءِ على الإطلاق مُحمَّد بن عبدالله، المنسوبِ إلى إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليه السلام، وهو أشرف من كلِّ من تَقدَّمه منهم، ﷺ.

وقوله: ﴿ وجعلَكُم ملوكاً ﴾، قال عبد الرزاق، عن الثوريِّ، عن منصور، عن الحكم أو غيرِه، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ قال: الخادمَ والمرأةَ والبيتَ[٤].

ورَوَى الحاكمُ في مستدركه، من حديث الثوري أيضاً، عن الأعمش، عن مجاهدٍ، عن ابن عَبَّاس قال: «المرأةَ والخادمَ ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾، قال: الذين هم بين ظَهرانَيْهم يومئذ». ثم قال الحاكم. صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[٤].

(١) مسند أحمد ٤/٢٦٦.
(٢) وهو لفظ المسند أيضاً.
(٣) تفسير الطَّبري ٦/١٦٧ ـ ١٦٨.
(٤) تفسير الطبري ٦/١٦٩، والمستدرك، تفسير سورة المائدة ٢/٣١١ ـ ٣١٢.

وقال ميمون بن مهْران، عن ابن عباس قال: كان الرجلُ من بني إسرائيل إذا كان له الزوجةُ والخادمُ والدارُ، سُمِّي ملكاً.

وقال ابن جَرير: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وَهب، أنبأنا أبو هانىء: أنه سَمع أبا عبد الرحمن الحُبُلي يقول: سَمعتُ عبدالله بن عَمْرو بن العاص ـ وسأله رجلٌ فقال: ألسنا من فقراءِ المهاجرين؟ فقال عبدالله: ألك امرأةٌ تأوي إليها؟ قال: نَعم. قال: ألك مسكنٌ تسكُنه؟ قال: نَعَم. قال: فأنتَ من الأغنياءِ. فقال: إن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك[١].

وقال الحسنُ البصري: هل المُلْكُ إلا مركَبٌ وخادِم ودار؟ رواه ابنُ جرير. ثم روى عن منصور والحكم، ومجاهد، وسفيان الثوري نحواً من هذا. وحكاه ابنُ أبي حاتم عن ميمون بنِ مهران.

وقال ابنُ شَوذَب: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزلٌ وخادم، واستؤذن عليه، فهو مَلِكٌ.

وقال قتادة: كانوا أوّل من ملك الخَدَم.

وقال السدّيُّ في قوله: ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وأهله وماله. رواه ابن أبي حاتم:

وقال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن ابن لَهيعة، عن درّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سَعيد الخدري، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادمٌ ودابةٌ وامرأةٌ، كُتِب مَلِكاً». وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدثنا الزُّبير بن بكار، حدثنا أبو ضَمرةَ أنس بن عياض، سمعت زيد بن أسلم يقول: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾، فلا أعلم إلا أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من كان له بيتٌ وخادِمٌ فهو مَلِكٌ». وهذا مرسلٌ غريبٌ.

وقال مالك: بيتٌ وخادمٌ وزوجةٌ.

وقد ورد في الحديث: «من أصبح منكم معافىً في جسده، آمِناً في سِرْبِهِ، عنده قوتُ يومه، فكأنما حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها»[٢].

وقولهُ: ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يعني عَالَمي زمانكم، فكأنهم كانوا أشرفَ الناس في زمانهم، من اليونان والقِبْطِ وسائرِ أصنافِ بني آدمَ، كما قال: ﴿ ولقد آتينا بَني إسرائيلَ الكتابَ والحُكْم والنبوّةَ، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على العالمين ﴾، وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: ﴿ اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلُون * إنّ هؤلاء مُتَبَّر ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون. قال: أغيرَ الله أبْغيكم إلَهاً، وهو فَضَّلكم على العالمين ﴾.

والمقصودُ: أنهم كانوا أفضلَ أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرفُ منهم، وأفضلُ عند الله، وأكملُ شريعةً، وأقوم منهاجاً، وأكرمُ نبياً، وأعظم مُلْكاً، وأغزرُ أرزاقاً، وأكثرُ أموالاً وأولاداً، وأوسع مملَكةً، وأدومُ عزّاً

---

(١) تفسير الطبري ٦/١٦٩.
(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/٢٠٨، وابن ماجه، كتاب الزهد أيضاً ١٣٨٧.
السِّربُ: النفس. وحِيزَتْ: جمعت.

قال الله: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وقال: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشَرَفها وكرمها عند الله، عند قوله عزّ وجلّ: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ من سورة آل عمران[١].

وروى ابنُ جرير عن ابن عباس، وأبي مالك وسَعيد بن جُبَير أنهم قالوا في قوله: ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يعني: أمة محمد ﷺ[٢]. وكأنهم أرادوا أن هذا الخطاب في قوله: ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً ﴾ مع هذه الأمة. والجمهورُ على أنه خطابٌ من موسى لقومه، وهو محمولٌ على عالمي زمانهم كما قدمنا.

وقيل: المرادُ ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يعني بذلك ما كان تعالى نَزَّله عليهم من المنِّ والسَّلْوى، وتَظْلُلُهم من الغَمَامِ وغير ذلك، مما كان تعالى يخصُّهم به من خوارقِ العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالى مخبراً عن تَحريضِ موسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيلَ على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبَنُوه وأهلهُ إلى بلاد مصر أيام يوسف ـ عليه السلام ـ ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين، قد استحوَذُوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبَشَّرهم بالنصرةِ والظَّفَر عليهم، فَنَكَلُوا وعَصَوا وخالَفُوا أمره، فَعُوقِبُوا بالذهاب في التيه والتمادي في سَيْرهم حائرين، لا يَدرُون كيفَ يتوجَّهُون فيه إلى مَقْصِدٍ مُدَّةَ أربعين سنة، عُقُوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله، فقال تعالى مُخْبِراً عن موسى أنه قال: ﴿ يا قوم ادخلُوا الأرضَ المقدَّسة ﴾ أي: المطهَّرَة.

قال سفيان الثوريُّ، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ قال: هي الطور وما حوله. وكذا قال مجاهدٌ وغيرُ واحدٍ.

وقال سفيان الثوريُّ، عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هي أريحا. وكذا ذكر غير واحد من المفسرين.

وفي هذا نظر، لأن أريحا ليست هي المقصود بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعونَ، إلا أن يكون المراد بأريحا أرض بيت المقدس، كما قاله السدّيُّ ـ فيما رواه ابنُ جرير عنه ـ لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الغَوْر شرقي بيت المقدس[٣].

وقولهُ تعالى: ﴿ التي كَتَبَ الله لكم ﴾ أي: التي وَعَدَكُموها الله على لسانِ أبيكم إسرائيلَ: أنه وراثةُ من آمن منكم. ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ أي: ولا تنكلوا عن الجهاد ﴿ فتنقلبوا خاسرين. قالوا: يا موسى، إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾، أي: اعتذَرُوا بأنَّ في هذه البلدة ـ التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها ـ قوماً جَبَّارين، أي: ذوي خِلْقةٍ هائلةٍ، وقُوىً شديدةٍ، وإنا لا نقدرُ على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخولُ إليها ما داموا فيها؛ فإن يخرُجُوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقةَ لنا بهم.

---

(١) انظر تفسير الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

(٢) تفسير الطبري ٦/١٧٠.

(٣) انظر فيما تقدم تفسير الآية ٥٨ من سورة البقرة.

وقد قال ابنُ جرير: حَدَّثني عبد الكريم بنُ الهَيْثَم، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيانُ قال: قال أبو سعيد: قال عكرمةُ، عن ابن عباس قال: أُمِرَ موسى أن يدخلَ مدينة الجبارين. قال: فسار موسى بِمَنْ معه حتى نَزَل قريباً من المدينة ـ وهي أريحا ـ فبعث إليهم اثني عشر عَيناً، من كل سبط عَينٌ، ليأتُوه بخبر القوم. قال: فدخلوا المدينةَ فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجُثَثِهم وعِظَمِهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم، فجاء صاحبُ الحائط ليجتني الثمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار وينظر إلى آثارهم، فتتبعهم، فكلما أصابَ واحداً منهم أخذه فجعله في كُمِّه مع الفاكهة، حتى التقط الاثني عشر كُلَّهم، فجعلهم في كمه مع الفاكهة، وذهب إلى ملكهم فَنَثَرهم بين يديه. فقال لهم الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، فاذهبوا فأخبروا صاحبكم. قال: فرجعوا إلى موسى، فأخبروه بما عاينوا من أمرهم»[1]. وفي هذا الإسناد نظر.

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزلَ موسى وقومُه بعثَ منهم اثني عشر رَجُلاً ـ وهم النقباء الذين ذكر الله ـ فبعثهم ليأتوه بخبرهم. فساروا، فَلَقِيَهم رجلٌ من الجَبَّارين، فَجَعلهم في كسائه، فحملهم حتى أتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتَمَعُوا إليه، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن قومُ موسى، بَعَثَنا نأتيه بخبركم. فأعطوهم حبة من عِنَبٍ تكفي الرجلَ، فقالوا لهم: اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم: اقدُروا قَدْر فاكِهَتِهم. فلما أتوهم قالوا: يا موسى، ﴿ اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾[2]. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال:

حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن يزيد بن الهادِ، حدثني يحيى بن عبد الرحمن قال: رأيت أنس بن مالك أخذ عصا، فَذَرَعَ فيها بشيء، لا أدري كم ذَرَعَ، ثم قاسَ بها في الأرض خمسين أو خمساً وخمسين، ثم قال: هكذا طولُ العماليق.

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخباراً من وَضْع بني إسرائيل، في عَظَمة خِلَقِ هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عُوجُ بن عُنُق[3]، بنتِ آدم عليه السلام، وأنه كان طولُه ثلاث آلافِ ذراع وثلاثمائةٍ وثلاثةٌ وثلاثين ذراعاً وثلثَ ذراعٍ، تحرير الحساب! وهذا شيء يُسْتحيا من ذكره. ثم هو مخالفٌ لما ثبتَ في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله خلق آدم وطولُه ستون ذراعاً، ثم لم يَزَلِ الخلقُ ينقصُ حَتّى الآن»[4].

ثم قد ذكروا أن هذا الرجلَ كان كافراً، وأنه كان وَلَد زِنْية، وأنه امتنَعَ من رُكُوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته. وهذا كَذِبٌ وافتراءٌ، فإن الله ذَكَر أن نوحاً دعا على أهلِ الأرضِ من الكافرين، فقال: ﴿ رَبِّ لا تَذَر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون. ثم أغرقنا بعدُ الباقين ﴾، وقال تعالى: ﴿ لا عاصِمَ اليومَ من أَمْرِ الله إلا من رحم ﴾، وإذا كان ابنُ نوحٍ الكافرُ غَرِقَ، فكيف يبقى عُوجُ بن عُنُقَ، وهو كافر وولد زنية؟! هذا لا يسوغُ في عقلٍ ولا شرع. ثم في وجودِ رجلٍ يقال له: «عُوجُ بن عُنُقَ» نظر، والله أعلم.

---

(١) تفسير الطبري ٦/١٧٤.

(٢) انظر تفسير الطبري ٦/١٧٧ ـ ١٧٨.

(٣) كذا، وفي تفسير القرطبي ٦/١٢٩: «عوج بن عناق». وفي اللسان: «عُوجُ بن عُوق». وقال في القاموس: وعوق كنوح والدعوج الطويل. ومن قال: «عوج عن عُنَق فقد أخطأ». وقال صاحب تاج العروس: هذا الذي خطأه هو المشهور على الألسنة. ونقل عن شيخه أن عُنَق هي أم عوج، وعوق أبوه.

(٤) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٣٦٢، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٨٣ ـ ٢١٨٤.

وقولهُ: ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾، أي: فلما نَكَل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ـ عليه السلام ـ حَرَّضَهم رجلان لله عليهما نِعْمةٌ عَظِيمة، وهُما ممن يَخاف أمر الله ويخشى عقابه.

وقرأ بعضهم: ﴿ قال رجلان من الذين يُخَافون ﴾(١)، أي: ممن لهم مهابة وموضع من الناس. ويقال: إنهما «يوشع بن نون» «وكالب بن يُوفَنَّا»، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطية، والسدِّي، والربيع بن أنس، وغير واحد من السَّلَفِ والخَلَف رحمهم الله، فقالا: ﴿ ادخلُوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ أي: متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رَسُولَه، نَصَركم الله على أعدائكم وأيَّدكم وظَفَّرَكُم بهم، ودخلتم البلدةَ التي كتبها الله لكم. فلم ينفع ذاك منهم شيئاً. ﴿ قالوا: يا موسى، إنا لن ندخُلَها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربُّك فقاتِلا إنا هاهنا قاعدون ﴾. وهذا نكولٌ منهم عن الجهاد، ومخالفةٌ لرسولهم، وتخلُّفٌ عن مقاتلة الأعداء.

ويقال: إنهم لما نَكَلوا على الجهاد وعَزَمُوا على الانصراف والرجوع إلى بلادهم، سَجَد موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ قُدام ملأ من بني إسرائيل، إعظاماً لما هَمُّوا به، وشَقَّ «يوشع بن نون» «وكالب بن يُوفَنَّا» ثيابهما ولاما قومهما على ذلك، فيقال: إنهم رَجَمُوهما، وجَرَى أمرٌ عظيمٌ وخَطَرٌ جليل.

وما أحسن ما أجاب به الصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ يوم بدر رسولَ الله ـ ﷺ ـ حين استشارَهُم في قتال النفير الذين جاءوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فاتَ اقتناصُ العير واقترب منهم النفيرُ، وَهُم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، في العُدة والبَيْض واليلَبِ(٢)، فتكلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأحسن، ثم تكلَّم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «أشيروا عليَّ أيها المسلمون». وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهورَ الناس يومئذ. فقال سعدُ بن معاذٍ: «كأنك تُعرِّضُ بنا يا رسولَ الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخضناه معك، وما تَخَلَّف منا رجلٌ واحدٌ، وما نَكْرَه أن تَلْقَى بنا عَدُوَّنا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله يُريك منا ما تَقَرُّ به عينُك، فَسِرْ بنا على بركة الله»(٣). فَسُرَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بقول سعد، ونَشَّطه ذلك.

وقال أبو بكر بن مَرْدُوَيه: حدثني عَلِيّ بن الحسين، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبدالله الأنصاري، حدثنا حُمَيد، عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما سار إلى بدرٍ استشار المسلمين، فأشارَ عليه عُمَر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشَرَ الأنصارِ، إياكم يريدُ رسولُ الله ﷺ. قالوا: إذاً لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾، والذي بعثك بالحق لو ضَرَبْتَ أكبادها إلى بَـرْكِ الغُمَـاد(٤) لاتبعناك.

ورواه الإمام أحمد، عن عَبِيدَة بن حُمَيد، عن حُمَيد الطويل، عن أنس(٥)، به، ورواه النسائي، عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن حُمَيد، به. ورواه ابن حبان، عن أبي يعلى، عن عبد الأعلى بن حَمّاد، عن مُعْتَمِرِ بن سليمان، عن حُمَيد، به(٥).

---

(١) نسبت هذه القراءة إلى ابن عباس، وابن جُبَير، ومجاهد. انظر البحر المحيط ٤/٤٥٥.

(٢) البَيض: الخُوَذ، واحدها: بَيْضَة. واليَلَبُ: الدروع.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٦١٥.

(٤) برك الغُماد: موضع باليمن، يقال بضم الغين وكسرها.

(٥) مسند أحمد ٣/١٨٨، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٧/١٠٩.

وقال ابن مَرْدوَيه: أخبرنا عبدالله بن جعفر، أخبرنا إسماعيل بن عبدالله، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا محمد بن شُعَيب، عن الحسن بن أيوب، عن عبدالله بن ناسح، عن عتبةُ بن عَبْدِ السُّلَمي قال: قال النبي ـ ﷺ ـ لأصحابه: «ألا تقاتلون؟ قالوا: نعم، ولا نقولُ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلـون.

وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندي، رضي الله عنه، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مُخارق بن عبدالله الأحمسي، عن طارق ـ هو ابن شهاب ـ: أن المقداد قال لرسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر: «يا رسولَ اللهِ، إنا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»(١).

هكذا رواه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه من طريق أخرى فقال:

حدثنا أسودُ بن عامرٍ، حدثنا إسرائيلُ، عن مُخارقٍ، عن طارقِ بن شهابٍ قال: قال عبدالله ـ هو ابن مسعـود رضي الله عنه ـ: «لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبَه أحبُّ إليّ مما عُدِلَ به: أتى رسولُ الله وهو يدعو على المشركين، فقال: والله ـ يا رسول الله ـ لا نقولُ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذْهَـب أنت وربُّك فقاتلا إنا هاهنا قاعـدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يَسارك، ومن بين يديك ومن خَلْفك. فرأيت وَجْهَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ يُشرِق لذلك، وسَرَّه بذلك(٢).

وهكذا رواه البخاريُّ «في المغازي» وفي «التفسير» من طرق عن مخارق، به. ولفظه في «كتاب التفسير» عن عبدالله قال: قال المقدادُ يوم بدر: «يا رسول الله، إنا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾، ولكن امض ونحن معك». فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ(٣).

ثم قـال البخاري: ورواه وكيـع، عن سفيـان، عن مخـارق، عن طـارق: «أن المقـداد قـال للنبي ﷺ. . .»(٣).

وقال ابن جَرير: حدثنا بِشْرٌ، حدثنا يزيدُ، حدثنا سَعِيدٌ، عن قتادةَ قال: ذُكِر لنا أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لأصحابه يومَ الحُدَيبية، حين صَدَّ المشركون الهَدْيَ وحِيلَ بينهم وبين مناسكهم: إني ذاهبٌ بالهَدْي فناحِرُه عند البيت. فقال له المقدادُ بن الأسود: أما والله لا نكون كالملإ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ ولكن اذهَبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. فلما سَمِعها أصحابُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ تَتابعوا على ذلك(٤).

وهذا إن كان محفوظاً يوم الحديبية، فيحتمل أنه كَرَّر هذه المقالة يومئذٍ كما قاله يومَ بدر.

وقولهُ: ﴿ قال ربِّ إني لا أملكُ إلا نفسي وأخي فافرُق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾، يعني: لما نَكَل بنو إسرائيل عن القتال غَضِب عليهم موسى ـ عليه السلام ـ وقال داعياً عليهم: ﴿ رَبِّ إني لا أملكُ إلا نفسي وأخي ﴾، أي: ليس أحد يُطيعني منهم فيَمْتَثِلَ أمْرَ الله، ويُجيبَ إلى ما دعوتَ إليه إلا أنا وأخي هارون،

---

(١) مسند أحمد ٤/٣١٤.
(٢) مسند أحمد ١/٣٨٩ ـ ٣٩٠.
(٣) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٢٨٧، وتفسير سورة المائدة ٨/٢٧٣.
تفسير الطبري ٦/١٨٠.

﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: يعني اقضِ بيني وبينهم. وكذا قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس.

وكذا قال الضحاك: اقضِ بيننا وبينهم، وافتحْ بينا وبينهم. وقال غيره: أفْرُق: افصِلْ بينا وبينهم، كما قال الشاعر(١):

يَـا ربِّ فـافـرُق بَيْنَـه وبَيْنـي أشـدَّ مـا فـرقْـت بَيْـنَ اثـنـيـنِ

وقولُهُ تعالى: ﴿ فإنها مُحرَّمة عليهم أربعينَ سنةً يَتيهُونَ في الأرض ﴾... الآية، لما دَعَا عليهم موسى ـ عليه السلام ـ حين نَكَلُوا عن الجهاد حَكَم الله عليهم بتحريم دخولها قَدَراً مُدَّةَ أربعينَ سنةً، فوقَعُوا في التيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمورٌ عَجيبةٌ، وخوارقُ كثيرةٌ، من تظليلهم بالغمام وإنزال المنِّ والسلوى عليهم، ومِن إخراج الماء الجاري من صخرةٍ صَمَّاءَ تُحمَل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شَعْبٍ عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيَّد الله بها موسى بن عِمْرانَ. وهناك أُنزلَتِ التوراةُ، وشُرِعَت لهم الأحكامُ، وعُمِلت قُبَّة العَهدِ، ويقال لها: قُبَّة الزمان.

قال يزيد بن هارون، عن أصبغَ بن زيدٍ، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير: سألتُ ابنَ عباس عن قوله: ﴿ إنها مُحَرَّمة عليهم أربعينَ سنةً يتيهون في الأرض ﴾... الآية. قال: فتَاهوا في الأرضِ أربعينَ سنةً، يُصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قَرارٌ، ثم ظَلَّل عليهم الغمام في التِّيه، وأنزلَ عليهم المنَّ والسَّلْوَى. وهذا قطعةٌ من حديث «الفتون»(٢).

ثم كانت وفاةُ هارونَ عليه السلام، ثم بعدَه بمدَّة ثلاثِ سنين مات موسى الكليمُ عليه السلام، وأقام الله فيهم «يوشَعَ بن نُونٍ» عليه السلام نبيّاً خَلِيفةً عن موسى بن عمران، ومات أكثرُ بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال: إنه لم يبقَ منهم أحد سوى «يوشَعَ» و«كالَب»، ومن هاهنا قال بعضُ المفسرين في قوله: ﴿ قال فإنها محرمة عليهم ﴾: هذا وقف تام، وقوله: ﴿ أربعينَ سنة ﴾ منصوب بقوله: ﴿ يتيهون في الأرض ﴾. فلما انقضَتِ المدَّةُ خَرَج بهم «يوشَعُ بن نون» ـ عليه السلام ـ أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجِيلِ الثاني، فقصَدَ بهم بيتَ المقدس فحاصَرَها، فكان فتحُها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تَضَيَّفَتِ(٣) الشمس للغروب، وخَشِي دُخُولَ السبت عليهم قال: «إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبِسْها عَلَيّ». فحبسها الله تعالى حتى فتحها، وأمر الله «يُوشَعَ بن نُونَ» أن يأمر بني إسرائيل، حين يدخلون بيت المقدس، أن يدخُلُوا بابها سُجَّداً، وهم يقولون: حِطَّةٌ، أي: حُط عنا ذنوبنا، فَبَدَّلوا ما أُمِرُوا به، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حَبَّة في شَعْرَةٍ، وقد تقدَّم هذا كله في سورة البقرة(٤).

وقال ابنُ أبي حاتِمٍ: حَدَّثنا أبي، حدثنا محمد بن أبي عُمَر العَدَنِيُّ، حدثنا سفيانُ، عن أبي سَعِيد، عن عكرمة، عن ابن عَبَّاس قوله: ﴿ فإنها مُحرَّمة عليهم أربعينَ سنةً يَتِيهُونَ في الأرض ﴾ قال: فتاهوا أربعينَ سنة، فَهَلَك موسى وهارونُ في التِّيه وكلُّ من جاوز الأربعين سنة، فلما مَضَت الأربعون سنة ناهَضَهم «يوشعُ بن نونَ» وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها، وهو الذي قيل له: «اليومُ يومُ الجمعة»، فهمُّوا بافتتاحها،

(١) البيت في مجاز أبي عبيدة ١/ ١٦٠، وتفسير الطبري ٦/ ١٨١.
(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه، وسيأتي الحديث عند الآية ٤٠ من سورة طه.
(٣) أي: دنت.
(٤) انظر تفسير الآية ٥٨ من سورة البقرة.

ودَنَت الشمسُ للغروب، فخشي إن دخلت ليلة السبت أن يُسْبِتُوا، فنادى الشمس: إنّي مأمورٌ وإنكِ مأمورة، فوقفَتْ حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم يُرَ مثلُه قطُّ، فقرَّبوه إلى النار فلم تأت، فقال: فيكُم الغلولُ. فدعا رُؤُوسَ الأسْباطِ، وهم اثنا عشر رَجُلاً فبايَعَهُم، والتصقت يدُ رجلٍ منهم بيَدِه، فقال: الغلولُ عندك، فأخرجه، فأخرج رأس بقرةٍ من ذهب، لها عينان من ياقوتٍ، وأسنانٍ من لُـؤلؤٍ، فوضَعه مع القربان فأتت النار فأكلتها».

وهذا السياق له شاهدٌ في الصحيح. وقد اختار ابنُ جرير أن قوله: ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ هو العامل في ﴿أربعين سنة﴾(١)، وأنهم مَكَثُوا لا يدخلونها أربعينَ سنة، وهم تائهون في البرِّيَّة لا يهتدُون لِمَقصِدٍ. قال: ثم خرجوا مع موسى عليه السلام، ففتح بهم بيت المقدس. ثم احتجَّ على ذلك قال: بإجماع علماء أخبار الأولين أن «عُوجَ بن عُنَق» قتله موسى عليه السلام، قال: فلو كان قَتْلُه إياه قبل التِّيه لما رَهِبَت بنو إسرائيلَ من العماليق، فدلَّ على أنه كان بعد التِّيه. قال: وأجمعوا على أن «بلعام بن باعورا» أعان الجبارين بالدعاء على موسى، قال: وما ذاك إلا بعد التِّيه، لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافُون من موسى وقومه. هذا استدلالُه، ثم قال:

حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عَطِيَّة، حدثنا قيس، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كانت عصا موسى عشرةَ أذرُع، ووثبتُه عَشْرةَ أذرُعٍ، وطولهُ عشرةَ أذرُعٍ، فوثب فأصاب كعب «عُوج» فقتله، فكان جسراً لأهل النيل سنة(٢).

ورَوَى أيضاً عن محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيانُ، عن أبي إسحاقَ، عن نَوفِ البَكَالِيِّ قال: كان سَريرُ «عُوج» ثمانمائة ذراع، وكان طول موسى عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع، ووثَبَ في السماء عشرة أذرُعٍ، فضرب «عُوجاً» فأصاب كعبه، فسقط ميتاً، وكان جسراً للناس يمرّون عليه.

وقولهُ تعالى: ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ تسليةٌ لموسى ـ عليه السلام ـ عنهم، أي: لا تتأسَّفْ ولا تحزَنْ عليهم، فمهما حَكَمْتُ عليهم به فإنهم يستحقون ذلك.

وهذه القصَّةُ تضمَّنت تقريعَ اليهودِ وبيانَ فضائحهم، ومُخالَفتِهم لله ولرسوله ونُكُولهم عن طاعتهما، فيما أمرهم به من الجهاد، فَضَعُفَت أنفسُهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم، مع أن بين أظهُرِهم رسولَ الله ـ ﷺ ـ وكليمه وصفيَّه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يَعِدُهم بالنَّصرِ والظَّفَر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحلَّ الله بِعَدُوِّهم فرعون من العذاب والنكال والغرَق له ولجُنُودِه في اليم، وهم ينظرون لِتَقرَّ به أعينُهم وما بالعهد من قِدَمٍ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهلِ بَلَدِهي بالنسبة إلى ديار مصر لا تُوازي عُشْرَ المعشار في عِدَّةِ أهلها وعُدَدهم، فظهرت قبائحُ صَنِيعهم للخاص والعام، وافتضحُوا فضيحةً لا يُغطيها الليل، ولا يَستُرها الذَّيل، هذا وَهُم في جهلهم يعمَهُون، وفي غَيِّهم يتردَّدُون، وهم البُغَضاء إلى الله وأعداؤُه، ويقولون مع ذلك: «نحن أبناءُ الله وأحباؤُه»، فقبح الله وجوهَهم التي مَسَخَ منها الخنازير والقرود، وألزمهم لعنةً تصحَبُهم إلى النار ذاتِ الوقود، ويَقْضِي لهم فيها بتأبيد الخلود، وقد فَعَل وله الحمدُ من جميع الوُجُود.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ

(١) تفسير الطبري ١٨٤/٦ ـ ١٨٥.
(٢) تفسير الطبري ١٨٥/٦.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾

يقول تعالى مُبَيِّناً وخيمَ عاقبةِ البغي والحَسَد والظُّلم في خبر ابنَي آدم لصُلْبه ـ في قول الجمهور ـ وهما هابيل وقابيل كيف عَدَا أحدُهما على الآخر، فقتله بغياً عليه وحسداً له، فيما وَهَبه الله من النعمة وتَقَبُّل القربان الذي أخلَص فيه لله عزَّ وجلَّ، ففاز المقتول بوَضْع الآثام والدخولِ إلى الجنة، وخاب القاتل ورَجَع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ واتلُ عليهم نبأ ابنَيْ آدَمَ بالحقِّ ﴾، أي: واقصُصْ على هؤلاء البغاةِ الحَسَدَةِ، إخوانِ الخنازير والقِرَدَةِ من اليهود وأمثالهم وأشباههم ـ خَبَر ابنَي آدم، وهما هابيلُ وقابيلُ فيما ذكره غيرُ واحد من السَّلَف والخلف.

وقولُه: ﴿ بالحقِّ ﴾ أي: على الجلية والأمر الذي لا لَبسَ فيه ولا كَذِبَ ولا تَبْدِيلَ، ولا زيادةَ ولا نقصانَ، كما قال تعالى: ﴿ إن هذا لهو القصصُ الحقُّ ﴾ وقال تعالى: ﴿ نحنُ نقصُّ عليك نَبَأهم بالحقِّ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذلك عيسى ابنُ مريَمَ قولَ الحقِّ ﴾.

وكان من خبرهما، فيما ذكره غير واحد من السَّلف والخلف، أن الله تعالى كان قد شَرَع لآدم ـ عليه السلام ـ أن يُزَوِّج بناته من بَنِيه لضرورةِ الحال، ولكن قالوا: كان يُولَد له في كل بطن ذَكَرٌ وأنثى، فكان يُزَوِّج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيلَ دَمِيمَةً، وأختُ قابيلَ وضيئةً، فأراد أن يستأثِرَ بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يُقَرِّبا قرباناً، فمن تُقُبِّل منه فهي له، فقربا فتُقُبِّل من هابيل ولم يُتَقَبَّلْ من قابِيلَ، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه.

ذكر أقوال المفسرين هاهنا:

قال السدِّي ـ فيما ذُكِر ـ عن أبي مالك، وعن أبي صَالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرَّة، عن ابن مسعود ـ وعن ناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ: «أنه كان لا يولد لآدم مولودٌ إلا وُلِد معه جارية، فكان يُزَوِّج غلام هذا البطن جاريةَ هذا البطن الآخر، ويُزَوِّج جارية هذا البطن غُلامَ هذا البطنِ الآخر، حتى وُلِد له ابنان يقال لهما: قابيلُ وهابيلُ، وكان قابيلُ صاحب زَرْع، وكان هابيلُ صاحب ضَرْع، وكان قابيلُ أكبرهما، وكان له أختٌ أحسن من أختِ هابيل. وأنَّ هابيل طلب أن ينكحَ أُختَ قابيلَ، فأبى عليه وقال: هي أُختي، وُلِدَت معي، وهي أحسنُ من أختِك، وأنا أحقُّ أن أتزوَّجَ بها. فأمره أبوه أن يُزَوِّجها هابيلَ، فأبى. وأنهما قَرَّبا قرباناً إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أيُّهما أحقُّ بالجارية، وكان آدم ـ عليه السلام ـ قد غاب عنهما، أتى مكة ينظر إليها، قال الله عزَّ وجلَّ: هل تعلَمُ أن لي بيتاً في الأرض؟ قال: اللهم لا. قال: إنَّ لي بيتاً في مَكَّةَ فأْتِه. فقال آدم للسماء: «احفظي وَلَدي بالأمانة»، فأَبَتْ. وقال للأرض، فأَبَتْ. وقال للجبال، فأَبَتْ. فقال لقابيلَ، فقال: نَعَم، تذهبُ وتَرْجِعُ وتَجِدُ أهلك كما يَسُرُّك. فلما انطلق آدمُ قَرَّبا قرباناً، وكان قابيل يفخَرُ عليه فقال: أنا أحقُّ بها مِنْكَ، هي أختي، وأنا أكبرُ منك، وأنا وَصِيّ والدي. فلما قربا، قَرَّب هابيل جَذَعةً[1] سمينةً، وقَرَّب قابيلُ حُزمَةَ سُنْبُلٍ، فوجدَ فيها

(١) الجذعة من الضأن: ما تمت له سنة.

سُنْبُلَةً عظيمةً، فَفَرَكَها فأكلها. فنزلت النارُ فأكَلَتْ قُربان هَابيلَ، وتركت قُربانَ قَابيلَ. فَغَضِب وقال: لأقتلنَّك حتى لا تنكح أُخْتِي. فقال هابيلُ: إنما يَتَقبَّل الله من المتقين». رواه ابن جرير(١).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصَّباح، حدثنا حَجّاج، عن ابن جُرَيج، أخبرني ابن خُثَيم قال: أقبلتُ مع سعيد بن جُبَير فَحَدَّثني عن ابن عباس قال: نُهِيَ أن تَنْكِح المرأةُ أخاها تَوْءَمَها، وأُمِرَ أن يَنْكِحَها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجلٌ وامرأة، فبينما هم كذلك وُلِدَ له امرأةٌ وَضِيئَةٌ، ووُلِدَ له أخرى قبيحةٌ دَمِيمةٌ، فقال أخو الدَّميمة: أنكحْنِي أختَكَ وأُنْكِحُكَ أُخْتِي. قال: لا، أنا أحقُّ بأختي. فقرَّبا قُرباناً، فَتُقُبِّلَ من صاحب الكَبْشِ، ولم يُتَقبَّلْ من صاحب الزَّرْعِ، فقتله» إسنادٌ جيدٌ.

وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سَلَمة، عن عبدالله بن عثمان بن خُثَيم، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قوله: ﴿إِذْ قَرَّبا قرباناً﴾، فقرَّبا قربانهما، فجاء صاحب الغَنَم بكبش أَعْيَنَ أقرن أبيض(٢)، وصاحب الحرث بصُبْرة(٣) من طعام، فَقَبِلَ الله الكبشَ، فَخَزَنه في الجَنَّة أربعين خريفاً، وهو الكبشُ الذي ذَبَحه إبراهيم ﷺ. إسناد جيد.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عَوفٌ، عن أبي المغيرة، عن عبدالله بن عمرو قال: إن ابنَي آدم اللَّذَين قرَّبا قرباناً فَتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر، كان أحدهما صاحب حَرْثٍ والآخر صاحب غَنَم، وإنهما أُمِرَا أن يُقَرِّبا قرباناً، وإن صاحب الغنم قرب أكرَم غَنَمه وأسمَنها وأحسَنها، طَيبةً بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشرَّ حَرْثه الكودن(٤) والزُّوَان غيرَ طيبةٍ بها نفسُه، وإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تَقَبَّلَ قربانَ صاحب الغَنَم، ولم يَتَقبَّل قربانَ صاحب الحَرْثِ، وكان من قِصَّتِهما ما قَصَّ الله في كتابه. قال: وايمُ اللهِ إن كانَ المقتولُ لأشدَّ الرجلين، ولكن مَنَعه التحرج أن يبسُطَ إلى أخيه»(٥).

وقال إسماعيلُ بن رافع المدَنِي القاصُّ: بلغني أن ابنَي آدم لما أُمِرا بالقُربان، كان أحدُهما صاحبَ غَنَم، وكان أُنْتِجَ له حَمَلٌ في غَنَمه، فأحبَّه حتى كان يُؤْثِرُه بالليل، وكان يحمِلُه على ظهره من حُبِّه، حتى لم يكن له مالٌ أحبُّ إليه منه. فلما أُمِر بالقُربان قَرَّبه لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فَقَبِله الله منه، فما زال يرتَعُ في الجَنَّةِ حتى فُدِيَ به ابنُ إبراهيم عليه السلام». رواه ابن جرير(٥).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الأنصاري، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن علي ابن الحسين قال: قال آدم ـ عليه السلام ـ لهابيلَ وقابيلَ: إنَّ ربي عَهِدَ إليَّ أنه كائن من ذُرِّيتي من يُقَرِّبُ القربان، فَقَرِّبا قرباناً حتى تَقَرَّ عيني إذا تُقُبِّل قربانكما، فَقَرَّبا. وكان هابيلُ صاحب غَنَم فقرب أَكُولة(٦) غَنَمِه، خَيْرَ ماله، وكان قابيـلُ صاحبَ زَرْعٍ، فَقَرَّبَ مُشَاقة(٧) من زَرْعِهِ، فانطلق آدمُ معهما، ومعهما قُربانُهما، فَصَعِدَا الجبلَ فوضَعا قربانهما، ثم جلسوا ثلاثتهم: آدم وهما ينظران إلى القربان، فبعث الله ناراً حتى إذا كانت فوقهما

(١) تفسير الطبري ١٨٨/٦ ـ ١٨٩.
(٢) أعين: واسع العين، وأقرن: كبير القرنين.
(٣) أي: طعام مجتمع كالكومة غير موزون ولا مكيل.
(٤) كذا، وليس له معنى مناسب، فالكودن: الفأس. وفي تفسير الطبري: الكوزن. ولا يعرف له معنى. فأما الزُّوان ـ بضم الزاي وكسرها ـ فهو حبٌّ يخالط الطعام فيرمى به.
(٥) تفسير الطبري ١٨٦/٦ ـ ١٨٧.
(٦) هي التي تسمَّن للأكل.
(٧) أي: بقيّة.

دَنَا منها عُنُق(١)، فاحتمل قربان هابيل وترك قربانَ قَابيلَ، فانصرفوا. وعلم آدمُ أن قابيلَ مسخوطٌ عليه، فقال: ويلَكَ يا قابيلُ رُدَّ عليك قربانُك. فقال قابيلُ: أحببته فصَلَّيتَ على قربانه، ودعوت له فتُقُبِّل قربانُهُ، وَرُدَّ عَلَيَّ قرباني. وقال قابيلُ لهابيلَ: لأقتلنك فأستريحَ منك، دَعا لك أبوك فصلّى على قربانك، فتُقُبِّلَ منك. وكان يتواعده بالقتل، إلى أن احتبس هابيلُ ذات عَشِيَّةٍ في غَنَمه، فقال آدمُ: يا قابيلُ، أين أخوك؟ قال: أَوَ بَعَثْتَني له راعياً؟ لا أدري. فقال آدم: ويلَكَ يا قابيلُ. انطلق فاطلُبْ أخاك. فقال قابيل في نفسه: «الليلةَ أقتلُه»، وأخذ معه حَديدة فاستقبله وهو مُنقلِبٌ، فقال: يا هابيلُ، تُقُبِّلَ قربانُك وَرُدَّ علي قرباني، لأقتلنَّك. فقال هابيل: قَرَّبْتُ أطيبَ مالي، وقربتَ أنت أخبثَ مالِك، وإن الله لا يقبَلُ إلا الطيِّبَ، إنما يَتقبَّلُ الله من المتقين. فلما قالها غَضِب قابيلُ فرفع الحديدةَ وضَرَبه بها، فقال: ويلك يا قابيلُ. أين أنت من الله؟ كيف يَجزيكَ بعملك؟ فقتَلَه فطرحه في جَوْبة(٢) من الأرض، وَحثى عليه شيئاً من التراب.

وقال محمدُ بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: «أن آدم أمر ابنه قيناً(٣) أن ينكِحَ أختَه تُوْءَمَةَ هابيلَ، وأمر هابيلَ أن ينكِحَ أختَه تَوْءَمَةَ قَينٍ، فَسَلَّم لذلك هابيلُ ورَضِي، وأبى ذلك قينٌ وكره، تَكَرُّماً عن أختِ هابيلَ، ورَغِب بأخته عن هابيل، وقال: نحنِ ولادةُ الجنةِ، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحَقُّ بأختي. ـ ويقول بعضُ أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أختُ قينٍ من أحسنِ الناس، فَضَنَّ بها عَن أخيه وأرادها لنفسه. فالله أعلم أيَّ ذلك كان ـ فقال له أبوه: يا بُنَيَّ، إنها لا تحلّ لكَ. فأبى قابيلُ أن يقبلَ ذلك من قول أبيه. فقال له أبوه: يا بُنَيَّ، قَرِّبْ قُرباناً. ويُقَرِّب أخوك هابيلُ قرباناً، فأيكما تُقُبِّلَ قربانهُ فهو أحقُّ بها، وكان قَينٌ على بَذْرِ الأرض، وكان هابيلُ على رعايةِ الماشيةِ، فَقَرَّب قينٌ قمحاً، وقَرَّبَ هابيل أبكاراً من أبكارِ غَنَمه ـ وبعضهم يقول: قَرب بَقَرةً ـ فأرسل الله ناراً بيضاء، فأكلت قربانَ هابيلَ، وتَرَكَتْ قربانَ قَينٍ، وبذلك كان يُقَبل القربان إذا قَبِله». رواه ابن جرير(٤).

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مِسْكينٌ يُتَصَدَّق عليه، وإنما كان القربان يُقَرِّبه الرجل. فبينا ابنا آدمَ قاعدان إذ قالا: «لو قَرَّبنا قرباناً». وكان الرجلُ إذا قَرَّب قرباناً فَرَضِيه الله، أرسلَ إليه ناراً فتأكله. وإن لم يكن رَضِيه الله خَبَتِ النارُ، فقرّبا قرباناً، وكان أحدهما راعياً، وكان الآخر حَرَّاثاً، وإن صاحب الغنم قَرَّب خير غَنَمِه وأسمَنَها، وقَرَّبَ الآخرُ بعض زَرْعِه، فجاءت النارُ فنزلت بينهما، فأكلت الشاةَ وتركتِ الزَّرعَ، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس وقد عَلِمُوا أنك قَرَّبت قرباناً فَتُقُبِّل منك وَرُدَّ عليَّ؟ فلا والله لا ينظر الناس إليكَ وإلي وأنت خيرٌ منّي. فقال: لَأقتلنك. فقال له أخوه: ما ذَنْبِي؟ إنما يَتَقبَّلُ الله من المتَّقينَ. رواه ابن جرير(٥).

فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سَبَبٍ ولا عن تدارُؤٍ في امرأة، كما تَقَدَّم عن جماعة مَنْ تقدم ذكرهم، وهو ظاهرُ القرآن: ﴿ إذ قَرَّبا قرباناً فَتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتقَبَّل من الآخر، قال: لأقتلنك. قال: إنما يتقبل الله من المتقين ﴾. فالسياق يقتضي أنه إنما غَضِب عليه وحَسَده لقبول قُربانه دُونَه.

ثم المشهورُ عند الجمهور أن الذي قَرَّب الشاةَ هو هابيلُ، وأن الذي قَرَّب الطعامَ هو قابيلُ، وأنه تُقُبل من

(١) أي: طائفة وقطعة من النار.
(٢) أي: حفرة.
(٣) هو قابيل.
(٤) تفسير الطبري ٦/١٨٨.
(٥) تفسير الطبري ٦/١٨٧.

هابيل شاتَهُ، حتى قال ابن عباس وغيره: إنه الكبش الذي فُدِي به الذبيحُ، وهو مناسب، والله أعلم، ولم يتقبل من قَابِيلَ. كذلك نَصَّ عليه غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ والخَلَفِ، وهو المشهورُ عن مجاهدٍ أيضاً، ولكن روى ابن جرير عنه أنه قال: الذي قرب الزَّرْعَ قابِيلُ، وهو المتقبَّل منه، وهذا خلافُ المشهورِ، ولعله لم يحفَظْ عنه جَيِّداً، والله أعلم.

ومعنى قولِهِ: ﴿ إنما يتقبَّل الله من المتقين ﴾، أي: ممن اتقى الله في فعله ذلك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيمُ بن العَلاء بن زِبْريقٍ، حدثنا إسماعيلُ بن عياش، حدثني صفوان بـن عَمرو، عن تميم يعني ابن مالك المقري قال: سمعتُ أبا الدرداء يقول: لأن أستيقنَ أنَّ الله قد تَقَبَّل منّي صلاة واحدة أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾.

وحدثنا أبي، حدثنا عبدالله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان ـ يعني الرازي ـ عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون بـن أبي حَمْزَة قال: كنت جالساً عند أبي وائل، فدخل علينا رجلٌ ـ يقال له: أبو عفيف، من أصحاب مُعاذ ـ فقال له شَقِيق بن سلمة: يا أبا عَفِيف، ألا تُحدِّثنا عن معاذِ بن جَبَلٍ؟ قال: بلى، سَمِعتُه يقولُ: «يُحبَسُ الناس في بقيع واحد، فينادي منادٍ: أين المتقون؟ فيقومُونَ في كَنَفٍ من الرحمن، لا يحتجِبُ الله منهم ولا يَسْتَتِرُ. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتَّقَوا الشركَ وعبادةَ الأوثانِ، وأخلَصُوا العبادَةَ، فَيمرُّون إلى الجنةِ».

وقولهُ: ﴿ لئن بسطتَ إليّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أنا بباسطٍ يَدِيَ إليك لأقتلَكَ، إني أخافُ الله رب العالمين ﴾، يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تَقَبل الله قربانه لتقواه حين توعَّده أخوه بالقَتْل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿ لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ﴾، أي: لا أقابِلُكَ على صَنِيعِك الفاسِدِ بمثله، فأكونَ أنا وأنت سواءً في الخطيئة، ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ أي: من أن أصنعَ كما تريدُ أن تصنَعَ، بل أصبرُ وأحتسِبُ.

قال عبدالله بن عَمْرو: وايم الله، إن كان لأشدَّ الرجلين ولكن منعه التحرُّج، يعني الورع.

ولهذا ثبت في الصحيحين، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إذا تواجَهَ المسلمان بسيفيهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار. قالوا: يا رسولَ الله، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟ قال: إنه كان حريصاً على قَتْلِ صاحبه»(1).

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا قُتَيبة بن سعيد، حدثنا ليثُ بن سَعْدٍ، عن عَيَّاش بن عَبَّاس، عن بكير بن عبدالله، عن بُسْر بن سعيد: أن سَعْدَ بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمانَ: أشهد أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنها ستكون فتنةٌ القاعِدُ فيها خير من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي. قال: أفرأيتَ إن دَخَل عليَّ بيتي فَبسط يده إلي ليقتُلَني قال: كن كابنِ آدم»(2).

وكذا رواه الترمذي، عن قُتيبَةَ بن سَعِيد وقال: هذا حديثٌ حسن، وفي الباب عن أبي هُرَيرة، وخَبَّاب بن الأرتِّ، وأبي بَكْرَةَ، وابن مسعود، وأبي وَاقِدٍ، وأبي موسى، وخَرَشَةَ. ورواه بعضُهم عن الليث بن سعد، وزاد في الإسناد رجلاً(3).

قال الحافظُ ابنُ عساكرٍ: الرجلُ هو حُسين الأشْجَعِيّ.

---

(1) أخرجاه في كتاب الفتن، فتح الباري ٣١/١٣، ومسلم ٢٢١٣ ـ ٢٢١٤. وأخرجه البخاري في كتاب الإيمان ٨٤/١ ـ ٨٥.

(2) مسند أحمد ١٨٥/١.

(3) عارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٤٨/٩.

قلتُ: وقد رواه أبو داودَ من طَريقه فقال: حدثنا يزيدُ بن خالد الرَّمْلِي، حدثنا المُفَضَّل، عن عَيَّاش بن عباس، عن بُكَير، عن بُسْر بن سعيد، عن حُسَين بن عبد الرحمن الأشْجَعِيّ: أنه سَمِع سعدَ بن أبي وقاص، عن النبي - ﷺ - في هذا الحديث قال، فقلت: «يا رسول الله، أرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبَسَط يَدَه ليقتلني؟ قال: فقال رسولُ الله - ﷺ -: كُنْ كابنِ آدمَ». وتلا يزيد: ﴿لئن بسطتَ إليّ يدَكَ لِتقتُلَني، ما أنا بباسطٍ يَدِيَ إليك لأقتُلَكَ، إني أخافُ الله ربَّ العالمين﴾[(١)].

قال أيُوبُ السَّخْتياني: «إن أوّلَ من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿لئن بسطتَ إلي يَدَكَ لتقتُلَني ما أنا بباسطٍ يَدِيَ إليكَ لأقتُلَكَ إني أخافُ الله ربَّ العالَمينَ﴾ لَعُثمان بن عَفَّان، رَضِي الله عنه». رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا مَرْحوم، حدثني أبو عمران الجَوْني، عن عبدالله بن الصَّامت، عن أبي ذَرٍّ قال: «رَكِبَ النبي - ﷺ - حِماراً وأردفني خَلْفَه، وقال: يا أبا ذَرٍّ، أرأيت إن أصاب الناسَ جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنَع؟ قال، قال: الله ورسولُه أعلم. قال: تعفَّفْ. قال: يا أبا ذَرٍّ، أرأيت إن أصاب الناس موتٌ شديدٌ، يكون البيتُ فيه بالعَبْدِ - يعني القبر[(٢)] - كيف تصنعُ؟. قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: اصبر. قال: يا أبا ذَرٍّ، أرأيت إنْ قَتَل الناسُ بعضُهم بعضاً، يعني حتى تغرق حجارة الزيت[(٣)] من الدماء، كيف تصنعُ؟ قال: الله ورسوله أعلمُ. قال: اقعُد في بيتك وأغلِق عليك بابك. قال: فإن لم أُترَك؟ قال: فأتِ من أنت منهم، فكُنْ فيهم. قال: فآخذ سلاحي؟ قال: إذاً تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خَشِيت أن يروعَكَ شعاع السيف، فألق طرف ردائك على وَجْهكَ حتى يبوءَ بإثمه وإثمِكَ»[(٤)].

رواه مسلم[(٥)] وأهل السُّنَنِ سوى النسائي، من طرق، عن أبي عِمْران الجَوْنِيِّ، عن عبدالله بن الصَّامت، به. ورواه أبو داود وابن ماجَه، من طريق حَمّاد بن زيد، عن أبي عِمرانَ، عن المُشَعَّث بن طَرِيفٍ، عن عبدالله ابن الصَّامتِ، عن أبي ذَرٍّ، بنحوه.

قال أبو داود: ولم يذكر المُشَعَّثَ في هذا الحديث غيرُ حَمّاد بن زَيدٍ[(٦)].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا قَبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان، عن منصور، عن رِبْعيّ قال: كنا في جنازة حُذَيفة، فَسَمِعتُ رجلاً يقول: سَمِعت هذا يقولُ في ناس: «مما سَمِعتُ من رسول الله - ﷺ -: «لئن اقتتلتم لأنظرَنَّ إلى أقصى بيتٍ في داري، فَلألِجَنَّه، فَلَئِنْ دَخل عَليَّ فلان لأقولن: ها، بُؤْ بإثمي وإثمك، فأكون كخير ابني آدم.

وقولُهُ: ﴿إني أريد أن تَبُوءَ بإثمي وإثْمِكَ، فتكونَ من أصحابِ النار، وذلك جزاءُ الظالمين﴾.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحاك، وقتادة، والسدِّيُّ، في قوله: ﴿إني أريدُ أن تبوءَ بإثمي وإثْمِكَ﴾، أي: بإثم قتلي وإثمِكَ الذي عَليك قبلَ ذلك.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الفتن ٤/٩٩.
(٢) يريد أن مواضع القبور تضيق حتى يكون ثمن القبر عبداً.
(٣) في سنن أبي داود: أحجار الزيت. وأحجار الزيت: موضع كان بالمدينة.
(٤) مسند أحمد ٥/١٤٩.
(٥) كذا، ولم يقع لنا في مسلم من هذه الطريق. فأما إذا أراد السند وحده فهو في كتاب المساجد ١/٤٤٨.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الفتن ٤/١٠١، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٠٨.

قال ابن جرير: وقال آخرون: «يعني ذلك أني أريد أن تبوء بخطيئتي، فتَتحمَّل وِزْرها، وإثْمَك في قتلك إياي. وهذا قولٌ وجدته عن مجاهد، وأخشى أن يكونَ غَلَطاً، لأن الصحيحَ من الروايةِ عنه خلافُه»[١].

يعني: ما رواه سفيانُ الثوريُّ، عن منصور، عن مجاهد: ﴿ إني أريد أن تبوءَ بإثمي ﴾، قال: بِقَتْلِكَ إيَّايَ. ﴿ وإثمك ﴾ قال: بما كان منك قبل ذلك[١].

وكذا روى عيسى، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، مثلَه. وروى شِبْلٌ عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿ إني أُريدُ أن تَبُوءَ بإثمي وإثمك ﴾، يقول: إني أريد أن يكونَ عليك خطيئتي ودمي، فتبوءَ بهما جَمِيعاً[١].

قلت: وقد يَتوهَّم كثير من الناس هذا القولَ، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: ما ترك القاتلُ على المقتولِ من ذنب. وقد روى الحافظُ أبو بكر البَزَّار حديثاً يُشبِهُ هذا، ولكن ليس به، فقال:

حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثنا يعقوبُ بنُ عبدالله، حدثنا عَنْبَسَة بن سَعيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قتلُ الصَّبْر لا يمرُّ بذنبٍ إلا محاه»[٢].

وهذا بهذا لا يصحّ، ولو صحَّ فمعناه أن الله يُكَفِّر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمَلَ على القاتلِ فلا. ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص، وهو الغالبُ، فإن المقتول يطالب القاتلَ في العَرَصَات، فيُؤخَذُ له من حَسناته بقدر مَظْلَمَته، فإن نَفِدت ولم يَسْتَوفِ حَقَّه أُخِذ من سيئات المقتول فَطُرِحَت على القاتل، فَرُبَّما لا يبقَى على المقتولِ خطيئةٌ إلا وُضِعَتَ على القاتل. وقد صَحَّ الحديثُ بذلك عن رسول الله ـ ﷺ ـ في المظالم كُلِّها، والقتلُ من أعظَمِها وأشدِّها، والله أعلم.

وأما ابنُ جرير فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقَال: إنَّ تأويله: إني أريد أن تَنْصرفَ بخطيئتك في قتلك إياي. وذلك هو معنى قوله: ﴿ إني أريد تَبُوءَ بإثمي ﴾. وأما معنى ﴿ وإثمِكَ ﴾ فهو إثْمهُ بغير قتله، وذلك معصيته الله عزّ وجلّ في أعمالٍ سواه.

وإنما قلنا ذلك هو الصوابُ، لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أخبرنا أن كلَّ عاملٍ فجزاءُ عَمَلِه له أو عليه، وإذا كان هذا حُكْمَه في خَلْقه فغير جائز أن تكون آثامُ المقتول مأخوذاً بها القاتلُ، وإنما يؤخَذُ القاتلُ بإثمه بالقتل المحرَّم وسائر آثام معاصيه التي ارتكَبها بنفسه دون ما رَكِبَه قتيلُه»[٣].

هذا لفظهُ ثم أورد سؤالاً، حاصله: كيف أراد هابيل أن يكونَ على أخيه قابيلَ إثمُ قَتْلِه وإثمُ نَفْسِه، مع أن قتله له مُحَرَّم؟ وأجاب بما حاصلُه: أنَّ هابيل أخبرَ عن نفسه بأنه لا يُقاتل أخاه إن قاتَله، بل يكف يده عنه، طالباً ـ إنْ وقع قتل ـ أن يكون من أخيه لا منه[٣].

قلت: وهذا الكلام مُتضمِّنٌ موعظةً له لو اتَّعَظَ، وزَجْراً له لو انزجَر، ولهذا قال: ﴿ إني أريدُ أن تبوءَ بإثمي وإثمِكَ ﴾ أي: تَتحمَّل إثْمِي وإثمِكَ، ﴿ فتكونَ من أصحابِ النارِ وذلك جزاءُ الظالمين ﴾.

وقال ابن عباس: خَوَّفه النار فلم ينتهِ ولم ينزجر.

---

(١) تفسير الطبري ١٩٣/٦.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الحدود ٢١٤/٢.
(٣) تفسير الطبري ١٩٣/٦.

وقولُه تعالى: ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾، أي: فَحسَّنت وسوَّلت له نفسُه، وشجَّعته على قَتْلِ أخيه فقتله، أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزَّجْر.

وقد تقدَّم في الرواية عن أبي جعفر الباقر ـ وهو محمد بن علي بن الحسين ـ: أنه قتلَه بحديدةٍ في يده.

وقال السدِّيُّ، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مُرَّةَ، عن عبدالله، وعن ناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ﴿ فطوَّعت له نفسُه قتلَ أخيه ﴾ فطلبه ليقتله، فراغ الغلامُ منه في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام وهو يرعَى غنماً له وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعَراء.. رواه ابن جرير[1].

وعن بعض أهل الكتاب: أنه قتَلَه خنقاً وعَضاً، كما تقتُل السباع.

وقال ابن جُرَيج: «لما اراد أن يقتله جعل يلوي عُنُقه فأخذ إبليس دابةً ووضع رَأسَها على حَجَرٍ، ثم أخذ حَجَراً آخرَ فضرَبَ به رأسَها حتى قتَلها، وابنُ آدم ينظُر، ففعل بأخيه مثلَ ذلك». رواه ابن أبي حاتم.

وقال عبدالله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: أخذ برأسه ليقتله، فاضطجَعَ له، وجَعَل يغمِزُ رأسَه وعِظَامَه ولا يَدْري كيف يقتلُهُ، فجاءه إبليسُ فقال: أتريدُ أن تَقتلَه؟ قال: نعم. قال: فَخُذْ هذه الصخرةَ فاطرحها على رَأْسِه. قال: فأخذها، فألقاها عليه، فشَدَخ رأسه. ثم جاء إبليسُ إلى حَوَّاءَ مسرعاً، فقال: يا حواءُ، إنَّ قابيلَ قتل هابيلَ. فقالت له: ويحكَ. أيُّ شيءٍ يكونُ القتلُ؟ قال: لا يأكلُ ولا يشربُ ولا يتحرَّكُ. قالت: ذلك الموتُ. قال: فهو الموتُ. فجعلت تصيحُ حتى دخل عليها آدمُ وهي تصيحُ، فقال: ما لك؟ فلم تُكلِّمه، فرجَعَ إليها مرَّتين، فلم تُكَلِّمه. فقال: عليكِ الصيحةُ وعلى بناتك، وأنا وبنِيّ منها برآء. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُهُ: ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾، أي: في الدنيا والآخرة، وأيّ خسارة أعظم من هذه؟ وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدثنا الأعمش، عن عبدالله بن مُرَّةَ، عن مسروق، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تُقْتَلُ نفس ظُلماً إلاّ كانَ على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ من دَمِها، لأنه كان أوَّلَ مَن سَنَّ القتلَ»[2].

وقد أخرجه الجماعةُ سوى أبي داودَ من طُرُق، عن الأعمش، به[2].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثني حَجَّاج قال: قال ابن جُرَيج: قال مجاهد: «عُلِّقت إحدى رجلَي القاتل بساقها إلى فَخِذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهُهُ في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حَظيرةٌ من نار وعليه في الشتاء حَظِيرة من ثلج ـ قال: وقال عبدالله بن عمرو: إنا لنجدُ ابنَ آدم القاتلَ يقاسِمُ أهلَ النارِ قسمةً صحيحةَ العذابِ، عليه شطرُ عذابهم»[3].

وقال ابن جَرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن حَكِيم بن حكيم: أنه حدَّث عن

(١) تفسير الطبري ١٩٥/٦.
(٢) مسند أحمد ٣٨٣/١، وانظر ٤٣٣/١، وفتح الباري، كتاب الأنبياء ٣٦٤/٦، ومسلم، كتاب القسامة ١٣٠٣ ـ ١٣٠٤، وعارضة الأحوذي، أبواب العلم ١٤٢/٧، والنسائي، كتاب تحريم الدم ٨١/٧ ـ ٨٢، وابن ماجه، كتاب الديات ٨٧٣.
(٣) تفسير الطبري ١٩٣/٦.

عبدالله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى أهل النار رَجُلاً ابنُ آدم الذي قَتَل أخاه، ما سُفِك دمٌ في الأرضِ منذ قَتَل أخاه إلى يوم القيامة، إلا لَحِق به منه شرٌّ، وذلك أنه أول من سَنَّ[(١)] القتلَ.

وقال إبراهيمُ النَّخَعِيّ: «ما من مقتولٍ يُقتَلُ ظلماً، إلا كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ والشيطانِ كِفْل منه» رواه ابن جرير أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿ فبعَثَ الله غُرَاباً يبحثُ في الأرض، لِيُرِيَه كيف يُوارِي سوأةَ أخيه قال يا ويلَتى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغرابِ فأُوارِيَ سوأة أخـي فأصبحَ من النادمين ﴾.

قال السدِّيُّ بإسناده المتقدم إلى الصحابة: لما مات الغلام تركَه بالعراء، ولا يعلم كيف يُدفَن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتتلا، فقتل أحدُهما صاحبَه، فحفر له ثم حَثَى عليه. فلما رآه قال: ﴿ يـا وَيْلَتى أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي ﴾[(٢)]؟.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء غرابٌ إلى غرابٍ مَيِّت، فَحَثى عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿ يا ويلتى أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغُرابِ فأواري سَوْأَةَ أخي ﴾[(٢)].

وقال الضَّحَّاكُ، عن ابن عباس: مَكَث يحمِلُ أخاه في جرابٍ على عاتِقه سنةً، حتى بعث الله الغُرابين، فرآهما يبحثان، فقال: ﴿ أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغرابِ ﴾ فَدفن أخاه[(٢)].

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: وكان يحمله على عاتقه مائةَ سنةٍ ميِّتاً، لا يدري ما يصنعُ به، يحمله ويضَعه إلى الأرض حتى رأى الغرابَ يدفُن الغرابَ، فقال: ﴿ يا ويلتى أعـجزتُ أن أكونَ مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخـي فأصبح من النادمين ﴾. رواه ابن جرير[(٣)] وابن أبي حاتم.

وقال عطية العَوفي: «لما قَتَله ندم، فَضَمَّه إليه حتى أَرْوَحَ، وعكفت عليه الطيورُ والسباع تنتظر متى يرمِي به فتأكله». رواه ابن جرير[(٢)].

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: «لما قتله سُقِطَ في يديه، ولم يَدْرِ كيفَ يُواريه. وذلك أنه كان ـ فيما يزعمون ـ أوَّلَ قتيلٍ في بني آدم وأوَّلَ مَيِّتٍ»، ﴿ فبعثَ الله غراباً يبحث في الأرض لِيُريَه كيفَ يواري سوأةَ أخيه قال: يا ويلتى، أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغرابِ فأُوارِيَ سوأةَ أخي فأصبحَ من النادمين ﴾ ـ قال: وزعم أهل التوراة أن قيناً[(٤)] لما قتل أخاه هابيلَ، قال له الله ـ عزّ وجلّ ـ: يا قينُ، أين أخوكَ هابيلُ؟ قال: قال: ما أدري ما كنتُ عليه رقيباً! فقال الله: إن صوتَ دَمِ أخيك ليناديني من الأرض، والآن أنت ملعونٌ من الأرض التي فتحتْ فاهاً فبلعَتْ دم أخيك من يدك، فإن أنت عَمِلت في الأرض، فإنها لا تعود تُعطِيك حَرْثَها حتى تكون فَزِعاً تائهاً في الأرض[(٣)].

وقولُهُ: ﴿ فأصبح من النادمين ﴾، قال الحسنُ البصري: علاه الله بندامةٍ بعد خُسْرَانٍ.

فهذه أقوال المفسرين في هذه القصَّة، وكلُّهم متفقون على أن هذين ابنا آدَمَ لصلبه، كما هو ظاهرُ القرآنِ، وكما نَطق به الحديثُ في قوله: «... إلا كان على ابنِ آدم الأول كِفْل من دمها؛ لأنه أول من سَنَّ القتل». وهذا ظاهر جَلِيّ، ولكن قال ابن جرير:

(١) تفسير الطبري ١٩٣/٦.
(٢) تفسير الطبري ١٩٧/٦.
(٣) تفسير الطبري ١٩٨/٦.
(٤) قين: اسم قابيل أيضاً.

حدثنا ابن وَكيع، حدثنا سَهل بن يوسف، عن عَمرو، عن الحسن ـ هو البصري ـ قال: «كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله: ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ من بني إسرائيلَ، ولم يكونا ابنَي آدمَ لصلبه، وإنما كان القُربان في بَنِي إسرائيل، وكان آدمُ أوّلَ من مات»(١).

وهذا غريبٌ جداً، وفي إسناده نظر.

وقد قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ ابني آدم ـ عليه السلام ـ ضُربا لهذه الأمةِ مثلاً، فخذُوا بالخيرِ منهما»(٢).

ورواه ابنُ المبارك، عن عاصمِ الأحول، عن الحسن قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله ضَرَبَ لكم ابنَي آدمَ مثلاً، فَخُذُوا من خَيرهم ودَعُوا الشَّرَّ»(٢).

وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبدالله المُزَني، روى ذلك كلَّه ابنُ جَرير(٢).

وقال سالم بن أبي الجَعْدِ: لما قتل ابنُ آدمَ أخاه، مكثَ آدمُ مائةَ سنةٍ حزيناً لا يضحك، ثم أتى فقيل له: حياك الله وبيَّاك، أي: أضحكَكَ. رواه ابنُ جَرير.

ثم قال: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا سلمة، عن غياث بن إبراهيم، عن أبي إسحاق الهمذاني قال: قال علي بن أبي طالب: لما قتل ابنُ آدَمَ أخاه، بكاه آدم فقال(٣):

تَغَيَّرتِ البِلادُ ومَنْ عَلَيها ... فَلَوْنُ الأرض مُغْبَرٌّ قَبيحُ
تَغَيَّر كُلُّ ذِي لونٍ وطَعْمٍ ... وقَلَّ بَشَاشَةُ الوَجْهِ المَليحِ

فأجيب آدم عليه السلام:

أبَا هَابِيلَ قَدْ قُتِلا جَميعاً ... وصَارَ الحيُّ كالميْتِ الذَّبيحِ
وجَاءَ بِشرةٍ قَد كانَ مِنْها ... عَلى خَوفٍ، فجاءَ بها يَصِيحُ

والظاهرُ أنَّ قابيلَ عُوجِلَ بالعقوبة، كما ذكره مجاهدُ بن جَبْر: «أنه عُلِّقَتْ ساقه بفَخِذه يوم قَتْله، وجعل الله وجهَه إلى الشمس حيث دارت عقوبةً له وتنكيلاً به». وقد وَرَد في الحديث أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما من ذَنْبٍ أجدرَ أن يُعَجِّلَ الله عقوبتَه في الدنيا مع ما يَدَّخِرَ لصاحبه في الآخرة، من البغي وقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»(٤). وقد اجتمع في فعل قابيلَ هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعونَ.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ

(١) تفسير الطبري ٦/١٨٩.
(٢) تفسير الطبري ٢/١٩٩.
(٣) تفسير الطبري ٢/١٩٠. وانظر الأمالي الشجرية ١/٣٨٤، والإنصاف لأبي البركات الأنباري ٦٦٢، والهمع ٢/٢٠٩، ورسالة الغفران لأبي العلاء ٢٨٤.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٧٦، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٠٨، ومسند أحمد ٥/٣٦، ٣٨.

خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ من أَجْلِ ﴾ قَتْلِ ابنِ آدمَ أخاه ظُلماً وعُدواناً: ﴿ كتبنا على بني إسرائيلَ ﴾، أي: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أنَّه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض، فكأنما قَتَل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾، أي: ومن قتل نفساً بغير سَبَبٍ من قصاص، أو فسادٍ في الأرض، واستحلَّ قتلها بلا سَبب ولا جنايةٍ، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فَرْقَ عنده بين نَفْسٍ ونَفْس، ﴿ ومن أحياها ﴾ أي: حَرَّم قتلها واعتقد ذلك، فقد سَلِم الناسُ كُلُّهم منه بهذا الاعتبار، ولهذا قال: ﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾.

وقال الأعمشُ وغيرُه، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئتُ لأنصرَكَ وقد طاب الضربُ يا أميرَ المؤمنين. فقال: يا أبا هُرَيرةَ، أيسرُّكَ أن تَقْتُلَ الناسَ جميعاً وإيايَ مَعَهُم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قَتَلْتَ رَجُلاً واحداً فكأنما قتلتَ الناسَ جميعاً، فانْصَرِفْ مأذوناً لك، مأجوراً غير مأزور. قال: فانصرفت ولم أقاتل.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿ من قَتَل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قَتَل الناسَ جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾، وإحياؤها: ألَّا يَقْتُلَ نفساً حَرَّمها الله، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً، يعني: أنه من حَرَّم قتلها إلا بحق، حَيِيَ الناس منه جميعاً[1].

وهكذا قال مجاهدٌ: ﴿ ومن أحياها ﴾ أي: كَفَّ عن قَتْلِها.

وقال العوفيّ عن ابن عباس، في قوله: ﴿ فكأنما قَتَل الناس جميعاً ﴾ يقول: من قَتَل نفساً واحدة حَرَّمها الله، فهو مثلُ من قَتَل الناس جميعاً.

وقال سعيد بن جُبَير: من استحَلَّ دمَ مُسْلِم فكأنما استحَلَّ دماء الناس جميعاً، ومن حَرَّم دَمَ مُسلمٍ فكأنما حَرَّمَ دماء الناس جميعاً.

هذا قولٌ، وهو الأظهر. وقال عكرمةُ، والعوفيّ، عن ابن عباس: «من قتل نَبِيّاً أو إمام عَدْل، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شَدَّ على عَضُد نَبِيٍّ أو إمامٍ عدلٍ، فكأنما أحيا الناس جميعاً». رواه ابن جرير[2].

وقال مجاهد في رواية أخرى عنه: «من قتل نفساً بغيرِ نفس. . فكأنما قتل الناس جميعاً»، وذلك لأنه من قتل النفس فله النار، فهو كما لو قَتَل الناس كُلَّهم.

وقال ابن جُرَيج، عن الأعرج، عن مجاهد في قوله: ﴿ فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾: من قتل النفس المؤمنة متعمداً، جعل الله جزاءه جهنم، وغَضِب الله عليه ولَعَنه، وأعدَّ له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناسَ جميعاً لم يَزِدْ على مثل ذلك العذاب».

قال ابن جُرَيج: قال مجاهد ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾، قال: من لم يقتل أحداً فقد حَيِيَ الناس منه.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: «من قتل نفساً فكأنما قتل الناس، يعني: فقد وَجَب عليه القصاصُ،

(١) تفسير الطبري ٦/٢٠٧.
(٢) تفسير الطبري ٦/٢٠٠.

فلا فرق بين الواحد والجماعة ﴿ ومن أحياها ﴾ أي: عَفَا عن قاتِلِ وَلِيِّه، فكأنما أحيا الناسَ جَمِيعاً». وحَكَى ذلك عن أبيه، رواه ابن جرير.

وقال مجاهد في روايةٍ: ﴿ ومن أحياها ﴾ أي: أنجاها من غَرْقٍ أو حَرْقٍ أو هَلَكَةٍ.

وقال الحسنُ وقتادةُ في قوله: ﴿ أنه من قَتَل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قَتَل الناس جميعاً ﴾، هذا تعظيمٌ لتعاطي القتل. قال قتادةُ: عَظُم والله وِزْرُها، وعظم والله أَجْرُها.

وقال ابـن المبارك، عن سلام بن مسكين، عن سليمان بن علي الربَعِيِّ قال: قلت للحسن: «هذه الآية لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيرُه، كما كانت لبني إسرائيلَ، وما جَعَل دماء بني إسرائيل أكرَمَ على الله من دمائنا»؟.

وقال الحسنُ البصري: ﴿ فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾، قال: وِزْراً، ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾، قال: أجراً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، حدثنا حُيَيُّ بن عبدالله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبدالله بن عَمْرٍو قال: «جاء حَمْزَةُ بن عبد المطلب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، اجعلني على شيءٍ أَعِيشُ به: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا حَمْزَةُ، نفسٌ تُحييها أحبُّ إليكَ أم نفسٌ تُمِيتُها؟ قال: بل نفسٌ أحييها. قال: عَلَيكَ بنفسِكَ»[١].

وقولهُ: ﴿ ولقد جاءتهم رُسُلنا بالبينات ﴾، أي: بالحُجَجِ والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾، وهذا تقريعٌ لهم وتوبيخٌ على ارتكابهم المحارِمَ بعد عِلْمِهم بها، كما كانت بنو قُرَيظة والنَّضير وغيرهم من بني قَيْنُقَاع ممن حَوْلَ المدينةِ من اليهود، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وَقَعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعَتِ الحروبُ أوزارَها فَدَوا من أسروه، وَوَدَوا من قتلوه. وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة، حيث يقول: ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وإن يأتوكم أسارى تفادُوهم، وهو مُحرَّم عليكم إخراجُهم، أفتؤمنون بِبَعْضِ الكتاب وتكفُرُون ببعضٍ؟ فما جزاءُ من يَفعَلُ ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشدِّ العذابِ، وما الله بغافلٍ عما تعملون ﴾[٢].

وقولهُ تعالى: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعَون في الأرض فساداً، أن يُقتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تقطَّعَ أيديهم وأرجلُهم من خلاف أو ينفَوا من الأرض ﴾... الآية. المحاربة: هي المضادَّة والمخالَفَةُ، وهي صادِقَةٌ على الكفر، وعلى قَطْعِ الطريقِ وإخافةِ السبيل، وكذا الإفسادُ في الأرض يُطلَقُ على أنواع من الشرِّ، حتى قال كثيرٌ من السلف، منهم سَعِيد بن المسيَّب: إن قَرْضَ الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض، وقد قال الله تعالى: ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد ﴾.

ثم قال بعضُهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، كما قال ابن جَرِير:

حَدَّثنا ابن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحُسَين بن واقد، عن يَزِيد، عن عكرمة والحسن

(١) مسند أحمد ١٧٥/٢.

(٢) سورة البقرة، آية ٨٤ ـ ٨٥.

البصري قالا: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ إلى: ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾، نزلت هذه الآيةُ في المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقدِرُوا عليه، لم يكن عليه سبيلٌ، وليست تحرزُ هذه الآيةُ الرجلَ المسلمَ من الحدِّ، إن قتلَ أو أفسدَ في الأرض أو حارب الله ورسولَه، ثم لَحِقَ بالكفَّار قبل أنْ يُقدَرَ عليه، لم يمنعه ذلك أن يُقَام عليه الحدُّ الذي أصاب[١].

ورواه أبو داود والنسائي، من طريق عِكرمةَ، عن ابن عباس: ﴿ إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعَون في الأرض فساداً ﴾: نزلت في المشركين، فمن تاب منهم قبلَ أن يُقدَرَ عليه لم يمنعه ذلك أن يُقامَ فيه الحدُّ الذي أصابه[١].

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعَون في الأرض فساداً ﴾، قال: كان قومٌ من أهل الكتابِ، بينهم وبين النبي ـ ﷺ ـ عهدٌ وميثاقٌ، فنقَضُوا العهدَ وأفسدُوا في الأرض، فخيَّر اللهُ رسولَه: «إن شاء أن يَقتُلَ، وإن شاء أن يَقْطَعَ أيديَهم وأرجلَهُم من خِلَافٍ». رواه ابنُ جَرِيرٍ[١].

وروى شعبةُ، عن منصور، عن هلال بن يِسَاف، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: نزلت في الحَرُورِيَّة[٢]: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعَون في الأرض فساداً ﴾. رواه ابن مَرْدُويه.

والصحيحُ أن هذه الآيةَ عامَّةٌ في المشركين وغيرهم ممن ارتكَب هذه الصفاتِ، كما رواه البخاريّ ومسلم من حديث أبي قِلابة ـ واسمه عبدالله بن زيدٍ الجَرْمي البَصْري ـ عن أنس بن مالك: «أن نفراً من عُكْلٍ ثمانيةَ قَدِموا على رسول الله ـ ﷺ ـ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا[٣] الأرض، وسَقِمت أجسامُهم، فشكَوا ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتُصيبوا من أبوالها[٤] وألبانها؟ فقالوا: بلى، فخرجوا، فشربوا من أبوالها وألبانها، فصَحُّوا، فقتلوا الراعِيَ وطَرَدُوا[٥] الإبل. فبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَبعث في آثارِهم، فأُدْرِكُوا، فجيء بهم، فأمر بهم فَقُطِعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِرَت[٦] أعينهم، ثم نُبِذُوا في الشَّمس حتى ماتوا». لفظ مسلم.

وفي لفظ لهما: «من عكل أو عُرَينة» وفي لفظ: «وأُلْقُوا في الحَرَّة فجعلوا يَسْتَسْقُون فلا يُسْقَون» وفي لفظ لمسلم: «ولم يَحْسِمْهم»[٧]. وعند البخاري: «قال أبو قلابة: فهؤلاء سَرَقوا وقَتَلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله». ورواه مسلم من طريق هُشَيم، عن عبد العزيز بن صُهَيب وحُمَيد، عن أنس. فذكر نحوه، وعنده: «وارتدّوا». وقد أخرجاه من رواية قتادةَ عن أنس، بنحوه. وقال سَعيد عن قتادة: «من عُكل وعُرَينَةَ». ورواه مسلم من طريق سليمان التَّيميِّ، عن أنس قال: إنما سَمَلَ النبي ـ ﷺ ـ أعين أولئك لأنهم سَمَلوا أعين الرِّعاء». ورواه مُسْلِمٌ، من حديث معاويةَ بن قُرَّةَ عن أنس قال: «أتى رسولَ الله ـ ﷺ ـ نفرٌ من

(١) تفسير الطبري ٦/٢٠٦، وسنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/١٣٢.
(٢) الحرورية: من الخوارج الذين قاتلهم علي رضي الله عنه، وتنسب هذه الجماعة إلى حروراء، وهو موضع بظاهر الكوفة، كان أول اجتماعهم بها.
(٣) أي: لم توافقهم.
(٤) أي: فتشربوا من أبوالها وألبانها. وفيه دليل على جواز التداوي بالمحرم عند الضرورة.
(٥) أي: ساقوها.
(٦) أي: فقئت.
(٧) أي: لم يكوهم.

عُرَينة، فأسلموا وبايعوه، وقد وقع بالمدينة المُومُ ـ وهو البِرْسام[١] ـ ثم ذَكَر نحو حَدِيثهم، وزاد: وعنده شباب من الأنصار، قريب من عشرين فارساً فأرسلهم، وبعَثَ مَعَهُم قائفاً يَقْتَصّ أثَرهم. وهذه كلها ألفاظ مسلم رحمه الله[٢].

وقال حماد بن سلمة: حدثنا قتادة وثابت البُنَانِيُّ وحُمَيد الطويلُ، عن أنس بن مالك أنَّ ناساً من عُرَينة قَدِمُوا المدينةَ، فاجْتَوَوها، فبعثَهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ في إبلِ الصَّدَقةِ، وأمَرَهُم أن يَشْرَبُوا من أبوالها وألبانها ففعلوا، فَصَحُّوا فارتدُّوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، وساقوا الإبلَ، فأرسلَ رسول الله ـ ﷺ ـ في آثارهم، فَجِيءَ بهم فَقَطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسَمَرَ أعينهم وألقاهم في الحَرَّةِ ـ قال أنس: فلقد رأيتُ أحدهم يَكْدُم[٣] الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا، ونزلت: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ . . . الآية.

وقد رواه أبو داودَ والترمذيُّ والنسائيّ وابن مَرْدُوَيه ـ وهذا لفظهُ ـ وقال الترمذيُّ: «حَسَن صَحِيحٌ»[٤].

وقد رواه ابن مَرْدُوَيه من طُرُق كثيرة عن أنس بن مالك، منها ما رواه من طريقين عن سَلام بن أبي الصهباء، عن ثابت، عن أَنَس بن مالك قال: ما نَدِمْتُ على حديثٍ ما نَدِمتُ على حَدِيثٍ سألني عنه الحجَّاجُ قال: أخبرني عن أشدِّ عقوبةٍ عاقَبَ بها رسولُ الله ﷺ. قال قلت: قَدم على رسول الله ـ ﷺ ـ قوم من عُرَينَةَ، من البحرين، فَشَكَوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ما لَقُوا من بُطُونهم، وقد اصفرَّت ألوانُهم، وضَخُمت بطونهم، فأمرهم رسول الله ـ ﷺ ـ أن يأتوا إبلَ الصدقة، فيشرَبُوا من أبوالها وألبانها، حتى إذا رَجَعَتْ إليهم ألوانُهم وانخمصَت بطونُهم عَدَوا على الراعي فقتلوه، واستاقُوا الإبل، فأرسلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ في آثارهم فَقَطع أيديَهم وأرجلَهم وسَمَر أعيُنَهم، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا. فكان الحجَّاجُ إذا صَعِد المنبر يقول: إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قد قَطَع أيديَ قومٍ وأرجُلَهم ثم ألقاهم في الرَّمْضَاءِ حتى ماتُوا لِحال ذَوْدٍ، وكان يحتج بهذا الحديث على الناس.

وقال ابنُ جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليدُ ـ يعني ابنَ مسلم ـ حدثني سعيدٌ، عن قتادَةَ، عن أنس قال: كانوا أربعة نفر من عُرَينة، وثلاثة نفر من عُكْلٍ، فلما أُتِيَ بهم قَطَع أيديهم وأرجلهم، وسَمَل أعينهم، ولم يَحْسِمْهم، وتركهم يَتَلقَّمون[٥] الحجارة بالحرة، فأنزل الله في ذلك: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ . . . الآية[٦].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حَرْبٍ المَوْصِليُّ، حدثنا أبو مسعود ـ يعني عبد الرحمن بن الحسن الزجاجَ ـ حدثنا أبو سعد ـ يعني البَقَّال ـ عن أنس بن مالك قال: كان رهط من عُرَينة أتوا رسول الله ـ ﷺ ـ وبهم جَهْد، مُصْفَرَّة ألوانُهم، عَظِيمة بطونُهم، فأمَرَهم أن يَلْحَقوا بالإبل فَيَشْرَبُوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا، فصفت ألوانهم وخَمِصَت بطونُهم، وسَمِنوا، فقتلوا الراعي واستاقُوا الإبل، فبعث النبي ـ ﷺ ـ في طَلَبهم، فَأُتِي بهم، فَقَتَل بعضَهم، وسَمَر أعيُنَ بعضهم، وقَطَع أيدِيَ بعضِهم وأرجُلَهم، ونزلت: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ . . . إلى آخر الآية.

---

(١) المُومُ: اختلال العقل. والبرسام: علة يهذي فيها.

(٢) رواية أبي قلابة في فتح الباري، كتاب الديات ١٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، ومسلم، كتاب القسامة ١٢٩٦ ـ ١٢٩٨. ورواية قتادة في فتح الباري، كتاب الطب ١٠/ ١٧٨، ومسلم، كتاب القسامة ١٢٩٨.

(٣) أي: يعضها.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/ ١٣٠، وعارضة الأحوذي، أبواب الطهارة ١/ ٩٤ ـ ٩٥، والنسائي، كتاب تحريم الدم ٧/ ٩٣ ـ ١٠١.

(٥) أي: يضعون الحجارة في أفواههم من العطش، ليستدرّوا الريق.

(٦) تفسير الطبري ٦/ ٢٠٨.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن لَهيعة، عن يزيدَ بن أبي حبيب: أن عبد الملك بن مروان كَتَب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه أنس يُخبِرُه أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في أولئك النفر العُرَنِيِّينَ، وهم من بَجِيلة. قال أنس: فارتدُّوا عن الإسلام، وقتلوا الراعِيَ، واستاقُوا الإبلَ، وأخافُوا السبيلَ وأصابوا الفَرْجَ الحرام.

وقال: حدثني يونس، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سَعِيد بن أبي هلال، عن أبي الزِّناد، عن عبدالله بن عُبَيد الله، عن عبدالله بن عُمَر - أو: عمرو، شك يونس - عن رسول الله - ﷺ - بذلك - يعني بقصة العُرَنيين - ونزلت فيهم آية المحاربة[1].

ورواه أبو داود والنسائي من طريق أبي الزناد، وفيه: «عن ابن عُمَر» من غير شك[1].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن خَلَف، حدثنا الحسن بن حَمَّاد، عن عمرو بن هاشم، عن موسى بن عُبَيدة، عن محمد بن إبراهيم، عن جَرير قال: قدم علي رسول الله - ﷺ - قوم من عُرَينة حفاةً مضرورين، فأمر بهم رسول الله - ﷺ - فلما صَحُّوا واشتَدّوا قَتلوا رِعَاء اللِّقاح، ثم خرجوا باللِّقاحِ عامدين بها إلى أرض قومهم. قال جَرير: فبعثني رسول الله - ﷺ - في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعد ما أشرفوا على بلاد قومهم، فَقَدِمنا بهم على رسول الله - ﷺ - فقطع أيديَهم وأرجُلَهم من خلاف، وسَمَل أعينَهم، فجعلوا يقولون: «الماء»، ورسول الله - ﷺ - يقول: «النار»! حتى هَلَكُوا. قال: وكَره الله - عزّ وجلّ - سَمْل الأعين، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسولَه ﴾ . . . إلى آخر الآية[2].

هذا حديثٌ غريبٌ، وفي إسناده الرَّبَذِيُّ وهو ضعيف، وفيه فائدةٌ، وهو ذكر أمِير هذه السريَّة، وهو جرير ابن عبدالله البَجَلِيُّ. وتقدم في صحيح مسلم أن السريَّةَ كانوا عشرين فارساً من الأنصار. وأما قوله: «فكَره الله سَمْلَ الأعين، فأنزل الله هذه الآية»، فإنه منكر، وقد تَقَدَّم في صحيح مسلم أنهم سَمَلوا أعينُ الرِّعاء، فكَان ما فُعِل بهم قصاصاً، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق، عن إبراهيم بن محمد الأسلمي، عن صالح مولى التَّوأمةِ، عن أبي هُرَيرة قال: قدم علي رسول الله - ﷺ - رجال من بني فَزارَةَ قد ماتوا هُزْلاً، فأمرهم النبي - ﷺ - إلى لِقَاحِه فَشَربوا منها حتى صَحُّوا، ثم عَمَدوا إلى لقاحه فسرقوها، فطُلِبُوا، فأُتِي بهم النبيّ - ﷺ - فقطَعَ أيدِيَهم وأرجُلَهم، وسَمَر أعينهم. قال أبو هُرَيرة: ففيهم نَزَلت هذه الآية: ﴿ إنما جَزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾، فترك النبي - ﷺ - سَمْر الأعين بعدُ. ورُوِي من وجه آخَرَ عن أبي هُرَيرة.

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا الحُسَين بن إسحاق التُّستري، حدثنا أبو القاسم محمد بن الوليد، عن عَمْرو بن محمد المَدِيني، حدثنا محمد بن طلحة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن سَلَمة بن الأكوع قال: «كان للنبي - ﷺ - غلامٌ يقال له: «يَسار»، فنظر إليه يحسن الصلاة فأعتقَه، وبعثه في لِقَاحٍ له بالحرَّة، فكان بها، قال: فأظهر قومٌ الإسلام من عُرَينة، وجاءوا وهم مَرْضَى موعوكون قد عَظُمت بطونُهم، قال: فَبعث بهم النبي - ﷺ - إلى

(١) تفسير الطبري ٢٠٨/٦ - ٢٠٩، وسنن أبي داود، كتاب الحدود ١٣١/٤، وسنن النسائي، كتاب تحريم الدم ١٠٠/٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٠٧/٦.

«يسار»! فكانوا يشربون من ألبان الإبل حتى انطوت بُطونهم، ثم عَدَوا على «يَسَار» فذبحوه، وجعلوا الشوكَ في عينيه، ثم أطردُوا الإبل، فبعث النبي ـ ﷺ ـ في آثارهم خيلاً من المسلمين، أميرهم كُرْزُ بن جابر الفِهْري، فَلَحِقهم فجاء بهم إليه، فَقَطع أيديَهم وأرجلَهم وسَمَل أعينهم».

غريب[1] جداً، وقد رَوَى قصةَ العرنيين من حديث جماعة من الصحابة، منهم جابر وعائشة وغير واحد. وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مَرْدُويه بتطريق هذا الحديثِ من وُجُوه كثيرةٍ جداً، فَرَحِمه الله، وأثابه.

وقال ابن جَرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شَقِيق، سَمِعت أبي يقول: سمعت أبا حمزَة، عن عبد الكريم ـ وسُئل عن أبوال الإبل ـ فقال: حَدَّثني سعيد بن جُبَير عن المحاربين فقال: كان أناسٌ أتوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: نُبايعك على الإسلام. فبايَعُوه، وهم كَذَبَةٌ، وليس الإسلام يُريدونَ. ثم قالوا: إنا نَجْتَوي[2] المدينة. فقال النبي ـ ﷺ ـ: هذه اللقاح تَغْدُو عليكم وتروح، فاشربوا من أبوالها وألبانها. قال: فبينا هم كذلك إذْ جاءهم الصريخُ[3]، فصرخ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: قَتلوا الراعِيَ، واستاقُوا النَّعَم. فأمر النبي ـ ﷺ ـ فنُودِيَ في الناس: أن «يا خيلَ الله اركبي»[4]. قال: فَرَكِبُوا لا ينتظر فارس فارساً، قال: ورَكِبَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ على أثرهم، فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلُوهم مأمنهم، فرجع صحابةُ رسول الله ـ ﷺ ـ وقد أسروا منهم، فأتوا بهم النبيَّ ـ ﷺ ـ فأنزل الله: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ . . . الآية. قال: فكان نَفْيُهـم أن نفَوهم حتى أدخلوهم مأمنهم وأرضهم، ونَفَوهم من أرضِ المسلمين. وقَتَل نَبِيُّ الله ـ ﷺ ـ منهم، وصَلَب، وقَطَع، وسَمَر الأعينَ. قال: فما مَثَّل رسولُ الله ـ ﷺ ـ قبلُ ولا بعدُ. قال: ونهى عن المُثْلَة، قال: «ولا تَمثُلُوا بشيء» قال: وكان أنس يقول ذلك، غير أنه قال: أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم.

قال: وبعضُهم يقول: هم ناس من بني سُلَيم، ومنهم من عُرَينَةَ ناسٌ من بَجِيلة[5].

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العُرَنيين: هل هو منسوخٌ أو محكم؟ فقال بعضُهم: هو منسوخ بهذه الآية وزَعموا أن فيها عِتاباً للنبي ـ ﷺ ـ كما في قوله: ﴿ عفا الله عنك لم أذِنْتَ لهم ﴾. ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي ـ ﷺ ـ عن المُثْلة. وهذا القولُ فيه نظرٌ، ثم صاحبه مطالَبٌ ببيان تأخرِ الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ. وقال بعضُهم: كان هذا قبلَ أن تنزلَ الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإن قصَّتهم مُتأخرةٌ، وفي رواية جَرير بن عبدالله لقصَّتهم ما يدلُّ على تَأَخُّرِها، فإنه أسلم بعد نزول المائدة، ومنهم من قال: لم يَسْمُل النبي ـ ﷺ ـ أعيُنَهم، وإنما عَزَم على ذلك، حتى نَزَل القرآنُ فبيَّنَ حُكم المحارِبين. وهذا القولُ أيضاً فيه نَظر؛ فإنه قد تقدم في الحديث المتَّفق عليه أنه سَمَل ـ وفي رواية: سَمَرَ ـ أعينهم.

وقال ابن جَرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذاكرتُ الليثَ بن سَعْدٍ ما كان من سَمْلِ النبي ـ ﷺ ـ أعيُنَهم، وتَرْكِه حَسْمَهم حتى ماتوا، قال: سَمِعت محمد بن عَجْلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله ـ ﷺ ـ معاتَبةً في ذلك، وعلَّمه عقوبة مثلهـم من القتل والقطع والنفي، ولم يَسمُلْ بعدهم غيرَهم. قال: وكان هذا القولُ ذُكِر لأبي عَمْرو ـ يعني الأوزاعي ـ فأنكر أن يكون نَزَلت مُعاتِبةً، وقال: بل كانت

---

(١) أخرجه الطبراني من طريق محمد بن طلحة التيمي انظر المعجم الكبير ٧/٧، والإصابة ٦/٣٥١.
(٢) أي: نكره المقام فيها لأن هواءها لا يوافقهم.
(٣) هو المستغيث.
(٤) أي: يا فرسان خيل الله اركبي.
(٥) تفسير الطبري ٦/٢٠٧.

عقوبة أولئك النفر بأعيانهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارَب بعدَهم، ورفع عنهم السَّمْل»[١].

ثم قد احتجَّ بعموم هذه الآية جمهورُ العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السُّبُل على السواء، لقوله: ﴿ ويسعَون في الأرض فَساداً ﴾. وهذا مذهبُ مالك، والأوزاعيّ، والليثِ بن سعد، والشافعيّ، وأحمدَ بنِ حنبل، حتى قال مالك ـ في الذي يغتال الرجل فيخدَعه حتى يُدخِلَه بيتاً فيقتله، ويأخذ ما معه ـ: إن هذا محارَبةٌ، ودمَه إلى السلطان لا وَليِّ المقتول، ولا اعتبارَ بعفوه عنه في إنفاذ القتل.

وقال أبو حَنيفةَ وأصحابُه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحَقُه الغوثُ إذا استغاث، بخلاف الطريق لِبُعده ممن يُغيثُهُ ويُعِينُهُ.

وأما قولهُ: ﴿ أن يُقتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقطَّع أيديهم وأرجلُهم من خلاف أو يُنفَوا من الأرض ﴾... الآية.
قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية: من شهر السلاح في قبَّة[٢] الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظُفِرَ به وقُدِرَ عليه، فإمامُ المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قَتَله، وإن شاء صَلَبه، وإن شاء قَطَع يَدَه ورجله[٣].

وكذا قال سعيد بن المسيَّب، ومجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وإبراهيم النخَعي، والضحاك. ورَوَى ذلك كلَّه أبو جعفر بن جرير، وحُكِي مثلُه عن مالك بن أنس رحمه الله. ومُستَنَدُ هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير، كما في نظائر ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: ﴿ فجزاءٌ مثلُ ما قَتَل من النعم يحكُم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة، أو كفارةٌ طعامُ مساكين، أو عَدْلُ ذلك صياماً ﴾ وقوله في كفارة التَّرفُّه: ﴿ فمن كان منكم مريضاً، أو به أذىً من رأسه، ففدية من صيام، أو صَدَقةٍ، أو نُسُك ﴾. وكقوله في كفَّارة اليمين: ﴿ إطعامُ عَشَرة مساكينَ من أوسطِ ما تطعمون أهليكم، أو كسوتُهم، أو تحرير رَقَبة ﴾. هذه كلُّها على التَّخيير، فكذلك فلْتَكُن هذه الآيةُ.

وقال الجمهورُ: هذه الآية مُنَزَّلة على أحوال كما قال أبو عبدالله الشافعي:

أنبأنا إبراهيم ـ هو ابن أبي يحيى ـ عن صالح مولى التوأمة، عن ابن عباس ـ في قطاع الطريق: «إذا قَتَلوا وأخذوا المال قُتِلوا وصُلِّبوا، وإذا قَتَلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا ولم يُصَلَّبوا، وإذا أخذوا المال ولم يَقْتُلوا قُطعت أيديهم وأرجلُهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيلَ ولم يأخذوا مالاً نُفُوا من الأرض»[٤].

وقد رواه ابنُ أبي شيبة، عن عبد الرحيم بن سليمان، عن حَجَّاج، عن عَطِية، عن ابن عباس، بنحوه: وعن أبي مِجْلَز، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقتادة، والسدي، وعطاء الخراساني، نحوُ ذلك. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة.

واختلفوا: هل يُصَلَّب حيّاً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يَقْتُله برمح ونحوه، أو يُقتَل أولاً ثم يُصَلَّب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين؟ وهل يُصَلَّب ثلاثةَ أيام ثم يُنْزَلُ، أو يُترك حتى يَسِيل صَدِيدُهُ؟ في ذلك كلِّه خلافٌ مُحرَّرٌ في موضعه، وبالله الثقة وعليه التكلان.

ويشهَدُ لهذا التفصيل الحديثُ الذي رواه ابنُ جرير في تفسيره، إن صَحَّ سَنَدُه، فقال:

---

(١) تفسير الطبري ٦/٢٠٩.
(٢) أي: في ظله.
(٣) تفسير الطبري ٦/٢١٤.
(٤) ترتيب مسند الشافعي ٢/٨٦.

حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، [عن ابن لَهيعة](١) عن يزيد بن أبي حَبيب: «أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية، فَكَتَبَ إليه يخبرُه: أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العُرَنِيِّينَ ـ وهم من بَجِيلة ـ قال أنس: فارتدُّوا عن الإسلام، وقَتَلوا الراعي، واستاقُوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابُوا الفرج الحرام. قال أنس: فسأل رسولُ الله ـ ﷺ ـ جبريلَ عليه السلام عن القضاء فيمن حارب، فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله، ومن قتل وأخاف السبيل واستحلّ الفرج الحرام، فاصلبه»(٢).

وأما قولهُ تعالى: ﴿ أو يُنْفَوا من الأرض ﴾، قال بعضُهم: «هو أن يُطلَب حَتَّى يُقدَر عليه، فَيُقام عليه الحدُّ أو يَهرُب من دار الإسلام».

ورواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، والربيع بن أنس، والزهري، والليث بن سعد، ومالك بن أنس.

وقال آخرون: هو أن يُنفَى من بلده إلى بلد آخر، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكُلِّيَّة. وقال الشعبي: ينفيه كما قال ابن هُبَيرة من عَمَله كُلِّه. وقال عطاء الخراساني: ينفى من جُنْد إلى جُنْدٍ سِنين، ولا يخرج من أرض الإسلام. وكذا قال سعيد بن جُبَير، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهري، والضحاك، ومقاتل بن حَيَّان: إنه يُنفَى ولا يخرج من أرض الإسلام.

وقال آخرون: المراد بالنفي هاهنا السجنُ. وهو قولُ أبي حنيفةَ وأصحابه، واختار ابنُ جَرير أن المراد بالنفي هاهنا: أن يُخرَجَ من بلده إلى بلد آخر فيسجَن فيه.

وقولهُ: ﴿ ذلك لهم خِزْيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾، أي: هذا الذي ذكرتُه من قتلهم، ومن صَلْبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم ـ خِزيٌ لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادَّخَر الله لهم من العَذَاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيَّدُ به من ذَهَب إلى أن هذه الآية نزلَت في المشركين، فأما أهلُ الإسلام فقد ثَبتَ في الصحيح عند مسلم، عن عُبادة بن الصامت قال: «أخذَ علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ كما أخذ على النساء: ألا نشركَ بالله شيئاً، ولا نَسرق، ولا نَزْني، ولا نقتلَ أولادنا، ولا يَعْضَه(٣) بعضنا بعضاً، فمن وَفَى منكم فأجرهُ على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقِبَ فهو كفارة له، ومن سَتَره الله فأمره إلى الله إن شاء عَذَّبه وإن شاء غَفَر له»(٤).

وعن علي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من أذنَبَ ذنباً في الدُّنيا فَعُوقِبَ به، فالله أعدلُ من أن يُثَنِّي عقوبتَه على عَبْدِه، ومن أذنَبَ ذنباً في الدُّنيا فَستَره الله عليه وعَفَا عنه، فالله أكرمُ من أن يَعُودَ في شيءٍ قد عَفا عنه».

رواه الإمام أحمدُ، والترمذيّ، وابنُ ماجه، وقال الترمذيُّ: «حَسَن غريبٌ»(٥). وقد سُئِل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث، فقال: روي مرفوعاً وموقوفاً ـ قال: ورفعه صحيح.

---

(١) عن تفسير الطبري.

(٢) تفسيرالطبري ٦/٢٠٨، ٢١٦.

(٣) أي: لا يرميه بالعضيهة، وهي البهتان والكَذب.

(٤) مسلم، كتاب الحدود ١٣٣٣.

(٥) مسند أحمد ١/٩٩، ١٥٩، وعارضة الأحوذي، أبواب الإيمان ١٠/٦٣، وابن ماجه، كتاب الحدود ٨٦٨.

وقال ابنُ جرير في قوله: ﴿ ذلك لهم خِزْيٌ في الدنيا ﴾، يعني: شرٌّ وعار ونَكَال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة، ﴿ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ﴾، أي: إذا لم يَتُوبوا من فِعْلهم ذلك حتى هَلَكوا، في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها «عذابٌ عظيم»، يعني: عذابَ جَهَنَّمَ[١].

وقولهُ: ﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدِرُوا عليهم، فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾، أما على قول من قال: هي في أهلِ الشرك فظاهر، وأما المحارِبون المسلمون فإذا تابوا قبل القُدْرَة عليهم فإنه يسقُط عنهم انحتامُ القَتْلِ والصَّلْبِ وقطع الرجل، وهل يسقط قطعُ اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهرُ الآية يقتضي سقوطَ الجميع، وعليه عمل الصحابة، كما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجاهد، عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة، وكان قد أفسدَ في الأرض وحارَب، فكلَّم رجالاً من قريش منهم: الحسنُ بن علي، وابنُ عباس، وعبدُالله بن جعفر، فَكَلَّموا علياً، فلم يُؤَمِّنه. فأتى سعيدَ بن قيس الهمداني فَخَلَّفَهُ في داره، ثم أتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت من حارَب الله ورسوله وسعَى في الأرض فساداً، فقرأ حتى بَلَغَ: ﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تَقِدُروا عليهم ﴾. قال: فكتب له أماناً. قال سَعِيدُ بن قَيس: فإنَّه حارثَةُ بن بدر».

وكذا رواه ابنُ جرير[٢] من غير وجه، عن مجاهد، عن الشعبي، به. وزاد: فقال حارثة بن بدر:

ألا أبلِغَنْ هَمْدَانَ إمَّا لَقِيتَهَا … عَلى النَّأي لا يَسْلمْ عَدوٌّ يَعِيبُهَا
لَعَمْرُ أبيهَا إنَّ هَمْدانَ تَتَّقِي الـ … إلَـه ويَقْضي بالكتَاب خَطيبُهَا

وروى ابنُ جرير من طريق سفيان الثوريِّ، عن السدِّيِّ ـ ومن طريق أشعث، كلاهما عن عامر الشعبيِّ قال: جاء رجل من مُرَادٍ إلى أبي موسى، وهو على الكوفة في إمارةِ عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ بعدما صلَّى المكتوبة فقال: يا أبا موسى، هذا مقامُ العائذ بك، أنا فلان ابن فلان المُرَادِيُّ، وإني كنتُ حاربتُ الله ورسولَه وسَعَيت في الأرض فساداً، وإني تُبتُ من قبل أن يُقْدَرَ عليَّ. فقام أبو موسى فقال: إن هذا فلانُ ابنُ فلانٍ، وإنه كان حاربَ الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، وإنه تابَ من قبل أن يُقْدَرَ عليه، فمن لَقِيه فلا يَعْرِضْ له إلا بخَير، فإن يكُ صادقاً فسبيلُ من صَدَق، وإن يك كاذباً تُدرِكه ذنوبه. فأقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خَرَج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله[٣].

ثم قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا الوليد بن مسلم قال، قال الليثُ ـ وكذلك حَدَّثني موسى بن إسحاق المدني، وهو الأمير عندنا: أن علياً الأسدي حاربَ وأخافَ السبيل وأصابَ الدَّمَ والمال، فَطَلَبه الأئمةُ والعامةُ، فامتنع ولم يُقْدَرْ عليه، حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رَجُلاً يقرأ هذه الآية: ﴿ قل يا عبادِيَ الذين أسْـرَفُوا على أنفسهم لا تقنَطُوا من رحمة الله، إن الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم ﴾، فوقف عليه فقال: يا عبدَالله، أعِدْ قراءتها. فأعادها عليه، فَغَمد سيفه، ثم جاء تائباً. حتى قَدِم المدينة من السَّحَرِ، فاغتسل، ثم أتى مَسجدَ رسول الله ـ ﷺ ـ فصَلَّى الصُّبح، ثم قعد إلى أبي هُرَيرة في غِمَارِ أصحابه، فلما أسفَرُوا عَرَفه الناسُ، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليَّ، جئتُ تائباً من قبل أن تَقْدِرُوا عليَّ. فقال أبو

(١) تفسير الطبري ٦/٢١٩.
(٢) تفسير الطبري ٦/٢٢١.
(٣) تفسير الطبري ٦/٢٢٢.

هُرَيرة: صدق. وأخذ بيده أبو هُرَيرة حتى أتى مَرْوانَ بن الحَكَم ـ وهو أميرٌ على المدينة، في زَمَن معاوية ـ فقال: هذا عليٌّ جاء تائباً، ولا سبيلَ لكم عليه ولا قَتْلَ. قال، فتُرِكَ من ذلك كله. قال: وخرج عليّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلَقُوا الروم، فقربوا سفينته إلى سَفينةٍ من سفنهم، فاقتحم على الروم في سَفينَتِهِمْ، فهَرَبُوا منه إلى شِقِّها الآخر، فمالت به وبهم، فغَرِقُوا جميعاً[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧ ﴾

يقول تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بتقواه، وهي إذا قُرِنَت بالطاعة كان المرادُ بها الانكفافُ عن المحارم وتركُ المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿ وابتغُوا إليه الوسيلةَ ﴾، قال سفيان الثوري: [حدثنا أبي]، عن طلحة، عن عطاء، عن ابن عباس: أي القُرْبَة. وكذا قال مجاهدٌ، وأبو وائلٍ، والحَسَن، وقتادةُ، وعبدُالله بن كَثِير، والسدِّيُّ، وابن زَيدٍ.

وقال قتادةُ: أي تَقَرَّبوا إليه بطاعَتِه والعملِ بما يرضيه.

وقرأ ابنُ زَيدٍ: ﴿ أولئك الذين يدعون يبتَغُون إلى ربهم الوَسِيلَة ﴾[2]. وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلافَ بين المفسرين فيه. وأنشد ابنُ جَرير عليه قول الشاعر[3]:

إذا غَفَلَ الواشُون عُدنَا لِوَصْلِنَا ... وعَادَ التَّصَافي بَيْنَنَا والوَسَائلُ

والوَسِيلة: هي التي يُتَوصَّلُ بها إلى تَحصِيل المقصود، والوسيلةُ أيضاً: عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ـ ﷺ ـ وداره في الجنة، وهي أقربُ أمكنَةِ الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح البخاري، من طريق محمد بن المُنكَدِر، عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قال حين يَسْمَعُ النداء: اللهم رَبَّ هذه الدعوةِ التَّامَّةِ، والصلاةِ القائِمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حَلَّت له الشفاعةُ يوم القيامة»[4].

حديثٌ آخَرُ في صحيح مسلم، من حديث كعب بن عَلْقَمَةَ، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن عبدالله بن عَمْرو بن العاصِ أنه سَمع النبي ـ ﷺ ـ يقول: «إذا سَمِعتُمُ المؤذِّنَ فقولوا مثل ما يَقُول، ثم صَلُّوا عَليّ، فإنه من صلى عَليّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لِي الوسيلَة، فإنها منزلَةٌ في الجنَّة، لا تَنْبَغِي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمن سأل لي الوسيلَةَ حَلَّت عليه الشفاعة»[5].

حديث آخر، قال الإمامُ أحمد: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا سُفيان، عن لَيثٍ، عن كَعْبٍ، عن أبي هُرَيرة أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا صَلَّيتُم عَليَّ فَسَلُوا لي الوَسِيلَةَ. قيلَ: يا رسولَ الله، وما الوَسِيلَةُ؟ قال: أعلى

---

(١) تفسير الطبري ٦/٢٢٣. وفيه: «فهربوا منه إلى سفينتهم الأخرى».
(٢) انظر أثر ابن زيد في تفسير الطبري ٦/٢٢٧.
(٣) تفسير الطبري ٦/٢٢٦.
(٤) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٩٤، وكتاب التفسير ٨/٣٩٩.
(٥) مسلم، كتاب الصلاة ٢٨٩.

دَرجةٍ في الجَنَّةِ، لا ينالها إلا رجلٌ واحدٌ، وأرجو أن أكون أنا هو»(١).

ورواه الترمذي، عن بُنْدار، عن أبي عاصِمٍ، عن سُفيانَ ـ هو الثوريُّ ـ عن ليثِ بن أبي سُلَيم، عن كعب قال: حدثني أبو هُريرة، به. ثم قال: غَرِيبٌ، وكَعب ليس بمعروفٍ، لا نعرف أحداً روى عنه غيرَ ليثِ بن أبي سُلَيم»(١).

طريق آخري: عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال أبو بكر بن مَرْدُوَيه:

حدثنا عبد الباقي بن قانع، حدثنا محمد بن نصر الترمذيّ، حدثنا عبد الحميد بن صالح، حدثنا أبو شهاب، عن ليثٍ، عن المُعَلَّى، عن محمد بن كعب، عن أبي هُرَيرة ـ رفعه ـ قال: «صَلُّوا عَلَيَّ صلاتكم، وسَلُوا الله لي الوَسِيلَةَ. فسألوه وأخبرهم: أن الوسيلةَ درجةٌ في الجَنَّةِ، ليس ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكونَه».

حديث آخر، قال الحافظ أبو القاسم الطَّبراني: أخبرنا أحمدُ بن علي الأَبَّار، حدثنا الوليدُ بن عبد الملك الحرَّانيُّ، حدثنا مُوسى بن أعيَنَ، عن ابن أبي ذئب(٢)، عن محمد بن عَمْرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سَلُوا الله لي الوسيلةَ، فإنه لم يَسْأَلْها لي عبدٌ في الدنيا إلا كنتُ له شهيداً، أو: شفيعاً، يومَ القيامة».

ثم قال الطبراني: «لم يَرْوِهِ عن ابن أبي ذِئْبٍ إلا موسى بن أعيَنَ». كذا قال(٣)، وقد رواه ابن مَرْدُويه:

حدثنا محمد بن علي بن دُحَيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، حدثنا موسى بن عُبَيدة، عن محمد بن عمرو بن عطاء. فذكر بإسناده نحوه(٤).

حديث آخَرُ، روى ابن مَرْدُويه بإسناده عن عُمَارة بن غَزِيَّةَ، عن موسى بن وَرْدان: أنه سمع أبا سَعيد الخدري يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الوسيلة دَرَجَةٌ عند الله، ليس فوقها درجةٌ، فَسَلُوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه».

حديث آخر: رَوَى ابنُ مَرْدُويه أيضاً من طريقين، عن عبد الحميد بن بَحْرٍ: حدثنا شَرِيك، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «في الجنة درجةٌ تدعى الوَسيلة، فإذا سألتم الله فسلوا لي الوَسِيلة. قالوا: يا رسولَ الله، من يسكُن معك؟ قال: «علي وفاطمة والحَسن والحُسَين».

هذا حديث غريب منكر من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الحسن الدَّشْتَكِيُّ، حدثنا أبو زُهَير، حدثنا سعيد بن طريف، عن علي بن الحسين الأزدي ـ مولى سالم بن ثوبان ـ قال: سَمِعت علي بن أبي طالب ينادي على مِنْبَرِ الكوفة: يا أيها الناس، إنَّ في الجنةِ لؤلؤتَين: إحداهما بيضاءُ، والأخرى صفراءُ، أما الصفراءُ فإنها إلى بُطْنَانَ العرش، والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاءِ سبعون ألف غرفة، كل بيتٍ منها ثلاثة أميال، وغُرَفها وأبوابها

(١) مسند أحمد ٢/٢٦٥، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/١٠١

(٢) في بعض النسخ: ابن أبي حبيب. وهو تحريف.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ١/٣٧٠، وفي مجمع الزوائد ١/٣٣٣: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه الوليد بن عبد الملك الحراني، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: مستقيم الحديث إذا روى عن الثقات. قلت: وهذا من روايته عن موسى بن أعين وهو ثقة».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة عن عبيد الله بن موسى، المصنف، كتاب الدعاء ١٠/٣٥٣.

وأسرتُها وكأنها من عِرْقٍ واحد. واسمُها الوسيلةُ، هي لمحمد ـ ﷺ ـ وأهل بيته، والصفراءُ فيها مثل ذلك، هي لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته. وهذا أثر غريب أيضاً.

وقولهُ: ﴿ وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾، لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمَرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجينَ عن الطريق المستقيم، التاركين للدِّين القويم، ورَغَّبهم في ذلك بالذي أعدَّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرَّة التي لا تَبيدُ ولا تَحُولُ ولا تَزُولُ في الغُرَف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها الطيبة مساكنها، التي من سكنها، يَنْعَم لا يَيْأَس، ويحيا ولا يموتُ، لا تَبْلَى ثيابهُ، ولا يفنى شبابه.

ثم أخبر تعالى بما أعَدَّ لأعدائه الكفار من العذاب والنَّكال يوم القيامة، فقال: ﴿ إن الذين كفروا لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدُوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم ولهم عذاب أليم ﴾، أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً، وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصولهُ إليه، ما تُقُبِّل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا مَحِيص له ولا مناص، ولهذا قال: ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي: موجع ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾، ولهم عذاب مُقِيم، كما قال تعالى: ﴿ كلما أرادُوا أن يخرجُوا منها من غم أُعِيدُوا فيها ﴾ . . . الآية، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شِدَّته وأليم مَسّه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كُلَّما رَفَعهم اللَّهبُ فصاروا في أعالي جَهَنَّم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فَيَرُدُّوهم إلى أسفلها، ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌ لا خروجَ لهم منها، ولا محيدَ لهم عنها.

وقد قال حماد بن سَلَمة، عن ثابتٍ، عن أَنَس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُؤتَى بالرَّجُلِ من أهل النارِ، فيقولُ: يا ابنَ آدمَ، كيف وجدتَ مضجَعَك؟ فيقول: شَرَّ مَضْجَعٍ! فيقول: هل تفتدي بقُراب الأرض ذهباً؟ قال، فيقول: نعم، يا ربِّ! فيقول: كَذَبت! قد سألتُكَ أقلَّ من ذلك فلم تفعَلْ. فيؤمَرُ به إلى النار».

رواه مسلم[١] والنسائي من طريق حَمّاد بن سلمة، بنحوه. وكذا رواه البخاري ومسلم، من طريق معاذ ابن هشام الدَّستَوائي، عن أبيه، عن قتادة، عن أنس، به. وكذا أخرجاه من طريق أبي عمران الجَوْني، واسمه عبد الملك بن حَبيب، عن أنس بن مالك، به. ورواه مطر الورَّاق، عن أنس بن مالك. ورواه ابن مردويه من طريقه، عنه[٢].

ثم رواه ابن مَردُويه، من طريق المَسْعُودي، عن يزيد بن صُهَيب الفَقِير، عن جابر بن عبدالله، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة». قال، فقلت لجابر بن عبدالله: يقول الله: ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾، قال: اتلُ أوَّل الآية: ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به ﴾ . . . الآية، ألا إنهم الذين كفروا.

وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخَرَ، عن يزيد الفَقِير، عن جابر، وهذا أبسط سياقاً[٣].

---

(١) أخرجاه بنحوه، مسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٦٢/٤، والنسائي، كتاب الجهاد ٣٦/٦.

(٢) فتح الباري، كتاب الرقاق ٤٠٠/١١، وكتاب الأنبياء ٣٦٣/٦ ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٦٠ ـ ٢١٦١.

(٣) مسند أحمد ٣٥٥/٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١٧٨/١.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شَنْبَة الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا مبارك ابن فضالة، حدثني يزيد الفقيرُ قال: «جلست إلى جابر بن عبدالله، وهو يحدِّث، فحدّث أن أناساً يخرجون من النار، قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبتُ وقلتُ: ما أعجَبُ من الناس، ولكن أعجَبُ منكم يا أصحاب محمد! تزعمون أن الله يخرج ناساً من النار، والله يقول: ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾ . . . الآية. فانتهرني أصحابه، وكان أحلمهم فقال: دَعُوا الرجل، إنما ذلك للكفار: ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لِيفتَدُوا به من عذاب يوم القيامة ﴾ حتى بلغ: ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قد جمعتُه. قال: أليس الله يقول: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلةً لك عسى أن يَبْعثَكَ ربك مقاماً محموداً ﴾، فهو ذلك المقام، فإن الله يحتبس أقواماً بخطاياهم في النار ما شاء، لا يُكلِّمهم، فإذا أراد أن يخرجهم أخرجَهم. قال: فلم أعد بعد ذلك إلى أن أُكَذِّبَ به».

ثم قال ابن مَرْدُويه: حدثنا دعلجُ بن أحمد، حدثنا عُمَر بن حفص السَّدوسي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا العباس بن الفضل، حدثنا سعيد بن المُهَلَّب، حدثني طَلْقُ بن حَبيب قال: كنت من أشدِّ الناس تكذيباً بالشفاعة، حتى لقيت جابر بن عبدالله، فقرأتُ عليه كلَّ آيةٍ أقدِرُ عليها يذكُر الله فيها خلودَ أهلِ النار. فقال: يا طلقُ، أتُرَاكَ أقرَأَ لكتاب الله وأعلم بسُنَّةِ رسولِ الله مِنِّي؟ إن الذين قرأتَ هم أهلُها، هم المَشركون، ولكن هؤلاءِ قومٌ أصابوا ذُنوباً فَعُذِّبوا، ثم أُخرجُوا منها، ثم أهوى بيديه إلى أُذُنيه، فقال: صُمَّتَا إن لم أكُنْ سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: يخرجون من النار بعد ما دَخَلُوا. ونحن نقرأ كما قرأتَ».

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى حاكماً وآمراً بقَطْع يَدِ السارق والسارقة.

وروى الثوريُّ، عن جابر بن يزيد الجُعْفي، عن عامر بن شَراحِيلَ الشعبيِّ: أن ابنَ مسعودٍ كان يقرؤها: ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيمانهما ﴾[١].

وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفادٌ من دليلٍ آخَر. وقد كان القطعُ معمولاً به في الجاهلية، فقُرِّرَ في الإسلام، وزيدَت شروط أُخَر كما سنذكره، إن شاء الله تعالى، كما كانت القَسامَةُ والديةُ والقِراض وغير ذلك من الأشياء التي وَرَد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه، وزياداتٍ هي من تمام المصالح. ويقال: إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قُرَيشٌ، قطعوا رجلاً يقال له: «دُوَيك»، مولى لبني مُلَيح بن عمرو من خُزاعة، كان قد سرق كنز الكعبة، ويقال: سَرَقه قوم فوَضَعُوه عنده[٢].

وقد ذَهَب بعضُ الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سَرَق السارق شيئاً قُطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً، لعموم هذه الآية: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾. فلم يعتبروا نصاباً ولا حِرْزاً، بل أخذوا بمُجرَّدِ السرقة.

(١) تفسير الطبري ٦/٢٢٨.
(٢) انظر هذا الخبر في سيرة ابن هشام ١/١٩٣، والمنمق لابن حبيب ٥٩ ـ ٦٤.

وقد روى ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم من طريق عبد المؤمن، عن نَجدةَ الحَنفيِّ قال: «سألتُ ابن عباس عن قوله: ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطَعُوا أيْديَهما ﴾، أخاصٌّ أم عامٌّ؟ فقال: بل عامٌّ»(١).

وهذا يحتمل أن يكون موافقةً من ابن عباس لما ذَهَب إليه هؤلاء، ويحتمل غيرَ ذلك، فالله أعلم.

وتمسكوا بما ثبت في الصَّحيحين، عن أبي هُرَيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لَعَنَ اللهُ السارِقَ، يَسرِقُ البيضة فتُقطع يده، ويسرِقُ الحَبْلَ فتقطع يده»(٢).

وأما الجمهور فاعتبروا النصابَ في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلافُ في قدره، فذهب كلٌّ من الأئمة الأربعة إلى قول على حِدَةٍ، فعند الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ: النصابُ ثلاثةُ دراهِمَ مضروبةٍ خالصةٍ، فمتى سَرَقها أو ما يبلغ ثَمَنها فما فوقَها وَجَبَ القطعُ، واحتجَّ في ذلك بما رواه عن نافع، عن ابن عُمَر: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قطع في مِجَنٍّ ثمنهُ ثلاثةُ دراهمَ. أخرجاه في الصحيحين(٣).

قال مالك ـ رحمه الله ـ: وقَطَع عثمان ـ رضي الله عنه ـ في أُتْرُجَّةٍ(٤) قُوِّمَتْ بثلاثة دراهِمَ، وهو أحبُّ ما سَمِعتُ في ذلك. وهذا الأثرُ عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قد رواه مالك، عن عبدالله بن أبي بكر، عن أبيه، عن عَمْرة بنت عبد الرحمن أنَّ سارقاً سَرَق في زمانِ عثمانَ أترجَّةً، فأمر بها عثمان أن تُقَوَّم، فقُوِّمَتْ بثلاثةِ دَراهِم، من صَرْفِ اثني عشر درهماً [بدينارٍ]، فقطَعَ عثمانُ يدَه»(٥).

قال أصحابُ مالك: ومثل هذا الصنيع يُشْتَهَرُ، ولم يُنْكَرْ، فمن مثله يُحكَى الإجماعُ السُّكوتيُّ، وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية. وعلى اعتبار ثلاثة دراهِمَ خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرةِ دراهِمَ، وللشافعية في اعتبار رُبعِ دينارٍ، والله أعلم.

وذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العُرُوض فصاعداً. والحجةُ في ذلك ما أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم، من طريق الزُّهريِّ، عن عَمْرَةَ، عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «تُقطَعُ يدُ السارقِ في رُبعِ دينارٍ فَصَاعِداً»(٦).

ولمسلم من طريق أبي بكر بن محمد بن عَمرو بن حَزْمٍ، عن عَمْرةَ، عن عائشةَ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً»(٧).

قال أصحابنا: فهذا الحديثُ فاصلٌ في المسألة، ونصٌّ في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه. قالوا: وحديثُ ثَمَنِ المِجَنِّ، وأنه كان ثلاثةَ دراهِمَ، لا ينافي هذا، لأنه إذ ذاك كان الدينارُ باثني عشر درهماً، فهي ثَمَن رُبْعِ دينارٍ، فأمكن الجمع بهذه الطريق.

ويُروَى هذا المذهبُ عن عُمَر بن الخطاب، وعثمانَ بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم. وبه يقول عُمَرَ بن عبد العزيز، والليثُ بن سعد، والأوزاعيّ، والشافعيّ، وأصحابه، وإسحاق بن راهَوَيه ـ في

---

(١) تفسير الطبري ٢٢٩/٦.

(٢) أخرجاه في كتاب الحدود، فتح الباري ٨١/١٢، ومسلم ١٣١٤.

(٣) أخرجاه في الحدود أيضاً، فتح الباري ٩٧/١٢، ومسلم ١٣١٤.

(٤) الأترجَّة: نوعٌ من الفاكهة كالليمون الكبار، وهو ذهبي اللون، ذكي الرائحة، حامض الماء.

(٥) الموطأ، كتاب الحدود ٨٣٢.

(٦) أخرجاه في كتاب الحدود، فتح الباري ٩٦/١٢، ومسلم ١٣١٢.

(٧) مسلم، كتاب الحدود ١٣١٣.

رواية عنه ـ وأبو ثور، وداودَ بن علي الظاهريّ، رحمهم الله.

وذهبَ الإمامُ أحمدُ بن حنبل وإسحاقُ بن راهَوَيه ـ في رواية عنه ـ إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مَرَدُّ شرعي، فمن سَرَق واحداً منهما، أو ما يساويه، قُطِعَ عَمَلاً بحديث ابن عُمَر، وبحديث عائشةَ رضي الله عنهما. ووقع في لفظِ عندَ الإمام أحمدَ، عن عائشة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «اقطَعُوا في رُبُع دينار، ولا تقطَعُوا فيما هو أدنى من ذلك»[1]. وكان رُبُع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثني عشر درهماً. وفي لفظ للنسائي: لا تُقطَعُ يدُ السارق فيما دون ثَمَن المِجَنِّ. قيل لعائشة: ما ثمن المِجَنِّ؟ قالت: ربعُ دينار[2].

فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عَشَرةِ دَرَاهِمَ، والله أعلم.

وأما الإمام أبو حنيفةَ وأصحابُه: أبو يوسفَ، ومحمدٌ، وزُفَرُ، وكذا سفيان الثَّوري ـ رحمهم الله ـ فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دَرَاهِمَ مضروبةٍ غير مغشُوشةٍ. واحتجُّوا بأن ثَمَنَ المجنِّ الذي قُطِع فيه السارق على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ كان ثمنه عَشَرةَ دراهِمَ. وقد روى أبو بكر بن أبي شَيبَةَ:

حدثنا ابن نُمَير وعبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق، عن أيوب بن موسى، عن عطاء، عن ابن عباس قال: «كان ثمنُ المِجَنِّ على عهد النبي ـ ﷺ ـ عشرةَ دراهِمَ».

ثم قال: حدثنا عبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تُقطَع يدُ السارق في دون ثمن المِجَنِّ. وكان ثمنُ المِجَنِّ عشرَةَ دراهِمَ»[3].

قالوا: فهذا ابنُ عباس وعبدالله بن عَمْرو قد خالفا ابن عُمَر في ثمن المِجَنِّ، فالاحتياطُ الأخذُ بالأكثرِ، لأن الحدود تُدْرَأُ بالشُّبهاتِ.

وذهبَ بعضُ السَّلَفِ إلى أنه تُقطَعُ يدُ السارق في عَشَرةِ دراهِمَ، أو دينارٍ، أو ما يبلغ قيمتُه واحداً منهما، يحكى هذا عن علي، وابن مسعودِ، وإبراهيم النخَعِي، وأبي جعفرٍ الباقِرِ، رحمهم الله تعالى.

وقال بعضُ السَّلَفِ: لا تُقطَعُ الخمس إلاّ في خمس، أي: في خَمسةِ دنانير، أو خَمسين درهماً. وينقل هذا عن سعيد بـن جُبَير، رحمه الله.

وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هُرَيرة: «يَسْرِقُ البيضة فتُقطعُ يده، ويسرق الحَبْلَ فتُقطَعُ يدُه»، بأجوبة:

أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة. وفي هذا نَظَر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ.

والثاني: أنه مؤول ببيضة الحَديد وحَبْلِ السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري[4] وغيره عنه.

والثالث: أن هذا وسيلةٌ إلى التدرُّج في السرقة من القليل إلى الكثير. الذي تُقطَعُ فيه يَدُه، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطَعُون في القليل والكثير، فَلُعِنَ السارقُ الذي يَبْذُل يَدَهُ الثَّمينةَ في الأشياءِ المَهِينة.

---

(١) مسند أحمد ٦/٨٠.

(٢) سنن النسائي، كتاب قطع السارق ٨/٨٠.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الحدود ٩/٤٧٤، وانظر السنن الكبرى للبيهقي ٨/٢٥٧، ٢٥٩.

(٤) فتح الباري، كتاب الحدود ١٢/٨١.

وقد ذكروا أن أبا العلاء المعريَّ، لما قَدِم بغداد، اشتُهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جَعْلِهم نصابَ السرقة ربعَ دينار، ونظم في ذلك شعراً دل على جَهْلِه، وقِلّة عَقْلِه، فقال:

يَـدٌ بخَمسِ مِئينٍ عَسْجَـدٍ وُدِيَـتْ ... ما بـالُهـا قُـطِعَتْ في رُبْـعِ دينـارِ
تَنـاقضٌ مـا لَـنـا إلا السُّكـوتُ لَـهُ ... وَأَنْ نَـعُـوذَ بِـمَـوْلانـا مِـنَ النـارِ

ولما قال ذلك واشتهَرَ عنه تَطَلَّبه الفقهاءُ فهَرَب منهم. وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي ـ رحمه الله ـ أنه قال: لما كانت أمينة كانت ثمينةً، فلما خانت هانَت[1]. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعةِ العظيمةِ، فإنه في باب الجنايات ناسبَ أن تُعظَّم قيمةُ اليد بخمسمائة دينار لئلا يُجْنى عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدرُ الذي تُقطَع فيه ربعَ دينارٍ لئلا يَتسارع الناسُ في سَرِقَةِ الأموال، فهذا هو عينُ الحكمة عند ذوي الألباب. ولهذا قال: ﴿ جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾، أي: مجازاة على صنيعهما السيىء في أخذهما أموالَ الناس بأيديهم، فناسب أن يُقطَعَ ما استعانا به في ذلك ﴿ نكالاً من الله ﴾، أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿ والله عزيزٌ ﴾، أي: في انتقامه ﴿ حَكِيم ﴾ أي: في أمره ونَهْيِه وشَرْعِه وقَدَرِه.

ثم قال تعالى: ﴿ فمن تاب من بعد ظُلمه وأصلَحَ، فإن الله يتوبُ عليه، إن الله غفورٌ رحيم ﴾، أي: من تاب بعد سَرِقَتِه، وأنابَ إلى الله، فإن الله يَتوبُ عليه فيما بينه وبينه، فأما أموالُ الناس فلا بُدَّ من رَدِّها إليهم أو بَدَلِها عند الجمهور.

وقال أبو حَنِيفَةَ: متى قطع وقد تَلفت في يده فإنه لا يَرُدّ بدلها. وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطني من حديث محمد بن عبد الرحمن بن ثَوْبان، عن أبي هُريرة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ أُتِيَ بسارق قد سَرَق شملة، فقال: ما إخاله سَرَق! فقال السارق: بلى، يا رسولَ الله. قال: اذهبوا به فاقطَعُوه، ثم احسِمُوه، ثم ائتوني به. فَقُطِعَ فَأُتِي به، فقال: تُبْ إلى الله. فقال: تُبتُ إلى الله. فقال: تاب الله عليك»[2].

وقد رُوِي من وجه آخَرَ مرسلاً، ورجَّحَ إرسالَه عليٌّ بن المديني وابنُ خُزَيمَةَ، رحمهما الله. وروى ابن ماجه من حديث ابن لَهِيعَةَ، عن يزيدَ بن أبي حبيبٍ، عن عبد الرحمن بن ثَعلبة الأنصاري، عن أبيه: أن عَمْرو ابن سَمُرة بـن حَبيب بن عبد شَمْسٍ جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إني سرقتُ جَمَلاً لبني فلان، فَطَهِّرني! فأرسل إليهم النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: إنا افتقدنا جَمَلاً لنا. فأمر به فَقُطِعت يدهُ؛ قال ثعلبة: أنا أنظرُ إليه حين وقعت يده وهو يقول: الحمد لله الذي طَهَّرني منك، أردت أن تُدْخِلي جسدي النار[3].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيبٍ، حدثنا موسى بن داودَ، حدثنا ابن لَهيعة، عن حُيَيّ بن عبدالله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبدالله بن عَمْرو قال: سَرَقَتِ امرأةٌ حُلِيّاً، فجاء الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، سرقتنا هذه المرأةُ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: اقطعوا يَدَها اليمنى. فقالت المرأة: هل من توبةٍ؟ فقال رسول

---

(١) ينسب إلى القاضي أنه أجاب المعري بقوله أيضاً:

صيـانـة العـضـو أغـلاهـا وأرخصـهـا ... صيـانـة المـال فـافهـم حكمـة البـاري

انظر فتح الباري ١٢/٩٨.

(٢) سنن الدارقطني، كتاب الحدود ٣/١٠٣.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الحدود ٨٦٣.

الله ـ ﷺ ـ: أنت اليوم من خطيئتك كيوم وَلَدَتْكِ أُمُّكِ! قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوبُ عليه، إن الله غفور رحيم ﴾(١).

وقد رواه الإمامُ أحمدُ بأبسطَ من هذا فقال:

حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثني حُيَيّ بن عبدالله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبدالله بن عَمْرو: أن امرأةً سَرَقَت على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فجاء بها الذين سَرَقتهم فقالوا: يا رسول اللهِ، إنّ هذه المرأةَ سرقَتنا! قال قَوْمُها: فنحن نَفْديها. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: اقطعوا يدها. فقالوا: نحن نَفْديها بخمسمائة دينار. قال: اقطعوا يَدَها. قال: فَقُطِعَت يدُها اليمنى. فقالت المرأة: هل لي من توبةٍ يا رسولَ الله؟ قال: نعم، أنت اليوم من خَطِيئتِك كيوم وَلَدَتْكِ أُمُّك. فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوبُ عليه، إن الله غفور رحيم ﴾(٢).

وهذه المرأة هي المخزومية التي سَرَقت، وحديثُها ثابتٌ في الصحيحين، من رواية الزُّهري، عن عروةَ، عن عائشة: أن قُرَيشاً أهمهم شأنُ المرأة التي سرقت في عهد النبي ـ ﷺ ـ في غزوة الفتح، فقالوا: من يُكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: وَمَن يَجْتَرِىء عليه إلا أسامةُ بن زيد حِبُّ رسُولِ الله ﷺ؟ فأُتِيَ بها رسولُ الله ـ ﷺ ـ فكلَّمه فيها أسامةُ بن زيد، فَتلوَّن وجهُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: أتشفع في حَدٍّ من حدود الله عَزَّ وجلَّ؟ فقال له أسامةُ: استَغْفِر لي يـا رسولَ الله. فلما كان العَشِيّ قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ فاختَطَبَ، فأثنى على الله بما هو أهلُه، ثم قال: أما بعدُ، فإنما أهلَكَ الذين مِنْ قبلكم أنهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشريفُ تَرَكُوه، وإذا سَرَق فيهم الضعيفُ أقامُوا عليه الحدَّ، وإني والَّذِي نفسي بيده لو أن فاطِمَةَ بنت مُحمَّدٍ سَرَقَت لقطعتُ يدها. ثم أمر بتلك المرأةِ التي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يدُها. قالت عائشة: فَحَسُنَتْ توبتُها بعدُ، وتزوّجت، وكانت تأتي بعد ذلك، فأرفعُ حاجَتَها إلى رسولِ الله ﷺ.

وهذا لفظ مسلم. وفي لفظٍ له عن عائشة قالت: «كانت امرأةٌ مخزوميّةٌ تَستعيرُ المتاع وتجحَدُه، فأمر النبي ـ ﷺ ـ بِقَطْعِ يدها»(٣).

وعن ابن عُمَر قال: كانت امرأةٌ مخزوميةٌ تَستَعِيرُ متاعاً على ألسنة جاراتها وتجحَدُه، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقطع يدها.

رَواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي ـ وهذا لفظه ـ وفي لفظ له: «أن امرأة كانت تَسْتَعِيرُ الحلي للناس ثم تمسكه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لتتب هَذِه المرأةُ إلى الله ورسوله وتَرُدُّ ما تأخذُ على القوم، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قُمْ يا بلالُ فخذ بيدها فاقطعها»(٤).

وقد ورد في أحكام السرقة أحاديثُ كثيرةٌ مذكورةٌ في كتابِ «الأحكام»، ولله الحمدُ والمنّة.

ثم قال تعالى: ﴿ ألم تعلم أن الله له ملكُ السموات والأرض ﴾، أي: هو المالكُ لجميع ذلك، الحاكمُ فيه، الذي لا مُعقِّب لحُكْمِه، وهو الفَعَّالُ لما يريدُ ﴿ يُعذِّب من يشاء، ويَغْفِر لمن يشاء، والله على كُلِّ شيء قديرٌ ﴾.

(١) تفسير الطبري ٦/٢٣٠.
(٢) مسند أحمد ٢/١٧٧ ـ ١٧٨.
(٣) أخرجاه في كتاب الحدود، مسلم ١٣١٥ ـ ١٣١٦. وفتح الباري ١٢/٨٦.
(٤) مسند أحمد ٢/١٥١، وسنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/١٣٢ ـ ١٣٣، ١٣٩، والنسائي، كتاب قطع السارق ٨/٧١.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٤١) سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٤٢) وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٤٣) إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٤) ﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعةِ الله ورسوله، المقدِّمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عزّ وجلّ، ﴿ من الذين قالوا: آمنا بأفواهِهم؛ ولم تؤمن قلوبهم ﴾، أي: أظهروا الإيمانَ بألسنتهم، وقلوبُهم خرابٌ خاويةٌ منه، وهؤلاء هم المنافقونَ ﴿ ومن الذين هادُوا ﴾ أعداءُ الإسلام وأهلُه. وهؤلاء كلُّهم ﴿ سمَّاعون للكذب ﴾، أي: يستَجيبون لـه مُنفعِلُون عنه ﴿ سمَّاعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾، أي: يستجيبون لأقوامٍ آخرينَ لا يأتونَ مجلِسَكَ يا محمد. وقيل: المرادُ أنهم يتسمَّعُون الكلام، وينْهُونه إلى أقوام آخرينَ ممن لا يحضرُ عندك، من أعدائك ﴿ يحرِّفون الكلم من بعد مواضعه ﴾، أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدّلونه من بعدما عَقَلوه وهم يعلمون ﴿ يقولون: إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾.

قيل: نَزَلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا حتى نَتحاكم إلى محمدٍ، فإن أفتانا بالدية فَخذوا ما قال، وإن حَكم بالقِصاص فلا تسمعُوا منه.

والصحيحُ أنها نزلت في اليهوديَّيْن اللَّذين زَنيا، وكانوا قد بَدَّلوا كتابَ الله الذي بأيديهم، من الأمْرِ برجم من أُحصِن منهم، فحرَّفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتَّحميم[1] والإركاب على حمار مَقلوبَين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هِجرة النبي ـ ﷺ ـ قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حَكم بالجلدِ والتَّحميم فَخُذوا عنه، واجعلُوه حُجَّةً بينكم وبين الله، ويكون نبيٌّ من أنبياء الله قد حَكَم بينكم بذلك، وإن حَكَم بالرجم فلا تتَّبِعُوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث بذلك، فقال مالك، عن نافع، عن عبدالله بن عُمر أنه قال: «إنَّ اليهود جاءوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فذكروا له أن رَجُلاً منهم وامرأة زَنيا، فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما تجدون في التوراةِ في

(١) التحميم: تسويد الوجه.

شأنِ الرَّجْم؟ فقالوا: نَفْضَحُهم ويُجْلَدون. قال عبدالله بن سَلَام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتَوا بالتوراة فَنَشَرُوها، فوضع أحدهم يَدَه على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سَلَام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صَدَق يا محمد، فيها آيةُ الرَّجْمِ! فأمر بهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ فرُجِما، فرأيت الرجل يَحْنِي[١] على المرأة يقيها الحجارة».

وأخرجاه، وهذا لفظ البخاري. وفي لفظٍ له: «فقال لليهود: ما تصنَعونَ بهما؟ قالوا: نُسَخِّمُ[٢] وجوههما ونُخْزيهما. قال: ﴿ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾. فجاءوا فقالوا لرجل منهم ممن يرضَون أعورَ: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضَع يده عليه، قال: ارفعْ يدك. فرفع، فإذا آية الرجم تلوحُ، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكنا نتكاتَمُه بيننا. فأمر بهما فرُجما»[٣].

وعند مُسلم: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أُتِي بيهودي ويهودية قد زَنَيا، فانطلَق رسول الله ـ ﷺ ـ حتى جاء يَهُودَ، فقال: ما تَجِدون في التوراةِ على من زنى؟ قالوا: نُسَوِّد وجوهَهما ونُحَمِّلهما، ونخالف بين وُجُوهِهما، ويُطَاف بهما، قال: ﴿ فَأْتوا بالتوراة فاتْلُوها إن كنتم صادقين ﴾. قال: فجاءوا بها، فقرأوها، حتى إذا مَرَّ بآية الرجم وَضَع الفتى الذي يقرأ يدَه على آية الرَّجْم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبدالله بن سَلَام، وهو مَع رسول الله ـ ﷺ ـ: مُرْهُ فَلْيرفَعْ يده. فَرَفع يده، فإذا تحتها آيةُ الرجم. فأمر بهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ فرُجما. قال عبدُالله بن عُمَر: كُنتُ فيمن رَجَمَهُما، فلقد رأيتهُ يقيها من الحجارة بنفسه[٣].

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني، حدثنا ابنُ وهب، حدثنا هِشام بن سعد: أن زيد بن أسلم حَدثه، عن ابن عُمَر قال: «أتَى نفرٌ من اليهود، فدعَوا رسول الله ـ ﷺ ـ إلى القُفِّ[٤]، فأتاهم في بيت المِدْرَاس، فقالوا: يا أبا القاسم، إن رجلاً منا زَنَى بامرأة، فاحكم. قال: ووضعوا لرسول الله ـ ﷺ ـ وِسَادَةً، فجلس عليها. ثم قال: ائتوني بالتوراة. فَأُتِيَ بها، فنَزَع الوسادة من تَحتِه، ووَضَع التوراة عليها، وقال: آمنت بك وبمن أنزلك. ثم قال: ائتوني بأعلمكم. فأُتِي بفتىً شابٍّ، ثم ذكر قصةَ الرَّجم نحو حديث مالكٍ عن نافع»[٥].

وقال الزهريّ: سَمِعت رجلاً من مُزَينةَ، ممن يَتّبع العلم ويَعِيه، ونحن عند ابن المسيَّب، عن أبي هُرَيرة قال: زنى رجلٌ من اليهود بامرأةٍ، فقال بعضُهم لبعضٍ: اذهبوا إلى هذا النبي، فإنه بُعِث بالتَّخفيف، فإن أفتانا بفُتْيا دون الرَّجم قبلناها، واحتججنا بها عند الله، قلنا: فُتيا نَبيٍّ من أنبيائك، قال: فأتوا النبي ـ ﷺ ـ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقولُ في رَجُلٍ وامرأةٍ منهم زنيا؟ فلم يكلِّمهم كلمةً حتى أتى بيت مِدْرَاسِهم، فقام على الباب فقال: أَنْشُدكُم بالله الذي أنزلَ التوراةَ على موسى، ما تَجِدُونَ في التوراةِ على من زَنَى إذا أُحصِنَ؟ قالوا: يُحَمَّمُ، وَيُجَبَّه ويجلد ـ والتجبيةُ: أن يُحمل الزانيان على حمار، وتقابل أقفيتهما، ويطاف بهما ـ قال: وسَكَت شابٌّ منهم، فلما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ سكت ألَظَّ[٦] به رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) يقول ابن عبد البرّ: كذا رواه أكثر شيوخنا عن يحيى. وقال بعضهم عنه: بالجيم. والصواب فيه عند أهل العلم: يَحْنَأ، أي: يميل. وانظر فتح الباري ١٢/١٦٩.

(٢) أي: نُسوِّد وجوههما.

(٣) الموطأ، كتاب الحدود ٨١٩، وفتح الباري، كتاب الحدود ١٢/١٦٦، وكتاب التوحيد ١٣/٥١٦، ومسلم، كتاب الحدود ١٣٢٦.

(٤) القفُّ: واد بالمدينة. والمدراس: المكان الذي يدرسون فيه.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/١٥٥.

(٦) أي: ألحّ في سؤاله.

النِّشْدة، فقال: اللهم إذ نَشَدتنا، فإنا نجدُ في التوراة الرجم. فقال النبي ـ ﷺ ـ: فما أوَّلُ ما ارتخصتم أمر الله؟ قال: زَنى ذُو قرابة من مَلِك من ملوكنا، فأخَّرَ عنه الرجْمَ، ثم زنى رجل في أثره من الناس، فأراد رَجْمَه، فحال قومه دونه وقالوا: لا يُرجَمُ صاحبنا حتى تَجِيء بصاحبك فترجُمَه! فاصطَلَحُوا على هذه العقوبةِ بينهم، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «فإني أحكم بما في التوراة» فأمر بهما فَرُجِما. قال الزهريُّ: فَبَلَغنا أن هذه الآية نَزَلت فيهم: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾، فكان النبي ـ ﷺ ـ منهم».

رواه أحمد، وأبو داود، وهذا لفظه، وابنُ جَرير[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن عبدالله بن مُرّة، عن البَرَاء بن عازب قال: مَرّ على رسول الله ـ ﷺ ـ يهوديّ محمَّمٌ مجلودٌ، فدعاهم فقال: أهكذا تَجِدُون حَدَّ الزاني في كتابكم؟ فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدُك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حَدّ الزاني في كتابكم؟ فقال: لا، والله، ولولا أنك نَشَدتَني بهذا لم أخبرك؛ نَجِدُ حَدَّ الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كَثُر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضعيفَ أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالَوا حتى نجعل شيئاً نُقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التَّحمِيم والجَلْد. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهُمَّ إني أول من أحيا أمرَكَ إذْ أماتوه». قال: فأمر به فَرُجِم، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الرسولُ، لا يحزُنك الذين يُسَارعون في الكفر ﴾ . . . إلى قوله: ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ﴾، يقولون: ائتوا محمداً، فإن أفتاكم بالتَّحمِيم والجَلْدِ فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾، قال: في اليهود إلى قوله: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ قال: في اليهود، ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال: في الكفار كلها.

انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، من غير وَجْهٍ، عن الأعمش، به[٢].

وقال الإمام أبو بكر عبدالله بن الزبير الحُمَيديّ في مسنده: حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن مجالد بن سعيد الهَمْداني، عن الشعبي، عن جابر بن عبدالله قال: زَنى رجل من أهل فَدَك، فكتَب أهلُ فَدَكَ إلى ناس من اليهودِ بالمدينة: أن سَلُوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجَلْدَ فَخُذوه عنه، وإن أمَركم بالرَّجْم فلا تأخذُوه عنه، فسألوه عن ذلك، قال: أرسِلُوا إليَّ أعلَمَ رجُلَين فيكم. فجاءوا برجل أعورَ ويقال له: ابن صُوْريا، وآخر، فقال لهما النبي ـ ﷺ ـ: أنتما أعلَمُ من قِبَلَكما؟ فقالا: قد دعانا قومنا لذلك، فقال النبي ـ ﷺ ـ لهما: أليس عندكما التوراة فيها حُكْمُ الله؟ قالا: بلى. فقال النبي ـ ﷺ ـ: فأنشُدُكم بالذي فَلَق البحر لبني إسرائيل، وظلل عليكم الغمام، وأنجاكم من آل فرعون، وأنزل المنَّ والسَّلْوى على بني إسرائيل: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقال أحدهما للآخر: ما نُشِدْتُ بمثله قطُّ. قالا: نَجِدُ تَرْدادَ النَّظر زَنْيَةٌ والاعتناق زَنْيَةٌ، والقُبَل زَنْيَةٌ، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يُبدِيء ويعيد، كما يدخل الميل في المُكْحُلَة، فقد وَجَب الرجم. فقال النبي ـ ﷺ ـ: هو ذاك. فَأمَرَ به فَرُجِمَ، فنزلَت: ﴿ فإن جاءوك فاحكُم بينهم أو أعرِضْ عنهم، وإن تُعرِضْ عنهم فلن يَضرُّوك شيئاً، وإن حكمت فاحكُم بينهم بالقِسْطِ، إن الله يحبُّ المُقْسِطين ﴾[٣].

(١) سنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/١٥٥، وتفسير الطبري ٦/٢٣٢.

(٢) مسند أحمد ٤/٢٨٦، ومسلم، كتاب الحدود ١٣٢٧، وسنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/١٥٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الحدود ٨٥٥.

(٣) الدر المنثور ٣/٧٨.

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث مجالد، به نحوه. ولفظ أبي داود عن جابر قال: «جاءت اليهودُ برجل وامرأة منهم زنيا، فقال: ائتوني بأعلم رَجُلين منكم. فأتوه بابني صُورْيا، فنشَدهما: كيف تجدان أمْرَ هذين في التوراة؟ قالا: نَجدُ في التوراة إذا شَهد أربعةٌ أنهم رأوا ذَكره في فَرْجها مثل المِيل في المُكْحُلَة، رُجما. قال: فما يمنعكم أن تَرجُموهما؟ قالا: ذَهَب سُلْطَاننا، فكرهنا القتل. فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالشهود، فجاءوا بأربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذَكره في فَرْجِها مثلَ المِيـل في المُكْحُلة، فأمـر رسول الله ـ ﷺ ـ برجمهما»[(١)].

ثم رواه أبو داود، عن الشعبي وإبراهيمُ النخَعِيُّ، مرسلاً[(٢)]، ولم يذكر فيه: «فدعا بالشهود فشهدوا».

فهذه أحاديثُ دالة على أن رسول الله ـ ﷺ ـ حَكَم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صِحَّته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمَّدي لا محالة، ولكن هذا بوحيٍ خاصٍّ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقرِّرَهم على ما بأيديهم، مما تراضَوا على كتمانه وجَحْده، وعَدَم العمل به تلك الدهور الطويلة. فلما اعترَفُوا به مع عَمَلهم على خلافه، بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صِحَّتَه من الكتاب الذي بأيديهم. وعُدُولُهم إلى تحكيم الرسول ـ ﷺ ـ إنما كان عن هَوىً منهم وشهوةٍ لموافقه آرائهم، لا لاعتقادهم صَحَّةَ ما يحكم به، ولهذا قالوا: ﴿ إن أوتيتم هذا ﴾ أي: الجلد والتحميم ﴿ فَخُذُوه ﴾، أي: اقبلوه ﴿ وإن لم تؤتوه فاحذَرُوا ﴾ أي: من قبوله واتباعه.

قال الله تعالى: ﴿ ومَن يُردِ الله فتنته فلن تَمْلِكَ له مِنَ الله شيئاً، أولئكَ الذين لم يُردِ الله أن يُطَهِّر قلوبهم، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم. سَمَّاعون للكذب ﴾، أي: الباطل ﴿ أكَّالون للسحتْ ﴾، أي: الحرام، وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد. أي: ومن كانت هذه صفتَه كيفَ يُطَهِّر الله قلبَه؟ وأنَّى يَستجيبُ له!

ثم قال لنبيه: ﴿ فَإن جاءوك ﴾، أي: يتحاكَمُون إليك ﴿ فاحكُم بينهم أو أعرضْ عنهم، وإن تُعرِضْ عنهم فلن يضروك شيئاً ﴾، أي: فلا عليكَ ألاَّ تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباعَ الحق، بل ما وافق أهواءهم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدِّيّ، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني: هي منسوخة بقوله: ﴿ وأن احكمْ بينهم بما أنزل الله ﴾[(٣)].

﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾، أي: بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾.

ثم قال تعالى ـ منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة، في تَرْكهم ما يعتقدون صِحَّته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعُمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خَرَجوا عن حكمه وعَدَلوا إلى غيره، مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانَه وعَدَم لزومه لهم، فقال: ﴿ وكيف يُحَكِّمونك وعندهم التوراةُ فيها حكمُ الله، ثم يتولَّون من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين ﴾.

ثم مَدَح التوراة التي أنزلها على عَبدِه ورسوله موسى بن عِمرانَ، فقال: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى

(١) سنن أبي داود، كتاب الحدود ١٥٦/٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الأحكام ٧٨٠/٢.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الحدود ١٥٧/٤.
(٣) تفسير الطبري ٢٤٥/٦ ـ ٢٤٦.

ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلَمُوا للذين هادوا ﴾، أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿ والربانيون والأحبار ﴾ أي: وكذلك الربانيون منهم، وهم العباد العلماء، والأحبار وهم العلماء ﴿ بما استُحْفظُوا من كتابِ الله ﴾ أي: بما استودعوا من كتاب الله الذي أُمِروا أن يُظهِرُوه ويعملُوا به ﴿ وكانوا عليه شُهَداء، فلا تَخشَوُا الناسَ واخشَونِ ﴾، أي: لا تخافوا منهم وخافوني ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب آخر لنزول هذه الآيات الكريمة:

قال الإمام أحمد: حَدّثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزِّناد، عن أبيه، عن عُبَيد الله بن عبدالله، عن ابن عباس قال: إن الله أنزل: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وأولئك هم الظالمون * وأولئك هم الفاسقون ﴾ قال: قال ابنُ عباس: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، كانت إحداهما قد قَهَرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا أو اصطَلَحُوا على أنَّ كُلَّ قتيلٍ قَتَلَتْهُ العزيزةُ من الذليلة فديتُه خمسون وَسْقاً[1]، وكلَّ قتيل قَتَلته الذليلة من العزيزةِ فَديتُه مائةُ وَسْقٍ، فكانوا على ذلك حتى قَدِم النبي ـ ﷺ ـ المدينةَ، فذَلَّت الطائفتان كلتاهما، لمقدم رسول الله ـ ﷺ ـ ويومئـذ لم يظهر، ولم يُوطِئْهما[2] عليه، وهو في الصلح، فقتلت الذليلةُ من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزةُ إلى الذليلة: أن ابعثُوا لنا بمائة وَسْق. فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حَيَّيْنِ قطُّ دِينهُما واحد، ونسبُهما واحد، وبلدُهما واحد: ديةُ بعضِهم نصفُ دية بعض. إنما أعطيناكم هذا ضَيماً منكم لنا، وفَرَقاً منكم، فأما إذْ قَدِم محمد فلا نعطيكـم ذلك. فكادت الحربُ تَهيجُ بينهما، ثم ارتضَوا على أن يجعلوا رسول الله ـ ﷺ ـ بينهم، ثم ذكرت العزيزةُ فقالت: والله ما محمدٌ بمعطيكم منهم ضعفَ ما يعطيهم منكم، ولقد صَدَقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم، فَدُسُّوا إلى محمد: من يَخْبُر لكم رأيه، إن أعطاكم ما تريدون حَكَّمتُموه وإن لم يعطكم حُذِرتم فلم تُحَكِّموه. فَدَسُّوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ناساً من المنافقين لِيَخْبُرُوا لهم رَأْيَ رسول الله ـ ﷺ ـ فلما جاءوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ أخبر اللهُ رسولَه ـ ﷺ ـ بأمرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الرسولُ، لا يحزُنْكَ الذين يُسارِعُونَ في الكفر ﴾ إلى قوله: ﴿ الفاسقون ﴾، ففيهم ـ والله ـ أنزل، وإياهم عنى الله عزّ وجلّ[3].

وَرَواه أبو داودَ من حَديثِ ابنِ أبي الزِّناد، عَنْ أبيه، بِنَحْوِهِ[4].

وقال أبو جعفر بن جَرير: حدثنا هَنَّاد بن السَّرِيِّ وأبو كُرَيب قالا: حدثنا يونس بن بُكَير، عن محمد بن إسحاق، حدثني داود بن الحُصَين، عن عكرمةَ، عن ابن عباس أن الآيات في «المائدة»، قولهُ: ﴿ فاحكمْ بينهم أو أعرض عنهم ﴾ إلى: ﴿ المقسطين ﴾، إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قُرَيظة، وذلك أن قتلى بني النَّضِير كان لهم شَرَفٌ، تُودَى الديةَ كـاملـة، وأن قريظةَ كانوا يُودَوْن نصف الدية. فتحاكَمُوا في ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله ذلك فيهم، فَحملهم رسول الله ـ ﷺ ـ على الحقِّ في ذلك، فجعل الدِّيةَ في ذلك سواءً، والله أعلم أيَّ ذلك كانَ»[5].

ورواه أحمدُ، وأبو داودَ، والنسائي من حديث ابن إسحاق[5].

---

(١) الوسق: حمل بعير، وهو ستون صاعاً، ولما كان الصاع $\frac{1}{6}$ كيلة مصرية فهو يساوي ١٠ عشر كيلات.

(٢) أي: لم يوافقهما على ما اتفقا عليه.

(٣) مسند أحمد ٢٤٦/١.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأقضية ٢٩٩/٣. وأخرجه الطبري أيضاً من حديث ابن أبي الزناد ٢٥٤/٦ ـ ٢٥٥.

(٥) تفسير الطبري ٢٤٣/٦، ومسند أحمد ٣٦٣/١، وسنن أبي داود، كتاب الأقضية ٣٠٣/٣، وسنن النسائي، كتاب القسامة ١٩/٨.

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا عُبيد الله بن موسى، عن عليِ بن صالح، عن سِمَّاكٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: كانت قريظَة والنَّضِير، وكانت النضيرُ أشرفَ من قُرَيظَة، فكان إذا قتل رجلٌ من قريظة رجلاً من النضير قُتِل به، وإذا قَتَل رجل من النَّضِير رجلاً من قريظة، وَدَى مائـةَ وَسْق تمرٍ. فلما بُعِث رسول الله ـ ﷺ ـ قَتَلَ رجلٌ من النَّضير رجلاً من قُرَيظة، فقالوا: ادفَعُوه إلينا. فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ـ ﷺ ـ: فنزلت: ﴿ وإن حَكَمْتَ فاحكُم بينهم بالقسط ﴾[١].

ورواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في المستدرك، من حديث عبيد الله بن موسى، بنحوه[١].

وهكذا قال قتادةُ، ومقاتل بن حَيَّان، وابنُ زَيدٍ وغيرُ واحد.

وقد رَوَى العَوفي، وعلي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: أن هذه الآيات نَزَلت في اليهوديَّين اللذَين زَنَيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقتٍ واحدٍ، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم.

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين ﴾... إلى آخرها. وهذا يُقَوِّي أن سبب النزولِ قضيةُ القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقولهُ: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾، قال البَرَاء بن عازِبٍ، وحُذيفة بن اليمان، وابن عباس، وأبو مِجْلز، وأبو رَجَاء العُطَارِدِيّ، وعكرمة، وعُبَيد الله بن عبدالله، والحَسَنَ البصريّ، وغيرهم: نَزَلت في أهل الكتاب، زاد الحسنُ البَصْريّ: وهي علينا واجبةٌ.

وقال عبد الرزاق: عن سفيان الثوريِّ، عن منصور، عن إبراهيمَ قال: نَزَلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ورَضِي الله لهذه الأمة بها. رواه ابن جرير[٢].

وقال ابنُ جَرير أيضاً: حَدَّثنا يعقوب، حدثنا هُشَيم، أخبرنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابنَ مسعودٍ عن الرِّشوة، فقال: مِنَ السُّحت. قال فقالا: وفي الحُكْمِ؟ قال: ذاكَ الكفر!. ثم تلا: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[٣].

وقال السدِّي: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾، يقول: ومن لم يحكم بما أنزلتُ، فتركه عمداً، أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾، قال: «من جَحَد ما أنزل الله فقد كَفَر. ومن أقرَّ به ولم يحكُم، فهو ظالم فاسق». رواه ابن جرير[٣].

ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن زكريا، عن الشعبي: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾، قال: للمسلمين.

---

(١) تفسير الطبري ٦/٢٤٣، وسنن أبي داود، كتاب الديات ٤/١٦٨، والنسائي، كتاب القسامة ٨/١٨ ـ ١٩، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب القضاء ٧/٢٥٨، والمستدرك، كتاب الحدود ٤/٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٢) تفسير الطبري ٦/٢٥٦.

(٣) تفسير الطبري ٦/٢٥٧.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا عبد الصَّمد، حدثنا شعبةُ، عن ابن أبي السَّفَر، عن الشَّعبيِّ: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾، قال: هذا في المسلمين، ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾، قال: هذا في اليهود، ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾، قال: هذا في النصارى.

وكذا رواه هُشَيم والثوري، عن زكريا بن أبي زائدة، عن الشعبي.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: سُئِل ابن عباس عن قوله: ﴿ ومن لم يحكم ﴾. . . الآية، قال: هي به كفر. قال ابن طاوس: وليس كَمَن كَفَر بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وقال الثوري، عن ابن جُرَيج، عن عطاء أنه قال: كُفْرٌ دون كُفْرٍ، وظُلْمٌ دون ظُلْمٍ، وفِسْقٌ دون فِسْقٍ. رواه ابن جرير.

وقال وكيع [عن سفيان] عن سعيد المكي، عن طاوس: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾، قال: ليس بكفر ينقلُ عن المِلَّةِ.

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المُقْري، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن هشام بن حُجَير، عن طاوس، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قال: ليس بالكفر الذي يَذْهبون إليه.

ورواه الحاكمُ في مستدركه، من حديث سفيان بن عُيَينة، وقال: صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1].

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وهذا أيضاً مما وُبِّخَتْ به اليهود وقُرِّعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة: أن النفس بالنفس. وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويُقِيدُون النَّضريَّ من القُرَظي، ولا يُقِيدُون القُرَظي من النَّضريِّ، بل يَعدِلُون الى الدية، كما خالفوا حُكْم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصَن، وعَدَلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار، ولهذا قال هناك: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون ﴾، لأنهم جَحَدوا حكم الله قَصْداً منهم وعناداً وعمداً، وقال هاهنا: ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ لأنهم لم يُنصِفُوا المظلومَ من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدلِ والتَّسوية بين الجميع فيه، فخالَفُوا وظلَموا، وتَعدَّى بعضُهم على بعض.

وقال الإمام احمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن يونس بن يَزِيدَ، عن أبي علي بن يزيد ـ أخي يونس بن يزيد ـ عن الزهريِّ، عن أنسِ بن مالك: أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قرأها: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن

---

(١) المستدرك، تفسير سورة المائدة ٣١٣/٢.

النفسَ بالنفسِ والعينُ بالعينِ ﴾، نَصبَ النفسَ ورَفع العينَ[١].

وكذا رواه أبو داود، والترمذيُّ، والحاكم في مُسْتَدرَكِهِ، من حديث عبدالله بن المبارك، وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ[١].

وقال البخاري: تَفَرَّد ابنُ المبارَك بهذا الحديثِ.

وقد استدل كثير ممن ذَهَب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شَرْعَ من قبلنا شرع لنا، إذا حكى مُقَرَّراً ولم يُنسَخْ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني عن نَصِّ الشافعي وأكثرِ الأصحاب، بهذه الآية، حيث كان الحكمُ عندنا على وفْقِها في الجنايات عند جَمِيع الأئمةِ.

وقال الحسنُ البصريّ: هي عليهم وعلى الناس عامَّةً. رواه ابن أبي حاتم.

وقد حكى الشيخُ أبو زكريا النَوَوِيّ في هذه المسألة ثلاثةَ أوجُهٍ، ثالثها: أن شرع إبراهيم حُجَّةٌ دون غيره، وصَحَّحَ منها عدمَ الحُجِّية، ونقلها الشيخُ أبو إسحاقَ الإسفراييني أقوالاً عن الشافعي، ورَجَّح أنه حُجَّةٌ عند الجمهورِ من أصحابنا، فالله أعلم.

وقد حكى الإمام أبو نَصْر بن الصباغ ـ رحمه الله ـ في كتابه «الشامل» إجماعَ العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دَلَّت عليه، وقد احتجَّ الأئمةُ كلُّهم على أن الرجل يُقتَلُ بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كتب في كتاب عمرو بن حَزْم: «أن الرجل يُقتَلُ بالمرأة»[٢] وفي الحديث الآخر: «المسلمون تتكافأ دماؤُهم»[٣]، وهذا قول جمهور العلماء.

وعن أمير المؤمنين عَليِّ بن أبي طالب أنَّ الرجل إذا قَتَلَ المرأةَ لا يقتَلُ بها، إلا أن يدفَعَ وَلِيُّها إلى أوليائِه نصفَ الدِّيةِ، لأن دِيَتَهَا على النصفِ من دِيَةِ الرجل، وإليه ذهب أحمدُ في رواية، وحُكِيَ عن الحسن، وعطاء، وعثمانَ البَتّـي. ورواية عن أحمد أن الرجلَ إذا قَتَلَ المرأة لا يُقتَلُ بها، بل تَجبُ ديتها.

وهكذا احتج أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ بعموم هذه الآية على أنه يُقتَلُ المسلم بالكافر الذميِّ، وعلى قتل الحر بالعبد. وقد خالفه الجمهور فيهما، ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يُقتَلُ مُسلِم بكافرٍ»[٤] وأما العبدُ فعن السَّلَفِ في آثارٍ متعددة: أنهم لم يكونوا يُقِيدُون العبدَ من الحرِّ، ولا يقتلُون حُرّاً بعبد، وجاء في ذلك أحاديثُ لا تَصِحّ، وحكى الشافعي الإجماعَ على خلاف قولِ الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلانُ قولهم إلا بدليلٍ مُخَصِّصٍ للآية الكريمة.

ويؤيِّد ما قاله ابنُ الصَّباغ من الاحتجاج بهذهِ الآيةِ الكريمةِ الحديثُ الثابتُ في ذلك، كما قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا محمد بن أبي عَدِيّ، حدثنا حُمَيدٌ، عن أَنَس بن مالك: أن الرُّبَيِّع عَمَّة أنس كسرت ثَنِيَّة جاريةٍ، فطلبوا إلى القوم العفو، فأبوا، فأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: القصاصَ. فقال أخوها أنسُ بن النضر: يا رسول

---

(١) مسند أحمد ٢١١٥/٣، وسنن أبي داود، كتاب القراءات ٣٣/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب القراءات ٥٢/١١، والمستدرك، كتاب التفسير ٢٣٦/٢.

(٢) النسائي، كتاب القسامة ٥٨/٨.

(٣) النسائي، كتاب القسامة ٢٤/٨، وابن ماجه، كتاب الديات ٨٩٥، ومسند أحمد ١١٩/١، ١٢٢.

(٤) فتح الباري، كتاب العلم ٢٠٤/١، وكتاب الجهاد ١٦٧/٦. ولم نجده في مسلم، وانظر تحفة الأشراف ٤٥٦/٧.

الله، تكسِر ثَنِيَّةَ فلانةَ؟! فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا أنس، كتابُ الله القصاصُ. قال: فقال: لا، والذي بعثك بالحقِّ، لا تُكْسَرُ ثَنِيَّةُ فلانة! قال: فرضي القوم، فعفَوا وتركُوا القِصَاص، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن من عباد الله من لو أقسَمَ على الله لأبرَّه[1]. أخرجاه في الصحيحين[1].

وقد رواه محمد بن عبدالله بن المثنَّى الأنصاري، في الجزء المشهور من حديثه، عن حُمَيد، عن أنس ابن مالك: أن الرُّبَيِّع بنتَ النَّضر عَمَّته لطمت جَارِيَةً فكسَرت ثَنِيَّتها، فَعرضُوا عليهم الأرْشَ، فأبوا، فطلبوا الأرْشَ والعفو فأبوا، فأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ فأمرَهُم بالقصاص، فجاء أخُوها أنس بن النضر فقال: يا رسولَ الله، أتكسِر ثَنِيَّة الرُّبَيِّع؟ والذي بَعثك بالحق لا تُكْسَر ثَنِيَّتها. فقال النبي ـ ﷺ ـ: يا أنسُ، كتابُ الله القصاصُ. فعفا القومُ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنَّ من عباد الله من لو أقسَمَ على الله لأبرَّه. رواه البخاري عن الأنصاري[1].

فأما الحديث الذي رواه أبو داودَ:

حدثنا أحمدُ بن حَنْبَلٍ، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادةَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن عِمْرانَ بن حُصَين: «أن غلاماً لأناس فُقَراء قَطَعَ أُذُنَ غلام لأناسٍ أغنياء، فأتى أهلهُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقالوا: يا رسولَ الله، إنا أناس فقراءُ، فلم يَجْعَلْ عليه شيئاً»[2].

وكذا رواه النسائي عن إسحاق بن راهَوَيه، عن معاذ بن هشام الدَّسْتَوائي، عن أبيه، عن قتادة، به. وهذا إسناد قوي، رجالُه كلهم ثِقاتٌ ـ فإنه حديث مُشْكِلٌ، اللهُمَّ إلاّ أن يقال: إنَّ الجاني كان قبل البُلُوغِ، فلا قِصاصَ عليه، ولعله تَحمَّل أرْشَ ما نقصَ من غلام الأغنياء عن الفقراء، أو استعفاهم عنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿والجروحُ قِصَاصٌ﴾ قال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: تُقْتَلُ النفسُ بالنفس، وتُفْقَأُ العينُ بالعينِ، ويقطَعُ الأنفُ بالأنفِ، وتنزَعُ السنُّ بالسنِّ، وتقتصُّ الجراحُ بالجراحِ.

فهذا يستَوي فيه أحرارُ المسلمين فيما بينهم، رجالُهم ونساؤُهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، ويستويَ فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً، في النفس وما دون النفس، رواه ابن جَريرٍ وابن أبي حاتم.

قاعدة مهمة:

الجِراحُ تارةً تكونُ في مَفْصِلٍ، فيجبُ فيه القصاصُ بالإجماع، كقطع اليد والرجل والكفِّ والقَدَم ونحو ذلك، وأما إذا لم تكن الجراح في مَفْصِل بل في عَظْم، فقال مالك ـ رحمه الله ـ: فيه القصاصُ إلا في الفَخِذِ وشبهها، لأنه مَخُوفٌ خَطِرٌ. وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن. وقال الشافعي: لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً، وهو مَرْوِيٌّ عن عُمَر بن الخطاب، وابن عباس. وبه يقول عطاءٌ، والشعبي، والحسن البصري، والزهري، وإبراهيم النَّخعي، وعُمَر بن عبد العزيز. وإليه ذهب سفيانُ الثوريُّ، والليثُ بن سعد. وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد.

وقد احتج أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ بحديث الرُّبَيِّع بنت النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السنِّ. وحديثُ الرُّبَيِّع لا حُجَّةَ فيه؛ لأنه ورد بلفظ «كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جارية» وجائز أن تكون سَقَطت من غير كسر،

(١) مسند أحمد ١٢٨/٣، وفتح الباري، كتاب الصلح ٣٠٦/٥، ومسلم، كتاب القسامة ١٣٠٢.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الديات ١٩٦/٤.

فيجبُ القصاصُ ـ والحالة هذه ـ بالإجماع. وتَمَّمُوا الدلالةَ. بما رواه ابنُ ماجه، من طريق أبي بكر بن عَيَّاش، عن دَهْثَم بن قُرَّانَ، عن نِمْرانَ بن جارية. عن أبيه جارية بن ظَفَر الحَنَفِي: أنَّ رجُلاً ضَرَب رَجُلاً على ساعده بالسيفِ من غير المفصل، فقطعها، فاستعدى النبيَّ ـ ﷺ ـ فأمر له بالديةَ، فقال: يا رسولَ الله، أريدُ القِصاص. فقال: خُذِ الدية، بارك الله لك فيها. ولم يَقْضِ له بالقصاص»[١].

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: ليس لهذا الحديثِ غيرُ هذا الإسناد، وَدَهْثَمُ بن قُرَّان العُكْلي ضَعِيفٌ أعرابي، ليس حديثُه مما يحتجُّ به، ونِمران بن جارية ضَعِيفٌ أعرابي أيضاً، وأبوه جارية بن ظَفَر مذكورٌ في الصحابة.

ثم قالوا: لا يجوزُ أن يُقتصَّ من الجراحَةِ حتى تَنْدَمِلَ جراحةُ المجنيِّ عليه، فإن اقتُصَّ منه قبل الاندمال ثم زاد جُرْحُه، فلا شيء له، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد:

[٢]⌈حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن محمد بن إسحاق، فذكر حديثاً، قال ابنُ إسحاقَ: وَذَكر⌉[٢] عَمْرو ابن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه: «أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في رُكبَته[٣]، فجاء إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: أقدني. [٢]⌈فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لا تعجل حتى يبرأ جرحُك. قال: فأبى الرجل إلا أن يَسْتَقِيد⌉[٢] فأقاده رسولُ الله ـ ﷺ ـ منه، قال: فَعَرِجَ المستقيد وبَرَأ المستقادُ منه، فأتى المستقيدُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له: يا رسول الله، عَرِجْتُ وبَرَأ صاحبي! فقال: «قد نهيتُكَ فعصيتَني، فأبعدَكَ الله وبَطَل عَرَجك[٤]. ثم نهى رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يُقْتَصَّ من جُرْح حتى يبرأ صاحبه»، تفرد به أحمد[٥].

مسألــة:

فلو اقتصَّ المجنيُّ عليه من الجاني، فمات من القصاص، فلا شيء عليه عند مالك، والشافعي، وأحمد ابن حنبل، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقال أبو حَنِيفةَ: تجبُ الدِّية في مال المقتصِّ. وقال عامر الشعبي، وعطاء، وطاوس، وعمرو بن دينار، والحارث العُكْلي، وابن أبي ليلى، وحماد بن أبي سليمان، والزهري، والثوري: تجبُ الديةُ على عاقلة المقتصِّ له. وقال ابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والحكم بن عُتَيبة، وعثمان البَتِّي: يسقط عن المقتص له قدرُ تلكَ الجراحةِ، ويجبُ الباقي في ماله.

وقولهُ: ﴿ فمن تصدَّقَ به فهو كفارةٌ له ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ فمن تصدَّقَ به ﴾ يقول: فمن عفا عنه، وتصدَّقَ عليه فهو كَفَّارة للمطلوب، وأجر للطالب.

وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ فمن تَصَدَّقَ به فهو كفارة له ﴾، قال: كفارةٌ للجارح، وأجرُ المجروح على الله، عزَّ وجلَّ. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: ورُوِي عن خَيْثَمَةَ بن عبد الرحمن، ومجاهد، وإبراهيم ـ في أحد قولَيه ـ وعامر الشعبيِّ، وجابر بن زيد ـ نحو ذلك الوجه الثاني، ثم قال ابن أبي حاتم:

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الديات ٨٨٠.

(٢) عن المسند.

(٣) في المسند: في رجله.

(٤) في المسند: وبطل جرحك.

(٥) مسند أحمد ٢/٢١٧.

حدثنا حماد بن زاذان، حدثنا حَرمي ـ يعني ابن عُمارة ـ حدثنا شعبة، عن عُمارة ـ يعني ابن أبي حَفْصَةَ ـ عن رجل، عن جابر بن عبدالله، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ فمن تَصَدَّق به فهو كفارة له ﴾، قال: للمجروح. ورُوي عن الحسن البصري، وإبراهيم النخعي ـ في أحد قوليه ـ وأبي إسحاق الهَمْداني، نحو ذلك. وروى ابنُ جرير، عن عامر الشعبيِّ، وقتادةَ، مثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة، عن قيس ـ يعني ابن مسلم ـ قال: سَمِعت طارق بن شهاب يحدِّث، عن الهيثم أبي العُريان النخعي قال: رأيت عبدالله بن عَمرو عند معاوية أحمر شبيهاً بالموالي، فسألته عن قول الله: ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾، قال: يَهدِمُ عنه من ذنوبه بِقَدْرِ ما تَصَدَّقَ به.

وهكذا رواه سُفيان الثوريّ عن قيس بن مسلم. وكذا رواه ابن جَرير من طريق سفيانَ وشُعبةَ[1].

وقال ابن مَرْدُوَيه: حدثني محمد بن علي، حدثنا عبد الرحيم بن محمد المجاشعي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج المهري، حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي، حدثنا معلى ـ يعني ابن هلال ـ أنه سَمع أبان ابن تغلب، عن أبي العريان الهيثم بن الأسود، عن عبدالله بن عمرو ـ وعن أبان بن تغلب، عن الشعبي، عن رجل من الأنصار عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾، قال: «هو الذي تُكْسَر سنُّه، أو تقطع يدهُ، أو يقطَعُ الشيءُ منه، أو يجرَحُ في بَدَنِه فيعفو عن ذلك»، قال: فَيُحطّ عنه قَدْرُ خطاياه، فإن كان ربع الدِّية فربع خطاياه، وإن كان الثلثَ فثُلُثُ خطاياه، وإن كانتِ الدِّية حُطَّت عنه خطاياه كذلك.

ثم قال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدثنا ابن فُضَيل، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السَّفَر قال: «دفع رجلٌ من قريش رجلاً من الأنصار، فاندقت ثَنِيَّتُه، فرفعه الأنصاريُّ إلى معاويةَ، فلما ألحَّ عليه الرجل قال: شأنَكَ وصاحِبَك. قال: وأبو الدَّرْدَاء عند معاوية، فقال أبو الدرداء: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما من مسلم يُصاب بشيءٍ في جَسَده فَيَهبه، إلا رفعه الله به درجةً، وحَطَّ عنه به خطيئةً. فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ؟ فقال: سَمِعَتْه أذناي ووعاه قلبي. فَخَلّى سبيلَ القرشي، فقال معاوية: مُرُوا له بمال».

هكذا رواه ابن جرير[1]، ورواه الإمام أحمد فقال:

حدثنا وكيعٌ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السَّفَرِ قال: كسر رَجُلٌ من قُرَيش سنَّ رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاويةَ، فقال [لمعاوية: إن هذا دَقَّ سنيّ؟][2] قال معاوية: إنا سنرضيك[3]. فألح الأنصاري، فقال معاويةُ: شأنَكَ بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما من مسلم يُصابُ بشيء في جسده، فيتصدَّقُ به، إلا رَفَعه الله به درجةً وحَطَّ عنه بها خطيئةً. فقال الأنصاري: [4-][أأنت سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سَمِعَتْه أذناي، ووعاه قلبي][-4]. قال الأنصاري: فإني. يعني قد عفوتُ.

وهكذا رواه الترمذي من حديث ابن المبارك، وابن ماجه من حديث وَكيع، كلاهما عن يُونُس بن أبي

(١) تفسير الطبري ٦/٢٦٠.

(٢) عن المسند، ولفظ المسند: فقال القرشي: إن هذا دقّ سني»، وهو غير مستقيم، فأثبتنا لفظ الترمذي.

(٣) في المسند: «إنا سنرضيه». وهو غير مستقيم. والمثبت عن الترمذي أيضاً.

(٤) عن المسند.

إسحاق، به. ثم قال الترمذي: غريبٌ لا نعرفهُ إلا من هذا الوَجْهِ، ولا أعرِفُ لأبي السَّفَرِ سماعاً من أبي الدرداء[١].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا دعلجُ بن أحمد، حدثنا محمد بن علي بن زيد، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا سفيان، عن عِمران بن ظَبيان، عن عَدِيّ بن ثابت: «أن رجلاً هَتَم فَمَه رجلٌ على عهد معاوية ـ رضي الله عنه ـ، فأعْطِي ديةً، فأبى إلا أن يَقْتَصّ، فأعطي ديتَين، فأبى، فأعطي ثلاثاً، فأبى. فَحَدَّث رجل من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من تَصَدَّق بدم فما دونه، فهو كفارةٌ له من يوم وُلِدَ إلى يوم يَموتُ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيجُ بن النعمان، حدثنا هُشَيم، عن المغيرة، عن الشعبي أن عُبادة بن الصامت قال: «سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: ما من رجل يُجرَحُ من جَسَدِه جراحةً، فيَتصدَّق بها، إلا كَفَّر الله عنه مثل ما تَصدَّق به»[٢].

ورواه النسائي، عن علي بن حَجَر، عن جرير بن عبد الحميد. ورواه ابنُ جَرِيرٍ، عن محمود بن خداش، عن هُشَيم، كلاهما عن المُغِيرَة، به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد القَطّان، عن مجالد، عن عامر، عن المحرَّر بن أبي هُرَيرة، عن رجل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ قال: «من أُصِيبَ بشيءٍ من جَسَده، فَتركه لله، كان كفارة له»[٤].

وقولهُ: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾، قد تَقدَّم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كُفْر دون كُفْرٍ، وظُلْمٌ دون ظُلْمٍ، وفِسْقٌ دون فِسْقٍ.

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

يقولُ تعالى: ﴿ وَقَفَّينا ﴾، أي: أَتْبَعنا ﴿ على آثارهم ﴾ يعني: أنبياء بني إسرائيل ﴿ بعيسى ابن مريم، مصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾، أي: مُؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هُدىً ونورٌ ﴾، أي: هُدىً إلى الحق، ونُورٌ يُستَضَاء به في إزالة الشبهات وحَلِّ المشكلات. ﴿وَمُصَدِّقاً لما بين يديه من التوراة﴾، أي: مُتَّبعاً لها، غيرَ مخالفٍ لما فيها، إلا في القليل مما بَيَّن لبني إسرائيل بعضَ ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ ولأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم ﴾. ولهذا كان المشهور من قَوْلَي العلماءِ أنَّ الإنجيل نَسَخ بَعْضَ أحكام التوراة.

وقولهُ: ﴿وهُدىً وموعظةً للمتَّقين﴾، أي: وجعلنا الإنجيل ﴿هُدىً﴾ يُهتدى به، ﴿ وموعظةً ﴾ أي: وزاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿ للمتَّقين ﴾، أي: لمن اتَّقى الله وخَافَ وَعِيدَه وعِقَابه.

وقولهُ: ﴿ وَلْيَحْكُم أهلُ الإنجيل بما أنزلَ الله فيه ﴾، قُرِىء ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بالنصب، على أنَّ اللامَ لامُ

(١) مسند أحمد ٤٤٨/٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الديات ١٦٨/٦ ـ ١٦٩، وابن ماجه، كتاب الديات ٨٩٨.
(٢) مسند أحمد ٣١٦/٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٦٠/٦، ورواه النسائي في التفسير، انظر تُحفَة الأشراف ٢٥١/٤.
(٤) مسند أحمد ٤١٢/٥.

كي[1]، أي: وآتيناه الإنجيل لِيحكُم أهلُ مِلَّته به في زمانهم. وقرىء ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ بالجزم واللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وَلْيقيموا ما أُمِروا به فيه، وما فيه البشارة بِبَعثَةِ مُحمَّدٍ والأمر باتباعه وتَصْديقه إذا وُجِد، كما قال تعالى: ﴿ قل: يا أهل الكتاب، لستُم على شيءٍ حتى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزلَ إليكم من ربكم ﴾. . . الآية. وقال تعالى: ﴿ الذين يَتَّبِعُون الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يَجِدُونه مكتوباً عِندَهُم في التوراة ﴾. . . إلى قوله: ﴿ المُفْلِحُونَ ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾، أي: الخارجونَ عن طاعةِ رَبِّهم، المائلون إلى الباطِل، التاركون للحقّ. وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر السياق.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى التوراةَ التي أنزلها الله على موسى كَليمِه، ومَدَحها وأثنى عليها، وأمَر باتِّباعها حيث كانت سائغةَ الاتِّباع، وذَكَر الإنجيل ومَدَحه، وأمَر أهلَه بإقامته واتِّباع ما فيه، كما تقدَّم بيانه، شرع تعالى في ذِكْر القرآن العظيم، الذي أنزلَه على عبدِه ورسوله الكريم، فقال: ﴿ وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ ﴾، أي: بالصِّدْقِ الذي لا ريبَ فيه أنه من عِنْدِ الله، ﴿ مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾، أي: من الكُتُب المتقدِّمة المتضمِّنة ذكْرَه ومَدْحَه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزولُه كما أخْبَرتْ به، مما زادها صدقاً عند حامِليها من ذَوِي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتَّبعوا شرائع الله، وصَدَّقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرُّون للأذقان سجداً. ويقولون: سبحان ربنا إن كان وعدُ ربنا لمفعولاً ﴾، أي: إن كان ما وَعدنا الله على ألسنة الرسل المتقدِّمين، من مجيء محمد عليه السلام ﴿ لمفعولاً ﴾، أي: لكائناً لا محالةَ ولا بدَّ.

وقولهُ: ﴿ ومُهَيمناً عليه ﴾، قال سفيانُ الثوريُّ وغيره، عن أبي إسحاقَ، عن التَّميميِّ، عن ابن عباس، أي: مُؤتَمناً عليه[2].

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: المهيمنُ: الأمينُ، قال: القرآن أمينٌ على كلِّ كتاب قبله.

ورُوِي عن عكرمة، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وعَطِيَّةَ، والحسن، وقتادةَ، وعطاءٍ الخراساني، والسدِّيِّ، وابن زيد، نحوُ ذلك.

---

(١) هذه قراءة حمزة من السبعة، وباقيهم بالجزم ولام الأمر. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٣٥.
(٢) تفسير الطبري ٦/٢٦٦.

وقال ابن جُرَيج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالَفه منها فهو باطلٌ.

وعن الوالبي، عن ابن عباس: (ومهيمناً)، أي: شهيداً. وكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والسدّيُّ.

وقال العوفي عن ابن عباس: (ومهيمناً)، أي: حاكماً على ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوالُ كلّها متقاربة المعنى، فإن اسمَ «المُهَيمِن» يَتضمَّن هذا كلَّه، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكم على كلِّ كتاب قبلَه، جعل الله هذا الكتابَ العَظِيم، الذي أنزله آخِرَ الكُتُب وخاتمها، أشملَها وأعظَمها وأحكَمها، حيث جمعَ فيه محاسنَ ما قبله، وزادَه من الكمالاتِ ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها. وتكفَّل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

فأما ما حكاه ابنُ أبي حاتم، عن عكرمةَ، وسعيد بن جُبَير، وعطاء الخراساني، وابن أبي نجيح عن مجاهد: أنهم قالوا في قوله: ﴿ ومهيمناً عليه ﴾، يعني: محمداً ـ ﷺ ـ أميناً على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هـذا بهذا نَظَرٌ، وفي تنزيلِه عليه من حيثُ العربيةُ أيضاً نَظَرٌ. وبالجملة فالصحيحُ الأول، قال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: «وهذا التأويل بعيدٌ من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأٌ. وذلك أن «المهيمن» عطف على «المصدِّق»، فلا يكون إلا من صفة ما كان «المصدِّقُ» صفةً له. قال: ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وأنزلنا إليك الكتاب مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب مهيمناً عليه». يعني من غير عطف[1].

وقولهُ: ﴿فاحكُم بينهم بما أنزل الله﴾، أي: فاحكُم يا محمد بين الناس: عَربِهم وعَجَمِهم، أُمِّيِّهم وكتابيِّهم، ﴿ بما أنزل الله ﴾ إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قَرَّره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسَخه في شرعك، هكذا وَجَّهه ابنُ جَرِيرٍ بمعناه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمَّد بن عمار، حدثنا سَعِيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان ابن حُسَين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: «كان النبي ـ ﷺ ـ مُخَيَّراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرَضَ عنهم فَرَدَّهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم ﴾ فَأمِر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يحكُمَ بينهم بما في كتابنا».

وقولُه: ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾، أي: آراءهم التي اصطَلَحُوا عليها، وتَرَكُوا بسببها ما أنزل الله على رسوله. ولهذا قال: ﴿ ولا تَتَّبِعْ أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾، أي: لا تنصرِفْ عن الحقِّ الذي أمرك الله به إلى أهواءِ هؤلاءِ من الجهلةِ الأشقياءِ.

وقولهُ: ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً ﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن يوسف بن إسحاق، عن أبيه، عن التميميّ، عن ابن عباس: ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ﴾ قال: سبيلاً.

وحدثنا أبو سَعِيد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿ ومنهاجاً ﴾، قال: وسُنَّةً.

وكذا روى العَوفِيّ، عن ابن عباس: ﴿ شِرْعة ومنهاجاً ﴾: سبيلاً وسنة.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٦/٢٦٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٣/٥٠٢.

وكذا رُوِيَ عن مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة، والضحاك، والسدّي، وأبي إسحاقَ السَّبِيعي أنهم قالوا في قوله: ﴿ شرعة ومنهاجاً ﴾، أي: سبيلاً وسنّةً.

وعن ابنِ عباس ومجاهد أيضاً وعطاءِ الخراساني عَكْسُه: ﴿ شرعةً ومنهاجاً ﴾، أي: سنّةً وسبيلاً. والأول أنسبُ، فإن الشِّرْعَة وهي الشريعةُ أيضاً، هي ما يُبتدأ فيه إلى شيء. ومنه يقال: «شَرَع في كذا» أي: ابتدأ فيه. وكذا الشريعة وهي ما يُشْرَع منها إلى الماء. أما «المنهاج» فهو الطريقُ الواضحُ السهلُ، والسُّنن الطرائق. فتفسير قوله: ﴿ شرعة ومنهاجاً ﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم.

ثم هذا إخبارٌ عن الأمم المختلفةِ الأديان، باعتبار ما بَعَث الله به رُسُلَه الكِرَام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثَبَت في صَحِيح البخاريِّ، عن أبي هُرَيرَةَ أن النبي - ﷺ - قال: «نحن معاشرَ الأنبياءِ إخوةٌ لعَلَّات، ديننا واحدٌ»(١). يعني بذلك التوحيد، الذي بَعَث الله به كُلَّ رَسُولٍ أرسله، وضَمَّنه كُلَّ كتابٍ أنزَله، كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحِي إليه أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدون ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . . . الآية. وأما الشرائعُ فمختلفةٌ في الأوامر والنواهي، فقد يكونُ الشيءُ في هذه الشريعةِ حراماً ثم يَحِلُّ في الشريعةِ الأُخرَى، وبالعكس، وخَفِيفاً فيُزادُ في الشدَّةِ في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمةِ البالغةِ، والحُجَّةِ الدامِغَةِ.

قال سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ: قوله ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾، يقول: سبيلاً وسُنَّةً والسنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يُحِلُّ الله فيها ما يشاء، ويُحَرِّم ما يشاء، ليعلم من يُطِيعه ممن يَعْصِيه، والدين الذي لايقبَل الله غيرَه التوحيدُ والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل.

وقيل: المخاطَبُ بهذا هذه الأمةُ، ومعناه: ﴿لِكلٍّ جعلنا﴾ القرآن ﴿منكم﴾ أَيَّتُها الأمة ﴿شِرْعَةً ومنهاجاً﴾ أي: هو لكم كُلِّكم، تقتدون به. وحُذف الضمير المنصوب في قوله: ﴿لكلٍ جعلنا منكم﴾، أي: جعلناه، يعني القرآن، ﴿شرعة ومنهاجاً﴾، أي: سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسُنَّةً أي: طريقاً ومسلكاً واضحاً بيناً.

هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله(٢)، والصحيحُ القول الأول، ويدُلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾، فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمَّة لما صَحَّ أن يَقُولَ: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة﴾ وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطابٌ لِجَمِيع الأمم، وإخبارٌ عن قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء لجَمَع الناسَ كُلَّهم على دينٍ واحدٍ وشريعةٍ واحدةٍ، لا يُنْسَخُ شيءٌ منها. ولكنه تعالى شَرَع لكلِّ رَسُولٍ شِرْعة على حِدَةٍ، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نَسَخ الجميعَ بما بعثَ به عبدَه ورسولَه محمداً - ﷺ - الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتَم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾، أي: إنه تعالى شَرَع الشرائع مختلفة، ليختَبِرَ عبادَه فيما شَرَع لهم، ويُثِيبَهم أو يُعاقِبَهم على طاعَتِه ومَعْصِيَته، بما فعلوه أو عَزَموا عليه من ذلك كلِّه.

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٧٧ - ٤٧٨.
(٢) تفسير الطبري ٦/٢٧٠.

وقال عبد الله بن كثير: ﴿فيما آتاكم﴾، يعني: من الكتاب.

ثم إنه تعالى نَدَبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادَرَة إليها، فقال: ﴿فاستَبِقُوا الخيراتِ﴾، وهي طاعةُ الله واتباعُ شرعه، الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بِكتابه القرآنِ الذي هو آخِرُ كتابٍ أنزله.

ثم قال تعالى: ﴿إلى الله مَرْجِعُكم جميعاً﴾، أي: مَعادُكم أيها الناس ومصيرُكم إليه يومَ القيامة، ﴿فَيُنبِّئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾، أي: فَيُخبركم بما اختلفتم فيه من الحقِّ، فيجزي الصادِقِينَ بصدقهم، ويُعَذِّب الكافِرِينَ الجاحدين المكذبين بالحقِّ، العادلين عنه إلى غيرِه بلا دليلٍ ولا بُرهانٍ، بل هم معانِدُون للبراهينِ القاطعة، والحُجَجِ البالِغَةِ، والأدلة الدّامِغَـةِ.

وقال الضحاك: ﴿فاستَبِقُوا الخيراتِ﴾، يعني: أمة محمد ﷺ[1]. والأظهر الأول.

وقولُه: ﴿وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تَتّبِع أهواءهم﴾، تأكيدٌ لما تقدَّم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه.

ثم قال: ﴿واحذَرْهُم أن يَفتِنُوك عن بعضِ ما أنزل الله إليك﴾، أي: احذَرْ أعداءَك اليهودَ أن يُدَلِّسُوا عليك الحق فيما يُنْهونه إليك من الأمور، فلا تغتَرَّ بهم، فإنهم كَذَبةٌ كَفَرَةٌ خَوَنَةٌ. ﴿فإن تولوا﴾، أي: عَمَّا تحكُم به بينهم من الحق، وخالفوا شَرْعَ الله ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يُصِيبهم بِبَعضِ ذُنُوبهم﴾، أي: فاعلم أنَّ ذلك كائنٌ عن قَدَرِ الله وحكمته فيهم أن يَصْرِفَهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة، التي اقتضَتْ إضلالَهم ونَكَالهم. ﴿وإنَّ كَثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي: أكثرُ الناسِ خارِجُونَ عن طاعةِ رَبِّهم، مخالِفُون للحقِّ ناءُون عنه، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حَرَصت بمؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿وإن تُطِع أكثر من في الأرض يُضِلُّوك عن سبيل الله﴾.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني مُحمَّـد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، حدثني سعيد بن جُبَير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال كعب بنِ أسد، وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وشأس بن قيس، بعضهم لبعضٍ: اذهبوا بنا إلى محمَّد، لعلنا نَفتِنُه عن دينه! فأتوه، فقالوا: يا محمَّد، إنك قد عَرَفْت أنَّا أحبارُ يهودَ وأشرافُهم وساداتُهم، وإنا إن اتبعناك اتَّبعَنَا يهودَ ولم يخالفونا، وإنَّ بيننا وبين قومنا خُصومةً، فنحاكمهم إليك، فَتَقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى ذلك رسول الله - ﷺ - فأنـزل الله عزَّ وجل فيهم: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم واحذَرْهُم أن يفتِنُوك عن بعضِ ما أنزل الله إليك﴾... إلى قوله: ﴿لقوم يوقنون﴾. رواه ابنُ جَرير[2]، وابنُ أبي حاتم.

وقولُه: ﴿أفَحُكْمَ الجاهليَّة يبغُون، ومن أحسنُ من الله حُكماً لقوم يوقنون﴾، ينكر تعالى على من خَرَج عن حكم الله المُحْكَم المشتَمِل على كلِّ خيرٍ، الناهي عن كل شرٍّ، وعدَلَ إلى ما سِواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وَضَعها الرجال بلا مُستَنَدٍ من شريعة الله، كما كان أهلُ الجاهليَّة يحكمُون به من الضَّلالات والجَهالات، مما يضعُونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكز خان، الذي وَضَع لهم اليَسَاقَ[3]، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبَسَها من

---

(١) الأثر كما في تفسير الطبري ٢٧٣/٦: «فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً، قال: أمة محمد ـ ﷺ ـ البرّ والفاجر».

(٢) تفسير الطبري ٢٧٣/٦ ـ ٢٧٤، وسيرة ابن هشام ٥٦٧/١.

(٣) اليساق: كلمة تركية أصلها: يساغ، وربما قيل أيضاً: يسق. وهي تعني قانون المعاملة. انظر تاج العروس، رسم: يسق.

شرائع شتَّى، من اليهودية والنصرانية والملَّة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مُجَرَّد نظره وهواه، فصارت في بَنِيه شَرْعاً مُتَّبعاً، يُقدِّمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافرٌ يجب قتاله، حتى يَرْجِع إلى حكم الله ورسوله، فلا يُحكِّمُ سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغونَ﴾، أي: يبتغُون ويُريدون، وعن حُكْم الله يَعْدِلون. ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾، أي: ومن أعدلُ من الله في حكمه لمن عَقَل عن الله شَرْعه، وآمَنَ به وأيقَن، وعَلِم أنه تعالى أحكَمُ الحاكمين، وأرحَمُ بخلقه من الوالدة بوَلَدِها، فإنَّه تعالى هو العالم بكُلِّ شيء، القادرُ على كلِّ شيء، العادِلُ في كلِّ شيء.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هلال بن فياض، حدثنا أبو عُبَيدة النَّاجِيّ، قال: سَمِعتُ الحسَنَ يقول: من حكم بغير حَكم الله، فحُكْم الجاهلية.

وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن ابن أبي نَجيح قال: كان طاوس إذا سأله رجل: أفضِّل بين ولدي في النَّحْل؟ قرأ: ﴿أفحكم الجاهلية يبغُونَ﴾. . . الآية.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نَجْدَة الحَوطي، حدثنا أبو اليمان الحَكَم بن نافع، أخبرنا شُعَيب بن أبي حَمْزَة، عن عَبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَين، عن نافع بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أبغضُ الناس إلى الله ـ عز وجل ـ مبتلٍ في الإسلام سُنَّةَ الجاهِلِيَّة، وطالبُ دَمِ امرىءٍ بغير حَقٍّ ليُريق دَمَه»(١).

وروى البخاري، عن أبي اليمان بإسناده، نحوه(١).

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

يَنْهَى تعالى عبادَه المؤمنين عن مُوالاةِ اليهود والنصارى، الذين هم أعداءُ الإسلام وأهلِه، قاتلهم الله. ثم أخبر أنَّ بعضهم أولياءُ بعض، ثم تهدَّد وتوعَّدَ من يَتعاطى ذلك فقال: ﴿ومَن يَتولَّهم منكم فإنَّه مِنهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا كُثَيِّر بن شهاب، حدثنا محمد ـ يعني ابن سعيد بن سابق ـ حدثنا عَمْرو بن أبي قيس، عن سماك بن حرب، عن عياض: أن عُمَر أمر أبا موسى الأشعري أن يَرْفَع إليه ما أخذ وما أعطي في أديم واحد، وكان له كاتب نصرانيّ، فَرَفَع إليه ذلك، فَعَجب عُمَر وقال: إنَّ هذا لحفيظٌ، هل أنت قارىء لنا كتاباً في المسجدِ جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع. فقال عُمَر: أجُنُبٌ هو؟ قال: لا، بل نَصرانيّ. فانتهرني وضَرَب فَخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصارى أولياءَ﴾. . . الآية.

ثم قال: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح: حدثنا عثمان بن عُمَر، أنبأنا ابن عون، عن محمد بن

---

(١) المعجم الكبير ١٠/٣٧٤، وفتح الباري، كتاب الديات ١٢/٢١٠.

سيرينَ قال: قال عبد الله بن عُتْبَةَ: لِيَتَّقِ أحدُكم أن يكونَ يَهُودياً أو نَصْرانياً، وهو لا يشعر. قال: فظنَنَّاه يُريد هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾. . . الآية.

وحدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا ابن فُضَيل، عن عاصم، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه سُئِل عن ذبائح نصارى العَرَب، فقال: كُلْ، قال الله تعالى: ﴿ ومن يَتولَّهم منكم فإنه منهم ﴾. ورُوِي عن أبي الزِّناد، نحوُ ذلك.

وقولُه: ﴿فترى الذين في قلوبهم مَرَضٌ﴾، أي: شَكٌّ، ورَيْبٌ، ونِفاقٌ ﴿يُسارِعون فيهم﴾، أي: يُبادِرُون إلى مُوالاتهم ومَوَدَّتِهم في الباطن والظاهر، ﴿يقولون: نخشَى أن تُصِيبَنا دائرةٌ﴾، أي: يَتَأَوَّلون في مودَّتهم وموالاتهم أنهم يخشَون أن يقع أمرٌ من ظَفَر الكفار بالمسلمين، فتكونَ لهم أيادٍ عندَ اليهودِ والنصارى، فينفعَهم ذلك، عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾، قال السدِّيّ: يعني فتحَ مكة. وقال غيره: يعني القضاءَ والفَصْلَ ﴿أو أَمْرٍ من عنده﴾،قال السدِّيُّ: يعني ضَرْبَ الجِزْيَةِ على اليهود والنصارى ﴿فَيُصبِحُوا﴾، يعني: الذينَ وَالَوا اليهودَ والنصارى من المنافقين ﴿على ما أسرُّوا في أنفسهم﴾ من الموالاة ﴿نادمين﴾، أي: على ما كان منهم، مما لم يُجْدِ عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عَيْنَ المفسدة، فإنهم فُضِحوا وأظهر الله أمرَهُم في الدُّنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مَستُورين لا يُدْرَى كيف حالُهم. فلما انعقدت الأسبابُ الفاضحةُ لهم، تبيَّن أمرُهم لعباد الله المؤمنين، فَتعجَّبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتأوَّلون، فبان كَذِبُهم وافتراؤُهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ويقولُ الذين آمنوا: أهؤلاءِ الذين أقسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم إنهم لمعكم، حَبِطَت أعمالهم فأصبحُوا خاسرين﴾.

وقد اختلف القراء في هذا الحرفِ، فقرأه الجمهورُ بإثبات الواو في قوله: ﴿ويقول الذين﴾، ثم منهم من رفع ﴿ويقولُ﴾ على الابتداء، ومنهم من نصب عطفاً على قوله: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾، تقديره «أن يأتي» «وأن يقولَ». وقرأ أهل المدينة: ﴿يقولُ الذين آمنوا﴾ بغير واو، وكذلك هو في مصاحفهم على ما ذكره ابن جَرير، قال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾، حينئذ، ﴿يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حَبِطت أعمالُهم فأصبَحُوا خاسِرين﴾[1].

واختلف المفسِّرون في سَبَب نُزول هذه الآياتِ الكريمات، فذكَر السدِّيُّ أنها نَزَلت في رَجُلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحد: أما أنا فإني ذاهبٌ إلى ذلك اليهوديِّ، فآوي إليه وأتهوَّدُ معه، لعلَّه ينفَعُني إذا وقع أمرٌ أو حَدَث حادث! وقال الآخر: وأما أنا فأذهبُ إلى فلانٍ النصرانيِّ بالشام، فآوِي إليه وأتنصَّرُ معه. فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تتَّخِذُوا اليهودَ والنصارى أولياء﴾. . . الآيات.

وقال عكرمة: نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر، حين بَعَثه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بني قُرَيظة، فسألوه: ماذا هو صانعٌ بنا؟ فأشار بيده إلى حَلْقِه، أي: إنه الذبح. رواه ابن جَرير[2].

وقيل: نزلت في عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلُولَ، كما قال ابن جَرير.

حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابن إدريسَ قال: سَمِعتُ أبي، عن عَطيَّة بن سعد قال: جاء عبادة بن الصَّامِت، من بني الخزرج، إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ لي مواليَ من يهودَ، كثيرٌ عددُهم، وإني أبرأ

(١) تفسير الطبري ٦/٢٨١، وانظر الإقناع لابن الباذِش ٢/٦٣٥.
(٢) تفسير الطبري ٦/٢٧٦.

إلى الله ورسوله من ولاية يهودَ، وأتولّى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: إني رجلٌ أخاف الدوائرَ، لا أبرأ من ولاية مَوَاليَّ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لعبد الله بن أُبيٍّ: يا أبا الحُبَاب، ما بَخِلْتَ به من ولاية يهُودَ على عبادة بن الصامت فهو لك دونَه. قال: قد قَبِلْتُ. فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تَتَّخذُوا اليهود والنصارى أولياء﴾. . . إلى قوله. ﴿فترى الذين في قُلُوبهم مَرَضٌ﴾(١).

ثم قال ابن جَرير: حدثنا هَنَّادُ، حدثنا يُونُس بن بُكَير، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن الزُّهرِيِّ قال: لما انهزم أهلُ بدرٍ قالَ المسلمون لأوليائهم من يهودَ: آمنوا قبلَ أن يُصِيبَكُم الله بيوم مثل يوم بدر! فقال مالك بن الصَّيْفِ: أغَرَّكم أن أصبتُم رهطاً من قُريشٍ لا عِلْم لهم بالقتال! أما لو أمْرَرْنا(٢) العزيمة أن نَسْتجمعَ عليكم، لم يكن لكم يَدٌ بقتالنا(٣). فقال عبادةُ: يا رسول الله، إن أوليائي من اليهودِ كانت شديدةً أنفُسهم، كثيراً سلاحهم، شديدةً شَوكتُهم، وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولاية يَهُودَ، ولا مولى لي إلا الله ورسولُه. فقال عبد الله بن أُبَيٍّ: لكني لا أبرأ من ولاءِ يَهُودَ، أنا رجلٌ لا بُدَّ لي منهم. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يا أبا الحُباب، أرأيتَ الذي نَفَسْتَ به من وَلاءِ يَهُودَ على عُبَادة بن الصَّامِت، فهو لك دونه؟ فقال: إذاً أقبلُ! قال: فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تَتَّخذُوا اليهود والنصارى أولياءَ﴾ إلى قوله: ﴿والله يَعْصِمُكَ من الناس﴾(١).

وقال مُحمَّد بن إسحاقَ: فكانت أولُ قبيلةٍ من اليهودِ نَقَضَت ما بينها وبينَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ بنو قَيْنُقَاع. فَحَدَّثني عاصمُ بن عُمَر بن قتادةَ قال: فحاصَرَهُم رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى نَزَلُوا على حكمه، فقام إليه عبدُ الله بن أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ، حين أمْكَنه الله منهم، فقال: يا محمَّد، أحسِنْ في مَوَالِيَّ، وكانوا حلفاءَ الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا محمَّد، أحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ. قال: فأعرَضَ عنه. فأدخل يده في جَيْب دِرْع رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ أرْسِلْني: وغَضِبَ رسول الله ـ ﷺ ـ حتى رَأوا لوجهه ظُلُلاً(٤)، ثم قال: ويحَكَ أرْسِلْني. قال: لا، والله لا أرسلك حتى تُحسِنَ في مَوَالِيَّ، أربعمائة حاسرٍ(٥)، وثلاثمائةِ دارعٍ، قد مَنَعُوني من الأحمرِ والأسودِ، تَحصُدهم في غداة واحدة؟ إني امرؤ أخشَى الدوائر. قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هُم لكَ».

قال محمَّدُ بن إسحاقَ: فَحدَّثني أبي إسحاقُ بن يَسار، عن عُبادَةَ بن الوليد بن عُبادَةَ بن الصَّامِت قال: لما حاربت بنو قَيْنُقَاعَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ تَشَبَّث بأمرهم عبد الله بن أُبَيٍّ، وقام دونَهم، ومَشَى عُبَادَةُ بن الصَّامِتِ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وَتَبَرَّأ إلى الله ورسولِه ـ ﷺ ـ من حِلْفِهم، وقال: يا رسولَ الله، أتبرَّأُ إلى الله وإلى رسوله من حِلْفِهم، وأتولى الله ورسولَه والمؤمنين، وأبرأ من حِلْفِ الكفار وَوِلاَيَتهم. ففيه وفي عبد الله بن أُبَيٍّ نزلت الآياتُ في المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تَتَّخذُوا اليهودَ والنصارى أولياء، بعضُهم أولياءُ بعضٍ﴾. . . إلى قوله: ﴿ومن يَتَـوَلَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾(٦).

---

(١) تفسير الطبري ٦/٢٧٥.

(٢) أي: أحكمناها، وأجمعناها، من قولهم: أمرَّ الحبل يُمِرُّه إمراراً: فَتَله فتلاً قويّاً محكماً.

(٣) أي: قدرة على قتالنا.

(٤) الظُّلَل: جمع ظُلَّة. وهي ما حجب عنك ضوء الشمس وصحو السماء، يقول السهيلي في الروض الأنف ٢/١٢١: «وكان وجهُ رسول الله ـ ﷺ ـ مشرقاً بسّاماً، فإذا غضب تلوَّن ألواناً، فكانت تلك الألوان حائلةً دون الإشراق والطلاقة والضياء المنتشر عند تبسّمه». وهناك رواية أخرى لهذه الكلمة ذكرها السهيلي، وهي: «حتى رأوا لوجهه ظلالاً». وقال: «إنه جمع ظُلَّة».

(٥) الحاسر: غير الدارع.

(٦) سيرة ابن هشام ٢/٤٧ ـ ٤٩.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا قُتَيبة بن سعيد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائِدَة، عن محمد بن إسحاق، عن الزُّهري، عن عُروَة، عن أسامةَ بن زيدٍ قال: «دخلت مع رسول الله ـ ﷺ ـ على عبد الله بن أُبيٍّ نعُوده، فقال له النبيُّ ـ ﷺ ـ: «قد كنتُ أنهاك عن حُبِّ يَهُودَ». فقال عبدُ الله: فقد أبغضَهُم أسعدُ بن زُرارة، فمات»[(١)].

وكذا رواه أبو داود، من حديث محمد بن إسحاق[(١)].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى مُخبراً عن قُدْرَتِه العظيمة أنه من تَولَّى عن نُصْرَةِ دينه وإقامةِ شَريعته، فإن الله يَستبدلُ به من هو خيرٌ لها منه، وأشدُّ مَنعةً وأقومُ سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وإن تتولَّوا يستبدِلْ قوماً غيرَكم ثم لا يكونُوا أمثالكم﴾، وقال تعالى: ﴿إن يشأ يُذْهِبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾، وقال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز﴾، أي: بممتنع ولا صَعْبٍ. وقال تعالى ها هنا: ﴿يا أيها الذين آمنُوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينه﴾، أي: يرجع عن الحقِّ إلى الباطل.

قال محمدُ بن كعب: نزلَت في الوُلاة من قريش. وقال الحسن البصري: نَزلَت في أهل الردَّة أيام أبي بكر.

﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾، قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابُه. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقال أبو بكر بن أبي شَيبةَ: سَمِعتُ أبا بكر بن عياش يقول في قوله: ﴿فسوفَ يأتي الله بقومٍ يُحبُّهم ويحبونه﴾: هم أهل القادسية. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: هم قوم من سَبأ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا عبد الله بنُ الأجلَح، عن محمد بن عمرو، عن سالم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قوله: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبونه﴾، قال: ناسٌ من أهل اليمن، ثم من كِنْدَة، ثم من السَّكُون[(٢)].

وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصفَّى، حدثنا معاوية ـ يعني ابن حَفْص ـ عن أبي زيادٍ الخُلْقَانِيِّ[(٣)]، عن محمد بن المنكدر، عن جَابر بن عبد الله قال: سُئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن قَوله: ﴿فسوف يأتي بقوم يُحِبُّهم ويُحِبُّونه﴾، قال: «هؤلاء قومٌ من أهل اليَمن، ثم من كِنْدَة، ثم من السَّكُونِ، ثم من تُجِيبَ». وهذا حديثٌ غريبٌ جداً.

---

(١) مسند أحمد ٥/٢٠١، وسنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/١٨٤، وفي سنن أبي داود: «قد أبغضهم أسعد بن زُرارة فَمَهْ!». وكأنه يطلبُ الكف عن هذا الحديث.

(٢) السَّكُون هو ابنُ أشرسَ بن كندةَ، ومن بطون السَّكون بنو عَديٍّ، وبنو سعد ابني أشرس بن شبيب بن السكون. وتُجيب ـ التي تأتي في الحديث بعدُ ـ امرأة، وهي أم عديّ وسعد ابني أشرس.

(٣) هو إسماعيل بن زكريا الخُلْقانيُّ، مترجم في تهذيب الكمال ٣/٩٢.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبَّة، حدثنا عبد الصمد ـ يعني ابنَ عَبْدِ الوارث ـ حدثنا شُعْبَةُ، عن سِمَاكٍ، سَمِعْتُ عياضاً يُحدِّث عن الأشعَرِيّ قال: لما نَزَلَت: ﴿فسوفَ يأتي الله بقومٍ يُحِبُّهم ويُحِبُّونه﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ «هُمْ قَومُ هذا».

ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه(١).

وقولُه تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين أَعِزَّةٍ على الكافِرينَ﴾، هذه صفاتُ المؤمنين الكُمَّل، أن يكونَ أحدُهم متواضعاً لأخيه ووليه، مُتعزِّزاً على خَصْمه وعَدُوِّه، كما قال تعالى: ﴿محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشدَّاء على الكفار رُحَماء بينهم﴾ وفي صِفَة النبي ـ ﷺ ـ أنه: «الضَّحُوك القَتَّالُ»، فهو ضَحُوكٌ لأوليائِهِ قتَّالٌ لأعدائِهِ.

وقولُه: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافُون لومةَ لائم﴾، أي: لا يردُّهم عما هم فيه من طاعةِ الله، وقتالِ أعدائه، وإقامةِ الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يصدُّهم، ولا يَحِيكُ فيهم لومُ لائمٍ، ولا عَذْلُ عاذِلٍ.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا سَلَّام أبو المنذر، عن محمد بن واسع، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذَرٍّ قال: «أمَرَني خليلي ـ ﷺ ـ بِسَبْعٍ، أمرني بحبِّ المساكين والدنُوِّ منهم، وأمرني أن أنظُرَ إلى من هو دُوني، ولا أنظُرَ إلى من هو فَوقي، وأمرني أنْ أصِلَ الرَّحِمَ وإن أدبَرَتْ، وأمرني ألَّا أسأَلَ أحداً شيئاً، وأمَرَني أن أقُولَ الحقَّ وإن كان مُرّاً، وأمَرَني ألَّا أخافَ في الله لومةَ لائمٍ، وأمَرَني أن أكْثِرَ من قولِ: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، فإنهن من كَنْزٍ تَحتَ العَرْشِ»(٢).

وقال الإمامُ أحمد أيضاً: حدثنا أبو المُغِيرة، حدثنا صفوانُ، عن أبي المُثَنَّى أنَّ أبا ذَرٍّ قال: بايعني رسولُ الله ـ ﷺ ـ خمساً وأوثقني سَبْعاً، وأشهدَ الله عَلَيَّ تِسعاً، أنِّي لا أخافُ في الله لومةَ لائم. قال أبو ذَرٍّ: فدعاني رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: هل لَكَ إلى بيعةٍ ولك الجنةُ؟ قلت: نَعَم. قال: وَبَسَطْتُ يَدِي، فقال النبي ـ ﷺ ـ وهو يشترِطُ: على ألَّا تسأَلَ الناسَ شيئاً؟ قلت: نعم. قال: ولا سَوْطَكَ وإن سَقطَ مِنْكَ حَتَّى تَنْزِلَ إليه فتَأخُذَه(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الحسن، حدثنا جَعْفَرٌ، عن المعلَّى القُرْدُوسِيِّ، عن الحَسَن، عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ألا لا يَمنَعَنَّ أحدَكُم رهبةُ الناسِ أن يقولَ بحقٍّ إذا رآه أو شَهِدَه، فإنه لا يُقَرِّبُ من أجَلٍ، ولا يُباعد من رزْقٍ أن يقول بحق أو يُذَكِّر بعَظِيمٍ» تفرَّد به أحمد(٤).

وقال أحمد: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا سُفيان، عن زُبَيد، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يحقِرَنَّ أحدُكم نَفْسَه أن يَرَى أمراً لله فيه مقالٌ، فلا يقُولُ فيه، فيقالَ له يوم القيامة: مَا مَنَعَكَ أن تكونَ قُلْتَ في كذا وكذا؟ فيقول: مخافةُ الناسِ. فيقول: إيَّايَ أحَقُّ أن تخافَ(٥)». وَرواه ابنُ ماجه من حديث الأعمَشِ، عن عَمْرو بن مُرَّة، به(٥).

وروى أحمدُ وابنُ ماجه، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن أبي طُوَالة، عن نَهار بن عبد الله العَبْدِيّ

(١) تفسير الطبري ٢٨٤/٦.
(٢) مسند أحمد ١٥٩/٥.
(٣) مسند أحمد ١٧٢/٥.
(٤) مسند أحمد ٥٠/٣.
(٥) مسند أحمد ٧٣/٣، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٨.

المَدَنِيِّ، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله ليسألُ العبدَ يومَ القيامة، حتى إنه ليسأله يقول له: أيْ عَبْدِي، رأيت منكراً فلم تنكره؟ فإذا لَقَّنَ الله عبداً حُجَّته، قال: أي ربِّ، وَثِقْتُ بك وخِفْتُ الناسَ»(١).

وثبتَ في الصَّحيح: «ما ينبغي لمُؤمِنٍ أن يُذِلَّ نفسَه. قالوا: وكيف يُذِلُّ نفسَه يا رسولَ الله؟ قال: يتحمَّلُ مِنَ البلاء ما لا يُطِيق»(٢).

﴿ذلك فضلُ الله يُؤْتيه من يَشاءُ﴾، أي: من يَتَّصِفُ بهذه الصِّفات، فإنما هو من فَضْل الله عليه، وتوفيقه له. ﴿والله واسع عليم﴾، أي واسعُ الفضل، عليمٌ بمن يستحقّ ذلك ممن يَحْرِمُه إياه.

وقولُه: ﴿إنما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾، أي: ليس اليهودُ بأوليائكم، بل ولايَتُكم راجعةٌ إلى الله ورسوله والمؤمنين.

وقولُه: ﴿الذين يُقيمون الصلاة ويُؤتُون الزكاة﴾، أي: المؤمنون المتَّصِفُون بهذه الصفات، من إقامِ الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحدَه لا شريكَ له، وإيتاءُ الزكاة التي هي حقُّ المخلوقين ومساعَدَةٌ للمحتاجين من الضعفاء والمساكين.

وأما قولُه: ﴿وهم راكعون﴾، فقد تَوَهَّم بعضُهم أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿ويؤتون الزكاة﴾، أي: في حال ركوعهم. ولو كان هذا كذلك لكان دفعُ الزكاة في حالِ الرُّكوع أفضلَ من غيره، لأنه ممدوح. وليس الأمرُ كَذَلِك عندَ أحدٍ من العلماء ممن نَعْلَمُه من أئِمَّة الفَتْوى، وحَتَّى إنَّ بعضَهم ذكر في هذا أثراً عن عَلِيِّ بن أبي طالب: أن هذه الآية نَزَلت فيه: أنه مَرَّ به سائل في حَالِ ركوعه، فأعطاه خاتمه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الربيع بن سليمان المُرَادي، حدثنا أيوبُ بن سُوَيد، عن عُتْبَةَ بن أبي حكيم في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾، قال: «هم المؤمنون وعلي بن أبي طالب».

وحدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا الفضل بن دُكَين أبو نُعيم الأحول، حدثنا موسى بن قيس الحَضْرمي، عن سلمة بن كُهَيل قال: تَصَدَّق عليٌّ بخاتمه وهو راكِعٌ، فنزلت: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾.

وقال ابن جرير: حَدَّثني الحارثُ، حدثنا عبدُ العزيز، حدثنا غالب بن عُبَيد الله، سَمِعتُ مجاهداً يقول في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾... الآية: نزلت في علي بن أبي طالب، تَصَدَّق وهو راكع(٣).

وقال عبد الرزاق: حدثنا عبد الوهاب بن مُجاهد، عن أبيه، عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾... الآية: نزلت في عليٍّ بن أبي طالب.

عبد الوهاب بن مجاهد لا يُحتَجُّ به.

وروى ابن مَرْدُويه، من طريق سفيانَ الثَّوريِّ، عن أبي سِنان، عن الضَّحاك، عن ابن عباس قال: كان علي بن أبي طالب قائماً يُصَلِّي، فمرَّ سائلٌ وهو راكعٌ. فأعطاه خاتَمه، فنزلت: ﴿إنما وليُّكم الله ورسوله﴾... الآية.

الضَّحَّاكُ لم يَلْقَ ابن عباس.

---

(١) مسند أحمد ٧٧/٣، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣٢.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب الفتن ١١١/٩ - ١١٢، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣١ - ١٣٣٢، ومسند أحمد ٤٠٥/٥.

(٣) تفسير الطبري ٢٨٩/٦.

وروى ابن مَرْدُويه أيضاً من طريق محمد بن السائب الكلبي - وهو متروك - عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: خرج رسولُ الله - ﷺ - إلى المسجد، والناس يصلُّون، بين راكعٍ وساجدٍ وقائمٍ وقاعدٍ، وإذا مسكينٌ يسأل، فدخل رسول الله - ﷺ - فقال: أعطاك أحدٌ شيئاً؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: ذلك الرجلُ القائمُ. قال: على أيِّ حال أعطاكه؟ قال: وهو راكعٌ، قال: وذلك علي بن أبي طالب، قال: فكبَّر رسول الله - ﷺ - عند ذلك، وهو يقول: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا، فإن حزب الله هم الغالبون﴾. وهذا إسنادٌ لا يُفْرَحُ به.

ثم رواه ابن مَرْدُويه، من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - نفسه، وعَمَّار بن ياسر، وأبي رافع. وليس يصحُّ شيء منها بالكلِّية، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها. ثم روى بسنده، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾. نزلت في المؤمنين، وعلي بن أبي طالب أوَّلُهم.

وقال ابن جَرير: حدثنا هَنَّاد، حدثنا عَبَدَةُ، عن عبد الملك، عن أبي جَعْفَرٍ قال: سألته عن هذه: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وهم راكعون﴾ قلنا: من الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا! قلنا: بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب! قال: عليٌّ من الذين آمنوا(١).

وقال أسباطٌ، عن السدِّيِّ: نزلت هذه الآية في جَمِيع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مَرَّ به سائل وهو راكع في المسجد، فأعطاه خاتمه(١).

وقال علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: ﴿من أسلم فقد تَوَلَّى الله ورسولَه والذين آمنوا﴾. رواه ابنُ جَرِيرٍ.

وقد تقدَّم في الأحاديث التي أوردناها أنَّ هذه الآياتِ كلَّها نزلت في عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - حينَ تَبَرَّأ من حِلْف يَهُودَ، ورَضِي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾، كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز. لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بِرُوحٍ منه، ويُدْخِلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضِي الله عنهم ورَضُوا عنه، أولئك حزبُ الله، ألا أن حزب الله هم المفلحون﴾.

فكلُّ من رَضِي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مُفْلِحٌ في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ومن يتولَّ الله ورسولَه والذين آمنوا فإن حِزْبَ الله هم الغالبون﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وهذا تنفيرٌ من موالاة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيِّين والمشركين، الذين يَتَّخِذُون أفضلَ ما يعمله العاملون، وهي شرائعُ الإسلام المطهَّرة المحكمة المشتَمِلَة على كلِّ خير دنيويٍ وأخرويٍّ، يتخذونها ﴿هُزُواً﴾

(١) تفسير الطبري ٢٨٨/٦.

يَستَهزِئُونَ بها، ﴿ولَعِباً﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نَظَرِهم الفاسد، وفِكْرِهم البارِدِ، كما قال القائل[١]:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَولاً صَحِيحاً وَآفَتُـه مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وقولُه: ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار﴾ «من» ها هنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾، وقرأ بعضهم: ﴿والكفارِ﴾ بالخفض[٢] عطفاً، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿لا تَتَّخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ تقديره: «ولا الكفارَ أولياءَ»، أي: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياءَ.

والمراد بالكفار ها هنا المشركون، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود، فيما رواه ابن جرير: ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا﴾[٣].

وقولُه: ﴿واتَّقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾، أي: اتقوا الله أن تَتَّخِذُوا هؤلاءِ الأعداءِ لكم ولدينكم أولياءَ، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ بشرع الله الذي اتَّخذَه هؤلاء هُزُواً ولَعبا، كما قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ المؤمنونَ الكافرينَ أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تُقاةً، ويُحذِّركم الله نفسه، وإلى الله المصير﴾.

وقولُه: ﴿وإذا نادَيتُم إلى الصلاة اتخذُوها هُزُواً ولعباً﴾: أي: وكذلك إذا أَذَّنتُم داعين إلى الصلاة، التي هي أفضل الأعمال لمن يَعقِل ويعلَم من ذوي الألباب ﴿اتخذوها﴾ أيضاً ﴿هُزُواً ولَعِباً، ذلك بأنَّهم قومٌ لا يعقلون﴾ مَعَانِيَ عبادة الله وشرائِعه، وهذه صفاتُ أتباع الشيطانِ الذي إذا سَمِع الأذانَ أدبرَ وله حُصَاصٌ ـ أي: ضُراط ـ حتى لا يسمَعَ التأذين، فإذا قُضِي التأذينُ أقبل، فإذا ثُوِّب بالصلاة أَدْبَر، فإذا قُضِي التثويبُ أقبل حتى يَخْطُرَ بين المرء وقلبه، فيقول: اذكُرْ كذا، اذكُرْ كذا، لما لم يكن يَذْكُر، حتى يَظَلَّ الرجل إنْ[٤] يدري كَم صَلَّى، فإذا وَجَد أحدكم ذلك، فَلْيَسْجُدْ سجدَتين قبل السَّلام». مُتَّفقٌ عليه[٥].

وقال الزُّهريُّ: قد ذَكَر الله التأذين في كتابه فقال: ﴿وإذا ناديتُم إلى الصلاة اتَّخذُوها هُزُواً ولَعِباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقال أسباطٌ، عن السدِّيِّ، في قوله: ﴿وإذا ناديتُم إلى الصلاة اتَّخذُوها هُزُواً ولَعباً﴾، قال: كان رجلٌ من النصارى بالمدينة إذا سَمِع المنادي يُنادي: «أشهد أن محمداً رسول الله» قال: «حُرِّق الكاذِبُ! فدخلت خادمةٌ ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام، فسقطت شرارةٌ فأحرقَتِ البيتَ، فاحترقَ هو وأهلُه».

رواه ابن جَرير[٦]، وابن أبي حاتم.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: «أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ دخل الكعبةَ عام الفتح، ومعه بلالٌ، فأمره أن يُؤذِّن، وأبو سفيان بن حَرْبٍ وعتّاب بن أَسِيد والحارث بن هِشَام جلوسٌ بفناء الكعبة، فقال

---

(١) المتنبي، ديوانه ٤/١٢٠.

(٢) هي قراءة أبي عمرو والكسائي من السبعة، والباقون بالنصب، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٣٥.

(٣) تفسير الطبري ٦/٢٩٠.

(٤) أي: ما يدرى. فإنْ نافية.

(٥) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٨٤ ـ ٨٥، ومسلم، كتاب الصلاة ٢٩١، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١/١٤٢، والنسائي، كتاب الأذان ٢/٢١.

(٦) تفسير الطبري ٦/٢٩١.

عَتَّاب بن أَسِيد: لقد أكرم الله أَسِيداً أَلَّا يكونَ سَمِعَ هذا، فيسمَعَ منه ما يَغِيظُه. وقال الحارثُ بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحِقٌّ لاتبعتُه. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمتُ لأخبرَتْ عَنِّي هذه الحَصَى. فخرج عليهم النبي ـ ﷺ ـ فقال: قد عَلِمْتُ الذي قُلتم! ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نَشْهَدُ أنك رسول الله، ما اطّلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك»(١).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا رَوحُ بن عُبادَةَ، حدثنا ابن جُرَيجٍ، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي مَحْذُورَةَ: أن عبد الله بن مُحَيريز أخبرَه ـ وكان يَتِيماً في حِجْر أبي مَحْذُورَةَ ـ قال قلت لأبي مَحْذُورَةَ: يا عَمِّ، إني خارِجٌ إلى الشام، وأخشى أن أُسأَلَ عن تأذينك. فأَخبَرَني أَنَّ أبا محذورة قال له: نعم، خرجتُ في نَفَر، وكنّا ببعض طريق حُنَين، مَقْفَل رسول الله ـ ﷺ ـ من حُنَينٍ، فَلَقِينا رسولَ الله ـ ﷺ ـ ببعض الطريق، فأَذَّن مُؤَذِّنُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ بالصلاة عند رسول الله ـ ﷺ ـ فسمعنا صوتَ المؤذِّن ونحن مُتنكِّبون، فَصَرخنا نحكيه ونستهزىءُ به، فَسَمِع رسولُ الله ـ ﷺ ـ [الصوت]، فأرسلَ إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أيُّكم الذي سَمِعتُ صوتَه قد ارتفع؟ فأشار القومُ كلُّهم إليّ، وَصَدَقُوا. فأرسل كلَّهم وحبسني. وقال: قم فأذِّن [بالصلاة]. فقمتُ ولا شيءَ أكرَهُ إليَّ من رسول الله ـ ﷺ ـ ولا مما يأمُرُني به، فقُمتُ بين يَدَي رسول الله ـ ﷺ ـ فألقى عليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ التأذين هو بنفسه، قال: قل: الله أكبر، الله أكبر، أشهدُ أن لا إله إلا الله، أشهدُ أن لا إله إلا الله، أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله، أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله، [ثم قال لي: ارجع فامدُدْ من صوتك. ثم قال: أشهد أنْ لا إله إلا الله، أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله] حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصَّلاة، حَيَّ على الفَلاح، حَيَّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلاّ الله. ثم دعاني حين قَضَيتُ التَّأذِينَ، فأعطاني صُرَّةً فيها شيءٌ من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي مَحذُورة، ثم أَمَرَّها على وجهه، ثم بين ثَدْيَيه، ثم على كَبِده حتى بلغت يدُ رسول الله ـ ﷺ ـ سُرَّة أبي مَحْذورة، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ بارَكَ الله فيك وبارَكَ عَلَيك. فقلت: يا رسول الله، مُرْني بالتأذين بمكَّة. فقال: قد أمرتُكَ به. وذَهَب كلُّ شيء كان لرسول الله ـ ﷺ ـ من كراهة، وعاد ذلك كُلُّه محبَّةً لرسول الله. فَقَدِمتُ على عتَّاب بن أَسِيد عاملِ رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة فَأَذَّنت معه بالصلاة عن أَمْرِ رسول الله ﷺ. وأخبَرَني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا مَحذُورةَ، على نَحْوِ ما أخبرني عبدالله بن مُحيْريزٌ»(٢).

هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم في صحيحه، وأهل السُّنَن الأربعة من طريق، عن عبد الله ابن مُحَيريز، عن أبي مَحذُورَةَ ـ واسمُه: سَمُرة بن مِعْيَر بن لَوْذان(٣) ـ أحد مُؤَذِّني رسول الله ـ ﷺ ـ الأربعةِ، وهو مُؤَذِّن أهل مكة، وامتدَّت أيامُه، رَضِي الله عنه وأرضاه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ

---

(١) سيرة ابن هشام ٤١٣/٢.

(٢) مسند أحمد ٤٠٩/٣، ومسلم، كتاب الصلاة ٢٨٧، وعارضة الأحوذي، أبواب الصلاة ٣٠٨/١ ـ ٣٠٩، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ١٣٧/١، والنسائي، كتاب الأذان ٤/٢ ـ ٥، وابن ماجه كتاب الأذان ٢٣٤/١.

(٣) انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ٢٠/٧.

عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقولُ تعالى: قُلْ يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هل تَنْقِمُون منا إلا أن آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزلَ من قبلُ﴾، أي: هل لكم علينا مَطْعَنٌ أو عَيبٌ إلا هذا؟ وهذا ليس بعيبٍ ولا مَذَمَّة، فيكون الاستثناء منقطعاً، كما في قوله: ﴿وما نَقَموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾، وكقوله: ﴿وما نَقَموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾. وفي الحديثِ المُتَّفَقِ عليه: «ما يَنْقِمُ ابنُ جَمِيلٍ إلا أن كان فقيراً فأغناه الله»[١].

وقولُه: ﴿وأن أكثرَكم فاسقون﴾ معطوفٌ على ﴿أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾، أي: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن الطريق المستقيم.

ثم قال: ﴿قل: هل أُنبِّئُكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله﴾، أي: هل أُخْبِرُكم بشرٍّ جزاءٍ عند الله يوم القيامة مما تَظُنُّونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم مُتَّصِفُون بهذه الصفات المفسَّرة بقوله: ﴿من لعنه الله﴾، أي: أبعدَه من رحمته ﴿وغَضِب عليه﴾، أي: غَضَباً لا يرضى بعدَه أبداً، ﴿وجَعَل منهم القِرَدَةَ والخنازير﴾، كما تَقَدَّم بيانُه في سورة البقرة، وكما سيأتي إيضاحُه في سورة الأعراف[٢].

وقد قال سفيانُ الثوريُّ، عن علقمةَ بن مَرْثَد، عن المغيرة بن عبد الله، عن المَعرور بن سُوَيد، عن ابن مسعود قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن القِرَدَة والخنازير، أهي مما مَسَخ الله؟ فقال: إن الله لم يُهلِكْ قوماً، أو قال: لم يَمْسَخْ قوماً، فيجعَلَ لهم نَسْلاً ولا عَقِباً، وإنَّ القِرَدَة والخنازيرَ كانت قبل ذلك».

وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومِسْعَرٍ كلاهما [عن عَلْقَمة بن مَرْثَدٍ][٣] عن مُغيرَةَ بنِ عبْدِ الله اليَشْكُرِيِّ، به[٤].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا دَاوُد بن أبي الفرات، عن محمد بن زَيدٍ، عن أبي الأعين العَبْدِي، عن أبي الأحوص، عن ابن مَسْعُودٍ قال: سَأَلْنا رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن القِرَدَة والخنازير، أهي من نَسْل اليهودِ؟ فقال: لا، إن الله لم يَلْعَنْ قوماً فيمسَخَهم[٥] فكان لهم نسلٌ، ولكن هذا خَلْقٌ كانَ، فلما غَضِبَ الله على اليهود فمسخهم[٦]، جعلهم مثلهم»[٧].

ورواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات، به[٧].

(١) أخرجاه في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/٣٣١، ومسلم ٦٧٦ ـ ٦٧٧. يقول ابن حجر في الفتح ٣/٣٣٣: «وابن جميل لم أقف على اسمه في كتب الحديث، لكن وقع في تعليق القاضي الحسين المروزي الشافعي ـ وتبعه الروياني ـ أن اسمه عبدالله» ونقل أيضاً عن ابن الملقن أن اسمه حميد، وأن بعض المتأخرين نقل عن أبي عبيد في شرح الأمثال أنه أبو جهم بن جميل».

(٢) انظر تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة، والآية ١٦٦ من سورة الأعراف.

(٣) عن مسلم.

(٤) مسلم، كتاب القدر ٢٠٥٠ ـ ٢٠٥٢.

(٥) في مسند أبي داود: «لم يلعن قوماً قط فمسخهم فيكون لهم نسلاً».

(٦) «فمسخهم» ليست في المسند.

(٧) مسند أبي داود الطيالسي ٣٩. ومسند أحمد ١/٣٩٥.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا عبد الباقي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا الحسن بن مَحْبُوب، حدثنا عبد العزيز بن المختار، عن داودَ بن أبي هِنْدٍ، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «الحيات مَسْخُ الجنِّ، كما مُسِخَتِ القِرَدَة والخنازير». هذا حديث غريبٌ جداً.

وقولُه: ﴿وعبد الطاغوتَ﴾، قُرِىءَ: ﴿وعَبَدَ الطاغوتَ﴾ على أنه فعلٌ ماضٍ، «والطاغوتَ» منصوب به. أي: وجعلَ منهم من عَبَد الطاغوتَ. وقُرِىء ﴿وعَبُدَ الطاغوتِ﴾[(١)] بالإضافة على أن المعنى: وجعل منهم خَدَم الطاغوت، أي: خُدَّامه وعبيده. وقرىء ﴿وعُبُدَ الطاغوتِ﴾ على أنه جمع الجمع: عَبْد وعَبِيدٍ وعُبُد، مثل ثمار وثُمُر. حكاها ابنُ جرير عن الأعمش[(٢)]. وحكى عن بُرَيْدَة الأسلمي أنه كان يقرؤها: ﴿وعابدَ الطاغوتِ﴾[(٢)]، وعن أُبيٍّ، وابن مسعود: ﴿وَعَبَدُوا﴾. وحكى ابنُ جرير عن أبي جعفر القارىء أنه كان يقرؤها: ﴿وعُبِدَ الطاغوتُ﴾[(٢)] على أنه مفعولٌ ما لم يسمَّ فاعلُه، ثم استبعد معناها. والظاهرُ أنه لا بُعدَ في ذلك، لأن هذا من باب التعريض بهم، أي: وقد عُبِدَتِ الطاغوتُ فيكم، وكنتم أنتم الذين تَعاطَوا ذلك.

وكلُّ هذه القراءاتِ يَرجِع معناها إلى أنكم يا أهلَ الكتابِ الطاعنين في ديننا، والذي هو توحيدُ الله وإفرادُه بالعبادة دون سواه، كيفَ يَصْدُر منكم هذا وأنتم قد وُجِد منكم جميع ما ذُكِر؟! ولهذا قال: ﴿أولئك شرٌّ مكاناً﴾، أي: مما تظنون بنا ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾.

وهذا من باب استعمال أفعل التَّفضيلِ فيما ليس في الطَّرَفِ الآخرِ مشاركةٌ، كقوله: ﴿أصحابُ الجَنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مُستَقَراً وأحسنُ مَقِيلاً﴾.

وقولُه: ﴿وإذا جاءوكم قالوا: آمنَّا، وقد دَخَلُوا بالكفر وهم قد خَرَجُوا به﴾، وهذه صفةُ المنافقين منهم، إنهم يُصانِعُون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم مُنْطَويةٌ على الكفر، ولهذا قال: ﴿وقد دَخَلُوا﴾، أي: عندك يا محمَّدُ ﴿بالكفر﴾، أي: مستَصْحِبين الكُفْرَ في قلوبهم، ثم خَرَجُوا وهو كامنٌ فيها، لم ينتَفِعوا بما قد سَمِعُوا منك من العلم، ولا نَجَعَت فيهم المواعظ ولا الزواجر. ولهذا قال: ﴿وهم قد خَرَجُوا به﴾، فخَصَّهم به دون غيرهم.

وقولُه: ﴿والله أعلَم بما كانوا يكتُمُون﴾، أي: والله عالمٌ بِسَرَائرهم وما تنطوي عليه ضمائرُهم، وإن أظهروا لِخَلْقِه خلافَ ذلك، وتَزَيَّنُوا بما ليس فيهم، فإن الله عالمَ الغَيب والشهادةِ أعلمُ بهم منهم، وسيَجْزِيهم على ذلك أَتَمَّ الجَزَاءِ.

وقولُه: ﴿وتَرَى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت﴾، أي: يُبادِرُون إلى ذلك مِنْ تعاطِي المآثم والمحارم والإعتداء على الناس، وأكْلِ أموالهم بالباطل ﴿لَبِئْسَ ما كانوا يعملون﴾، أي: لبئسَ العملُ كان عَمَلَهم، وبئس الاعتداء اعتداؤُهم.

وقولُه: ﴿لولا ينهاهم الربانيُّون والأحبارُ عن قولهم الإثم وأَكْلِهِم السُّحتَ لبئس ما كانوا يصنعون﴾، يعني: هَلَّا كان ينهاهم الربانيُّون والأحبارُ عن تَعاطِي ذلك. والربانيُّون منهم وهم: العُلَماء العُمَّال أربابُ الوِلَاياتِ عليهم، والأحبار: وهُمُ العلماء فقط.

---

(١) هذه قراءة حمزة من السبعة، يقول الألوسي عنها: «على أنَّ (عَبُد) واحدٌ مرادٌ به الجنس، وليس بجمع، لأنه لم يسمع مثله في أبنيته، بل هو صيغة مبالغة». انظر روح المعاني ٦/١٧٦، والإقناع لابن الباذش ٦٣٥.

(٢) تفسير الطبري ٦/٢٩٤.

﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾، قال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس. «يعني الربانيِّين، أنهم: بئس ما كانوا يصنعون. يعني: في تركهم ذلك.

وقال عبد الرحمن بن زَيد بن أسلم: قال لهؤلاء حين لم يَنْهَوا، ولهؤلاء حين عَمِلوا. قال: وذلك الإِنْكارُ[1] قال: «ويعمَلُون» و«يصنَعون» واحد. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابن عطية[2]، حدثنا قيس، عن العلاء بن المسيِّب، عن خالد ابن دينار، عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشدُّ توبيخاً من هذه الآية: ﴿لولا ينهاهُم الربانيُّون والأحبارُ عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحْتَ لبئس ما كانوا يعملون﴾، قال: كذا قرأ[3].

وكذا قال الضحاك: ما في القرآن آيةٌ أخوفُ عندي منها، أنَّا لا ننهي. رواه ابن جرير[3].

وقال ابن أبي حاتم: ذكره يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن مُسلم بن أبي الوضّاح حدثنا ثابتٌ[4] أبو سَعِيدٍ الهَمْدَانِيّ، قال: رأيتُه بالرَّيِّ فحدَّث عن يحيى بن يَعْمَر قال: خَطَب عليُّ بنُ أبي طالبٍ فَحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناسُ، إنما هَلَك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم يَنْهَهُم الربانيُّون والأحبار فلما تمادوا في المعاصي ولم يَنْهَهُم الربانيُّون والأحبارُ، أَخَذَتْهم العقوبات. فَمُرُوا بالمعروف وانهَوا عن المنكر، قبل أن يَنْزِلَ بكم مثلُ الذي نَزَل بهم، واعلَمُوا أن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنْكَر لا يقطَعُ رِزْقاً ولا يُقَرِّب أَجَلاً».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جَرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من قوم يَكُون بين أظهُرهم من يَعْمَلُ بالمعاصي هُم أعزُّ منه وأَمنَعُ، لم يُغيِّروا، إلا أصابهم الله منه بعذابٍ». تَفَرَّد به أحمدُ من هذا الوجه[5].

ورواه أبو داودَ، عن مُسَدَّدٍ، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جَرير، عن جَريرٍ قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «ما من رجلٍ يكونُ في قومٍ يَعمَلُ فيهم بالمعاصي، يَقدِرُون أن يُغيِّروا عليه فلا يُغيِّرون، إلا أصابلهم الله بعقابٍ قبلَ أن يَموتُوا»[5].

وقد رواه ابنُ ماجه عن علي بن محمد، عن وكِيع، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن عُبَيدِ الله بن جَرير، عن أبيه، به[5].

قال الحافظُ المِزِّيُّ: وهكذا رواه شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، به[5].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ

(١) في نسخة: الأركان.

(٢) في نسخة: ابن أبي عطية، وأثبتنا ما في تفسير الطبري بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ١٠/٤٤٩، وقد عَرَّف به وقال: وهو الحسين ابن عطية بن نجيح القرشيّ، أبو علي البزاز.

(٣) تفسير الطبري ٦/٢٩٨.

(٤) ثابت أبو سعيد، مترجم في تهذيب الكمال ٤/٣٨٧، وذكره ابن حبان في الثقات.

(٥) مسند أحمد ٤/٣٦٣، وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٢ ـ ١٢٣، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٩. وتحفة الأشراف ٢/٤٢٦.

﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)﴾

يخبر تعالى عن اليهود ـ عليهم لعائنُ الله المتتابعةُ إلى يوم القيامة ـ بأنَّهم وَصَفُوا الله ـ عَزَّ وجلَّ وتعالى عن قولهم عُلُواً كبيراً ـ بأنه بخيلٌ. كما وَصَفُوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعَبَّروا عن البخل بقولهم: ﴿يد الله مغلولة﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الطُّهراني، حدثنا حفص بن عُمَر العَدَني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: قال ابنُ عباس: ﴿مغلولة﴾، أي: بخيلة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولة﴾، قال: لا يعنُونَ بذلك أن يد الله مُوثَّقة، ولكن يقولون: بخيلٌ أمسَكَ ما عنده، تعالى الله عما يقولون عُلُوّاً كبيراً[١].

وكذا رُوِي عن عكرمةَ، وقتادَةَ، والسدِّيِّ، ومجاهد، والضحاك وقرأ: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسُطْها كل البسط فتقعدَ ملوماً محسوراً﴾، يعني: أنه ينهى عن البخل وعن التبذير، وهو الزيادة في الإنفاق في غَيْر مَحله، وعبَّر عن البخل بقوله: ﴿ولا تجعل يَدَك مغلولةً إلى عُنُقِكَ﴾.

وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهودُ ـ عليهم لعائن الله ـ وقد قال عكرمة: إنها نزلت في فِنْحاصٍ اليهوديِّ، ـ عليه لعنة الله ـ وقد تقدَّم أنه الذي قال: ﴿إنَّ الله فقيرٌ ونحن أغنياءُ﴾ فضَرَبه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه[٢].

وقال محمَّدُ بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن سَعِيدٍ أو عكرمةَ، عن ابن عباس قال: قال رجلٌ من اليهودِ، يقال له: شَأسُ بن قَيْس: إن ربَّك بَخيلٌ لا يُنفِقُ، فأنزل الله: ﴿وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولةٌ، غُلَّت أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان يُنْفِقُ كيفَ يشاءُ﴾.

وقد رَدَّ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عليهم ما قالُوه، وقابلهم فيما اختَلَقُوه وافترَوه وائتفَكُوه، فقال: ﴿غُلَّت أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا﴾. وهكذا وقع لهم، فإنَّ عندَهم من البخل والحَسَد والجُبْن والذِّلَّة أمراً عظيماً[٣]، كما قال تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتُونَ الناس نقيراً. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ . . . الآية، وقال تعالى: ﴿ضُرِبت عليهم الذلة﴾ . . . الآيةَ.

ثم قال تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾، أي: بل هو الواسعُ الفَضْلِ الجزيلُ العطاءِ، الذي ما من شيء إلا عندَه خزائنُه، وهو الذي ما بِخَلْقِه من نعمةٍ فمنه وحدَه لا شريكَ له، الذي خَلَق لنا كلَّ شيءٍ مما نحتاج إليه، في ليلنا ونهارنا، وحَضَرنا وسفرنا، وفي جَمِيع أحوالنا، كما قال: ﴿وآتاكم من كلِّ ما سألتُمُوه، وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾. والآياتُ في هذا كثيرةٌ، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حَدَّثنا به أبو هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إنَّ يمين الله ملأى لا يَغِيضُها نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات

(١) تفسير الطبري ٦/٣٠٠.
(٢) انظر تفسير الآية ١٨١ من سورة آل عمران.
(٣) في النسخ: أمر عظيم.

والأرض، فإنه لم يغضْ ما في يمينه، قال: وعرشه على الماء، وفي يده الأخرى القَبْض، يرفع ويخفض... قال: وقال الله تعالى: أنفق أُنفق عليك»[١].

أخرجاه في الصحيحين، البخاري في التوحيد عن علي بن المَدِيني، ومسلم فيه، عن محمد بن رافع، وكلاهما عن عبد الرزاق، به[١].

وقولُه: ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزلَ إليكَ من رَبِّك طغياناً وكفراً﴾، أي: يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمةً في حَق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يَزْدَاد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يَزْدَادُ به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك ﴿طغياناً﴾، وهو: المبالغة والمجاوزة للحدِّ في الأشياء ﴿وكفراً﴾، أي: تكذيباً، كما قال تعالى: ﴿قل: هو للذين آمنوا هُدًى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقْرٌ وهو عليهم عَمىً، أولئك ينادون من مكان بعيد﴾. وقال تعالى: ﴿ونُنَزِّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾.

وقولُه: ﴿وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة﴾، يعني: أنه لَا تَجتَمِعُ قلوبُهم، بل العداوةُ واقعةٌ بين فِرَقِهم بعضِهم في بعضٍ دائماً. لأنهم لا يجتَمِعُون على حَقٍّ، وقد خالَفُوك وكَذَّبوك.

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: ﴿وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ قال: الخصوماتِ والجدالَ في الدِّين. رواه ابن أبي حاتم.

وقولُه: ﴿كُلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾، أي: كُلَّما عَقَدُوا أسباباً يكيدونك بها، وكُلَّما أبرمُوا أموراً يحاربونك بها يُبْطِلُها الله ويردُّ كيدَهم عليهم، ويَحِيقُ مكرُهم السيِّىء بهم.

﴿ويسعَون في الأرض فساداً والله لا يحبُّ المفسِدِينَ﴾، أي: من سَجِيَّتِهم أنهم دائماً يسعَوْن في الإفسادِ في الأرض، والله لا يحبُّ من هذه صِفَتُه.

ثم قال جَلَّ وعَلَا: ﴿ولو أَنَّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا﴾، أي: لو أنهم آمنُوا بالله ورسوله، واتَّقَوا ما كانوا يتعاطونه من المحارم والمآثم ﴿لكفَّرنا عنهم سيئاتِهم ولأدخلناهم جناتِ النَّعيم﴾، أي: لأزلنا عنهم المحذُورَ وَأَنَلْنَاهُم المقصودَ.

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزلَ إليهم من رَبِّهم﴾، قال ابن عباس، وغيره: يعني القرآنَ.

﴿لأكَلُوا من فَوْقِهم ومن تَحتِ أرجلهم﴾، أي: لو أَنَّهم عَمِلُوا بما في الكُتُب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، من غير تَحْرِيفٍ ولا تَغْيِيرٍ ولا تَبْدِيل، لقادَهُم ذلك إلى اتِّباعِ الحَقِّ والعمل بمقتضَى ما بعثَ الله به محمداً - ﷺ - فإن كتبهم ناطقةٌ بتصديقِه والأمرِ باتِّباعه حتماً لا محالَةَ.

وقولُه: ﴿لأكَلُوا من فَوْقِهم ومن تحتِ أرجُلِهم﴾، يعني بذلك كثرةَ الرِّزق النازل عليهم من السماء والنابتِ لهم من الأرض.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿لأكَلُوا من فَوْقِهم﴾، يعني: لأَرسَلَ السَّماءَ عليهم مدراراً ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ يعني: تُخْرِجُ الأرضُ بركاتِها[٢].

(١) مسند أحمد ٢/٣١٣ - ٣١٤ من حديث طويل، وفتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤٠٣، ومسلم، كتاب الزكاة ٦٩١.
(٢) تفسير الطبري ٦/٣٠٥.

وكذا قال مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وقتادةُ، والسدّيُّ، كما قال: ﴿ولو أنَّ أهلَ القُرى آمنُوا واتقوا لفتحْنَا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرضِ﴾. . . الآية. وقال: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كَسَبت أيدي الناس﴾. . . الآية.

وقال بعضُهم: معناه ﴿لأكلُوا من فوقهم ومن تحتِ أرجلهم﴾ يعني: من غيرِ كَدٍّ ولا تَعَبٍ ولا شقاءٍ ولا عَناءٍ.

وقال ابنُ جَريرٍ: قال بعضُهم: معناه لكانوا في الخير، كما يقول القائل: «هو في الخير من قَرْنِه إلى قَدَمِه». ثم رَدَّ هذا القولَ لمخالَفته أقوالَ السَّلَفِ(١).

وقد ذكر ابنُ أبي حاتمٍ، عندَ قوله: ﴿ولو أنَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيل﴾ حديثَ علقمة، عن صفوان ابن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير، عن أبيه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يُوشِك أن يُرْفَع العلم. فقال زياد بن لبيد: يا رسول الله، وكيف يُرفَعُ العلم وقد قرأنا القرآن وعَلَّمناه أبناءنا؟! قال: ثَكِلتك أمك يا ابن لَبِيد! إن كنتُ لأراكَ من أفقهِ أهل المدينة، أوَليست التوراةُ والإنجيل بأيدِي اليهودِ والنصارى، فما أغنى عنهم حين تَركُوا أمْرَ الله. ثم قرأ ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيلَ﴾».

هكذا أوردَهُ ابنُ أبي حاتمٍ حديثاً معلَّقاً من أول إسناده، مُرْسلاً في آخره. وقد رَواه الإمام أحمد بن حَنْبلٍ متصلاً موصولاً، فقال:

حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن زياد بن لَبِيدٍ قال: «ذكر النبي ـ ﷺ ـ شيئاً فقال: وذاك عند ذهاب العلم. قال قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقرئه أبناءنا ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنتُ لأراك [من] أفقه رجل بالمدينة. أوَليس هذه اليهود والنصارى يقرءُون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء(٢)؟

وكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن وكيع بإسناده نحوَه(٢). وهذا إسنادٌ صحيحٌ.

وقولُه: ﴿منهم أمةٌ مقتَصِدَةٌ وكثيرٌ منهم ساءَ ما يعملون﴾ كقوله تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمةٌ يهدُون بالحقِّ وبه يعدلون﴾، وكقوله عن أتباع عيسى: ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾. . . الآية. فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسطُ مقامات هذه الأمةِ، وفوقَ ذلك رتبة السابقين. كما في قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عِبادنا، فمنهم ظَالِمٌ لنفسه، ومنهم مُقْتصِدٌ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير، جناتُ عدن يدخلونها﴾. . . الآية. والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة.

وقد قال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس الضَّبِّي، حدثنا عاصم بن علي، حدثنا أبو معشر، عن يعقوبَ بن يَزيد بن طَلْحَةَ، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «تَفَرَّقت أمةُ موسى على إحدى وسبعين ملّة، سبعون منها في النار وواحدةٌ في الجنة، وتفرَّقت أمةُ عيسى على ثنتين وسبعين ملة، واحدةُ منها في الجنة وإحدى وسبعونَ منها في النار. وتعلُو أمتي على الفريقين جميعاً، واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار. قالوا: من هُم يا رسولَ الله؟ قال: الجماعاتُ الجماعاتُ».

(١) تفسير الطبري ٦/٣٠٦، وانظر القول في معاني القرآن للفراء ١/٣١٥.
(٢) مسند أحمد ٤/١٦٠، ٢١٨ ـ ٢١٩، وسنن ابن ماجه، أبواب الفتن ١٣٤٤.

قال يعقوب بن يزيد: كان علي بن أبي طالب إذا حَدَّث هذا الحديث عن رسول الله - ﷺ - تلا فيه قرآناً: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾، إلى قوله تعالى: ﴿منهم أمة مُقْتَصِدَةٌ وكثير منهم ساء ما يعملون﴾، وتلا أيضاً: ﴿وممن خلقنا أمةٌ يهدُون بالحقّ وبه يعدلون﴾، يعني أمة محمد ﷺ.

وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه وبهذا السياق. وحديثُ افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مَرْوِيٌّ من طرق عديدة، وقد ذكرناه في موضع آخر[١]، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخاطباً عبدَه ورسولَه محمداً - ﷺ - باسم الرِّسالة، وآمراً له بالإبلاغ بجميعِ ما أرسَلَه الله به، وقد امتثل - صلواتُ الله وسلامه عليه - ذلك، وقام به أتَمَّ القيام.

قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمَّدُ بن يوسفَ، حدثنا سفيانُ، عن إسماعيلَ، عن الشعبيِّ، عن مسروقٍ، عن عائشةَ قالت: من حَدَّثَك أن محمداً كَتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كَذَبَ، وهو يقول[٢]: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾[٣] . . . الآية.

هكذا رواه ها هنا مختصراً، وقد أخرجَه في مواضعَ من صَحيحه مطوَّلاً. وكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان، والترمذي والنسائي في كتابَي التفسير من سُنَنهما من طُرقٍ، عن عامر الشعبيِّ، عن مسروق بن الأجدَع، عنها رضي الله عنها[٣].

وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد - ﷺ - كاتماً من القرآن شيئاً لكتَمَ هذه الآية: ﴿وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما الله مُبْديه، وتخشَى الناسَ والله أحقُّ أن تخشاه﴾[٤].

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أحمد بن منصور الرَّمادي، حدثنا سَعيد بن سليمان، حدثنا عباد، عن هارون بن عَنْترة، عن أبيه قال: كنتُ عند ابن عباس، فجاءه رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فَيُخبرونا أن عندكم شيئاً لم يُبْده رسولُ الله - ﷺ - للناس. فقال: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يا أيها الرسولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إليك من ربك﴾، والله ما وَرَّثنا رسول الله - ﷺ - سوداءَ في بيضاء.

وهذا إسنادٌ جيِّدٌ، وهكذا في صَحيح البخاريِّ من رواية أبي جُحَيفَة وَهْب بن عبد الله السُّوَائِي قال: قلتُ لعليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «هل عندكم شيءٌ من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فَلَق الحبَّة وبَرأَ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقلُ، وفِكاكُ الأسير، وَألاّ يُقْتَل مُسْلِمٌ بكافرٍ»[٥].

(١) انظر تفسير الآية ١٠٥ من سورة آل عمران.

(٢) في الصحيح: «والله يقول».

(٣) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٢٧٥/٨، وكتاب التوحيد ٥٠٣/١٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١٥٩، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنعام ١٨٨/١١ - ١٩٠.

(٤) حديث عائشة أخرجَهُ مسلم في كتاب الإيمان ١٦٠، وقد أخرجه البخاري من حديث أنس - رضي الله عنه - في كتاب التوحيد ٤٠٣/١٣. وانظر فتح الباري ٤١١/١٣ في شرح حديث أنس.

(٥) فتح الباري، كتاب العلم ٢٠٤/١، وكتاب الديات ٢٤٦/١٢، ٢٦٠.

وقال البخاريّ: قال الزهريُّ: من الله الرسالةُ، وعلى الرسول البلاغُ، وعلينا التَّسْليمُ(١).

وقد شهدَتْ له أُمَّتُه ببلاغ الرِّسالة وأداءِ الأمانةِ، واستنطَقَهم بذلك في أعظم المحافل. في خُطْبته يوم حَجَّة الوداع. وقد كان هناك من الصَّحابة نحوٌ من أربعينَ ألفاً، كما ثبت في صحيحِ مسلم، عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال في خطبته يومئذ: «أيها الناسُ، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهَدُ أنك قد بَلَّغتَ وأدَّيتَ ونصَحْتَ. فجعلَ يرفعُ إصْبعه إلى السماء وينكبُها(٢) إليهم ويقول: اللهمَّ هل بَلَّغتُ، اللهُمَّ هل بَلَّغتُ»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَير، حدثنا فُضَيل ـ يعني ابن غَزْوانَ ـ عن عكرِمَةَ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في حجَّةِ الوداع: «يا أيها الناسُ، أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يومٌ حَرامٌ. قال: أيُّ بلد هذا؟ قالوا: بَلَدٌ حَرام. قال: فأيّ شهر هذا؟ قالوا: شَهْرٌ حَرامٌ. قال: فإنَّ أموالكم ودماءَكُم وأعراضَكُم عليكم حَرامٌ، كحُرْمَةِ يومكم هذا، في بَلَدِكم هذا، في شَهْركم هذا. ثم أعادها مِراراً، ثم رَفَع إصبَعه إلى السَّماء فقال: اللهم هل بَلَّغتُ؟ مِراراً ـ قال: يقولُ ابن عباس: والله لَوَصيَّةٌ إلى ربه عزَّ وجلَّ. ثم قال: ألا فَلْيُبَلِّغ الشاهدُ الغائبَ، لا تَرْجِعُوا بَعدِي كُفَّاراً يضرب بعضُكم رقابَ بعضٍ»(٤).

وقد روَى البخاريُّ، عن عليِّ بن المَدِيني، عن يحيى بن سعيد، عن فُضَيل بن غَزْوانَ، به نَحْوَه(٤).

وقولُه: ﴿وإن لم تفعل فما بَلَّغت رسالته﴾، يعني: وإن لم تُؤدِّ إلى الناسِ ما أرسلتُكَ به، ﴿فما بَلَّغتَ رِسَالَته﴾، أي: وقد عَلِم ما يترتَّبُ على ذلك لو وَقَع.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وإن لم تفعل فما بَلَّغتَ رسالته﴾، يعني: إن كتمت آيةً مما أُنزِلَ إليك من ربك لم تُبَلِّغ رسالته﴾(٥).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا قَبيصَةَ بن عُقْبَة، حدثنا سفيان، عن رجل، عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿يا أيها الرسولُ بَلِّغ ما أُنزلَ إليكَ من رَبِّكَ﴾ قال: يا ربِّ، كيف أصنَعُ وأنا وحدي؟ يجتَمِعُونَ عَلَيَّ. فنزلت: ﴿وإن لم تفعل فما بَلَّغتَ رِسَالته﴾.

ورواه ابن جرير، من طريق سفيان ـ وهو الثوري ـ به(٥).

وقولُه: ﴿والله يَعصِمُك من الناس﴾، أي: بَلِّغ أنت رسالتي، وأنا حافِظُكَ وناصِرُكَ ومؤيِّدك على أعدائِكَ ومظفرك بهم، فلا تَخفْ ولا تَحزَنْ، فلن يَصِلَ أحدٌ منهم إليك بِسُوءٍ يُؤْذِيكَ.

وقد كان النبي ـ ﷺ ـ قبل نُزُول هذه الآية يُحرَسُ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا يحيى، سمعت عبد الله بن عامر بن رَبيعةَ يُحدِّثُ: أن عائشةَ كانت تُحدِّثُ: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ سَهر ذات ليلة، وهي إلى جنبه، قالت فقلتُ: ما شأنُكَ يا رسولَ الله؟ قال: ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسُني الليلةَ؟ قالت: فبينا أنا على ذلك إذ سَمِعتُ صوتَ السلاح، فقال: من هذا؟

---

(١) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٥٠٣.

(٢) أي: يُميلُها. وفي مسلم: ينكتها. وهو بعيد.

(٣) مسلم، كتاب الحج ٨٩٠.

(٤) مسند أحمد ١/٢٣٠، وفتح الباري، كتاب الحج ٣/٥٧٣.

(٥) تفسير الطبري ٦/٣٠٧.

فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: ما جاء بك؟ قال: جئتُ لأحرُسَكَ يا رسولَ الله. قالت: فسمعْتُ غطيطَ رسول الله - ﷺ - في نومه»[١].

أخرجاه في الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري، به[١].

وفي لفظٍ: سَهِر رسول الله - ﷺ - ذات ليلة مقْدَمَهُ المدينة. يعني: على أثر هِجْرَته بعد دخوله بعائشة رضي الله عنها، وكان ذلك في سنة ثنتين منها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إبراهيم بن مرزوق البَصْريُّ نَزيل مصر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبَيد - يعني أبا قدامة - عن الجُرَيريِّ، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشةَ قالت: كان النبي - ﷺ - يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية: ﴿والله يعصمك من الناس﴾. قالت: فأخرج النبي - ﷺ - رأسه من القُبَّة، وقال: يا أيها الناس، انصرفوا فقد عَصَمَني الله عزَّ وجلَّ.

وهكذا رواه الترمذي، عن عَبْد بن حُمَيد وعن نَصرِ بن عَلِيٍّ الجَهْضَمِيِّ، كلاهما عن مسلم بن إبراهيم، به. ثم قال: وهذا حديث غريب[٢].

وهكذا رواه ابن جَرِيرٍ، والحاكم في مستدركه، من طريق مسلم بن إبراهيم، به. ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٢]. وكذا رواه سعيد بن منصور، عن الحارث بن عُبَيد أبي قدامة، عن الجُرَيري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة، به.

ثم قال الترمذيُّ: وقد روى بعضهم هذا عن الجُرَيري، عن ابن شقيق قال. كان النبي - ﷺ - ... ولم يَذْكُرْ عائِشَةَ[٢].

قلت: هكذا رواه ابن جَرير من طريق إسماعيل بن عُلَيَّةَ، وابن مَرْدُويه من طريق وُهَيب، كلاهما عن الجُرَيري، عن عبد الله بن شَقيق، مرسلاً، وقد روى هذا مُرْسلاً عن سعيد بن جُبَير ومحمد بن كعب القُرَظي، رواهما ابن جرير. والربيع بن أنس رواه ابن مردويه، ثم قال:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رِشْدِين المصري، حدثنا خالد بن عبد السلام الصَّدَفِيُّ، حدثنا الفضل بن المختار، عن عبد الله بن مَوْهَبٍ، عن عِصْمةَ بن مالك الخَطْمِيِّ قال: كنا نحرُسُ رسولَ الله - ﷺ - بالليل حتى نزلت: ﴿والله يعصمك من الناس﴾، فترك الحرس.

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا حمد بن محمد بن حمد أبو نصر الكاتب البغدادي، حدثنا كردوس بن محمد الواسطي، حدثنا يعلى بن عبد الرحمن، عن فُضَيل بن مَرْزوق، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري قال: «كان العباس عَمُّ رسول الله - ﷺ - فيمن يحرُسُه، فلما نزلت هذه الآية: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ ترك رسول الله - ﷺ - الحرس».

حدثنا علي بن أبي حامد المديني، حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعري، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن معاوية بن عمار، حدثنا أبي قال: سَمِعتُ أبا الزبير المكي يُحَدِّث، عن جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله - ﷺ - إذا خَرَجَ بعثَ معه أبو طالب من يَكْلَؤُه، حتى

---

(١) مسند أحمد ٦/١٤٠ - ١٤١، وفتح الباري، كتاب الجهاد ٦/٨١، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٨٧٥.

(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١١/١٧٤ - ١٧٥، وتفسير الطبري ٦/٣٠٨، والمستدرك، كتاب التفسير ٢/٣١٣.

نزلت: ﴿والله يعصمك من الناس﴾، فذهب ليبعَثَ معه، فقال: يا عم، إن الله قد عَصَمَني، لا حاجةَ لي إلى من تبعث.

وهذا حديثٌ غريب وفيه نكارة، فإنَّ هذه الآية مَدَنِيَّةٌ، وهذا الحديث يقتضي أنها مَكِّيَّةٌ.

ثم قال: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحماني، عن النضر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُحرَسُ، فكان يرسل معه أبو طالب كلَّ يوم رجالاً من بني هاشم يحرُسُونه، حتى نزلت عليه هذه الآية: ﴿يا أيها الرسول، بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾، قال: فأراد عمُّه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: إن الله قد عصمني من الجن والإنس.

ورواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العُمَاني، عن أبي كُرَيبٍ، به[1].

وهذا أيضاً غَريبٌ. والصحيحُ أن هذه الآية مدنية، بل هي من أواخر ما نزل بها، والله أعلم.

ومن عصمة الله لرسوله حفْظُه له من أهل مَكَّة وصناديدها وحُسَّادها ومُعَانديها ومترفيها، مع شِدَّة العداوة والبَغْضة ونَصْب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلُقُه الله تعالى من الأسباب العَظِيمة بقَدَره وحكمته العظيمة. فصانه في ابتداء الرِّسالة بعمِّه أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قُرَيش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعيَّةً لرسول الله ـ ﷺ ـ لا شَرْعيَّة، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارُها وكبارها، ولكن لَمَّا كان بينه وبينهم قَدرٌ مشترك في الكفر هابوه واحتَرَموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذىً يسيراً، ثم قَيَّض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحَوَّل إلى دارهم ـ وهي المدينة ـ فلما صار إليها حَمَوه من الأحمر والأسود، فكُلَّما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وَرَدَّ كيدَه عليه، لَمَّا كاده اليهود بالسحر حَمَاه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوِّذتين دَوَاءً لذلك الداء. ولما سَمَّ اليهودُ ذِرَاعَ تلك الشاةِ بخيبَرَ، أعلمَهُ الله به، وحَمَاه منه. ولهذا أشباه كثيرة جِدًّا يطولُ ذِكْرُها، فمن ذلك ما ذكره المُفَسِّرُونَ عند هذه الآية الكريمة.

فقال أبو جَعفرِ بن جَرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو مَعْشَرٍ، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ وغيره قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا نزل منزلاً، اختار له أصحابُه شجرةً ظَلِيلةً فَيَقيلُ تحتها، فأتاه أعرابي فاخترَط[2] سَيْفَه ثم قال: مَنْ يَمنَعُكَ مني؟ فقال: الله عز وجلَّ. فَرُعِدَتْ[3] يد الأعرابي وسَقَطَ السيفُ منه، قال: وضَرَب برأسه الشجرةَ حتى انتَثَر دِماغُه، فأنزل الله عز وجلَّ. ﴿والله يعصمك من الناس﴾[4].

وقال ابن أبي حاتِم: حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان. حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا موسى بن عُبَيْدَةَ، حدثني زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لما غزا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بني أنمار، نزل ذات الرِّقاع بأعلى نَخْلٍ[5]، فبينا هو جالس على رأس بئر قد دَلَّى رجليه، فقال

---

(١) المعجم الكبير ١١/٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) أي: سَلَّه من غمده.

(٣) كذا، والمعروف في اللغة: أُرْعِدَ. وانظر تفسير الطبري، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ١٠/٤٧٠.

(٤) تفسير الطبري ٦/٣٠٨.

(٥) نَخْلٌ: مكان من المدينة على يومين. انظر فتح الباري ٧/٤١٨، ومعجم ما استعجم ١٣٠٣.

غَوْرَثُ بن الحارث، من بَني النَّجار: لأقتُلَنَّ محمداً. فقال له أصحابه: كيف تقتلُه؟ قال: أقول له: أعطني سيفَكَ. فإذا أعطانيه قتلته به. قال: فأتاه فقال: يا محمد، أعطني سيفك أشِيمُه(1) فأعطاه إياه، فرُعِدت يدُه حتى سقط السيف من يده. فقال رسول الله - ﷺ -: حال الله بينك وبين ما تريد. فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنزلَ إليك من رَبِّك وإن لم تفْعَل فما بَلَّغتَ رِسالَتَه، والله يَعصِمُك من النَّاس﴾.

وهذا حديثٌ غَرِيبٌ من هذا الوجه. وقصةُ «غَوْرَث بن الحارث» مشهورة في الصحيح(2).

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرة قال: كنا إذا صَحِبْنا رسول الله - ﷺ - في سفر تركنا له أعظَمَ شَجَرةٍ وأظلَّها، فينزل تحتَها. فنزل ذاتَ يومٍ تحت شَجَرةٍ وعلّق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه فقال: يا محمد، من يمنعك مني؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «الله يمنعُني منك، ضع السيف. فوَضعه، فأنزل الله عز وجل: ﴿والله يعصمك من الناس﴾».

وكذا رواه أبو حاتم بن حبّان في صحيحه، عن عبد الله بن محمد، عن إسحاق بن إبراهيم، عن المؤمل ابن إسماعيل، عن حَمَّاد بن سَلَمَة، به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعْبة، سمعت أبا إسرائيل - يعني الجُشَمي - سمعت جَعْدَة - هو ابن خالد بن الصِّمَّة الجُشَمِيِّ - رضي الله عنه - قال: «سمعت النبي - ﷺ - ورأى رجلاً سميناً، فجعل النبي - ﷺ - يومىءُ إلى بطنه بيده ويقول: لو كان هذا في غير هذا المكان لكان خيراً لك. قال: وأُتِيَ النبي - ﷺ - برجل فقال: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي - ﷺ - لم تُرَع(3) [لم تُرَع]! ولو أردتَ ذلك لم يُسَلِّطْك الله عليَّ»(4).

وقولُه: ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾، أي: بَلِّغ أنت، والله هو الذي يهدي من يشاء، ويُضِلّ من يشاء. كما قال: ﴿ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقال: ﴿فإنما عليك البلاغُ وعلينا الحساب﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٦٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)﴾

يقولُ تعالى: قُلْ يا محمَّد: ﴿يا أهل الكتاب، لستم على شيء﴾. أي: من الدين، ﴿حتى تُقيموا التوراة والإنجيل﴾، أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزَّلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها ومما فيها الأمر باتباع محمد - ﷺ - والإيمان بمبعثه، والاقتداء بشريعته. ولهذا قال ليثُ بن أبي سليم، عن مجاهد، في قوله: ﴿وما أُنزل إليكم من ربكم﴾، يعني: القرآن العظيم.

---

(1) أي: أنظر إليه. وشام السيف أيضاً: اغمده وسلّه، من الأضداد.

(2) فتح الباري، كتاب المغازي ٧/٤٢٦، ومسلم، كتاب الفضائل ١٧٨٦.

(3) أي: لا تخف ولا يلحقك خوف.

(4) مسند أحمد ٣/٤٧١.

وقوله: ﴿وليزيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ إليك من ربِّك طُغياناً وكُفراً﴾ تقدّم تفسيره ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾، أي: فلا تحزن عليهم ولا يهيدنَّك(١) ذلك منهم.

ثم قال: ﴿إن الذين آمنوا﴾، وهم: المسلمون ﴿والذين هادُوا﴾ وهم: حملة التوراة ﴿والصابئون﴾ ـ لما طال الفصل حسَن العطف بالرفع ـ والصابئون: طائفة بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: بين اليهودِ والمجوس. وقال سعيد بن جُبَير: بين اليهود والنصارى، وعن الحسن: إنهم كالمجوس. وقال قتادة: هم قوم يعبدونَ الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور. وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفراً.

وقال ابن وهب: أخبرني ابنُ أبي الزناد، عن أبيه قال: الصابئون قومٌ مما يلي العراق، وهم بِكُوثَى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً، ويُصلُّون إلى اليمن كلَّ يوم خمس صلوات. وقيل غير ذلك(٢).

وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل.

والمقصودُ أنَّ كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر ـ وهو المعاد والجزاء يوم الدين ـ وعَمِلت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمديَّة بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثَّقلَين. فمن اتَّصَفَ بذلك ﴿فلا خوفٌ عليهم﴾ فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ﴿ولا هم يحزنون﴾. وقد تقدَّم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه أخَذَ العهود والمواثيق على بني إسرائيلَ، على السَّمع والطاعة لله ولرسوله، فَنَقَضُوا تلك العهود والمواثيق، واتَّبَعُوا آراءَهم وقدّموها على الشرائع، فما وافقهم منها قَبِلُوه، وما خالفهم رَدُّوه. ولهذا قال: ﴿كُلَّما جاءَهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتلون. وحَسِبُوا ألَّا تكون فتنة﴾، أي: وحَسِبُوا أن لا يترتَّب لهم شرٌّ على ما صنعوا فترَتَّب، وهو أنهم عَمُوا عن الحق وصَمُّوا، فلا يسمَعُون حقاً ولا يهتدون إليه. ﴿ثم تاب الله عليهم﴾، أي: مما كانوا فيه ﴿ثم عموا وصَمُّوا﴾، أي: بعد ذلك ﴿كثيرٌ منهم، والله بصير بما يعملون﴾، أي: مطلع عليهم وعليم بمن يستحقُّ الهداية ممن يستحقُّ الغَوَايَةَ.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ

(١) أي: لا يُفزِعَنَّك.
(٢) انظر الآثار السابقة عند تفسير آية البقرة: ٦٢.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يقولُ تعالى حاكماً بتكفير فِرَق النصارى، من المَلْكِيَّة واليعقوبيَّة والنَّسطُوريَّة، ممن قال منهم: بأن المسيح هو الله. تعالى الله عن قَوْلهم وتنَزَّه وتَقدَّس عُلُوّاً كبيراً.

هذا وقد تقدم إليهم المسيحُ بأنه عبدُ الله ورسولُه، وكان أول كلمة نَطَقَ بها وهو صغيرٌ في المهد أن قال: ﴿إني عبد الله﴾، ولم يقل: أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾، إلى أن قال: ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ﴾(١).

وكذلك قال لهم في حال كهولته ونُبوَّته، آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وَحْدَه لا شريك له. ولهذا قال تعالى: ﴿وقال المسيح: يا بني إسرائيل، اعبُدُوا الله ربِّي وربكم، إنه من يشرك بالله﴾، أي: فيعبُدُ معه غيره ﴿فقد حَرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ أي: فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ﴾. وقال تعالى: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا: إنَّ الله حرمهما على الكافرين﴾.

وفي الصَّحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث منادياً ينادي في الناسِ: إن الجنَّةَ لا يدخُلُها إلا نفسٌ مسلِمَةٌ. وفي لفظٍ: مؤمنةٌ(٢).

وتقدَّم في أول سورة النساء عند قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ حديث يزيد بن بَابَنُوس عن عائشة: الدواوين ثلاثة، فذكر منهم ديواناً لا يغفره الله، وهو الشركُ بالله، قال الله تعالى: ﴿من يشرك بالله فقد حَرَّم عليه الجنة﴾، الحديث في مسند أحمد(٣).

ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إنه مَن يُشرِكْ بالله فقد حَرَّم الله عليه الجنة، ومأواه النارُ وما للظالمين من أنصار﴾، أي: وما له عند الله ناصرٌ ولا معينٌ ولا مُنقذٌ مما هو فيه.

وقولُه: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسن الهِسِنْجَاني، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبي مريم، حدثنا الفضل، حدثني أبو صخر في قول الله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثةٍ﴾، قال: هو قولُ اليهود: ﴿عُزَيرٌ ابن الله﴾، وقول النصارى ﴿المسيحُ ابن الله﴾، فجعلوا الله ثالثَ ثلاثةٍ.

وهذا قولٌ غريبٌ في تفسير الآية: أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى. والصحيح: أنها أنزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهدٌ وغيرُ واحدٍ.

(١) الآيات ٣٠ ـ ٣٦ من سورة مريم.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان ١٠٥ ـ ١٠٦، عن أبي هريرة. وابن ماجه، كتاب الصيام ٥٤٨ عن بشر بن سحيم، ومسند أحمد عن أبي بكر ٣/١، وعارضة الأحوذي، أبواب الحج ١٠٠/٤ عن علي رضي الله عنه. والنسائي، كتاب المناسك ٢٣٤/٥، عن ابن عباس.

(٣) انظر تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء.

ثم اختلفوا في ذلك فقيل: المراد بذلك كُفَّارهم في قولهم بالأقانيم[١] الثلاثة، وهو أُقنوم الأب، وأُقنوم الابن، وأُقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير[٢] وغيره: والطوائف الثلاث من الملكية واليعقوبية والنَّسطورية تقول بهذه الأقانيم. وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضعَ بَسْطِهِ، وكلُّ فرقةٍ منهم تُكفِّر الأخرى، والحقُّ أن الثلاثَ كَافِرَةٌ.

وقال السدِّيُّ وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمَّه إلّهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدّيُّ: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتَّخِذُوني وأُمِّي إلّهين من دون الله. قال: سبحانك﴾. . . الآية. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿وما من إلّه إلا إلّه واحد﴾، أي: ليس متعدِّداً، بل هو وحدَه لا شريك له، إلّهُ جميعِ الكائناتِ وسائرِ الموجوداتِ.

ثم قال تعالى متوعِّداً لهم ومتهدِّداً: ﴿وإن لم يَنتَهُوا عما يقولون﴾، أي: من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾، أي: في الآخرة من الأغلال والنكال.

ثم قال: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، والله غفور رحيم﴾. وهذا من كَرَمه تعالى وُجُوده ولُطْفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم وهذا الإفتراء والكَذِب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكلُّ من تاب إليه تاب عليه. ثم قال: ﴿ما المسيحُ ابن مريم إلا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرسلُ﴾، أي: له سَوِيَّة[٣] أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسولٌ من رُسُلِه الكرام، كما قال: ﴿إن هو إلا عبد أنعَمْنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾.

وقولُه: ﴿وأمه صِدِّيقة﴾، أي: مؤمنة به مصدِّقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدلَّ على أنها ليست بنَبِيَّةٍ، كما زعمه ابن حزم وغيرُه، ممن ذهب إلى نُبوَّة سارَّة أُمِّ إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارَّةَ وَمَرْيَم، وبقوله: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾، وهذا معنى النبوة. والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾. وقد حكى الشيخُ أبو الحسن الأشعريُّ ـ رحِمه الله ـ الإجماعَ على ذلك.

وقولُه: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾، أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما. فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلّهين كما زعمت فِرَقُ النصارى الجَهَلَةُ ـ عليهم لعائنُ الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ.

ثم قال تعالى: ﴿انظر كيف نُبَيِّن لهم الآيات﴾، أي: نُوضِّحها ونُظْهرها، ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾، أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوحِ والجلاء أينَ يذهبون؟! وبأيِّ قَوْلٍ يَتمسَّكُون؟! وإلى أيِّ مذهبٍ من الضَّلال يذهَبُونَ؟!

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا

---

(١) الأقنوم: الجوهر، والشخص، والأصل، والجمع أقانيم. ويستعمل عند المسيحيين العرب للدلالة على الثالوث الأقدس.

(٢) تفسير الطبري ٦/٣١٣ ـ ٣١٤.

(٣) يقال: هم على سَوِيَّةٍ، أي: استواء. وفي نسخة: له أُسْوَةٌ.

وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى منكراً على من عَبَد غَيْره من الأصنام والأنداد والأثان، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلّهية: ﴿قل﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فِرَق بني آدم، ودَخَل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾، أي: لا يقدر على إيصالِ ضَررٍ إليكم، ولا إيجادِ نَفْعٍ ﴿والله هو السميع العليم﴾ أي: فَلِم عَدَلتُم عن إفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء إلى عبادة جَمادٍ لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يعلم شيئاً، ولا يَمْلِك ضَرًا ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه.

ثم قال: ﴿قل: يا أهل الكتاب، لا تَغْلُوا في دينكم غير الحقِّ﴾، أي: لا تُجاوِزُوا الحدَّ في اتباعِ الحق، ولا تُطْرُوا من أُمِرْتُم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتى تخرجوه عن حيّز النبوة إلى مقام الإلّهية، كما صنعتم في المسيح، هو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلّهاً من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سَلَفُكم ممن ضل قديماً، ﴿وأضلوا كثيراً، وضَلُّوا عن سواء السبيل﴾، أي: وخَرَجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس قال: وقد كان قائمٌ قامَ عليهم، فأخذ بالكتاب والسنَّةِ زماناً، فأتاه الشيطان فقال: إنما تركب أثراً أو أمراً قد عُمِل قبلك، فلا تَجْمُد عليه، ولكن ابتدع أمراً من قِبَل نَفْسِك وادعُ إليه وأَجْبِرِ الناس عليه. ففعل، ثم ادَّكَرَ من بعد فعله زماناً فأراد أن يَتُوب فَخَلع مُلْكه، وسلطانه وأراد أن يتعبد، فَلَبِث في عبادته أياماً، فأُتِيَ فقيل له: لو أنك تُبْتَ من خطيئةٍ عَمِلْتَها فيما بينك وبين رَبِّك عسى أن يتاب عليك، ولكن ضل فلان وفلان وفلان في سببك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة، فكيف لك بهداهم، فلا توبة لك أبداً. ففيه سَمِعْنا وفي أشباهه هذه الآية: ﴿يا أهل الكتاب، لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضَلُّوا من قبل، وأضلُّوا كثيراً وضَلُّوا عن سواء السبيل﴾.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

يخبر تعالى أنه لَعَن الكافرين من بني إسرائيل مِن دهرٍ طويلٍ، فيما أَنْزَلَه على داود نبيه ـ عليه السلام ـ وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم على خَلْقِه.

قال العَوْفِيُّ، عن ابن عباس: لُعِنُوا في التوراة والإنجيل وفي الزَّبور، وفي الفرقان[1].

---

(١) تفسير الطبري ٦/٣١٧.

ثم بين حالهم فيما كانوا يعتَمِدُونه في زمانهم، فقال: ﴿كانوا لا يتناهون عن مُنكرٍ فَعَلُوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾، أي: كان لا ينهى أحدٌ منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم. ثم ذَمَّهم على ذلك لِيُحذَر أن يُرْكَبَ مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لبئس ما كانوا يفعلُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ حدثنا يزيد، حدثنا شريك بن عبد الله، عن علي بن بَذِيمَةَ، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما وَقعت بَنُو إسرائيلَ في المَعَاصِي، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مَجَالِسِهم ـ قال يزيدُ: وأحسَبُه قال: وأسواقِهم ـ وواكلوهم وشاربوهم. ». فضرَبَ الله قُلُوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ متكئاً فجلس فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تَأْطُرُوهم على الحقِّ أَطْراً»[١].

وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النُّفَيلي، حدثنا يونس بن راشد، عن علي بن بَذِيمَةَ، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أوَّل ما دخل النقصُ على بني إسرائيل كان الرجل يَلْقَى الرجُلَ فيقول: يا هذا، اتقِ الله وَدَعْ ما تصنع، فإنه لا يحلُّ لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشَرِيبه وقَعِيدَه. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قُلُوبَ بَعْضِهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِن الذين كَفَرُوا من بني إسرائيلَ على لسانِ داود وعيسى ابن مريم﴾. إلى قوله: ﴿فاسقون﴾، ثم قال: كلا، والله لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتنهَوُنَّ عن المُنكرِ، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولتَأطُرنَّه على الحق أطْراً ـ أو تقصُرُنَّه على الحَقِّ قصراً»[٢].

وكذا رواه الترمذي وابن ماجه، من طريق علي بن بَذِيمَةَ، به. وقال الترمذي: «حَسَنٌ غريبٌ». ثم رواه هو وابن ماجه، عن بُنْدارٍ، عن ابن مَهْدِيٍّ، عن سفيانَ، عن علي بن بَذِيمَةَ، عن أبي عُبَيْدَةَ مُرْسَلاً[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ وهارون بن إسحاقَ الهَمْدَاني قالا: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربيِّ، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عَمْرو بن مُرَّة، عن سالم الأفطس، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذَّنْب نهاه عنه تعذيراً، فإن كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيلَه وخَليطه وشريكه ـ وفي حديث هارون: وشَرِيبَه، ثم اتفقا في المتن ـ فلما رأى الله ذلك منهم، ضَرَب قُلُوبَ بَعْضِهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخُذُنَّ على يد المسيء ولَتَأطُرُنَّه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قُلُوب بعضِكم على بعض، أو ليلعَنكم كما لعنهم». والسياق لأبي سعيد. كذا قال في رواية هذا الحديث.

وقد رواه أبو داودَ أيضاً، عن خَلَف بن هشام، عن أبي شِهابِ الحَنَّاطِ، عن العلاء بن المسيب، عن عمرو بن مرة، عن سالم ـ وهو ابن عَجْلان الأفطسِ ـ عن أبي عُبَيْدَةَ بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه. ثم قال أبو داود. وكذا رواه خالد، عن العلاء، عن عمرو بن مُرَّة، به. ورواه

---

(١) مسند أحمد ٣٩١/١.

تأطروهم على الحق: تعطفوهم وتميلوهم إليه.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الملاحم ١٢١/٤ ـ ١٢٢.

(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١٧٥/١١ ـ ١٧٧، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٧ ـ ١٣٢٨.

المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عَمْرو بن مُرَّة، عن سالم الأفطس، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله(١).

قال شيخنا الحافظُ أبو الحَجَّاج المِزِّيُّ: وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطيُّ، عن العلاء، عن عَمْرو ابن مُرَّةَ، عن أبي موسى(١).

والأحاديثُ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرةٌ جداً، وَلْنَذْكر منها ما يُناسِبُ هذا المقام:

قد تقدَّم حديثُ جرير عند قوله: ﴿لولا ينهاهم الربانيُّون والأحبار﴾(٢)، وسيأتي عند قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، عليكم أنفُسَكُم لا يضرُّكم من ضَلَّ إذا اهتديتم﴾(٣) حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني.

فقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، أنبأنا إسماعيل بن جعفر، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي، عن حُذَيفَةَ بن اليمان أن النبيَّ - ﷺ - قال: «والذي نفسي بيده لتأمرُنَّ بالمعروف ولَتَنهَوُنَّ عن المنكر، أو لَيُوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يَسْتَجيبُ لكم»(٤).

ورواه الترمذي عن علي بن حجر، عن إسماعيل بن جعفر، به. وقال: هذا حديث حسن(٤).

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا معاويةُ بن هشام، عن هشام بن سعد، عن عَمْرو بن عُثمان، عن عاصم بن عُمَر بن عثمان، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «مُرُوا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن تَدْعُوا فلا يُستَجابُ لكم»(٥). تَفَرَّد به، وعاصمٌ هذا مجهول.

وفي الصحيح من طريق الأعمش، عن إسماعيلَ بن رجاءٍ، عن أبيه، عن أبي سعيدٍ، وعن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهابٍ، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «من رأى منكم مُنكَراً فَلْيُغيِّرْهُ بيده، فإن لم يستَطِعْ فبلسانِه، فإن لم يستَطِع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمانِ». رواه مسلمٌ(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَير، حدثنا سيفٌ - هو ابن أبي سليمان، سمعت عَدِيَّ بن عَدِيٍّ الكِنْدِيَّ يحدِّث عن مجاهد قال: حدثني مولى لنا أنه سَمِع جَدِّي - يعني: عَدِيَّ بن عُمَيرة، رضي الله عنه - يقول: سَمِعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الله لا يُعَذِّب العامَّةَ بعَمَلِ الخاصة، حتى يَرَوا المُنْكَر بين ظَهْرَانيهم، وهم قادرون على أن يُنْكِرُوه فلا ينكرونـه؛ فإذا فعلوا ذلك عَذَّب الله الخاصَّة والعامَّة»(٧).

ثم رواه أحمد، عن أحمد بن الحجاج، عن عبد الله بن المبارك، عن سيف بن أبي سليمان، عن عدي بن عَدِيّ الكندي، حدثني مولى لنا أنه سمع جدِّي يقول: سَمِعْتُ رسول الله - ﷺ - يقول: ... فذكره. هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين(٧).

(١) سنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٢، وتحفة الأشراف ٧/١٦١.
(٢) انظر تفسير الآية ٦٣ من هذه السورة.
(٣) انظر فيما يأتي تفسير الآية ١٠٥ من هذه السورة.
(٤) مسند الإمام أحمد ٥/٣٨٨ - ٣٨٩، وعارضة الأحوذي أبواب الفتن ٩/١٧.
(٥) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٧.
(٦) مسلم، كتاب الإيمان ١/٦٩.
(٧) مسند أحمد ٤/١٩٢.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو بكر، حدثنا مُغيرة بن زياد الموصلي، عن عِديٍّ بن عَديٍّ، عن العُرْس ـ يعني ابن عَميرة ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا عُملت الخطيئة في الأرض كان من شَهدها فكَرِهها ـ وقال مرة: فأنكرَها ـ كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرَضِيها كان كمن شهدها»(١).

تَفرَّد به أبو داود. ثم رواه عن أحمد بن يونس، عن أبي شَهابٍ، عن مُغيرةَ بن زيادٍ، عن عَديٍّ بن عَديٍّ، مُرْسَلاً(١).

قال أبو داود: حدثنا سُليمان بن حَرْبٍ وحفص بن عُمَر قالا: حدثنا شعبة، وهذا لفظه، عن عَمْرو بن مُرَّةَ، عن أبي البَخْتَرِيِّ قال: أخبرني من سَمع النبيَّ ـ ﷺ ـ وقال سليمان: حدثني رجل من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لن يَهْلِكَ الناس حتى يُعْذِروا. أو: يُعْذِرُوا من أنفسهم»(٢).

وقال ابن ماجه: حدثنا عِمْرَان بن موسى، حدثنا حَمَّاد بن زَيدٍ، حدثنا علي بن زيد بن جُدْعان، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد الخُدْري: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قام خطيباً، فكان فيما قال: «ألا لا يمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناس أن يَقُولَ الحقَّ إذا عَلِمَهُ». قال: فبكى أبو سَعيد وقال: قد ـ والله ـ رأينا أشياءَ، فَهِبنَا(٣).

وفي حديث إسرائيل، عن محمد بن جُحَادَةَ، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أفضلُ الجهادِ كَلِمةُ حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ».

رواه أبو داودَ، والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه(٤).

وقال ابنُ ماجه: حدثنا راشدُ بن سعيدٍ الرَّمليُّ، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمَة، عن أبي غالب، عن أبي أُمَامَة قال: عَرَض لرسول الله ـ ﷺ ـ رَجُلٌ عند الجَمْرةِ الأولى فقال: يا رسول الله، أي الجهاد أفضلُ؟ فسكت عنه. فلما رمى الجَمْرَة الثانية سأله، فَسَكَتَ عنه. فلما رمى جَمْرة العَقَبة وَوَضَعَ رِجْلَه في الغَرْز ليركَبَ، قال: أينَ السائِلُ؟ قال: أنا يا رسولَ الله. قال: كَلِمَةُ حَقٍّ تُقَالُ عند ذي سلطانٍ جائرٍ»(٥). تَفرَّد به.

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو كُرَيبٍ، حَدَّثنا عبد الله بن نُمَير وأبو معاوية، عن الأعْمَش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَريّ، عن أبي سَعِيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا يَحْقِرُ أحدُكم نَفْسَه. قالوا: يا رسولَ الله، كيف يحقِرُ أحدُنا نَفْسَه؟ قال: يرى أمراً لله فيه مقالٌ، ثم لا يقول فيه، فيقول الله له يوم القيامة: ما مَنَعَكَ أن تَقولَ في كذا وكذا وكذا؟ فيقولُ: خشيةُ الناسِ. فيقولُ: فإيَّايَ كنتَ أحَقَّ أن تَخْشَى» تفرَّد به(٦).

وقال أيضاً: حدَّثنا علي بن محمد، حدثنا محمد بن فُضَيل، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبو طُوَالَة، حدثنا نَهارُ العَبْدِيُّ، أنه سَمِع أبا سعيد الخُدْرِيَّ يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٤.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٥.

وأعْذَر من نفسه: إذا أمكن منها. يعني أنهم لا يهلكون حتى تكثُرَ ذنوبهم وعيوبهم، فَيُعْذِروا من أنفسهم ويستوجبوا العقوبة، ويكُونَ لمن يُعَذِّبهم عُذرٌ، كأنهم قاموا بعذر في ذلك.

ويُرْوَى الفعل بفتح الياء، من عَذَرْتُه، وهو بمعناه.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٨.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩/١٩ ـ ٢٠، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٩.

(٥) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣٠. والغَرْزُ: ركاب الإبل.

(٦) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٨.

يقول: «إن الله ليسألُ العبدَ يوم القيامة، حتى يقولَ: ما منَعَكَ إذا رأيتَ المنكر أن تُنْكِرَه؟ فإذا لَقَّن عبداً حُجَّته، قال: يا ربِّ، رجوتُكَ وفَرِقْتُ من الناس». تَفرَّد به أيضاً ابنُ ماجه، وإسنادُه لا بأسَ به(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عَمْرو بن عاصم، عن حَمَّاد بن سَلَمَة، عن عليِّ بن زيدٍ، عن الحَسَن، عن جُنْدُبٍ، عن حُذَيفة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «لا يَنْبغي لمسلمٍ أن يُذِلَّ نفسَه. قيل: وكيفَ يُذِلُّ نفسَه؟ قال: يَتعرَّضُ من البلاء لما لا يُطيق»(٢).

وكذا رواه التِّرمِذيُّ وابنُ ماجه جميعاً، عن محمد بن بَشّار، عن عَمْرو بن عاصم، به. وقال التِّرمذيُّ: هذا حديثٌ حسن صحيح غَريبٌ(٢).

وقال ابن ماجه: حدثنا العَبَّاسُ بن الوليد الدِّمَشْقيُّ، حدثنا زيدُ بن يحيى بن عُبَيدٍ الخُزاعِيُّ، حدثنا الهَيثَمُ بن حُمَيد، حدثنا أبو مُعَيدٍ حَفْصُ بن غَيْلَان الرُّعَيني، عن مَكْحُولٍ، عن أَنَسِ بن مالك قال: «قيل: يا رسول الله، متى يُتْرَكُ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر؟ قال: إذا ظَهَر فيكم ما ظَهَر في الأمم قبلكم. قلنا: يا رسول الله، وما ظَهَر في الأمم قبلنا؟ قال: المُلْكُ في صِغَاركم، والفاحِشَةُ في كِبَارِكم، والعِلْمُ في رُذالِكم».

قال زيد: تفسير معنى قول النبي ـ ﷺ ـ: «والعلم في رُذالِكم» إذا كان العلمُ في الفُسَّاق»(٣).

تَفرَّد به ابن ماجه. وسيأتي في حديث أبي ثعلبة، عند قوله: ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾(٤) شاهدٌ لهذا، إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقولُه: ﴿ترى كثيراً منهم يتولَّون الذين كفروا﴾، قال مجاهد: يعني بذلك المنافقينَ. وقوله: ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ يعني بذلك مُوالاتَهم للكافرين، وتَرْكهم موالاةَ المؤمنين التي أعقبتهُم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطَتِ الله عليهم سُخطاً مُستمرّاً إلى يوم مَعَادِهم، ولهذا قال: ﴿أن سَخِطَ الله عليهم﴾ فَسَّر بذلك ما ذَمَّهم به. ثم أخبر أنهم ﴿في العذاب هم خالدون﴾ يعني يوم القيامة.

قال ابن أبي حاتِمٍ: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مَسْلَمَةُ بن علي، عن الأعمش بإسنادٍ ذَكَرَهُ قال: «يا معشر المسلمين، إياكم والزنا فإن فيه سِتَّ خِصالٍ، ثلاثٌ في الدنيا وثلاثٌ في الآخرة، فأما التي في الدنيا فإنه يُذهِبُ البهاءَ، ويُورِثُ الفقر، ويُنْقِصُ العُمُرَ. وأما التي في الآخرة، فإنه يُوجِبُ سَخَطَ الربِّ، وسوءَ الحسابِ، والخُلُودَ في النار. ثم تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿لبئس ما قَدَّمت لهم أنفسُهم أن سَخِطَ الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾».

هكذا ذكره ابن أبي حاتم، وقد رواه ابن مَرْدُويه من طريق هشام بن عمار، عن مسلمة، عن الأعمش، عن شَقِيق، عن حُذَيفة، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره. وساقه أيضاً من طريق سعيد بن عُفَير(٥)، عن مسلمة، عن

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٠٥/٥، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ١١١/٩ ـ ١١٢، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣٢.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣١.
ورُذَال: جمع رَذْلٍ، وهو الدون من الناس، ويُجْمَع الرَّذْلُ على أَرْذُلٍ، وأرذال، ورُذُلٍ، ورُذَالٍ. ورُذَالٌ جمع عزيزٌ نادر، وفي مطبوعة ابن ماجه: رُذَالتكم!.

(٤) الآية ١٠٥ من سورة المائدة.

(٥) هو سعيد بن كثير بن عفير ـ بالعين المهملة والفاء مُصَغَّراً ـ مترجم في الجرح والتعديل ٥٦/٤.

أبي عبد الرحمن الكوفي، عن الأعمش، عن شَقِيق، عن حُذَيفة، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكر مثله.

وهذا حديث ضعيف على كل حال، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبيِّ وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾، أي: لو آمنوا حَقَّ الإيمان بالله والرسل والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾، أي: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وَحْيِهِ وتَنْزِيلِهِ.

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفرُ بن أبي طالب بالحبشة القرآن بَكَوا حتى أَخْضَلُوا لحاهم(١).

وهذا القولُ فيه نظرٌ، لأنَّ هذه الآيةَ مَدَنِيَّةٌ، وقِصَّةُ جعفر مع النجاشي قبل الهجرة.

وقال سعيد بن جُبَير والسدِّيُّ وغيرهما: نزلت في وفدٍ بعثَهُم النجاشيُّ إلى النبي ـ ﷺ ـ ليسمعوا كلامه، ويَرَوا صفاتِهِ، فلما قرأ عليهم النبيُّ ـ ﷺ ـ القرآن أسلموا وبَكَوا وخَشَعوا، ثم رَجَعُوا إلى النجاشيِّ فأخبروه.

قال السدِّيُّ: فهاجَرَ النجاشيُّ فمات في الطريق.

وهذا من أفراد السدِّيِّ: فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة، وصلى عليه النبي ـ ﷺ ـ يوم مات، وأخبر به أصحابه، وأخبر أنه ماتَ بأرضِ الحبشة.

ثم اختلف في عِدَّة هذا الوفد، فقيل: اثنا عشر، سبعة قساوسة وخمسة رَهَابين. وقيل بالعكس. وقيل: خمسون وقيل: بضع وستون. وقيل: سبعون رجلاً. فالله أعلم.

وقال عطاءُ بن أبي رَبَاح: هم قوم من أهل الحبشة، أسلموا حين قَدِم عليهم مُهَاجِرَةُ الحبشة من المسلمين.

وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مَرْيَم، فلما رأوا المسلمين وسَمِعُوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٧/٢. واخضَلُوا لحاهم: بلُّوها.

واختار ابنُ جَرِيرٍ أنَّ هذه نَزَلَتْ في صِفَةِ أقوام بهذه المثابة، سواء أكانوا من الحَبَشةِ أو غيرها.

فقولُه: ﴿لتجدَنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عنادٌ وجحودٌ ومباهَتَةٌ للحقِّ، وغَمْطٌ للناسِ وتنقُّصٌ بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هَمُّوا بقَتْلِ الرسول ـ ﷺ ـ غير مَرَّةٍ وسَحَرُوه، وألَّبُوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائنُ الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه عند تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن محمد بن السري، حدثنا محمد ابن علي بن حبيب الرقي، حدثنا علي بن سعيد العَلَّاف، حدثنا أبو النضر، عن الأشجَعي، عن سفيان، عن يحيى بن عُبَيد الله، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَة: قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما خَلاَ يَهُودِيٌّ قَطُّ بمسلمٍ إلا هَمَّ بقتله».

ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحاق اليشكري، حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازي، حدثنا فَرَجُ بن عُبَيد، حدثنا عباد بن العوام، عن يحيى بن عُبَيد الله، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما خلا يهوديٌّ بمسلم إلا حَدَّثَت نفسُه بِقَتْلِه». وهذا حديثٌ غريبٌ جداً.

وقولُه: ﴿ولتجدَنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى﴾، أي: الذين زَعَمُوا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله: فيهم مودَّةٌ للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلَّا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح، من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتَّبَعُوه رأفةً ورحمةً﴾، وفي كتابهم: من ضَرَبك على خَدِّك الأيمن فَأدِرْ له خَدَّكَ الأيسَرَ. وليس القتالُ مشروعاً في مِلَّتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾، أي: يُوجَدُ فيهم القِسِّيسُونَ ـ وهم خطباؤُهم وعلماؤُهم، واحِدُهم: قِسِّيسٌ وَقَسٌّ أيضاً، وقد يجمَعُ على قُسُوس ـ والرهبانُ: جمع راهِبٍ، وهو: العابدُ. مُشْتَقٌّ من الرهبة، وهي الخوفُ، كراكب ورُكبان، وفارس وفُرسان.

قال ابن جَرير، وقد يكونُ الرّهبان واحداً وجمعُهُ رَهَابِينُ، مثل قربان وقرابين، وجُرْدان وجَرادين[1]. وقد يجمع على رهابنة. ومن الدليل على أنه يكون عند العربِ واحداً قول الشاعر[2]:

لَوْ عَايَنَتْ رُهبانَ دَيْرٍ في القُلَلْ   لانْحَدَرَ الرُّهْبَانُ يَمْشي ونَزَلْ

وقال الحافظ أبو بكر البَزّار: حدثنا بشر بن آدم، حدثنا نُصَير بن أبي الأشعث، حدثني الصَّلْتُ الدهان، عن حامِيَةَ بن رئاب قال: سألت سلمان عن قول الله: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً﴾، فقال: دع «القسيسين» في البِيَعِ والخَرَبِ، أقرأني رسول الله ـ ﷺ ـ: «ذلك بأن منهم صديقين ورهباناً».

وكذا رواه ابن مَرْدُويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحِمَّاني، عن نُصير بن زياد الطائي، عن صَلْتٌ الدُّهان، عن حامية بن رِئَابٍ، عن سلمان، به.

وقال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمَّاني، حدثنا نُصَير بن زياد الطائي، حدثنا صَلْتُ الدهان، عن حامية بن رِئَابٍ قال: سَمِعت سلمانَ وسُئِل عن قوله: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين

(١) الجُرْدان والمُجَرَّد: القضيب من ذوات الحافر، وقيل: هو الذكر معموماً به، وقيل: هو أصل في الإنسان وفيما سواه مستعار.
(٢) تفسير الطبري ٣/٧، واللسان: رهب، عن ابن الأعرابي.

ورهباناً﴾. قال: هم الرهبان الذين هم في الصوامع والخَرَب، فدعوهم فيها، قال سلمان: وقرأت على النبي ـ ﷺ ـ ﴿ذلك بأن منهم قسيسين﴾، فأقرأني: «ذلك بأن منهم صِدِّيقين ورهباناً».

فقولُه: ﴿ذلك بأن منهم قِسِّيسين ورُهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ تَضَمَّن وصفَهم بأن فيهم العِلْمَ والعبادَةَ والتواضع، ثم وصَفَهم بالانقياد للحقِّ واتباعه والإنصافِ، فقال: ﴿وإذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرسول تَرَى أعيُنَهم تَفِيضُ من الدمع مما عَرَفُوا من الحقِّ﴾، أي: مما عِنْدَهم من البشارة بِبَعْثَةِ محمد ـ ﷺ ـ ﴿يقولون: ربنا آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين﴾، أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وقد رَوَى النسائي عن عَمْرو بن علي الفلاس، عن عمر بن عليِّ بن مُقَدَّم، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه: ﴿وإذا سَمِعوا ما أنزل إلى الرسول تَرَى أعيُنَهم تَفِيضُ من الدمع مما عَرَفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين﴾.

وقال الطبراني: حدثنا أبو شُبَيْل عُبَيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفَضْل، عن عبد الجَبّار بن نافع الضَّبِّي، عن قتادَةَ وجعفر بن إياس، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، في قول الله: ﴿وإذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرَّسُول تَرَى أعيُنَهم تَفِيضُ من الدمع﴾، قال: إنهم كانوا نُوتِيِّينَ ـ يعني: مَلَّاحين ـ قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ القرآن آمنُوا وفاضت أعيُنهم، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتُم إلى دينكم»[1]. فقالوا: لن ننتقل عن ديننا. فأنزل الله ذلك من قولهم[2].

وروى ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه، والحاكم في مُستَدْرَكِه، من طريق سِمَاكٍ، عن عَكرِمَة، عن ابن عباس في قَوله: ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾، أي: مع محمد ـ ﷺ ـ وأُمَّته هم الشاهدون، يشهَدُون لنبيِّهم أنه قد بَلَّغَ، وللرسل أنَّهم قد بَلَّغـوا. ثم قال الحاكم: صَحِيحُ الإسناد ولم يُخرِجاه[3].

﴿وما لنا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمَعُ أن يُدْخِلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين﴾. وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله: ﴿وإنَّ من أهل الكتاب لمن يُؤْمِنُ بالله وما أُنزِلَ إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾... الآية، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قَبله هم به يُؤْمِنُون * وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنـا به، إنـه الحق من ربنا، إنـا كنا من قبله مسلمين﴾، إلى قـوله: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾. ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار﴾، أي: فجازاهم على إيمانهم وتَصْدِيقهم واعترافهم بالحق ﴿جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾، أي: ساكنين فيها أبداً، لا يَحُولُون ولا يَزُولُون، ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾، أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان.

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾، أي: جَحَدُوا بها وخَالَفُوها ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾، أي: هم أهلها والداخِلُونَ إليها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا

(١) في المعجم الكبير: «عن دينكم».
(٢) المعجم الكبير ١٢/٥٥.
(٣) المستدرك، تفسير سورة المائدة ٢/٣١٣.

رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «نزلت هذه الآيةُ في رَهْطٍ من أصحابِ النبيِّ - ﷺ - قالوا: نَقْطَعُ مَذاكيرنا، ونَتْرُكُ شهواتِ الدنيا، ونَسِيحُ في الأرض كما يفعل الرُّهبان. فبلغَ ذلك للنبيِّ الله - ﷺ - فأرسل إليهم، فَذَكَرَ لَهُم ذلك، فقالوا: نعم. فقال النبي - ﷺ -: «لكني أصومُ وأفطِرُ، وأُصَلِّي وأنام، وأنكِحُ النساءَ، فمن أخذ بِسُنَّتي فهو منِّي، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني» رواه ابن أبي حاتم[١].

وروى ابن مَرْدُويه من طريق العَوفِيِّ، عن ابن عباس نحو ذلك.

وفي الصحيحين، عن عائشة[٢] - رضي الله عنها -: أن ناساً من أصحاب رسول الله - ﷺ - سألوا أزواج النبي - ﷺ - عن عمله في السر، فقال بعضُهم: لا آكلُ اللحم. وقال بعضُهم: لا أتزوَّجُ النِّساءَ. وقال بعضهم: لا أنامُ على فِراش. فبلغ ذلك النبيَّ - ﷺ -، فقال: «ما بالُ أقوامٍ يقولُ أحدُهم كذا وكذا، لكني أصوم وأُفطر، وأنام وأقوم، وآكُلُ اللَّحمَ، وأتزَوَّجُ النساءَ، فمن رَغِب عن سُنَّتي فَلَيْسَ مِنِّي».

وقال ابنُ أبي حاتِم: حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، عن عثمان - يعني ابنِ سعد - أخبرني عِكْرِمَةُ، عن ابن عباس: أن رَجُلاً أتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلتُ اللَّحم انتشرتُ للنساء، وإني حَرَّمْتُ عليَّ اللحم، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم﴾.

وكذا رواه التِّرْمِذيُّ وابن جَريرٍ جميعاً، عن عمرو بن علي الفَلَّاس، عن أبي عاصم النبيل، به. وقال: «حسن غريب»[٣]. وقد رُوِي من وَجْهٍ آخَرَ مُرسَلاً، ورُوِي موقوفاً على ابن عباس، فالله أعلم.

وقال سفيانُ الثوريُّ ووكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حَازِم، عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نَغزُو مع رسول الله - ﷺ - وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نَسْتَخْصي؟ فنهانا رسولُ الله - ﷺ - عن ذلك، ورَخَّص لنا أن ننكح المرأةَ بالثوبِ إلى أَجَلٍ، ثم قرأ عبد الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحَرِّموا طيباتِ ما أَحَلَّ الله لكم﴾ . . . الآية.

أخرجاه من حديثِ إسماعيلَ[٤]. وهذا كان قبل تحريم نكاح المُتْعَةِ، والله أعلم.

وقال الأعمشُ، عن إبراهيمَ، عن هَمَّام بن الحارث، عن عمرو بن شرحبيل قال: جاء معقل بن مُقَرِّن إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني حَرَّمْتُ فراشي. فتلا هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ . . . الآية.

وقال الثوري، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق قال: كُنَّا عند عبد الله بن مسعود، فجيء بِضَرْعٍ، فَتَنَحَّى رجل، فقال عبد الله: ادن. فقال: إني حَرَّمْتُ أن آكله. فقال عبدالله: ادن فاطعَم وكَفِّر عن يمينك، وتلا هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ الآية.

رواهُنَّ ابن أبي حاتم. وروى الحاكمُ هذا الأثرَ الأخير في مستدركه، من طريق إسحاقَ بن راهُويَه،

---

(١) وكذلك رواه الطبري في تفسيره ١٠/٧.

(٢) كذا في النسخ: عن عائشة. والحديث أخرجاه في كتاب النكاح عن أنس، فتح الباري ١٠٤/٩، ومسلم ١٠٢٠.

(٣) عارضة الأحوذيّ، تفسيرُ سورةِ المائدةِ ١٧٩/١١. وتفسير الطبري ١١/٧.

(٤) أخرجاه في كتاب النكاح، فتح الباري ١١٧/٩، ومسلم ١٠٢٢.

عن جَرِيرٍ، عن منصور، به. ثم قال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه[١].

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، اخبرني هشام بن سعد: أن زيد بن أسلم حَدَّثه: أن عبد الله بن رواحة ضافه[٢] ضيف من أهله، وهو عند النبي ـ ﷺ ـ ثم رَجَع إلى أهله فوجدهم لم يُطْعموا ضَيفهم انتظاراً له، فقال لامرأته: حَبَسْتِ ضيفي من أجلي، هو عَليَّ حَرَام. فقالت امرأته: هو عليَّ حرام. وقال الضيف: هو علي حَرَامٌ! فلما رأى ذلك وَضَع يده، وقال: كُلُوا باسم الله. ثم ذَهَب إلى النبي ـ ﷺ ـ فذكر الذي كان منهم، ثم أنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحَرِّموا طيباتِ ما أحَلَّ الله لكم﴾. وهذا أثر منقطع.

وفي صَحِيح البخاريِّ في قصَّةِ الصِّدِّيق مع أضيافه شبيه بهذا[٣]. وفيه وفي هذه القصة دلالةٌ لمن ذَهَب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حَرَّم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرُم عليه، ولا كفارةَ عليه أيضاً. ولقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّمُوا طيبات ما أحل الله لكم﴾. ولأن الذي حَرَّم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ـ ﷺ ـ بكفَّارةٍ. وذهب آخرون، منهم الإمام أحمد ابن حنبل، إلى أن من حرَّم مأكلاً أو مشرباً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفَّارةُ يمين، كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يُؤَاخَذُ بمجرد تحريمه على نفسه، إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي، لم تحرم ما أحل الله لـك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾، ثم قال: ﴿قد فرض الله لكم تَحِلَّة أيمانكم﴾ الآية. وكذلك ها هنا، لما ذَكَر هذا الحكم عقَّبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا مُنَزَّلٌ منزلَةَ اليمين في اقتضاء التكفير، والله أعـلم.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيج، عن مجاهد قال: أراد رجال، منهم عثمان بن مَظْعُونٍ وعبد الله بن عمرو، أن يَتَبَتَّلُوا ويُخْصُوا أنفسهم ويلبسوا المُسُوحَ[٤]، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾.

قال ابن جُرَيج، عن عكرمة: إن عثمان بن مظعون، وَعَلِيَّ بن أبي طالب، وابن مَسْعُودٍ، والمِقْدَادَ بن الأسود، وسالماً مولى أبي حُذَيفة في أصحاب، تَبَتَّلُوا، فَجَلَسُوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولَبِسوا المُسُوح، وحَرَّموا طيباتِ الطعام واللباس إلا ما يأكل ويَلْبَسَ أهل السِّياحة من بني إسرائيـل، وهَمُّوا بالإخصاءِ، وأجمَعُوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾، يقول: لا تَسِيروا بغير سُنَّةِ المسلمين، يريد: ما حَرَّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الإخصاء. فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: «إن لأنفسكم حقاً. وإن لأعينكم حقاً. صُوموا وأفطِرُوا، وصَلُّوا وناموا، فليس منَّا من تَرك سُنَّتنا. فقالوا: اللهم أسلمنا واتَّبعنا ما أنزلت»[٥].

وقد ذكر هذه القصة غيرُ واحد من التابعين مُرسَلَةً، ولها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة[٦] أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، ولله الحمدُ والمنَّة.

---

(١) المستدرك، تفسير سورة المائدة ٢/٣١٣ ـ ٣١٤.
(٢) أي: نَزَل عليه ضيف.
(٣) فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥٣٤ ـ ٥٣٥.
(٤) المُسُوح: جَمْعُ مِسْحٍ، وهو كساء من شَعَر يلبسه الرهبان.
(٥) تفسير الطبري ٧/١٠ ـ ١١.
(٦) كذا، وقد سبق عند تفسير أول الآية أن نَبَّهنا إلى أن الحديث في الصحيحين من رواية أنس رضي الله عنه.

وقال أسباط: عن السدِّيِّ، في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾. وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ جلس يوماً فذكَّر الناس. ثم قام ولم يزدْهم على التخويف. فقال ناس من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب، وعثمانُ بن مظعون: ما خِفْنا[1] إن لم نُحدِث عملاً، فإن النصارى قد حَرَّموا على أنفسهم، فنحن نُحرِّم. فحَرَّم بعضُهم أن يأكل اللحم والودَك[2]، وأن يأكل بنَهار وحرَّم بعضهم النوم، وحرَّم بعضهم النساء. فكان عثمان بن مظعون ممن حَرَّم النساء، وكان لا يدنو من أهله ولا تَدنُو منه. فأتت امرأتُه عائشة ـ رضي الله عنها ـ وكان يقال لها: الحولاء ـ فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ـ ﷺ ـ: ما بالُكِ يا حولاء مُتغيِّرة اللون، لا تَمْتَشِطين ولا تَطيَّبين؟ قالت: وكيف أمتشط وأتطيَّبُ وما وقع عليَّ زوجي وما رفع عني ثوباً، منذ كذا وكذا. قال: فجعلن يضحَكْن من كلامها، فدخل رسول الله ـ ﷺ ـ وهن يضحكن، فقال: ما يُضحِكُكُنَّ؟ قالت: يا رسول الله، إن الحولاء سألتها عن أمرها، فقالت: ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا. فأرسل إليه فدعاه، فقال: ما لك يا عثمانُ؟ قال: إني تركته لله، لكي أتخلى للعبادة. وقَصَّ عليه أمره، وكان عثمان قد أراد أن يَجُبَّ نفسه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أقسمت عليك إلا رجعتَ فواقعت أهلك. فقال: يا رسول الله، إني صائمٌ. فقال: أفطر. فأفطَرَ، وأتى أهلَه، فرجعت الحولاءُ إلى عائشةَ وقد امتشطَتْ واكتحلَت وتطيَّبَت، فضحِكت عائشةُ وقالت: ما لك يا حولاءُ؟ فقالت: إنه أتاها أمس. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما بال أقوامٍ حرَّموا النساءَ والطعامَ والنومَ؟ ألا إني أنامُ وأقومُ، وأُفطِر وأصومُ، وأنكح النساء، فمن رَغِبَ عني فليس مِني. فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيباتِ ما أحَلَّ الله لكم ولا تعتَدُوا﴾ يقول لعثمانَ: لا تجُبَّ نفسك، فإن هذا هو الاعتداءُ، وأمرهم أن يُكفِّروا أيمانهم، فقال: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾. رواه ابن جرير[3].

وقوله: ﴿ولا تعتدوا﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ المرادُ منه: ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السَّلَفِ. ويَحتمِلُ أن يكونَ المرادُ: كما لا تُحرِّموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقَدْر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحدَّ فيه، كما قال تعالى: ﴿وكُلُوا واشربوا ولا تُسرفُوا﴾... الآية. وقال: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾، فشرعُ الله عدلٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، لا إفراطَ ولا تفريطَ. ولهذا قال: ﴿لا تُحرِّموا طيبات ما أحلَّ الله لكم ولا تعتَدوا إن الله لا يحبُّ المعتدين﴾.

ثم قال: ﴿وكُلُوا مما رزَقَكُم الله حلالاً طيباً﴾، أي: في حال كَوْنِه حَلالاً طَيِّباً، ﴿واتقوا الله﴾، أي: في جميع أموركم، واتَّبعوا طاعتَه ورِضْوانَه، واترُكوا مخالفته وعِصْيانَه، ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا

(١) في تفسير الطبري ٩/٧: «ما حقناه»، ومثله في أصلنا. وما أثبتناه عن تفسير الطبري تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، ووَجْه المثبت بقوله: وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ خَوَّفهم عقاب الله، فقالوا: لم نبلغ من الخوف مبلغاً يرضاه ربُّنا إن لم نعمل عملاً يدل على شدَّة المخافة.

(٢) هو دَسَمُ اللحم ودهنه.

(٣) تفسير الطبري ٧/٩ ـ ١٠.

حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قد تقدم في سورة البقرة[1] الكلام على لغو اليمين، وأنه قولُ الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله، وهذا مذهب الشافعي. وقيل: هو في الهزل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن، وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. وقيل: هو الحَلِفُ على تَرْكِ المآكلِ والمشرَبِ والمَلْبَسِ ونحو ذلك، واستدلُّوا بقوله: ﴿لا تُحَرِّموا طَيِّبات ما أَحَلَّ الله لكم﴾.

والصحيحُ أنه اليمين من غير قصد، بدليل قوله: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدتُم الأيمان﴾ أي: بما صَمَّمْتُم عليه من الأيمان وقصدتموها، ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين﴾، يعني: محاويج من الفقراء، ومن لا يَجِدُ ما يكفيه.

وقولُه: ﴿من أوسط ما تُطْعِمُون أهليكم﴾، قال ابن عباس: وسعيد بن جُبَيْر، وعكرمة: أي من أعدَلِ ما تطعمون أهليكم.

وقال عطاء الخراساني: من أمثل ما تطعمون أهليكم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن أبي إسحاقَ السَّبِيعيِّ، عن الحارث، عن علي قال: خُبْزٌ ولَبَنٌ، خُبْزٌ وسَمْنٌ.

وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن سليمان ـ يعني ابن أبي المغيرة ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان الرجل يقوتُ أهله قُوتَ دونٍ وبعضُهم قوتاً فيه سَعَة، فقال الله تعالى: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾، أي: من الخبز والزيت.

وحدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا وكيع، عن إسرائيلَ، عن جابر، عن عامر، عن ابن عباس: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾، قال: من عُسْرِهم ويُسْرِهم.

وحدثنا عبدُ الرحمن بن خَلَفٍ الحِمْصِيُّ، حدثنا محمد بن شُعَيب ـ يعني ابن شابور ـ حدثنا شيبان بن عبد الرحمن التميمي، عن ليث بن أبي سليم، عن عاصم الأحول، عن رجل يقال له: عبد الرحمن، عن ابن عمر أنه قال: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال: الخبز واللحم، والخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والخل.

وحدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا أبو معاوية، عن عاصم، عن ابن سيرين، عن ابن عُمَر في قوله: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال: الخبز والسمن، والخبز والزيت، والخبز والتمر، ومن أفضل ما ما تطعمون أهليكم: الخبز واللحم.

ورواه ابن جَرير عن هَنَّاد وابن وكيع كلاهما عن أبي معاوية[2]. ثم روى ابن جرير عن عُبَيدة، والأسود، وشُرَيح القاضي، ومحمد بن سيرين. والحسن، والضحاك، وأبي رَزين: أنهم قالوا نحو ذلك وحكاه ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً.

واختار ابنُ جرير أن المراد بقوله: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾، أي: في القلَّة والكَثْرَة.

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٢٥ من سورة البقرة.
(٢) في تفسير الطبري ٧/١٧٦: أبو الأحوص، مكان أبي معاوية.

ثم اختلف العلماء في مقدار ما يُطْعِمهم، فقال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن حُصَين الحارثي، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي في قوله: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾، قال: يُغَدِّيهم ويُعَشِّيهم.

وقال الحسن ومحمد بن سيرين: يَكفيه أن يُطْعِمَ عشرةَ مساكين أكلةً واحدةً خبزاً ولحماً، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخلاً حتى يَشْبَعُوا.

وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة نِصْفَ صاع من بُرّ أو تمر ونحوهما. هذا قول عُمَر، وعلي، وعائشة، ومجاهد، والشعبي، وسعيد بن جُبَير، وإبراهيم النخَعِيِّ، وميمونِ بن مِهْرَانَ، وأبي مالك، والضحاك، والحاكم، ومكحول، وأبي قِلَابَةَ، ومقاتل بن حَيَّان.

وقال أبو حَنِيفَة: نِصفُ صاعٍ بُرٍّ، وصاعٍ مما عداه.

وقد قال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الثَّقَفِيُّ، حدثنا عُبَيد بن الحسن بن يوسف، حدثنا محمد بن معاوية، حدثنا زياد بن عبد الله بن الطفيل بن سَخْبَرة ابن أخي عائشة لأمّه، حدثنا عمر بن يعلي، عن المنهال بن عمرو، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كَفَّر رسولُ الله ـ ﷺ ـ بصاعٍ من تَمْرٍ، وأمر الناس به، ومن لم يجد فنصفُ صاعٍ من بُرٍّ.

ورواه ابنُ ماجه، عن العباس بن يزيدَ، عن زياد بن عبد الله البَكَّائِيِّ، عن عُمَرَ بن عبد الله بن يَعْلَى الثقفي، عن المنهال بن عمرو، به[1].

لا يصح هذا الحديث لحال عُمَر بن عبد الله هذا، فإنه مُجمَعٌ على ضعفه، وذكروا أنه كان يشرَبُ الخَمْرَ. وقال الدارقطني: متروك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس، عن داودَ ـ يعني ابن أبي هِنْدٍ ـ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: مُدٌّ من بُرّ ـ يعني لِكلّ مسكينٍ ـ ومعه إدامُه.

ثم قال: ورُوِي عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيَّب، ومجاهد، وعطاء، وعكرمةَ، وأبي الشعثاء، والقاسم، وسالم، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، وسُلَيمان بن يَسَار، والحسن، ومحمد بن سيرين، والزهري، نحوُ ذلك.

وقال الشافعي: الواجب في كفارة اليمين مُدٌّ بِمُدِّ النبي ـ ﷺ ـ لكل مسكين[2]. ولم يَتَعَرَّضْ للأُدْمِ. واحتجَّ بأمر النبي ـ ﷺ ـ للذي جامَعَ في رمضانَ بأنْ يُطعِمَ ستين مسكيناً من مِكْتَلٍ يَسَعُ خمسةَ عَشَرَ صاعاً لِكُلِّ واحدٍ منهم مُدٌّ[3].

وقد ورَدَ حديثٌ آخَرُ صريحٌ في ذلك، فقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن علي بن الحسن المقري، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا قُتَيبة بن سعيد، حدثنا النضر بن زُرارة الكوفي، عن عبد الله بن عُمَر العُمَري، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقيم كفارة اليمين مُدًّا من حنطة بالمد الأول.

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الكفارات ٦٨٢.

(٢) الأم للشافعي ٧/٥٨.

(٣) الأم ٢/٨٤، ٧/٥٨.

والمِكْتَل: زنبيل يعمل من الخوص.

إسناده ضعيف، لحال النضر بن زرارة بن عبد الأكرم الذُّهلي الكوفي نزيل بَلْخٍ، قال فيه أبو حاتم الرازي: «هو مجهول». مع أنه قد روى عنه غير واحد، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: روى عنه قُتيبة بن سعيد أشياء مستقيمةً، فالله أعلم. ثم إن شيخه العمري ضعيف أيضاً.

وقال أحمدُ بن حَنْبَلٍ: الواجبُ مدٌّ من بُرٍّ، أو مُدَّانِ من غَيْرِه. والله أعلم.

وقولُه: ﴿أو كسوتهم﴾، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يَصْدُقُ عليه اسمُ الكُسْوَةِ من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنَعَة أجزأه ذلك[1]. واختلف أصحابُه في القَلَنْسُوَة: هل تجزئ أم لا؟ على وجهين، فمنهم من ذهب إلى الجَوَازِ، احتجاجاً بما رواه ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد الأشج وعمار بن خالد الواسطي قالا: حدثنا القاسم بن مالك، عن محمد بن الزبير، عن أبيه قال: سألت عمران بن حُصَين عن قوله: ﴿أو كسوتهم﴾، قال: «لو أن وَفْداً قَدِموا على أميركم وكَسَاهم قلنسوةً قلنسوةً، قلتم: قد كُسُوا».

ولكن هذا إسناد ضعيف لحال محمد بن الزبير هذا، والله أعلم. وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الإسفرايني في الخُفِّ وجهين أيضاً، والصحيح عدمُ الإجزاءِ.

وقال مالك وأحمدُ بن حَنْبَلٍ: لا بدَّ أن يدفعَ إلى كُلِّ واحدٍ منهم من الكسوة ما يصحُّ أن يصلّي فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كلٌّ بحسبه. والله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس: عَبَاءَةٌ لكلِّ مسكينٍ أو شَمْلَةٌ.

وقال مجاهد: أدناه ثوب، وأعلاه ما شئت.

وقال ليث، عن مجاهد: يجزىء في كفارة اليمين كل شيء إلا التُّبَّان[2].

وقال الحسن، وأبو جعفر الباقر، وعطاء، وطاوس، وإبراهيم النخعي، وحماد بن أبي سليمان، وأبو مالك: ثوب، ثوب.

وعن إبراهيمَ النَّخَعِيِّ أيضاً: ثوب جامع كالمِلْحَفَةِ والرِّداءِ. ولا يَرَى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعاً.

وقال الأنصاري، عن أشعث، عن ابن سِيرينَ والحَسَن: ثوبان[3].

وقال الثوري، عن داودَ بن أبي هندٍ، عن سعيد بن المسيب: عمامةٌ يَلُفُّ بها رأسه، وعباءَةٌ يلتحِفُ بها.

وقال ابن جَرير: حدثنا هناد، حدثنا ابن المبارك، عن عاصم الأحول، عن ابن سِيرينَ، عن أبي موسى: أنه حلف على يمين، فكسا ثوبين من مُعَقَّدة البحرين[4].

وقال ابن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن المُعَلَّى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا

---

(١) الأم ٧/٥٩. والمقنعةُ: ما تُقَنَّع به المرأة رأسها.

(٢) التُّبَّان: سراويل صغيرة مقدارُ شبرٍ، لستر العورة المغلظة فقط تكون للملاحين.

(٣) تفسير الطبري ٧/٢٤. والأنصاري هو: محمد بن عبدالله الأنصاري.

(٤) تفسير الطبري ٧/٢٥. والمُعَقَّدةُ: ضربٌ من بُرُودِ هَجَر.

إسماعيلَ بن عَيَّاشٍ، عن مقاتل بن سليمان، عن أبي عثمان، عن أبي عياض، عن عائشة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿أو كسوتهم﴾، قال: «عباءةٌ لكلِّ مسكينٍ». حديث غريب.

وقولُه: ﴿أو تحريرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها. فقال: تُجزِىءُ الكافِرةُ كما تُجزىءُ المؤمنةُ. وقال الشافعي وآخرون: لا بدَّ أن تكون مؤمنة. وأخذَ تقييدها بالإيمان من كَفَّارة القتل، لاتّحاد الموجب وإن اختلف السبب، ولحديث معاوية بن الحكم السَّلَمي، الذي هو في موطأ مالك ومسنَد الشافعيِّ وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عِتْقَ رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «أين الله؟ قالت: في السماء. قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتِقْها فإنها مؤمنة». الحديث بطوله[١].

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيّها فَعَل الحانثُ أجزأ عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسرُ من الكُسْوةِ، كما أنَّ الكُسْوَةَ أيسرُ من العتق، فَرُقِيَ فيها من الأَدْنَى إلى الأَعْلَى. فإن لم يقدر المكلف على واحدةٍ من هذه الخصالِ الثلاثِ كَفَّر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فمن لم يجد فَصِيامُ ثَلاثَة أَيَّامٍ﴾.

وروى ابنُ جَرير، عن سعيد بن جُبَير والحسن البصريِّ أنهما قالا: من وَجَد ثلاثة دراهِمَ لَزِمَه الإطعام وإلا صام[٢].

وقال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري مُتَفَقِّهَةِ زمانه أنه قال: «جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه [[٣]ما يُكَفِّر به بالإطعام، أن يصومَ إلا أن يكونَ له كفايةٌ من المال ما يتصرَّفُ به لمعاشه[٣]] ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه.

ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يُخرِجُ به كَفَّارَةَ اليمين.

واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يُستَحبُّ ولا يَجِبُ ويجزىء التفريق؟ على قولين: أحدهما أنه لا يجب التتابع، هذا منصوصُ الشافعي في كتاب «الإيمان»[٤]، وهو قول مالك، لإطلاق قوله: ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ وهو صادقٌ على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان، لقوله: ﴿فعدة من أيام أخر﴾.

ونصَّ الشافعي في موضع آخر في «الأمِّ» على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة، لأنه قد روى عن أُبَيِّ بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرءُونها: ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾.

قال أبو جعفرٍ الرازيُّ، عن الربيع، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كعب أنه كانَ يقرؤها: ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾[٥].

وحكاه مجاهد، والشعبي، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود[٥].

وقال إبراهيم: في قراءة عبد الله بن مسعود: ﴿فصيامُ ثلاثة أيام متتابعات﴾[٥].

(١) الموطأ، كتاب العتق ٧٧٦ ـ ٧٧٧، والرسالة للشافعي ٧٥، ومسلم، كتاب المساجد ٣٨١.
(٢) تفسير الطبري ٧/٢٩.
(٣-٣) عن تفسير الطبري ٧/٢٩.
(٤) انظر الأم للشافعي ٧/٦٠.
(٥) تفسير الطبري ٧/٣٠.

وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك.

وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خَبر واحدٍ، أو تفسيراً من الصحابي، وهو في حكم المرفوع.

وقال أبو بكر بن مَردُويه: حدثنا محمد بن علي، حدثنا محمد بن جعفر الأشعري، حدثنا الهيثم بن خالد القرشي، حدثنا يزيد بن قيس، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن عباس قال: «لما نزلت آية الكفارات قال حُذَيفة: يا رسولَ الله، نحنُ بالخيارِ؟ قال: «أنتَ بالخيارِ، إن شئت أعتقت، وإن شئت كَسَوْت، وإن شئت أطعمت، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات».

وهذا حديث غريب جداً.

وقوله: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم﴾، قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير. ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾، أي: يوضحها ويَنْشُرها ﴿لعلكم تشكرون﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب أنه قال: الشِّطْرَنج من الميسر. رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عُبَيس بن مرحوم، عن حاتم، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي، به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمَسِيُّ، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن ليث، عن عطاءٍ ومجاهدٍ وطاوسَ ـ قال سفيانُ: أو اثنين منهم ـ قالوا: «كُلُّ شيءٍ من القِمَارِ فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجَوْز».

ورُوِي عن راشد بن سعد وحمزة بن حبيب مِثْلُه، وقالا حتى الكِعَاب[1]، والجوز، والبيض التي يلعبُ بها الصبيان.

وقال موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: الميسر هو القمار.

وقال الضحاك، عن ابن عباس قال: الميسر هو القمار، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاقِ القَبيحةِ.

وقال مالك، عن داود بن الحُصَين، أنه سَمع سَعيد بن المسيب يقول: كان مَيسرُ أهل الجاهلية بيعَ اللحم بالشاة والشاتين.

---

(١) الكِعابُ: جمع كَعْب، وهو: فصُّ النَّرْدِ. والنَّرْدُ: لعبة ذات صندوق وحجارة وفَصَّين، تعتمد على الحظّ، وتُنقَل فيها الحجارة على حسب ما يأتي به الفَصُّ [الزهر]، وتعرف عند العامة بالطاولة.

وقال الزهري، عن الأعرج قال: الميسرُ الضرب بالقداح على الأموال والثمار.

وقال القاسم بن محمد: كُلُّ ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسرُ.

رواهُنَّ ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرَّمادي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيدَ، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي - ﷺ - قال: «اجتنبوا هـذه الكِعَابَ الموسومةَ التي يُزجَرُ بها زَجْراً فإنها من الميسر». حديث غريب.

وكأن المرادَ بهذا هو النَّرْدُ الذي ورد في الحديث به في صحيح مسلم، عن بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من لعب بالنَّردشير فكأنما صَبَغ يده في لحم خنزير ودمِهِ»(١).

وفي موطأ مالك ومسند أحمد، وسنن أبي داود وابن ماجه، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من لعب بالنَّرْدِ فقد عَصَى الله ورسولَه»(٢). وروي موقوفاً عن أبي موسى من قوله، فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا مَكِّي بن إبراهيم، حدثنا الجُعَيد، عن موسى بن عبد الرحمن الخَطْمِيِّ، أنه سَمِع محمد بن كعب وهو يسألُ عبدَ الرحمنِ يقولُ: أخبِرْني، ما سَمِعت أباك يقولُ عن رسولِ الله ﷺ؟ فقال عبدُ الرحمن: سَمِعتُ أبي يقولُ: سَمِعْتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «مثل الذي يَلْعَبُ بالنَّرْدِ، ثم يقوم فيصلِّي، مثل الذي يتوضَّأُ بالقَيْحِ ودَمِ الخنزير ثم يقومُ فيصلي»(٣).

وأما الشِّطْرَنجُ فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شَرٌّ من النَّرْدِ، وتقدم عن عليٍّ أنه قال: هو من الميسر. ونَصَّ على تحريمه مالك، وأبو حنيفةَ، وأحمدُ، وكَرِهَه الشافعي رحمهم الله تعالى.

وأما الأنصاب فقال ابن عباس: ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبَحُون قرابينهم عندها.

وأما الأزلامُ فقالوا أيضاً: هي قِداحٌ كانوا يستقسمون بها.

وقوله: ﴿رجس من عمل الشيطان﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي سَخَطٌ من عَمَل الشيطان.

وقال سعيد بن جُبَير: إثمٌ. وقال زيد بن أسلم: أيْ شرٌّ من عمل الشيطان.

﴿فاجتنبوه﴾، الضمير عائد على الرجس، أي: اتركوه ﴿لعلكم تفلحون﴾. وهذا ترغيب.

ثم قال تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون﴾ وهذا تهديدٌ وترهيبٌ.

---

(١) مسلم، كتاب الشعر ١٧٧٠.

(٢) الموطأ، كتاب الرؤيا ٢/٩٥٨، ومسند أحمد ٤/٣٩٤، ٣٩٧، ٤٠٠، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٨٥، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٣٧ - ١٢٣٨.

(٣) مسند أحمد ٥/٣٧٠.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر:

قال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيجٌ، حدثنا أبو مَعْشر، عن أبي وَهْبٍ مولى أبي هُرَيرة، عن أبي هُرَيرة قال: حُرِّمت الخمرُ ثلاثَ مرَّاتٍ، قَدِم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينةَ، وهم يشربونَ الخمرَ ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ـ ﷺ ـ عنهما، فأنزل الله: ﴿يسألونَكَ عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس﴾. . . إلى آخر الآية. فقال الناس: ما حَرَّم علينا، إنما قال: ﴿فيهما إثم كبير﴾. وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم من الأيام صَلَّى رجل من المهاجرين، أمّ أصحابه في المغرب، خَلَط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾. وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدُهم الصلاة وهو مفيق[١]. ثم أنزلَت آيةٌ أغلظُ من ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخَمْرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عَمَل الشيطان فاجتَنِبُوه لعلكم تفلحون﴾، قالوا: انتهينا رَبَّنا. وقال الناس: يا رسولَ الله، ناسٌ قُتِلوا في سبيل الله، وماتوا على سَرَفِهم[٢]، كانوا يشربون الخَمْر ويأكلون الميسر، وقد جَعَله الله رِجْساً من عَمَل الشيطان؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طَعِمُوا﴾. . . إلى آخر الآية، وقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «لو حُرِّم عليهم لتركوه كما تركتم».
انفرد به أحمد[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا خَلَفُ بن الوليد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاقَ، عن أبي مَيْسَرَةَ، عن عمر بن الخطاب أنه قال: «لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بَيِّنْ لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآيةُ التي في البقرة: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ﴾، فَدُعِيَ عُمَرُ فقرئت عليه، فقال: اللهمَّ بَيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآيةُ التي في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربُوا الصلاة وأنتم سكارى﴾، فكان منادِي رسولِ الله ـ ﷺ ـ إذا أقام الصلاة نادى: لا يقربَنَّ الصلاة سكرانٌ. فَدُعي عمر فَقُرِئَتْ عليه، فقال: اللهم بَيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآيةُ التي في المائدة، فَدُعِي عُمَر فقرئت عليه فلما بلغ: ﴿فهل أنتم منهون﴾ قال عمر: انتهينا، انتهينا»[٤].

وهكذا رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من طُرُقٍ، عن إسرائيلَ، عن أبي إسحاق عَمْرو بن عبد الله السَّبيعي، عن أبي مَيْسَرَة ـ واسمه عَمْرو بن شُرَحبيل الهَمْدَاني ـ عن عُمَر، به. وليس له عنه سواه، قال أبو زُرعَةَ: ولم يسمع منه. وصَحَّحَ هذا الحديث عليُّ بن المديني والترمذيُّ[٤].

وقد ثبت في الصحيحين عن عُمَر بن الخطاب أنه قال في خطبته على مِنْبَر رسول الله ـ ﷺ ـ: «أيها الناس، إنه نزل تحريمُ الخَمْرِ وهي من خمسة: من العِنَب، والتَمر، والعَسَل، والحِنْطةِ، والشعير. والخمرُ ما خامر العقل»[٥].

وقال البخاريُّ: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عبدُ العزيز بن عُمَر بن

(١) أفاق السكران من سكره: عاد إلى طبيعته.
(٢) في المسند: على فُرُشهم.
(٣) مسند أحمد ٢/٣٥١ ـ ٣٥٢.
(٤) مسند أحمد ١/٥٣، وسنن أبي داود، كتاب الأشربة ٣/٣٢٥، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١١/١٧٧ ـ ١٧٨، والنسائي، كتاب الأشربة ٨/٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٥) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٨/٢٧٧، ومسلم، كتاب التفسير ٢٣٢٢.

عبد العزيز، حدثني نافع، عن ابن عمر قال: «نزل تحريمُ الخَمْرِ وإن بالمدينةِ يومئذ لخمسةَ أشرِبَةٍ ما فيها شراب العنب»[١].

حديث آخر، قال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن أبي حُمَيد، عن المصري[٢] ـ يعني أبا طُعْمَة قارئ مصر ـ قال: سَمِعت ابنَ عُمَر يقول: نَزَلت في الخَمْرِ ثلاثُ آيات، فأوّلُ شيء نزل: ﴿يسألونك عن الخَمْر والمَيْسِر﴾ . . . الآية، فقيل: حَرُمَتِ الخمرُ. فقالوا: يا رسولَ الله، نَنْتَفِعُ بها كما قال الله تعالى. قال: فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾. فقيل: حَرُمَت الخَمْرُ، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قرب الصلاة. فَسكت عنهم، ثم نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: حَرُمَتِ الخَمْرُ»[٣].

حديثٌ آخر، قال الإمام أحمدُ: حدثنا يَعْلَى، حدثنا محمد بن إسحاقَ، عن القعقاع بن حَكِيم: أن عبد الرحمن بنَ وَعْلَة قال: «سألتُ ابن عَبَّاسٍ عن بيع الخَمْرِ، فقال: كان لرسولِ الله ـ ﷺ ـ صديقٌ من ثَقِيفٍ ـ أو: من دَوْسٍ ـ فَلَقِيه[٤] يوم الفتح براويةِ خمر يهديها إليه، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا فلان، أما عَلِمتَ أنّ الله حَرَّمها؟ فأقبل الرجلُ على غلامه فقال: اذهَبْ فَبِعْها. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا فلانُ، بماذا أمرتَه؟ فقال: أمرتُه أن يَبِيعَها. قال: إن الذي حَرَّم شُرْبها حَرَّم بيعها. فأمر بها فأفرغت في البطحاء»[٥].

رواه مُسْلِمٌ من طريق ابن وَهْبٍ، عن مالك، عن زَيدِ بن أَسْلَمَ. ومن طريق ابن وَهْبٍ أيضاً، عن سُلَيمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد، كلاهما عن عبد الرحمن بن وَعْلَة، عن ابن عباس، به. ورواه النسائي، عن قُتَيبَةَ، عن مالكٍ، به[٥].

حديث آخر، قال الحافظ أبو يعلى المَوْصِلي: حدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّميُّ، حدثنا أبو بكر الحَنَفِيُّ، حدثنا عبد الحميد بن جَعْفَرٍ، عن شَهْر بن حَوْشَبٍ، عن تميم الداري: «أنه كان يُهدِي لرسول الله ـ ﷺ ـ راويةَ من خَمْرٍ، فلما أنزلَ الله تحريمَ الخَمْرِ جاء بها، فلما رآها رسولُ الله ـ ﷺ ـ ضَحِكَ وقال: إنها قد حُرِّمت بعدك. قال: يا رسول الله، فأبيعُها وأنتفعُ بثمنها؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لعن الله اليهودَ، حَرَّمَ عليهم شحومَ البقر والغنم، فأذابوه، وباعُوه، والله حَرَّم الخمر وثمنها».

وقد رواه أيضاً الإمامُ أحمدُ فقال: حدثنا رَوحٌ، حدثنا عبد الحميد بن بهرام قال: سمعت شَهْرُ بن حَوْشَبٍ قال: حدثني عبد الرحمن بن غَنْم: أن الداريَّ كان يُهدِي لرسول الله ـ ﷺ ـ كُلَّ عامٍ راويةً من خَمْرٍ، فلما كان عامَ حُرِّمت جاء براويةٍ، فلما نَظَر إليه ضَحِك فقال: أشعَرْتَ أنها قد حُرِّمت بعدك؟ فقال: يا رسولَ الله، ألا أبيعها وأنتفعُ بثمنها؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لَعَنَ الله اليهودَ، انطلقُوا إلى ما حُرِّم عليهم من شَحْم البقر والغنم فأذابوه[٦]، فباعوا به ما يأكلون. وإنّ الخمر حَرامٌ وثمنها حرامٌ، وإنَّ الخَمْرَ حرامٌ وثمنُها حرامٌ، وإن الخمرَ حرامٌ وثمنُها حرام»[٧].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في مسند أبي داود: عن أبي توبة المصري وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٩٨/٩، والمقتنى للذهبي ٣٢٨.

(٣) مسند أبي داود ٢٦٤.

(٤) في المسند: فلقيه بمكة عام. . .

(٥) مسند أحمد ٢٣٠/١، ومسلم، كتاب المساقاة ١٢٠٦، والنسائي، كتاب البيوع ٣٠٧/٧ ـ ٣٠٨.

(٦) بعده في المسند: فجعلوه ثمناً له.

(٧) مسند أحمد ٢٢٧/٤.

حديثٌ آخرُ، قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهيعَةَ، عن سُليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كيسانَ أن أباه أخبَرَه: أنه كان يَتَّجر في الخمر في زَمَن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خَمْرٌ في الزِّقاق، يريد بها التجارة، فأتى بها رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إني جئتُك بشرابٍ طَيِّب. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يا كيسانُ، إنها قد حُرِّمت بعدك. قال: فأبيعها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنها قد حُرِّمت وحُرِّم ثَمَنُها. فانطلق كيسان إلى الزِّقاق، فأخذ بأرجُلِها ثم هَرَاقها»[١].

حديثُ آخر، قال الإمام أحمدُ: حدثنا يحيى بن سعيد، عن حُمَيد، عن أَنَس قال: «كنت أسقِي أبا عُبَيدة بن الجَرَّاح، وأُبَيَّ بن كعب، وسُهَيل بن بيضاءَ، ونفراً من أصحابه عند أبي طلْحةَ، وأنا أسقيهم حتى كاد الشرابُ يأخذُ منهم، فأتى آتٍ من المسلمين فقال: أما شَعَرتم أنَّ الخَمْر قد حُرِّمت؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس، أكفِ[٢] ما بَقِي في إنائِكَ، فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التَّمرُ والبُسْرُ، وهي خَمْرُهم يومَئذٍ»[٣].

أخرجاه في الصحيحين، من غير وجه، عن أنس[٣].

وفي رواية حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنتُ ساقِيَ القوم يوم حُرِّمَتِ الخَمْر في بيت أبي طَلْحَةَ، وما شرابُهم إلا الفَضِيخ[٤] البسرُ والتمرُ، فإذا منادٍ ينادِي، قال: اخرُجْ فانظُرْ. فإذا منادٍ يُنادِي: ألا إن الخَمْرَ قد حُرِّمَت، فَجرتْ في سِكَكِ المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فَأَهْرِقها. فَهَرَقْتُها، فقالوا ـ أو: قال بعضُهم ـ: قُتِلَ فلانٌ وفلانٌ وهي في بطونهم. قال: فأنزل الله: ﴿ليس علَى الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾[٣]. . . الآية.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا مُحمَّد بنِ بشار، حَدَّثني عبد الكبير بن عبد المجيد، حدثنا عَبَاد بن رَاشد، عن قتادَةَ، عن أَنَس بن مالكٍ قال: بينا أنا أُديرُ الكَأْسَ على أبي طلحة، وأبي عُبَيدَةَ بن الجَرَّاح، ومعاذِ بن جَبَل، وسُهَيل بن بيضاءَ، وأبي دُجَانة، حتى مالت رؤوسهم من خَليط بُسْرٍ وتمر. فَسَمِعتُ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قَد حُرِّمت: قال: فما دخل علينا داخلٌ ولا خرج منا خارجٌ، حتى أهرقنا الشراب، وكَسَرنا القِلال[٥]، وتوضأ بعضُنا، واغتسل بعضُنا، وأصبنا من طِيْبِ أم سليم، ثم خَرَجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾. فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، فما مَنْزلة من مات وهو يشربُها؟ فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طَعِموا﴾. . . الآيةَ، فقال رجلٌ لقتادةَ: سَمِعتَه من أنس بن مالك؟ قال: نعم. وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سَمِعتَه من رسولِ الله ﷺ؟ قال: نعم، أو: حَدَّثني من لم يكذِب، ما كنا نكذب، ولا ندري ما الكذبُ[٦].

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاقَ، أخبرني يحيى بن أَيُّوبَ، عن عُبيد الله بن

---

(١) مسند أحمد ٤/٣٣٥ـ ٣٣٦.

(٢) في نسخة: اسكب.

(٣) مسند أحمد ٣/١٨١ ـ ١٨٢، وفتح الباري، كتاب الأشربة ٩/٣٦ ـ ٣٧، ومسلم، كتاب الأشربة ١٥٧٠ ـ ١٥٧١.

(٤) الفضيخ: أن يُشْدَخَ البُسْرُ، ويُصَبَّ عليه الماءُ حتى يَغْلي.

(٥) القِلال: جمع قُلَّةٍ، وهي الجرار الكبيرة.

(٦) تفسير الطبري ٧/٣٧.

زَحْر، عن بكر بن سَوَادة، عن قيسِ بن سَعد بن عُبادة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن ربي تبارك وتعالى حَرَّم عَلَيَّ الخمر، والكُوبة[١]، والقِنِّينَ. وإياكم والغُبيراء فإنها ثُلُث خَمْرِ العالم»[٢].

حديثٌ آخَرٌ، قال الإمام أحمدُ: حدثنا يزيدُ، حَدَّثنا فَرَج بن فضالة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله حَرَّم على أُمَّتِي الخَمْر، والمَيسر، والمِزْر[٣]، والكُوبَة، والقِنِّين. وزادني صلاة الوتر. قال يزيد: القِنِّينُ البرابطُ». تَفَرَّد به أحمدُ[٤].

وقال أحمد أيضاً: حَدَّثنا أبو عاصم، وهو النَّبيلُ، أخبرنا عبدُ الحميدِ بن جعفر، حدثنا يزيدُ بن أبي حَبيب، عن عَمْرو بن الوليد، عن عبد الله بن عَمْرو: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قال عَلَيَّ ما لم أقل فَلْيَتبوَّأ مقعَدَه من جهنم». قال: وسَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنَّ الله حرم الخَمْر والميسر والكُوبة والغُبَيراءَ، وكلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». تفرد به أحمد أيضاً[٥].

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيعٌ، حَدَّثنا عبد العزيز بن عُمَر بن عبد العزيز، عن أبي طُعْمَة ـ مولاهم ـ وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سَمِعا ابن عُمَر يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لُعِنت الخمرُ على عَشَرَة وُجُوه: لُعِنت الخمرُ بعينها، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصِرِها، ومُعْتَصِرِها، وحاملها، والمحمولَةِ إليه، وآكِلِ ثمنها»[٦].

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث وكيع، به[٦].

وقال أحمد: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا أبو طُعْمَة[٧]، سَمِعتُ ابنَ عُمَرَ يقول: خَرَج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المِرْبَد، فخرجتُ معه فكنتُ عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخَّرْتُ عنه[٨]، فكان عن يمينه وكنتُ عن يساره. ثم أقبل عُمَر فتنحَّيتُ له، فكان عن يساره. فأتى رسولُ الله ـ ﷺ ـ المِرْبَدَ، فإذا بزقاق[٩] المِرْبَدِ فيها خَمْرٌ، قال ابن عمر: فدعاني رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالمُدْية[١٠] ـ قال ابن عمر: وما عُرِفت المُدْيَةُ إلا يومئذ ـ فأمَر بالزِّقاق فَشُقَّت، ثم قال: «لُعِنَت الخمرُ، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وعاصِرُها، ومُعْتَصِرُها، وآكلُ ثَمَنِها»[١١].

وقال أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مَرْيَم، عن ضَمْرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عُمَر: أمرني رسول الله ـ ﷺ ـ أن آتيه بِمُدْيَة، وهي الشَّفْرَة، فأتيته بها، فجرسل بها فَأُرْهِفَت[١٢] ثم

---

(١) الكُوبَةُ: النَّردُ، والطبلَ: آلة موسيقية تشبه العود. والقِنِّينُ: لعبة للروم يقامرون بها، ويقال: هو الطنبور بالحبشية، والتَّقنين: الضَربُ بها. والغُبَيراء: نوعٌ من الشراب يتخذه الحبشُ من الذُّرَةِ، وهي تُسكر.

(٢) مسند أحمد ٤٢٢/٣.

(٣) المِزْرُ: نبيذُ الذُّرَة خاصَّةً. والبَرْبَطُ: العودُ، من آلات الموسيقى.

(٤) مسند أحمد ١٦٥/٢.

(٥) مسند أحمد ١٧١/٢.

(٦) مسند أحمد ٢٥/٢، وسنن أبي داود، كتاب الأشربة ٣٣٦/٣، وابن ماجه، كتاب الأشربة ١١٢١. وفي سنن أبي داود مكان أبي طعمة: أبي علقمة. وهو تحريف، وقد سبق التنبيه عليه، وانظر الحديث التالي.

(٧) في المسند بعده: «قال ابن لَهِيعَة: لا اعرف أَيْش اسمُه»، يريد اسم أبي طعمة.

(٨) في المسند: فتأخرْتُ له.

(٩) في المُسْنَد: بأزقاقٍ. وكلاهما جمع زِقٍّ، وهو: وعاءٌ من جِلْدٍ يُجزُّ شعره ولا يُنْتَفُ، للشراب وغيره.

(١٠) أي: طلب منه رسول الله ـ ﷺ ـ أن يُحضِر المُدْيَة، وهي السِّكين والشفرة.

(١١) مسند أحمد ٧١/٢.

(١٢) أي: رُقِّقت وحُدِّدَتْ.

أعطانيها وقال: «اغدُ عَلَيَّ بها». ففعلتُ، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق الخَمْر قد جُلبت من الشام، فأخذ المُدْيَةَ مني فَشَقَّ ما كان من تلك الزِّقاق بحضرته، ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يَمْضوا معي وأن يُعاونوني، وأمرني أن آتي الأسواق كُلَّها فلا أجِدُ فيها زِقَّ خَمْرٍ إلا شققته، ففعلتُ فلم أتركْ في أسواقِها زِقًّا إلا شَقَقْتُه»[١].

حديثٌ آخَرُ، قال عبد الله بن وَهْبٍ: أخبرني عبد الرحمن بن شريح وابن لَهِيعة والليثُ بن سعد، عن خالد بن يَزيد، عن ثابتِ بن يزيدَ الخَوْلانيِّ أخبرَه: أنه كان له عَمٌّ يبيع الخمر، وكان يتصدَّقُ، فنهيتُه عنها فلم يَنْتَهِ، فَقَدِمْتُ المدينة فَلَقِيتُ ابن عباس، فسألتُه عن الخمر وثَمَنها، فقال: هي حَرامٌ وثمنُها حرامٌ. ثم قال ابن عباس رضي الله عنه: يا معشَرَ أُمَّةِ مُحمَّد، إنه لو كان كتابٌ بعد كتابكم، ونبيٌّ بعد نَبيِّكم، لأُنزِلَ فيكم كما أُنزل فيمن قبلكم، ولكن أُخِّر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة، وَلَعَمْري لهو أشدُّ عليكم. قال ثابت: فَلَقِيتُ عبد الله بن عُمَر فسألتُه عن ثمن الخمر، فقال: «سأخبرك عن الخمر، إني كنتُ عند رسول الله ـ ﷺ ـ في المسجد، فبينما هو مُحتبٍ حَلَّ[٢] حُبْوَته ثم قال: من كان عنده من هذه الخمر شيء فَلْيَأْتِنا بها. فجعلوا يأتونه، فيقول أحدهم: عندي راوية. ويقول الآخر: عندي زِقٌّ، أو: ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: اجمَعُوا ببقيعِ كذا وكذا ثم آذِنُوني. ففعلوا، ثم آذَنُوه، فقام وقمتُ معه، فمشيتُ عن يمينه وهو مُتَّكِىءٌ عَلَيَّ فلحقنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فأخَّرني رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَجَعَلَني عن شماله، وَجَعَل أبا بكر مكاني. ثم لحقنا عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأخَّرني وَجَعَله عن يساره، فَمَشى بينهما. حتى إذا وَقَف على الخَمْرِ قال للناس: أتعرفونَ هذه؟ قالوا: نَعَم، يا رسول الله، هذه الخمرُ. قال: صَدَقتم. قال: فإنَّ الله لَعَن الخَمْرَ وعاصِرَها ومُعتَصِرها، وشاربها وساقيها، وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها، وآكِلَ ثَمَنِها. ثم دعا بسكِّين فقال: اشحَذُوها. ففعلوا، ثم أخذَها رسولُ الله ـ ﷺ ـ يخرق بها الزِّقاق، قال: فقال الناسُ: في هذه الزِّقاق منفعَةٌ، قال: أجَلْ، ولكني إنما أفعلُ ذلك غضباً لله عز وجل، لما فيها من سَخَطِه. فقال عُمَر: أنا أكفيك يا رسولَ الله؟ قال: لا.

قال ابنُ وهب: «وبعضُهم يزيدُ على بَعْضٍ في قِصَّةِ الحديث». رواه البَيْهَقِيُّ[٣].

حديثٌ آخَرُ، قال الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ: أنبأنا أبو الحُسَين بن بشران، أنبأنا إسماعيلُ بن محمد الصفَّار، حدثنا محمد بن عُبَيد الله المنادي، حدثنا وَهب بن جَرير، حدثنا شُعبة، عن سِماكٍ، عن مصعَب ابن سعد، عن سعد قال: أنزلَت في الخَمرِ أربعُ آيات... فذكر الحديث قال: وَصَنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعانا فَشَرِبنا الخمر قبل أن تُحَرَّم حتى انتشَينا، فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضلُ. وقالت قريشٌ: نحن أفضلُ. فأخذ رجلٌ من الأنصار لَحْيَ[٤] جزور، فضرب به أنف سعد فَفَزره [٥ـوكان أنف سعد مفزوراً ـ٥] فنزلت آية الخمر: ﴿إنما الخمر والميسر﴾... إلى قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منهون﴾[٦].

أخرجه مسلم من حديث شُعبَة[٦].

---

(١) مسند أحمد ٢/١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) في الأصل: على حبوته. والمثبت عن البيهقي. والاحتباء: أن يَضُمَّ الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره.

(٣) سنن البيهقي، كتاب الأشربة ٨/٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٤) اللَّحيان: المظمان اللذان فيهما الأسنان. وفَزَره: شقه.

(٥) عن سنن البيهقي.

(٦) سنن البيهقي، كتاب الأشربة ٨/٢٨٥. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٨٧٨.

حديثٌ آخرُ، قال البيهقيُّ: وأخبرنا أبو نَصْر بن قتادة، أنبأنا أبو علي الرَّفّاء، حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حَجّاجُ بن مِنْهالٍ، حدثنا ربيعة بن كُلْثوم، حدثني أبي، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريمُ الخَمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شَربوا فلما أن ثَمِلَ القومُ عَبَث بعضهم ببعض، فلما أن صَحَوا جعل الرجلُ يرى الأثر بوجهِهِ ورأسِه ولحيته، فيقول: صَنَع بي هذا أخي فلانٌ، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، [(١)والله لو كانَ بي رءُوفاً رَحِيماً ما صنع هذا بي، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم-(١)] ﴿فأنزل الله هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلام رِجْسٌ من عَمَل الشيطان﴾. . . إلى قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾. فقال ناسٌ من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان، وقد قُتِل يوم أحد؟ فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طَعِموا﴾. . . إلى آخر الآية(٢).

ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعِقَةَ، عن الحَجّاج بن مِنْهالٍ.

حديثٌ آخر، قال ابن جَرير: حدثني مُحمَّد بن خَلَف، حدثنا سعيد بن محمد الجَرْمي، عن أبي تُمَيلَةَ، عن سَلام مولى حفص أبي القاسم، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه قال: بينا نحن قُعُودٌ على شراب لنا، ونحن على رَمْلَةٍ، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطِيَةٌ(٣) لنا، ونحن نشربُ الخَمْر حِلًّا، إذْ قمتُ حتى آتي رسولَ الله ـ ﷺ ـ فأسلِّم عليه، إذ نزل تحريمُ الخمر: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر﴾، إلى آخر الآيتين: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؟ فجئتُ إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؟ قال: وبعض القوم شَرْبَتُه في يَدِه، قد شَرب بعضها وبَقي بعضٌ في الإناء، فقال(٤) بالإناء تحت شفته العليا، كما يفعل الحَجّامُ، ثم صَبُّوا ما في باطِيَتهم فقالوا: انتهينا ربَّنا(٥).

حديث آخَرُ، قال البخاريّ: حدثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا ابن عُيَينة، عن عَمْرو، عن جابر قال: «صَبَّح ناسٌ غداةَ أُحُدٍ، فَقُتِلوا من يومِهِم جَميعاً شهداءَ، وذلك قبل تَحْريمها»(٦).

هكذا رواه البخاري في تَفْسيره من صحيحه، وقد رواه الحافظ أبو بكر البَزّار في مسنده: حدثنا أحمد ابن عبدة، حدثنا سفيان، عن عَمرو بن دينار، سَمع جابر بن عبد الله يقول: اصطبَحَ ناسٌ الخمر من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ثم قُتِلوا شهداء يوم أحد، فقالت اليهودُ: فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم. فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾، ثم قال: وهذا إسنادٌ صحيحٌ. وهو كما قال، ولكن في سياقَتِه غَرَابة.

حديث آخر، قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبةُ، عن أبي إسحاقَ، عن البَرَاء بن عازِبٍ قال: لما نَزَلَ تحريمُ الخَمْرِ قالوا: كيف بمن كان يَشْرَبُها قبل أن تُحَرَّم؟ فنزلت: ﴿ليس على الذين آمنوا وعَملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾. . . (٧) الآية.

ورواه الترمذي، عن بُنْدار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه، وقال: حَسَن صحيح(٧).

---

(١) عن سنن البيهقي.

(٢) سنن البيهقي ٨/٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٣) الباطية: إناء عظيم من الزجاج وغيره يُتّخذ للشراب.

(٤) أي: أماله ثم نزعه.

(٥) تفسير الطبري ٧/١٣٤.

(٦) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٨/٢٧٧.

(٧) مسند أبي داود ٩٧ ـ ٩٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١١/١٧٨.

حديث آخر، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا جعفر بن حُمَيد الكوفي، حدثنا يعقوب القُمّي، عن عيسى بن جَارِية، عن جابر بن عبد الله قال: «كان رجل يحمِلُ الخَمْر من خيبَر إلى المدينة فيبيعُها من المسلمين، فَحَمل منها بمال فَقَدِم بها[١] المدينة، فلقيه رجلٌ من المسلمين فقال: يا فلان، إنَّ الخمر قد حُرِّمت فَوَضَعها حيثُ انتهى على تَلٍّ، وسَجّى[٢] عليها بأكسية، ثم أتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، بلغني أنَّ الخمر قد حُرِّمت؟ قال: أجل. قال: لي أن أرُدَّها على مَن ابتعتُها منه؟ قال: لا يصلُحُ رَدُّها. قال: لي أن أُهديها إلى مَن يكافئني منها؟ قال: لا. قال: فإن فيها مالاً ليتامى في حِجْري؟ قال: إذا أتانا مال البحرين فأتنا نُعَوِّض أيتامك من مالهم. ثم نادى بالمدينة، فقال رجل: يا رسول الله، الأوعية ننتفع بها؟ قال: فَحُلّوا أوكيتها[٣]. فانصبَّت حتى استقرَّت في بطنِ الوادي[٤]. هذا حديثٌ غريبٌ.

حديثٌ آخر، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا سفيانُ، عن السدِّيِّ، عن أبي هُبَيرة ـ وهو يحيى ابن عَبَّاد الأنصاري ـ عن أنسِ بن مالكٍ: «أنَّ أبا طلحةَ سأل النبي ـ ﷺ ـ عن أيتام في حجره ورِثوا خمراً، فقال: أهرِقها. قال: أفلا نجعلُها خلاً؟ قال: لا»[٥].

ورواه مسلم، وأبو داودَ، والترمذيُّ، من حديثِ الثَّوريِّ، به نحوَه[٥].

حديث آخر، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة، حدثنا هلال بن أبي هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: «إن هذه الآية التي في القرآن. ﴿يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، لعلكم تفلحون﴾، قال: هي في التوراة: «إن الله أنزل الحق ليُذْهِب به الباطلَ، ويُبطِلَ به اللَّعِب، والمزامير، والزَّفْن[٦]، والكِبَارات ـ يعني البرابط ـ والزَّمَّارات ـ يعني به الدُّفَّ ـ والطنابير، والشعر، والخمر مُرَّةٌ لمن طعمها. أقسم الله بيمينه وعزة [حَيْله][٧] من شربها بعد ما حَرَّمتها لأُعطِشَنَّه يومَ القيامة، ومن تركها بعدما حَرَّمتها لأسقينَّه إياها في حظيرة القدس». وهذا إسناد صحيح.

حديث آخر، قال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث أن عَمْرو بن شُعَيب حَدَّثهم، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من ترَكَ الصلاة سَكِراً مَرَّةً واحدةً فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فَسُلِبَها. ومن ترك الصلاة سَكِراً أربع مرات، كان حقاً على الله أن يُسقِيَه من طينة الخبال. قيل: وما طينةُ الخبال؟ قال: عُصارة أهل جهنم»[٨].

ورواه أحمد، من طريق عَمْرو بن شُعَيبٍ[٨].

حديثٌ آخَرُ، قال أبو داودَ: حدثنا مُحمَّد بن رافع، حدثنا إبراهيم بن عُمَر الصنعاني قال: سمعت

---

(١) في مسند أبي يعلى: فقدم به.

(٢) أي: غطّاها.

(٣) الأوكية: جمع وِكاءٍ، وهو خيط يُشَدُّ به فم الوعاء.

(٤) مسند أبي يعلى ٣/٤٠٤.

(٥) مسند أحمد ٣/١١٩. ومسلم، كتاب الأشربة ١٥٧٣، وسنن أبي داود، كتاب الأشربة ٣/٣٢٦، وعارضة الأحوذي، أبواب البيوع ٥/٢٩٤.

(٦) الزَّفْن: الرقص. والكبارات: جَمْعُ كبارٍ، وهو جَمْعُ كَبَرٍ، وهو الطبل ذو الوجه الواحد. وقد تقدم من قريب تفسير البرابط.

(٧) عن الدرّ المنثور ٢/٣١٧، والحيل: القوة.

(٨) سنن البيهقي، كتاب الأشربة ٨/٢٨٧، ومسند أحمد ٢/١٧٨.

النعمان - هو ابن أبي شَيبة[١] الجَنَدِيِّ - يقول عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: «كل مُخَمّر خَمْرٌ، وكل مُسْكِرٍ حَرام. ومن شَرِبَ مُسكِراً بَخِست صلاتُه أربعينَ صباحاً، فإن تابَ تابَ الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طِينة الخِبال. قيل: وما طينةُ الخبالِ يا رسولَ الله؟ قال: صَدِيدُ أهل النار. ومن سقاه صغيراً لا يعرفُ حلالَه من حرامه، كان حقاً على الله أن يَسقيه من طِينةِ الخَبال» تفرد به أبو داود[٢].

حديث آخر، قال الشافعي - رحمه الله -: أنبأنا مالك، عن نافع، عن ابن عُمَر، أن رسول الله - ﷺ - قال: «من شَرِبَ الخَمْرَ في الدنيا، ثم لم يَتُب منها حُرِمها في الآخرة»[٣].

أخرجه البخاري ومسلم. من حديث مالك، به[٣].

وروى مسلم عن أبي الربيع، عن حمَّاد بن زيد، عن أيُّوبَ، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «كل مُسكر خَمْرٌ، وكلُّ مُسْكِرٍ حَرَام: ومن شَرِبَ الخَمْرَ فمات وهو يُدْمنها ولم يَتُب منها لم يشربها في الآخرة»[٤].

حديثُ آخَرُ، قال ابن وهب: أخبرني عُمَر بن محمد، عن عبد الله بن يَسَارٍ أنه سمع سالم بن عبد الله يقول: قال عبد الله بن عمر: قال رسول الله - ﷺ -: «ثلاثة لا ينظرُ الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمدمنُ الخمر، والمنَّان بما أعطى»[٥].

ورواه النسائي، عن عمرو بن علي، عن يَزِيد بن زُرَيع، عن عمر بن محمد العُمَريِّ، به[٥].

وروى أحمد، عن غُنْدَر، عن شُعْبَةَ، عن يزيدَ بن أبي زيادٍ، عن مجاهدٍ، عن أبي سَعِيدٍ، عن النبي - ﷺ - قال: «لا يدخلُ الجَنَّةَ مَنَّانٌ ولا عاقٌّ، ولا مُدمِنُ خمرٍ»[٦].

ورواه أحمد أيضاً، عن عبد الصمد، عن عبد العزيز بن مسلم، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، به[٧]. وعن مَرْوَانَ بن شُجَاعٍ، عن خُصَيفٍ، عن مجاهدٍ، به. ورواه النسائيُّ، عن القاسم بن زكريا، عن الحسين الجعفي، عن زائدة عن ابن أبي زياد، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد، كلاهما عن أبي سعيد، به.

حديثُ آخَرُ، قال أحمدُ: حدثنا عبد الرزَّاق، حدثنا سفيان، عن منصورٍ، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي - ﷺ - قال: «لا يدخل الجنةَ عاقٌّ، ولا مُدْمِن خَمْرٍ، ولا مَنَّانٌ، ولا ولد زِنْية»[٨].

وكذا رواه عن يزيد، عن هَمَّام، عن منصور، عن سالم، عن جابان، عن عبد الله بن عَمْرو، به[٨].

---

(١) في سنن أبي داود: سمعت النعمان [ابن بشير]. وقد وضع المحقق [ابن بشير] بين قوسين هكذا. وهو خطأ، انظر تهذيب الكمال، ترجمة: إبراهيم بن عُمَر اليماني، أبو إسحاق الجَنَدِيّ ٢/١٥٩. والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/٤٤٧ - ٤٤٨.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأشربة ٣/٣٢٧.

(٣) ترتيب مسند الشافعي ٢/٩٢، وأخرجاه في كتاب الأشربة، فتح الباري ١٠/ ٣٠، ومسلم ١٥٨٨.

(٤) مسلم، كتاب الأشربة ١٥٨٧.

(٥) أخرجه البيهقي في سننه، كتاب الأشربة ٨/٢٨٨، وسنن النسائي، كتاب الزكاة ٧/٨٠ - ٨١.

(٦) مسند أحمد ٣/٤٤.

(٧) مسند أحمد ٣/٢٨.

(٨) مسند أحمد ٢/١٦٤، ٢/٢٠٠، ٢/٢٠٣، وسنن النسائي، كتاب الأشربة ٨/٣١٨.

وقد رواه أيضاً عن غُنْدر وغيره، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن نُبَيط بن شُرَيطٍ، عن جابانَ، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا يدخل الجنةَ مَنّانٌ، ولا عاقٌ والديه، ولا مُدْمِنُ خَمْرٍ»(١). ورواه النسائي، من حديث شعبة كذلك، ثم قال: ولا نعلم أحداً تابع شعبة عن نبيط بن شريط(١).

وقال البخاري: لا يعرف لجابانَ سماعٌ من عبد الله، ولا لسالمٍ من جابانَ ولا نُبَيطٍ.

وقد رُوِي هذا الحديثُ من طريق مجاهد، عن ابن عباس، ومن طريقه أيضاً، عن أبي هُرَيرة، فالله أعلم.

وقال الزهري: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أن أباه قال: سَمِعتُ عثمانَ بن عفان يقول: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ فيمن خلا قبلكم يَتَعبَّد ويَعْتَزل الناس، فَعَلِقَته امرأةٌ غَوِيَّةٌ، فأرسلت إليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادةٍ. فدخل معها، فَطَفِقَت كُلَّما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلامٌ وباطيةُ(٢) خمر، فقالت: إنِّي والله ما دعوتُك لشهادةٍ، ولكني دعوتُكَ لتقعَ عَليّ أو تَقْتُل هذا الغلام، أو تشربَ هذا الخَمْرَ. فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يَرِم حتى وقع عليها، وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشَكَ أحدُهما أنْ يُخرِجَ صاحبه.

رواه البيهقي(٣)، وهذا إسنادٌ صحيح. وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذَمُّ المُسْكِر» عن محمد بن عبد الله بـن بَزِيع، عن الفُضَيل بن سليمان النُّمَيري، عن عُمَر بن سعيد، عن الزهري، به مرفوعاً. والموقوف أصح، والله أعلم.

وله شاهد في الصحيحين، عن رسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يَزْني وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِق سَرِقة حين يَسْرِقها وهو مؤمن، ولا يشربُ الخَمْرَ حينَ يَشْرَبها وهو مؤمن»(٤).

وقال أحمد بن حنبل: حدثنا أسودُ بن عامر(٥)، أخبرنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما حُرِّمت الخمرُ قال أناسٌ: يا رسولَ الله، أصحابُنا الذين ماتوا وهم يَشْرَبُونها؟ فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طَعِموا﴾... الآية، قال: ولما حُوِّلت القبلةُ قال أناسٌ: يا رسولَ الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يُصَلُّون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وما كان الله لِيُضِيع إيمانكم﴾(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا داودُ بن مِهران الدَّباغ، حدثنا داود ـ يعني العَطَّارَ ـ عن ابن خُثَيم، عن شهر ابن حَوْشَب، عن أسماءَ بنت يَزيدَ، أنها سَمِعت النبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: «من شَرِب الخمر لم يرضَ الله عنه أربعين ليلةً، إن ماتَ ماتَ كافراً، وإن تاب تاب الله عليه. وإن عاد كان حقاً على الله أن يَسقِيَه من طِينَةِ الخبال. قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينةُ الخبالِ؟ قال: صَدِيدُ أهل النار»(٧).

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الباطية: إناءٌ عظيم، من الزجاج وغيره، يُتَّخذُ للشراب.
(٣) أخرجه البيهقي في كتاب الأشربة من سننه ٨/٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٤) فتح الباري، كتاب الحدود ١٢/٥٨، ومسلم، كتاب الإيمان ٧٦.
(٥) أسود بن عامر لقبه شاذان، وقد ورد في المسند بلقبه.
(٦) مسند أحمد ١/٢٩٥.
(٧) مسند أحمد ٦/٤٦٠.

وقال الأعمشُ، عن إبراهيم، عن عَلْقَمةَ، عن عبد الله بن مسعود أن النبي - ﷺ - قال لما نَزَلت: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا﴾، فقال النبي - ﷺ -: قيل لي: أنتَ منهم»(١).

وهكذا رواه مسلم، والتِّرمذي، والنَّسائيُّ، من طريقه(١).

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: قرأت على أبي: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا إبراهيم الهَجَرِيُّ، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إياكم وهاتان الكعبتان(٢) الموسومتان اللتان تُزْجَران زَجْراً، فإنهما مَيْسِرُ العَجَم»(٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

قال الوالبي، عن ابن عباس قوله ﴿لَيَبْلُوَنَّكم الله بشيءٍ من الصيد تنالُه أيديكم ورماحُكم﴾، قال: هو الضعيف من الصيدِ وصغيره، يبتلي الله به عباده في إحْرامهم، حتى لو شاءُوا يتناوَلُونه بأيديهم. فنهاهم الله أن يقرَبُوه(٤).

وقال مجاهد: ﴿تناله أيديكم﴾، يعني: صِغَار الصَّيدِ وفراخه ﴿ورماحكم﴾، يعني: كبارَه(٤).

وقال مقاتلُ بن حيان: أنزلت هذه الآيةُ في عُمْرة الحُدَيبية، فكانت الوحشُ والطيرُ والصيدُ تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قطُّ فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم مُحرِمون.

﴿لـيعلـم الله من يخافه بالغيب﴾، يعني: أنه تعالى يبتَلِيهم بالصَّيدِ يغشاهم في رحالهم، يتمكَّنُون من أخذه بالأيدي والرماح سِرّاً وجهراً، ليظهر طاعةُ من يُطِيع منهم في سرِّه وجَهْرِه. كما قال تعالى: ﴿إن الذين يخشَون رَبَّهم بالغيب لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ﴾.

وقولَه ها هنا: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾. قال السدِّيُّ وغيره: يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿فله عذاب أليم﴾ أي: لمخالفته أمْرَ الله وشَرْعَه.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُم﴾. وهذا تحريمٌ منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، ونهيٌ عن تعاطيه فيه. وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكولَ وما تَوَلَّد منه، فأما غير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعي يجوزُ للمحرم قتلها. والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين من طريق الزهريِّ، عن عُروَة، عن عائشةَ أمِّ المؤمنين أن رسول

---

(١) أخرجه الطبري ٣٧/٧، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩١٠، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١٧٩/١١.
(٢) الكعبتان: مثنى كعبة، وهي فصّ النَّرد الذي يلعب به.
(٣) مسند أحمد ٤٤٦/١.
(٤) تفسير الطبري ٣٩/٧.

الله ـ ﷺ ـ قال: «خمسٌ فواسِقَ يُقتَلْنَ في الحلِّ والحَرَمِ: الغُراب، والحِدَأة، والعقرَبُ، والفَأرَةُ، والكَلْبُ العَقُورُ»(١).

وقال مالك، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «خَمسٌ من الدوابِّ ليس على المحرمِ في قتلهنَّ جناح: الغرابُ، والحِدَأةُ، والعقرَبُ، والفَأْرَةُ، والكَلْبُ العَقُور». أخرجاه(٢).

ورواه أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، مثله. قال أيوبُ: قلتُ لنافعٍ: فالحيةُ؟ قال: الحيةُ لا شَكَّ فيها، ولا يُخْتَلَفُ في قَتْلِها.

ومِنَ العلماء كمالك وأحمد مَنْ ألحق بالكلب العقور الذئبَ، والسبعُ، والنَّمِر، والفهد، لأنها أشدُّ ضرراً منه، فالله أعلم.

وقال سفيانُ بن عُيَينَةَ وزيدُ بن أسلَمَ: الكلبُ العقورُ يشمَلُ هذه السباعَ العادية كلَّها. واستأنس من قال بهذا بما رُوِي أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما دعا على عُتْبة بن أبي لهب قال: «اللهم سَلِّط عليه كَلْبُك بالشام»(٣) فأكله السَّبعُ بالزَّرقاء، قالوا: فإن قتل ما عداهن فداها كالضَّبُعِ، والثعلب، وهرِّ البرِّ، ونحوُ ذلك.

قال مالك: وكذا يُستَثنى من ذلك صغارُ هذه الخمس المنصوص عليها، وصغار الملحق بها من السباع العوادي.

وقال الشافعي: يجوزُ للمحرم قتلُ كلِّ ما لا يُؤكَل لحمُه، ولا فرقَ بين صغاره وكباره. وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل.

وقال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقورَ والذئب؛ لأنه كلبٌ بَرِّيٌّ، فإن قَتَل غيرهما فداه، إلا أن يصول عليه سَبُعٌ غيرهما فيقتله فلا فِداء عليه. وهذا قولُ الأوزاعيِّ، والحسن بن صالحِ بن حَيٍّ.

وقال زُفَر بن الهُذَيل: يفدى ما سوى ذلك وإن صال عليه.

وقال بعضُ الناس: المراد بالغُرَاب ها هنا الأبقع، وهو الذي في بطنه وظهره بياض، دون الأدْرَع وهو الأسود، والأعصم وهو الأبيض؛ لما رواه النسائيُّ عن عَمْرو بن علي الفَلَّاسُ، عن يحيى القطَّان، عن شُعبَة، عن قتادة، عن سعيد بن المُسَيَّب، عن عائشةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «خمسٌ يقتلهُنَّ المُحْرِمُ: الحيَّةُ، والفأرة، والحِدَأةُ، والغرابُ الأبقَعُ، والكلب العَقُور»(٤).

والجمهورُ على أنَّ المراد به أعمُّ من ذلك، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه.

وقال مالك ـ رحِمَه الله ـ: لا يقتل المحرمُ الغرابَ إلا إذا صالَ عليه وآذاه. وقال مجاهد بن جَبْر وطائفة: لا يقتلُه بل يَرْمِيه. ويُرْوَى مثلُه عن علي.

وقد روى هُشَيم: حَدَّثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم، عن أبي سَعِيد، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه سُئِل عما يَقتُلُ المحرمُ، فقال: «الحيةُ، والعقربُ، والفُوَيسِقَةُ، ويَرْمِي الغراب ولا يقتُلُه، والكلبُ العَقُورُ، والحِدَأة، والسَّبُعُ العادِي».

---

(١) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٥٥، ومسلم، كتاب الحج ٨٥٧.
(٢) الموطأ، كتاب الحج ٣٥٦، وفتح الباري، كتاب جزاء الصيد ٤/٣٤، ومسلم، كتاب الحج ٨٥٨.
(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/٣٣٨.
(٤) سنن النسائي، كتاب الحج ٥/١٨٨.

رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل، والترمذي عن أحمد بن مَنِيع، كلاهما عن هُشَيم ـ وابن ماجه، عن أبي كُرَيب، عن محمد بن فُضَيل ـ كلاهما عن يزيد بن أبي زياد، وهو ضعيفٌ، به. وقال الترمذيّ: هذا حديث حسن[١].

وقوله تعالى: ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا ابن عُلَية، عن أيوب قال: نُبِّئت عن طاوسَ قال: «لا يُحكَمُ على من أصاب صيداً خطأً، إنما يُحكَمُ على من أصابه مُتعمداً».

وهذا مذهب غريبٌ عن طاوس، وهو متمسك بظاهر الآية.

وقال مجاهد بن جَبْر: المراد بالمتعمِّد هنا القاصد إلى قتل الصيد، الناسي لإحرامه. فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يُكَفَّر، وقد بطل إحرامُه.

رواه ابن جرير عنه، من طريق ابن أبي نجيحٍ، وليث بن أبي سليم وغيرهما، عنه[٢]. وهو قولٌ غريبٌ أيضاً.

والذي عليه الجمهورُ أنَّ العامد والناسي سواء في وجوب الجَزاءِ عليه؛ قال الزهريُّ: دلَّ الكتاب على العامد، وجَرَتِ السنةُ على الناسي. ومعنى هذا أن القرآن دَلَّ على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: ﴿ليذوق وبال أمره، عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه﴾، وجاءت السنة من أحكام النبي ـ ﷺ ـ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمونٌ في العَمْد وفي النسيان، لكن المتعمِّد مأثوم والمخطِىءَ غير مَلُوم.

وقولُه: ﴿فجزاءٌ مثل ما قَتَل من النَّعَمِ﴾، وحكى ابنُ جَرير أنَّ ابنَ مسعودٍ قرأها: (فجزاؤُه مثلُ ما قَتَل من النَّعَم)[٣].

وفي قوله: ﴿فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النعم﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك، والشافعي، وأحمد، والجمهور، من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثلٌ من الحيوان الإِنْسِي، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، حيث أوجب القيمة، سواء كان الصيدُ المقتولُ مثلياً أو غير مثلي، قال: وهو مخير إن شاء تصدَّق بثمنه، وإن شاء اشترى به هَدْياً. والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة بِبَدَنَةٍ، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغَزَال بِعَنْزٍ. وَذِكْرُ قضايا الصحابة وأسانيدها مُقَرَّر في كتاب «الأحكام»، وأما إذا لم يكن الصيدُ مِثْلِيّاً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه، يُحمَلُ إلى مكة. رواه البيهقيُّ.

وقولُه: ﴿يحكُمُ به ذوا عَدْلٍ منكم﴾، يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل، أو القيمة في غير المثل، عدلان من المسلمين. واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحدَ الحكمين؟ على قولين: أحدهما: لا، لأنه قد يُتَّهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك. والثاني: نعم، لعموم الآية. وهو مذهب الشافعي، وأحمد. واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب المناسك ١٧٠/٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الحج ٦٣/٤ ـ ٦٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الحج ١٠٣٢.
(٢) تفسير الطبري ٤١/٧.
(٣) تفسير الطبري ٤٣/٧.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نُعيم الفضل بن دُكَين، حدثنا جعفر، هو ابن بُرْقانٍ، عن ميمون بـن مِهْرَانٍ: «أن أعرابياً أتى أبا بكر قال: قتلتُ صيداً وأنا مُحرمٌ، فما ترى عَلَيَّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لأبيِّ بن كعب وهو جالسٌ عنده: ما ترى فيما قال؟ فقال الأعرابي: أتيتُك وأنت خليفةُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ أسألك، فإذا أنت تسألُ غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تُنْكِر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجزاءٌ مثل ما قتل من النعم يحكُم به ذوا عدل منكم﴾، فشاورت صاحبي حتى إذا اتَّفقنا على أمرٍ أمَرْناك به».

وهذا إسنادٌ جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصِّديق، ومثلُه يُحتَمَلُ ها هنا. فبيَّن له الصِّدِّيقُ الحُكْمَ برفق وتُؤَدة، لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواءُ الجهلِ التعليمُ، فأما إذا كان المعترِضُ منسوباً إلى العلم، فقد قال ابن جرير:

حدثنا هَنَّاد وأبو هشام الرفاعيُّ قالا: حدثنا وكيع بن الجرَّاح، عن المسعوديِّ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن قَبيصةَ بـن جابر قال: خرجنا حُجَّاجاً، فكنا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدَّث، قال: فبينا نحن ذاتَ غداةٍ إذ سَنَح[١] لنا ظَبْيٌ، أو: بَرِح، فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ خُشَّاءه[٢] فَرَكِبَ رَدْعَه مَيِّتاً، قال: فَعَظَّمْنا عليه، فلما قَدِمنا مكَّة خرجتُ معه حتى أتينا عُمَر ـ رضي الله عنه ـ قال: فَقصَّ عليه القصَّةَ قال: وإلى جنبه رجل كأن وجهه قُلْب فضة[٣] ـ يعني عبد الرحمن بن عوف ـ فالتفت عُمَر إلى صاحبه فكلمه، قال: ثم أقبل على الرجل فقال: أعمداً قتلته أم خطأ؟ قال الرجلُ: لقد تعمَّدتُ رَمْيَه، وما أردتُ قَتْلَه. فقال عُمَر: ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ، اعمِدْ إلى شاة فاذبَحْها فتصدَّق بلحمها واستَبْـقِ إهابها[٤]. قال: فقمنا من عنده، فقلتُ لصاحبي: أيها الرجل، عَظِّم شعائر الله، فما دَرَى أميرُ المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه. اعمِدْ إلى ناقتك فانحرها، فَلَعَلَّ[٥] ذاك. قال قَبيصَةُ: ولا أذكر الآية من سورة المائدة: ﴿يحكم به ذوا عَدْلٍ منكم﴾. قال: فبلغ عُمَرَ مقالتي، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدِّرَّةُ. قال: فَعَلا صاحبي ضَرْباً بالدِّرَّة [وجعل يقول]: أقتلت في الحرم وسَفِهت الحَكَم؟ قال: ثم أقبل عَلَيَّ فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، لا أُحِلُّ لك اليومَ شيئاً يحْرُم عليك مني. قال: يا قبيصةَ بن جابر، إني أراك شابَّ السِّنِّ، فسيحَ الصَّدْرِ، بَيِّن اللسانِ، وإن الشاب يكون فيه تسعةُ أخلاقٍ حسنةٍ وخُلُقٌ سَيِّءٌ، فيفسد الخُلُقُ السيِّء الأخلاق الحسنةَ، فإياك وعَثَراتِ الشَّباب[٦].

وقد روى هُشَيم هذه القصَّةَ، عن عبد الملك بن عُمَير، عن قَبيصة بنحوه[٧]. ورواها أيضاً عن حصين، عن الشعبي، عن قَبيصة، بنحوه[٧]. وذكرها مرسلة عن عُمَر: بكر بن عبد الله المزني، ومحمد بن سيرين[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبةُ، عن منصور، عن أبي وائل،

---

(١) السانح: ما أتاك عن يسارك، والبارح: ما أتاك عن يمينك.

(٢) الخُشَّاء: العظم الدقيق العاري من الشعر خلف الأذن. ورَكِبَ رَدْعَه: خرَّ لوجهه. والردع: الدم، هذا في الأصـل، ومعنى ركوبه عليه أن الدم يسيل ثم يخرّ عليه صريعاً.

(٣) القُلْبُ: السِّوارُ يكون نظماً واحداً. وكان عبد الرحمن بن عوف أبيض مشرباً حمرةً.

(٤) في تفسير الطبري، وسنن البيهقي، كتاب الحج ١٨١/٥: «واسق إهابها». وفُسِّر بأن المراد: أعطه لمن يجعله سِقاءً للماء.

(٥) في بعض النسخ: «ففعل ذلك»، ومثله في تفسير الطبري. وفي نشرة الأستاذ محمود محمد شاكر مثل ما أثبتناه في الصلب؛ والمعنى على ما أُثبِتَ: فلعل ذلك يُجزِيء.

(٦) تفسير الطبري ٤٨/٧ ـ ٤٩.

(٧) تفسير الطبري ٤٨/٧.

أخبرني أبو جرير[١] البجلي قال: أصبت ظبياً وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك. فأتيت عبد الرحمن وسعداً، فحكما علي بتَيسٍ أعفر[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن عُيينة، عن مُخارق، عن طارق قال: أَوْطَأ[٣] أربدُ ظبياً فقتله وهو مُحرم، فأتى عمر ليحكم عليه، فقال له عمر: احكم معي. فحكما فيه جَدْياً، قد جَمَع الماء والشجر. ثم قال عمر: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾[٤].

وفي هذا دلالة على جواز كون القاتلِ أحدَ الحكمين، كما قاله الشافعي وأحمد، رحمهما الله.

واختلفوا: هل تُستأنفُ الحكومةُ في كل ما يُصيبه المحرمُ، فيجب أن يحكُمَ فيه ذوا عَدْلٍ، وإن كان قد حَكَم من قَبْلَه الصحابة، أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين، فقال الشافعي وأحمد: يُتَّبع في ذلك ما حَكَمت به الصحابة، وجعلاه شرعاً مُقرَّراً لا يُعدَلُ عنه، وما لم يحكم فيه الصحابةُ يُرجَعُ فيه إلى عَدْلينِ. وقال مالكٌ وأبو حنيفة: بل يجبُ الحُكْمُ في كل فَرْدٍ فردٍ، سواء وُجِد للصحابة في مثله حُكْم أم لا، لقوله تعالى: ﴿يحكم به ذَوَا عَدْلٍ منكم﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾، أي: واصلاً إلى الكعبة، والمرادُ وصولُه إلى الحرم، بأن يُذْبَحَ هناك، ويفرّق لحمُه على مساكينِ الحَرَم، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه في هذه الصورة.

وقوله: ﴿أو كفارة طعام مساكين، أو عَدْل ذلك صياماً﴾، أي: إذا لم يجد المحرمُ مثل ما قتل من النعَم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قولُ مالكٍ، وأبي حنيفةَ، وأبي يوسفَ، ومحمد بنِ الحسن، وأحدِ قَوْلَي الشافعيِّ، والمشهور عن أحمد ـ رحمهم الله ـ لظاهر الآية «أو» فإنها للتخيير. والقولُ الآخر أنَّها على الترتيب.

فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوّم الصيد المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحماد، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوّم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشترى به طعام ويَتَصدَّق به، فيصرف لكل مسكين مُدٌّ منه عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابنُ جَرير.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُطعِم كلَّ مسكين مُدَّين، وهو قولُ مجاهد. وقال أحمد: مُدٌّ من حنطة، أو مُدَّان من غيره. فإن لم يجد، أو قلنا بالتخيير، صام عنْ إطعام كُلِّ مسكين يوماً.

وقال ابنُ جَرير: وقال آخرون: يصوم مكانَ كلِّ صاعٍ يوماً[٥]. كما في جزاء المُترفِّه بالحَلْق ونحوه، فإن الشارع أمر كَعْب بن عُجْرَةَ أن يطعم فَرَقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفَرَق ثلاثة آصُع[٦].

واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: مَحِلُّه الحرم. وهو قولِ عطاء. وقال مالك: يُطعِم في المكان الذي أصاب فيه الصيدَ، أو أقربِ الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعمَ في الحَرَم، وإن شاء أطعم في غَيْرِه.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٦/٧٠٦ ـ ١٠٧، وتفسير الطبري، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ١١/٢٧.
(٢) تفسير الطبري ٧/٤٩.
(٣) أي: حمل دابته حتى وطئت الظَّبْيَ، أي: داسته. وأربدُ: هو ابن عبدالله البجلي، مترجم في الإصابة ١/١٠٣. وفي تفسير االطبري: أوطأ أربد ضَبّاً.
(٤) تفسير الطبري ٧/٤٩.
(٥) تفسير الطبري ٧/٥٣.
(٦) انظر تفسير الآية ١٩٦ من سورة البقرة.

ذكر أقوال السلف في هذا المقام :

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير، عن منصور، عن الحكم، عن مِقْسم، عن ابن عباس في قوله: ﴿فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النعم، يحكم به ذَوَا عَدْلٍ منكم هَدْياً بالغَ الكعبة، أو كفارةٌ طعامُ مساكين، أو عَدْلُ ذلك صياماً﴾ قال: إذا أصاب المحرمُ الصيدَ حكم عليه جزاؤه من النعم، فإن لم يجد نَظِر كم ثَمَنُه، ثم قُوِّم ثمنه طعاماً، فصام مكان كل نِصْفِ صاعٍ يوماً، قال: ﴿أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾، قال: إنما أريد بالطعام الصيام، إنه إذ وُجِد الطعام وُجِد جَزاؤُه.

ورواه ابنُ جَرِير، من طريق جَرِير[1].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿هدياً بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين، أو عَدْلُ ذلك صياماً﴾: إذا قتل المحرمُ شيئاً من الصيد حُكِم عليه فيه. فإن قتل ظبياً أو نحوه، فَعَليه شاةٌ تُذبَح بمكة. فإن لم يجد فإطعامُ ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. فإن قتل أيِّلاً أو نحوه، فَعَليه بقرةٌ. فإن لم يَجِدْها أطعَمَ عشرين مسكيناً. فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامةً أو حِمارَ وحشٍ أو نحوه فَعَليه بَدَنَةٌ من الإبل. فإن لم يجد أطعَمَ ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً.

رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جريرٍ وَزَاد: «والطعام مُدٌّ مُدٌّ، يُشبِعُهُم»[1].

وقال جابر الجعفي، عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد ﴿أو عَدْلُ ذلك صياماً﴾، قالوا: «إنما الطعام لمن لا يبلغُ الهدي». رواه ابن جرير[2].

وكذا روى ابن جُرَيج عن مجاهدٍ، وأسباط عن السدِّي أنها على الترتيب.

وقال عطاء، وعكرمة، ومجاهد ـ في رواية الضحاك ـ وإبراهيم النَّخَعِيُّ: «هي على الخيار». وهو رواية الليث، عن مجاهد، عن ابن عباس. واختار ذلك ابنُ جَرير، رحمه الله تعالى.

وقولُه: ﴿لِيذُوقَ وبالَ أمرِه﴾، أي: أوجبنا عليه الكفارَة ليذُوق عقوبَةَ فِعْلِه الذي ارتَكَب فيه المخالَفَة ﴿عفا الله عما سَلَف﴾ أي: في زمان الجاهليَّة، لمن أحسن في الإسلام واتَّبع شَرْعَ الله، ولم يرتكب المعصِيَةَ.

ثم قال: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾، أي: ومن فَعَل ذلكِ بعد تحريمه في الإسلام وبلوغِ الحكم الشرعي إليه ﴿فينتقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام﴾.

قال ابن جُرَيج، قلت لعطاء: «ما ﴿عفا الله عما سلف﴾؟ قال: عما كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿ومنْ عاد فينتقم الله منه﴾؟ [قال: ومن عَاد في الإسلام، فينتقم الله منه] وعليه مع ذلك الكفارة. قال، قلت: فهل في العود حَدّ تعلمه؟ قال: لا. قال، قلتُ: فترى حقاً على الإمام أن يعاقِبه؟ قال: لا، هو ذنبٌ أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل، ولكن يفتدي». رواه ابن جرير[3].

وقيل: معناه فينتقمُ الله منه بالكفارة. قاله سعيد بن جُبَير، وعطاء.

---

(١) تفسير الطبري ٥١/٧.
(٢) تفسير الطبري ٥١/٧، وفيه: «لمن لا يجد الهدي».
(٣) تفسير الطبري ٥٨/٧.

ثم الجمهورُ من السَّلَفِ والخَلَفِ، على أنه متى قتل المحرمُ الصَّيد وَجَب الجزاءُ، ولا فَرْقَ بين الأولى والثانية، وإن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك والعمد.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: من قَتَل شيئاً من الصيد خَطَأً، وهو محرمٌ، يحكم عليه فيه كلما قتله، وإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مَرَّة واحدةً، فإن عاد يقال له: «ينتقم الله منك» كما قال الله عز وجل.

وقال ابن جَرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيدٍ وابنُ أبي عَدِيٍّ جميعاً، عن هشام، هو ابن حسان، عنْ عكرمة، عن ابن عباس، فيمن أصابَ صيداً فحُكِم عليه ثم عاد، قال: لا يحكم عليه، ينتقمُ الله منه(١).

وهكذا قال شُرَيح، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحسن البصري، وإبراهيم النَّخَعِيُّ. رواهُنَّ ابن جرير، ثم اختار القول الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن يزيد العَبْدِيّ، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن زيد أبي المعلى، عن الحسن البصري أن رجلاً أصاب صيداً، فَتُجوِّز عنه. ثم عاد فأصاب صيداً آخر فنزلت نار من السماء فأحرقته، فهو قوله ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾.

وقال ابن جَرير في قوله: ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾، يقول عَزَّ ذكره: والله منيعٌ في سلطانه لا يقهَرُه قاهرٌ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أرادَ عقوبَته مانعٌ، لأن الخلق خَلْقُه، والأمْر أمرُه، له العزَّةُ والمَنَعةُ.

وقولُه: ﴿ذو انتقام﴾، يعني: أنه ذو معاقبةٍ لمن عَصاه على مَعْصِيَته إياه.

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

قال ابنُ أبي طلحةَ، عن ابن عباس - في رواية عنه - وسعيدُ بن المسيب، وسعيد بن جُبَير، وغيرهم في قوله: ﴿أُحِلَّ لكم صيدُ البحرِ﴾، يعني: ما يُصطاد منه طرياً ﴿وطعامُه﴾ ما يُتَزَوَّدُ منه مليحاً يابساً.

وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيدُه ما أخذ منه حياً ﴿وطعامه﴾ ما لَفَظه ميتاً.

وهكذا رُوِي عن أبي بكر الصِّدِّيق، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عُمَر، وأبي أيوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنهم. وعكرمة، وأبي سَلَمة بن عبد الرحمن، وإبراهيم النَّخَعِيِّ، والحسن البصري.

قال سفيان بن عُيينة، عن عَمرو بن دينار، عن عكرمة، عن أبي بكر الصِّدِّيق أنه قال: ﴿طعامُه﴾ كلُّ ما فيه. رواه ابنُ جَرِير، وابن أبي حاتم.

---

(١) تفسير الطبري ٦١/٧.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا جَرير، عن مُغيره، عن سماك قال: حُدّثت عن ابن عباس قال: خطبَ أبو بكر النَّاسَ فقال: ﴿أحل لكم صيدُ البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ وطعامه ما قَذَف[١].

قال: وحدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مِجْلز، عن ابن عباس في قوله: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾، قال: ﴿طعامه﴾ ما قَذَف[١].

وقال عكرمة، عن ابن عباس قال: ﴿طعامه﴾ ما لفظ من ميتة. ورواه ابن جرير أيضاً.

وقال سَعِيدُ بن المسيَّبِ: «طعامه ما لفظه حياً، أو حسر عنه فمات»، رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابنَ جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب، عن نافع: أن عبد الرحمن بن أبي هُرَيرة سأل ابنَ عُمَر فقال: إن البحر قد قذف حيتاناً كثيراً مَيْتاً أفنأكله؟ فقال: لا تأكلوه. فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة، فأتى هذه الآية: ﴿وطعامه متاعاً لكم وللسيارة﴾. فقال: اذهَبْ فقل له فَلْيأكُلْه، فإنه طعامُه[٢].

وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه، قال: وقد رُوِي في ذلك خبر، وإن كان بعضهم يرويه موقوفاً.

حدثنا هَنَّاد بن السريِّ قال: حدثنا عَبْدَةُ بن سليمان، عن محمد بن عَمْرو، حدثنا أبو سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿أحِلَّ لكم صيدُ البحرِ وطعامُه متاعاً لكم﴾، قال: «طعامه ما لفظه ميتاً»[٣].

ثم قال: وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هُرَيرة[٣].

حدثنا هَنَّاد، حدثنا ابن أبي زائدة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هُرَيرة في قوله: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾، قال: طعامه ما لفظه مَيتاً.

وقولُه ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾، أي: منفعة وقُوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وللسيارة﴾، وهو جمع سَيَّار. قال عكرمة: لمن كان بَحضْرَة البَحْرِ، وللسَّفْرِ[٤].

وقال غيره: «الطريّ منه لمن يصطاده من حاضِرَة البحر، «وطعامُه»: ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلِّح وقُدِّدَ زاداً للمسافرين والنائين عن البحر. وقد رُوي نحوُه عن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، والسدِّيِّ وغيرهم.

وقد استدلَّ جمهورُ العلماء على حِلِّ ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمامُ مالك بنُ أنس، عن وهب بن كيسان، عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسولُ الله ـ ﷺ ـ بعثاً قِبَل السَّاحِل، فأمَّر عليهم أبا عُبيدة بن الجرَّاح، وهم ثلاثمائة، قال: وأنا فيهم. قال: فخرجنا، حتى إذا كنا ببعض الطريق فَني الزادُ، فأمر أبو عُبَيدة بأزوادِ ذلك الجيش، فجُمِع ذلك كُلُّه، فكان مِزْوَدَي[٥] تمر، قال فكان يُقَوِّتُنا كلَّ يوم قليلاً قليلاً حتى فَنِي، فلم يكن يُصِيبنا إلا تمرةٌ تمرةٌ. [فقلت: وما تُغني تمرة؟]، فقال: فقد وَجدنا فَقْدَها حين

(١) تفسير الطبري ٧/٦٥.
(٢) تفسير الطبري ٧/٦٦.
(٣) تفسير الطبري ٧/٦٨ ـ ٦٩.
(٤) تفسير الطبري ٧/٦٩، ولفظة: «وللسَّيارة: السَّفْرِ. والسَّفْرُ: جماعة المسافرين.
(٥) المِزْوَد: وعاء الزاد.

فَنِيَتْ، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حُوتٌ مثلُ الظَّرِب[١]، فأكل منه ذلك الجيشُ ثماني عشرةَ ليلةً. ثم أمر أبو عُبَيدَةَ بِضِلَعَين من أضلاعه فَنُصِبا، ثم أمر براحلَةٍ فَرُحِلت، ومَرَّت تحتهما فلم تُصِبْهما[٢].

وهذا الحديث مُخَرَّجٌ في الصَّحيحين، وله طرق عن جابر[٢].

وفي صحيح مسلم من رواية أبي الزُّبير، عن جابر: «فإذا[٣] على ساحل البحر مثلُ الكَثيب الضَّخم، فأتيناهُ فإذا بدابة يقال لها: العنبر. قال: قال أبو عبيدة: مَيْتَةٌ، ثم قال: لا، نحن رُسُلُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ [وفي سبيلِ الله]، وقد اضطُرِرْتُم فكلوا. قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سَمِنَّا. ولقد رأيتُنا نغترف من وَقْب[٤] عينه بالقِلالِ الدُّهْنَ، ونقتطع منه الفِدَرَ[٥] كالثور [أو: كَقَدْر الثَّور]. قال: ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عَشَر رجلاً، فأقعدَهُم في وَقْب عينه، وأخذ ضِلَعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رَحَلَ[٦] أعظمَ بعير معنا فَمَرَّ من تحتها. وتَزَوَّدنا من لحمه وشَائِقَ[٧]. فلما قَدِمنا المدينةَ أتينا رسول الله ـ ﷺ ـ فذكرنا ذلك له، فقال: هو رزقٌ أخرجَهُ الله لكم، هل مَعَكم من لَحْمِهِ شيءٌ فَتُطعِمُونا؟ قال: فأرسلنا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ منه فأكله[٨].

وفي بعض روايات مسلم: أنهم كانوا مع النبي ـ ﷺ ـ حين وجدوا هذه السَّمكة. فقال بعضهم: هي واقعة أخرى، وقال بعضهم: بل هي قضيةٌ واحدةٌ، ولكن كانوا أولاً مع النبي ـ ﷺ ـ ثم بعثهم سَرِيةً مع أبي عُبَيدة، فوجدوا هذه في سَرِيَّتِهم تلك مع أبي عبيدة، والله أعلم.

وقال مالك، عن صفوانَ بن سُلَيم، عن سَعِيد بن سَلَمة ـ من آل ابن الأزرق ـ أن المغيرة بن أبي بُرْدَةَ ـ وهو من بني عبد الدار ـ أخبَرَه، أنه سمعَ أبا هُرَيرة يقولُ: سأل رجلٌ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إنا نركبُ البحر، ونحمل معنا القليلَ من الماء، فإن توضأنا به عَطِشنا، أفنتوضأ بماء البحر، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هو الطهور ماؤه، الحِلُّ مَيتَتُه»[٩].

وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأهل السُّنَن الأربعة، وصَحَّحه البخاري، والترمذي، وابن خُزيمة، وابن حِبَّان، وغيرهم. وقد رُوِي عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ ـ، بنحوه[٩].

وقد روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه، من طرق، عن حماد بن سَلَمَةَ: حدثنا أبو المُهزِّم ـ هو يزيد بن سفيان ـ سمعت أبا هُريرة يقول: «كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في حج ـ أو عمرة ـ فاستقبلنا رِجْلٌ[١٠] جراد، فجعلنا نضربُهنَّ بعصِيِّنا وسياطنا فنقتلهُنَّ، فأسقط في أيدينا، فقلنا: ما نصنع ونحن محرمون؟

---

(١) الظَّرِبُ: الجَبَلُ المُنبسِطُ.

(٢) الموطأ، كتاب صفة النبي ـ ﷺ ـ ٩٣٠ ـ ٩٣١، وفتح الباري، كتاب الشركة ١٢٨/٥، ومسلم، كتاب الصيد ١٥٣٧.

(٣) لفظ مسلم: «فَرُفِع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم».

(٤) الوقبُ: داخل العين ونُقْرَتُها. والقِلالُ: جمع قُلَّة، وهي الجرَّةُ الكبيرة التي تُقِلّها الرجل بين يديه، أي: يَحْمِلُها.

(٥) الفِدَرُ: القِطَع، جمع فِدْرة كقطعة وزناً ومعنىً.

(٦) أي: جعل عليه رحلاً.

(٧) الوشائق: جمع وشيقة، وهي اللحمُ يُؤخذُ فيغلي قليلاً دون النُّضج، ويحمل في الأسفار.

(٨) مسلم، كتاب الصيد ١٥٣٥ ـ ١٥٣٦.

(٩) الموطأ، كتاب الطهارة ٢٢، وترتيب مسند الشافعي، كتاب الطهارة ٢٣/١، ومسند أحمد ٣٦١/٢. وأصحابُ السُّنن في كتاب الطهارة: سنن أبي داود ٢١/١، وعارضة الأحوذي ٨٧/١ ـ ٨٨، والنسائي ٥٠/١، وابن ماجه ١٣٦.

(١٠) الرِّجل: الطائفة العظيمة من الجراد.

فسألنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: لا بأس بصيدِ البحر»[١].

أبو المُهَزِّم ضعيف، والله أعلم.

وقال ابن ماجه: حدثنا هارون بن عبد الله الحَمَّال، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله ابن عُلاثَةَ، عن موسى بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جابر وأنس بن مالك: أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا دعا على الجراد قال: اللهم أهْلِك كِبَاره، واقْتُلْ صِغَارَهْ، وأفسِدْ بيضه، واقطع دَابره، وخذ بأفواهه من معايشنا وأرزاقنا، إنك سميعُ الدُّعاءِ. فقال خالد[٢]: يا رسول الله، كيف تدعُو على جُنْدٍ من أجنادِ الله بقَطْع دابره؟ فقال: إنَّ الجَرَاد نَثْرَةُ[٣] الحوتِ في البحر. قال هاشم: قال زياد: فحدثني من رأى الحُوتَ ينثره. تفرّد به ابن ماجه[٤].

وقد روى الشافعيّ، عن سعيد، عن ابن جُرَيج، عن عطاءٍ، عن ابن عباس: أنه أنكَرَ على من يَصِيدُ الجَرَاد في الحَرَم.

وقد احتجَّ بهذه الآية الكريمةِ من ذَهَب من الفُقَهاء إلى أنه تؤكل دَوَابُّ البحر، ولم يستثْنِ من ذلك شيئاً. وقد تَقَدَّم عن الصديق أنه قال: ﴿طعامه﴾ كلُّ ما فيه.

وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها، لما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي من رواية ابن أبي ذئب، عن سعيد بن خالد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن عثمان التَّيمي: أن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن قَتْلِ الضِّفْدع[٥].

وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن قتل الضِّفدِع، وقال: نقيقها تسبيح.

وقال آخرون: يُؤكَل من صيد البحر السمك، ولا يُؤكل الضِّفدع. واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك. وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أُكِل شبهه من البر أكِل مثله في البحر، وما لا يُؤكَلُ شِبْهُه لا يُؤكَل. وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله.

وقال أبو حَنيفة رحمه الله: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر، لعموم قوله: ﴿حُرِّمت عليكم الميتة﴾.

وقد ورد حديث بنحو ذلك، فقال ابن مَرْدُويه:

حدثنا عبد الباقي، هو ابن قانع، حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرِيُّ وعبد الله بن موسى بن أبي عثْمان قالا: حدثنا الحسين بن يزيد الطحان، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبي ذئب، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما صِدْتُمُوه وهو حَيٌّ فمات فَكُلُوه، وما ألقي البحر مَيْتاً طافياً فلا تأكُلُوه».

ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية، ويحيى بن أبي أُنَيسَةَ، عن أبي الزبير، عن جابر به. وهو منكر.

وقد احتجَّ الجمهور من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، بحديث «العَنْبَر» المتقدم ذكره، وبحديث: «هو الطهورُ ماؤه الحلُّ مَيتَته»، وقد تَقَدَّم أيضاً.

(١) مسند أحمد ٣٠٦/٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الحج ٨٢/٤ ـ ٨٣، وابن ماجه، كتاب الصيد ١٠٧٤.
(٢) في سنن ابن ماجه: فقال رجل.
(٣) أي: عَطْسَة.
(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الصيد ١٠٧٣ ـ ١٠٧٤.
(٥) مسند أحمد ٤٥٣/٣، ٤٩٩، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٣٦٨/٤، والنسائي، كتاب الصيد ٢١٠/٧.

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلَم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوتُ والجَرَاد، وأما الدَّمان فالكَبِدُ والطِّحالُ»[١].

ورواه أحمد[١] وابن ماجه، والدارقطني، والبيهقي. وله شواهد، ورُوِي موقوفاً، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وحُرِّم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾، أي: في حال إحرامكم يحرُم عليكم الاصطيادُ. ففيه دلالةٌ على تحريم ذلك، فإذا اصطاد المحرمُ الصيدَ متعمِّداً أثِمَ وغَرِم، أو مخطئاً غَرِم وحَرُم عليه أكلُه، لأنه في حقه كالمَيْتَةِ، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعي، في أحد قوليه، وبه يقول عطاء، والقاسم، وسالم، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وغيرهم. فإن أكله أو شيئاً منه، فهل يَلزَمُه جزاء؟ فيه قولان للعلماء:

أحدهما: نعم. قال عبد الرزاق، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، قال: إن ذبحه ثم أكله فَكَفَّارتان، وإليه ذهب طائفة.

والثاني: لا جزاء عليه بأكله. نص عليه مالكُ بن أنس.

قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذاهبُ فقهاءِ الأمصار، وجمهور العلماء. ثم وجَّهه أبو عمر بما لو وَطِيء ثم وَطِيء ثم وَطِيء قبل أن يُحَدَّ، فإنما عليه حدٌّ واحدٌ.

وقال أبو حَنِيفَةَ: عليه قيمةُ ما أَكَلَ.

وقال أبو ثور: إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه، وحلالٌ أكلُ ذلك الصيدِ، إلا أنني أكرَهه للذي قَتَله، للخبر عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «صيدُ البرِّ لكم حلال، ما لم تصيدوه أو يُصَدْ لكم»[٢].

وهذا الحديث سيأتي بيانُه. وقولُه بإباحته للقاتل غريبٌ، وأما لغيره ففيه خلافٌ، قد ذكرنا المنع عمن تَقَدَّم، وقال آخرون: بإباحته لغير القاتل، سواءٌ المحرمونُ والمحلُّونَ، لهذا الحديث. والله أعلم.

وأما إذا صاد حَلَال[٣] صيداً فأهداه إلى محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا. حكى هذا القولَ أبو عُمَر بن عبد البر، عن عُمَر بن الخطاب، وأبي هُرَيرة، والزُّبير بن العوام، وكعب الأحبار، ومجاهد، وعطاء، في رواية، وسعيد بن جُبَير. قال: وبه قال الكوفيون.

قال ابن جَرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بَزِيعٍ، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن سعيد بن المسيب حَدَّثه، عن أبي هُرَيرة: أنه سُئِل عن لحم صيدٍ صاده حَلَالٌ، أيأكلُه المحرم؟ قال: فأفتَاهم بأكله. ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمرِه، فقال: لو أفتيتَهم بغير هذا لأوجعتُ لك رأسَكَ[٤].

وقال آخرون: لا يجوز أكلُ الصيدِ للمُحرمِ بالكلِّية، ومَنَعوا من ذلك مطلقاً، لعموم هذه الآية الكريمة.

---

(١) تقدم الحديث عند الآية ٣ من هذه السورة، وخرجناه هنالك.

(٢) سنن أبي داود، كتاب المناسك ٢/١٧١، وعارضة الأحوذي، أبواب الحج ٤/٧٤ ـ ٧٥، والنسائي، كتاب المناسك ٥/١٨٧، ومسند أحمد ٣/٣٦٢، ٣٨٧.

(٣) أي: غير محرم، ويقال له أيضاً: محلٌ، وحِلٌ.

(٤) تفسير الطبري ٧/٧٢.

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاوس وعبد الكريم بن أبي أميَّة، عن طاوس، عن ابن عباس: أنه كَرِه أكل لحم الصيد للمحرم، وقال: هي مبهمَةٌ. يعني قوله: ﴿وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دمتم حُرُماً﴾.

قال: وأخبرني معمر، عن الزُّهري، عن ابن عُمَر: أنه كان يكره للمُحرِم أن يأكلَ من لحم الصيد على كُلِّ حال.

قال معمر: وأخبرني أيوبُ، عن نافعٍ، عن ابن عُمَر، مثله.

قال ابنُ عبد البر: وبه قال طاوسٌ، وجابر بن زيد. وإليه ذهب الثوريُّ، وإسحاق بن راهُويه، في رواية، وقد رُوِي نحوه عن عليٍ بن أبي طالب، رواه ابنُ جريرٍ من طريق سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ، عن سعيد بن المسيب: أن علياً كره لحم الصيد للمحرم على كلّ حال[١].

وقال مالك، والشافعي، وأحمدُ بن حنبل، وإسحاق بن راهُويه، في رواية، والجمهورُ: إن كان الحلال قد قَصَد المحرمَ بذلك الصيد، لم يجز للمحرم أكلُه، لحديث الصعب بن جَثَّامَةَ: «أنه أهدى للنبي ـ ﷺ ـ حماراً وحشيًّا، وهو بالأبواء[٢] ـ أو: بوَدّانَ ـ فَرَدَّه عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: إنا لم نَرُدَّه عليك إلا أنا حُرُم»[٣].

وهذا الحديث مُخَرَّج في الصحيحين[٣]، وله ألفاظ كثيرة. قالوا: فوجهُه أن النبي ـ ﷺ ـ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فردَّه لذلك. فأما إذا لم يقصِدْه بالاصطياد فإنه يجوزُ له الأكلُ منه، لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وَحشٍ، [و] كان حلالاً لم يُحْرِم، وكان أصحابه مُحرمين، فتوقَّفوا في أكله. ثم سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «هل كان منكم أحدٌ أشار إليها، أو أعان في قَتْلِها؟ قالوا: لا. قال: فكُلُوا وأكلَ منها رسولُ الله ﷺ[٤].

وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا سعيدُ بن منصور وقُتَيبة بن سعيد قالا: حدثنا يعقوبُ بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المُطَّلب بن عبد الله بن حَنْطَبٍ، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ وقال قُتَيبة في حديثه: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «صيدُ البرِّ لكم حَلال ـ قال سعيدٌ: وأنتم حُرُمٌ ـ ما لم تَصِيدُوه أو يُصَدْ لكم»[٥].

وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي جميعاً، عن قُتَيبة. وقال الترمذيُّ: لا نعرف للمطَّلب سماعاً من جابر.

ورواه الإمامُ محمد بن إدريس الشافعي[٦]، من طريق عَمرو بن أبي عمرو، عن مولاه المطَّلِب، عن جابر. ثم قال: وهذا أحسنُ حديثٍ رُوِي في هذا الباب وأقيسُ.

وقال مالك، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الله بن عامر بن ربيعةَ قال: رأيتُ عثمانَ بن عَفَّان

---

(١) تفسير الطبري ٧/٧١.
(٢) الأبواء ووَدَّان: مكانان بين مكة والمدينة، وبالأبواء تُوُفِّيت أمه عليه الصلاة والسلام، وكانت بها أولى غزواته.
(٣) فتح الباري، كتاب الهبة ٥/٢٠٢، ومسلم، كتاب الحج ٨٥٠.
(٤) فتح الباري، كتاب جزاء الصيد ٤/٢٢، ٢٨ ـ ٢٩. ومسلم، كتاب الحج ٨٥٣ ـ ٨٥٤.
(٥) تقدم تخريجه من قريب.
(٦) ترتيب مسند الشافعي، كتاب الحج ١/٣٢٢ ـ ٣٢٣.

بالعَرْج، وهو مُحرم في يومٍ صائفٍ، قد غَطَّى وجهه بقطيفةِ أُرْجُوَانٍ، ثم أُتِي بلحمِ صيدٍ فقال لأصحابه: كُلُوا. فقالوا: أَوَلاَ تأكل أنت؟ فقال: إني لست كهيئتكم، إنما صيدَ من أجلي»[١].

[[٢]قال ابن جَرير: واختلفوا في صِفَةِ الصيد الذي عَنَى الله تعالى بالتحريم، فقال بعضُهم: «صيدُ البرِّ: كلّ ما كان يعيش في البرِّ والبحر، وإنما صيدُ البحر ما كان يعيشُ في الماء دون البرّ ويأوي إليه»].

[روى عمران بن حُدَير، عن أبي مِجْلَزٍ أنه قال في قوله تعالى: ﴿وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دمتم حُرُماً﴾، قال: ما كان يعيش في البرِّ والبحر لا يصيده، وما كان حياته في الماء فذاك].

[وعن عطاءٍ قال: وما كان يعيش في البرِّ فأصابه المُحرِم فعليه جزاؤه، نحو السُّلحفاةِ، والسَّرطان[٣]، والضِّفادع].

[وقال بعضهم: صيدُ البرِّ ما كان كونُه في البرِّ أكثرَ من كَوْنِهِ في البحر].

[قال ابن جُرَيج: سألتُ عطاءً عن ابن الماء، أصيد بَرٍّ أم بحرٍ؟ وعن أشباهه. فقال: حيث يكون[٤] أكثَرَ، فهو صيدُه].

[وعن عطاء بن أبي رباح قال: أكثر ما يكون حيثُ يُفرِخُ، فهو منه].

[وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾].

[قال ابن جَرير: «يقولُ تعالى ذكره: واخشوا الله، أيها الناس، واحذَرُوه بطاعَتِهِ فيما أَمَرَكم به من فرائضه، وفيما نَهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نَبِيِّكـم ـ ﷺ ـ من النهى عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وعن إصابة صيد البر وقَتْلِه في حال إحرامكم وفي غيرها، فإنَّ الله مصيرَكم ومرجِعَكم، فيعاقِبُكم بمعصيتكم إيَّاه، ويُجازيكم فيثيبكم على طاعَتِكم له].

[وقوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس والشَّهر الحرامَ والهَدْيَ والقلائد﴾].

[يقول تعالى ذكره: صَيَّر الله الكعبةَ البيت الحرام قِواماً للناس الذين لا قِوَام لهـم من رئيسٍ يحجُز قويَّهم عن ضعيفهم، ومسيئَهم عن مُحسِنهم، وظالمهم عن مظلومهم، والشهر الحرام والهدي والقلائد، فحجَز بكلِّ واحد من ذلك بعضَهم عن بعض، إذْ لم يكن لهم قيامٌ غيرُه، وجعلها معالم لِدِينهم، ومصالحِ أمورهم].

[عن مجاهد قال: «إنما سميت الكعبة لأنها مُرَبَّعة». ورُوِيَ مثلُه عن عكرمةَ].

[قال ابنُ جرير: «وأما (الكعبة) فالحَرَمُ كُلُّه. وسمَّاها الله تعالى «حراماً»، لتحريمه إيَّاها أن يُصادَ صيدُها أو يُختَلَى خَلاها، أو يُعْضَدَ شَجَرُها].

[وقد فَسَّر ابنُ جرير ﴿قياماً للناس﴾ بالقِوَام. وروى في ذلك آثاراً منها].

---

(١) الموطأ، كتاب الحج ٣٥٤.

(٢) ما بين الأقواس التالية تفسير لبقية الآية ٩٦، والآيات ٩٧ ـ ٩٩. لم نجده في أصول تفسير ابـن كثير، وقد اعتمدنا في هذه التكملة على تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري وحده، وهو في تفسيره ٧/٧٥ ـ ٧٩.

(٣) السَّرَطان: حيوان بحريٌّ من القشريّات العَشْريّات الأرجل.

(٤) أي: يوجَدُ ويعيش أكثر.

[حدثنا هَنّاد قال: حَدَّثنا ابنُ أبي زائدة قال، أخبرنا من سمع خُصَيفاً يُحدِّث، عن مجاهد في: ﴿جعل الله الكعبة البيتَ الحرامَ قياماً للناس﴾، قال: قِواماً للناس].

[وقال سعيد بن جُبَير: ﴿قياماً للناس﴾، قال: صلاحاً لدينهم. وعنه أيضاً: شدة لدينهم].

[وعن ابن عباس قال: قيامها أن يأْمَنَ من تَوَجَّه إليها. وعنه أيضاً: وقياماً لدينهم، ومعالِمَ لحجِّهم. وقال السدّيُّ: وجعل الله هذه الأربعة قياماً للناس، هو قوام أمرهم].

[قال ابن جُرير: «وهذه الأقوالُ وإن اختلفت من قائلها ألفاظُها، فإن معانيها آيلةٌ إلى ما قلنا من ذلك، من أنَّ «القِوام» للشيء هو الذي به صلاحُه، كما أنَّ الملك الأعظم قِوامُ رَعِيَّته ومن في سلطانه، لأنه مُدَبِّر أمرهم، وحاجزُ ظالمهم من مظلومهم، والدافعُ عنهم مكروهَ من بَغاهم وعاداهم. وكذلك كانت الكعبةُ والشهرُ الحرام والهَدْيُ والقلائد قوامَ أمرِ العرب الذي كان به صلاحُهم في الجاهلية، وهي في الإسلام لأهله معالم حَجِّهم ومناسكهم ومُتَوجَّههم لصلاتهم، وقبلتُهم التي باستقبالها يتم فرضهم»].

[ثم قال ابنُ جَرير: وبنحو الذي قلنا في ذلكَ قالت جماعةُ أهلِ التأويل]:

[حدثنا بشر بن معاذ قال: حدثنا جامع بن حَمّاد، حدثنا يزيد بن زُرَيع قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قولُه: ﴿جعل الله الكعبة البيتَ الحرامَ قياماً للناس والشهر الحرامَ والهَدْي والقلائد﴾، حواجزَ أبقاها الله بين الناس في الجاهلية، فكان الرجلُ لو جَرَّ كُلَّ جَريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يُتناوَلْ ولم يُقْرَبْ. وكان الرجلُ لو لَقِي قاتلَ أبيه في الشهر الحرام لم يَعْرِضْ له ولم يَقْرَبْ. وكان الرجلُ إذا أراد البيتَ تقلَّد قلادةً من شَعَرٍ فأحمَتْه ومنعته من الناس، وكان إذا نَفَر تَقَلَّدَ قلادةً من الإذْخر، أو من لحاء السَّمُر، فمنعَتْه من الناس، حتى يأتي أهلَه، حواجزَ أبقاها الله بين الناس في الجاهلية].

[وروى نحوه عن ابن زيد، وابن عباس].

[وقد مضى في أول السورة ذكرُ ﴿الشهر الحرام﴾ و﴿الهدي﴾ و﴿القلائد﴾][(١)].

[وقوله تعالى: ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾].

[قال ابنُ جرير: يقول تعالى ذكره: اعلموا، أيُّها الناس، أنَّ ربكم الذي يعلم ما في السمواتِ وما في الأرض، ولا يَخفى عليه شيءٌ من سرائر أعمالكم وعلانيتها، وهو يُحصِيها عليكم ليجازيَكُم بها ـ شديدٌ عقابُه من عصاه وتمرَّدَ عليه، على معصيته إياه، وهو غفورٌ لذنوب من أطاعه وأناب إليه، فساتِرٌ عليه وتارِكٌ فضيحَتَه بها، رحيمٌ به أن يُعاقِبَه على ما سَلَف من ذُنُوبه، بعد إنابته وتَوبتِه منها].

[وقولُه: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾].

[وهذا من الله تعالى ذكرُه تهديدٌ لعباده ووعيدٌ، يقول تعالى ذكره: ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم، أيُّها الناسُ، بإنذاركم عقابَنا بين يَدَي عذابٍ شديدٍ، وإعذارِنا إليكم بما فيه قَطْعُ حُجَجِكم، إلاّ أن يُؤَدِّي إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثوابُ على الطاعَةِ، وعلينا العقابُ على المَعْصِيَةِ].

[والله يعلم ما تبدون وما تكتمون].

---

(١) انظر تفسير الآية الثانية من هذه السورة.

[يقول: وغيرُ خَفيٍّ علينا المطيعُ منكم، القابلُ رسالتنا العامِلُ بما أمرتُه بالعمل به - من العاصي الأبي رسالتَنا، التاركِ العملَ بما أمرتُه بالعمل به، لأنا نعلَمُ ما عَمِله العاملُ منكم فأظهَرَه بجوارِحِه ونَطَق به لسانُه. ﴿وما تكتمون﴾، يعني: وما تخفون في أنفسكم من إيمان وكفر، أو يقين وشك ونفاق].

[يقول تعالى ذكرُه: فمن كان كذلك، لا يخفى عليه شيءٌ من ضمائر الصدور، وظواهِر أعمال النفوس، مما في السمواتِ وما في الأرضِ، وبيده الثوابُ والعقابُ، فحقيق أن يُتَّقى، وأن يُطاعَ فلا يُعصَى][1].

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقول تعالى لرسوله - ﷺ -: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبكَ﴾، أي: يا أيها الإنسان ﴿كثرة الخبيث﴾. يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث: «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

وقال أبو القاسم البغوي في معجمه[2]: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا الحوطي، حدثنا محمد بن شعيب، حدثنا مُعَان بن رفاعة، عن أبي عبد الملك علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة أنه أخبره عن ثَعلبة بن حاطبِ الأنصاري أنه قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقَني مالاً. فقال النبي - ﷺ -: «قليلٌ تؤدِّي شكرَه خيرٌ من كثيرٍ لا تطيقه»[3].

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، تجنبوا الحرام ودعوه، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿لعلكم تفلحون﴾، أي في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم﴾. هذا تأديبٌ من الله لعباده المؤمنين، ونهيٌ لهم عن أن يسألوا ﴿عن أشياءَ﴾ مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمورُ ربما ساءتهم وشَقَّ عليهم سماعُها، كما جاء في الحديث أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا يُبْلِغْني أحدٌ عن أحدٍ شيئاً، إني أحبُّ أن أخرُجَ إليكم وأنا سليمُ الصَّدْرِ»[4].

وقال البخاري: حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارُوديّ، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن موسى بن أنس، عن أنس بنِ مالك قال: «خطب النبيُّ - ﷺ - خطبةً ما سَمِعتُ مثلَها قطُّ، قال: «لو تعلمون ما أعلَمُ لضَحِكتم قَليلاً ولَبَكَيتُم كثيراً. قال: فغَطّى أصحابُ رسولِ الله - ﷺ - وجوهَهُم لهم حَنِين[5]. فقال

(١) إلى هنا ينتهي ما أثبتناه من تفسير الطبري شرحاً لما سقط من تفسير ابن كثير.

(٢) هو عبدالله بن محمد بن عبد العزيز، أحد الحفاظ، له معجم الصحابة عاش بين سنتي ٢١٣ - ٣١٧، ووفاته ومولده ببغداد.

(٣) رواه ابن الأثير في أسد الغابة بإسناده إلى معان بن رفاعة، انظر ١/٢٨٤.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٦٥، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/٢٦٢، ومسند أحمد ١/٣٩٦.

(٥) قال في فتح الباري: «لهم حنين، بالحاء المهملة للأكثر، والكشميهني بالخاء المعجمة. والأول الصوتُ الذي يرتفع بالبكاء من الصدر، =

رجل: من أبي؟ قال: فلان. فنزلت هذه الآية: ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾. رواه النَّضْرُ وروحُ بن عبادَة، عن شعبة[١].

وقد رواه البخاريُّ في غير هذا الموضع، ومسلم، وأحمدُ، والترمذيّ، والنسائي من طُرُق، عن شعبة ابن الحجّاجِ، به[٢].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا بِشر، حدثنا يزيدُ، حدثنا سعيدُ، عن قتادَةَ في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألُوا عن أشياءَ إن تُبدَ لكم تسؤكم﴾. . . الآية، قال: فَحُدِّثنا أنَّ أنس بن مالك حَدَّثه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ سألوه حتى أحفَوه بالمسألةِ، فخَرَج عليهم ذاتَ يوم فَصَعِد المنبر، فقال: لا تسألوني اليومَ عن شيءٍ إلا بيَّنتُه لكم. فأشفق أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أن يكون بين يدي أمر قد حَضَر، فجعلتُ لا ألتفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدتُ كُلًّا لافّاً رأسه في ثوبه يبكي. فأنشأ رجلٌ كان يُلاحى فَيُدْعَى إلى غير أبيه، فقال: يا نبيَّ الله، من أبي؟ قال: أبوكَ حُذَافَةُ: قال: ثم قام عمر ـ أو قال: فأنشأ عمر ـ فقال: رَضِينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله ـ أو قال: أعوذُ بالله ـ من شرِّ الفِتَنِ. قال: وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لم أرَ في الخير والشر كاليوم قَطُّ، صُوِّرَتْ لي الجنةُ والنارُ حتى رأيتهما دون الحائطِ[٣].

أخرجاه من طريق سعيد[٣]. ورواه معمَرٌ، عن الزهري، عن أنس بنحو ذلك، أو قريباً منه[٤].

قال الزهري[٥]: فقالت أم عبد الله بن حُذَافة: ما رأيت ولداً أعقَّ منك قَطُّ، أكنت تأمن أن [تكون] أمُّك قد قارفَتْ ما قارفَ أهلُ الجاهلية، فتفضحَهَا على رؤوس الناس. فقال: والله لو ألحقَنِي بعبدٍ أسودَ لَلَحِقتُه.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا الحارثُ، حدثنا عبد العزيز، حدثنا قيسٌ، عن أبي حُصَين، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: خرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو غضبانُ محمارٌّ وجهُهُ. حتى جلس على المنبر، فقام إليه رجلٌ فقال: أين أبي؟ فقال: في النار. فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوكَ حُذَافة. فقام عُمَر بن الخطاب فقال: رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّدٍ نبياً، وبالقرآن إماماً، إنا ـ يا رسول الله ـ حديثُو عهدٍ بجاهلية وشِرْك، والله أعلم مَن آباؤنا. قال: فسكَن غَضَبُه، ونزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبدَ لكم تسؤكم﴾[٦].

إسنادُه جيد، وقد ذَكَر هذه القصةَ مرسلةً غيرُ واحد من السلف، منهم أسباطُ عن السدِّيِّ أنه قال في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تَسُؤكم﴾، قال: غَضِب رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً من الأيام، فقام خطيباً فقال: سَلُوني، فإنكم لا تسألوني عن شيءٍ إلا أنبأتُكم به. فقام إليه رَجُلٌ من قريشٍ، من

= والثاني من الأنف. وقال الخطابي: الحنين بكاء دون الانتحاب، وقد يجعلون الحنين والخنين واحداً، إلا أن الحنين من الصدر، أي بالمهملة، والخنين من الأنف، بالمعجمة.

(١) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٨/٢٨٠.

(٢) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣١٩، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٣٢، ومسند أحمد ٣/٢١٠، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/١٩٤، ومسند أحمد ٣/٢١٠.

(٣) تفسير الطبري ٧/٨٠ ـ ٨١. وفتح الباري، كتاب الفتن ١٣/٤٣، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٣٤.

(٤) مسلم، كتاب الفضائل ١٨٣٣.

(٥) هذا تابع لحديث الطبري المتقدم.

(٦) تفسير الطبري ٧/٨١ ـ ٨٢.

بني سَهْمٍ، يقال له: عبد الله بن حذافة. وكان يُطْعَن فيه، فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: أبوك فلان. فدعاه لأبيه، فقام إليه عمر ابن الخطاب فقبّل رِجْله، وقال: يا رسولَ الله، رَضِينا بالله ربّاً، وبك نبيّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، فاعف عنّا عفا الله عنك. فلم يَزَلْ به حتى رَضِي، فيومئذ قال: «الولد للفراش وللعاهر الحَجَر»[(١)].

ثم قال البخاري: حدثنا الفضلُ بن سَهل، حدثنا أبو النَّضر، حدثنا أبو خَيثَمةُ، حدثنا أبو الجُوَيرية، عن ابن عباسٍ قال: كان قومٌ يسألونَ رسول الله ـ ﷺ ـ استهزاءً، فيقولُ الرجلُ: من أبي؟ ويقول الرجل تَضلّ ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ حتى فَرَغ من الآية كلها. تَفرَّد به البخاريُّ[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا منصور بن وَرْدان الأسديُّ، حدثنا علي بن عبد الأعلى، عن أبيه، عن أبي البَخْتَري ـ وهو سعيدُ بن فَيرُوزَ ـ عن علي قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ قالوا: يا رسول الله، في كل عام؟ فسكت. فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت، قال: ثم قالوا: أفي كل عام؟ فقال: لا، ولو قلت: نعم لَوَجَبتْ. فأنزل الله ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم﴾ . . . إلى آخر الآية[(٢)].

وكذا رواه الترمذيُّ وابن ماجه، من طريق منصور بن وَرْدَان، به. وقال الترمذيُّ: غَريبٌ من هذا الوجه. وسمعت البخاري يقول: أبو البختري لم يدرك علياً[(٣)].

وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا أبو كُرَيب، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي عياضٍ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله كَتَب عليكم الحجَّ. فقال رجلٌ: أفي كلِّ عام يا رسول الله؟ فأعرَضَ عنه، حتى عادَ مرَّتين أو ثلاثاً، فقال: مَن السائلُ؟ فقال: فلان. فقال: والذي نفسي بيده لـو قلتُ: «نعم» لوجَبَتْ، ولو وَجَبت عليكم ما أطقتُمُوه، ولو تركتُمُوه لكفرتُم. فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾، حتى ختم الآية[(٤)].

ثم رواه ابن جَرير من طريق الحُسَين بن واقد، عن محمد بن زيادٍ، عن أبي هُرَيرة ـ وقال: فقام مِحْصن الأسديُّ. وفي رواية من هذه الطريق. عُكَاشة بن مِحْصن، وهو أشبه[(٤)].

وإبراهيمُ بن مُسلِمٍ الهَجَرِيُّ ضعيفٌ.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصري قال: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أبي الغَمر، حدثنا أبو مُطِيع معاوية بن يحيى، عن صفوان بن عَمْرو، حدثني سُلَيم بن عامر قال: سمعت أبا أُمَامَة الباهليَّ يقول: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ في الناس فقال: كُتِب عليكم الحجُّ. فقام رجلٌ من الأعراب فقال: أفي كُلِّ عام؟ قال: فَغلِقَ[(٥)] كلامُ رسول الله ـ ﷺ ـ وأُسْكِتَ واسْتغضِبَ، ومكث طويلاً، ثم تَكَلَّم فقال: من السائلُ؟ فقال الأعرابي: أنا ذا. فقال: ويحكَ. ماذا يُؤمِنُكَ أن أقول: نعم: والله لو قلت: نَعَم،

---

(١) تفسير الطبري ٨١/٧.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٦٨/٦.
(٣) مُسند أحمد ١١٣/١، وعارضةُ الأحوذيّ، أبواب الحج ٢٩/٤، وابن ماجه، كتاب المناسك ٩٦٣.
(٤) تفسير الطبري ٨٢/٧.
(٥) أي: انقطع كلامه.

لوجبت، ولو وَجَبت لكفرتُم. ألا إنه إنما أهلَكَ الذين من قبلكم أئمَّةُ الحَرَج، والله لو أني أحلَلْتُ لكم جميعَ ما في الأرض، وحَرَّمت عليكم منها موضعَ خُفّ، لوقعتُم فيه. قال: فأنزل الله عند ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تبد لكم تسؤكم﴾... إلى آخر الآية(١).

في إسناده ضعفٌ.

وظاهرُ الآية النهيُ عن السؤال عن الأشياء التي إذا أُعلِمَ بها الشخصُ ساءته، فالأولى الإعراضُ عنها وتركُها. وما أحسنَ الحديثَ الذي رواه الإمامُ أحمدُ حيثُ قال:

حدثنا حَجَّاجُ قال: سَمِعتُ إسرائيلَ بن يُونُس، عن الوليد بن أبي هشام مولى الهَمْدَاني، عن زيد بن زائدٍ، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: «لا يُبَلِّغني أحدٌ عن أحد شيئاً، فإنّي أحبُّ أن أخرُجَ إليكم وأنا سليمُ الصَّدر»... الحديثُ(٢).

وقد رواه أبو داود والترمذي، من حديث إسرائيل ـ قال أبو داود: عن الوليد ـ وقال الترمذي: عن إسرائيل، عن السدّيِّ، عن الوليد بن أبي هشام، به. ثم قال الترمذي: غَريبٌ من هذا الوجه(٢).

وقوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾، أي: وإن تسألُوا عن هَذِه الأشياءِ التي نُهِيتُم عن السؤال عنها حين ينزل الوحيُ على الرَّسُول تُبَيَّنْ لكم، وذلك يَسِيرٌ.

ثم قال: ﴿عفا الله عنها﴾، أي: عما كان منكم قبل ذلك، ﴿والله غفور حليم﴾.

وقيل: المراد بقوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنِفُون السؤال عنها، فلعلَّه قد ينزلُ بسبب سؤالكم تشديدٌ أو تَضييقٌ. وقد وَرَدَ في الحديث: «أعظمُ المسلمين جُرْماً مَنْ سَأل عن شيءٍ لم يُحَرَّم، فَحُرِّمَ من أجل مسألتِهِ»(٣). ولكن إذا نَزَل القرآن بها مجملةً فسألتُم عن بيانها حينئذ، تَبَيَّنَتْ لكم لاحتياجِكُم إليها.

﴿عفا الله عنها﴾، أي: ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها. وفي الصحيح، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «ذَرُوني ما تَرَكْتُم، فإنما أهلَكَ من كان قبلكم كثرةُ سُؤَالهم واختلافهم على أنبيائهم»(٤).

وفي الحديث الصحيح أيضاً: «إن الله فرض فرائض فلا تُضَيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تَعْتَدُوها، وحَرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسَكَت عن أشياء رحمةً بكم غَيْرَ نِسيانٍ فلا تسألُوا عنها»(٥).

ثم قال: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾، أي: قد سأل هذه المسائلَ المنهيَّ عنها قومٌ من قبلكم، فأُجِيبوا عنها ثم لم يُؤمِنوا بها، فأصبحوا بها كافرين، أي: بِسَببها، أي: بُيِّنت لهم ولم ينتفِعُوا بها، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما سألوا على وجه التعنُّتِ والعناد.

---

(١) تفسير الطبري ٧/٨٢ ـ ٨٣.
(٢) مسند أحمد ١/٣٩٥ ـ ٣٩٦، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٦٥، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٣/٢٦٣.
(٣) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٢٦٤، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٣١.
(٤) مسلم، كتاب الفضائل ١٨٣١، والنسائي، كتاب المناسك ٥/١١٠، وابن ماجه، المقدمة ٣، ومسند أحمد ٢/٢٤٧.
ويروى: «ذروني ما تركتُكم»
(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي ثعلبة، المستدرك، كتاب الأطعمة ٤/١١٥.

قال العَوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم﴾، وذلك أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أذَّن في الناس فقال: يا قوم ، كُتِبَ عليكم الحجُّ. فقام رجل من بني أسد فقال: يا رسول الله، أفي كلِّ عام؟ فأغْضِب رسول الله ـ ﷺ ـ غَضَباً شديداً فقال: والذي نفسي بيده لو قلتُ: نعم، لوَجَبتْ، ولو وَجَبَتْ ما استطعتُم، وإذاً لكفرتُم، فاتركوني ما تركتُكم، وإذا أمرتُكم بشيءٍ فافعلوا، وإذا نهيتُكُم عن شيء فانتهُوا عنه. فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم﴾، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سَألتِ النصارى من المائدة، فأصبَحُوا بها كافرين. فَنَهى الله عن ذلك وقال: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظٍ ساءكم ذلك، ولكن انتَظِرُوا، فإذا نَزَل القرآنُ فإنكم لا تسألون عن شيءٍ إلا وجدتُم تِبْيانه. رواه ابن جرير(١).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم، وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآن تُبْدَ لكم﴾، قال: لما نزلت آيةُ الحجِّ، نادى النبيُّ ـ ﷺ ـ في الناس فقال: يا أيها الناسُ، إن الله قد كتب عليكم الحجَّ فحُجُّوا. فقالوا: يا رسولَ الله، أعاماً واحداً أم كُلَّ عام؟ فقال: لا، بل عاماً واحداً، ولو قلت: كل عام، لوجبَتْ، ولو وَجَبت لكفرتُم. ثم قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾. . . إلى قوله: ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾. رواه ابن جرير(١).

وقال خُصَيف، عن مجاهد، عن ابن عباس ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾ قال: هي البحيرةُ والوَصِيلة والسَّائبة والحَامُ، ألا ترى أنه يقولُ بعد ذلك: ما جَعَل الله من بحيرةٍ ولا كذا ولا كذا ـ قال: وأما عكرمةُ فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات، فَنُهُوا عن ذلك. ثم قال: ﴿قد سألها قومٌ من قبلكم ثم أصبَحُوا بها كافرين﴾. رواه ابن جرير.

يعني عِكْرمة رَحِمه الله أن المرادُ بهذا النهيُ عن سؤال وقوع الآيات(٢). كما سألت قُرَيش أن يُجري لهم أنهاراً، وأن يجعل لهم الصَّفا ذهباً وغير ذلك، وكما سألتِ اليهودُ أن يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلا أن كَذَّب بها الأولون، وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً فظَلَموا بها، وما نُرسِلُ بالآيات إلا تخويفاً﴾، وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم، لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنن بها، قل: إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون * ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكَلَّمهم الموتى وحشرنا عليهم كُلَّ شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنُوا إلا أن يشاء الله ولكنَّ أكثرَهم يجهلون﴾.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيلَ، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كَيْسان، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيِّب قال: البَحيرةُ: التي يُمْنَع دَرُّها للطواغيت(٣)، فلا يَحْلُبها أحد من الناس.

---

(١) تفسير الطبري ٧/٨٣.
(٢) تفسير الطبري ٧/٨٤.
(٣) الطواغيت: الأصنام.

والسائبة: كانوا يُسَيِّبُونَها لآلهتهم، لا يُحملُ عليها شيءٌ ـ قال: وقال أبو هُرَيرة قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «رأيت عَمْرو بن عامر الخزاعيَّ يَجُرُّ قُصْبه[١] في النار، كان أوَّل من سَيَّب السوائب ـ والوصيلةُ[٢]: الناقةُ البِكْرُ، تُبكّر في أول نتاج الإبل، ثم تُثَنّى بعد بأنثى، وكانوا يُسيِّبُونها لطواغيتهم، إن وصلت إحْدَاهما بالأخرى ليس بينهما ذكَرٌ. والحام: فَحْلُ الإبل يَضربُ الضِّرَابَ المعدود، فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت، وأعفوه عن الحَمْل، فلم يُحْمَل عليه شيء، وسَمَّوه الحامِيَ»[٣].

وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث إبراهيمَ بن سعد، به[٣].

ثم قال البخاري: وقال لنا أبو اليمان: أخبرنا شُعَيبٌ، عن الزُّهريِّ قال: سَمِعتُ سعيداً يخبر بهذا. وقال أبو هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ نحوه. ورواه ابنُ الهادِ، عن ابن شهابٍ، عن سعيدٍ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ[٣].

قال الحاكم: أراد البخاري أنَّ يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه، عن عبد الوهاب بن بُخْتٍ، عن الزهري. كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المِزِّي في الأطراف، وسَكَت ولم يُنَبه عليه[٤]. وفيما قاله الحاكم نظر، فإنَّ الإمام أحمدَ وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد، عن ابن الهاد، عن الزهري نَفْسِه[٥]، والله أعلم.

ثم قال البخاريّ: حدثنا محمدُ بن أبي يعقوبَ أبو عبد الله الكِرْماني، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يونس، عن الزُّهري، عن عُرْوَةَ أن عائشةَ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأيت جَهَنَّم يَحْطِمُ بعضُها بعضاً، ورأيت عَمْرواً يُجرُّ قُصْبَهُ، وهو أوَّل من سَيَّب السوائِبَ». تَفَرَّد به البخاري[٦].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا هَنَّاد، حدثنا يونُس بن بُكَيرٍ، حدثنا محمَّد بن إسحاقَ، حَدَّثني محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول لأكْثَم بن الجون: «يا أكثَمُ، رأيت عَمْرو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ بن خِنْدِفٍ يجر قُصْبه في النار، فما رأيتُ رَجُلاً أشبه برجلٍ منكَ بِهِ، ولا به منكَ. فقال أكثم: تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا، إنكَ مؤمن وهو كافر، إنه أوَّلُ من غَيَّر دين إبراهيم، وبَحَر البحيرة، وسيَّب السائبة، وحَمى الحامي[٧].

ثم رواه عن هَنَّاد، عن عَبْدَةَ، عن محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه[٦] أو مثله.

ليس هذان الطريقان في الكتب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عمرو بن مُجَمِّع، حدثنا إبراهيم الهَجَريُّ، عن أبي الأحْوَص، عن عبد الله ابن مسعود عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن أول من سَيَّبَ السوائِبَ، وعَبَد الأصنام، أبو خُزَاعة عَمْرو بن عامرٍ،

---

(١) أي: أمعاءه.

(٢) قال ابن حجر: «هكذا أورده مُتَّصِلاً بالحديث المرفوع، وهو يوهم أنه من جملة المرفوع. وليس كذلك، بل هو بقية تفسير سعيد بن المسيَّب، والمرفوع من الحديث إنما هو ذكر عَمْرو بن عامرٍ فقط».

(٣) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٨/٢٨٣، ومسلم، كتاب الجنة ٢١٩٢.

(٤) تحفة الأشراف ١٠/٣٢.

(٥) مسند أحمد ٢/٣٦٦، وتفسير الطبري ٧/٩٢.

(٦) فتح الباري، تفسير سورة المائدة ٨/٢٨٤.

(٧) تفسير الطبري، ٧/٨٦، ٨٧.

وإني رأيته يجرُّ أمعاءه في النار». تفرَّد به أحمد من هذا الوجه[١].

وقال عبد الرزَّاق: أنبأنا معمَّر، عن زيد بن أسلَمَ قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إني لأعرفُ أوَّل من سَيَّب السوائب، وأوَّل من غَيَّر دين إبراهيم عليه السلام. قالوا: من هُوَ، يا رسول الله؟ قال: عَمرو بن لُحَيِّ أخو بني كعب، لقد رأيته يجرُّ قُصْبَه في النار. وإني لأعرفُ أوَّل من بَحَرَ البحائِرَ. قالوا: مَن هو، يا رسول الله؟ قال: رجُلٌ من بني مُدْلج، كانت له ناقتان، فَجَدَعَ آذانَهما، وحَرَّم ألبانَهما، ثم شَرِب ألبانَهما بعد ذلك، فلقد رأيتُهُ في النار وهما يَعَضَّانه بأفواههما وَيَخْبِطانه بأخفافهما»[٢].

فَعَمرو هذا هو ابن لُحَيِّ بن قَمَعَة، أحدُ رؤساء خُزاعة، الذين وَلُوا البيتَ بعد جُرْهم. وكان أوَّل من غَيَّر دينَ إبراهيم الخليل، فأدخلَ الأصنام إلى الحجازِ، ودَعَا الرِّعاع من الناس إلى عبادتها والتقرُّب بها، وشَرَعَ لَهم هذه الشرائعَ الجاهليةَ من الأنعام وغيرها، كما ذَكَره الله تعالى في سورة الأنعام، عند قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذَرَأَ من الحرث والأنعام نصيباً﴾[٣]. . . إلى آخر الآيات في ذلك.

فأمَّا البَحِيرةُ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي الناقةُ إذا نُتِجَت خمسة أبطن نَظَرُوا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجالُ دون النساء. وإن كان أنثى جَدَعوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرة.

وذكر السدّي وغيره قريباً من هذا.

وأما السائبة فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فُسِّر من البحيرة، إلا أنَّها ما ولدت من وَلَدٍ بينها وبين ستة أولاد كان على هيئتها، فإذا ولدت السابعَ ذكراً أو ذكرين ذَبَحُوه، فأكلَه رجالُهم دون نسائِهم.

وقال مُحمَّد بن إسحاق: السائبةُ هي الناقة إذا وَلَدت عَشْرَ إناثٍ من الولد ليس بينهنَّ ذكر، سُيِّبت فلم تُرْكَب، ولم يُجزَّ وَبَرُها، ولم يَحْلِب لبنَها إلا الضيفُ[٤].

وقال أبو رَوقٍ: «السائبة: كان الرجلُ إذا خَرَج فَقُضِيَتْ حاجتُه، سَيَّب من ماله ناقةٍ أو غيرها، فجعلها للطواغيتِ. فما ولدت من شيءٍ كان لها».

وقال السدّي: كان الرجل منهم إذا قُضِيت حاجته أو عُوفِي من مَرَض أو كثر ماله سَيَّب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عَرَض له من الناس عُوقِب بعقوبة في الدنيا».

وأما الوَصِيلةُ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي الشاة إذا نُتجت سبعة أبطن نظروا السابع، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن استحيوهما وقالوا: وَصَلته أختُه فحرَّمته علينا. رواه ابن أبي حاتم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمَّر، عن الزهريِّ، عن سعيد بن المسيب: ﴿ولا وصيلةٍ﴾، قال: فالوصيلةُ من الإبل، كانت الناقة تَبْتَكِرُ بأنثى، ثم تُثنى بأنثى، فَيُسمُّونها الوَصِيلةَ، ويقولونَ: «وَصَلت أُنْثَيَيْنِ ليس بينهما ذَكَرٌ، فكانوا يَجدّعونها لطواغيتهم[٥].

---

(١) مسند أحمد ١/٤٤٦.
(٢) تفسير الطبري ٧/٨٧.
(٣) الأنعام، آية ١٣٦ - ١٣٩.
(٤) سيرة ابن هشام ١/٨٩.
(٥) تفسير الطبري ٧/٩١.

وكذا رُوِي عن الإمام مالكِ بن أنس ، رَحِمه الله[١].

وقال محمد بن إسحاق: الوَصِيلةُ من الغنم إذا ولدت عَشْر إناث في خمسة أبطن، توأمين في كل بطن، سُمِّيت الوصيلةَ وتُركَت، فما وَلَدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى، جُعِلت للذُّكور دون الإناثِ. وإن كانت ميتة اشتركوا فيها[٢].

وأما الحام فقال العوفيّ، عن ابن عباس قال: كان الرجلُ إذا لقح[٣] فحلُه عَشْراً، قيل: حام ، فاتركوه. وكذا قال أبو رَوقٍ، وقتادةُ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: وأمَّا الحام فالفحلُ من الإبل، إذا وُلد لولده قالوا: حَمَى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجزُّون له وبراً، ولا يمنعونَه من حِمَى رَعْيٍ ، ومن حَوْضٍ يُشرَبُ منه، وإن كان الحوضُ لغير صاحبه.

وقال ابنُ وَهْبٍ: سَمِعتُ مـالكـاً يقول: أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل، فإذا انقضى ضِرَابُه جعلوا عليه رِيش الطواويس وسَيَّبُوه[٤].

وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية. وقد ورد في ذلك حديثٌ رواه ابن أبي حاتم، من طريق أبي إسحاق السَّبيعي، عن أبي الأحوص الجُشَمي، عن أبيه مالك بن نَضْلَة قال: أتيتُ النبي ـ ﷺ ـ في خُلْقانٍ[٥] من الثياب، فقال لي: هل لك من مال؟ قلت: نعم. قال: من أيِّ المالِ؟ قال، فقلتُ: من كُلِّ المالِ، من الإبلِ والغَنَم والخيلِ والرقيق. قال: فإذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ عليك. ثم قال: تُنتَجُ إبِلُكَ وافيةً آذانُها؟ قال، قلتُ: نعم. وهل تُنتَجُ الإبل إلا كذلك؟ قال: فَلَعَلَّك تأخذ الموسى فتقطع آذانَ طائفةٍ منها وتقول: هذه بُحُرٌ وتشق آذان طائفة منها، وتقول: هذه صُرُمٌ؟ قلت: نعم. قال: فلا تَفعَلْ، إنَّ كُلَّ مالٍ آتاكَ الله لَكَ حِلٌّ، ثم قال: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبةٍ ولا وصيلة ولا حام﴾، أما البحيرةُ فهي التي يجدَعُون آذانها، فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها. وأما السائبة فهي التي يُسَيِّبون لآلهتهم، ويذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها، وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع، جُدِعت وقُطِع قرنها، فيقولون: قد وَصَلت. فلا يذبحونها ولا تُضْرَب ولا تمنع مهما وَرَدَت على حوض. هكذا بِذِكْر تَفْسِير ذلك مُدْرَجاً في الحديث.

وقد رُوِي من وجه آخَرَ عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه.

وقد رَوَى هذا الحديثَ الإمامُ أحمدُ، عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن أبيه، به[٦]. وليس فيه تفسير هذه، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ولكن الذين كفروا يفتَرُون على الله الكَذِبَ وأكثَرُهم لا يعقِلون﴾، أي: ما شَرَع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربةٌ، ولكن المشركون افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم وقربةً يتقرَّبُون بها إليه. وليس ذلك بحاصلٍ لهم، بل هو وَبَالٌ عليهم.

(١) تفسير القرطبي ٦/٣٣٦ ـ ٣٣٧.
(٢) سيرة ابن هشام ١/٨٩.
(٣) كذا، ومثله في تفسير الطبري ٧/٩٠. وقياسه: ألقح.
(٤) تفسير القرطبي ٦/٣٣٦ ـ ٣٣٧.
(٥) الخُلْقانُ: جمع خَلَقٍ، وهو البالي.
(٦) مسند أحمد ٤/١٣٦ ـ ١٣٧.

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾، أي: إذا دعُوا إلى دين الله وشَرْعه وما أوجَبَه وترْكِ ما حَرَّمه، قالوا: يكفينا ما وَجَدْنا عليه الآباءَ والأجدادَ من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: ﴿أوَلَوْ كان آباؤُهم لا يعلمون شيئاً﴾، أيِ: لا يفهمُون حقاً، ولا يعرفُونه ولا يهتَدُون إليه، فكيفَ يتبعونهم والحالة هذه؟! لا يتبعهم إلا من هو أجهَلُ منهم، وأضلُّ سبيلاً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يُصْلِحوا أنفسَهُم ويفعلوا الخير بجَهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضرُّه فساد من فسد من الناس، سواءٌ كان قريباً منه أو بعيداً.

قال العوفي، عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرتُه به من الحلال والحرام، فلا يَضُرُّه من ضَلَّ بعده، إذا عَمِل بما أمرتُه به[1].

وكذا رَوَى الوالبي، عنه. وهكذا قال مقاتلُ بن حَيّان.

فقولُه ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكُم﴾ نصبٌ على الإغراء[2] ﴿لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتُم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾، أي: فيجازي كلَّ عاملٍ بعَمَلِه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وليس في الآية دَليلٌ على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان فعلُ ذلك ممكناً، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله:

حدثنا هاشمُ بن القاسم، حدثنا زهير ـ يعني ابن معاوية ـ حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، حدثنا قيس قال: قام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فحَمِد الله وأثنى عليه، وقال: يا أيها الناس، إنكم تَقرؤُون هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرُكم من ضل إذا اهتديتم﴾... إلى آخر الآية، وإنكم تَضَعُونها على غير مَوْضِعِها، وإني سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يُغيِّرونه أوشك الله عز وجل أن يَعُمَّهم بعقابه». قال: وسَمِعْتُ أبا بكر يقول: يا أيها الناسُ، «إياكُم والكَذِبَ، فإنَّ الكَذِبَ يُجانب الإيمان»[3].

وقد روى هذا الحديثَ أصحاب[3] السنن الأربعة، وابن حِبَّان في صحيحه، وغيرهم، من طُرُقٍ كَثيرةٍ عن جماعةٍ كثيرةٍ، عن إسماعيلَ بن أبي خالد، به مُتَّصِلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق. وقد رَجَّحَ رفعه الدارقطنيُّ وغيرُه، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولاً في مسند الصِّدِّيق رضي الله عنه.

وقال أبو عيسى الترمذي، حدثنا سعيدُ بن يعقوبَ الطالَقانِيّ، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا عُتبة ابن أبي حَكِيم، حدثنا عمرو بن جارية اللَّخْمِيُّ، عن أبي أمية الشَّعْبانيِّ قال: «أتيتُ أبا ثعلبةَ الخُشَنِي فقلت

(١) تفسير الطبري ٧/٩٧.
(٢) أي: الزموا هداية أنفسكم، أو صلاحها.
(٣) مسند أحمد ١/٥، وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١١/١٨٠ - ١٨١، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٢٧. والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان ١/٢٦١ - ٢٦٢.

له: كيف تصنعُ في هذه الآية؟ فقال: أيّةُ آيةٍ؟ قلتُ: قولُه: ﴿يا أيها الذين آمنوا، عليكُم أنفسَكُم، لا يضرُّكم من ضَلَّ إذا اهتديتم﴾ فقال: أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: بلِ ائتمِرُوا بالمعروفِ، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحّاً مطاعاً، وهوى مُتّبعاً، ودنيا مُؤْثَرَة، وإعجابَ كلِّ ذي رَأيٍ برأيه، فعليك بخاصة نَفْسِك، وَدَعِ العوام، فإن من ورائكم أياماً الصَّبرُ فيهنَّ مثلُ القَبْضِ على الجَمْرِ، للعامل فيهنَّ مثلُ أجْرِ خمسين رجلاً يعملون كعملكم».

قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عُتبةَ: «قيل: يا رسول الله، أجر خمسينِ رجلاً منهم أو منا؟ قال: «بل أجر خمسين منكم».

ثم قال الترمذيّ: هذا حديث حسن غريب صحيح[1].

وكذا رواه أبو داودَ من طريق ابن المبارك. ورواه ابن ماجه، وابن جَرير، وابن أبي حاتم، عن عتبةَ بن أبي حكيم[1].

وقال عبد الرزّاق: أنبأنا معمر، عن الحسن: أن ابن مَسْعُود سأله رجلٌ عن قوله: ﴿عليكم أنفُسَكم لا يضرُّكم من ضَلَّ إذا اهتديتم﴾، فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة. ولكنه قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرونَ فَيُصْنَعُ بكم كذا وكذا ـ أو قال: فلا يقبل منكم ـ فحينئذ ﴿عليكم أنفسكم لا يُضرُّكم من ضل﴾.

ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، عن ابن مسعود في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا، عليكـم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾... الآية، قال: كانوا عند عَبدِ الله بن مسعودٍ جلوساً، فكان بين رجلين بعضُ ما يكون بين الناس، حتى قام كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله، ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليكَ بنفسِكَ، فإنَّ الله يقول: ﴿عليكم أنفسكم﴾... الآية. قال: فَسَمِعَها[2] ابنُ مسعود فقال: مَهْ، لم يجيء تأويلُ هذه بعدُ. إن القرآن أُنزِلَ حيثُ أنزل، ومنه آيٌّ قد مضى تأويلُهُنَّ قبل أن يَنْزِلْنَ، ومنه آي قد وقع تأويلهُنَّ على عَهْدِ رسول الله ـ ﷺ ـ ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد النبي ـ ﷺ ـ بيسير، [ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة]، ومنه آي يقع تأويلُهُنَّ يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبُكُم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تُلْبسوا[3] شِيَعاً، ولم يذُقْ بعضكم بأسَ بعضٍ فأمروا وانْهوا، فإذا اختلفت القلوبُ والأهواءُ، وأُلْبِستُم شيعاً، وذاق بعضُكم بأسَ بعضٍ فامرؤ ونفسَهُ، عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جَرير[4].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شبابة بن سَوّار، حدثنا الربيع بن صَبيح، عن سفيان ابن عِقال قال: قيل لابن عُمَر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تَنْهَ، فإن الله قال: ﴿عليكُم أنفسكم لا يضرُّكم من ضل إذا اهتديتم﴾؟ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١١/١٨١ ـ ١٨٢، ولفظ الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١٢٣، وابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٣٠ ـ ١٣٣١، وتفسير الطبري ٧/٩٧.

(٢) في نسخة: فردها.

(٣) أي: لم تُجْعَلُوا فِرَقاً.

(٤) تفسير الطبري ٧/٩٦.

«ألا فليبلِّغ الشاهد الغائب»، فكنا نحن الشهودَ وأنتم الغُيَّب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يُقْبَل منهم[١].

وقال أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالا: حدثنا عوف، عن سَوَّار ابن شَبِيب قال:

كنتُ عند ابن عُمَر، إذا أتاه رجل جَلِيدٌ في العين، شَدِيدُ اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهدٌ لا يألو[٢]، وكلهم بغيضٌ إليه أن يأتي دَناءة، وهم في ذلك يشهد بعضُهم على بعض بالشرك: [فقال رجل من القوم: وأيّ دناءة تريدُ أكثرَ من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟]. فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ. فأعاد على عبد الله الحديثَ، فقال عبدُ الله: لعلك ترى ـ لا أبالك ـ أني سآمرك أن تذهب فتقتلهم! عِظْهُم وانهَهُم، فإن عَصَوك فعليك بِنَفسِك، فإن الله عز وجل يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ . . . الآية[١].

وقال أيضاً: حدثني أحمدُ بن المِقدام، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا قتادةُ، عن أبي مازنٍ قال: انطلقتُ على عهد عثمانَ إلى المدينة، فإذا قومٌ من المسلمين جلوس، فقرأ أحدُهم هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ﴾، فقال أكثرُهم: لم يجىءْ تأويلُ هذه الآية اليوم[١].

وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا ابنُ فَضالة، عن معاوية بن صالح، عن جُبَير بن نُفَير قال: كنتُ في حَلْقةٍ فيها أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ وإني لأصغرُ القوم، فتذاكروا الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يَضُرُّكم من ضَلَّ إذا اهتديتم﴾؟ فأقبلُوا عليَّ بلسان واحد وقالوا: تَـنْزِعُ[٣] آية من القرآن لا تعرفها، ولا تدري ما تأويلُها!! حتى تمنَّيتُ أني لم أكن تكلمتُ. وأقبلوا يتحدَّثون، فلما حضر قيامُهم قالوا: إنك غلام حَدَثُ السِّنِّ، وإنك نَزَعت آيةً لَا تَدْرِي ما هي؟ وعسى أن تدرك ذلك الزمانَ، إذا رأيت شُحّاً مطاعاً، وهَوًى متبعاً، وإعجابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرُّكَ من ضل إذا اهتديت[٤].

وقال ابن جَرير: حدثنا عليّ بن سَهْلٍ، حدثنا ضَمْرَةُ بن ربيعة قال: تلا الحسن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا، عليكمْ أنفسكم، لا يضرُّكم مـنْ ضـلّ إذا اهتديتم﴾، فقال الحسن: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمنٌ فيما مَضَى، ولا مؤمنٌ فيما بَقِي، إلاَّ وإلى جانبه منافقٌ يكرَهُ عَمَله[٥].

وقال سَعِيدُ بن المسيَّب: إذا أمرت بالمعروف ونَهيت عن المنكَرِ، فلا يضرُّك من ضَلَّ إذا اهتديت، رواه ابنُ جَرير.

وكذا رَوَى من طريق سفيان الثوري، عن أبي العُمَيس، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن حُذَيفة، مثله. وكذا قال غير واحدٍ من السلف.

---

(١) تفسير الطبري ٧/٩٥.
(٢) أي: لا يقصِّر.
(٣) أي: أتخرج من القرآن وتأتي منه بآية لا تعرف تأويلها؟!.
(٤) تفسير الطبري ٧/٩٦.
(٥) تفسير الطبري ٧/٩٧ ـ ٩٨.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد الدمشقي، حدثنا الوليد، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن يزيد بن أبي حَبيب، عن كعب في قوله: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾، قال: إذا هُدِمت كنيسةُ دمشق، فجُعِلت مسجداً. وظهر لُبْسُ العَصْبِ[1]، فحينئذ تأويلُ هذه الآيةِ.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

اشتملت هذه الآيةُ الكريمةُ على حكم عَزيزٍ، قيل: إنه منسوخٌ. رواه العوفي عن ابن عباس[2]. وقال حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم: إنها منسوخة[2]. وقال آخرون ـ وهم الأكثرون، فيما قاله ابن جرير ـ: بل هو مُحكَمٌ، ومن ادعى النسخَ فعليه البيانُ.

فقولُه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، شهادةُ بينكم إذا حَضَر أحدكم الموتُ حين الوصية اثنان﴾ هذا هو الخبر لقوله: ﴿شهادة بينكم﴾ فقيل تقديره: «شهادةُ اثنين»، حُذِف المضاف، وأُقيم المضاف إليه مُقامه. وقيل: دَلَّ الكلامُ على تقدير: أن يشهد اثنان.

وقولُه: ﴿ذوا عدل﴾ وَصْفُ الاثنين، بأن يكونا عَدْلَين.

وقولُه ﴿منكم﴾، أي: من المسلمين. قاله الجمهور. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله ﴿ذوا عدل منكم﴾، قال: من المسلمين. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: ورُوِيَ عن عَبِيدة، وسعيد بن المسيَّب، والحسن، ومجاهد، ويحيى بن يَعمَر، والسدّيِّ، وقتادَةَ، ومقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيدِ ابن أسلَم، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: عنى ذلك ﴿ذوا عَدْلٍ﴾، أي: من حَيِّ الموصِي. وذلك قولٌ رُوِي عن عكرمةَ وعَبِيدَة، وعدةٍ غيرهما[3].

وقولُه: ﴿أو آخران من غيركم﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيدُ بن عَونٍ، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا حَبيب بن أبي عَمْرَةَ، عن سعيد بن جُبَير قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿أو آخران من غيركم﴾، قال: من غير المسلمين، يعني: أهل الكتاب.

ثم قال: وروي عن عَبِيدة، وشُرَيح، وسعيد بن المسيَّب، ومحمد بن سيرين، ويحيى بن يَعمُر،

(١) العَصْبُ: من بُرُودِ اليمن، سُمِّي عصباً لأن غَزْلَه يُعصَبُ، أي: يُدْرَجُ، ثم يُصْبَغ ثم يحاك.
(٢) تفسير الطبري ٧/١٢٤.
(٣) تفسير الطبري ٧/١٠١.

وعكرمةَ، ومجاهد، وسعيد بن جُبير، والشعبي، وإبراهيم النَخعيِّ، وقتادَةَ، وأبي مِجْلَزٍ، والسدِّيِّ، ومقاتل بن حَيَّانَ، وعبد الرحمن بن زيد بن أَسلَم، نحو ذلك.

وعلى ما حكاه ابن جَرير عن عكرمة وعَبيدة في قوله: ﴿منكم﴾ أي: المراد من قبيلة المُوصِي، يكون المراد ها هنا: ﴿أو آخران من غيركم﴾، أي: من غير قَبيلة الموصي. وقد رَوى ابنُ أبي حاتم مِثْلَه عن الحسن البصري، والزهري، رحمهما الله.

وقولُه: ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾، أي: سافرتم، ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾، وهذان شرطان لجوازِ استشهاد الذمِّيين عند فَقْدِ المؤمنين، أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما صرح بذلك شُرَيح القاضي.

قال ابنُ جَرير: حدثنا عَمرو بن علي، حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا: حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن شُرَيح قال: لَا تجوز شهادةُ اليهوديِّ والنصرانيِّ إلا في سفر، ولا تجوز في سَفَرٍ إلا في وَصِيَّةٍ[1].

ثم رواه عن أبي كُرَيب، عن أبي بكر بن عَيَّاش، عن أبي إسحاق السَّبِيعي قال: قال شُرَيح... فذَكَر مثله.

وقد رُوِي مثلُه عن الإمام أحمدَ بن حَنْبَلٍ رَحِمه الله تعالى. وهذه المسألة من أفراده، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمَة على المسلمينَ. وأجازها أبو حنيفة فيما بين بَعْضِهم بعضاً.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو داود، حدثنا صالح بن أبي الأخضر، عن الزهريِّ قال: مَضَتِ السنَّةُ أنه لا تجوز شهادة كافر في حضر ولا سَفَرٍ، إنما هي في المسلمين[2].

وقال ابنُ زيدٍ: نزلت هذه الآيةُ في رَجُلٍ تُوُفِّي وليس عنده أحدٌ من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حربٌ، والناسُ كفارٌ، وكانَ الناس يتوارثون بالوصية، ثم نُسخت الوصية وفرضت الفرائض، وعمل الناس بها.

رواه ابن جرير[3]، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جَرير: اختلف في قوله: ﴿شهادة بينكم إذا حضَر أحدكم الموتُ حين الوصية اثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخران من غيركم﴾، هل المراد أن يُوصِيَ إليهما، أو يُشْهِدَهما؟ علىقولين:

أحدهما: أن يوصي إليهما، كما قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط قال: سئل ابن مسعود - رضي الله عنه - عن هذه الآية قال: هذا رجل سافر ومعه مالٌ، فأدركه قَدَرُه، فإن وجد رَجُلين من المسلمين دَفَع إليهما تَرِكَته، وأشهد عليهما عَدْلَين من المسلمين. رواه ابن أبي حاتم، وفيه انقطاع.

والقول الثاني: أنهما يكونا شاهدين. وهو ظاهرُ سياقِ الآية الكريمة، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قِصَّةِ تميم الداري، وعَدِيِّ بن بَدَّاء، كما سيأتي ذكرها آنفاً، إن شاء الله وبه التوفيق.

وقد استشكل ابنُ جرير كونَهما شاهِدَين، قال: «لأنا لا نعلم حُكْماً يَحْلِفُ فيه الشاهد». وهذا لا يمنع

(١) تفسير الطبري ٧/١٠٤.
(٢) تفسير الطبري ٧/١٠٦.
(٣) تفسير الطبري ٧/١٠٦. والأثر فيه عن زيد بن أسلم.

الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقلٌ بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكمٌ خاصٌ بشهادة خاصَّة في مَحلٍ خاص، وقد اغتُفِر فيه من الأمور ما لم يغتَفَرْ في غيره، فإذا قامت قرائنُ الرِّيبة حَلَف هذا الشاهدُ بمقتضى ما دَلَّت عليه هذه الآية الكريمةُ.

وقوله تعالى: ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة﴾ قال: ابن عباس يعني صلاة العصر.

وكذا قال سعيد بن جُبَير، وإبراهيم النخَعي، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن سيرين.

وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين.

وقال السدِّيُّ، عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما.

والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناسُ فيها بحضرتهم، ﴿فيقسمان بالله﴾، أي: فيحلفان بالله ﴿إن ارتبتم﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبةٌ، أنهما قد خانا أو غَلَّا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لا نشتري به﴾، أي: بأيماننا. قاله مقاتل بن حيان ﴿ثمناً﴾، أي: لا نعتاضُ عنه بعَوضٍ قليل من الدنيا الفانية الزائلة، ﴿ولو كان ذا قربى﴾، أي: ولو كان المشهودُ عليه قريباً إلينا لا نُحابِيه، ﴿ولا نكتُمُ شهادةَ الله﴾، أضافها إلى الله تشريفاً لها، وتعظيماً لأمرها.

وقرأ بعضُهم: «ولا نكتم شهادةً، آللهِ»، مجروراً على القسم. رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي. ولا نكتم شهادةً، الله[1] والقراءة الأولى هي المشهورة.

﴿إنا إذاً لمن الآثمين﴾، أي: إن فعلنا شيئاً من ذلك، من تَحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها، أو كَتْمِها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿فإن عُثِر على أنهما استحقَّا إثماً﴾، أي: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهِدَين الوصيَّين، أنهما خانا أو غَلَّا شيئاً من المالِ الموصَى به إليهما، وظُهِرَ عليهما بذلك، ﴿فآخران يقومان مقامهما من الذين استُحِقَّ عليهم الأوليان﴾. هذه قراءةُ الجمهور: ﴿استُحِقَّ عليهم الأوليان﴾. وَرُوِيَ عن عليٍّ وأُبَيٍّ، والحسنِ البصريِّ أنهم قرؤوها: ﴿استَحَقَّ عليهم الأوليان﴾[2].

وقد روى الحاكم في المستدرك من طريق إسحاقَ بن محمد الفَرْوِيِّ، عن سليمان بن بلال، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عبيد الله بن أبي رافع، عن علي بن أبي طالب أن النبي ـ ﷺ ـ قرأ: (من الذين استَحَقَّ عليهم الأَوْليان). ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[3].

[وقرأ بعضهم، ومنهم ابن عباس: (من الذين استحق عليهم الأَوَّلِينَ)]. وقرأ الحسن: (من الذين استحق عليهم الأَوْلان)، حكاه ابنُ جرير[4].

فعلى قراءة الجمهور يكونُ المعنى بذلك: أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما، فليَقُمْ اثنان من الورثة المستحقِّين للتركة، ولْيَكونا من أَوْلي من يَرِث ذلك المالَ ﴿فَيُقسمانِ بالله لشهادتنا أحقُّ من

(١) يقول الألوسي في روح المعاني ٧/ ٥٠: «ورُوِي عن الشعبي أنه وقف على (شهادة) بالهاء، ثم ابتدأ (آلله) بالمد والجرّ. . . ورُوِي عنه (ألله)، بدون مد». بتصرف، وانظر فيه توجيه القراءتين، وانظر أيضاً المحتسب ١/ ٢٢١، والبحر المحيط ٤/ ٤٤.
(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٥٦، وتفسير الطبري ٧/ ١١٨.
(٣) المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٢٣٧.
(٤) تفسير الطبري ٧/ ١١٨.

شهادتهما﴾، أي: لقولنا إنهما خانا أحقُّ وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدِّمة ﴿وما اعتدينا﴾، أي: فيما قلنا من الخيانة ﴿إنا إذاً لمن الظالمين﴾، أي: إنْ كُنَّا قد كَذبنا عليهما.

وهذا التحليفُ للورَثَةِ، والرجوعُ إلى قولهما والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لَوْثٌ[1] في جانب القاتل، فَيُقسِم المستَحِقّون على القاتل، فيدفَع بِرُمَّته إليهم، كما هو مُقَرَّر في باب «القَسامة» من الأحكام.

وقد وَرَدَتِ السنةُ بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فقال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن زياد، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبي النَّضْر، عن باذان ـ يعني أبا صالح مولى أم هانىء بنتِ أبي طالب ـ عن ابن عباس، عن تَميمٍ الداريِّ في هذه الآيَةَ: ﴿يا أيها الذين آمنوا، شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾، قال: بَرِىء الناس منها غيري وغير عَديّ بن بَدَّاء. وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشامَ لتجارتهما وقَدِم عليهما مولى لبني سهم، يقال له: بُدَيل بن أبي مَرْيَم، بتجارةٍ ومعه جام[2] من فضة يُريد به المَلِك، وهو عُظْم تجارته[3]. فَمَرِضَ فأوصى إليهما، وأمرهما أن يُبَلِّغا ما تَرَك أهلَه. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجامَ، فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعديُّ بن بَدَّاء. فلما قَدِمنا إلى أَهْلِه دَفَعنا إليهم ما كان معنا، وفَقَدوا[4] الجام. فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غَيْرَ هذا، وما دفع إلينا غَيْرَه. قال تَميمٌ: فلما أسلمت بعد قُدُوم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة، تأثَّمتُ[5] من ذلك، فأتيتُ أهلَه فأخبرتهم الخبر، ودفعتُ إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلَها. فوثَبُوا إليه، فأمرهم أن يَسْتَحلِفوه بما يُعَظِّمُ به على أهل دينه، فَحَلَف، فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾. . . إلى قوله: ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾. فقام عمرو بن العاص ورجلٌ آخَرُ منهم فحلفا، فنُزِعتِ الخمسمائة من عَدِيٍّ بن بَدَّاء.

وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي وابنُ جرير كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شُعَيب الحَرَّاني، عن محمد بن سَلَمة، عن محمد بن إسحاقَ، به. فذكره، وعنده: «فأتوا به رسولَ الله ـ ﷺ ـ فسألهم البينةَ، فلم يجدُوا، فأمرهم أن يَستحلِفُوه بما يُعظِّم به على أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ إلى قوله: ﴿أو يخافوا أن تُرَد أيمان بعد أيمانهم﴾، فقام عمرو بن العاص ورجلٌ آخر، فحلفا. فَنُزِعَتِ الخمسمائة من عَدِيٍّ بن بَدَّاء.

ثم قال: «هذا حديث غريب، وليس إسنادُه بصحيح، وأبو النضر الذي رَوَى عنه محمدُ بن إسحاقَ هذا الحديثَ هو عندي محمد بن السائب الكلبيُّ، يكنى أبا النضر، وقد تَرَكه أهلُ العلم بالحديثِ، وهو صاحبُ التفسير، سمعتُ محمد بن إسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر. ثم قال: ولا نعرفُ لسالم أبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانىء، وقد رُوِي عن ابنِ عباس شيءٌ من هذا على الاختصار من غيرِ هذا الوَجْهِ»[6].

(١) اللَّوْثُ: أن يشهد شاهد واحدٌ على إقرار المقتول قبل أن يموت أن فلاناً قتلني. أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما، أو تهديد منه له، أو نحو ذلك.

(٢) الجامُ: إناءٌ للشرب والطعام من فضَّةٍ أو نحوها. وقد غلب استعمالها في قَدَح الشراب.

(٣) أي: أكثرها.

(٤) أي: لم يجده أهل بُدَيل في متاعه.

(٥) أي: تحرَّجتُ.

(٦) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١١/١٨٢ ـ ١٨٣. وتفسير الطبري ٧/١١٥.

حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم، عن ابن أبي زائدة، عن محمد بن أبي القاسم، عن عبد الملك بن سعيد بن جُبَير، عن أبيه، عن ابنِ عباس قال: خرج رجلٌ من بني سَهْمٍ مع تميم الداريِّ وعديِّ ابن بَدَّاءٍ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلمٌ. فلما قَدِما بتركته فَقَدُوا جاماً من فضة مُخَوَّصاً[١] بالذهب، فَأحْلَفَهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ ووجَدُوا الجام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميمٍ وعَدِيٍّ. فقام رجلان من أولياءِ السهميِّ، فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإنَّ الجام لِصَاحبهم. وفيهم نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾[٢].

وكذا رواه أبو داود، عن الحسن بن علي، عن يحيى بن آدم، به. ثم قال الترمذيّ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وهو حديث ابن أبي زائدة[٢].

ومحمد بن أبي القاسم، كوفي، قيل: إنه صالح الحديث. وقد ذَكَر هذه القصة مرسلةً غيرُ واحد من التابعين، منهم: عكرمةُ، ومُحمَّد بن سيرينَ، وقتادَةُ. وذكروا أن التحليف كان بعد صَلاةِ العصر، رواه ابنُ جَرير[٣]. وكذا ذكرها مرسلةً: مجاهدٌ، والحسَنُ، والضَّحاك. وهذا يدلُّ على اشتهارها في السَّلَفِ وصِحَّتِها.

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه أبو جعفر بن جرير:

حدثني يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا زكريا، عن الشعبيِّ: أن رجلاً من المسلمين حضَرْته الوفاةُ بدَقُوقا[٤]. قال: فحضرته الوفاةُ ولم يجد أحداً من المسلمين يُشْهِدُه على وَصِيَّته، فأشهد رَجُلين من أهل الكتاب. قال: فَقَدِما الكوفة، فأتيا الأشعري ـ يعني أبا موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ فأخبراه، وقَدِما بتركَته وَوَصِيَّته، فقال الأشعري: هذا أمرٌ لم يكن بعد الذي كان في عهد النبي ﷺ. قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كَذَبا ولا بدَّلا ولا كتما ولا غَيَّرا، وإنها لَوَصِيَّةُ الرَّجُلِ وتركته. قال: فأمضى شهادتهما[٥].

ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن مغيرة الأزرق، عن الشعبي أن أبا موسى قضى به بدقوقا[٦].

وهذان إسنادان صحيحانِ إلى الشعبيِّ، عن أبي موسى الأشعري.

فقوله: «هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عَهْدِ رسول الله ﷺ»، الظاهر، والله أعلم، أنه إنما أراد بذلك قِصَّة تميم وعَديِّ بن بَدَّاء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداريِّ ـ رضي الله عنه ـ كان في سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاجُ مُدَّعي نَسْخِه إلى دليلٍ فاصلٍ في هذا المقام، والله أعلم.

---

(١) أي: مُزَيَّناً بصفائح الذهب على قَيْد غَرْضِ الخُوص.

(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة المائدة ١١/١٨٣ ـ ١٨٤، وسنن أبي داود، كتاب الأقضية ٣/٣٠٧ ـ ٣٠٨.

هذا وقد أخرج البخاري هذا الحديث في كتاب الوصايا، فقال: «وقال لي علي بن عبدالله، حَدَّثنا يحيى بن آدم، به». وقال ابن حَجَر في فتح الباري ٥/٤١٠: «أخرجه المصنف في التاريخ فقال: حَدَّثنا علي بن المديني. وهذا مما يقوّي ما قرّرته غير مَرَّة من أنه يُعَبِّر بقوله: وقال لي، في الأحاديث التي سمعها، لكن حيث يكون في إسنادها عنده نظر أو حيث تكون موقوفة».

(٣) انظر تفسير الطبري ٧/١١٦.

(٤) دقوقاً، ودقوقاءُ: مدينة بين إربل وبغداد.

(٥) تفسير الطبري ٧/١١٠.

(٦) تفسير الطبري ٧/١٠٥.

وقال أسباطٌ، عن السدِّيِّ ﴿يا أيها الذين آمنوا، شهادةُ بينكم إذا حَضر أحَدَكم الموتُ حين الوصيةِ اثنان ذوا عدل منكم﴾، قال: هذا في الوصيةِ عند الموتِ، يُوصِي ويُشْهِدُ رَجُلَين من المسلمين على مالِهُ وما عليه، قال: هذا في الحَضر، ﴿أو آخرانِ من غَيْركم﴾ في السفر، ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبةُ الموت﴾، هذا الرجل يدركه الموتُ في سفره، وليس بحضرته أحدٌ من المسلمين، فيدعو رَجُلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصي إليهما، ويدفع إليهما ميراثَه، فيقبلان به، فإن رَضِي أهلُ الميِّت الوصية وعَرَفوا مال صاحبهم تركوا الرجلين. وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان. فذلك قولُه تعالى: ﴿تحبِسُونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم﴾. قال عبد الله بن عباس: كأني أنظر إلى العِلْجَيْن(١) حين انتُهي بهما إلى أبي موسى الأشعريِّ في داره، ففتح الصَّحِيفة، فأنكر أهل الميت وخَوَّنوهما(٢). فأراد أبو موسى أن يَسْتَحْلِفَهما بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاةَ العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فيُوقَفُ الرجلان بعد صلاتهما في دينهما، فَيحلفان: بالله لا نشتري به ثمناً قليلاً ولو كان ذا قربى، ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين، إنَّ صاحبهم لبهذا أوصى، وإنَّ هذه لَتركَتُه. فيقُولُ لهما الإمامُ قبل أن يحلفا: إنكما إن كَتَمْتما أو خُنْتما فَضَحتكما في قومكما، ولم تَجزُ لكما شهادة، وعاقبتكما. فإذا قال لهما ذلك، فإن ذلك أدنى أن يأتُوا بالشهادة على وجهها. رواه ابن جرير(٣).

وقال ابن جرير: [حَدَّثنا القاسم](٤)، حدثنا الحسين، حدثنا هُشَيم، أخبرنا مغيرةَ، عن إبراهيم وسعيد بن جُبَير: أنهما قالا في هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم﴾... الآية، قالا: إذا حَضَر الرجل الوفاة في سَفَر، فَلْيُشْهد رجلين من المسلمين. فإن لم يَجدْ رَجُلينِ من المسلمين فَرَجُلَين من أهل الكتاب، فإذا قدما بتركته، فإنْ صدقهما الورثة قُبِل قولُهما، وإن اتهموهما أُحْلِفا بعد صلاة العصر: بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خُنَّا ولا غَيَّرنا(٥).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: فإن ارْتِيبَ في شهادتهما استُحْلِفا بعد الصلاة: بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً. فإن اطَّلَعَ الأولياءُ على أن الكافرين كَذَباً في شهادتهما، قام رَجُلانِ من الأولياء فحلفا بالله: إنَّ شهادةَ الكافِرَين باطلةٌ وإنا لم نَعْتَدِ، فذلك قولُه: ﴿فإن عُثِر على أنهما استحقَّا إثماً﴾، يقول: إن اطُّلعَ على أن الكافِرَين كَذَبَا ﴿فآخران يقومان مقامهما﴾، يقول: من الأولياء، فَحلفا بالله: إنَّ شهادَةَ الكافِرَين باطلةٌ، وإنا لم نَعْتَدِ، فَتُرَدُّ شهادةُ الكافِرَيْن، وتجوزُ شهادةُ الأولياء.

وهكذا رَوى العَوْفِيُّ، عن ابن عباس. رواهما ابن جرير(٦).

وهكذا قرَّر هذا الحُكْمَ على مقتضَى هذه الآيةِ غيرُ واحدٍ من أئمة التابعين والسَّلف، رَضِي الله عنهم. وهو مذهبُ الإمامِ أحمدَ رَحِمَه الله.

وقولُه: ﴿ذلك أدنى أن يأتُوا بالشَّهادةِ على وجهها﴾، أي: شَرْعيَّةُ هذا الحكم على هذا الوجه

---

(١) العِلْجُ: الرجل من كفار العجم.
(٢) في نسخة: وضربوهما.
(٣) تفسير الطبري ٧/١١٠ ـ ١١١.
(٤) عن تفسير الطبري.
(٥) تفسير الطبري ٧/١١٠.
(٦) تفسير الطبري ٧/١١٣.

المرضيِّ، من تحليف الشاهدين الذميين وقد استُرِيب بهما، أقربُ إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضيِّ.

وقوله: ﴿أو يخافوا أن تُرَدَّ أيمانٌ بعد أيمانهم﴾، أي: يكونُ الحاملُ لهم على الإتيان بالشهادة على وَجْهِها، وهو تعظيم الحَلِف بالله ومراعاةُ جانبه وإجلاله، والخوفُ من الفضيحة بين الناس إذا رُدَّت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقُّون ما يَدَّعون. ولهذا قال: ﴿أو يخافوا أن تُرَدَّ أيمان بعد أيمانهم﴾.

ثم قال: ﴿واتَّقوا الله﴾، أي: في جميع أموركم ﴿واسمَعُوا﴾، أي: وأطيعوا، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، أي: الخارجين عن طَاعَتِه ومُتَابعَةِ شَرِيعته.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾

هذا إخبارٌ عما يخاطِبُ الله به المرسلينَ يوم القيامة، عما أُجِيبُوا به من أُمَمِهم الذين أَرْسَلَهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنسألَنَّ الذين أرسل إليهم وَلَنسألَنَّ المرسلين﴾، وقال تعالى: ﴿فَوَربِّكَ لنسألَنَّهم أجمَعِينَ. عما كانوا يعملون﴾.

وقولُ الرسل: ﴿لا علم لنا﴾، قال مجاهد، والحسن البصري، والسُّدِّيُّ: إنما قالوا ذلك من هَوْلِ ذلك اليوم(١).

قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن الأعمش، عن مجاهد: ﴿يوم يجمعُ الله الرسل فيقولُ ماذا أجبتُم﴾ فيفزعون فيقولون: ﴿لا علم لنا﴾. رواه ابن جرير(١) وابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حَكَّام، حدثنا عَنْبَسةُ قال: سَمِعتُ شيخاً يقول: سَمِعت الحسن يقول في قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾... الآية، قال: من هول ذلك اليوم(١).

وقال أسباطُ، عن السدِّيِّ: ﴿يوم يجمعُ الله الرسل فيقول ماذا أجبتُم قالوا لا علم لنا﴾، ذلك: أنهم نَزَلوا منزلاً ذهِلَت فيه العقولُ، فلما سُئِلوا قالوا: ﴿لا علم لنا﴾ ثم نزلوا مَنْزِلاً آخَرَ، فَشَهِدوا على قومهم. رواه ابن جرير.

ثم قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثنا حَجّاج، عن ابن جُرَيج قوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾، ماذا عملوا بعدكم، وماذا أَحدَثُوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿يوم يجمعُ الله الرسل فيقول ماذا أجبتُم قالوا لا عِلْم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾، يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا إلا علمٌ أنت أعلم به منا.

رواه ابن جرير. ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة. ولا شك أنه قولٌ حسن، وهو من باب التأدب مع الرب عز وجل، أي: لا علم لنا بالنسبةِ إلى علمك المحيطِ بكلِّ شيء، فنحنُ وإن كنا قد أجبنا وعَرَفنا من أجابنا، ولكن منهم من كنا إنما نَطَّلعُ على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليمُ بكلِّ شيء، المطَّلعُ على كلِّ شيء. فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علمٍ، فإنك ﴿أنت عَلَّامُ الغُيُوب﴾.

---

(١) تفسير الطبري ٧/١٢٥.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

يذكرُ تعالى ما امتنَّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مَرْيَم، مما أجراه على يديه من المعجزات وخَوارقِ العادات، فقال تعالى: ﴿وإذ قال الله: يا عيسى ابنِ مريم اذكر نعمتي عليك﴾، أي: في خلقي إياك من أمٍّ بلا ذَكَرٍ، وجعلي إياك آيةً ودلالَةً قاطعةً على كمال قُدرتي على الأشياء، ﴿وعلى والدتك﴾، حيث جَعلتُك لها برهاناً على براءتها مما نَسَبه الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة، ﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ وجعلتُكَ نَبياً داعياً إلى الله في صِغَرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صَغيراً، فَشهدْتَ ببراءة أُمِّك من كُلِّ عيب، واعترفتَ لي بالعُبُوديَّة، وأخبرتَ عن رسالتي إياك ودعوتكَ إلى عبادتي، ولهذا قال تعالى: ﴿تُكَلِّم الناس في المهد وَكَهْلاً﴾، أي: تدعو إلى الله الناس في صِغَرك وكِبَرك. وضُمِّنَ «تكلم» تدعو، لأنَّ كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عَجيب.

وقولُه: ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة﴾، أي: الخطّ والفَهْم ﴿والتوراة﴾، وهي المنزلة على موسى ابن عمران الكليم. وقد يَرِدُ لفظُ التوراة في الحديث، ويُرَاد به ما هو أعم من ذلك.

وقولُه: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني﴾، أي: تُصوِّره وتُشكِّله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك، فيكون طائراً بإذني، أي: فتنفُخُ في تلك الصورةِ التي شَكَّلتُها بإذني لك في ذلك، فتكونُ طيراً ذا رُوحٍ بإذن الله وخلقه.

وقولُه: ﴿وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني﴾، قد تَقَدَّم الكلامُ على ذلك في سورة «آل عمران» بما أغنى عن إعادته[1].

وقولُه: ﴿وإذ تُخْرِج الموتى بإذني﴾، أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقُدرته، وإرادته ومَشِيئته.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا محمد بن طلحة ـ يعني ابن مُصَرِّف ـ عن أبي بشر، عن أبي الهُذَيل قال: كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا أراد أن يُحيي الموتى صَلَّى ركعتين، يقرأ في الأولى: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾، وفي الثانية: ﴿الٓمٓ. تنزيل﴾ السجدة. فإذا فرغ منهما مَدَح الله وأثنى عليه، ثم دعا بسبعة أسماء: يا قديمُ، يا خَفِيُّ، يا دائم، يا فَرْدُ، يا وَتْرُ، يا أَحَدُ، يا صَمَدُ. وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة أخر: يا حيُّ، يا قَيُوم، ياألله، يا رحمنُ، يا ذا الجلال والإكرام، يا نور السموات والأرض وما بينهما وربُّ العرش العظيم، يا ربِّ.

وهذا أثرٌ عجيبٌ جداً.

---

(١) انظر تفسير الآية ٤٩ من سورة آل عمران.

وقولُه: ﴿وإذ كَفَفْتُ بني إسرائيل عنكَ إذْ جئتهم بالبيِّناتِ، فقال الذين كفروا منهم: إنْ هذا إلا سحرٌ مبينٌ﴾، أي: واذكر نعمتي عليك في كَفِّي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحُجَجِ القاطعة على نُبُوَّتك ورسالتك من الله إليهم، فكَذَّبوك واتَّهَمُوك بأنك ساحرٌ، وسَعَوا في قتلك وصلبك، فنَجَّيتك منهم، ورفعتُك إليَّ، وطَهَّرتُكَ من دَنَسِهم، وكَفيتُكَ شرَّهم، وهذا يدلُّ على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رَفْعِهِ إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعَبَّر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة. وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها رسولَه محمـداً ﷺ.

وقوله: ﴿وإذ أوحيـت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾، وهذا أيضاً من الامتنان عليه ـ عليه السلام ـ بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحيُ إلهامٍ، كما قال: ﴿وأوحينا إلى أُمِّ موسى أن أرضعيه﴾. . . الآية، وهذا وحيُ إلهام بلا خَوفٍ، وكما قال تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتَّخِذي من الجبال بيوتاً ومن الشَّجَرِ ومما يعرشون. ثم كُلِي من كلِّ الثمرات فاسلُكِي سُبُلَ رَبِّك ذُلُلاً﴾. . . الآية. وهكذا قال بعضُ السَّلَفِ في هذه الآية: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريِّين أن آمنوا بي وبرسولي، قالوا: آمنا، واشهد بأننا مسلمون﴾، أي: أُلهِمُوا ذلك فامتثلوا ما أُلهموا.

قال الحسن البصريُّ: أَلهمهم الله ـ عز وجل ـ ذلك. وقال السديُّ: قَذَف في قلوبهم ذلك[١].

ويَحتَمِلُ أن يكون المرادُ: وإذ أوحيتُ إليهم بواسِطَتِك، فدعوتَهم إلى الإيمان بالله وبـرسولـه، واستجابوا لك وانقـادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

هذه قصةُ المائدة، وإليها تُنسَب السورة فيقال: «سورة المائدة». وهي مما امتنَّ الله به على عبده ورسوله عيسى ـ عليه السلام ـ لما أجاب دُعاءه بنزولها، فأنزلها الله آيةً ودلالةً معجزةً باهرةً وحُجَّةً قاطعةً.

وقد ذكر بعضُ الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورةً في الإنجيل، ولا يَعرِفُها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إذ قال الحواريون﴾، وهم أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿يا عيسى ابن مريم، هل يستطيعُ ربُّك﴾ هذه قراءة كثيرين. وقرأ آخرون: (هـل تَسْتَطِيعُ رَبَّـك)[٢]، أي: هل تستطيع أن تسأل رَبَّك ﴿أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾.

والمائدة هي: الخِوانُ عليه طعامٌ. وذكر بعضُهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفَقْرِهم، فسألوا أن يُنَزِّل عليهم مائدةً كلَّ يوم يقتاتون منها، ويَتَقوَّون بها على العبادة.

(١) تفسير الطبري ١٢٨/٧.
(٢) هذه قراءة الكسائي من السبعة، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٣٦، والبحر المحيط ٥٤/٤.

قال: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾، أي: فأجابهم المسيحُ ـ عليه السلام ـ قائلاً لهم: اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنةً لكم! وتوكَّلوا على الله في طَلَب الرِّزْقِ إن كنتم مؤمنين.

﴿قالوا: نريد أن نأكُلَ منها﴾، أي: نحن محتاجون إلى الأكْل منها، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ إذا شاهَدْنا نُزُولَها رزقاً لنا من السماء، ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾، أي: ونزدادُ إيماناً بكَ وعلماً برسالتك، ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾، أي: ونشهدُ أنها آيةٌ من عند الله، ودَلالةٌ وحجَّةٌ على نُبُوَّتِكَ وصِدْقِ ما جئت به.

﴿قال عيسى ابنُ مريَمَ: اللهم ربَّنا، أنزِلْ علينا مائدةً من السماء، تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾. قال السدِّيُّ: أي نتخذُ ذلك اليومَ الذي نَزلَتْ فيه عيداً نعظمه نحن ومَنْ بعدنا. وقال سفيان الثوريُّ: يعني يوماً نصلي فيه. وقال قتادةُ: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. وعن سلمانَ الفارسيُّ: عِظَةً لنا ولمن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا وآخرنا.

﴿وآية منك﴾، أي: دليلاً تَنصِبُه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك دعوتي، فيصدقوني فيما أبلِّغه عنك، ﴿وارزقنا﴾ أي: من عندك رزقاً هنيئاً بلا كُلفة ولا تعب، ﴿وأنت خيرُ الرَّازقين. قال الله: إني مُنزِّلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم﴾، أي: فمن كَذَّب بها من أُمتك يا عيسى وعانَدَها ﴿فإني أُعذِّبه عذاباً لا أُعذِّبه أحداً من العالمين﴾، أي: من عالَمِيْ زمانكم، كقوله: ﴿ويوم القيامة أَدْخِلُوا آل فِرْعَون أشدَّ العذاب﴾، وكقوله: ﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار﴾.

وقد رَوَى ابنُ جرير، من طريق عَوفٍ الأعرابي، عن أبي المغيرة القَوَّاس، عن عبد الله بن عَمْرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كَفَر من أصحاب المائدةِ، وآلُ فِرْعَوْنَ»[١].

ذِكْرُ أخبار رُويت عن السَّلف في نزول المائدة على الحواريين

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحُسَين، حدثني حَجَّاج، عن لَيثٍ، عن عُقَيلٍ، عن ابن عباس: أنه كان يُحدِّث عن عيسى ابن مَرْيَم أنه قال لبني إسرائيل: «هل لكم أن تَصُوموا لله ثلاثين يوماً، ثم تَسْألوه فيعطِيَكم ما سألتم؟ فإنَّ أجر العامل على من عَمِل له. ففعلوا، ثم قالوا: يا مُعَلِّم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عَمِل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً، ففعلنا، ولم نكن نعمَلُ لأحد ثلاثين يوماً إلاّ أطعمنا حين نَفْرُغ طعاماً، فهل يستطيع ربُّك أن يُنَزِّل علينا مائدةً من السماء؟ قال عيسى: ﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا: نريدُ أن نأكُلَ منها وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صَدَقتنا ونكونَ عليها من الشَّاهدين * قال عيسى ابن مَرْيَم: اللهم رَبَّنا، أنزِلْ علينا مائدة من السماء، تكونُ لنا عيداً لأوَّلنا وآخِرنا، وآيةً منك، وارزُقْنا وأنتَ خَيْرُ الرَّازقين * قال الله: إني مُنَزِّلها عليكم، فمن يكفُرْ بعدُ منكم فَإِنِّي أعذِّبه عَذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين﴾. قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدةٍ من السماءِ، عليها سبعة أَحْوَاتٍ وسبعة أرغفة، حتى وَضَعَتها بين أيديهم، فأكلَ منها آخِرُ الناس كما أكَلَ منها أوَّلُهم»[٢].

كذا رواه ابن جرير: ورواه ابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وَهْبٍ، عن الليث، عن عُقَيل، عن ابن شهاب، قال: كان ابن عباس يحدث، فذكر نحوه.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زُرْعَةَ وهب الله بن راشد،

---

(١) تفسير الطبري ٧/١٣٦.
(٢) تفسير الطبري ٧/١٣٠ ـ ١٣١.

حدثنا عُقَيلُ ابن خالد، أن ابن شهاب أخبره، عن ابن عباس، أن عيسى ابن مَرْيَم قالوا له: ادْعُ الله أن يُنَزِّل علينا مائدةً من السماء. قال: فنزلت الملائكةُ بمائدةٍ يحملونها، عليها سبعة أَحْواتٍ، وسَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ، فأكلَ منها الناس كما أكل منها أولهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن قَزَعة الباهلي[1]، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادَةَ، عن خِلَاس، عن عَمَّار بن ياسر، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: نَزَلت المائدةُ من السَّماءِ، عليها خبزٌ ولحمٌ، وأمروا ألَّا يخونوا ولا يرفعوا لِـغَدٍ، فخانوا وادَّخروا ورفَعوا، فَمُسِخُوا قردةً وخنازِيرَ.

وكذا رواه ابنُ جرير[2]، عن الحسن بن قَزَعَةَ. ثم رواه ابن جرير، عن ابن بشار، عن ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن خِلَاس، عن عَمّار، قال: نزلت المائدةُ وعليها ثَمَرٌ من ثمار الجنة، فَأُمِرُوا ألَّا يخونوا ولا يَخْبَئُوا ولا يَدَّخِرُوا. قال: فخانَ القومُ وَخبَئُوا وادَّخَرُوا، فَمَسَخَهُم الله قردةً وخنازير[2].

وقام ابن جرير: حدثنا ابن[3] المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داودُ، عن سِماك بن حَرْبٍ، عن رَجُلٍ من بني عِجْلٍ، قال: صَلَّيتُ إلى جَنْبِ عَمَّار بن ياسر، فلما فَرَغَ قال: هل تَدْرِي كيف كانَ شأنُ مائدةِ بني إسرائيل؟ قال قلت: لا. قال: إنهم سألوا عيسى ابنَ مريم مائدةً يكون عليها طعامٌ يأكلون منه لا يَنْفَدُ. قال: فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تَخْبَئُوا أو تخونوا أو ترفعوا، فإن فعلتم فإن مُعَذِّبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين. قال: فما مضى يومهم حتى خَبَئُوا وَرَفَعُوا وخانوا، فَعُذِّبوا عذاباً لم يُعَذَّبه أحدٌ من العالمين. وإنكم ـ معشرَ العرب ـ كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء، فبعث الله فيكم رَسُولاً من أنفسكم، تعرفون حَسَبه وَنَسبه، وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم، ونهاكم أن تكتنزوا الذهب والفضة. وَايمُ الله، لا يذهب الليل والنهار حتى تكتنزوهما، ويعذبكم عذاباً أليماً.

وقال: حدثنا القاسم، حدثنا حُسَين، حدثني حَجّاج، عن أبي معشر، عن إسحاقَ بن عبد الله: أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم، عليها سبعةُ أرغِفَةٍ وسبعة أحواتٍ، يأكلون منها ما شاءوا؛ قال: فَسَرَقَ بعضُهم منها وقال: «لعلها لا تنزل غداً» فَرُفِعت[4].

وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت على عيسى ابنِ مَرْيَم والحوارِيِّين، خِوَانٌ عليه خبزٌ وسَمَك، يأكلون منه أينما نَزَلُوا إذا شاءوا.

وقال خُصَيف، عن عكرمة ومِقْسَم، عن ابن عباس: كانت المائدة سَمَكَةً وأرغفة.

وقال مجاهد: هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا.

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: نزلت المائدةُ خبزاً وسمكاً.

وقال عطية العَوْفِيُّ: المائدة سمكٌ فيه طَعْمُ كلِّ شيء.

وقال وهبُ بن مُنَبِّه: أنزلها من السماء على بني إسرائيل، فكان ينزلُ عليهم في كلِّ يوم في تلك المائدةِ من ثمار الجَنَّة، فأكلُوا ما شاءوا من ضُرُوب شتى، فكان يَقْعُدُ عليها أربعةُ آلافٍ، فإذا أكلوا أبدل الله مكانَ ذلك لمثلهم، فَلَبِثُوا بذلك ما شاء الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) كذا، وفي الجرح والتعديل ٣/٣٤: «الحسن بن قزعة أبو علي البصري». وفي تهذيب الكمال ٦/٣٠٣: «القرشي الهاشمي».
(٢) تفسير الطبري ٧/١٣٤.
(٣) في تفسير الطبري ٧/١٣٤: «حدثنا المثنى».
(٤) تفسير الطبري ٧/١٣٣.

وقال وهب بن مُنَبِّه: نَزَلَ عليهم قِرصَةٌ[1] من شعير وأحواتٌ، وحشا الله بين أضعافهن البركة، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون، ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون، حتى أكل جميعُهم وأفضلوا.

وقال الأعمش، عن مسلم، عن سعيد بن جُبير: أُنزِلَ عليها كلُّ شيء إلاّ اللحم.

وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن زاذان وميسرة، وجَرير عن عطاء، عن مَيْسَرة قال: كانت المائدة إذا وُضِعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكلِّ طعام إلاّ اللَّحْمَ[2].

وعن عكرمةَ: كان خبزُ المائدة من الأُرزِ، رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا جعفر بن علي فيما كَتَبَ إلي: حدثْنا إسماعيلُ بن أبي أويس، حدثني أبوعبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن عُبَيد الله بن مِرْداس العَبْدَرِيُّ ـ مولى بني عبد الدار ـ عن إبراهيم ابن عُمَر، عن وهب بن مُنَبِّه، عن أبي عثمان النهدِيّ، عن سَلْمان الخير أنه قال: لما سأل الحواريُّون عيسى ابنَ مريم المائدةَ، كَرِه ذلك جداً وقال: اقنَعُوا بما رَزَقكم الله في الأرض، ولا تسألوا المائدةَ من السماء، فإنها إن نزلَتْ عليكم كانت آيةً من ربكم، وإنما هلكت ثمودُ حين سألوا نَبِيَّهم آيةً، فابتُلُوا بها حتى كان بَوارُهم فيها. فأبوا إلاّ أن يأتيهم بها، فلذلك قالوا: ﴿نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا﴾ . . . الآية.

فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلاّ أن يَدْعُو لهم بها، قام فألقى عنه الصُّوف، ولبس الشعر الأسود وجُبَّةً من شَعَرٍ، وعباءةً من شَعَرٍ، وتوضأ واغتسل، ودخل مُصَلاّه فَصَلَّى ما شاء الله، فلما قَضَى صلاته قام قياماً مستقبل القِبلة وصَفَّ قدميه حتى استويا، فألصق الكَعْبَ وحاذى الأصابع، ووضع يدَه اليُمنى على اليسرى فوق صَدْره، وغَضَّ بصره، وطأطأ رأسه خشوعاً، ثم أرسل عَيْنَيه بالبكاء، فما زالت دموعُه تسيل على خدَّيه وتقطُر من أطراف لحيته حتى ابتلَّت الأرضُ جيال[3] وجهه من خُشوعه، فلما رأى ذلك دعا الله فقال: ﴿اللهم رَبَّنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾، فأنزل الله عليهم سُفْرَةً حمراءَ بين غمامتين: غمامةٌ فوقَها وغمامةٌ تحتَها، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فَلَكِ السماء تَهْوِى إليهم، وعيسى يبكي خوفاً للشروط التي اتَّخذها الله عليهم، فيها: أنه يُعَذِّب من يكفُر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين، وهو يدعو الله من مكانه ويقول: إلٰهي اجعلها رحمةً لهم ولا تجعلها عذاباً، إلٰهي كم من عَجِيبةٍ سألتُكَ فأعطيتني! إلٰهي اجعلنا لك شاكرين، اللهم إني أعوذُ بك أن تكون أنزلتَها غَضَباً وجزاء، إلٰهي اجعلها سَلامةً وعافيةً، ولا تجعلها فتنة ومُثْلَةً[4].

فما زال يدعو حتى استقرَّتِ السُّفْرَةُ بين يَدَيْ عِيسى والحواريِّين، وأصحابُه حَوْلَه يَجِـدُون رائحةً طيبةً لم يَجِدُوا فيما مضى رائحةً مثلَها قَطُّ، وخرَّ عيسى والحواريون لله سجداً شكراً له لما رزقهم مِن حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عَجَبٍ وعبرةٍ. وأقبلت اليهودُ ينظرون فرأوا أمراً عَجيباً أورثَهم كَمَداً وغَمّاً، ثم انصرفوا بغيظٍ شديدٍ. وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جَلَسُوا حول السُّفْرَة، فإذا عليها منديلٌ مُغطّىً. قال عيسى: من أَجْرَؤُنا على كشف المِنْدِيل عن هذه السفرة، وأوثقنا بنفسه، وَأَحْسَنُنا بلاءً عند ربِّه، فَلْيَكْشِف عن هذه الآيةِ حَتّى نراها ونحمَدَ رَبَّنا، ونذكُرَ باسمِه، ونأكل من رزقه الذي رزقنا. قال الحورايون: يا روحَ الله وكَلِمَتَه، أنْتَ أولانا بذلك، وأحقُّنا بالكشف عنها. فقام عيسى ـ عليه السلام ـ فاستأنف وضوءاً جديداً، ثم دخل

(١) القُرْصَةُ: خبزة صَغيرة مَبْسُوطةٌ مُدَوَّرة.
(٢) تفسير الطبري ٧/١٣٤.
(٣) في نسخة: ومال وجهه.
(٤) المُثْلَةُ: العقوبة والتنكيل.

مُصَلَّاه فصلَّى كذلك ركعاتٍ، ثم بكى طويلاً، ودعا الله أن يَأْذَنَ له في الكَشْفِ عنها، ويجعَلَ له ولقومه فيها بَركةً ورزْقاً. ثم انصرَفَ فَجلَسَ إلى السُّفْرَةِ وتناول المنديل، وقال: «باسم الله خير الرازقين»، وكشف عن السفرة، فإذا هو بِسَمَكة ضَخْمةٍ مَشْوِيَّةٍ، ليس عليها بواسير، وليس في جوفها شوك، يسيلُ السمن منها سيلاً. قد نُضِدَ[1] حوْلَها بقولٌ من كلِ صِنْفٍ غير الكُرَّاثِ، وعند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وحَوْلَ البُقولِ خمسةُ أرغِفَةٍ، على واحدٍ منها زيتونٌ، وعلى الآخر ثَمَراتٌ، وعلى الآخر خَمْسُ رُمَّانات.

فقال شمعون رأسُ الحواريِّين لعيسى: يا روح الله وكلمته، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال: أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات، وتنتهوا عن تَنْقِير المسائل؟ ما أخوفني عليكم أن تُعاقَبُوا في سبب هذه الآية! فقال شمعون: وإلَهِ إسرائيلَ ما أردتُ بها سؤالاً يا ابن الصدِّيقة. فقال عيسى عليه السلام: ليس شيءٌ مما تَرَون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيءٌ ابتَدَعه الله في الهَواءِ بالقدرة الغالبةِ القاهرة، فقال له: كُن. فكان أسرعَ من طرفَةِ عينٍ، فكلوا مما سألتم باسم الله، واحمَدُوا عليه رَبَّكُم يُمِدّكم منه ويَزِدْكُم، فإنه بديع قادر شاكر.

فقالوا: يا روح الله وكلمته، إنا نحبُّ أن تُرِيَنا آيةً في هذه الآية. فقال عيسى: سبحان الله! أما اكتفيتم بما رأيتم في هذه الآية حتى تسألوا فيها آيةً أخرى؟ ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة، فقال: يا سمكَةُ، عُودِي بإذن الله حَيَّةً كما كنتِ. فأحياها الله بقدرته، فاضطربت وعادت بإذن الله حَيَّةً طَرية، تَلَمَّظُ[2] كما يَتَلَمَّظُ الأسد، تدور عيناها لها بصيصٌ، وعادت عليها بواسيرُها. فَفَزِع القومُ منها وانحازوا[3]. فلما رأى عيسى ذلكَ منهم قال: ما لكم تسألون الآية فإذا أراكُمُوها ربكُم كَرِهتموها؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون! يا سمكَةُ، عُودِي بإذن الله كما كنتِ. فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خَلْقِها الأول.

فقالوا لعيسى: كن أنت يا روح الله الذي تبدأُ الأكلَ منها، ثُمَّ نحن بعدُ. فقال عيسى: معاذ الله من ذلك! يبدأُ بالأكل منها من طَلَبَها. فلما رأى الحواريُّون وأصحابُهم امتناعَ نَبِيِّهم منها، خافوا أن يكون نزولها سَخْطةً وفي أكلها مُثْلَةً[4]، فتحاموها. فلما رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزَّمْنَى، وقال: كُلُوا من رِزْقِ رَبِّكم ودَعْوَةِ نَبِيِّكم، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم، فيكون مَهْنَؤُها لكم وعقوبَتُها على غيركم، وافتتحوا أَكْلَكُم باسم الله واختِمُوه بحمد الله. فَفَعلُوا، فأكل منها ألفٌ وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة، يَصْدُرُون عنها كلُّ واحدٍ منهم شبعانُ يَتَجشَّأُ. ونظر عيسى والحواريُّون فإذا ما عليها كهيئَتِهِ إذْ أُنزِلَت من السماء، لم ينتقِصْ منها شيءٌ، ثم إنَّها رُفِعت إلى السماء وهم ينظُرُون، فاستغنى كلُّ فقيرٍ أَكَل منها، وبَرِىء كلُّ زَمِنٍ أَكَل منها، فلم يزالوا أغنياء صِحَاحاً حتى خَرَجُوا من الدنيا.

ونَدِم الحواريُّون وأصحابهم الذين أَبوا أن يأكُلوا منها ندامة سالت منها أشفارُهم، وبقيت حَسْرَتُها في قلوبهم إلى يوم الممات، قال: فكانت المائدةُ إذا نَزَلت بعد ذلك أقبلت بَنُو إسرائيلَ إليها من كلِّ مكان يَسْعَون يُزاحم بعضُهم بعضاً: الأغنياءُ والفقراءُ، والصِّغارُ والكبارُ، والأَصِحَاءُ والمرضَى، يركب بعضُهم بعضاً. فلما رأى ذلك جَعَلَها نوائبَ، تَنْزِلُ يوماً ولا تنزِلُ يوماً، فَلَبِثوا على ذلك أربعين يوماً، تنزل عليهم عند ارتفاع

(١) أي: ضُمَّ بعضه إلى بعض مُنَسَّقاً. وفي نسخة: «وقد تحلّق بها بقول».

(٢) لمظ يلمُظ لمظاً، وتلمّظ: إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فيه، أو أخرج لسانه فمسح به شفتيه، ويقال: تلمَّظتِ الحيةُ: إذا أخرجت لسانها كتلمّظ الآكل.

(٣) انحازوا: تركوا مركزهم إلى آخر. وفي نسخة: انحاسوا.

(٤) أي: عقوبة.

الضُّحَى، فلا تزال موضوعةً يؤكل منها، حتى إذا قاموا[١] ارتفعت عنهم بإذن الله إلى جو السماء، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى تَوَارَت عنهم.

قال: فأوحى الله إلى نبيه عيسى عليه السلام: أن أجعَلْ رزقي في المائدة لليتامى والفقراء والزَّمْنَى دون الأغنياء من الناس. فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس، وغمَطُوا[٢] ذلك، حَتّى شَكُّوا فيها في أنفسهم وشَكّكُوا فيها الناس، وأذاعوا في أمرها القبيحَ والمُنْكَر. وأدرك الشيطانُ منهم حاجَته، وقَذَفَ وَسْوَاسه في قلوب المرتابين، حتى قالوا لعيسى: أَخْبِرْنا عن المائدة؛ ونُزُولها من السماء، أَحَقٌّ؟ فإنه قد ارتاب بها منا بشرٌ كثير. فقال عيسى ـ عليه السلام ـ: هَلَكتم وإِلَهِ المسيح! طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يَطلُبُهَا لكم إلى ربِّكم، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة لكم ورزقاً، وأراكم فيها الآيات والعبر كَذَّبتم بها، وشَكَكتم فيها. فأبشروا بالعذاب، فإنه نازلٌ بكم إلاّ أن يَرْحَمَكُم الله. وأوحى الله إلى عيسى: إني آخذُ المكذِّبين بشَرْطي، فإني مُعَذِّبٌ منهم من كَفَر بالمائدة بعد نُزُولها عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين، قال: فَلَمَّا أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجِعَهم في أحسَنِ صورةٍ مع نسائِهم آمنينَ، فلما كان من آخر الليل مَسَخهم الله خنازِيرَ، فأصبحوا يتَّبِعون الأقذار في الكُنَاسَاتِ[٣].

هذا أثرٌ غريبٌ جداً، قَطَّعَه ابن أبي حاتم في مواضعَ من هذه القصَّة، وقد جمعتُه أنا له ليكونَ سياقُه أتمَّ وأكمَلَ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلمُ.

وكلُّ هذه الآثار دالَّةٌ على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل، أيام عيسى ابن مريم، إجابةً من الله لدعوته، وكما دَلَّ على ذلك ظاهرُ هذا السياق من القرآن العظيم: ﴿قال الله إني منزلها عليكم﴾... الآية.

وقد قال قائلون: إنها لم تنزل: فَرَوى ليثُ بن أبي سُلَيم، عن مُجَاهِدٍ في قوله: ﴿أنزِلْ علينا مائدةً من السماء﴾، قال: هو مَثَلٌ ضُرِب، ولم ينزل شيء. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرِيرٍ[٤].

ثم قال ابنُ جَرِير: حدثني الحارثُ، حدثنا القاسم ـ هو ابن سلام ـ حدثنا حَجّاج، عن ابن جُرَيجٍ، عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام، أَبَوْها حين عُرِض عليهم العذابُ إن كَفَروا، فأبوا أن تَنْزل عليهم[٤].

وقال أيضاً: حدثنا ابنُ المثنّى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور بن زاذان، عن الحسن أنه قال في المائدة: لم تنزِل[٤].

وحدثنا بشر، حدثنا يزيدُ، حدثنا سَعيد، عن قتادةَ قال: كان الحسنُ يقولُ: لما قِيلَ لهم: ﴿فمن يكفُرْ بعدُ منكم فإني أُعذِّبه عذاباً لا أُعذِّبه أحداً من العالمين﴾، قالوا: لا حاجة لنا فيها. فلم تَنْزل[٤].

وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوّى ذلك بأن خَبَر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كِتَابِهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفّر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم مُتَواتِراً، ولا أقلَّ من الآحاد، والله أعلم. ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأنه تعالى أخبر بنزولها بقوله تعالى: ﴿إني مُنَزِّلها عليكم، فمن يكفر بعد منكم فإني أُعَذِّبه عذاباً لا أُعذِّبه أحداً من العالمين﴾ قال: ووعدُ الله ووعيدُه حَقٌّ وصدق.

(١) في نسخة: قالوا.
(٢) الغَمْطُ: بطر النعمة وعدم شكرها وإنكارها وتحقيرها.
(٣) الكُنَاسات: جمع كُنَاسة، وهي القُمامة، وموضعُ إلقائها.
(٤) تفسير الطبري ٧/١٣٥.

وهذا القولُ هو ـ والله أعلم ـ الصوابُ، كما دلَّت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. وقد ذكر أهلُ التاريخ أن موسى بن نُصَير نائب بني أمية في فُتوح بلاد المغرب، وَجد المائدةَ هنالك مُرَصَّعةً باللآلىء وأنواع الجواهر، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق، فَحُمِلت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعدَه، فرآها الناسُ وتعجَّبُوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيتِ النفيسة والجواهر اليتيمة(١). ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام، فالله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبدُ الرحمن، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كُهَيل، عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس قال: قالت قريشٌ للنبي ـ ﷺ ـ: ادعُ لنا ربَّك أن يجعلَ لنا الصَّفا ذهباً ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريلُ فقال: إنَّ ربَّك يقرأ عليكَ السلام، ويقول لك: إن شئتَ أصبحَ لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عَذَّبْتُهُ عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحتُ لهم باب التوبةِ والرحمةِ؟ قال: بل باب التوبةِ والرحمةِ(٢).

ثم رواه أحمد، وابن مَردُويه، والحاكمُ في مستَدْرَكِه، من حديث سفيان الثَّوريِّ، به(٢).

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

هذا أيضاً مما يخاطِب الله تعالى به عبدَه ورسولَه عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ قائلاً له يوم القيامةِ بحضرة من اتخذه وأمهُ إلهين من دون الله: ﴿يا عيسى ابن مَرْيم، أأنت قلت للناس: اتخذوني وأُمّي إلهين من دونِ اللّهِ﴾. وهذا تهديدٌ للنصارى وتوبيخٌ وتقريعٌ على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيرُه، واستدلَّ قتادةُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿هذا يومُ ينفع الصادقين صدقهم﴾.

وقال السدّيُّ: هذا الخطابُ والجواب في الدنيا.

قال ابنُ جَرير: وهذا هو الصوابُ، وكان حين رفعه الله إلى سماءِ الدنيا. واحتجَّ ابنُ جرير على ذلك بمعنيين، أحدهما: أن لفظ الكلام لفظ المضى، والثاني: قوله: ﴿إن تُعذِّبهم﴾ و﴿إن تَغْفِر لهم﴾(٣).

وهذان الدليلان فيهما نظرٌ، لأنَّ كثيراً من أمور القيامةِ ذُكِر بلفظ المضى، ليدلَّ على الوقوع والثبوت.

ومعنى قوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾... الآية: التبري منهم وَرَدُّ المشيئة فيهم إلى الله، وتعليقُ ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات.

والذي قاله قتادةُ وغيرُه هو الأظهر، والله أعلم، أن ذلك كائنٌ يوم القيامة، ليدلَّ على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رُؤُوسِ الأشهاد يوم القيامة. وقد رُوي بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله، مولى عمر بن عبد العزيز، وكان ثقةً، قال: سَمِعت أبا بردة يُحَدِّث عُمَر

(١) اليتيمة من الدُّرَر ونحوها: الثمينة التي لا تطولها.
(٢) مسند أحمد ٢٤٢/١، والمستدرك، كتاب التفسير ٣١٤/٢.
(٣) انظر تفسير الطبري ١٣٨/٧.

ابن عبد العزيز، عن أبيه، عن أبي موسى الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كان يومُ القيامة دُعِي بالأنبياء وأممهم، ثم يُدْعَى بعيسى فَيُذكِّره الله نِعْمَته عليه، فَيُقِرُّبها، فيقولُ: ﴿يا عيسى ابنَ مَرْيَم، اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ . . . الآية. ثم يقول: ﴿أأنت قلت للناس: اتخذوني وأُمِّي إلَهين من دُونِ الله﴾؟ فينكِرُ أن يكونَ قال ذلك، فَيُؤْتَى بالنصارى فَيُسألون، فيقولونَ: نعم، هو أَمرنا بذلك. قال: فيطولُ شَعرُ عيسى عليه السلام، فيأخذ كُلُّ مَلَكٍ من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الله ـ عزّ وجلّ ـ مقدار أَلْفِ عام، حتى تُرْفَع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب، وينطلق بهم إلى النار».

وهذا حديث غريب عزيز.

وقولُه: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحقٍّ﴾ هذا تَوفيقٌ للتأدُّبِ في الجَوَابِ الكامل، كما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر، حدثنا سفيان، عن عَمرو، عن طاوس، عن أبي هُرَيرة قال: لُقِّي عيسى حُجَّته، ولقَّاه[1] الله في قَوْلِهِ: ﴿وإذ قال الله: يا عيسى ابنَ مرْيَم، أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلَهين من دون الله﴾؟ ـ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ فَلَقَّاه الله: ﴿سُبحانَكَ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ . . . إلى آخر الآية.

وقد رواه الثوريُّ، عن مَعْمَرٍ، عن ابن طاوس، عن طاوسَ، بنحوه[2].

وقولُه: ﴿إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمْتَه﴾، أي: إن كان صَدَرَ مني هذا فقد عَلِمْتَه يا ربُّ، فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلتُه ولا أَردتُه في نفسي، ولا أضمرته. ولهذا قال: ﴿تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغُيوب * ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به﴾ بإبلاغه ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾، أي: ما دعوتهم إلاّ إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه: ﴿أن اعبدوا الله بي وربكم﴾، أي: هذا هو الذي قلتُ لهم، ﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾، أي: كنتُ أشهدُ على أعمالهم حين كنتُ بين أظهرهم، ﴿فلما تَوَفَّيتني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم، وأنت على كُلِّ شيء شهيد﴾.

قال أبو داودَ الطيالسيُّ: حدثنا شعبةُ قال: انطلقتُ أنا وسفيانُ الثوريُّ إلى المغيرةِ بن النعمانِ فأملاه على سفيانَ وأنا معه، فلما قام انتسختُ من سفيانَ، فَحَدَّثنا قال: سَمِعت سَعِيد بن جُبَير يُحدِّث عن ابنِ عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ، فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورونَ إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ حفاة عراةً غُرْلاً[3] ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾، وإنَّ أول الخلائقِ يُكسَى إبراهيم، ألا وإنه يُجاء برجالٍ من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي. فيقال: إنَّك لا تَدْرِي ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم، فلما تَوَفَّيتني كُنْتَ أنتَ الرقيبَ عليهم وأنتَ على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، فيقال: إن هؤلاءِ لم يزالوا مُرتَدِّين على أعقابهم منذ فارقتَهم»[4].

ورواه البخاري عند هذه الآية عن أبي الوليد، عن شُعبَةَ. وعن مُحمَّد بن كثير، عن سفيانَ الثَّورِيِّ، كلاهما عن المغيرة بن النعمان، به[4].

---

(١) لَقَّاه الشيء: جعله يلقاه. والمعنى أن الله تعالى أقدره على أن يجيب بما أجاب به.

(٢) تفسير الطبري ٧/١٣٩.

(٣) غُرْلاً: جمع أغرَل، وهو الذي لم يُختَتن.

(٤) مسند أبي داود الطيالسي ٣٤٣. وفتح الباري، تفسير سورة المائدة ٨/٢٨٦.

وقوله: ﴿إن تُعذِّبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، هذا الكلام يتضمَّن ردَّ المشيئة إلى الله عزَّ وجلّ، فإنه الفعَّال لما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التَّبرِّي من النصارى الذين كَذَبوا على الله، وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبةً وولداً، تعالى الله عما يقولون عُلُوّاً كبيراً. وهذه الآيةُ لها شأنٌ عظيمٌ ونبأٌ عجيبٌ. وقد ورد في الحديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قام بها ليلة إلى الصباح يُرَدِّدها.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فُضَيل، حدثني فُلَيتٌ[١] العامِرِيُّ، عن جَسْرَةَ[٢] العامِرِيَّة، عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: «صَلَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ ذات ليلةٍ فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها: ﴿إن تُعذِّبهم فإنهم عبادك وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيمُ﴾، فلما أصبح قلت: يا رسول الله، ما زلتَ تقرأ هذه الآية حتى أصبحتَ تركَعُ بها وتَسجُدُ بها؟ قال: «إني سألتُ ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ الشفاعة لأُمَّتي، فأعطانيها، وهي نائلةٌ إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً»[٣].

طريق أخرى، وسياق آخر: قال أحمدُ: حدثنا يحيى، حدثنا قُدَامة بن عبد الله، حدثتني جَسْرةُ بنتُ دجاجة: أنها انطلقت معتمرةً، فانتهت إلى الرَّبذَة[٤]، فَسَمِعَتْ أبا ذَرٍّ يقول: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ ليلةً من الليالي في صلاةِ العشاء، فَصَلَّى بالقوم، ثم تَخَلَّف أصحابٌ له يُصَلُّون، فلما رأى قيامهم وتَخَلُّفهم انصرف إلى رحله. فلما رأى القوم قد أخلَوا المكانَ رَجع إلى مكانه فَصَلَّى، فجئتُ فقمتُ خلفه، فأومأ إليَّ بيمينه، فقمتُ عن يمينه. ثم جاء ابن مسعود فقام خَلْفي وَخَلْفَه، فأومأ إليه بشماله، فَقَام عن شِماله، فقمنا ثلاثتَنا يُصَلِّي كُلُّ واحدٍ منا بنفسه، ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو. وقام بآية من القرآن يُرَدِّدُها حتى صَلَّى الغداة[٥]. فلما أصبحنا أومأتُ إلى عبد الله بن مسعود: أن سَلْهُ ما أراد إلى ما صَنَع البارحة؟ فقال[٦] ابنُ مسعودٍ بيده: لا أسأله عن شيء حتى يُحدِّث إليّ. فقلت: بأبي أنت وأمي، قُمتَ بآيةٍ من القرآن ومعَكَ القرآنُ، لو فعل هذا بعضنا لَوَجَدْنا عليه. قال: دعوتُ لأمتي. قلت: فماذا أُجِبْتَ؟ أو ماذا رُدَّ عليك؟ قال: أُجِبتُ بالذي لو اطَّلَعَ عليه كثيرٌ منهم طِلْعَهُ[٧] تركوا الصلاة. قلت: أفلا أُبَشِّر الناس؟ قال: بلى. فانطلقتُ مُعْنِقاً[٨] قريباً من قَذْفَةٍ بحجرٍ. فقال عمر: يا رسولَ اللهِ، إنك إن تَبعَثْ إلى الناس بهذا نَكَلوا[٩] عن العبادة. فناداه أَنِ ارجِعْ. فرَجَع، وتلكَ الآية: ﴿إن تُعذِّبهم فإنَّهم عبادُك وإن تَغْفِر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[١٠].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونُس بن عبدِ الأعلى، حدثنا ابنُ وَهب، أخبرني عَمرو بن الحارث، أن بكر

(١) فُلَيت العامري، اسمه: قدامة بن عبدالله، كذا في المؤتلف والمختلف للدارقطني ١٨٥٧. وانظر ابن حجر في تهذيب التهذيب ٣٦٤/٨.

(٢) في المسند: ميسرة. وهو تحريف.

(٣) مسند أحمد ١٤٩/٥.

(٤) الرَّبَذَة: قرية قُرْبَ المدينة.

(٥) أي: صلاة الصبح.

(٦) أي: أشار بيده.

(٧) أي: لو علم كثير منا حقيقته.

(٨) أي: مسرعاً.

(٩) أي: نخوها وابعدوها.

(١٠) مسند أحمد ١٧٠/٥.

ابن سَوَادة حدثه، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن عبدِ الله بن عَمْرو بن العاص: أنَّ النبيَّ - ﷺ - تلا قولَ عيسى: ﴿إن تُعذِّبهم فإنهم عبادُك وإن تَغْفِر لهم فإنَّك أنتَ العزيزُ الحكيم﴾. فرفع يديه فقال: اللهمَّ أُمَّتي: وبكى، فقال الله: يا جبريل، اذهَبْ إلى محمَّدٍ - وربك أعلم - فاسأله: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فسأله، فأخبره رسول الله - ﷺ - بما قال، فقال الله: يا جبريلُ، اذهَبْ إلى محمَّدٍ فقل: إنا سَنُرضيكَ في أُمَّتك ولا نَسوءُك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حَسَن، حدثنا ابن لَهيعَة، حدثنا ابن هُبَيرَة: أنه سَمع أبا تميم الجيْشاني يقول: حَدَّثني سعيدُ بن المسيَّب، سَمِعتُ حُذَيفة بنَ اليمانِ يقول: «غاب عنا رسولُ الله - ﷺ - يوماً فلم يخرج، حتى ظننا أن لن يخرُجَ، فلما خَرَج سجدَ سجدةً ظننا أن نَفْسه قد قُبضَت فيها، فلما رَفَع رأسه قال: إن ربِّي عزَّ وجلَّ استشارني في أمتي: ماذا أفعل بهم؟ فقلتُ: ما شئتَ - أيْ ربِّ - همُ خلقُكَ وعبادُك. فاستشارني الثانيةَ، فقلتُ له كذلك، فقال: لا أُخزيك في أمتك يا محمد، وبَشَّرَني أنَّ أول من يدخل [الجنة] من أمتي معي سبعون ألفاً، مع كلِّ ألف سبعون ألفاً، ليس عليهم حساب، ثم أرسل إليّ فقال: ادع تُجَبْ، وسَلْ تُعْطَ. فقلت لرسوله: أَوَ مُعْطِيَّ ربي سُؤْلي؟ قال: ما أرسلني إليك إلاّ ليعطيك. ولقد أعطاني ربي ولا فَخْرَ، وغفَر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأنا أمشي حيّاً صحيحاً، وأعطاني ألاَّ تجوعَ أمتي ولا تُغْلَبَ، وأعطاني الكوثر، وهو نَهرٌ في الجنةِ يسيلُ في حوضي، وأعطاني العزَّ والنصرَ والرُّعْبَ يسعَى بين يَدَيْ أُمَّتي شهراً، وأعطاني أني أولُ الأنبياء يدخلُ الجنة، وطيَّب لي ولأمتي الغَنيمة، وأَحَلَّ لنا كثيراً مما شُدِّدَ على من قبلنا، ولم يجعل علينا من حَرَجٍ»(1).

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابنِ مَرْيَمَ، فيما أنهاه إليه من التبرِّي من النصارى المُلْحِدين، الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رَدِّ المشيئة فيهم إلى ربِّه عزَّ وجلّ، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هذا يومُ ينفَعُ الصادقين صدقهم﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس يقول: ينفَعُ الموحِّدين توحيدُهم.

﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾، أي: ماكثين فيها لا يَحُولونَ ولا يزولون، ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ كما قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾. وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث.

وقد روى ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً فقال:

حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا المحاربي، عن ليث، عن عثمان - يعني ابن عُمَير، أبو اليقظان - عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ثم يتجلّى لهم الربُّ تعالى. فيقول: سَلُوني سَلُوني أُعطِكم. قال: فيسألونه الرِّضا، فيقول: رضاي أَحِلُّكم داري، وأُنالكم كَرَامتي، فسلوني أعطكم. فيسألونه الرضا، قال: فَيُشهدهم أنه قد رَضِي عنهم».

وقولُه: ﴿ذلك الفوزُ العظيم﴾، أي: هذا هو الفوزُ الكبيرُ الذي لا أعظَمَ منه، كما قال تعالى: ﴿لمثل هذا فَلْيَعمل العاملون﴾، وكما قال: ﴿وفي ذلك فَلْيَتَنافَسِ المتنافسون﴾.

---

(1) مسند أحمد ٥/٣٩٣.

وقوله: ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهنّ وهو على كلّ شيء قديرٌ﴾، أي: هو الخالق للأشياء، المالكُ لها، المتصرِّف فيها، القادرُ عليها، فالجميعُ ملْكُه وتحت قَهْره وقُدْرَتِه وفي مَشيئته، فلا نَظِيرَ له ولا وَزِير ولا عَدِيل، ولا والدَ ولا وَلَد ولا صاحِبَة، فلا إِلٰه غيرُه ولا ربَّ سواه.

قال ابن وَهب: سمعت حُيَيّ بن عبد الله يحدِّث، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيّ، عن عبد الله بن عَمْرو قال: «آخر سُورَةٍ أنزلت سورةُ المائدةِ»(١).

---

(١) تقدم تخريج هذا الأثر في أول السورة.

تفسير

سُورَةُ الأَنْعَامِ

ترتيبها ٦ آياتها ١٦٥

قال العَوفي وعكرمة وعطاء، عن ابن عباس: أُنزِلَت سورةُ الأنعام بمكة..

وقال الطبرانيّ: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حَجَّاجُ بن مِنهالٍ، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمَةَ، عن عليِّ بن زيدٍ، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس، قال: نَزَلَتْ سورةُ الأنعام بمكَّة ليلاً جُملةً، حولها سبعون ألفَ مَلَكٍ يجأرون حولها بالتَّسبيح(١).

وقال سفيان الثوريّ، عن ليث، عن شَهر بن حَوْشب، عن أسماءَ بنت يزيدَ قالت: نَزَلَتْ سورةُ الأنعام على النبيِّ - ﷺ - جملةً وأنا آخِذَة بزِمامِ ناقةِ النبيِّ - ﷺ - إنْ كادَتْ من ثِقلها لَتَكْسِرُ عِظامَ النَّاقةِ.

وقال شَريك، عن ليث، عن شَهر، عن أسماءَ قالت: نَزَلَتْ سورةُ الأنعامِ على رسول الله - ﷺ - وهو في مَسِير، في زَجَلٍ(٢) من الملائكة، وقد نَظَموا(٢) ما بين السماء والأرض.

وقال السدِّي، عن مُرَّة، عن عبدِ الله قال: نَزَلَتْ سورةُ الأنعامِ يُشَيِّعها سبعونَ ألفاً من الملائكة.

ورُوِي نحوُه من وَجْهٍ آخَرَ، عن ابن مسعود.

وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو عبد الله مُحمَّد بن يعقوبَ الحافظ، وأبو الفضل الحسنُ بن يعقوبَ العَدْلُ، قالا: حدثنا مُحمَّد بن عبد الوهاب العَبْدِيُّ، أخبرنا جعفر بن عَونٍ، حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السدِّيُّ، حدثنا محمد بن المُنْكدِرِ، عن جابرٍ قال: لما نزلت سورةُ الأنعامِ سَبَّح رسولُ الله - ﷺ - ثم قال: «لقد شَيَّع هذه السورةَ من الملائكة ما سَدَّ الأُفُقَ». ثم قال: صحيحٌ على شرط مسلم(٣).

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن مَعْمَرٍ، حدثنا إبراهيم بن دُرُسْتُوَيه الفارِسيُّ، حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سالم، حدثنا ابن أبي فُدَيك، حدثني عُمَر بن طلحة الوَقّاصيُّ، عن نافع بن مالك أبي سُهَيل، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: نزلت سورةُ الأنعامِ معها موكبٌ من الملائكة، سَدَّ ما

(١) المعجم الكبير ١٢/٢١٥.
(٢) الزَّجَل: صوتٌ رفيع عالٍ. ونَظَموا: مَلَئوا.
(٣) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٣١٤ - ٣١٥.

بين الخافقين، لهم زَجَلٌ بالتسبيح، والأرضُ بهم تَرتجُّ، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «سبحان الله العظيم، سبحانَ الله العظيم».

ثم روى ابن مَرْدُويه عن الطبراني، عن إبراهيم بن نائلة، عن إسماعيل بن عمرو، عن يوسف بن عطية، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة، وشيَّعها سبعون ألفاً من الملائكة، لهم زجل بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى مادحاً نفسَه الكريمة، حامِداً لها على خَلْقِه السموات والأرض قراراً لعباده، وجَعْلِهِ الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فَجمع لفظ الظلمات ووحَّد لفظ النور، لكونه أشرف، كما قال ﴿عن اليمين والشمائل﴾ وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السُّبُلَ فتَفَرَّق بكم عن سبيله﴾.

وقولُه: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾، أي: ومع هذا كلِّه كَفَر به بعضُ عبادِهِ، وجعلوا معه شَريكاً وعِدْلاً[(١)]، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

وقولُه: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾، يعني: أباهم آدم الذي هو أصلُهم ومنه خَرَجُوا، فانتشروا في المشارق والمغارب.

وقولُه: ﴿ثم قَضى أجلاً وأجلٌ مسمًّى عنده﴾، قال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ثم قَضى أجَلاً﴾، يعني: الموت، ﴿وأجل مُسَمًّى عنده﴾ يعني الآخرة.

وهكذا رُوِيَ عن مجاهِدٍ، وعكرمةَ، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادَةَ، والضحَّاكِ، وزيدِ بن أسلَم، وعَطِيَّة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وغيرهم.

وقولُ الحسن، في رواية عنه: ﴿ثم قَضى أجلاً﴾ قال: ما بين أن يُخلَق إلى أن يَموت، ﴿وأجل مسمًّى عنده﴾. ما بين أن يموت إلى أن يبعث[(٢)] ـ هو يرجعُ إلى ما تقدَّمَ، وهو تقدير الأجَلِ الخاصِّ، وهو عُمُرُ كلِّ إنسانٍ، وتقديرُ الأجَلِ العامِّ وهو عُمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزَوالها، والمَصيرِ إلى الدار الآخرة.

وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثم قضى أجلاً﴾، يعني: مُدَّة الدنيا، ﴿وأجلٌ مسمًّى عنده﴾، يعني: عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا: ﴿وهو الذي يتوفَّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾. . . الآية.

(١) العِدْلُ: النظير والمثيل.
(٢) تفسير الطبري ١٤٦/٧.

وقال عطيةُ، عن ابن عباس: ﴿ثم قضى أجلاً﴾، يعني: «النوم، يُقْبَضُ فيه الرُّوحُ، ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة، ﴿وأجلٌ مسمًّى عنده﴾، يعني: أجلَ موتِ الإنسان»[١]. وهذا قولٌ غريبٌ.

ومعنى قوله: ﴿عنده﴾ أي: لا يعلمُه إلا هو، وهو كقوله تعالى: ﴿إنَّما علمها عند ربِّي لا يُجلِّيها لوقتها إلا هو﴾، وكقوله: ﴿يسألونك عن الساعة أيَّان مُرساها. فيم أنتَ من ذِكْراها. إلى ربِّك مُنتهاها﴾.

وقوله: ﴿ثم أنتم تَمتَرُون﴾، قال السدِّيُّ وغيرُه: يعني تَشُكُّون في أمر الساعة.

وقولُه: ﴿وهو الله في السمواتِ وفي الأرض يعلَمُ سرَّكم وجَهْرَكم ويعلَمُ ما تكسِبُون﴾. اختلفَ مُفسِّرو هذه الآية على أقوال بعد الاتفاق على تخطئة قول الجَهْمية الأُوَل القائلين بأنه ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ في كلِّ مكان، حيث حَملوا الآية على ذلك، فأصح الأقوال أنه: المدعوّ الله في السموات وفي الأرض، أي: يَعبُدُه ويُوحِّدُه ويُقِرُّ له بالإلَهية مَن في السموات ومَن في الأرض، ويسمُّونه الله، ويدعونَه رَغَباً ورهباً، إلا من كفر من الجنِّ والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وهو الذي في السماء إلَه وفي الأرض إله﴾، أي: هو إله مَنْ في السماءِ وإله مَنْ في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ خبراً أو حالاً.

والقول الثاني: أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سرٍّ وجهر. فيكون قولُه: ﴿يعلم﴾ متعلقاً بقوله: ﴿في السموات وفي الأرض﴾، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون.

والقول الثالث: أن قوله: ﴿وهو الله في السموات﴾ وقف تامٌّ، ثم استأنفَ الخبرَ فقال: ﴿وفي الأرض يعلم سركم وجهركم﴾. وهذا اختيارُ ابن جريرٍ[٢].

وقولُه: : ﴿ويعلم ما تكسبون﴾، أي: جميعَ أعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى مُخبِراً عن المشركين المُكَذِّبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم ﴿من آية﴾، أي: دَلالةٍ ومُعجزةٍ وحُجّةٍ، من الدلالاتِ على وحدانيّة الربِّ عزّ وجل، وصِدْقِ رُسُله الكرام، فإنهم يعرِضُون عنها، فلا ينظُرون فيها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فقد كَذَّبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون﴾. وهذا تهديدٌ لهم ووعيدٌ شديدٌ على تكذيبهم بالحقِّ، بأنه لا بدَّ أن يأتيهم خَبَرُ ما هم فيه من التكذيب، وليجدُنَّ غِبَّه[٣]، وَلَيذُوقُنَّ وبَاله.

ثم قال تعالى واعظاً لهم ومحذّراً أن يُصيبَهم من العذاب والنَّكالِ الدُّنيويِّ ما حلَّ بأشباههم ونُظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشدَّ قوَّةً وأكثر جمعاً، وأكثَر أموالاً وأولاداً، واستغلالاً للأرض وعِمارة لها،

(١) تفسير الطبري ٧/١٤٧.
(٢) انظر تفسير الطبري ٧/١٤٨. وتفسير القرطبي ٦/٣٩٠.
(٣) أي: عاقبته.

فقال: ﴿ألم يَروا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ مَكّناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾، أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسَّعة والجُنود، ﴿وأرسلنا السماء عليهم مِدْراراً﴾، أي: شيئاً بعد شيء، ﴿وجعلنا الأنهارَ تجري من تحتهم﴾ أي: كَثّرنا عليهم أمطارَ السماء وينابيعَ الأرض، أي: استدراجاً وإملاءً لهم، ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾، أي: بخطاياهم وسيّئاتهم التي اجترحوها، ﴿وأنشأنا من بعدهم قَرناً آخرين﴾، أي: فَذَهب الأوّلون كأمس الذاهِب وجعلناهم أحاديث، ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾، أي: جيلاً آخر لنختبِرَهم، فَعَمِلُوا مثلَ أعمالهم، فَهَلَكوا كهلاكهم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يُصيبكم ما أصابهم، فما أنتم بأعزَّ على الله منهم، والرسولُ الذي كَذَّبتموهُ أكرمُ على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبةِ منهم، لولا لطفُه وإحسانُه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومُكابرتهم للحق ومباهَتَتهم ومنازعتهم فيه: ﴿ولو نَزَّلنا عليك كتاباً في قرطاس فَلَمسوه بأيديهم﴾، أي: عاينُوه، ورأوا نزوله، وباشَرُوا ذلك، ﴿لقال الذين كفروا: إن هذا إلا سحرٌ مبينٌ﴾ وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مُكابرتهم للمحسوسات: ﴿ولو فَتحنا عليهم باباً من السماء فَظَلُّوا فيه يعرُجُون. لقالوا: إنما سُكِّرت أبصارُنا بل نحن قومٌ مسحورون﴾ وقال تعالى: ﴿وإن يَرَوا كِسْفاً من السماء ساقطاً يقولوا سَحابٌ مرقوم﴾.

﴿وقالوا: لولا أُنزِلَ عليه ملكٌ﴾، قال الله: ﴿ولو أنزلنا ملكاً لَقُضِيَ الأمر ثم لا ينظرون﴾، أي: لو نَزَلت الملائكةُ على ما هُم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال تعالى: ﴿ما نتزلُ الملائكة إلا بالحق، وما كانوا إذاً منظرين﴾، [و] قال تعالى: ﴿يوم يَرَوْنَ الملائكة لا بُشْرى يومئذٍ للمجرمين﴾. . . الآية.

وقولُه: ﴿ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ولَلَبسنا عليهم ما يلبسون﴾، أي: ولو أنزلنا مع الرسول البَشريّ مَلَكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رَسُولاً مَلَكِيًا، لكان على هَيْئَةِ رَجُلٍ لِيمْكِنَهُم مخاطبتُه والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يَلْبِسُون على أنفسهم في قبولِ رسالة البَشريّ، كما قال تعالى: ﴿قل: لو كان في الأرضِ ملائكة يمشون مطمئنين، لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾، فمن رَحْمَةِ الله تعالى بِخَلْقِهِ أنه يُرسِلُ إلى كلِّ صِنْفٍ من الخلائق رُسُلاً منهم، ليدعُو بعضُهم بعضاً، وليمكن بعضُهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بَعَث فيهم رَسُولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياتِه ويُزَكِّيهم﴾. . . الآية.

قال الضحَّاكُ، عن ابن عباس في الآية: «يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صُورةِ رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة»[1]، من النور، ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾، أي: ولَخَلَطْنا عليهم ما يَخْلِطُون».

(١) تفسير الطبري ١٥٢/٧.

وقال الوالبيُّ، عنه: ولَشبَّهنا عليهم.

وقولُه: ﴿ولقد استُهزِىء برسُلٍ من قبلك فحاق بالذين سَخِروا منهم ما كانوا به يَستهزِءُون﴾، هذا تسليةٌ لرسوله محمد ـ ﷺ ـ في تكذيبِ من كَذَّبه من قومه، ووعدٌ له وللمؤمنين به بالنُّصرةِ والعاقبةِ الحَسَنةِ في الدنيا والآخرة.

ثم قالَ: ﴿قُل: سيروا في الأرض، ثم انظُروا كيف كان عاقبةُ المكذبين﴾، أي: فكِّروا في أنفُسِكم، وانظروا ما أَحَلَّ الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعانَدُوهم، من العذاب والنَّكال، والعقوبة في الدنيا مع ما ادَّخَرَ لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نَجَّى رُسُله وعباده المؤمنين.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

يُخبر تعالى أنه مالكُ السموات والأرض ومن فيهنَّ، وأنه كَتَبَ على نَفْسِه المقدَّسة الرحمةَ، كما ثبت في الصحيحين، من طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله لمَّا خَلق الخلق كَتَب كتاباً عنده فوق العرش، إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غضبي»(١).

وقولُه: ﴿ليجمعَنَّكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه﴾، هذه اللامُ هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعنَّ عباده لميقـاتِ يوم معلوم، وهو يوم القيامة الذي لا ريبَ فيه ولا شكَّ عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدونَ المكذِّبون فهم في ريبهم يَتردَّدُونَ.

وقال ابن مَرْدُويه عن تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبيد الله بن أحمد بن عقبة، حدثنا عباس بن محمد، حدثنا حُسَين بن محمد، حدثنا مِحْصَنُ بن عقبة اليماني، عن الزبير بن شبيب، عن عثمان بن حاضر، عن ابن عباس قال: «سُئل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن الوقوف بين يدي رب العالمين، هل فيه ماء؟ قال: والذي نفسي بيده إن فيه لمـاءً، إن أولياء الله ليَرِدُون حياضَ الأنبياء، ويبعث الله تعالى سبعينَ ألفَ مَلَكٍ في أيديهم عِصِيٌّ من نار، يَذُودون الكفارَ عن حياضِ الأنبياء».

هذا حديثٌ غريبٌ. وفي الترمذيِّ: «إن لكلِّ نبيٍّ حَوْضاً، وإنَّهم يتباهَونَ أيُّهم أكثرُ وارِدَةً، وأرجُـو أن أكونَ أكثرَهُم وارِدَةً»(٢).

---

(١) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/ ٣٨٤، وهو في مسلم، كتاب التوبة، ٢١٠٧ ـ ٢١٠٨، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، وعن الحارث بن عبد الرحمن، عن عطاء بن ميناء، عن أبي هريرة. وانظر تحفة الأشراف ٩/ ٣٧٤.

(٢) عارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٩/ ٢٧٠.

ولهذا قال: ﴿الذين خَسِروا أنفسَهم فهم لا يؤمنون﴾، أي: لا يُصدِّقون بالمعاد، ولا يخافُون شَرَّ ذلك اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿وله ما سَكَن في اللَّيل والنَّهار﴾، أي: كلُّ دابَّة في السموات والأرض، الجميعُ عبادُه وخلقه، وتحت قَهْرِه وتَدْبيره، لا إله إلا هو.

﴿وهو السميعُ العليم﴾، أي: السميعُ لأقوالِ عباده، العليمُ بحرَكَاتهم وضمائرهم وسرائرهم.

ثم قال لعبده ورسوله محمد ـ ﷺ ـ الذي بَعَثه بالتوحيد العظيم، والشرع القويم، وأَمَرَه أن يدعُوَ الناس إلى صِراطه المستقيم: ﴿قل أغير الله أتخذ ولياً فاطِر السموات والأرض﴾ كما قال: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون﴾، والمعنى: لا أَتَّخِذُ ولياً إلا الله وحدَه لا شَرِيكَ له، فإنه فاطرُ السمواتِ والأرض، أي: خالِقُهما ومُبْدِعهما، على غير مثالٍ سَبَق.

﴿وهو يُطعِمُ ولا يُطْعَم﴾، أي: وهو الرزَّاق لِخَلْقِه من غير احتياجٍ إليهم، كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدُون﴾. . . الآيتين[(١)].

وقرأ بعضهم ها هنا ﴿وهو يُطْعِمُ ولا يَطْعَم﴾[(٢)]، أي: لا يأكُل.

وفي حديث سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: دعا رجلٌ من الأنصار من أهلِ قُبَاء النبيَّ ـ ﷺ ـ قال: فانطلقنا مَعه، فلما طَعِمَ النبيُّ ـ ﷺ ـ وغَسَل يديه قال: «الحمد لله الذي يُطعِم ولا يَطْعَمُ، ومَنَّ علينا فَهَدانا، وأطعَمَنا وسَقَانا، وكُلُّ بلاءٍ حَسَنٍ أبلانا. الحمدُ لله غير مُودَّعٍ ولا مكافأً ولا مكفُورٍ ولا مُستَغنًى عنه. الحمدُ لله الذي أطعَمنا من الطَّعام، وسَقَانا من الشَّراب، وكسانا من العُرْيِ، وهَدَانا من الضَّلال، وبَصَّرنا من العمى، وفَضَّلنا على كثيرٍ ممن خَلَق تفضيلاً. الحمدُ لله رب العالمين»[(٣)].

﴿قل: إني أُمِرْتُ أن أكونَ أوَّل من أسلم﴾، أي: من هذه الأُمَّة ﴿ولا تكونَنَّ من المشركين. قل إني أخافُ إن عصيتُ ربِّي عذاب يوم عظيم﴾ يعني يوم القيامة ﴿من يُصرَفُ عنه﴾ يعني: العذاب ﴿يومئذ فقد رَحِمه﴾، يعني: فقد رَحِمه الله، ﴿وذلك هو الفوز المبين﴾، كما قال: ﴿فمن زُحْزِحَ عَنِ النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز﴾. والفوز: هو حُصُولُ الرِّبحِ ونفي الخَسارةِ.

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ
أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالكُ الضرِّ والنَّفع، وأنه المتصرِّف في خَلْقِه بما يشاء، لا مُعقِّب لحكمه، ولا رادَّ

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦، ٥٧.
(٢) نسبت هذه القراءة إلى مجاهد وغير واحد، انظر البحر المحيط ٤/٨٤ ـ ٨٥.
(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء ١/٥٤٦، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

لقضائه: ﴿وإن يمسَسْكَ الله بضرٍّ فلا كاشِفَ له إلا هُو، وإن يَمْسَسْكَ بخيرٍ فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿ما يفتحِ الله للناس من رَحمةٍ فلا مُمسِكَ لها، وما يُمسِكْ فلا مُرسِلَ له من بعده﴾ . . . الآية، وفي الصَّحِيح أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقولُ: «اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا مُعطِيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ[1]». ولهذا قال تعالى: ﴿وهو القاهرُ فوقَ عباده﴾، أي: هو الذي خضَعت له الرقابُ، وذلّت له الجبابرة، وعنَت له الوجوهُ، وقَهر كلَّ شيءٍ ودانت له الخلائقُ، وتواضعتْ لعظمَةِ جلالِهِ وكبريائِهِ وعَظَمته وعُلُوِّه وقُدْرَتِهِ الأشياءُ، واستكانت وتَضاءلت بين يديه وتحت حُكْمه وقَهْره.

﴿وهو الحكيم﴾، أي: في جميعِ ما يفعَلُه، ﴿الخبيرُ﴾ بمواضِعِ الأشياءِ ومحالِّها، فلا يُعطِي إلا لمن يستحقُّ، ولا يمنعُ إلا من يَستحِقُّ.

ثم قال: ﴿قل أيُّ شيءٍ أكبر شهادةً﴾، أي: من أعظمُ الأشياءِ ﴿قل الله شهيدٌ بيني وبينكم﴾، أي: هو العالمُ بما جئتكم به، وما أنتم قائلونَ لي، ﴿وأُوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ لأنذِركُم به ومن بَلَغ﴾، أي: وهو نَذِيرٌ لكلِّ من بَلَغه، كما قال تعالى: ﴿ومن يَكفُر به من الأحزابِ فالنارُ مَوعِدُه﴾.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سَعيد الأشجُّ، حدثنا وكيعٌ وأبو أسامةَ وأبو خالد، عن موسى بن عُبَيدة، عن محمد بن كَعبٍ في قوله: ﴿ومن بلَغ﴾: من بَلَغه القرآنُ فكأنما رَأى النبي ﷺ. زاد أبو خالد: وكَلَّمه.

ورواه ابنُ جرير من طريق أبي مَعْشَرٍ، عن محمد بن كعب قال: من بَلَغه القرآنُ فقد أبلغه مُحمَّد ﷺ[2].

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادَةَ في قوله: ﴿لأنذِرَكُم به ومن بَلَغ﴾: إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «بلِّغوا عن الله، فمن بَلَغَتْه آيةٌ من كتاب الله فقد بَلَغه أمرُ الله».

وقال الربيعُ بن أنس: حقٌّ على من اتَّبع رسولَ الله ـ ﷺ ـ أن يدعُو كالذي دعا رسول الله ـ ﷺ ـ وأن يُنذِر كالذي أنذَر.

وقولُه: ﴿أئنكم لَتَشهدُونَ﴾ أيها المشركون ﴿أن مع الله آلهةً أخرى؟ قل: لا أشهد﴾ كما قال تعالى: ﴿فإن شَهِدوا فلا تَشْهَد معهم﴾، ﴿قل: إنما هو إلَه واحدٌ وإنني بريءٌ مما تشركون﴾.

ثم قال مخبراً عن أهلِ الكتابِ أنهم يَعرفون هذا الذي جئتَهُم به كما يَعْرفون أبناءَهم، بما عندهم من الأخبار والأنباءِ عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرُّسُلَ كُلَّهم بَشَّرُوا بوجود محمد ـ ﷺ ـ وبنَعتِه وصِفَته، وبلده ومُهَاجَره، وصفة أُمَّته. ولهذا قال بعد هذا: ﴿الذيـن خسروا أنفسهم﴾، أي: خَسِروا كُلَّ الخَسارة، ﴿فهم لا يؤمنون﴾ بهذا الأمر الجَليِّ الظَّاهر الذي بَشَّرت به الأنبياءُ، ونوَّهت به في قديمِ الزمانِ وحَدِيثه.

ثم قال: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾، أي: لا أظلَمَ ممن تَقَوَّل على الله، فادَّعى أن الله أرسله ولم يكن أرسَلَه، ثم لا أظلم ممن كَذَّب بآيات الله وحُجَجِه وبراهِينه ودَلالاته، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾، أي: لا يُفْلح لا هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المُكَذِّب.

---

(١) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٢٦٤، ومسلم، كتاب الصلاة ٣٤٣.
والجَدُّ: الغني، أي: لا ينفع ذا الغِنى عندك غِناه، وإنما ينفعه العملُ بطاعتك.

(٢) تفسير الطبري ٧/١٦٣.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿ويوم نحشُرهم جميعاً﴾ يومَ القيامةِ فيسألهم عن الأصنام والأندادِ التي كانوا يعبدُونها من دونه قائلاً: ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعُمونَ﴾، كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾.

وقولُه: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾، أي: حُجَّتُهم. وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس: أي مَعْذِرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: أي قِيلُهم. وكذا قال الضحاك. وقال عطاء الخراساني: ثم لم تكن بَلِيَّتُهم حين ابتُلُوا ﴿إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾.

وقال ابن جَرير: والصوابُ ثم لم يكن قِيلُهم عند فِتْنتنا إيَّاهم، اعتذاراً مما سَلَف منهم من الشِّرْكِ بالله ﴿إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾[(١)].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو يحيى الرازيّ، عن عمرو بن أبي قيس، عن مُطَرِّف، عن المنهال، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباسٍ قال: أتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبَّاس، سَمِعتُ الله يقول: ﴿ثمَّ لم تكنِ فِتْنَتُهم إلاَّ أن قالوا: والله ربِّنا ما كُنَّا مُشْرِكين﴾؟ قال: أما قولُه: ﴿والله رَبِّنا ما كُنَّا مشركين﴾، فإنَّهم رَأَوا أنه لا يدخلُ الجَنَّةَ إلا أهلُ الصلاة، فقالوا: تَعالوا فَلْنَجْحَد. فيجحَدُون، فيَختِم الله على أفواههم، وتَشهَدُ أيديهم وأرجلُهم ولا يكتُمون الله حديثاً. فهل على قَلْبِكَ الآن شيءٌ؟ إنه ليس من القرآن شيءٌ إلا قد نَزَل فيه شيءٌ، ولكن لا تعلَمُون وَجْهَه.

وقال الضحاكُ، عن ابن عباس: هذه في المنافقين.

وفي هذا نظر، فإن هذه الآية مكيَّة، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت في المنافقين آيةُ المجادلة: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيَحْلِفون له﴾... الآية. وهكذا قال في حق هؤلاء: ﴿انظر كيف كَذَبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾، كما قال: ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون. من دون الله، قالوا: ضَلُّوا عنا﴾... الآية.

وقولُه: ﴿ومنهم مَن يَستَمِع إليك، وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يَفقَهُوه وفي آذانهم وَقراً، وإن يَرَوا كُلَّ آية لا يؤمنوا بها﴾، أي: يجيئون ليسمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل ﴿على قلوبهم أكنَّةً﴾، أي: أغطيةً لئلا يفهَمُوا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾، أي: صَمَماً عن السماع النافع، فهُم كما قال الله تعالى: ﴿ومثلُ الَّذين كفروا كمثل الذي يَنْعِق بما لا يسمَعُ إلا دعاءً ونداء﴾... الآية.

وقولُه: ﴿وإن يَرَوا كُلَّ آيةٍ لا يُؤْمِنُوا بها﴾ أي مهما رَأَوا من الآياتِ والدلالاتِ والحُجج البيِّناتِ، لا يؤمنوا بها. فلا فَهْم عندهم ولا إنصافَ، كما قال تعالى: ﴿ولو عَلِم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾... الآية.

---

(١) تفسير الطبري ١٦٧/٧.

وقولُه: ﴿حتى إذا جاءُوك يُجادِلُونك﴾، أي: يحاجُّونك ويُناظرونك في الحق بالباطل، ﴿يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾، أي: ما هذا الذي جِئْتَ به إلّا مأخوذٌ من كُتُبِ الأوائل ومنقولٌ عنهم.

وقولُه ﴿وهم ينهَون عنه وينأون عنه﴾، في معنى ﴿ينهَون عنه﴾ قولان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ أنهم ينهَون الناسَ عن اتِّباع الحقِّ، وتصديقِ الرُّسولِ والانقيادِ للقرآن، ﴿وينأون عنه﴾، أي: ويبتعدون هم عنه، فَيجمَعُون بين الفعلين القبيحَيْن، لا ينتفعون ولا يتركون أحداً ينتفعُ وَيَبتَعِدُونَ.

قال علي بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عَبَّاس: ﴿وهم ينهَون عنه﴾ قال: ينهَون[1] النَّاس عن محمد - ﷺ - أن يؤمنوا به[2].

وقال محمد ابن الحَنَفِيَّة: كان كفارُ قريشٍ لا يأتون النبي - ﷺ -[3] وينهون عنه.

وكذا قال مجاهد وقتادة، والضحَّاك، وغيرُ واحدٍ. وهذا القول أظهَرُ، والله أعلم، وهو اختيارُ ابن جَرِيرٍ.

والقولُ الثاني، رواه سفيانُ الثوريُّ، عن حبيب بن أبي ثابت، عَمَّن سَمِع ابنَ عَبَّاس يقولُ في قوله: ﴿وهم ينهَون عنه﴾، قال: نَزلت في أبي طالب، كان ينهَى عن النبي - ﷺ - أن يُؤذَى[4].

وكذا قال القاسمُ بن مُخَيمِرَةَ، وحبيبُ بن أبي ثابتٍ، وعطاءُ بن دينارٍ: أنها نزلت في أبي طالب.

وقال سعيدُ بن أبي هلال: نزلت في عُمومة النبي - ﷺ - وكانوا عَشرةً، فكانوا أشدَّ الناسِ معه في العلانية، وأشدَّ الناسِ عليه في السِّرِّ. رواه ابن أبي حاتم.

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ﴿وهم ينهون عنه﴾، أي: ينهون الناس عن قتله.

وقولُه: ﴿وينأون عنه﴾، أي: يتباعَدُون منه. ﴿وَإن يُهلِكُون إلا أنفسَهم وما يشعرُون﴾، أي: وما يَهلِكُونَ بهذا الصَّنيع ولا يعود وبالُه إلا عليهم، وما يَشعُرونَ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يذكُر تعالى حالَ الكُفَّار إذا وُقِفُوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعيُنِهم تلك الأمورَ العظامَ والأهوالَ، فعند ذلك قالوا: ﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذبَ بآياتِ ربِّنا ونكون من المؤمنين﴾، يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدَّار الدُّنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذِّبوا بآيات رَبِّهم ويكونوا من المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفُون من قبل﴾، أي: بل ظَهَر لهم حينئذٍ ما كانوا يُخفُون في أنفُسِهم من الكُفْرِ والتكذيب والمعاندةِ، وإن أنكروها في الدُّنيا، او في الآخرة كما قال قبلَ هذا بيسيرٍ: ﴿ثم لم

(١) في نسخة: يَرُدُّون.

(٢) تفسير الطبري ٧/١٧٢.

(٣) في نسخة: «وكانوا عشرةً ينهون عنه». وانظر تفسير الطبري ٧/١٧٢.

(٤) تفسير الطبري ٧/١٧٣، وبعده: «وينأى عما جاء به أن يؤمن به». وقد ورد الأثر في المستدرك، تفسير سورة الأنعام ٢/٣١٥، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

تكن فتنتهم إلا أن قالوا: ﴿وَالله رَبِّنا ما كنا مشركين. انظر كيف كَذَبُوا على أنفسهم﴾.

ويحتَمل أنَّهم ظهر لهم ما كانوا يَعلَمُونه من أنفسهم من صِدْقِ ما جاءت به الرسلُ في الدُّنيا، وإن كانوا يُظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بصائر﴾ . . . الآية. وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وجَحدوا بها واستيقنتها أنفُسهم ظلماً وعلواً﴾.

ويَحْتَمِلُ أن يكون المرادُ بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يُظهرُون للناس الإيمان ويُبْطِنُون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكونُ يومُ القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كونَ هذه مكية، والنفاقُ إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النِّفاق في سورة مكية وهي العنكبوت، فقال: ﴿وليعلَمَنَّ الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾؛ وعلى هذا فيكون هذا إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يُعايِنُون العذاب، يظهر لهم حينئذ غِبُّ[1] ما كانوا يُبطنون من الكفر والشقاق والنفاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يُخفُون من قبل﴾، فَهُم ما طلبوا العَود إلى الدنيا رغبةً ومحبَّةً في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عايَنُوه جَزاءً على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا لِيَتخلَّصُوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: ﴿ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، أي: في تَمَنِّيهم الرجعَةَ رغبةً ومحبةً في الإيمان.

ثم قال مُخبراً عنهم: إنهم لو رُدّوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهُوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وإنهم لكاذبون﴾، أي: في قولهم: ﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذِّبَ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾. أي: لعادوا لما نهوا عنه، ولقالوا: ﴿إن هي إلا حياتنا﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياةُ الدنيا، ثم لا مَعادَ بعدها. ولهذا قال ﴿وما نحن بمبعوثين﴾.

ثم قال: ﴿ولو تَرَى إذ وُقِفوا على رَبِّهم﴾، أي: أوقفوا بين يديه، قال: ﴿أليس هذا بالحق؟﴾، أي: أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قالوا: بلى وَرَبِّنا. قال: فَذُوقُوا العذابَ بما كنتم تكفرون﴾، أي: كما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مَسَّهُ، ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن خَسارة من كَذَّب بلقاء الله، وعن خَيْبَتِه إذا جاءته الساعةُ بغتةً، وعن نَدَامَتِه على ما فرَّط من العمل، وما أسلَفَ من قبيح الفِعَالِ، ولهذا قال: ﴿حتى إذا جاءتهم الساعةُ بغتةً قالوا: يا حسرتنا على ما فَرَّطنا فيها﴾.

وهذا الضميرُ يَحْتَمِلُ عَوْدَه على الحياةِ الدنيا وعلى الأعمال، وعلى الدَّار الآخرة، أي: في أمرها.

وقولُه: ﴿وهم يحملون أوزارَهم على ظهورهم، ألا ساء ما يزرون﴾، أي: يحملون. وقال قتادة: يعملون.

---

(١) أي: عاقبة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُ، حدثنا أبو خالد، عن عمرو بن قيس، عن أبي مرزوق قال: وَيَسْتَقْبِلُ الكافر، أو: الفاجرُ، عند خروجه من قبره كأقبح صُورة رآها وأنتنه ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أوما تعرفني؟ فيقول: لا، إلاّ أن الله قَبّح وجهك ونَتّن ريحك. فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنتَ في الدنيا خبيثَ العمل مُنْتِنُهُ، فطالما ركبتني في الدنيا، هَلُمَّ أركَبْكَ، فهو قوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ . . . الآية.

وقال أسباطُ، عن السّدّي أنه قال: ليس من رجل ظالم فيدخلُ[1] قبره إلا جاءَهُ رجلٌ قبيحٌ الوجه، أسودُ اللون، مُنتنُ الريح، عليه ثياب دنِسة، حتى يدخلَ معه قَبْره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهَكَ! قال: كذلك كان عَمَلُك قبيحاً! قال: ما أنتن ريحك! قال: كذلك كان عَمَلُك مُنتناً! قال: ما أدنسَ ثيابك، قال فيقول: إن عَمَلَك كان دَنِساً. قال له: من أنت؟ قال: أنا عملك! قال: فيكونُ معه في قبره، فإذا بُعِث يومَ القيامة قال له: إني كنت أَحمِلُكَ في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني. قال: فيركَبُ على ظهـره فيسوقُه حتى يُدْخِلَه النار، فذلك قولُه: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، ألا ساء ما يَزِرُون﴾[2].

وقولُه: ﴿وما الحياةُ الدُّنيا إلا لَعِبٌ ولهو﴾، أي: إنما غَالِبُها كذلك ﴿وللدار الآخرة خيرٌ للذين يَتّقون أفلا تعقلون﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى مُسَلّياً لنبيه ـ ﷺ ـ في تكذيب قومِهِ له ومخالفتِهم إياه: ﴿قد نعلم إنه ليحزنُك الذي يقولون﴾، أي: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك، وحُزنك وتأسُّفك عليهم، ﴿فلا تذهب نفسُك عليهم حَسَرات﴾، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لعلك باخعٌ نفسَك ألّا يكونوا مؤمنين﴾، ﴿فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسَفاً﴾.

وقولُه: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾، أي: لا يَتّهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾، أي: ولكنهم يُعانِدُون الحقّ ويدفَعُونه بصدورهم، كما قال سفيان الثوريُّ، عن أبي إسحاق، عن ناجيةَ بن كعب، عن علي قال: قال أبو جَهل للنبي ـ ﷺ ـ: إنا لا نُكَذِّبك، ولكن نُكذّب بما جئْتَ به، فأنزل الله: ﴿فإنهم لا يُكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

ورواه الحاكم، من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق، ثم قال: صحيحٌ على شَرطِ الشيخين، ولم يُخرجاه[3].

---

(١) نص الطبري: «ليس من رجل ظالم يموت فيدخل».
(٢) تفسير الطبري ١٧٩/٧
(٣) المستدرك، تفسير سورة الأنعام ٣١٥/٢ ـ ٣١٦. وهو في تفسير الطبري ١٨٢/٧ موقوفا به على كعب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الوزير الواسطي بمكة، حدثنا بشر بن المُبَشِّر الواسطي، عن سلام ابن مسكين، عن أبي يزيد المَدَني: أن النبي - ﷺ - لقي أبا جَهْل فصافحه، فقال له رجلٌ: ألا أراك تصافح هذا الصابىء؟! فقال: والله إني لأعلم إنه لَنبيٌّ، ولكن متى كنا لبني عبد منافٍ تَبَعاً؟! وتلا أبو يزيد: ﴿فإنهم لا يُكَذِّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

وقال أبو صالح وقتادةُ: يعلمُون أنّك رسولُ الله ويجحدُون.

وذكر محمد بن إسحاق، عن الزهري، في قِصَّةِ أبي جهل حين جاء يستَمِعُ قراءةَ النبي - ﷺ - من الليل، هو وأبو سفيان صَخر بن حَرْب، والأخنس بن شريق، ولا يشعر واحدٌ منهم بالآخر. فاستمعوها إلى الصباح، فلما هَجَم الصُّبح تَفرَّقوا، فجمعتهم الطريقُ، فقال كلٌّ منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألّا يَعُودُوا، لما يخافون من عِلْمِ شباب قُرَيش بهم، لئلا يُفْتَتَنُوا بمجيئهم. فلما كانت الليلةُ الثانيةُ جاء كلٌّ منهم ظنّاً منه أن صاحِبَيه لا يجيئان، لما تقدَّم من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهَدُوا على ألَّا يَعُودُوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا على ألَّا يعودوا لمثلها. ثم تفرَّقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَريق أخذ عصاه، ثم خَرَج حتى أتى أبا سفيان بن حَرْبٍ في بيته، فقال: أخبرني - يا أبا حنظلة - عن رأيك فيما سَمِعتَ من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبةَ، والله لقد سَمِعتُ أشياءَ أعرفها وأعرِفُ ما يُراد بها، وسَمِعتُ أشياءَ ما عَرَفت معناها ولا ما يُرَاد بها. قال الأخنسُ: وأنا والذي حَلَفْتَ به.

ثم خَرَج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيْتَه فقال: يا أبا الحكم، ما رأيكُ فيما سَمِعتُ من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرَفَ: أطعَمُوا فأطعَمْنا، وحمَلُوا فَحملنا، وأعطَوا فأعطَيْنا، حتى إذا تجاثَينا[1] على الركب، وكنا كفرسي رِهَانٍ، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء! فمتى نُدْرِك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نُصَدِّقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه[2].

وروى ابنُ جرير، من طريق أسباطٍ، عن السدِّيِّ، في قوله: ﴿قد نعلَمُ إنه لَيحزُنُكَ الذي يقولون، فإنهم لا يُكَذِّبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾: لما كان يوم بدر قال الأخنسُ بن شَريقٍ لبني زُهْرَةَ: يا بني زُهْرَةَ، إن محمداً ابنُ أختكم، فأنتم أحق من كفَّ[3] عنه. فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحقَّ من كَفَّ عن ابن أخته! قِفُوا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غُلِب محمد رجعتُم سالمين، وإن غَلَبَ محمد فإن قومكم لن يصنعُوا بكم شيئاً فيومئذ سُمِّي الأَخْنَس، وكان اسمُه «أبيّ»، فالتقى الأخنسُ وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرُك يسمع كلامنا. فقال أبو جَهل: ويحكَ؟ والله إنَّ محمداً لصادق، وما كَذَبَ محمدٌ قَطُّ، ولكن إذا ذَهَبَت بنو قُصَيٍّ باللواء والسقاية والحِجَابة والنُّبوَّة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فإنهم لا يُكذِّبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ فآيات الله: محمد ﷺ[4].

---

(١) كذا في أصلنا، وفي السيرة: تجاذينا، بالذال المعجمة، وهما بمعنى، يقال: جثا يجثو جُثوّاً، وجذا يجذو جذوّاً: إذا جلس على ركبتيه للخصومة وغيرها، ويقال: جاثيتُ ركبتي إلى ركبته، وتجاثوا على الركب.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣١٥ - ٣١٦.

(٣) في نسخة: من ذَبَّ عن ابن أخته.

(٤) تفسير الطبري ٧/١٨١ - ١٨٢.

وقولُه: ﴿ولقد كُذِّبت رُسُلٌ من قبلك فصَبَرُوا على ما كُذِّبوا وأُوذُوا حتى أتاهم نَصرُنا﴾. هذه تسليةٌ للنبي ـ ﷺ ـ وتعزيةٌ له من قومه، وأمرٌ له بالصَّبر كما صَبَر أولوا العَزْم من الرُّسُل، ووعدٌ له بالنصر كما نصِروا، وبالظَّفَر حتى كانت لهم العاقبة، بعدَما نالهم من التكذيب من قومِهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصرُ في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولا مُبَدِّل لكلماتِ الله﴾، أي: التي كَتَبها بالنُّصرة في الدنيا والآخرة لعبادِهِ المؤمنين، كما قال: ﴿ولقد سَبَقَت كَلِمتُنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾.

وقولُه: ﴿ولقد جاءَكَ من نبَإِ المرسلين﴾، أي: من خَبَرِهم كيفَ نُصِروا وأُيِّدوا على من كَذَّبهم من قومهم، فَلَكَ فيهم أُسْوةٌ وبهم قُدوة.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كان كَبُر عليك إعراضُهم﴾، أي: إن كان شقَّ عليك إعراضُهم عنك، ﴿فإن استطعت أن تبتغي نَفَقاً في الأرض أو سُلَّماً في السماء﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: النَفَقُ: السَّرَبُ، فتذهَب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لك سُلَّماً في السماء، فتصعَدُ فيه فتأتيَهم بآية أفضلَ مما أتيتَهم به، فافعلْ[1]. وكذا قال قتادةُ، والسدِّيُّ، وغيرهما.

وقولُه: ﴿ولو شاء الله لجَمَعهم على الهُدَى فلا تكونَنَّ من الجاهلين﴾ كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربُّك لآمَنَ مَن في الأرض كلُّهم جميعاً﴾... الآية.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿ولو شاء الله لجمَعَهُم على الهُدَى﴾، قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يحرِصُ أن يُؤمِنَ جميعُ الناس ويتابِعُوه على الهُدَى، فأخبَرَ الله أنه لا يُؤمِن إلا من قد سَبَق له من الله السعادة في الذِّكر الأول.

وقولُه: ﴿إنما يستجيبُ الذين يَسْمعون﴾، أي: إنما يَسْتَجيبُ لدعائك يا محمَّد من يسمَع الكلامَ ويَعيه ويَفْهمه، كقوله: ﴿لينذِرَ مَن كان حياً ويحقَّ القولُ على الكافرين﴾.

وقولُه: ﴿والموتى يبعثهم الله﴾، يعني بذلك الكفار، لأنهم موتَى القلوب، فَشَبَّههم الله بأمواتِ الأجسادِ، فقال: ﴿والموتى يبعَثُهم الله ثُمّ إليه يرجعون﴾، وهذا من باب التهكم بهم، والإزدراء عليهم

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنَّهم كانوا يقولون ﴿لولا نُزِّل عليه آيةٌ من ربِّه﴾، أي: خارقٌ على مُقتضى ما كانوا يريدون وما يَتعنَّتون كما قالوا، ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض يَنبُوعاً﴾... الآيات.

﴿قل إنَّ الله قادر على أن يُنزِّل آية ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون﴾، أي: هو تعالى قادرٌ على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخيرَ ذلك، لأنه لو أنزلها وَفْق ما طَلَبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة كما فَعَل بالأمم

(١) تفسير الطبري ٧/ ١٨٤.

السالفة، كما قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نُرسِلَ بالآياتِ إلا أن كَذّبَ بها الأوّلون، وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبصِرةً فظلموا بها، وما نُرْسِلُ بالآياتِ إلا تخويفاً﴾، وقال تعالى: ﴿إن نشأ نُنزّل عليهم من السماء آيةً فظلّت أعناقهم لها خاضعين﴾.

وقولُه: ﴿وما من دابّة في الأرض ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالُكم﴾. قال مجاهد: أي أصنافٌ مُصنَّفة تُعرَف بأسمائها. وقال قتادةُ: الطير أمّةٌ، والإنس أمّة، والجنُّ أمّة. وقال السُّدّي: ﴿إلا أمم أمثالكم﴾، أي: خلق أمثالكم[١].

وقولُه: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيءٍ﴾ أي: الجميعُ عِلْمُهم عند الله، ولا يَنْسى واحداً من جميعها من رِزْقِهِ وتدبيرِه، سواء كان بَرّياً أو بَحْرياً، كما قال: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقُها ويعلَمُ مستقرَّها ومستودَعَها كُلٌّ في كتابٍ مبين﴾، أي: مُفْصِح بأسمائِها وأعدادِها ومَظانِّها، وحاصِرٌ لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وكأيِّن من دابَّةٍ لا تحمل رزقها، الله يرزقها وإياكم، وهو السميعُ العليمُ﴾.

وقد قال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا مُحمَّد بن المثنّى، حدثنا عُبَيد بن واقدٍ القيسيُّ أبو عَبّاد، حدثني محمد ابن عيسى بن كيسانَ، حدثنا محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قَلَّ الجراد في سَنَةٍ من سِنِي عُمَر ـ رضي الله عنه ـ التي وَلِيَ فيها، فسأل عنه فلم يُخْبَر بشيء، فاغتمَّ لذلك. فأرسلَ راكباً إلى كذا، وآخر إلى الشام، وآخر إلى العراق يسأل: هل رُؤِيَ من الجراد شيءٌ أم لا؟ فأتاه الراكبُ الذي من قِبَلِ اليمن بقَبْضَةِ جرادٍ، فألقاها بين يديه، فلما رآها كَبَّر ثلاثاً، ثم قال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «خلق الله ـ عز وجل ـ ألف أُمَّةٍ، منها سِتّمائة في البحر، وأربعمائة في البر. وأول شيء يهلكُ من هذه الأمم الجَرادُ، فإذا هلكت تَتَابعَتْ مثلَ النِّظام قُطِعَ سِلْكُه».

وقولُه: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عكرمةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثم إلى رَبِّهم يُحشَرُون﴾، قال: حَشْرُها الموتُ.

وكذا رواه ابنُ جَرير من طريق إسرائيل، عن سعيد، عن مسروق، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: موت البهائم حَشْرُها. وكذا رواه العوفي، عنه[٢].

قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن مجاهد والضحاك، مثلَه.

والقول الثاني: أن حشرها هو بعثُها يومَ القيامة كما قال تعالى: ﴿وإذا الوحوشُ حُشِرت﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا مُحمَّد بن جَعْفَرٍ، حدثنا شعبةُ، عن سليمانَ، عن مُنذِر الثوريِّ، عن أشياخ لهم، عن أبي ذَرٍّ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى شاتين تَنْتَطِحان، فقال: يا أبا ذَرّ، هل تَدْرِي فيم تنتطحان؟ قال: لا. قال: لكنَّ الله يَدْرِي، وسَيَقْضي بينهما»[٣].

ورواه عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن الأعمش، عمن ذكره، عن أبي ذَرٍّ قال: بينا أنا عندَ رسول الله ـ ﷺ ـ إذِ انتطَحتْ عَنْزَانِ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أتدرون فيم انتطحتا؟ قالوا: لا نَدْري. قال: لكن الله يدري، وسَيَقْضِي بينهما».

(١) انظر الآثار في تفسير الطبري ٧/١٨٧ ـ ١٨٨.
(٢) تفسير الطبري ٧/١٨٨.
(٣) مسند أحمد ٥/١٦٢.

رواه ابنُ جَرير، ثم رواه من طريق مُنْذِر الثوريِّ، عن أبي ذَرٍّ، فذكره وزاد: قال أبو ذَرٍّ: «ولقد تَرَكنا رسولَ الله ـ ﷺ ـ وما يُقَلِّبُ طائرٌ جناحَيه في السماءِ إلا ذَكَرنا منه عِلْماً»(١).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثني عباس بن محمد وأبو يحيى البزاز قالا: حدثنا حجاجُ بن نُصَير، حدثنا شُعبةُ، عن العَوَّام بن مُرَاجِم ـ من بني قيس بن ثعلبةَ ـ عن أبي عثمانَ النَّهدِيِّ، عن عثمانَ ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الجَمَّاء(٢) لَتَقتَصُّ من القَرْناء يوم القيامة»(٣).

وقال عبدُ الرزاق: أخبرنا معمَرٌ، عن جعفر بن بُرقان، عن يزيدَ الأصمِّ، عن أبي هُرَيرة في قوله: ﴿إلا أمم أمثالكم ما فَرَّطنا في الكتاب من شيءٍ ثم إلى ربهم يحشرون﴾، قال: يُحشَر الخلقُ كلُّهم يومَ القيامة، البهائمُ والدوابُّ والطيرُ وكلُّ شيء، فيبلغُ من عَدْلِ الله يومئذ أن يأخذ للجَمَّاء من القَرْناءِ. قال: ثم يقولُ: كوني تراباً. قال: فلذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾(٤).

وقد رُوِي هذا مرفوعاً في حديث الصُّور(٥).

وقولُه: ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا صمٌّ وبكمٌ في الظلمات﴾، أي: مَثَلُهم في جَهْلهم وقِلَّة عِلمهم وعَدَم فَهْمِهم كمثل أصَمَّ ـ وهو الذي لا يسمَعُ ـ أبكَمَ ـ وهو الذي لا يتكَلَّمُ ـ وهو مع هذا في ظلام لا يُبصِرُ، فكيف يَهتَدِي مثلُ هذا إلى الطريق، أو يخرُج مما هو فيه؟! كما قال تعالى: ﴿مثلُهم كمثَل الذي استوقَدَ ناراً، فلما أضاءَتْ ما حولَه ذهب الله بنورهم، وتَرَكهم في ظلمات لا يُبصِرون. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعون﴾، وكما قال: ﴿أو كظلمات في بحر لُجِّيٍّ يَغْشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعض، إذا أخرج يده لم يَكَدْ يَرَاها، ومن لم يَجْعَل الله له نوراً فما له من نور﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿من يَشَإِ الله يُضْلِلْه ومن يَشَأْ يجعَلْه على صِراطٍ مستقيم﴾، أي: هو المتصرِّف في خَلْقِه بما يشاءُ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه الفَعَّال لما يريدُ، المتصرِّفُ في خَلْقِه بما يشاءُ، وأنه لا مُعَقِّب لحكمه، ولا يَقْدِر أحدٌ على صَرْفِ حُكْمِه عن خَلْقِه، بل هو وَحْدَه لا شريكَ له، الذي إذا سُئِل يجيبُ لمن يشاءُ، ولهذا قال: ﴿قل: أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة﴾، أي: أتاكم هذا أو هذا ﴿أغيرَ الله تدعُونَ إن كنتم صادقين﴾ أي: لا تدعون غيره، لعلمكم أنه لا يقدر أحدٌ على دفع ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إن كنتم صادقين﴾، أي: في

(١) تفسير الطبري ٧/١٨٩.
(٢) الجمَّاء: التي لا قرن لها.
(٣) مسند أحمد ١/٧٢.
(٤) تفسير الطبري ٧/١٨٨ ـ ١٨٩.
(٥) سيأتي هذا الحديث عند تفسير الآية ٧٣ من هذه السورة.

اتِّخاذكم آلهةً معه ﴿بل إيَّاه تدعون فيكشفُ ما تدْعُون إليه إن شاء وتنسَوْن ما تُشرِكُون﴾ أي: في وقتِ الضرورةِ لا تَدْعُون أحداً سواه، وتذهَبُ عنكم أصنامُكم وأندادكُم، كما قال: ﴿وإذا مَسَّكُم الضرُّ في البَحْرِ ضَلَّ من تدعون إلاّ إياه﴾. . . الآية.

وقولُه: ﴿ولقد أرسلنا إلى أُمَمٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء﴾، يعني: الفقر والضيق في العيش ﴿والضراء﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام ﴿لعلهم يتضرعون﴾، أي: يَدْعُون الله ويتضرَّعون إليه ويخشَعُون. قال الله تعالى ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾، أي: فهَلاَّ إذ ابتليناهم بذلك تَضرَّعوا إلينا وتَمَسْكَنُوا لَدَيْنا، ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ أي: ما رقَّتْ ولا خَشَعت، ﴿وَزَيَّن لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون﴾، أي: من الشِّرك والمعاصي.

﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به﴾، أي: أعرضوا عنه وتناسَوه وجَعَلُوه وراءَ ظُهُورهم ﴿فَتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيء﴾، أي: فتحنا عليهم أبوابَ الرزق من كلِّ ما يختارون. وهذا استدراجٌ منه تعالى وإملاءٌ لهم، عياذاً بالله من مَكْرِه، ولهذا قال: ﴿حتَّى إذا فَرِحوا بما أُوتُوا﴾، أي: من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أخذناهم بغتةً﴾، أي: على غَفْلَةٍ ﴿فإذا هم مُبلسُون﴾، أي: آيسون من كُلِّ خيرٍ.

قال الوالبيُّ: عن ابن عَبَّاسٍ: المبلسُ: الآيسُ.

وقال الحسنُ البصريُّ: من وَسَّع الله عليه فلم يَرَ أنه يمكرُ به فلا رَأْيَ له، ومن قَتر عليه فلم يَرَ أنه ينظر له فلا رَأْيَ له، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ حَتَّى إذا فَرِحوا بما أُوتُوا أَخذناهم بغتة فإذا هم مُبْلِسون﴾، قال الحسن: مَكَرَ بالقوم وَرَبِّ الكعبة، أُعطُوا حاجتهم ثم أُخِذُوا. رواه ابن أبي حاتم.

وقال قتادةُ: بَغَتَ القومَ أَمْرُ الله، وما أخذَ الله قوماً قطُّ إلا عِندَ سَكْرَتِهم وغِرَّتِهم ونَعْمتِهم[1]، فلا تَغتَرُّوا بالله، إنه لا يغتَرُّ إلا القومُ الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقال مالكٌ، عن الزهريِّ، ﴿فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ﴾ قال: إرخاء الدنيا وسَتْرُها.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غَيلانَ، حدثنا رِشْدينُ ـ يعني ابنَ سعد أبا الحجَّاجِ المَهْرِيَّ ـ عن حَرْمَلة بـن عمرانَ التُّجيبي، عن عُقْبَةَ بن مسلم، عن عقبة بـن عامرٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إذا رأيتَ الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصِيه ما يحبُّ، فإنما هو استدراجٌ. ثم تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ، حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبْلِسُونَ﴾[2].

ورواه ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم، من حديث حَرْمَلة وابن لَهِيعة، عن عُقْبَةَ بن مسلم، عن عقبة بن عامرٍ، به[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عَمَّار، حدثنا عِرَاكُ بن خالد بن يزيدَ، حدثني أبي، عن إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ، عن عُبادة بن الصامت أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «إنَّ الله إذ أراد بقوم بقاءً، أو: نماءً، رَزَقهم القَصْدَ والعَفَاف، وإذ أراد الله بقوم اقتطاعاً فَتح لهم، أو: فتح عليهم، بابَ خيانةٍ ﴿حتى إذا

(١) في نسخة: سكرتهم. وفي أخرى: ونعيمهم.
(٢) مسند أحمد ٤/١٤٥، وتفسير الطبري ٧/١٩٥.

فَرِحُوا بما أُوتُوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبْلِسون﴾، كما قال: ﴿فقطع دابرُ القوم الذين ظَلَمُوا والحمد لله رب العالمين﴾.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ ﴿قل﴾ لهؤلاء المكذِّبين المعاندين: ﴿أرأيتم إن أخذَ الله سَمْعَكم وأبصاركم﴾ أي: سَلَبكم إياها كما أعطاكموها. فإنه ﴿هو الذي أنشأكم وجَعَل لكم السمع والأبصار﴾. . . الآية.

ويَحتمِلُ أن يكون هذا عبارةً عن مَنْع الانتفاع بهما النفعَ الشرعي، ولهذا قال: ﴿وخَتَم على قلوبكم﴾، كما قال: ﴿أمَّن يملك السمعَ والأبصار﴾ وقال: ﴿واعلَمُوا أن الله يحولُ بين المَرْءِ وقَلْبِه﴾.

وقولهُ: ﴿من إلَهٌ غيرُ الله يأتيكم به﴾، أي: هل أحدٌ غيرُ الله يقدِرُ على رَدِّ ذلك إليكم إذا سَلَبه الله منكم؟ لا يقدِرُ على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿انظر كيف نُصرِّف الآيات﴾، أي: نُبيِّنها ونُوَضِّحها ونُفسِّرها دالَّةً على أنه لا إلَه إلاّ الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال، ﴿ثم هم يصدفون﴾، أي: ثم هُم مع هذا البيان يُعرِضون عن الحق، ويَصُدُّون الناسَ عن اتِّباعه.

قال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿يصدفون﴾ يَعْدِلون. وقال مجاهدٌ، وقتادةُ: يُعرِضون. وقال السدِّيُّ: يَصُدُّون[1].

وقولُه: ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذابُ الله بغتةً﴾، أي: وأنتم لا تشعرونَ به حتى بَغَتكم وفَجَأكم ﴿أو جَهرَةً﴾ أي: ظاهِراً عياناً ﴿هل يُهلك إلا القوم الظالمون﴾، أي: إنما كان يُحيط بالظالمين أنفُسَهم بالشِّرك بالله، وينجُو الذين كانوا يعبدون الله وَحْدَه لا شريكَ له، فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنُون، كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾. . . الآية.

وقوله: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مُبَشِّرين ومُنْذِرين﴾، أي: مُبَشِّرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومُنْذِرين من كَفَر بالله النِّقماتِ والعقوبات. ولهذا قال: ﴿فمن آمن وأصلَحَ﴾، أي: فمن آمن قلبُه بما جاءوا به وأصلح عملَه باتِّباعه إياهم ﴿فلا خوف عليهم﴾، أي: بالنسبة إلى ما يَستقبِلُونه ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتَرَكُوه وَرَاء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعتها، الله وليهم فيما خَلَّفوه، وحافظهم فيما تَرَكوه.

ثم قال: ﴿والذين كَذَّبُوا بآياتنا يَمَسُّهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾، أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرُّسُل، وخَرَجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكَبُوا مَحارِمه ومناهيه وانتهاكَ حرماته.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ

(١) انظر الآثار في تفسير الطبري ١٩٧/٧.

وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ: ﴿قل: لا أقول لكم: عندي خزائنُ الله﴾، أي: لستُ أملكُها، ولا أنا المُتصرِّفُ فيها، ﴿ولا أعلم الغيب﴾، أي: ولا أقولُ: إني أعلمُ الغيبَ إنما ذاك من علم الله ـ عز وجل ـ لا أطَّلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿ولا أقول لكم: إني ملك﴾، أي: ولا أدَّعي أنّي مَلَكٌ، إنما أنا بشرٌ، يُوحَى إليَّ من الله ـ عزَّ وجل ـ شرَّفني بذلك، وأنعم عليّ به. ولهذا قال: ﴿إن أتَّبعُ إلا ما يُوحَى إليَّ﴾، أي: لستُ أخرجُ عنه قِيدَ شِبْرٍ ولا أدنى منه.

﴿قل: هل يستوي الأعمى والبصيرُ﴾، أي: هل يستوي من اتَّبع الحقَّ وهُدِيَ إليه، ومن ضَلَّ عنه ولم يَنْقَد له؟ ﴿أفلا تتفكرون﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربِّك الحق كَمَن هو أعمى، إنما يتذكر أولوا الألباب﴾.

وقولُه: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيعٌ﴾، أي: وأنذرْ بهذا القرآن يا محمد ﴿الذين هم من خَشْيَةِ رَبِّهم مشفقون﴾ والذين ﴿يخشون ربهم ويخافون سُوءَ الحساب﴾.

﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾، أي: يوم القيامة ﴿ليس لهم﴾، أي: يومئذ ﴿من دونه وَليٌّ ولا شفيعٌ﴾، أي: لا قَريب لهم ولا شَفِيعَ فيهم من عذابه إن أراده بهم، ﴿لعلهم يتقون﴾، أي: أنذرْ هذا اليومَ الذي لا حاكم فيه إلّا الله ـ عز وجل ـ ﴿لعلهم يتقون﴾، فيعملون في هذه الدار عملاً يُنْجِيهم الله به يومَ القيامة من عَذابِهِ، ويُضاعِفُ لهم به الجزيلَ من ثَوابِهِ.

وقولُه: ﴿ولا تَطرُدِ الذين يَدْعون ربهم بالغَدَاة والعشيِّ يريدون وجهه﴾، أي: لا تُبعِدْ هؤلاء المتّصفين بهذه الصفة عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخِصَّاءك، كما قال: ﴿واصبرْ نفسك مع الذين يَدْعُون ربهم بالغداة والعشيّ يُريدُون وجهَه، ولا تَعدُ عيناك عنهم تريدُ زينةَ الحياة الدنيا، ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا واتَّبع هواه وكان أمره فُرُطاً﴾.

وقولُه: ﴿يدعون ربهم﴾، أي: يعبدُونه ويسألُونه ﴿بالغداة والعشيِّ﴾، قال سعيد بن المسيِّب، ومجاهد، والحسن، وقتادةُ: المراد بذلك الصلواتُ المكتوباتُ.

وهذا كقوله: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾، أي: أتقبَّلُ منكم.

وقولُه: ﴿يُريدون وَجْهَه﴾، أي: يَبتغُون بذلك العملِ وجهَ الله الكريم، فهم مُخلِصُون فيما هم فيه من العبادات والطاعات.

وقولُه: ﴿ما عليك من حسابهم من شيءٍ وما من حسابِكَ عليهم من شيءٍ﴾ كما قال نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا: ﴿أنؤمن لك واتَّبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملُون . إن حسابُهم إلا على ربي

لو تشعرون﴾، أي: إنما حسابُهم على الله - عز وجل - وليس عَلَيّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء.

وقولُه: ﴿فتطرُدَهم فتكونَ من الظالمين﴾، أي: إن فعلتَ هذا والحالةُ هذه.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسباطٌ - هو ابن محمد - حدثنا أشعث، عن كُردُوس، عن ابن مسعود قال: مَرَّ المَلأُ من قُرَيش على رسول الله - ﷺ - وعنده: خَبَّابُ بن الأرَتّ وصُهَيبٌ، وبلالٌ، وعمارٌ. فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزلَ فيهم القرآن: ﴿وأنْذِر به الذين يخافُون أن يُحشَروا إلى رَبِّهم﴾ إلى قوله: ﴿والله أعلم بالظالمين﴾[(١)].

ورواه ابنُ جرير، من طريقِ أشْعَث، عن كُردُوس، عن ابن مسعود قال: مَرَّ المَلأُ من قُرَيش برسول الله - ﷺ - وعنده: صُهَيبٌ، وبلالٌ، وعَمَّار، وخَبَّاب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطرُدْهم فَلَعلَّكَ إن طردتَهم أن نَتَّبعك: فنزلت هذه الآيةُ: ﴿ولا تطرد الذين يدعُونَ رَبَّهم بالغَدَاة والعشيِّ يريدون وجهه﴾، ﴿وكذلك فَتَنَّا بعضهم ببعض﴾... إلى آخر الآية[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو[(٣)] سعيد بنُ يحيى بن سعيد القَطَّانُ، حدثنا عَمرو بن محمد العَنْقَزِيُّ، حدثنا أسباطُ بن نَصْر، عن السدّي، عن أبي سعيد الأزدي - وكان قارىء الأزْدِ - عن أبي الكَنُود، عن خَبَّاب في قول الله عزَّ وجل: ﴿ولا تطردِ الذين يَدْعُون ربهم بالغداة والعشيِّ﴾، قال: جاء الأقرعِ بن حابس التميميُّ وعُيَينة ابن حِصْنٍ الفَزَاريُّ، فوجدوا رسولَ الله - ﷺ - مع صُهَيبٍ وبلال وعَمَّار وخَبَّابٍ قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حولَ النبي - ﷺ - حَقَرُوهم، فأتوه فَخَلَوا به، وقالوا: إنا نريدُ أن تجعلَ لنا منك مجلساً تَعرفُ لنا به العربُ فضلَنا، فإنَّ وفودَ العرب تأتيك فَنَسْتَحِي أن ترانا العرب مع هذه الأعبدُ، فإذا نحن جئناك فأقِمْهم عنَّا، فإذا نحن فرَغنا فاقعُد معهم إن شئت. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً. قال: فدعا بالصحيفة ودعا عليّاً ليكتب، ونحن قعودٌ في ناحية، فنزل جبريلُ فقال: ﴿ولا تطرُدِ الذين يدعون ربهم﴾... الآية، فرَمى رسولُ الله - ﷺ - بالصحيفة، ثم دعانا فأتيناه.

ورواه ابنُ جرير، من حديث أسباطٍ، به[(٤)].

وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرعُ بن حابس وعُيَينة إنما أسلما بعد الهجرة بِدَهْرٍ.

وقال سفيانُ الثَّوري، عن المقدام بن شُرَيح، عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في سِتَّةٍ من أصحاب النبي - ﷺ - منهم ابن مسعود، قال: كُنَّا نسبق إلى النبيِّ - ﷺ - وندنو منه ونسمَعُ منه، فقالت قريش: يُدني هؤلاء دوننا! فنزلت: ﴿ولا تَطرُدِ الذين يدعُونَ ربَّهم بالغداة والعشي﴾[(٥)].

رواه الحاكم في مستدرَكِهِ من طريق سفيانَ، وقال: على شرط الشيخين، وأخرجه ابن حِبَّان في صحيحه من طريق المقدام بن شُرَيْح، به[(٥)].

---

(١) مسند أحمد ١/٤٢٠، ويعني بذلك الآيات ٥١ - ٥٨.

(٢) تفسير الطبري ٧/٢٠٠.

(٣) أبو سعيد هو: أحمد بن محمد، مترجم في الجرح والتعديل ٢/٧٤.

(٤) تفسير الطبري ٧/٢٠١.

(٥) تفسير الطبري ٧/٢٠٢، والمستدرك، كتاب معرفة الصحابة ٣/٣١٩، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ ٨/١٩٠. وسعد هو ابن أبي وقاص، رضي الله عنه.

وقولُه: ﴿وكذلك فَتَنَّا بعضَهم ببعض﴾، أي: ابتلَينا واختَبَرْنا وامتحنّا بعضَهم ببعض ﴿ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا﴾، وذلك أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان غالبُ من اتّبعه في أوَّل البِعثة ضعفاء الناس من الرجالِ والنساءِ والعبيدِ والإماءِ، ولم يَتّبعه من الأشراف إلا قليلٌ، كما قال قومُ نوحٍ لنوح: ﴿وما نراك اتَّبعَكَ إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأي﴾ . . . الآية، وكما قال هِرَقل ملكُ الروم لأبي سفيانَ حين سأله (عن تلك) المسائل، فقال له: فهل اتّبعه ضعفاءُ الناسِ أو أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤُهم. فقال: هم أتباعُ الرُّسُلِ[(١)].

والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويُعذِّبون من يقدِرُون عليهم منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا؟ أيْ ما كان الله ليهديَ هؤلاء إلى الخير ـ لو كان ما صاروا إليه خيراً ـ ويَدَعَنا كما قالوا: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾. وكما قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً﴾. قال الله تعالى في جوابِ ذلك: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا﴾. وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا: أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾، أي: أليس الله أعلَمَ بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فَيُوفِّقَهم ويَهْدِيَهم سُبُلَ السلام، ويخرجَهم من الظلمات إلى النور، ويَهْدِيَهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لَنَهدينَّهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين﴾. وفي الحديث الصحيح: «إن الله لا ينظُر إلى صُوَركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(٢)].

وقال ابن جرير: حدثنا القاسمُ، حدثنا الحُسَين، حدثنا حَجّاج، عن ابن جُرَيج، عن عِكْرِمَةَ في قوله: ﴿وأَنْذِرْ به الذين يخافُون أن يُحشَرُوا إلى رَبِّهم﴾ . . . الآية، قال: جاء عُتْبَة بن ربيعة، وشَيبةُ بن ربيعة، ومُطعِم ابنُ عَدِيٍّ، والحارثُ بن نوفل، وقرظَة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر، إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، لو أن ابن أخيك محمداً يطرُد عنه مَوَالِينَا وحُلَفاءَنا، فإنما هم عَبيدنا وعُسَفاؤنا[(٣)]، كان أعظَمُ في صُدُورنا، وأطوعَ له عندنا، وأدنى لاتِّباعنا إياه، وتَصْدِيقنا له. قال: فأتى أبو طالب النبيَّ ـ ﷺ ـ فحدثه بالذي كَلَّموه، فقال عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لو فعلتُ ذلك، حتى تنظرُ ما الذي يريدون، وإلامَ يصيرون من قولهم؟ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الآية: ﴿وأنذِرْ به الذين يخافون أن يُحشَرُوا إلى رَبِّهم﴾ . . . إلى قوله: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾. قال: وكانوا بلالاً، وعَمّار بن ياسر، وسالماً مولى أبي حذيفة، وصَبيحاً مولى أَسِيد ـ ومن الحُلفَاء ابن مسعود، والمقدادُ بن عمرو، ومسعودُ بن القاري، وواقدُ بن عبد الله الحنظلي، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين، ومَرْثَدُ بن أبي مَرْثَد ـ وأبو مَرْثَدٍ من غَنِيٍّ حَليفُ حمزة بن عبد المطلب ـ وأشباهُهم من الحلفاء. ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ﴿وكذلك فَتَنَّا بعضَهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاءِ مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا﴾ . . . الآية. فلما نزلَتْ، أقبل عُمَر ـ رضي الله عنه ـ فاعتذر من مقالته، فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾ . . . الآية[(٤)].

وقولُه: ﴿وإذا جاءك الذين يُؤمِنُون بآياتنا فَقُل: سلامٌ عليكم﴾، أي: فأكرِمْهم بِرَدِّ السلام عليهم، وبَشِّرْهم برحمة الله الواسعةِ الشاملةِ لهم. ولهذا قال: ﴿كَتَبَ ربكم على نفسِه الرحمةَ﴾، أي: أوجَبَها على نفسِه الكريمةِ، تفضُّلاً منه وإحساناً وامتناناً.

(١) فتح الباري، كتاب بدء الوحي ٣٢/١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧، وابن ماجه في الزهد ١٣٨٨، وأحمد في مسنده ٢٨٥/٢، ٥٣٩، ولفظها: «إلى صوركم وأموالكم».

(٣) العُسَفاء: جمع عَسِيف، وهو العبدُ والأجيرُ.

(٤) تفسير الطبري ٢٠٢/٧.

﴿أنه من عَمِل منكم سُوءاً بجهالة﴾، قال بعضُ السَّلَفِ: كُلُّ من عَصَى الله فهو جاهلٌ.

وقال مُعتَمِرُ بن سليمان، عن الحكم بن أَبان، عن عكرمة في قوله: ﴿من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾، قال: الدنيا كلُّها جَهالة. رواه ابنُ أبي حاتم.

﴿ثم تاب من بعدِه وأصلَحَ﴾، أي: رَجَع عما كان عليه من المعاصي، وأقلَع وعَزَم على ألَّا يعودَ، وأصلحَ العمـلَ في المستقبل ﴿فأنه غفورٌ رحيم﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّهٍ قال: هذا ما حَدَّثنا أبو هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لما قَضَى الله الخَلْقَ، كتب في كتابِهِ فهو عنده فوقَ العرشِ: إن رَحْمَتي غَلَبت غضبي»(١).

أخرجاه في الصحيحين(١). وهكذا رواه الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرَةَ. ورواه موسى بن عُقبَةَ عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة. وكذا رواه الليثُ وغيرُه، عن محمَّد بن عجلان، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بذلك(٢).

وقد رَوَى ابن مَرْدُويه، من طريق الحكم بن أَبانَ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا فَرَغ الله من القضاء بين الخلق، أخرجَ كتاباً من تحتِ العَرْش: إنَّ رحمتي سَبَقت غَضَبي، وأنا أرحمُ الراحمين. فيقبضُ قبضةً أو قبضَتين، فيُخرِج من النار خَلْقاً لم يعملوا خيراً، مكتوبٌ بين أعينهم: عُتَقاء الله».

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا معمرٌ، عن عاصم بن سُلَيمان، عن أبي عثمان النَّهدِيِّ، عن سَلْمَانَ في قوله: ﴿كَتَب رَبُّكم على نفسه الرحمة﴾، قال: إنَّا نجدُ في التوراةِ عطفتين: أن الله خلق السموات والأرض، وخلق مائة رحمة ـ أو: جعل مائةَ رحمةٍ ـ قبل أن يخلق الخلق، ثم خلق الخلق، فوضَع بينهم رحمةً واحدةً، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، قال: فيها يتراحمون، وبها يتعاطفون، وبها يتباذلون، وبها يتزاورون، وبها تَحِنَّ الناقة، وبها تَثَأَّجُ(٣) البقرة، وبها تثغو الشاة، وبها تتَابَعُ الطير، وبها تَتابَع الحيتانُ في البحرِ. فإذا كان يومُ القيامةِ جَمَع الله تلك الرحمةَ إلى ما عنده، ورحمتُه أفضلُ وأوسعُ.

وقد رُوِي هذا مرفوعاً من وجه آخر(٤). وسيأتي كثيرٌ من الأحاديثِ الموافقةِ لهذه الآية عند قوله: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾(٥).

ومما يناسبُ هذه الآيةَ من الأحاديث أيضاً قولُه ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جَبَل: «أتَدْرِي ما حقُّ الله على العباد؟ أن يَعبدُوه ولا يُشرِكوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا هم فَعَلوا ذلك؟ ألَّا يُعذِّبهم»(٦) وقد

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣١٣/٢. وانظر فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٢٨٧/٦، وكتاب التوحيد ٣٨٤/١٣، ٤٠٤، ٤٤٠، ٥٢٢. ومسلم، كتاب التوبة ٢١٠٧ ـ ٢١٠٨.

(٢) مسند أحمد ٤٣٣/٢.

(٣) في المخصص ٤١/٨ عن ابن دُرَيد: «ثأجتِ البقرةُ تثأجُ وتثوجُ ثؤاجاً. وتركُ الهَمْز أعلى». وفي اللسان أن الهمز أعرف. ومعنى ثأجت: صوَّتت. وفي إحدى النسخ: وبها تَخُورُ البقرة، وكلاهما بمعنى.

(٤) مسلم، كتاب التوبة ٢١٠٨، وابن ماجه، كتاب الزهد، عن أبي هريرة وأبي سعيد ١٤٣٥، وأحمد في مسنده ٤٣٤/٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

(٦) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب التوحيد ٣٤٧/١٣، ومسلم، كتاب الإيمان ٥٨ ـ ٥٩. وأحمد في مسنده ٢٦٠/٣ ـ ٢٦١.

رواه الإمامُ أحمدُ، من طريق كُمَيل بن زياد، عن أبي هُرَيرة[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٨ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾

يقول تعالى: وكما بيَّنا ما تقدَّم بيانه من الحُجَج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذمّ المجادلة والعناد، ﴿كذلك نفصل الآيات﴾، أي: التي يحتاجُ المخاطَبُون إلى بيانها، ﴿ولتستبين سبيلُ المجرمين﴾ أي: ولتظهر طريقُ المجرمين المخالفين للرسل. وقرىء ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سبيلَ المجرمين﴾[٢]، أي: ولتستبين يا محمدُ ـ أو يا مخاطبُ ـ سبيلَ المجرمين.

وقولُه[٣]: ﴿قُل: إني على بيِّنةٍ من ربِّي﴾، أي: على بصيرةٍ من شريعةِ الله التي أوحاها إليَّ ﴿وكَذَّبتم به﴾، أي: بالحقِّ الذي جاءني من الله ﴿ما عندي ما تستعجلُون به﴾، أي: من العذاب، ﴿إن الحكمُ إلا لِلَّه﴾، أي: إنما يَرْجِعُ أمرُ ذلك إلى الله إن شاءَ عَجَّلَ لكم ما سألتُموه من ذلك، وإن شاء أَنْظَرَكم وأَجَّلكم؛ لما له في ذلك من الحكمةِ العظيمة، ولهذا قال ﴿إن الحكمُ إلا لله يقصُّ الحقَّ وهو خيرُ الفاصلين﴾، أي: وهو خيرُ من فَصَل القَضَايا وخيرُ الفاتِحِين الحاكِمِينَ بين عباده.

وقولُه: ﴿قُل: لو أنَّ عندي ما تَستعجِلُون به لقُضِيَ الأمرُ بيني وبينكم﴾، أي: لو كان مرجعُ ما تستعجلون به إليّ، لأوقعتُ بكم ما تَسْتحِقُّونه من ذلك ﴿والله أعلمُ بالظالمين﴾.

فإن قيل: فما الجمعُ بين هذه الآية، وبين ما ثَبَت في الصحيحين من طريق ابن وَهب، عن يُونُس، عن الزهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائشةَ أنها قالت لرسولِ الله ـ ﷺ ـ: يا رسولَ الله، هل أَتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ؟ فقال: لقد لقيتُ من قومِك، وكان أشدُّ ما لَقِيت منهم يومَ العَقَبة؛ إذ عَرَضْتُ نفسي على ابن عبدِ يالِيل ابن عبد كُلَال[٤]، فلم يُجبني إلى ما أردتُ. فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وَجْهي، فلم أستَفِقْ إلا بقَرْنِ الثَّعالِب[٥] فرفَعْتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ عليه السلام، فناداني فقال: إنّ الله قد سَمِعَ

---

(١) مسند أحمد ٢/٣٠٩، ٥٢٥، ٥٣٥.

(٢) هذه قراءة نافع من السبعة انظر الإقناع لابن الباذش ٦٣٩. وتفسير الطبري ٧/٢٠٩.

(٣) لم يذكر ابن كثير ـ حسب ما انتهى إلينا من النسخ ـ تفسير الآية ٥٦، وهي قوله تعالى: ﴿قل: إني نُهيت أن أعبدَ الذين تدعون من دُونِ الله. قل: لا أتَّبِعُ أهواءكم. قد ضَلَلْتُ إذاً وما أنا من المُهْتَدِين﴾.
ويقول ابن جرير الطبري في تفسيره ٧/٢١٠: «يقول تعالى ذكرهُ لِنَبِيِّهِ مُحمَّدٍ ـ ﷺ ـ قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين برِّبهم من قومك، العادلين به الأوثان والأندادَ، الذين يدعونك إلى موافقتهم على دينهم وعبادة الأوثان: إنَّ الله نهاني أن أعبدَ الذين تدعُون من دونه، فلن أتبِعَكُم على ما تدعُونَني إليه من ذلك، ولا أوافقكُم عليه، ولا أعطيكم محبتكم وهواكم فيه، وإن فعلتُ ذلك فقد تركتُ محجّةَ الحقِّ، وسلكتُ على غير الهدى، فصرت ضالاً مثلكم على غير استقامة».

(٤) في فتح الباري ٦/٣١٥: وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف. وذكر أن اسمه مسعود

(٥) قَرْنُ الثعالب: ميقات أهل نجد، وهو على يوم وليلة من مكة.

قولَ قَوْمِك لك، وما رَدُّوا عَلَيْكَ، وقد بَعَث إليك مَلَك الجِبَالِ لتأمره بما شِئْتَ فيهم. قال: فناداني مَلَكُ الجِبَالِ وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمَّدُ، إن الله قد سَمِع قولَ قومِك لك[١]، وقد بَعَثَني ربُّك إليكَ، لتأمُرَني بأمرِك، فما شِئْتَ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشَبَين. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بل أرجُو أن يُخرِجَ الله من أَصلابِهم من يعبدُ الله، لا يُشْرِك به شيئاً». وهذا لفظ مسلم[٢].

فقد عُرِض عليه عذابُهم واستئصالُهم، فاستأنى[٣] بهم، وسَأَلَ لهم التأخيرَ، لعلَّ الله أن يُخرِج من أصلابهم من لا يُشرك به شيئاً، فما الجمعُ بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قل لو أنَّ عندي ما تستعجِلُون به لَقُضِيَ الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾؟.

فالجوابُ، والله أعلم، أنَّ هذه الآيةَ دَلَّت على أنَّه لو كان إليه وقوعُ العَذابِ الذي يَطْلُبونه حال طَلَبِهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديثُ فليس فيه أنهم سَأَلُوه وقوعَ العذابِ بهم، بل عَرَضَ عليه مَلَكُ الجبالِ أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشَبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً، فلهذا استأنى بهم، وسأَلَ الرفق لهم.

وقولُه: ﴿وعنده مفاتح الغَيبِ لا يعلمها إلا هُوَ﴾، قال البخاريُّ:

حدثنا عبدُ العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بـن سَعدٍ، عن ابن شهابٍ، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «مفاتحُ الغَيبِ خمسٌ لا يعلَمُها إلا الله: ﴿إنَّ الله عنده علمُ الساعة، ويُنزِّلُ الغيثَ، ويعلمُ ما في الأرحام، وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾»[٤].

وفي حديث عُمَر: أنَّ جبريل حين تبدَّى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله ـ ﷺ ـ فيما قال له: «خمسٌ لا يعلَمُهُنَّ إلا الله، ثم قرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾... الآية»[٥].

وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾، أي: يحيطُ علمُه العظيم بجميع الموجودات بَرِّيِّها وبحريِّها، لا يخفَى عليه من ذلك شيءٌ، ولا مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ. وما أحسنَ ما قال الصَّرْصَريّ[٦]:

فَـلا يَـخْـفَـى عـلـيـه الـذَّرُ إمَّـا تَـرَاءَى لـلـنـواظـر أو تَـوَارَى

وقولُ: ﴿وما تسقطُ من ورقة إلا يعلمها﴾، أي: ويعلم الحركاتِ حَتَّى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سِيَّما المُكَلَّفون منهم من جِنِّهِـم وإنْسِهم، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنةَ الأعيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسـان النمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمُها﴾، قال: ما من شجرةٍ في بَرٍّ ولا بَحْرٍ إلا وملكٌ مُوَكَّل بها، يكتُب ما يَسقُط منها.

(١) بعده في مسلم: «وأنا ملك الجبال».
(٢) مسلم، كتاب الجهاد ١٤٢٠ ـ ١٤٢١، وفتح الباري، كتاب بدء الخلق ٣١٢/٦ ـ ٣١٣.
(٣) استأنى بهم: ترفق.
(٤) فتح الباري، تفسير سورة الأنعام ٢٩١/٨.
(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ٣٧ ـ ٣٨، وانظر ما قاله ابن حجر في سند هذا الحديث في فتح الباري ١١٥/١ ـ ١١٦.
(٦) هو أبو زكريا يحيى بن يوسف الأنصاري، من أهل صرصر، على مقربة من بغداد، له ديوان شعر مخطوط، قتله التتار يوم دخلوا بغداد. عاش بين سنتي ٥٨٨ ـ ٦٥٦ هـ.

وقولُه: ﴿ولا حَبَّةٍ في ظُلُمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ﴾.

قال محمدُ بن إسحاقَ، عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سَمِعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص يقولُ: إنَّ تحتَ الأرض الثالثة وفوقَ الرابعة من الجنِّ ما لو أنهم ظهروا، يعني لكم، لم تَرَوا معهم نُوراً، على كلِّ زاويةٍ من زَوَاياها خاتَمٌ من خواتيم الله ـ عز وجل ـ على كلِّ خاتم مَلَك من الملائكة يبعث الله ـ عزّ وجل ـ إليه في كلِّ يوم مَلَكاً من عنده: أن احتَفِظْ بما عندَكَ.

قال ابنُ أبي حاتم: حَدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المِسْوَر الزُّهري: حدثنا مالك بن سُعَير، حدثنا الأعمش، عن يَزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرضِ من شجرةٍ ولا مِغْرَز إبرةٍ إلا عليها ملك مُوكَّل يأتي الله بعِلْمِها: رُطُوبتُها إذا رَطِبت، ويَبَسُها إذا يَبِست.

وكذا رواه ابنُ جرير عن أبي الخطاب زياد بن يحيى الحَسَّانيِّ[1]، عن مالك بن سُعَيرٍ، به.

ثم قال ابنُ أبي حاتِم: ذُكِرَ عن أبي حُذَيفة، حدثنا سفيان، عن عَمْرو بن قَيسٍ، عن رجل، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: خَلَقَ الله النُّون ـ وهي الدَّوَاةُ ـ وخلق الألواحَ، فكتَبَ فيها أمْرَ الدنيا حتَّى يَنْقَضِي ما كان من خَلْقٍ مخلوقٍ، أو رِزْقٍ حَلالٍ أو حَرامٍ، أو عَمَلٍ بِرٍّ أو بَحْرٍ[2]، وقرأ هذه الآية: ﴿وما تسقط من ورَقةٍ إلا يعلَمُها﴾ . . . إلى آخرِ الآيةِ.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه يتوفَّى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفِّي الأصغرُ، كما قال تعالى: ﴿إذ قال الله: يا عيسى إني مُتَوفِّيك ورافعك إليَّ﴾، وقال تعالى: ﴿الله يتوفَّى الأنفُسَ حين موتها والتي لم تَمُتْ في منامها، فَيُمسِكُ التي قضى عليها الموت ويُرسِلُ الأخرى إلى أجل مُسمًّى﴾، فذكر في هذه الآية الوفاتين: الكُبرى والصُّغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حُكم الوفاتين الصُّغرى ثم الكُبرى، فقال: ﴿وهو الذي يَتوفَّاكم بالليل ويعلَمُ ما جَرَحتم بالنهار﴾، أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضةٌ دلَّت على إحاطة عِلْمِه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سُكُونهم وفي حال حَركتهم، كما قال: ﴿سَواءٌ منكم من أسَرَّ القولَ ومن جَهَرَ به، ومن هو مُستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار﴾، وكما قال تعالى: ﴿ومن رَحمته جَعَل لكم اللَّيلَ والنهار لتسكُنوا فيه﴾، أي: في الليل ﴿ولتَبتَغُوا من فضله﴾، أي: في النهار، كما قال: ﴿وجعلنا الليل لباساً. وجعلنا النهار معاشاً﴾. ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿وهو الذي يَتوفّاكم بالليل ويعلم ما جَرَحتُم بالنهار﴾، أي: ما كَسَبتُم بالنهار ﴿ثم يبعثُكم فيه﴾، أي: في النهارِ. قاله مجاهدٌ، وقتادةُ والسدِّيّ[3].

وقال ابن جُرَيج، عن عبد الله بن كَثِير: أي في المنام. والأول أظهر.

---

(١) في الأصول: زياد بن عبدالله. والتصويب من تفسير الطبري، تحقيق الأستاذ محمود شاكر ١١/٤٠٨، وط الحلبي ٧/٢١٣، وتهذيب الكمال ٩/٥٢٣.

(٢) في نسخة: «أو عمل بر أو فجور».

(٣) تفسير الطبري ٧/٢١٤.

وقد رَوَى ابن مَرْدُويه بِسَنَدِه، عن الضحَّاك، عن ابن عبَّاس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مع كل إنسان مَلَكٌ إذا نام يأخذُ نَفْسَهُ ويَرُدّ إليه، فإن أَذِنَ الله في قَبْضِ روحه قَبَضه، وإلا رُدَّ إليه»، فذلك قوله: ﴿وهو الذي يَتوفَّاكم بالليل﴾.

وقولُه: ﴿لِيُقضَى أجلٌ مُسَمًّى﴾، يعني به أَجَلَ كُلِّ واحدٍ من الناس، ﴿ثم إليه مرجعكم﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ثم ينبئكم﴾، أي: فيخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾، أي: ويجزيكم على ذلك، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌّ.

وقولُه: ﴿وهو القاهرُ فوقَ عبادِه﴾، أي: هُو الَّذِي قَهر كُلَّ شيءٍ، وخَضَع لجلالِهِ وعَظَمتِهِ وكبريائه كلُّ شيءٍ.

﴿ويُرْسِلُ عليكم حَفَظَةً﴾، أي: من الملائكة يحفظون بَدَنَ الإنسانِ، كما قال: ﴿له مُعَقِّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾. وحَفَظَةً يحفظون عمله ويُحْصونه، كما قال: ﴿وإنَّ عليكم لَحَافِظِين. كراماً كاتِبِينَ، يعلمون ما تفعلون﴾. وقال: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفِظُ من قولٍ إلا لديه رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقولُه: ﴿حتى إذا جاء أَحَدَكُم الموتُ﴾، أي: إذا احتُضِرَ وحان أجلُه ﴿توفَّته رُسُلُنا﴾، أي، ملائكة موكَّلُون بذلك.

قال ابنُ عَبَّاسٍ وغيرُ واحد: لِمَلَكِ الموتِ أعوانٌ من الملائكة، يُخرجُون الروحَ من الجَسَد، فيقبضها مَلَكُ الموتِ إذا انتهَتْ إلى الحلقوم. وسيَأتِي عندَ قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابتِ﴾[(١)] الأحاديثُ المتعلِّقةُ بذلك، الشاهدةُ لهذا المرويِّ عن ابن عباس وغيره بالصِّحَّة.

وقولُه: ﴿وهم لا يُفَرِّطون﴾، أي: في حِفْظِ رُوحِ المتوفَّى، بل يحفَظُونها وينزلونها حيث شاء الله ـ عز وجل ـ إن كان من الأبرار ففي عِلِّيِّين، وإن كان من الفُجَّار ففي سِجِّين، عياذاً بالله من ذلك.

وقولُه: ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهُم الحقِّ﴾ قال ابنُ جَرِير: ﴿ثم رُدُّوا﴾ يعني الملائكة ﴿إلى الله مولاهم الحقّ﴾[(٢)].

ونذكر ها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد [(٣)-عن أبي هُرَيرَةَ في ذِكر صُعُودِ الملائكة بالرُّوح من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى تنتهي بها إلى السماءِ التي فيها الله عزَّ وَجلَّ-(٣)] حيثُ قال: حدثنا حُسَين[(٤)] بن محمد، حدثنا ابن أبي ذِئْب، عن محمد بن عَمْرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسَار، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الميِّت تحضره الملائكةُ، فإذا كان الرجلَ الصالحَ قالوا: اخرُجي أيَّتها النفسُ الطيبةُ كانت في الجسد الطيب، اخرُجي حَمِيدةً، وأبْشري برَوح وريحان، وربٍّ غير غضبانَ. فلا يزالُ يقال لها ذلك حتى تخرُجَ. ثم يُعرَجُ بها إلى السَّماء فَيُسْتَفْتَحُ لها، فيقال: من هذا؟ فيقول: فلانٌ. فيقال: مرحباً بالنفس الطيِّبة كانت في الجسد الطَّيِّب، ادخلي حميدةً وأبْشري برَوحٍ وريحان. وربٍّ غير غضبان. فلا يزال يُقال لها ذلك حتى يُنْتَهَى بها إلى السماءِ التي فيها الله عزّ وجلّ. وإذا كان الرجل السُّوءِ قالوا: اخرُجي أيَّتها النفسُ

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

(٢) تفسير الطبري ٧/٢٢٨.

(٣) ما بين القوسين عن نسخة.

(٤) في المسند: حسن بن محمد. وهو تحريف، وهو: الحسين بن محمد بن بَهْرَام التميمي. مترجم في تهذيب الكمال ٦/٤٧١ ـ ٤٧٤.

الخبيثةُ كانت في الجسدِ الخبيثِ، اخرجي ذميمةً وأبْشري بحميمٍ وغسَّاق، وآخرَ من شَكْلِه أزواجٍ. فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتى تخرجَ، ثم يُعرجُ بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقالُ: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثةِ كانَتْ في الجَسَدِ الخبيثِ، ارجعِي ذميمةً، فإنه لا يُفتَحُ لك أبواب السماء. فتُرسَلُ من السماء ثم تَصِير إلى القبر، فيجلِسُ الرجلُ الصالحُ فيقالُ له مثلُ ما قيل له في الحديث الأول، ويجلس الرجل السَّوءُ فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول. هذا حديث غريب[1].

ويَحتمِلُ أن يكون المراد بقوله: ﴿ثم رُدُّوا إلى الله﴾، يعني: الخلائقَ كُلَّهم إلى الله يوم القيامة، فيَحكمُ فيهم بعدله، كما قال: ﴿قل: إن الأولين والآخرين لمجموعونَ إلى ميقاتِ يوم معلوم﴾، وقال: ﴿وحَشَرناهم فلم نُغادِرْ منهم أحداً﴾ إلى قوله: ﴿ولا يَظْلِم رَبُّك أحداً﴾. ولهذا قال: ﴿مولاهم الحقِّ ألا له الحكم وهو أسرعُ الحاسبين﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقولُ تعالى ممتنّاً على عباده في إنجائه المضطَرِّين منهم ﴿من ظلماتِ البرِّ والبَحْرِ﴾، أي: الحائرين الواقعين في المهامه البرِّيَّةِ، وفي اللُّجج البحريَّةِ إذا هاجت الريحُ العاصفة، فحينئذٍ يُفرِدُون الدعاء له وحدَه لا شريكَ له، كما قال: ﴿وإذا مَسَّكُم الضرُّ في البحر ضلَّ من تدعون إلا إياه﴾... الآيةَ. وقال تعالى: ﴿هو الذي يُسيِّركم في البرِّ والبحر، حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجَرَين بهم بريح طيبةٍ وفَرِحوا بها، جاءتها ريحٌ عاصفٌ، وجاءهم الموجُ من كلِّ مكان، وظنوا أنهم أُحيطَ بهم، دَعَوُا الله مُخلِصين له الدينَ لئن أنجيتنا من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين. فلما نَجّاهم إذا هم يَبْغُون في الأرض بغير الحقِّ﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿أمَّن يهديكم في ظلمات البرِّ والبَحْرِ، ومن يُرسِل الرياحَ بُشراً بين يَدَيْ رَحمته، أإلَه مع الله تعالى الله عما يشركون﴾.

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قل من يُنَجِّيكم من ظُلُمات البرِّ والبحر تَدْعُونه تَضرُّعاً وخُفْيَةً﴾، أي: جهراً وسراً ﴿لئن أنجيتنا[2] من هذه﴾، أي: من هذه الضائقة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾، أي: بعدَها. قال الله: ﴿قل الله يُنَجِّيكم منها ومن كلِّ كَرْبٍ ثم أنتم﴾، أي: بعد ذلك ﴿تشركون﴾، أي: تَدْعُونَ مَعَه في حال الرفاهية آلهةً أُخرى.

وقولُه: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحتِ أرجُلكم﴾، لما قال: ﴿ثم أنتم تشركون﴾ عَقَّبه بقوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً﴾، أي: بعد إنجائه إياكم، كما قال في سورة سبحان: ﴿ربكم الذي يُزْجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً. وإذا مَسَّكم الضرُّ في البحر ضَلَّ من تدعون إلا إياه، فلما نجَّاكم إلى البرِّ أعرضتُم، وكان الإنسان كَفُوراً. أفأمِنتُم أن يخسِفَ بكم

(١) مسند أحمد ٢/٣٦٤ـ ٣٦٥.

(٢) كذا في الأصول جاء الخطاب، وهي قراءة غير الكوفيين من السبعة، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤٠، والبحر المحيط لأبي حيان ٤/١٥٠.

جانبَ البر أو يُرْسِلَ عليكم حاصباً، ثم لا تَجِدُوا لكم وكيلاً. أم أمنتم أن يُعِيدكم فيه تارة أُخرى فيرسل عليكم قاصِفاً من الريح فيُغرِقَكم بما كفرتُم، ثم لا تجدوا لكم علينا به تَبيعاً﴾.

قال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن مسلم بن إبراهيم، حدثنا هارون الأعور، عن جعفر بن سُلَيمانَ، عن الحَسَن في قوله: ﴿قل هو القادِرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم أومن تحتِ أرجلكم﴾، قال: هذه للمشركين.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مُجاهِدٍ: ﴿قل هو القادِرُ على أن يبعثَ عليكُم عذاباً من فوقكم أو من تَحتِ أرجُلِكُم﴾ لأمَّةِ محمد - ﷺ - فعَفا عنهم.

ونذكُر هنا الأحاديثَ الواردةَ في ذلك والآثارَ، وبالله المستعانُ، وعليه التُّكلانُ، وبه الثقةُ:

قال البخاريُّ - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكُم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسُكم شيَعاً ويذيقُ بعضكم بأسَ بعض، انظر كيف نُصرِّفُ الآياتِ لعلهم يفقهون﴾: يَلْبِسكم: يَخْلِطَكم، من الالتباس، يَلْبِسوا: يَخلِطوا. شِيَعاً: فِرَقاً.

حَدَّثنا أبو النعمانِ، حدثنا حَمَّاد بنُ زيد، عن عَمْرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله قال: لما نَزَلت هذه الآية: ﴿قل هو القادرُ على أن يَبْعَث عليكم عذاباً من فوقكم﴾، قال رسولُ الله - ﷺ - «أعوذُ بوجْهك. ﴿أو من تحت أرجلكم﴾، قال: أعُوذُ بوَجْهِكَ. ﴿أو يَلْبِسَكم شِيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾، قال رسول الله - ﷺ -: هذا أهونُ، أو قال: هذا أيسَرُ»[١].

وهكذا رواه أيضاً في «كتاب التوحيد» عن قُتَيبة، عن حَمَّادٍ، به[١].

ورواه النَّسائي في «التفسير»، عن قُتَيبةَ، ومحمد بن النَّضر بن مُساوِرٍ، ويحيى بن حَبيب بن عَرَبِيٍّ، أربعتُهم عن حَمَّاد بن زيدٍ، به[٢].

وقد رواه الحُمَيديُّ في مُسنَدِهِ، عن سُفيانَ بن عُيَينة، عن عَمْروبن دينار، سمع جَابراً عن النبي - ﷺ - به.

ورواه ابنُ حِبَّان في صحيحه، عن أبي يَعْلَى الموصلي، عن أبي خَيْثَمَة، عن سُفيان بن عُيينَة، به[٣].

ورواه ابنُ جَرير في تفسيره عن أحمدَ بن الوليد القُرَشي، وسعيد بن الربيع، وسفيان بن وكيع، كلُّهم عن سفيان بن عُيينة، به[٣].

ورواه أبو بكر بن مَرْدُويه، من حديث آدَمَ بن أبي إياس، ويحيى بن عبد الحميد، وعاصم بن علي، عن سفيان بن عُيينة، به.

ورواه سَعِيدُ بن منصورٍ، عن حَمَّاد بن زيد، وسفيان بن عيينة، كلاهما عن عَمرو بن دينار، به.

طريق أخرى، قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره: حدثنا سُلَيمان بن أحمد، حدثنا مِقْدَامُ بن داود، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابنُ لَهيعة، عن خالد بن يزيدَ، عن أبي الزُّبير، عن جابر قال: لما نزلَتْ ﴿قُلْ هو القادِرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم﴾، قال رسول الله - ﷺ - أعوذ بالله من ذلك، ﴿أو يَلْبِسكم شِيَعاً﴾ قال: هذا أيسرُ. ولو استعاذَه لأعاذَه».

ويتعلق بهذه الآيةِ أحاديثُ كثيرة:

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأنعام ٢٩١/٨، وكتاب التوحيد ٣٨٨/١٣.

(٢) انظر تحفة الأشراف للمزي ٢٥١/٢.

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان، كتاب إخباره - ﷺ - عن مناقب الصحابة ١٧٤/٩. وتفسير الطبري ٢٢٢/٧ - ٢٢٣.

أحدُها، قال الإمام أحمد بن حَنْبَلٍ في مُسنَدِه: حدثنا أبو اليمانِ، حدثنا أبو بكر، هو ابن أبي مَرْيَم، عن راشد، هو ابن سعد المَقْرَئِي، عن سعد بن أبي وقاص قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن هذه الآية: ﴿قل هو القادِرُ على أن يبعَثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحتِ أرجلكم﴾، فقال: «أما إنها كائنةٌ، ولم يأتِ تأويلُها بعد»[(١)].

وأخرجه الترمذي، عن الحسن بن عرفَة، عن إسماعيلَ بن عَيَّاشٍ، عن أبي بكر بن أبي مَرْيَم، به. ثم قال: هذا حديثٌ غريبٌ[(١)].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يَعْلَى، هو ابن عُبَيد، حدثنا عثمان بن حَكِيم، عن عامر بن سعد ابن أبي وقاصٍ، عن أبيه قال: أقبَلْنا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ حتى مَرَرْنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصَلَّى رَكْعَتَين، فَصَلَّينا معه، فناجى ربَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ طويلاً. قال: سألتُ ربِّي ثلاثاً: «سألتُه ألَّا يُهلِكَ أُمَّتي بالغرَق فأعطانيها، وسألته ألَّا يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها، وسألته ألَّا يجعلَ بأسَهم بينَهُم فمَنَعَنيها»[(٢)].

انفردَ بإخراجه مسلمٌ، فرواه في «كتاب الفِتَن» عن أبي بكر بن أبي شَيْبَة، وعن محمد بن عبد الله بن نُمَير، كلاهما عن عبد الله بن نمير، وعن محمد بن يحيى بن أبي عُمَر، عن مَرْوانَ بن معاوية، كلاهما عن عُثمان بن حَكيم، به[(٢)].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: قرأتُ على عبد الرحمن بن مَهْدِيٍّ، عن مالك، عن عبد الله[(٣)] بن عبد الله بن جابر بن عَتِيك، عن جابر بن عَتِيك أنه قال: جاءنا عبدُ الله بن عُمَر في بني معاوية ـ قريةٍ من قُرَى الأنصار ـ فقال لي: هَلْ تَدْرِي أين صَلَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ في مسجدكم هذا؟ فقلتُ: نَعم. فأشرتُ إلى ناحيةٍ منه، فقال: هل تَدْرِي ما الثلاثُ التي دعا بِهِنَّ فيه؟ فقلتُ: نعم. فقال: فَأَخْبِرني بهنَّ. فقلت: دعا بألا يُظْهِر عليهم عَدُوّاً من غيرهم، ولا يُهلِكَهُم بالسنين فأعطِيهما، ودَعَا بألَّا يجعل بأسَهُم بينهم، فمُنِعَها. قال: صَدَقْتَ، فلا يزال الهَرْجُ إلى يوم القيامة»[(٤)].

ليس هو في شَيءٍ من الكُتُب الستَّةِ، وإسنادُه جَيِّدٌ قويٌّ، ولله الحمد والمنَّةُ.

حديثٌ آخرُ، قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عَبَّاد بن حُنَيف، عن عليِّ بن عبد الرحمن، أخبرني حُذَيفة بن اليَمانِ قال: خرجتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى حَرَّةِ بني معاوية، قال: فَصَلَّى ثمانيَ رَكَعاتٍ، فأطال فيهنَّ، ثم التفت إليَّ فقال: حَبَسْتُكَ يا حُذَيفَةُ؟ فقلت: الله ورسولُه أعلم. قال: إني سألتُ الله ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدةً، سألته ألَّا يُسَلِّط على أُمَّتي عَدُواً من غَيرِهم، فأعطاني. وسألته ألَّا يهلكهم بِغرقٍ، فأعطاني، وسألتُه ألَّا يجعلَ بأسهم بينهم، فمنعني» رواه ابن مَرْدُويه من حَديثِ ابن إسحاق.

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا عَبيدةُ بن حُمَيد، حدثني سُلَيمان الأعمش، عن رَجاءٍ الأنصاريِّ، عن عبد الله بن شَدَّاد، عن مُعاذِ بن جَبَل ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أطلبُه فقيل لي: خرج قبلُ. قال: فجعلتُ لا أمرُّ بأحدٍ إلا قال: مَرَّ قبلُ. حتى مَرَرتُ فوجدتُه قائماً يصلِّي، قال: فجئتُ حتى قمت

---

(١) مسند أحمد ١/١٧٠ ـ ١٧١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنعام ١١/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) مسند أحمد ١/١٧٥، ومسلم، كتاب الفتن ٢٢١٦.
والسَّنَةُ: الجدب والقحط.

(٣) في المسند: «عن عبدالله بن جابر». وانظر المسند ٥/٤٤٦.

(٤) مسند أحمد ٥/٤٤٥.

خلفَه، قال: فأطالَ الصلاةَ، فلما قَضى صلاته قلتُ: يا رسولَ الله، لقد صَلَّيتَ صلاةً طويلةً؟ فقال رسولُ الله - ﷺ -: إني صَلَّيتُ صلاة رَغبةٍ ورَهْبَةٍ، سألتُ الله - عز وجل - ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدةً، سألته ألاَّ يُهلِكَ أمتي غَرَقاً فأعطانيها، وسألتُه ألاَّ يُظْهِر عليهم عَدُوّاً ليس منهم فأعطانيها، وسألته ألاَّ يجعلَ بأسهم بيْنَهم فَرَدَّها عليّ»[1].

ورواه ابن ماجه في «الفِتَن» عن محمد بن عبد الله بن نُمَيرٍ وعلي بن محمد، كلاهما عن أبي معاويةَ، عن الأعمش، به[1].

ورواه ابنُ مردُويه من حديث أبي عَوانةَ، عن عبد الله بن عُمَير، عن عبد الرحمن بن أبي لَيلى، عن مُعاذ ابن جَبَلٍ، عن النبي - ﷺ - بمثلِه أو نَحوِه.

حديثٌ آخرُ، قال الإمام أحمدُ: حدثنا هارونُ بن معروف، حدثنا عبدُ الله بن وَهْبٍ، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن بُكَير بنِ الأشجِّ، أنَّ الضحاكَ بن عبد الله القُرَشيَّ حَدَّثه، عن أَنَس بن مالك أنه قال: رأيتُ رسولَ الله - ﷺ - في سفر صَلّى سُبْحَة[2] الضُّحَى ثمانِيَ رَكَعاتٍ، فلما انصرَفَ قال: إني صَلَّيتُ صلاةَ رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، سألتُ ربِّي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدةً: سألتُه ألاَّ يَبْتَلِي أمَّتي بالسِّنين فَفعل، وسألته ألاَّ يُظْهِر عليهم عَدُوَّهم ففعل، وسألته ألاَّ يَلْبِسَهم شِيعاً فأبى عَلَيَّ»[3].

رَواه النَّسائي في الصلاة، عن محمد بن سلمة، عن ابن وَهْبٍ، به.

حديثٌ آخر، قال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيب بن أبي حَمْزَةَ قال: قال الزهريُّ: حدثني عبدُ الله بنُ عبدِ الله بن الحارث بن نَوْفَلٍ، عن عبد الله بن خَبَّابٍ، عن أبيه خَبَّاب بن الأرَتِّ - مولى بني زُهْرَة - وكان قد شَهِد بدراً مع رسولِ الله - ﷺ - أنه قال: راقبتُ رسولَ الله - ﷺ - في ليلةٍ صلاَّها كُلَّها، حتى كان مع الفجر، فسلَّم رسولُ الله - ﷺ - من صلاته. قُلتُ: يا رسولَ الله، لقد صَلَّيتَ الليلة صلاةً ما رأيتك صلَّيتَ مثلها. فقال رسولُ الله - ﷺ -: أجل، إنها صلاةُ رَغَبٍ ورَهَبٍ. سألتُ ربِّي - عز وجل - فيها ثلاث خصالٍ فأعطاني اثنتينِ ومَنَعني واحدةً: سألتُ ربِّي - عزَّ وجلَّ - ألاَّ يُهلِكَنا بما أهلَكَ به الأممَ قبلنا، فأعطانيها. وسألتُ ربي - عزَّ وجلَّ - ألاَّ يُظهِرَ علينا عَدُوّاً من غيرنا، فأعطانيها. وسألت ربِّي - عزَّ وجل - ألاَّ يَلْبِسنا شِيعاً، فَمَنَعَنيها»[4].

ورواه النَّسائي من حَديث شُعيب بن أبي حَمْزَة[4]، به، ومن وجه آخر وابن حِبَّان في صَحِيحه، بإسناديهما عن صالح بن كيسان[4]، والترمذي في «الفِتَن» من حديث النعمان بن راشد، كلاهما عن الزهري، به. وقال: حسن صحيح[4].

حديثٌ آخرُ، قال أبو جعفر بن جَرير في تفسيره: حدثني زياد بن عُبيد الله المُزَنيُّ، حدثنا مَرْوان بن معاوية الفزاريُّ، حدثنا أبو مالك، حدثني نافعُ بن خالد الخزاعيُّ، عن أبيه: أنَّ النبيَّ - ﷺ - صلّى صلاةً خفيفةً تامّةَ الركوع والسُّجود، فقال: قد كانت صلاة رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، سألت الله - عَزَّ وجَلَّ - فيها ثلاثاً، أعطاني اثنتين ومَنَعني[5] واحدة. سألتُ الله ألاَّ يُصيبكم بعذاب أصابَ به من قبلَكُم، فأعطانيها. وسألت الله ألاَّ يُسَلِّطَ عليكم

(١) مسند أحمد ٥/٢٤٠، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ٣٩٠٣.

(٢) أي: صلاة الضحى.

(٣) مسند أحمد ٣/١٤٦.

(٤) مسند أحمد ٥/١٠٨ - ١٠٩، والنسائي، كتاب قيام الليل ٣/٢١٦ - ٢١٧، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب إخباره - ﷺ - عن مناقب الصحابة ٩/١٧٩ - ١٨٠، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩/٢٠ - ٢١.

(٥) في تفسير الطبري: «وبقي واحدة».

عدواً يَستَبيحُ بيضتكم، فأعطانيها. وسألته ألاَّ يَلْبِسَكُم شيعاً ويُذيق بعضكم بَأْسَ بعض، فَمَنَعنيها. قال أبو مالك: فقلتُ له: أبوك سَمع هذا مِنْ في رسول الله ﷺ؟ فقال: نَعم، سَمِعته يُحدِّث بها القومَ أنه سمعها مِن في رسول الله ﷺ(١).

حَديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبدُ الرزَّاقِ قال: قال مَعمَرٌ: أخبرني أيُّوب، عن أبي قِلابة، عن أبي الأشعثِ الصَّنعاني، عن أبي أسماء الرَّحَبي، عن شدَّاد بن أوس، أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله زَوَى(٢) لي الأرضَ حتى رأيتُ مشارِقَها ومغاربها، وإن مُلْكَ أمتي سَيَبْلغُ ما زُوِيَ لي منها، وإني أُعطيتُ الكنزين الأبيضَ والأحمرَ، وإني سألتُ ربِّي ـ عزَّ وجل ـ ألاَّ يُهلِكَ أمتي بِسنَةٍ بعامَّةٍ(٣) وألاَّ يُسلِّط عليهم عَدُوّاً فيهلكهم بعامَّةٍ، وَألاَّ يَلْبِسَهُمْ شيعاً، وألاَّ يُذيقَ بعضَهم بَأْسَ بَعض. فقال: يا محمدُ، إني إذا قَضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدّ، وإني قد أعطيتُكَ لأمتك ألاَّ أُهلِكَهُم بِسَنَةٍ بعامَّةٍ، وألاَّ أُسلِّط عليهم عَدُوّاً مِمَّن سواهم فيهلكوهم بعامَّة، حتى يكونَ بعضُهم يُهلِكُ بعضاً وبَعضُهم يَقتُلُ بعضاً وبعضهم يَسْبِي بَعْضاً. قال: وقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: وإنِّي لا أخافُ على أمتي إلا الأئمةَ المُضِلِّين، فإذا وُضِع السيفُ في أمتي لم يُرفَع عنهم إلى يوم القيامة»(٤).

ليس في شيءٍ من الكُتُبِ الستَّةِ، وإسنادُه جَيِّد قويٌّ. وقد رواه ابنُ مَرْدُويه من حديث حَمَّاد بن زيد وعَبَّاد ابن منصور، وقتادةَ، ثلاثتهم عَن أَيُّوب، عن أبي قِلَابَةَ، عن أبي أسماءَ، عن ثَوْبانَ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ بنحوه، فالله أعلم.

حديث آخر، قال الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي وميمون بن إسحاق بن الحسن الحَنَفي قالا: حدثنا أحمدُ بن عبد الجبَّار، حدثنا محمد بن فُضَيل، عن أبي مالك الأشجَعِيِّ، عن نافع بن خالد الخُزَاعِيِّ، عن أبيه قال ـ وكان أبوه من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وكان من أصحاب الشجرة ـ: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا صلَّى والناسُ حولَه، صَلَّى صلاة خفيفةً تامَّةَ الركوعِ والسجود، قال: فجلس يوماً فأطال الجلوسَ حتى أومأ بعضُنا إلى بعض: أن اسكُتوا، إنه يُنَزَّل عليه. فلما فَرَغ قال له بعضُ القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوسَ حتى أومأ بعضُنا إلى بعضٍ: إنه يُنَزَّلُ عليك. قال: لا، ولكنها كانت صلاةَ رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدةً، سألتُ الله ألاَّ يُعذِّبكم بعذاب عَذَّبَ به من كان قبلكم، فأعطانيها. وسألته ألاَّ يُسلِّط على أمتي عَدُوّاً يَستَبيحُها، فأعطانيها. وسألتُه ألاَّ يَلْبِسَكم شِيعاً ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ، فَمَنعنِيها. قال، قلت له: أَبوكَ سَمِعها من رسولِ الله ﷺ؟ قال: نعم، سَمِعته يقول: إنه سَمِعها من رسول الله ـ ﷺ ـ عَدَد أصابعي هذه، عَشْرُ أصابع.

حديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونُس، هو ابن مُحمَّد المؤدِّب، حدثنا ليثٌ ـ هو ابنُ سعدٍ ـ عن أبي وَهْبِ الخَوْلانيِّ، عن رَجُلٍ قد سَمَّاه، عن أبي بَصْرَةَ الغِفَاريِّ صاحبِ رسول الله ـ ﷺ ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «سألت ربِّي عَزَّ وجَلَّ ـ أربعاً فأعطاني ثلاثاً، ومنعني واحدةً. سألتُ الله ألاَّ يجمعَ أمتي على ضلالة، فأعطانِيها. وسألتُ الله ألاَّ يُظهر عليهم عَدُوّاً من غيرهم، فأعطانيها. وسألت الله ألاَّ يهلكهم بالسِّنين كما أهلَكَ الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألتُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ألاَّ يلْبِسَهُم شِيعاً ويُذيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ، فمنعنيها»(٥).

---

(١) تفسير الطبري ٧/٢٢٣.

(٢) أي: ضَمَّ.

(٣) السَّنَةُ: الجدب. وبعامة: أي بقحط وجَدْبٍ عامٍّ. والباء زائدة.

(٤) مسند أحمد ٤/١٢٣.

(٥) مسند أحمد ٦/٣٩٦، وقوله: «وسألت الله ألا يظهر... فأعطانيها» ساقط من المسند

لم يُخرجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُبِ الستَّةِ.

حديثٌ آخَرُ، قال الطبرانيُّ: حدثنا محمَّد بن عثمان بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا مُنجابُ بن الحارثِ، حدثنا أبو حُذيفة الثَّعلبي، عن زِياد بن عِلاقَة، عن جابر بن سَمُرة السُّوائيِّ، عن عليٍّ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «سألت ربِّي ثلاث خصالٍ، فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدة، فقلتُ: يا ربِّ، لا تُهلِكْ أُمَّتي جوعاً. فقال: هذه لَكَ. قلت: يا ربِّ، لا تُسلِّط عليهم عَدُوّاً من غيرهم ـ يعني أهلَ الشرك ـ فيجتاحَهُم. قال: لك ذلك. قلت: يا ربِّ، لا تَجْعَلْ بأسَهُم بينهم. قال: فَمَنَعني هذه»(١).

حديثٌ آخر، قال الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمدُ بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أحمدُ بن محمد ابن عاصم، حدثنا أبو الدرداء المروزيُّ، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كَيسان، حدثني أبي، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «دعوتُ ربِّي ـ عَزَّ وجلَّ ـ أن يرفَعَ عن أُمَّتي أربعاً، فرفَع الله عنهم ثِنْتَين، وأبى عليَّ أن يرفَعَ عنهم ثنتين. دعوتُ ربِّي أن يَرْفع عنهم الرَّجم من السماءِ والغَرَق من الأرض، وألاَّ يَلْبِسَهُم شيعاً، وألاَّ يُذيق بعضهم بأس بعض. فَرفع الله عنهم الرَّجْم من السماء، والغَرَق من الأرض، وأبى الله أن يَرْفع اثنتين: القتلَ، والهَرْجَ».

طريقٌ أخرى عن ابن عباس أيضاً، قال ابن مَرْدُويه: حدثني عبد الله بن محمد بن زيد، حدثني الوليد بن أبان، حدثنا جعفر بن مُنير، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد، حدثنا عَمْرو بن قيس، عن رَجُل، عن ابن عباس قال: لما نَزَلت هذه الآية: ﴿قل هو القادِرُ على أن يبعَثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجُلِكم أو يَلْبِسَكم شيعاً ويُذِيقَ بعضكم بأس بعض﴾ قال: فقام النبي ـ ﷺ ـ فتوضَّأ، ثم قال: «اللهم لا تُرْسِلْ على أمتي عذاباً من فوقهم، ولا من تحتِ أرجُلِهم، ولاتَلْبِسْهُم شيعاً، ولا تُذِق بعضهم بأسَ بعض. قال: فأتاه جبريلُ فقال: يا محمدُ، إن الله قد أجار أُمَّتك أن يُرسِلَ عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم.

حديث آخَرُ، قال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار، حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، حدثنا عَمرو بن محمد العَنْقَزيّ، حدثنا أسباطُ، عن السدِّيِّ، عن أبي المنهال، عن أبي هُريرة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «سألتُ ربِّي لأمتي أربعَ خصالٍ، فأعطاني ثلاثاً ومَنَعَني واحدةً، سألته ألاَّ تكفر أُمَّتي واحدة، فأعطانيها. وسألته ألاَّ يعذِّبهم بما عَذَّب به الأمَم قَبْلَهم، فأعطانيها. وسألتُه ألاَّ يُظهِرَ عليهم عَدُوّاً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته ألاَّ يجعلَ بأسَهُم بينهم، فَمَنَعنيها»(٢).

ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبي سعيد بن يحيى بن سَعيد القطان، عن عمرو بن محمد العَنْقَزيِّ، به نحوه.

طريق أخرى، وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا كُثير بنُ زيدٍ الليثي المدني، حَدَّثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذُباب، سَمِعَ أبا هُرَيرة يقول: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «سألتُ ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومَنَعني واحدةً. سألته ألاَّ يُسلِّط على امتي عَدُواً من غيرهم فأعطاني. وسألته ألاَّ يُهْلِكَهم بالسنين، فأعطاني. وسألته ألاَّ يَلبِسَهم شيعاً يُذِيق بعضهم بأسَ بعض، فَمَنَعني».

ثم رواه ابنُ مردُويه بإسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المَقبُريِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن

(١) المعجم الكبير ١/١٠٧ ـ ١٠٨.
(٢) الدر المنثور ٣/٢٨٩.

النبي ـ ﷺ ـ بنحوه. ورواه البزّار من طريق عُمَر بن أبي سَلَمة، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبيّ ـ ﷺ ـ بنحوه(١).

أثرٌ آخَرُ، قال سفيانُ الثوريُّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العاليَة، عن أُبَيّ بن كَعْب قال: أربعةٌ في هذه الأمة: قد مضت ثِنْتان، وبقيت ثِنْتان: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال: الرجمُ، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: الخَسْفُ، ﴿أو يَلْبِسَكم شِيَعاً وَيُذِيقَ بعضَكم بأسَ بعض﴾، قال سفيان: يعني الرجم والخسف.

وقال أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيّ بن كَعب: ﴿قل هو القادِرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسكم شيعاً ويُذيقَ بعضكم بأسَ بعض﴾، قال: فهي أربع خلال، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ بخمس وعشرين سنة، ألبسوا شيعاً، وذاق بعضهم بأس بعض، وبقيت اثنتان لا بد منهما واقعتان: الرجم والخسف(٢).

رواه أحمد، عن وكيع، عن أبي جعفر(٢). ورواه ابنُ أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا المنذر بن شاذانَ، حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسن، في قوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث﴾. . . الآية، قال: حُبِسَتْ عقوبتُها حتى عُمِل ذَنْبُها، فلما عُمِل ذَنْبُها أُرسِلَت عقوبتها.

وهكذا قال سعيد بن جُبَير، وأبو مالك، ومجاهد، والسدّيُّ، وابن زَيدٍ في قوله: ﴿عذاباً من فوقكم﴾ يعني: الرجم، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾، يعني: الخسف. وهذا هو اختيارُ ابن جرير(٣).

ورَوَى ابنُ جرير، عن يُونُسَ، عن ابن وَهب، عن عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ في قوله: ﴿قُلْ هو القادرُ على أن يبعَثَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾، قال: كان عبدُ الله بن مسعود يَصِيح وهو في المجلس، أو: على المنبر، يقولُ: ألاَ أيُّها الناسُ، إنه قد نَزَلَ بكم: إن الله يقول: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقكم﴾، لو جاءكم عذابٌ من السماء لم يُبْقِ منكم أحداً، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾، لو خَسَفَ بكم الأرضُ أهلككم، لم يُبْقِ منكم أحداً، ﴿أو يَلْبِسَكم شِيَعاً ويُذيق بعضكم بأس بعض﴾، ألا إنه نَزَل بكم أسوأُ الثلاث.

قولٌ ثانٍ، قال ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم: حدثنا يونُس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، سَمِعتُ خَلّاد ابن سُليمان يقول: سَمِعت عامرَ بن عبد الرحمن يقول: إن ابنَ عباس كان يقولُ في هذه الآية: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعَثَ عليكُم عذاباً من فوقكم﴾، فأما العذاب من فوقكم فأئمة السوء، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ فَخَدم السُّوء(٣).

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿عذاباً من فوقكم﴾ يعني: أمراءكم، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ يعني: عَبيدكم وسَفِلَتكم(٣).

وحَكَى ابن أبي حاتم، عن أبي سنانَ وعُمَير بن هانيء، نحوَ ذلك.

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الفتن ٤/ ١٠٠.

(٢) تفسير الطبري ٧/ ٢٢٦، ومسند أحمد ٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) تفسير الطبري ٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

قال ابنُ جرير: وهذا القولُ وإن كان له وجهٌ صحيح، لكن الأول أظهر وأقوى.

وهو كما قال ابنُ جَرِير ـ رحمه الله ـ ويشهدُ له بالصحة قولُه تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور. أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمونَ كيف نَذِير﴾، وفي الحديث: «ليكونَنَّ في هذه الأمة قَذْفٌ وخَسْفٌ ومَسْخٌ»[١]. وذلك مذكورٌ مع نَظائِرِه في أماراتِ الساعةِ وأشراطِها وظهورِ الآياتِ قبلَ يوم القيامةِ، وستأتي في مَوْضِعِها إن شاء الله تعالى.

وقولُه: ﴿أو يَلْبِسَكُم شيعاً﴾، أي: يَجعَلَكُم ملتبسين شِيَعاً فِرَقاً متخالفين.

قال الوالبيُّ، عن ابن عباس: يعني الأهواءَ. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقد وَرَد في الحديث المرويِّ من طُرُق عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «وستفترق هذه الأمةُ على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلُّها في النار إلا واحدةً»[٢].

وقولُه: ﴿ويُذِيق بعضَكم بأسَ بعضٍ﴾ قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: يعني يُسَلِّط بعضَكم على بعضٍ بالعذاب والْقَتل.

وقولُه: ﴿انظر كيف نُصرِّف الآياتِ﴾، أي: نُبَينها ونُوضِّحها ونُفَسِّرها، ﴿لعلهم يفقهون﴾، أي: يفهمُون ويتدبَّرون عن الله آياته وحُجَجَه، وبَرَاهِينَه.

قال زيدُ بن أسلَمَ: لما نزلَتْ: ﴿قل هو القادرُ على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾... الآية، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تَرْجِعُوا بعدي كُفَّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ بالسيوف». قالوا: ونحن نشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله؟ قال: نعم. فقال بعضُ الناس: لا يكونُ هذا أبداً، أن يقتُلَ بعضُنا بعضاً ونحن مسلمون. فنزلت: ﴿انظر كيف نُصرِّف الآيات لعلهم يفقهون. وكَذَّب به قومُك وهو الحقُّ قل لستُ عليكم بوكيل. لكل نبأٍ مستقرٌّ وسوف تعلمون﴾. رواه ابنُ أبي حاتم وابنُ جَرير[٣].

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وكذَّب به﴾، أي: بالقرآن الذي جئتَهم به، والهُدَى والبيانِ. ﴿قومُك﴾ يعني: قريشاً، ﴿وهو الحق﴾، أي: الذي لَيْسَ وراءَه حقٌّ. ﴿قل لستُ عليكم بوكيل﴾، أي: لستُ عليكم بحفيظٍ، ولستُ بموكَّلٍ بكم، كقوله: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فلْيُؤمن ومن شاء فلْيكفر﴾، أي: إنما عليَّ البلاغُ، وعليكم السمعُ والطاعةُ، فمن اتَّبعَني سَعِد في الدنيا والآخرة. ومن خالفني فقد شَقِي في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿لكل نبأٍ مستقرٌّ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه في كتاب الفتن، انظر عارضة الأحوذي ٣٣/٩، وسنن ابن ماجه ١٣٥٠، ومسند أحمد ١٣٦/٢ ـ ١٣٧، ١٦٣.

(٢) مضى هذا الحديث عند تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.

(٣) تفسير الطبري ٢٢٥/٧.

قال ابنُ عبَّاس وغيرُ واحد: أي، لِكُلِّ نبأ حقيقةٌ، أي: لِكُلِّ خبر وقوعٌ ولو بعد حين، كما قال: ﴿ولتعلمُنّ نبأه بعد حين﴾. وقال: ﴿لكلِّ أجلٍ كتابٌ﴾.

وهذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ، ولهذا قال بعده: ﴿وسوف تعلمون﴾.

ثم قال: ﴿وإذا رأيتَ الذين يَخُوضونَ في آياتنا﴾، أي: بالتكذيب والاستهزاء ﴿فأعرِضْ عنهم حتى يَخُوضوا في حديثٍ غيرِه﴾، أي: حتى يأخذُوا في كلامِ آخرَ غيرِ ما كانوا فيه من التكذيب، ﴿وإما يُنسِيَنَّك الشيطان﴾، والمراد بهذا كلُّ فَرْدٍ فَرْدٍ من آحاد الأمة ألاَّ يجلسوا مع المكذبين الذين يُحرِّفون آياتِ الله ويضعُونها على غير مواضعها، فإن جلس أحدٌ منهم ناسياً ﴿فلا تَقْعُدْ بعد الذكرى﴾، بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾.

ولهذا وَرَد في الحديث: «رُفِعَ عن أُمَّتِي الخَطأُ والنِّسيان وما استُكْرِهُوا عليه»[1].

وقال السدّيُّ، عن أبي مالك وسَعِيد بن جُبَير في قَوْلِهِ: ﴿وإما يُنسِيَنَّكَ الشيطانُ﴾، قال: إن نَسِيت فَذُكِّرْت فلا تَجْلِس معهم. وكذا قال مقاتل بن حَيَّان.

وهذه الآيةُ هي المُشَار إليها في قوله: ﴿وقد نَزَّلَ عليكم في الكتاب أن إذا سَمِعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُسْتهزأ بها فلا تَقْعَدُوا معهم حتَّى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم﴾[2]... الآية، أي: إنكم إذا جلستُم معَهم وأقرَرْتُموهم على ذلك، فقد ساويتُموهم في الذي هم فيه.

وقولُه: ﴿وما على الذين يَتَّقون من حسابهم من شيء﴾، أي: إذا تَجنَّبُوهم فلم يجلِسُوا معهم في ذلك، فقد بَرِئُوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن السدِّيِّ، عن أبي مالك وسعيد بن جُبَير، قولُه: ﴿وما على الذين يَتَّقون من حِسَابهم من شيء﴾، قال: ما عليك أن يَخُوضوا في آيات الله إذا فعلتَ ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضْتَ عنهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإن جَلَسُوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قولُه: ﴿إنكم إذاً مثلُهم﴾، قاله مجاهد، والسدِّيُّ، وابن جُرَيج، وغيرهم[3]. وعلى قولهم يكون قولُه: ﴿ولكن ذكرى لعلهم يَتَّقون﴾، أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذٍ تذكيراً لهم عما هُم فيه، لعلهم يَتَّقون ذلك، ولا يَعُودُون إليه.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ (٧٠) ﴾

يقول تعالى: ﴿وذَرِ الذين اتَّخذُوا دينَهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا﴾، أي: دَعْهُم وأعرِضْ عنهم وأمْهِلْهم قليلاً، فإنهم صائرُون إلى عذابٍ عظيم. ولهذا قال: ﴿وذَكِّر به﴾، أي: وذَكِّر الناسَ بهذا القرآن، وحَذِّرْهم نقمة الله وعَذابه الأليم يومَ القيامة.

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق ٦٥٩.
(٢) سورة النساء، الآية ١٤٠.
(٣) تفسير الطبري ٧/٢٣٠.

وقولُه: ﴿أن تُبْسَلَ نفسٌ بما كَسبت﴾، أي: لِئَلَّا تُبْسَلَ، قال الضحاكُ عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسدي: تبسل: تُسْلَم.

وقال الوالبيُّ، عن ابن عباس: تُفْضَح. وقال قتادةُ: تُحْبَس. وقال مُرَّة وابنُ زيدٍ: تُؤاخذ. وقال الكَلْبِيُّ: تُجازَى.

وكلُّ هذه العبارات متقاربةٌ في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلَكَةِ، والحبسُ عن الخير، والارتهانُ عن دَرْك المطلوب، كما قال: ﴿كلُّ نفس بما كَسبت رهينةٌ * إلا أصحابَ اليمين﴾.

وقولُه: ﴿ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ﴾، أي: لا قريبَ ولا أحدَ يشفَعُ فيها، كما قال: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ والكافرون هم الظالمون﴾.

وقولُه: ﴿وإن تَعدِل كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ منها﴾، أي: ولو بَذَلَتْ كُلَّ مبذولٍ ما قُبِل منها كما قال: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبَل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً﴾. . . الآية. وهكذا قال ها هنا: ﴿أولئك الذين أُبسِلُوا بما كسبوا، لهم شرابٌ من حَميم وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون﴾.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

قال السديُّ: قال المشركون للمؤمنين: اتَّبعوا سبيلنا، واتركوا دينَ محمد. فأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضُرُّنا ونُرَدُّ على أعقابنا﴾، أي: في الكفر ﴿بعد إذْ هدانا الله﴾، فيكون مثلُنا مثل الذي استهوته الشياطينُ في الأرض، يقول: مَثَلُكم إن كفرتُم بعد الإيمان كَمَثَل رجل كان مع قوم على الطريق، فضَلَّ الطريقَ، فحَيَّرته الشياطين، واسْتَهوته في الأرض، وأصحابُه على الطريق، فجعلوا يَدْعُونه إليهم يقولونَ: «ائتنا، فإنَّا على الطريق» فأَبَى أن يأتيهم. فذلك مَثَلُ من يَتْبعهم بعد المعرفة بمحمد ـ ﷺ ـ ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريقُ هو الإسلام. رواه ابن جرير[1].

وقال قتادةُ: ﴿استهوته الشياطينُ في الأرض﴾، أضلَّته في الأرض[1]. يعني ﴿استهوته﴾ سَيَّرته، مثل قوله: ﴿ تهوي إليهم ﴾.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعُنا ولا يضرُّنا﴾. . . الآية: هذا مثلٌ ضَرَبَه الله للآلهة ومَن يدعو إليها، والدعاةُ الذين يدعون إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كمثل رجل ضَلَّ عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه منادٍ: «يا فلانَ ابن فلانٍ، هَلُمَّ إلى الطريق» وله أصحابٌ يَدْعُونه: «يا فلان، هَلُمَّ إلى الطريق» فإن اتبع الداعيَ الأول انطلق به حتى يُلقيه إلى الهَلَكةِ، وإن أجاب من يدعوه إلى الهُدى

(١) تفسير الطبري ٧/٢٣٦.

اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان. يقول: مثلُ من يعبُد هذه الآلهةَ من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حَتَّى يأتيَه الموتُ، فَيَسْتَقبِلَ الهَلَكَةَ والنَّدامةَ. وقوله: ﴿كالذي استهوته الشياطينُ في الأرض﴾، هم «الغيلانُ»، يَدْعُونه باسمه واسم أبيه وجَدِّه، فَيَتبعها وهو يَرَى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في مَهْلَكَةٍ، وَرُبَّما أكلته، أو تلقيه في مَضَلَّةٍ من الأرض، يهلِكُ فيها عطشاً. فهذا مثَل من أجابَ الآلهةَ التي تُعْبَدُ من دون الله عز وجل. رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: كالذي ﴿استهوته الشياطينُ في الأرضِ حيرانَ﴾، قال: رجل حيرانُ يدعوه أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يَضِلُّ بعد أنْ هُدِيَ.

وقال العَوفِيّ، عن ابن عباس، قولُه: ﴿كالذي استهوته الشياطينُ في الأرض حيرانَ له أصحابٌ﴾، فهو الذي لا يَسْتَجِيبُ لهدى الله، وهو رجلٌ أطاعَ الشيطان، وعَمِلَ في الأرضِ بالمعصِيَةِ، وحار عن الحق وضلَّ عنه، وله أصحاب يَدْعُونه إلى الهدى، ويزعُمُون أن الذي يأمرونه هُدَى، يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس: ﴿إن الهدى هدى الله﴾، والضلالُ ما يدعُو إليه الجنُّ[1].

رواه ابنُ جرير، ثم قال: وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونه إلى ضلال، ويزعُمُون أنه هُدَى. قال: وهذا خلاف ظاهر الآية؛ فإن الله أخبر أن أصحابه يدعونه إلى الهُدَى، فغيرُ جائزٍ أن يكون ضلالاً، وقد أخبر الله أنه هُدىً[1].

وهُوَ كما قال ابنُ جرير، فإنَّ[2] سياقَ الآية يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيرانَ ـ وهو منصوب على الحال، أي: في حال حيرته وضلاله وجَهْله بوَجه المَحَجَّة ـ وله أصحاب على المحجَّة سائرونَ، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذَّهاب معهم على الطريقة المُثْلَى. وتقديرُ الكلام: فَيَأْبى عليهم ولا يلتفتُ إليهم، ولو شاء الله لهداه، ولردَّ به إلى الطريق. ولهذا قال: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾، كما قال: ﴿ومن يهدِ الله فما له من مُضِلٍّ﴾، وقال: ﴿إن تحرص على هُدَاهم فإن الله لا يهدي من يُضِلُّ وما لهم من ناصرين﴾.

وقوله: ﴿وأمرنا لِنُسلِمَ لربِّ العالمين﴾، أي نخلص له العبادة وحدَه لا شريك له. ﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه﴾، أي: وَأُمِرْنا بإقامةِ الصلاةِ وبتقواه في جميعِ الأحوالِ. ﴿وهو الذي إليه تُحشَرون﴾. أي: يوم القيامة.

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحقِّ﴾، أي: بالعَدْلِ، فهو خالقهما ومالكهما، والمدبِّرُ لهما ولمن فيهما.

وقولُهُ: ﴿ويومَ يقولُ كن فيكون﴾، يعني يوم القيامة، الذي يقول الله فيه: كن، فيكونُ عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب.

﴿ويومَ﴾ منصوبٌ إما على العطف على قوله: ﴿واتقوه﴾، وتقديره: واتقوا يومَ يقول كُن فيكونُ، وإما على قوله ﴿خَلَقَ السمواتِ والأرضَ﴾، أي: وَخَلَقَ يومَ يقول كن فيكون. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل تقديره: واذكُرْ يوم يقولُ كن فيكونُ.

وقولُه: ﴿قولُه الحق، وله الملك﴾ جملتان مَحَلُّهما الجرُّ، على أنهما صفتان لربِّ العالمين.

---

(١) تفسير الطبري ٧/٢٣٧.
(٢) في بعض النسخ: وكان.

وقولُه: ﴿يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون بدلاً من قوله: ﴿ويومَ يقول كُن فيكون. . . يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ﴾، وَيَحْتَمِلُ أن يكون ظرفاً لقوله ﴿وله الملكُ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ﴾، كقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحِدِ القَهَّارِ﴾، وكقوله: ﴿الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن، وكان يوماً على الكافرينَ عَسِيراً﴾ وما أشبه ذلك. .

واختلف المفسِّرون في قوله: ﴿يوم يُنفَخُ في الصُّورِ﴾ فقال بعضهم: المراد بالصُّور ها هنا جمع «صُورَةٍ»، أي: يوم يُنْفَخُ فيها فنحيا. قال ابنُ جَريرٍ: كما يقال: سُورٌ، لِسُورِ البلد، وهُوَ جمع سُورَةٍ[1].

والصحيحُ أنَّ المراد بالصُّور القَرْنُ الذي ينفُخ فيه إسرافيلُ عليه السلام، قال ابن جَرير: والصوابُ من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبارُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنَّ إسرافيلَ قد التَقم الصُّور وحَنَّى جبهتَهُ، ينتظرُ متى يُؤمَرُ فينفُخُ»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سُلَيمان التيمي، عن أسْلَم العِجْلِي، عن بِشْرِ بن شَغَافٍ، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال أعرابيٌّ: يا رسول الله، ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفَخ فيه»[3].

وقد رَوَينا حَديثَ الصُّور بطوله، من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني، في كتابه «الطُّوَالات» قال: حدثنا أحمد بن الحسن المصري الأيْلي، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا إسماعيلُ بن رافع، عن مُحمَّد بن زياد، عن مُحمَّد بن كعب القُرَظي، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: حَدَّثنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو في طائفةٍ من أصحابه، فقال: «إنَّ الله لما فَرَغ من خَلْق السمواتِ والأرْض، خَلَقَ الصُّور فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضِعُه على فَمِه شاخصاً بصرهُ إلى العرش، ينتظر متى يُؤْمَر. قلت: يا رسولَ الله، وما الصورُ؟ قال: القرنُ. قلت: كيفَ هُو؟ قال: عظيمٌ، والذي بعثني بالحقِّ إن عِظَم دارةٍ[4] فيه لَعَرْضُ السمواتِ والأرض، يُنفَخ فيه ثلاث نَفَخات: النفخةُ الأولى نفخة الفَزَع، والثانية نَفْخَةُ الصَّعْق، والثالثة نَفخَةُ القيام لرب العالمين، يأمرُ الله إسرافيلَ بالنَّفْخَةِ الأولى، فيقول: انفُخ نفخةَ الفَزَع، فيفزَعُ أهلُ السموات والأرض إلا من شاء الله، ويأمره فَيُديمها وَيُطِيلها ولا يَفْتُر، وهي كقول الله: ﴿وما ينظُرُ هؤلاءِ إلا صيحةً واحدةً ما لها من فَوَاقٍ﴾ فَتَسيرُ الجِبالُ، فتمرُّ مَرَّ السحابِ فتكون سَراباً.

ثم ترتجُّ بأهلها رجّاً فتكونُ كالسفينة المرميَّةِ في البحر تَضرِبُها الأمواج، تُكْفَأُ[5] بأهلها كالقنديل المعلّق بالعَرْش، تُرَجْرِجُه الرياح، وهي التي يقول: ﴿يوم تَرجُف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوبٌ يومئذٍ واجفة﴾، فَيَميدُ النَاس على ظهرها، وَتَذْهَلُ المراضع، وتَضع الحوامل، وتَشيب الولدان، وتَطير الشياطين هاربةً من الفَزع، حتى تأتي الأقطار[6]، فتأتيها الملائكةُ فتضرب وُجُوهها، فَترجِعُ، ويُوَلِّي الناس مُدْبِرين ما لهم من أمْرِ الله من عاصم، يُنادي بعضُهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يوم التَّنادِ﴾.

فبينما هم على ذلك إذ انصدَعتِ الأرضُ من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، فَرَأوا أمراً عظيماً لم يَرَوا مثله، وأخذَهم لذلك من الكَرْب والهول ما الله به عليمٌ. ثم يُنْظَرُ إلى السماء فإذا هي كالمُهْلِ[7]، ثم انشقَّت فانتثرت نجومُها،

(١) تفسير الطبري ٧/٢٤١.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري ٣/٧٣.
(٣) مسند أحمد ٢/١٦٢.
(٤) الدارة: الهالة. وفي نسخة: دائرة.
(٥) أي: تُقْلَب.
(٦) الأقطار: جمع قُطْرٍ وهو: الناحية.
(٧) المُهْل: دِرْدِيُّ الزيت.

وانخسفت شمسُها وقَمَرُها. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: الأمواتُ لا يَعلمُون بشيء من ذلك. قال أبو هُرَيرة: يا رسول الله، من استثنى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حين يقول: ﴿فَفزِعَ مَن في السموات ومَن في الأرض إلا من شاء الله﴾؟ قال: أولئك الشهداءُ، وإنما يَصِلُ الفزعُ إلى الأحياء، وهم أحياءٌ عند الله يُرزَقون، وقاهم الله فزَعَ ذلك اليوم، وآمَنَهُم منه، وهو عذابُ الله يبعثه على شرار خلقه، قال: وهو الذي يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يا أيها الناسُ اتَّقوا ربَّكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم تَرَونها تذهَلُ كلُّ مُرضِعةٍ عما أرضَعَت وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وتَرَى الناس سُكَارى وما هم بسُكَارى ولكنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ﴾، فيكونون في ذلك البَلاء ما شاء الله، إلاَّ انه يَطُولُ.

ثم يأمر الله إسرافيلَ بنفخة الصَّعْق، فينفخ نَفْخَةَ الصَّعْق، فَيَصْعَقُ أهلُ السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله، فإذا هُم قد خَمدُوا، وجاء مَلَكُ الموت إلى الجَبّار ـ عزَّ وجلَّ ـ فيقول: يا ربِّ، قد مات أهلُ السموات والأرض إلا مَن شِئْتَ. فيقول الله ـ وهو أعلمُ بمن بقِي ـ: فمن بَقِي؟ فيقول: يا ربِّ، بَقِيتَ أنت الحيُّ الذي لا يموت، وبَقِيَتْ حَمَلةُ العَرْش، وبَقِي جبريلُ وميكائيلُ، وبقيتُ أنا. فيقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليمت جبريلُ وميكائيلُ. فَيُنطِقُ الله العَرْشَ فيقول: يا رب، يموتُ جبريلُ وميكائيلُ؟! فيقول: اسكتْ، فإني كَتَبتُ الموتَ على كلِّ من كان تحت عَرْشِي. فيموتان. ثم يأتي مَلَكُ الموت إلى الجَبَّار فيقول: يا ربِّ، قد ماتَ جبريلُ وميكائيلُ. فيقول الله ـ وهو أعلم بمن بَقِي ـ: فمن بقِي؟ فيقول: بقيتَ أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، وبَقِيت حَمَلةُ عَرْشِك، وبقيتُ أنا. فيقول الله: لِيمُت حَمَلةُ عَرْشي. فيَمُوتون. ويأمرُ الله العرشَ فَيقبِضُ الصُّور من إسرافيل. ثم يأتي مَلَكُ الموتِ. فيقول: يا ربِّ، قد مات حَمَلَةُ عرشك، فيقول الله ـ وهو أعلم بمن بَقِي ـ: فمن بَقِي؟ فيقول: يا رب، بقيتَ أنت الحي الذي لا يموتُ، وبقيت أنا. فيقول الله: أنت خَلْق من خلقي، خلقتك لما رأيت، فَمُت. فَيَموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلِد ولم يولَد، كان آخراً كما كان أولاً، طَوَى السمواتِ والأرض طَيَّ السِّجل للكتاب، ثم دَحاهما ثم يَلْقَفُهما ثلاثَ مَرّات، ثم يقول: أنا الجَبَّارُ، أنا الجَبَّارُ، أنا الجَبَّار. ثلاثاً. ثم هَتَف بصوته: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ ثلاث مرّاتٍ، فلا يُجيبه أحدٌ، ثم يقولُ لنفسه: ﴿لله الواحد القهَّار﴾[1]، يقولُ الله: ﴿يوم تُبدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسمواتُ﴾، فيَبسُطهما ويَسْطَحُهما[2]، ثم يَمُدُّهما مَدَّ الأديم العُكَاظِيِّ[3] ﴿لا تَرَى فيها عِوَجاً ولا أمتاً﴾.

ثم يزجُرُ اللهُ الخلقَ زَجْرَةً، فإذا هُم في هَذِه الأرض المبدَّلة مثل ما كانوا فيها من الأولى، من كان في بطنها كان في بطنها، ومن كان على ظَهْرِها كان على ظَهْرِها، ثم ينزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليهم ماء من تحت العرش، ثم يأمر الله السماءَ أن تُمطِر، فَتُمْطِرَ أربعينَ يوماً، حتى يكون الماءُ فوقَهم اثني عشر ذراعاً، ثم يأمر الله الأجساد أن تَنْبُت فَتنبُتَ كنباتِ الطَّرَاثِيث[4] ـ أو: كنبات البَقْلِ ـ حتى إذا تكامَلَت أجسادُهم فكانت كما كانت، قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: لِيَحْيَ حملةُ عرشي. فَيَحْيَونَ، ويأمر الله إسرافيلَ فيأخذُ الصُّور، فيضَعُه على فِيه، ثم يقول: لِيَحْيَ جبريلُ وميكائيلُ. فَيَحْيَيان، ثم يدعو الله الأرواحَ، فَيُؤتَى بها تتوهَّجُ أرواحُ المسلمين نُوراً، وأرواحُ الكافِرينَ ظُلمَةً، فَيَقبِضُها جميعاً ثم يُلقيها في الصُّور.

(١) في نسخة: «والواحد القهار الأحد الذي. . .».

(٢) أي: يُسَوِّي سطحهما.

(٣) الأديم: الجلد، والعكاظي: منسوب إلى عكاظ، أشهر أسواق العرب، كان يحمل الأديم إليها ويباع فيها.

(٤) الطَّرَاثِيثُ: جمع طُرْثوثٍ، وهو: نبات طُفَيلي من الفصيلة السنومورية، ومنه نوع طويل مُستَدِقٌ كالفِطْر، ينبت في بادية مصر وحول بحر الروم.

ثم يأمرُ الله إسرافيلَ أن ينفُخَ نفخةَ البعث، فينفُخ نفخةَ البعث، فتخرج الأرواح كأنها النَّحل قد ملأت ما بين السَّماء والأرض، فيقول: وعزَّتي وجلالي لَيَرْجِعَنَّ كُلُّ روحٍ إلى جَسَدِه، فتدخُل الأرواحُ في الأرض إلى الأجساد، فتدخل في الخَياشِم، ثم تَمْشِي في الأجسادِ كما يمشي السمُّ في اللديغ، ثم تَنْشَقّ الأرض عنكم، وأنا أول من تَنْشَقّ الأرض عنه، فتَخرُجُون منها سراعاً إلى ربكم تَنْسِلون[1]، ﴿مُهطِعين إلى الداع يقولُ الكافرونَ هذا يومٌ عَسِرٌ﴾، حفاةً عُراة غُرْلاً[2]، فتقِفُون موقفاً واحداً مقدارُه سبعون عاماً، لا يُنْظَر إليكم ولا يُقضَى بينكم، فتبكونَ حتى تنقطِعَ الدموع، ثم تَدْمَعُون دماً وتَعْرَقُون حتى يُلْجِمَكم[3] العَرَق، أو يبلُغ الأذقانَ، وتقولون: من يشفع لنا إلى رَبِّنا فيَقْضِيَ بيننا؟ فيقولون: من أحقُّ بذلك من أبيكم آدمَ، خَلَقه الله بيده، ونَفَخ فيه من رُوحه، وكلَّمه قِبَلاً[4]. فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه فيأبى، ويقول: ما أنا بصاحب ذلك. فيستقرئون الأنبياءَ نبياً، نبياً، كُلَّما جاءُوا نَبِيَّاً أبى عليهم، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: حتى يأتوني فأنطلِق إلى الفحص فأخِرَّ ساجداً ـ قال أبو هُرَيرة: يا رسول الله، ما الفَحْصُ؟ قال: قُدَّام العرش ـ حتى يَبْعَثَ إليَّ ملكاً فيأخُذَ بعَضُدي، فيرفَعُني، فيقول لي: يا محمَّدُ، فأقول: نعم، يا ربِّ. فيقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما شأنُك؟ وهو أعلم، فأقول: يا ربِّ، وعَدتَني الشفاعةَ فَشَفِّعني في خَلْقِك، فاقضِ بينهم. قال: قد شَفَّعْتُك، أنا آتيكم أَقْضِي بينكم.

قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فأرجِعُ فأقِفُ مع الناس، فبينما نحن وقوفٌ إذْ سَمِعنا حِسّاً من السماء شَدِيداً فَهالنا، فَنَزَلَ أهلُ السماء الدُّنيا بِمِثْلَي مَنْ في الأرض من الجن والإنس، حَتَّى إذا دَنَوا من الأرض أشرقَتِ الأرضُ بنورهم، وأخذوا مَصافَّهم، وقُلنا لهم: أفيكم ربُّنا؟ قالوا: لا، وهو آتٍ.

ثم ينزِل أهلُ السماء الثانية بِمِثْلَي من نَزَل من الملائكة، وبِمِثْلَيْ من فيها من الجنِّ والإنسِ، حتى إذا دَنَوا من الأرضِ أشرقتِ الأرضُ بنُورِهم، وأخذوا مَصافَّهُم، وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وهو آتٍ.

ثم ينزِلُون على قَدْرِ ذلك من التضعيف، حتى ينزل الجَبَّارُ ـ عَزَّ وجلَّ ـ في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة، ويحملُ عَرْشَه يومئذ ثمانية ـ وهم اليوم أربعة ـ أقدامُهم في تُخوم الأرض السفلى، والأرض والسموات إلى حُجَزَتِهم[5]، والعرش على مناكبهم، لهم زَجَلٌ[6] في تَسْبِيحِهم، يقولون: سبحانَ ذِي العَرْشِ والجَبَرُوت، سُبحانَ ذي المُلْكِ والمَلَكُوت، سبحانَ الحيِّ الذي لا يموتُ، سبحان الذي يُمِيتُ الخلائقَ ولا يَموتُ، سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، سبحانَ ربِّنا الأعلى، ربِّ الملائكة والروح، سُبحانَ رَبِّنا الأعلى، الذي يُمِيت الخلائقَ ولا يموتُ. فيضَعُ الله كرسيه حيثُ يشاءُ من أرضه، ثم يَهْتِفُ بصوته: يا معشَرَ الجن والإنس، إني قد أنْصَتُّ لكم منذ خَلَقتُكم إلى يومكم هذا، أسمَعُ قولكم وأُبصِرُ أعمالكم، فأنصِتوا إلي، فإنما هي أعمالُكم وصُحُفكم تُقرأ عليكم، فمن وَجَد خيراً فَلْيَحْمَدِ الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه.

ثم يأمر الله جهنم، فيَخرُجُ منها عُنُق[7] ساطعٌ. ثم يقول: ﴿أَلم أعهَد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدُوا الشيطانَ إنه لكم عدو مبين. وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضلَّ منكم جِبِلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون. هذه جَهنَّم التي كنتم توعدون﴾، أو: بها تكذبون ـ شك أبو عاصم ـ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾، فيميز

(١) أي: تسرعون.
(٢) غُرْلاً: جمع أغرل، وهو الذي لم تقطع غُرْلَته، وهي جِلْدَةُ الصبيّ التي تقطع في الختان.
(٣) أي: حتى يبلغ العَرَقُ أفواههم.
(٤) أي: مُعاينةً ومُقابلةً.
(٥) الحُجْزَة: موضعُ شدِّ الإزار من الوسط.
(٦) أي: صوتٌ رفيعٌ عالٍ.
(٧) أي: قطعة من النار.

الله الناس وتجثو الأمم، يقول الله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ فيقضي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بين خلقه، إلا الثَّقلين الجن والإنس، فيقضي بين الوَحْش والبهائم، حتى إنه يَقتصُّ للجمَّاء[١] من ذات القَرْن، فإذا فَرَغ من ذلك فلم تَبْقَ تَبِعةٌ عند واحدةٍ لأخرى قال الله: كُوني تراباً. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾.

ثم يقضي الله بين العباد، فكان أوَّلَ ما يَقْضي في الدماء، ويأتي كلُّ قتيل في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويأمرُ الله كُلَّ قَتيل فيحمل رأسه تَشْخُبُ[٢] أوداجُه يقول: يا ربِّ، فيم قَتَلني هذا؟ فيقول، وهو أعلم: فيم قَتَلْتَهُم؟ فيقول: قتلتهم لتكون العِزَّةُ لك. فيقول الله له: صدقت. فيجعل الله وجهه مثل نُورِ الشمسِ، ثم تَمُرُّ به الملائكةُ إلى الجَنَّة.

ويأتي كلُّ من قُتل على غير ذلك يحمِلُ رأسَه تَشْخُبُ أوداجه دماً فيقول: يا ربِّ، قَتَلَني هذا. فيقول ـ وهو أعلمُ ـ لم قَتَلْتَهُم؟ فيقول: يا ربِّ، قَتَلتُهم لتكونَ العِزَّةُ لي. فيقول: تَعِسْتَ. ثم لا تبقى نفسٌ قَتَلها إلا قُتِل بها، ولا مظلمةٌ ظَلَمها إلا أُخِذَ بها. وكان في مشيئة الله، إن شاء عَذَّبه، وإن شاء رَحِمه.

ثم يقضي الله تعالى بين من بَقِي[٣] من خَلْقِه، حتى لا تَبْقَى مظْلَمةٌ لأحدٍ عند أحدٍ إلا أَخذَها المظلومُ من الظالم، حتى إنَّه لَيُكلِّف شائبَ اللبنِ بالماءِ ثم يُبيعه أن يُخْلِصَ اللبنَ من الماءِ.

فإذا فَرَغ الله من ذلك نادى منادٍ يُسْمعُ الخلائقَ كُلَّهم: ألا لِيَلْحَقْ كُلُّ قومٍ بآلهتهم، وما كانوا يَعبدُون من دون الله. فلا يبقَى أحدٌ عَبد من دون الله إلا مُثِّلَت له آلهتُه بين يديه، ويُجْعَلُ يومئذٍ مَلَك من الملائكة على صورة عُزَيرٍ، ويُجعَلُ مَلَكٌ من الملائكة على صورة عيسى ابن مَرْيَم. ثم يَتْبَعُ هذا اليهودُ وهذا النصارى، ثم قادَتْهم آلهتهم إلى النار. وهو الذي يقول: ﴿لو كان هؤلاء آلهةً ما وَرَدُوها، وكُلٌّ فيها خالدون﴾.

فإذا لم يبقَ إلا المؤمنون فيهم المنافقونَ، جاءهم الله فيما شاء من هَيْئَتِه، فقال: يا أيُّها الناسُ، ذَهَب الناسُ فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إلَه إلا الله، وما كُنَّا نعبدُ غيره. فينصرفُ عنهم، وهو الله الذي يأتيهم فيمكُثُ ما شاء الله أن يمكُثَ، ثم يأتيهم فيقولُ: يا أيُّها الناسُ، ذَهَب الناسُ فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون. فيقولون: والله ما لنا إلَه إلا الله، وما كُنَّا نعبدُ غيره. فيكشفُ لهم عن ساقه، ويَتجلَّى لهم من عظمته ما يَعْرِفون أنه رَبُّهم، فَيَخِرُّون سُجَّداً على وجوههم، ويخرُّ كلُّ منافقٍ على قَفَاه، ويجعلُ الله أصلابَهم كَصَياصي[٤] البقر. ثم يأذن الله لهم فيرفعون، ويضربُ الله الصِّراط بين ظَهْرانَي جَهَنَّم كحدِّ الشَّفْرَةِ، أو كحدِّ السيف، عليه كَلاليبُ وخطاطيف وحَسَك كحَسَك السَّعْدانِ[٥]، دونه جِسْرٌ دَحْضٌ[٦] مَزِلَّةٌ، فيمرُّون كطَرفِ العين، أو كَلَمْح البرق، أو كَمَرِّ الرِّيح، أو كَجِيادِ الخيل، أو كَجِيادِ الرِّكَاب، أو كَجِيادِ الرجال. فناجٍ سالمٌ، وناجٍ مَخْدُوشٌ، ومُكَرْدَسٌ[٧] على وجهه في جهنم.

فإذا أفضى أهلُ الجَنَّةِ إلى الجنةِ قالوا: من يَشْفَع لنا إلى ربِّنا فندخُلَ الجَنَّة؟ فيقولون: من أَحَقُّ بذلك من

---

(١) الجماء: التي لا قَرْن لها. وفي نسخة: وإنه ليقضي للجماء.
(٢) أي: تسيل دَماً.
(٣) في نسخة: بين من شاء من خلقه.
(٤) الصَّياصي: جمعُ صِيْصِيَة، وهي قَرْنُ البقر ونحوه.
(٥) السَّعْدان: نبتٌ ذو شوكٍ، وهو من أنجع المرعى، وفي المثل: مَرْعى ولا كالسَّعْدان. والحسك: شوكة.
(٦) الدَّحْض: الزَّلَق، يقال: دَحِضَت رجلُه: زَلِقَت.
(٧) المُكَرْدَس: الذي جمعت يداه ورجلاه وأُلقي.

أبيكم آدمَ عليه السلام، خَلقه الله بيده، ونفخَ فيه من رُوحِهِ، وكَلَّمه قِبلاً(١)؟ فيأتُون آدم فَيُطلَبُ ذلك إليه، فيذكُر ذَنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ولكن عليكم بنوحٍ، فإنه أول رُسُلِ الله. فَيُؤتَى نوحٌ فَيُطْلَبُ ذلك إليه، فَيَذْكُرُ ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بإبراهيم، فإنَّ الله اتخذه خليلاً. فيؤتى إبراهيمُ فيُطْلَبُ ذلك إليه، فَيَذْكر ذنباً ويقول: ما أنا بصاحب ذلك، ويقول: عليكم بموسى فإنَّ الله قربه نَجِيّاً، وكَلَّمه وأنزلَ عليه التوراةَ. فَيُؤتَى موسى فَيُطلَبُ ذلك إليه، فَيَذْكُر ذَنباً ويقول: لستُ بصاحبِ ذلك، ولكن عليكم بروح الله وكَلِمتِهِ عيسى ابن مريَمَ. فَيُؤتَى عيسى ابن مريَمَ فَيُطلَبُ ذلك إليه، فيقول: ما أنا بصاحِبِكم، ولكن عليكم بمحمد. قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيأتوني وَلِي عند رَبِّي ثلاثُ شَفَاعاتٍ (وَعَدَنيهنَّ)، فأنطلِقُ فآتي الجَنَّة، فآخذ بحلقَةَ البابِ، فأستَفْتِحُ فَيُفْتَحُ لي، فأحيِّي ويُرَحِّبُ بي. فإذا دخلتُ الجنةَ فنظرتُ إلى رَبِّي خَرَرْت ساجداً، فيأذن الله لي من حَمده وتَمْجِيدِه بشيءٍ ما أذن به لأحدٍ من خلقه، ثم يقول: ارفَعْ يا محمدُ، واشفَعْ تُشَفَّع، وسَلْ تُعطَهْ. فإذا رفعتُ رأسي يقول الله ـ وهو أعلَمُ ـ: ما شأنك؟ فأقول: يا ربِّ، وَعَدْتَني الشفاعةَ، فَشَفِّعْني في أهل الجنةِ فَيَدْخُلُون الجنةَ. فيقول الله: قد شَفَّعْتُكَ وقد أذِنتُ لهم في دُخُول الجنةِ.

وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «والَّذِي نفسي بيده، ما أنتم في الدنيا بأعرفَ بأزاوجكم ومساكنكم من أهلِ الجنة بأزواجهم ومساكنهم، فيدخلُ كلُّ رجلٍ منهم على ثِنْتَين وسبعين زوجةً، سبعين مما ينشيء الله ـ عزّ وجلّ ـ وثنتين آدَمِيَّتَينِ من ولد آدم، لهما فَضْلٌ على من أنشأ الله، لعبادتهما الله في الدنيا. فيدخلُ على الأُولى في غُرفةٍ من ياقوتةٍ، على سريرٍ من ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ باللؤلؤ، عليها سبعونَ زوجاً من سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، ثم إنه يَضَع يَدَه بين كَتِفَيها، ثم ينظر إلى يده من صَدْرِها، من وراء ثيابها وجِلْدِها ولحمها، وإنه لينظر إلى مُخِّ ساقِها كما ينظر أحدُكم إلى السِّلْكِ في قَصَبة الياقُوت، كَبِدُها له مرآة وكبدُه لها مرآة. فبينا هو عندها لا يَمَلُّهَا ولا تَمَلُّه، ما يأتيها من مَرَّةٍ إلاّ وَجَدَها عذراءَ، ما يَفْتُرُ ذَكَرُه، وما تَشتكي قُبُلَها. فبينا هو كذلك إذ نُودي: إنا قد عَرَفنا أنك لا تَمَلُّ ولا تُمَلُّ، ألا إنه لا مَنِيٌّ ولا مَنِيَّةَ، ألاَ إنَّ لك أزواجاً غيرها. فيخرُج فيأتيهنَّ واحدةً واحدةً، كُلَّما أتى واحدةً قالت: والله ما أرَى في الجَنَّةِ شيئاً أحسنَ منك، ولا في الجنةِ شيءٌ أحبُّ إليَّ منك.

وإذا وقع أهلُ النار في النار، وَقَع فيها خَلْقٌ من خَلقِ ربك أَوْبَقَتْهُم أعمالُهم، فمنهم من تأخذ النار قَدَميه لا تجاوز ذلك، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه إلى رُكْبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حَقْوَيه(٢)، ومنهم من تأخذُ جَسَده كُلَّه إلاّ وَجْهَه، حَرَّم الله صُورَتَه عليها. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فأقول: يا ربِّ، مَن وَقَع في النار من أُمّتي؟ فيقول: أخرجوا من عَرَفتم، فيخرجُ أولئك حتى لا يبقى منهم أحدٌ. ثم يأذن الله في الشفاعة فلا يبقَى نبيٌّ ولا شهيدٌ إلا شَفَع، فيقول الله: أخرجوا من وَجَدْتم في قلبه زِنَةَ الدِّينار إيماناً. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد. ثم يَشْفَع الله فيقول: أخرجوا مَنْ وجدتم في قلبه إيماناً ثُلُثَي دينار. ثم يقول: ثُلُثَ دينار. ثم يقول: رُبُعَ دينار. ثم يقول: قيراطاً. ثم يقول: حَبَّةً من خَرْدَلٍ. فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحدٌ، وحتى لا يبقَى في النار من عَمِلَ لله خيراً قَطُّ، ولا يبقى أحدٌ له شفاعة إلاّ شَفَعَ، حتى إن إبليس ليتطاولُ مما يرى من رحمةِ الله رجاءَ أن يُشفَع له، ثم يقول: بقيتُ وأنا أرحَمُ الراحمين. فَيُدْخِلُ يده في جَهَنَّم فيخرج منها ما لا يُحصِيه غيرُهُ، كأنهم حُمَمٌ(٣)، فَيُلْقَون على نهرٍ يقال له: نهر الحيوان، فَيَنبتون كما

(١) أي: مقابلة ومعاينة.
(٢) الحَقْوُ: الخصر.
(٣) الحُمَمُ: الفحمُ.

تَنْبُت الحَبَّةُ في حَمِيل السَّيل⁽¹⁾ ما يلي الشمسَ منها أخيضرُ، وما يلي الظلَّ منها أُصيفرُ، فيَنْبُتون كنبات الطراثيث⁽²⁾، حتى يكونوا أمثالَ الذَّرِّ، مكتوبٌ في رِقابِهم: «الجُهَنَّمِيُّونَ عُتَقاء الرَّحمن»، يَعْرِفُهم أهلُ الجنة بذلك الكتابِ، ما عَمِلوا خيراً لله قطُّ. فيمكُثُون في الجَنَّة ما شاء الله، وذلك الكتاب في رِقَابِهم، ثم يقولون: ربَّنا امحُ عنَّا هذا الكتابَ. فيمحُوه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنهم».

هذا حديثٌ مشهورٌ، وهو غَريب جداً، ولبعضه شواهدُ في الأحاديث المتفرِّقة، وفي بعض ألفاظه نَكارة، تَفرَّد به إسماعيلُ بن رافع قاصُّ أهلِ المدينة، وقد اختُلِف فيه، فمنهم من وَثَّقه، ومنهم من ضَعَّفه، ونَصَّ على نكارةِ حَديثه غيرُ واحد من الأئمة، كأحمدَ بن حنبلٍ، وأبي حاتم الرازيِّ، وعَمْرو بن علي الفَلاَّس، ومنهم من قال فيه: هو متروكٌ. وقال ابن عَدِيٍّ: أحاديثهُ كلُّها فيها نظر، إلاّ أنه يُكْتَبُ حديثه في جُملة الضُّعفاء.

قلتُ: وقد اخْتلِفَ عليه في إسناد هذا الحديثِ على وُجُوهٍ كثيرة، قد أفردتها في جزءٍ على حِدَةٍ. وأما سياقهُ فغريبٌ جدًّا، ويقال: إنه جَمَعه من أحاديثَ كثيرةٍ، وَجعله سياقاً واحداً، فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعتُ شيخَنا الحافظَ أبا الحجاجِ المِزِّيَّ يقول: إنه رَأى للوليدِ بن مسلم مُصنَّفاً قد جَمَعه كالشواهدِ لبعضِ مفرداتِ هذا الحديثِ، فالله أعلم.

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قال الضَّحَّاكُ، عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكنِ اسمُه آزرَ، إنما كان اسمُه تارحَ. رواه ابن أبي حاتم.

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عَاصِمٍ النَّبيل، حدثنا أبي، حدثنا أبو عاصم، حدثنا شبيبٌ، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرَ ﴾ يعني بآزر الصَّنَم، وأبو إبراهيم اسمه تارحُ، وأمه اسمها مثانى، وامرأته اسمها سارَّة، وأم إسماعيل اسمها هَاجر، وهي سُرِّيَّةُ إبراهيمَ.

وهكذا قال غيرُ واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسُّدِّيُّ: آزرُ: اسمُ صَنَم.

قلتُ: كأنه غَلَبَ عليه آزرُ لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم.

وقال ابنُ جَريرٍ: وقال آخرونَ: «هو سَبٌّ وعَيبٌ بكلامِهم، ومعناه: مُعْوَجٌّ»⁽³⁾ ولم يُسْنِدْه ولا حكاه عن أحدٍ.

---

(1) هو ما يحمله السيل من غُثاءٍ وطينٍ، إذا اتفقت فيه حبَّة واستقرت على شطِّ مجرى السيل، فإنها تنبت في يوم وليلة، فشبَّه بها سُرعة عود أبدانهم وأجسامهم بعد إحراق النار لها.

(2) تقدم تفسيره في هذا الحديث.

(3) تفسير الطبري ٧/٢٤٣.

وقد قال ابنُ أبي حاتم: ذُكِر عن مُعتمِر بن سُليمان، سَمِعتُ أبي يقرأ: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ [قال]: بلغني أنها أعوجُ، وأنها أشدُّ كلمة قالها إبراهيمُ عليه السلام.

ثم قال ابنُ جَرير: والصوابُ أن اسم أبيه آزَرُ. ثم أورد على نفسه قَوْلَ النسابين أَنَّ اسمَه تارحُ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثيرٍ من الناس، أو يكون أحدُهما لَقباً[1]. وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم.

واختلف القُرَّاء في أداءِ قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾، فحكى ابنُ جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزرُ أتتخذ أصناماً آلهة﴾، معناه: يا آزرُ، أتتخذ أصناماً آلهة؟!

وقرأ الجمهورُ بالفتح، إما على أنه عَلَمٌ أعجميٌّ لا ينصرفُ، وهو بدلٌ من قول ﴿لأبيه﴾، أو عطف بيان، وهو أشبه. وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرفُ أيضاً كأحمر وأسود. فأما من زَعَم أنه منصوبٌ لكونه معمولاً لقوله: ﴿أتتخذُ أصناماً﴾، تقديره: يا أبتِ، أتتخذُ آزَرَ أصناماً آلهة - فإنه قول بعيد في اللغة؛ لأن ما بعد حرف الاستفهام لا يعملُ فيما قبله، لأن له صَدْرَ الكلام، كذا قَرَّره ابن جرير وغيره. وهو مشهورٌ في قواعدِ العربية.

والمقصودُ أنَّ إبراهيم - عليه السلام - وعظ أباه في عبادةِ الأصنام، وَزَجَره عنها، وَنَهاه فلم يَنْتَهِ، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيمُ لأبيه آزرَ: أتتخذُ أصناماً آلهة؟﴾ أي: أتتألَّه لصنمٍ تعبدُه من دونِ الله، ﴿إنِّي أراكَ وقومَكَ﴾، أي: السالكين مَسْلَكَكَ ﴿في ضلالٍ مبين﴾، أي: تائهين لا يهتَدُونَ أين يَسلكُونَ، بل في حَيرةٍ وجَهْلٍ، وأمركم في الجهالةِ والضلالِ بَيِّنٌ واضح لكل ذي عَقْلٍ صَحِيح. وقال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيمَ إنَّه كان صِدِّيقاً نبيّاً. إذ قال لأبيه: يا أبت، لِمَ تعبُد ما لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يُغني عنكَ شيئاً. يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِكَ فاتَّبعني أَهْدِكَ صراطاً سويّاً. يا أبتِ لا تَعْبُدِ الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصِياً. يا أبت إني أخافُ أن يَمَسَّكَ عذابٌ من الرحمن فتكونَ للشيطان ولياً. قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تَنْتَهِ لأرجُمنَّكَ واهجُرني ملياً. قال سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لَكَ رَبِّي إنه كان بي حَفِيّاً. وأعتزِلُكُم وما تَدْعُون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شَقِيّاً﴾، فكان إبراهيمُ - عليه السلام - يستغفِرُ لأبيه مُدَّة حياته، فلما ماتَ على الشِّرك وتبيَّن إبراهيمُ ذلك رَجَع عن الاستغفار له، وتَبرَّأ منه، كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيم لأبيه إلا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاه فلما تبيَّن له أنه عَدُوٌّ لله تَبَرَّأ منه إنَّ إبراهيم لأوَّاهٌ حَلِيم﴾.

وثبت في الصَّحيح: أن إبراهيم يلقى أباه آزَرَ يوم القيامة فيقول له أبوه: يا بُنَيَّ، اليومَ لا أَعْصِيك، فيقول إبراهيم: أيْ ربِّ، ألم تَعِدْني أنك لا تُخزيني يوم يبعثون[2]، وأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما وراءك. فإذا هو بذيخٍ[3] متلطخ، فيؤخذ بقوائمه، فيُلْقى في النار[4].

وقولُه: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾، أي: نُبيِّن له وَجْهَ الدَّلالة في نَظرِه إلى

(١) تفسير الطبري ٧/٢٤٤.
(٢) في نسخة: يوم الدين.
(٣) الذيخ: ذكر الضباع الكثير الشعر، مُتلطِّخ، أي: برجيعه او دم او طين. والمعنى انه مسخ ضبُعاً لتنفر نفس إبراهيم - عليه السلام - منه.
(٤) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٣٨٧، وطرفاه في تفسير سورة الشعراء ٨/٤٩٩.

خَلْقِهما على وَحْدَانِيَّة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في مُلكه وخلقه، وأنـه لا إله غيرُه ولا ربَّ سواه، كقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾، وقال: ﴿أولـم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾، وقال: ﴿أفلم يَرَوا إلى ما بين أيديهم وما خَلْفَهم من السماءِ والأرضِ إن نَشأْ نَخْسِف بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً من السماء إنَّ في ذلك لآيةً لكل عَبْدٍ مُنِيب﴾.

فأما ما حكاه ابنُ جرير[1] وغيره، عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والسدِّيِّ، وغيرهم قالوا ـ واللفظ لمجاهد ـ: فُرجت له السمواتُ، فَنَظَرَ إلى ما فيهنَّ، حتَّى انتهى بصرُه إلى العرش، وفُرِجَت له الأرضونَ السبعُ، فنظر إلى ما فيهنَّ ـ وزاد غيرُه ـ: فَجَعَلَ ينظرُ إلى العباد على المعاصي فيدعُو عليهم، فقال الله له: إني أرحمُ بعبادي منك، لَعلَّهم أن يَتُوبوا ويُرَاجِعوا.

وقد روى ابن مَرْدُويه في ذلك حَدِيثين مَرفُوعين، عن معاذٍ وعليِّ بن أبي طالب، ولكن لا يصح إسنادهما والله أعلم.

وروى ابنُ أبي حاتم من طريق العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوتَ السموات والأرضِ وليكون من الموقنين﴾ فإنه ـ تعالى ـ جَلا لَهُ الأمرَ سرَّه وعلانيَتَه، فلم يَخْفَ عليه شيءٌ من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعَنُ أصحابَ الذنوب قال الله: إنك لا تستطيع هذا. فَرَدَّه الله كما كان قبل ذلك. فَيَحْتَمِلُ أن يكونَ هذا [بأنْ] كُشِفَ له عن بَصَرِه، حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بَصيرته حتى شاهَدَه بفؤاده وتحقَّقَه وعَرَفه، وعَلِم ما في ذلك من الحِكَمِ الباهرةِ والدَّلالاتِ القاطعة، كما رواه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ ـ وصَحَّحه ـ عن معاذ بن جَبَلٍ في حديث المنام: «أتاني رَبِّي في أحسنِ صُورةٍ فقال: يا محمدُ، فيم يختصمُ المَلأ الأعلى؟ فقلتُ: لا أدري يا ربِّ، فوضَعَ كفَّه بين كَتِفَيَّ، حتى وجدتُ بَرْدَ أنامله بين ثَدْيَيَّ، فتجلى لي كلُّ شيءٍ وعَرَفت. . .» وذكر الحديث[2].

وقولُه: ﴿وليكونَ من المُوقنين﴾، قيل: الواو زائدة، تقديرُه: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾. وقيل: بل هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً.

وقولُه: ﴿فلما جَنَّ عليه الليلُ﴾، أي: تَغَشَّاه وسَتَره ﴿رأى كوكباً﴾، أي: نجماً، ﴿قال هذا ربِّي فلما أَفَلَ﴾، أي: غاب. قال محمد بن إسحاق بن يسار: الأُفول: الذَّهاب. وقال ابن جَرير[3] يقال: أفل النجم يأفُل ويأفِل أُفولاً وأفْلاً: إذا غاب، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مصابيحُ ليست باللواتي تَقُودُها نُجُومٌ، ولا بالآفِلاتِ الدَّوَالِكِ

ويقال: أين أفَلْت عنا؟ بمعنى: أين غِبْتَ عنَّا؟.

﴿قال: لا أُحِبُّ الآفلين﴾، قال قَتادةُ: علم أنَّ ربَّه دائمٌ لا يزول[4].

﴿فلما رأى القَمَر بازغاً﴾، أي: طالعاً ﴿قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لأكونَنَّ من

(١) تفسير الطبري ٧/٢٤٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/٢٤٣، وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١٢/١١١ ـ ١١٣.

(٣) تفسير الطبري ٧/٢٥٠ ـ ٢٥١. وانظر البيت في ديوان ذي الرمة ٣/١٧٣٤، ومجاز أبي عبيدة ١/١٩٩، واللسان. دلك. والمصابيح جمع مصباح، وهي التي تبرك في مُعَرَّسها فلا تنهض حتى تصبح، وهو ما يستحب من الإبل، لقوتها وسِنّها. والآفلاتُ: الغائبات. ودلكت: مالت للغروب.

(٤) تفسير الطبري ٧/٢٤٨.

القوم الضالين. فلما رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربِّي﴾، أي: هذا الشيءُ الطالع رَبِّي ﴿هذا أكبرُ﴾، أي: جِرْماً من النجم ومن القمر، وأكثرُ إضاءة ﴿فلما أفَلَت﴾، أي غابَتْ ﴿قال: يا قوم، إني بريءٌ مما تشركون. إنِّي وَجَّهتُ وَجْهِي﴾، أي: أخلصتُ دِيني وأفردتُ عبادَتِي ﴿للذي فَطَر السمواتِ والأرضَ﴾، أي: خلَقَهُما وابتدعَهُما على غير مثالٍ سَبَق ﴿حنيفاً﴾، أي: في حال كوني حَنيفاً، أي: مائلاً عن الشِّرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وما أنا من المشركين﴾.

وقد اختَلَفَ المفسِّرون في هذا المقام، هل هو مقام نَظَرٍ أو مناظرة؟ فَرَوى ابنُ جريرٍ من طريق علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ ما يقتَضِي أنه مقام نَظَر، واختاره ابنُ جَرير مستدلاً بقوله: ﴿لئن لم يهدني ربي﴾... الآية.

وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السَّرَب[1] الذي وَلَدته فيه أُمُّه، حين تخوفت عليه النُّمرُود بن كنعان، لما كان قد أخبر بوجُودِ مولود يكون ذهابُ مُلْكِـك على يديه، فأمر بِقَتْلِ الغِلمان عامئذٍ. فلما حَمَلت أمُّ إبراهيمَ بِهِ وحان وضعُها، ذَهَبتْ به إلى سَرَبٍ ظاهِرَ البلدِ، فَوَلَدت فيه إبراهيم وتركته هُناك. وذكر أشياء من خوارقِ العاداتِ، كما ذكرها غيرُه من المفسِّرين من السَّلَفِ والخَلَفِ[2].

والحقُّ أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مُبَيِّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فَبَيَّن في المقام الأوَّل مع أبيه خَطَأهُم في عبادة الأصنام الأرضيَّة، التي هي على صورةِ الملائكةِ السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقَرُ من أن يعبُدُوه، وإنما يتوسَّلُون إليه بعبادةِ ملائكَتِه، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجُون إليه. وبَيَّن في هذا المقام خَطَأهم وضَلَالهم في عبادةِ الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيِّرة، وهي: القمر، وعُطَارِدُ، والزُّهرة، والشمس، والمرِّيخ، والمُشْتَري، وزُحَلَ. وأشدُّهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمسُ، ثم القمرُ، ثم الزُّهَرَة. فبيَّن أولاً أنَّ هذه الزُّهرةَ لا تصلُحُ للإلَهيَّة، لأنها مُسَخَّرة مُقَدَّرة بسَيرٍ مُعَيَّن، لا تَزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تَمْلك لنفسها تَصَرُّفاً، بل هي جُرْمٌ من الأجرام خَلَقها الله مُنِيرةً، لما له في ذلك من الحِكَمِ العظيمة، وهي تَطْلع من المشرق، ثم تَسِيرُ فيما بينه وبين المغرب حتى تَغِيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثلُ هذه لا تَصلُح للإلَهيَّةُ. ثم انتقل إلى القَمَر فبيَّن فيه مثل ما تقدَّم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفتِ الإلَهيَّةُ عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنورُ ما تَقَع عليه الأبصارُ، وتحقَّق ذلك بالدليل القاطع ﴿قال: يا قوم إني بريءٌ مما تشركون﴾، أي: أنا بريءٌ من عبادتهنَّ وموالاتهنَّ، فإن كانت آلهةً فَكِيدُوني بها جميعاً ثم لا تُنظِرون، ﴿إني وَجَّهتُ وجهِيَ للذي فطر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾، أي: إنما أعبد خالقَ الأشياءِ ومخترعَها ومُسَخِّرها ومقدِّرها ومُدَبِّرها، الذي بيده ملكوتُ كُلِّ شيءٍ، وخالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكُه وإلَهُهُ، كما قال تعالى: ﴿إنَّ ربَّكم الله الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيام ثم استوى على العرش يُغشِي الليل النهار يَطْلُبُه حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجوم مُسَخَّراتٍ بأمره ألا له الخلقُ والأمرُ تباركَ الله رب العالمين﴾.

وكيف يجوزُ أن يكونَ إبراهيمُ ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حَقِّه: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَه من قبل وكنَّا به عالمين. إذ قال لأبيه وقومِهِ ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون﴾... الآيات، وقال تعالى:

---

(١) السَّرَبُ: حفيرٌ تحت الأرض لا مَنْفَذ له.

(٢) انظر تفسير الطبري ٧/٢٤٩ ـ ٢٥٠.

﴿إنَّ إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يـك من المشركين. شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حسنةً وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتَّبِعْ ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾. وقال تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾. وقد ثَبَتَ في الصحيحين، عن أبي هُرَيرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»(١). وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمَاد أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «قال الله: إني خلقتُ عبادي حُنَفاء»(١). وقال الله في كتابه العَزيز: ﴿فطرَتَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديلَ لخلق الله﴾. وقال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربُّك من بني آدم من ظُهُورهم ذُرِّيتهم وأشهدَهم على أنفسهم ألستُ بربكم؟ قالوا بلى﴾. ومعناه على أحد القولين، كقوله: ﴿فِطْرت الله التي فَطَر الناس عليها﴾ كما سيأتي بيانه. فإذا كان هذا في حَقِّ سائرِ الخليقَةِ، فكيف يكونُ إبراهيم الخليل الذي جَعَله الله ﴿أمّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين﴾ ناظراً في هذا المقام؟! بل هو أولى الناس بالفِطْرَةِ السليمة، والسجيَّةِ المستقيمةِ بعد رسولِ الله ـ ﷺ ـ بلا شكٍّ ولا ريبٍ. ومما يُؤيِّد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومِه فيما كانوا فيه من الشِّرك لا ناظراً قوله تعالى:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وجادله قومُه فيما ذَهَب إليه من التوحيد وناظَرُوه بِشُبَهٍ من القول، قال: أتحاجُّوني في الله وقد هدانِ﴾، أي: تجادلونني في أمر الله وأنَّه لا إله إلا هُوَ، وقد بَصَّرني وهَدَاني إلى الحقِّ وأنا على بَيِّنةٍ منه؟ فكيف ألتفتُ إلى أقوالِكُم الفاسِدَةِ وشُبَهكم الباطلة؟!

وقولُه: ﴿ولا أخافُ ما تُشركون به إلا أن يشاءَ ربِّي شيئاً﴾، أي: ومن الدلائل على بُطْلانِ قَوْلكم فيما ذهبتُم إليه أنَّ هذه الآلهة التي تعبدُونها لا تُؤثِّر شيئاً، وأنا لا أخافُها ولا أُباليها، فإن كان لها صُنعٌ فكيدُوني بها جميعاً ولا تُنظِرون، بل عَاجِلُوني بذلك.

وقولُه: ﴿إلا أن يشاء ربِّي شيئاً﴾ استثناء منقطعٌ، أي: لا يضرُّ ولا ينفَعُ إلا الله، عز وجل.

﴿وسِع ربِّي كل شيء علماً﴾، أي: أحاط علمُه بجميع الأشياءِ، فلا تخفَى عليه خافيةٌ.

﴿أفلا تتذكَّرون﴾، أي: فيما بيَّنتُه لكم فتعتبِرُون أنَّ هذه الآلهةَ باطلةٌ فَتَنْزَجِرُوا عن عبادتها؟ وهذه الحجَّةُ نظيرُ ما احتجَّ به نبيُّ الله هود ـ عليه السلام ـ على قومه عادٍ، فيما قصَّ عنهم في كتابه، حيثُ يقول: ﴿قالوا: يا هودُ، ما جئتَنا ببيِّنةٍ، وما نحنُ بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إنْ نقولُ إلا اعتراكَ بعضُ آلهتنا بسوءٍ قال: إنِّي أُشهِدُ الله، واشهدوا أني بريءٌ مما تشركون. من دونه، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرونِ. إني توكلتُ على الله ربِّي وربِّكم ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها﴾. . . الآية.

(١) تقدَّم الحديثان عند آية النساء ١١٩، وخرجناهما هنالك.

وقولُه: ﴿وكيفَ أخافُ ما أشركتم﴾، أي: كيفَ أخافُ من هذه الأصنام التي تعبدونَ من دونِ الله ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾؟ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أيْ حُجَّةً. وهذا كما قال تعالى: ﴿أم لهم شركاءُ شرَعُوا لهم من الدِّين ما لم يأْذن به الله﴾. . . وقال: ﴿إن هي إلا أسماء سَمَّيتُموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾.

وقولُه: ﴿ فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلَمون ﴾، أي: فأيُّ الطائفتين أصوبُ؟ الذي عَبَد من بيده الضرُّ والنفعُ، أو الذي عَبد ما لا يضرُّ ولا ينفَعُ بلا دليل، أيهما أحقُّ بالأمنِ من عذابِ الله يومَ القيامة؟ قال الله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظُلمٍ أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون﴾، أي: هؤلاء الذي أخلَصُوا العبادةَ لله وحدَه لا شريكَ له، ولم يُشْرِكُوا به شيئاً هم الآمنون يومَ القيامةِ، المهتَدُون في الدنيا والآخرة.

قال البخاري: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا ابن عَديّ، عن شُعبَة، عن سُليمان، عن إبراهيمَ، عن عَلْقمةَ، عن عبد الله قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظلم﴾، قال أصحابُه: وأيُّنا لم يَظْلِم نَفْسَه؟ فنزلَتْ: ﴿إن الشِّركَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن إبراهيمَ، عن عَلْقَمة، عن عبدِ الله قال: لما نَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿الذين آمنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾ شَقَّ ذلك على الناس[2]، وقالوا: يا رسول الله، فأيُّنا لا يظلِمُ نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تَعنُون! ألم تسمعوا ما قال العبدُ الصالح: ﴿يا بُنَي، لا تُشْرِكْ بالله، إن الشِّركَ لظلم عظيم﴾، إنما هو الشرك[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيدُ الأشجُّ، حدثنا وَكِيعٌ وابن إدريس، عن الأعمش، عن إبراهيمَ، عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: لما نزلَتْ: ﴿ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾ شَقَّ ذلك على أصحاب رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ قالوا: وأيُّنا لم يَظْلِم نفسَه؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ ليس كما تَظُنُّون، إنما قال لقمانُ لابنه: ﴿يا بُنَيَّ، لا تُشْرِكْ بالله إن الشِّركَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ﴾.

وحدثنا عُمَر بن شَبَّةَ النُّمَيْري، حدثنا أبو أحمد، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة، عن عبد الله عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾، قال: بِشِرْكٍ[4].

قال: ورُوِيَ عن أبي بكر الصِّدِّيق، وعُمَر، وأُبَيّ بن كَعْب، وسَلْمَانَ، وحُذَيفة، وابن عباس، وابن عُمَر وعَمْرو بن شُرَحبيل، وأبي عبد الرحمن السُّلمي، ومجاهِدٍ، وعِكرمةَ، والنَّخَعِيِّ، والضحاكِ، وقتادَةَ، والسدِّيِّ نحوُ ذلك.

وقال ابنُ مَرْدُويه: حدثنا الشافعيُّ، حدثنا محمد بن شَدَّادَ المِسْمَعيُّ، حدثنا أبو عاصم، حدثنا سفيانُ الثوريُّ، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عبد الله قال: لما نَزَلَتْ: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم﴾، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: قيل لي: أنتَ منهم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسحاقُ بن يوسُفَ، حدثنا أبو جَناب، عن زاذان، عن جَرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فلما بَرَزْنا من المدينة إذا راكبٌ يُوضِعُ[5] نحونا، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: كأن هذا

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأنعام ٢٩٤/٨، ولفظه: «وأيُّنا لم يَظْلِم؟»، دون ذكر «نفسه».

(٢) في نسخة: على المسلمين. وما أثبتناه يوافق ما في المسند.

(٣) مسند أحمد ٣٧٨/١.

(٤) في نسخة: الشرك.

(٥) يقال: أوضع الراكبُ الدّابةَ: حملها على السير السريع.

الراكبَ إيَّاكم يُريدُ. فانتهى إلينا الرجلُ، فَسلَّم فرددْنا عليه، فقال له النبيُّ ـ ﷺ ـ من أينَ أقبلتَ؟ قال: من أهلي وَوَلَدِي وعَشِيرتي. قال: «فأين تُريدُ؟ قال: أريدُ رسولَ الله. قال: فقد أصبتَه. قال: يا رسولَ الله، علِّمني ما الإيمانُ؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وتُقيم الصلاةَ، وتُؤتِي الزكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ. قال: قد أقررتُ. قال: ثم إنَّ بعيرَه دَخلت يدُه في شَبكَة[1] جُرْذَان، فَهوى بعيرُه وهَوى الرجلُ، فوقع على هامته فماتَ. فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: عَلَيَّ بالرجُل. فوثَبَ إليه عمّار بن ياسر وحُذَيفة بن اليَمان فأقعدَاه، فقالا: يا رسولَ الله، قُبِض الرجل! قال: فأعرَضَ عنهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ ثم قال لهما رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أما رأيتما إعراضِي عن الرجل[2]، فإني رأيت مَلَكين يَدُسَّان في فيه من ثمار الجنة، فَعلِمْتُ أنه ماتَ جَائعاً. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: هذا من الذين قال الله عزَّ وجلّ: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظلم﴾. . . الآية. ثم قال: دُونكم أخاكم. قال: فاحتَمَلْناه إلى الماء فَغَسَلْناه وحَنَّطناه وكَفَّنَاه، وحَمَلناه إلى القبر، فجاء رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى جلس على شَفِيرِ القبرِ فقال: أَلْحِدُوا[3] ولا تَشُقُّوا، فإن اللحد لنا والشَّقَّ لغيرنا[4].

ثم رواه أحمدُ عن أسودَ بن عامرٍ، عن عبد الحميد بن [أبي] جعفرٍ الفَرَّاءِ[5]، عن ثابتٍ، عن زَاذانَ، عن جَرير بن عبد الله، فذكر نحوه، وقال فيه: «هذا ممن عَمِل قليلاً وأُجِرَ كثيراً»[4].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسفُ بن موسى القَطَّان، حدثنا مِهْرانُ بن أبي عُمَر، حدثنا علي ابن عبد الأعلى، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كُنَّا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في مسير ساره، إذْ عرض له أعرابي فقال: يا رسولَ الله، والذي بَعَثَك بالحق لقد خرجتُ من بلادِي وتِلادِي ومَالِي لأهتدي بهداك، وآخذَ من قولك، وما بلغتُك حتى ما لي طعامٌ إلا من خَضِر الأرض[6]، فاعرضْ عليَّ. فعَرَضَ عليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فَقبِلَ. فازدَحَمْنا حولَه، فدخلَ خُفُّ بَكْرِه[7] في بيت جِرْذَانٍ، فتردَّى الأعرابيُّ، فانكسَرت عُنقُه. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: صَدَق والذي بعثني بالحق، لقد خَرَج من بلاده وتلادِه ومالِه لِيهتدِيَ[8] بهُدايَ ويأخُذَ مَن قولي، وما بَلَغني حتى[9] مَا لَهُ طعامٌ إلا من خَضِرِ الأرضِ، أَسَمِعتُم بالذي عَمِل قليلاً وأُجِرَ كثيراً؟ هذا منهم! أَسَمِعتُم بالذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مُهتَدُون؟ فإنَّ هذا منهم».

(١٠ـوروى ابن مَرْدُوَيْه من حديث محمد بن مُعَلًّى ـ وكان نزيل الرَّيِّ ـ: حدثنا زيادُ خَيْثمةَ، عن أبي داود، عن عبدالله بن سخبرة، [عن أبيه] قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من أُعطِي فَشكر، ومُنِع فَصبر، وظَلَم فاستغفر، وظُلِم فَغَفر، وسكت، قال: فقالوا: يا رسول الله، ما له؟ قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ـ١٠).

(١) الشَّبَكَةُ: شَرَكَةُ الصياد في البرّ والبحر.

(٢) في المسند: عن الرجلين.

(٣) اللَّحدُ: الشقّ الذي يكون في جانب القبر موضع الميت، لأنه قد أميل عن وسطه إلى جانبه.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤/٣٥٩.

(٥) عبد الحميد بن أبي جعفر الفراء، من رجال أحمد، مترجم في تعجيل المنفعة لابن حجر ٢٤٤، وقال: «وثقه ابنُ حبّان». وما بين القوسين سقط من الأصول.

(٦) الخَضِرُ: الزَّرْعُ الغَضُّ الأخضرُ.

(٧) البَكْرُ: الفتِيّ من الإبل. والجُرْذان: جَمْعُ جُرَذٍ، وهو الكبيرُ من الفِئْران.

(٨) في نسخة: يهتدي.

(٩) في نسخة: وما بلغني وله طعام.

(١٠ ـ ١٠) عن نسخة. وقد أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٧/١٣٨، بإسناده إلى محمد بن المعلى، به. وانظر أسد الغابة ٢/٣٢٧، والدر المنثور ٣/٣١٠.

وقولُه: ﴿وتلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾، أي: وَجَّهنا حُجَّته على قومه.

قال مجاهدٌ وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم، ولا تخافُون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون﴾. وقد صَدَّقه الله، وحَكَم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانَهم بظُلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾، ثم قال بعد ذلك كلِّه: ﴿وتلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قَوْمِهِ نرفعُ درجاتٍ من نشاء﴾.

قُرِيء[1] بالإضافة وبلا إضافةٍ[2]، كما في سورة يوسفَ[3]، وكلاهما قريبٌ في المعنى.

وقولُه: ﴿إن رَبَّك حكيم عليم﴾، أي: حكيمٌ في أفعاله وأقواله ﴿عليمٌ﴾، أي بمن يَهْدِيه ومَن يُضلُّه، وإن قامت عليه الحُجَج والبراهينُ، كما قالَ: ﴿إنَّ الَّذين حقَّت عليهم كَلِمةُ رَبِّك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذاب الأليم﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿إن ربَّك حكيمٌ عليمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يُخبِرُ تعالى أنه وَهَب لإبراهيم إسحاقَ بعدَ أن طَعَن في السنِّ، وأيس هو وامرأته «سارَة» من الوَلَد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوطٍ، فَبَشَّروهما بإسحاقَ، فتعجَّبت المرأةُ من ذلك، وقالت: ﴿يا ويلتى أألِد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إنَّ هذا لشيء عجيبٌ. قالوا أتعجبن من أمر الله؟ رحمةُ الله وبركاته عليكُم أهلَ البيت إنه حميدٌ مجيد﴾. وبَشَّروهما مع وُجُوده بنبوته، وبأنَّ له نَسْلاً وعَقِباً، كما قال: ﴿وبشَّرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين﴾. وهذا أكملُ في البشارة، وأعظم في النعمة. وقال: ﴿فبَشَّرناها بإسحاق ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ﴾، أي: ويُولَدُ لهذا المولود وَلَدٌ في حياتكما، فَتَقَرُّ أعينكُما به كما قرَّت بوالده، فإن الفَرَح بِوَلَدِ الوَلَدِ شديدٌ لِبَقاء النَّسل والعَقِب. ولما كان ولدُ الشيخِ والشيخةِ قد يُتوهَّم أنه لا يُعْقِبُ لضعفه وقعت البشارةُ به وبولَدِه باسم «يعقوب»، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ حين اعتزَلَ قومَه وتركهم، ونَزح عنهم وهاجَرَ من بلادهم ذاهباً إلى عبادةِ الله في الأرض، فعوَّضَه الله ـ عز وجل ـ عن قومه وعشيرته بأولادٍ صالحين من صُلْبِهِ على دينه، تقَرُّ بهم عينُه، كما قال: ﴿فلما اعتزَلَهُم وما يعبدُون من دونِ الله وَهَبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وكلّاً جعلنا نبيّاً﴾، وقال ها هنا: ﴿ووَهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كُلّاً هدينا﴾.

وقولُه: ﴿ونوحاً هَدَينا من قبلُ﴾، أي: من قَبْلِهِ، هَدَيناه كما هَدَيناه، ووهبنا له ذريَّةً صالحةً، وكلٌّ منهما له خُصُوصيَّةٌ عظيمةٌ، أما نوحٌ ـ عليه السلام ـ فإن الله تعالى لما أغرقَ أهلَ الأرضِ إلا مَن آمن به، وهم الذين

(١) أي قوله تعالى: ﴿درجاتٍ من نشاء﴾، قرأ الكوفيون بالتنوين، وباقي السبعة بالإضافة. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤٠.
(٢) في نسخةٍ: «قُرِيءَ بلا إضافةٍ وبالإضافة».
(٣) سورة يوسف، الآية ٧٦.

صَحِبوه في السفينة، جَعَل الله ذرِّيته هم الباقين، فالناسُ كلُّهم من ذُرِّية نُوحٍ، وكذلك الخليلُ إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يَبْعَثِ الله ـ عز وجل ـ بعده نَبياً إلا من ذُرِّيته، كما قال تعالى: ﴿وجَعَلنا في ذُرِّيته النبوةَ والكتابَ﴾. . . الآية، وقال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجَعَلنا في ذُرِّيتهما النبوَّة والكتابَ﴾، وقال تعالى: ﴿أولئك الذين أنعمَ الله عليهم من النبيِّين، من ذرية آدمَ وممن حَملنا مع نُوحٍ، ومن ذُرِّية إبراهيم وإسرائيلَ وممن هَدَينا واجتَبينا، إذا تُتْلى عليهم آياتُ الرَّحمن خرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾.

وقولُه في هذه الآية الكريمة: ﴿ومن ذُرِّيته﴾، أي: وهَدَينا من ذُرِّيته ﴿داود وسُلَيمانَ﴾. . . الآية. . وعودُ الضَّمير إلى «نوح» لأنه أقربُ المذكُورين، ظاهرٌ. وهو اختيارُ ابن جَرير، ولا إشكالَ عليه [(١)]. وعودُه إلى «إبراهيم» لأنه الذي سِيقَ الكلامُ من أجْلِه حَسَن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذُرِّية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه هاران بن آزَرَ، اللهم إلا أن يُقالَ: إنه دَخَل في الذريَّة تَغْليباً، كما في قوله تعالى: ﴿أم كنتم شُهَداء إذ حَضَر يعقوبَ الموتُ، إذ قال لبنيه: ما تَعبدُون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلَهك وإلَه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلَهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾، فإسماعيل عمه، ودَخَل في آبائِهِ تغليباً. ([(٢)]وكما في قوله: ﴿فَسَجد الملائكةُ كلُّهم أجمعون. إلا إبليسَ﴾، فدخَل إبليسُ في أمْرِ الملائكة بالسجود، وذُمّ على المخالفة، لأنه كان قد تشبَّه بهم، فعُومِلَ مُعاملتهم ودخل فيهم تغليباً، وكان مَن الجنِّ وطبيعته من النارِ والملائكةُ من نورٍ[(٢)]).

وفي ذكر عيسى ـ عليه السلام ـ في ذُرِّيته إبراهيم أو نُوحٍ، على القول الآخر، دلالةٌ على دخولِ ولد البناتِ في ذُرِّية الرجال، لأن عيسى ـ عليه السلام ـ إنما ينسب إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأمه مَرْيَم ـ عليها السلام ـ فإنه لاَ أب له.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا سهل بن بَحْرٍ العسكري، حَدَّثنا عبدُ الرحمن بن صالح، حدَّثنا علي بن عابسٍ، عن عبد الله بن عَطَاء المكي، عن أبي حَرْب بن أبي الأسودِ قال: أرسل الحجَّاجُ إلى يحيى بن يَعْمَر فقال: بَلَغني أنك تزعُم أنَّ الحسن والحُسَين من ذُرِّيةَ النبي ـ ﷺ ـ تَجِدُه في كتابِ الله، وقد قرأتُه من أوّله إلى آخره فلم أجدْه؟ قال: أليس تقرأ سورةَ الأنعام: ﴿ومن ذُرِّيته داودَ وسليمانَ﴾، حتى بلغَ: ﴿ويحيى وعيسى﴾؟ قال: بلى. قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صَدَقْت.

فلهذا إذا أوصى الرجلُ لذرِّيته، أو وَقَف على ذُرِّيته أو وَهَبهم، دخل أولادُ البناتِ فيهم، فأما إذا أعطى الرجلُ بَنِيه أو وَقَف عليهم، فإنَّه يختصُّ بذلك بَنُوه لِصُلْبه وبَنُو بَنِيه، واحتجُّوا بقول الشاعر العربي[(٣)]:

بَنُوهـا بَنُـو أبنـائِنـا وبنـاتُنـا بنـوهُنَّ أبناءُ الـرجـالِ الأجانِبِ

وقال آخرون: ويدخل بَنُو البناتِ فيهم أيضاً، لما ثَبَت في صَحِيح البخاريِّ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ الله أن يُصْلِحَ به بين فِئتَين عَظِيمتَين من المسلمين[(٤)]» فَسَمَّاه ابناً، فَدَلَّ على دُخُوله في الأبناءِ. وقال الآخرون: هذا تَجَوُّزٌ.

وقولُه: ﴿ومن آبائهم وذُرِّياتهم وإخوانهم﴾ ذَكَر أُصولَهم وفروعَهم. وذَوِي طبقتهم، وأنَّ الهداية

(١) تفسير الطبري ٢٦٠/٧.
(٢) عن نسخة.
(٣) البيت من شواهد النحاة، وهو مجهول القائل، ورويُه دال عندهم، فيروى: أبناء الرجال الأباعد.
(٤) فتح الباري، كتاب الصلح ٣٠٧/٥، وكتاب المناقب ٦٢٨/٦، وكتاب فضائل الصحابة ٩٤/٧، وكتاب الفتن ٦١/١٣.

والاجتباء شَمِلهم كلَّهم، ولهذا قال ﴿واجتبيناهُم وهَدَيناهُم إلى صِراطٍ مستقيم﴾.

ثم قال: ﴿ذلك هُدى الله يَهْدِي به من يشاءُ من عباده﴾ أي: إنما حَصَل لهم ذلك بتوفيق الله وَهِدايته إيَّاهم، ﴿ولو أشركُوا لحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملُون﴾، تشديدٌ لأمر الشرك، وتغليظٌ لشأنه، وتعظيمٌ لملابسته، كما قال: ﴿ولقد أُوحِي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنَّ عَمَلُك﴾. . . الآية. وهذا شرطٌ، والشرط لا يقتَضِي جواز الوقوع، كقوله: ﴿قل: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾. . وكقوله: ﴿لو أردنا أن نتَّخِذَ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، وكقوله: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلُقُ ما يشاءُ سبحانه هو الله الواحد القهار﴾.

وقولُه: ﴿أولئك الذين آتيناهُم الكتابَ والحُكْم والنبوّة﴾، أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمةً للعباد بهم، ولطفاً منا بالخليقة، ﴿فإن يكفُر بها﴾، أي: بالنبوَّة. ويَحتَمِلُ أن يكون الضميرُ عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة.

وقولُه: ﴿هؤلاء﴾ يعني: أهلَ مكّة، قاله ابنُ عباس، وسعيد بن المسيَّب، والضحاك، وقتادةُ، والسدّيُّ[(١)]، ﴿فقد وَكَّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كَفَر بها من قُرَيش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عَرَب وعَجَم، ومِلِّيين وكتابيِّين، فقد وَكَّلنا بها قوماً ﴿آخرين﴾، يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿ليسوا بها بكافرين﴾، أي: لا يجحدُون شيئاً منها، ولا يَرُدُّون منها حرفاً واحداً، بل يُؤْمنُون بجميعها: مُحكَمِها ومُتَشابَهِها، جَعَلنا الله منهم بمنِّه وكَرَمِه وإحسانِه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبدَه ورسولَه محمداً ـ ﷺ ـ ﴿أولئك﴾، يعني: الأنبياءَ المذكورينَ مع مَن أُضيف إليهم من الآباء والذرِّية والإخوان، وهم الأشباه، ﴿الذين هَدَى الله﴾، أي: هُم أهلُ الهداية لا غيرُهم، ﴿فبهداهم اقتَدِه﴾، أي: اقتَدِ واتَّبِعْ. وإذا كان هذا أمراً للرسول ـ ﷺ ـ فأمَّته تَبَعٌ له فيما يشرعُه ويأمرُهم به.

قال البخاريُّ عند هذه الآية: حَدَّثنا إبراهيمُ بن موسى، أخبرنا هِشامٌ أنَّ ابن جُرَيجٍ أخبَرهم قال: أخبرني سليمانُ الأحولُ، أنَّ مجاهداً أخبره، أنه سأل ابنَ عباس: أفي (صَ) سجدةٌ؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿ووهبنا له إسحاقَ. . .﴾، إلى قوله: ﴿فَبِهُداهُم اقتَدِهْ﴾، ثم قال: هو منهم ـ زاد يزيدُ بنُ هارونَ، ومحمد بن عُبَيد، وسهلُ بن يوسف، عن العَوّام، عن مجاهد قال: قلتُ لابن عباس، فقال: نَبِيُّكم ـ ﷺ ـ ممن أُمِرَ أن يَقْتَدِي بهم[(٢)].

وقولُه: ﴿قل لا أسألُكم عليه أجراً﴾، اي: لا أطلبُ منكم على إبلاغي إيَّاكم هذا القرآنَ ﴿أجراً﴾، أي: أجرةً، ولا أريد منكم شيئاً، ﴿إنْ هو إلا ذكرى للعالمين﴾، أي: يتذكَّرون به فيَرْشُدُونَ من العَمَى إلى الهُدَى، ومن الغَيِّ إلى الرَّشادِ، ومن الكُفر إلى الإيمانِ.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ

(١) تفسير الطبري ٧/٢٦٤.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الأنعام ٨/٢٩٤.

بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى: وما عَظَّموا الله حَقَّ تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم. قال ابن عباس ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نَزَلَت في قُرَيشٍ. واختاره ابن جرير[1].

وقيل: نَزَلت في طائفةٍ من اليهودِ. وقيل: في فِنْحاصَ رجلٍ منهم. وقيل: في مالك بن الصَّيْف.

﴿قالوا ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيءٍ﴾، والأولُ هو الأظهَرُ، لأنَّ الآيةَ مكيَّةٌ، واليهودُ لا يُنكِرُونَ إنزالَ الكُتُبِ من السماء، وقُرَيشٌ ـ والعربُ قاطبةً ـ كانوا يُبْعِدون إرسالَ رسولٍ من البشرِ، كما قال: ﴿أكانَ للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾، وقال تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعَثَ الله بشراً رَسُولاً. قُل لو كان في الأرْض ملائكةٌ يمشون مُطْمَئِنِّينَ لنَزَّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾. وقال ها هنا: ﴿وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه إذ قالوا ما أنزلَ الله على بَشَرٍ من شيءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أنزل الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهُدًى للناس﴾؟ أي: قُلْ يا محمَّدُ لهؤلاء المنكرين لإنزال شيءٍ من الكُتُب من عندِ الله، في جوابِ سَلْبِهُمُ العامِّ بإثبات قضيةٍ جزئيةٍ مُوجَبة: ﴿من أنزل الكتابَ الذي جاء به موسى﴾ يعني التوراةَ التي قد عَلِمتم، وكلُّ أحد، أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نُوراً وهُدًى للناس، أي: لِيُستَضاءَ بها في كَشْفِ المشكلات، ويُهتَدَى بها من ظُلَم الشُّبُهات.

وقولُه: ﴿يجعَلُونه[2] قراطيسَ يُبدُونها ويُخفون كثيراً﴾، أي: يَجعَلُها حَمَلَتُها قراطيسَ، أي: قِطَعاً قِطَعاً يكتبُونها من الكتابِ الأصليِّ الذي بأيديهم ويُحَرِّفون فيها ما يُحَرِّفون ويُبَدِّلُونَ ويتأوَّلُون، ويقولُون ﴿هذا من عندِ الله﴾، أي: في كتابه المنزل، وما هُو من عند الله. ولهذا قال: ﴿يجعلونه قراطيسَ يُبدُونها ويُخْفُون كثيراً﴾.

وقولُه: ﴿وعُلِّمتم ما لم تعلَمُوا أنتم ولا آباؤكم﴾، أي: وَمَن أنزل القرآنَ الذي عَلَّمَكُم الله فيه من خَبَرِ ما سَبَق، ونبأ ما يأتي ما لم تَكُونوا تَعلَمُون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم.

قال قتادةُ: هؤلاء مشركُو العَرَب. وقال مجاهدٌ: هذه للمسلمين.

وقولُه: ﴿قل الله﴾، قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عنِ ابن عباس، أي: قُل: الله أنزله. وهذا الذي قاله ابنُ عباس هو المتعيَّن في تَفْسِير هذه الكلمةِ، لا ما قاله بعضُ المتأخرين، من أن معنى ﴿قل الله﴾، أي: لا يكونُ خطابُك لهم إلا هذه الكلمةَ: «الله».

وهذا الذي قاله هذا القائل يكونُ أمراً بِكَلِمَةٍ مفردة من غير تركيب، والإتيانُ بكَلِمةٍ مفردةٍ لا يُفِيدُ في لغة العرب فائدةً يحسنُ السكوتُ عليها.

وقولُه: ﴿ثم ذَرْهُم في خَوْضِهم يلعَبُون﴾، أي: ثم دَعْهُم في جَهْلِهم وضَلالهم يلعبون، حتى يأتِيهم من الله اليقينُ، فسوف يعلمون: ألهم العاقبةُ، أم لعبادِ الله المتَّقين؟

وقولُه: ﴿وهذا كتابٌ﴾، يعني القرآن ﴿أنزلْناه مباركٌ مصدِّقُ الذي بين يَدَيه، ولِتُنذِرَ أمَّ القُرَى﴾، يعني: مَكَّة ﴿ومن حَوْلَها﴾ من أحياءِ العرَب، ومن سائرِ طوائفِ بني آدمَ من عَرَبٍ وعَجَم، كما قال في الآيةِ الأخرى: ﴿قل: يا أيها الناس، إني رسولُ الله إليكم جميعاً﴾، وقال: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾، وقال: ﴿ومن يكفُر به من الأحزاب فالنارُ موعده﴾، وقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾، وقال: ﴿وقل

(١) تفسير الطبري ٧/٢٦٨.
(٢) قرأ بالياء في هذه الآية ابن كثير وأبو عمرو، والباقون من السبعة بالتاء. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤١.

للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولّوا فإنّما عليك البلاغ والله بصيرٌ بالعباد﴾، وثبت في الصَّحيحين أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أعطيت خمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي» وذكر منهن: «وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامَّة»(١)، ولهذا قال: ﴿والذين يُؤمِنُونَ بالآخرة يؤمنونَ به﴾ أي: كلُّ من آمن بالله واليوم الآخرِ يُؤْمِنُ بهذا الكتاب المبارَكِ الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآنُ، ﴿وهم على صَلاتِهم يحافظون﴾، أي: يَقُومون بما افتُرِضَ عليهم، من أداءِ الصَّلَوَاتِ في أوقاتها.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ومن أظلَمُ ممَّن افترى على الله كَذِباً﴾، أي: لا أحدَ أظلَمُ مِمَّـن كَذَبَ على الله، فَجعَل له شريكاً أو ولداً، أو ادَّعى أنَّ الله أرسلَه إلى الناس ولم يكُن أرسلَه، ولهذا قال تعالى: ﴿أو قال: أُوحِيَ إليَّ ولم يوحَ إليه شيءٌ﴾.

قال عكرمَةُ وقتادَةُ: نَزَلت في مُسيلِمَةَ الكذَّاب.

﴿وَمَن قال سأُنزلُ مثلَ ما أنزَلَ الله﴾، يعني: وَمَن ادَّعى أنه يُعارِض ما جاء من عند الله من الوحي بما يَفْتَريه من القول، كما قال تعالى: ﴿وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا قالوا قد سَمِعنا لو نشاء لَقُلنا مثلَ هذا﴾. . . الآية، قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غَمراتِ الموت﴾، أي: في سَكراته وغَمراته وكُرُباته، ﴿والملائكة باسطُو أيديهم﴾، أي: بالضرب، كما قال: ﴿لئن بَسَطْتَ إلي يَدَكَ لتقتلَني﴾. . . الآية، وقال: ﴿ويَبْسُطوا إليكم أيديَهم وألسِنَتَهُم بالسوء﴾. . . الآية(٢).

وقال الضحَّاكُ، وأبو صَالح: ﴿باسِطُو أيديهم﴾، أي: بالعذاب. وكما قال: ﴿ولو تَرى إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضرِبون وُجُوهَهم وأدبارهم﴾، ولهذا قال: ﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾، أي: بالضرب لهم حتى تخرجَ أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجوا أنفسكم﴾، وذلك أن الكافر إذا احتُضِرَ بشَّرته الملائكةُ بالعذاب والنَّكال، والأغلال والسَّلاسِل، والجَحيم والحَميم، وغَضَب الرحمن الرحيم، فَتَتَفرَّقُ روحُه في جَسَدِه، وتَعْصِي وتأبى الخروجَ، فتضربهم الملائكة حتى تَخرُجَ أرواحُهم من أجسادهم، قائلينَ لهم: ﴿أخرِجُوا أنفسكم اليوم تُجزَونَ عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾. . . الآية، أي: اليوم تُهانُونَ غايةَ الإهانَةِ، كما كنتم تُكذِبون على الله، وتستكبرون عن اتِّباع آياتِه، والانقيادِ لرُسُلِه.

وقد وَرَدت الأحاديثُ المتواترة في كيفيَّة احتضارِ المؤمن والكافر عند الموت، وهي مُقرَّرةٌ عند قوله تعالى: ﴿يُثبِّت الله الذين آمنُوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة﴾(٣).

(١) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ٤٣ من سورة النساء، وخرجناه هنالك.

(٢) تفسير الطبري ٧/٢٧٣.

(٣) انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

وقد ذُكَر ابن مَرْدُويه ها هنا حَديثاً مُطوَّلاً جدّاً من طريق غَريبةٍ، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرَّةٍ﴾، أي: يقال لهم يوم مَعادهم هذا، كما قال: ﴿وعُرِضوا على ربك صَفّاً، لقد جِئْتُمونا كما خَلَقناكم أوَّل مَرَّة﴾، أي: كما بَدَأناكم أعدناكم، وقد كُنتُم تُنكِرُون ذلك وتَستبعِدُونه، فهذا يومُ البعث.

وقولُه: ﴿وتركتُم ما خَوَّلناكم﴾، أي: من النعم والأموال التي اقتنيتُموها في الدار الدنيا ﴿وراء ظهوركم﴾، وثَبتَ في الصَّحيح أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يقولُ ابنُ آدم: مالي مالي. وهل لَكَ من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيْتَ، أو تَصدَّقت فأمضَيْتَ، وما سِوَى ذلك فذاهبٌ وتارِكُه للناس»(١).

وقال الحسنُ البصريُّ: يُؤتَى بابن آدمَ يومَ القيامةِ كأنه بَذَجٌ(٢)، فيقول الله ـ عز وجل ـ: أين ما جَمَعتَ؟ فيقول: يا ربِّ، جمعتُه وتركتُه أوفَر ما كان. فيقول: فأين ما قَدَّمت لنفسك؟ فلا يراه قَدَّم شيئاً، وتَلا هذه الآية: ﴿ولقد جِئْتُمونا فُرادَى كما خَلَقْناكم أوَّل مَرَّةٍ وتركتُم ما خولناكم وراء ظُهُورِكم﴾. رواه ابنُ أبي حاتم(٣).

وقولُه: ﴿وما نَرَى معكم شفعاءَكم الذين زعمتُم أنهم فيكُم شركاء﴾، تقريعٌ لهم وتوبيخٌ على ما كانوا اتَّخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانِّين أن تلك تنفعُهم في معاشِهم ومَعَادِهم إن كان ثَمَّ مَعادٌ، فإذا كان يومُ القيامة تَقَطَّعت الأسبابُ، وانزاحَ الضلالُ، وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، ويُناديهم الربُّ ـ عز وجل ـ على رءُوس الخلائق: ﴿أين شُركائي الذين كنتم تزعمون؟﴾، ﴿وقيل لهم: أين ما كنتُم تعبدون. من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾؟ ولهذا قال ها هنا: ﴿وما نرى معكم شُفعاءكم الذين زعمتُم أنهم فيكُم شركاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسطٌ في استحقاقِ العبادَةِ لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لقد تَقَطَّع بَيْنَكم﴾، قُرِيء(٤) بالرفع، أي: شَمْلُكم. وقُرِيء بالنَّصب، أي: لقد تقطَّع ما بينكم من الوُصْلاتِ والأسباب والوسائل، ﴿وضَلَّ عنكم﴾، أي: وذَهَب عنكم ﴿ما كنتُم تَزْعُمون﴾ من رَجاءِ الأصنام كما قال: ﴿إذ تَبَرَّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا ورأَوُا العذابَ وتقطَّعت بهم الأسبابُ. وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كَرَّةً فنتبرَّأ منهم كما تبَرَّأوا منا كذلك يُريهم الله أعمالهم حَسَراتٍ عليهم وما هُم بخارجين من النار﴾، وقال تعالى: ﴿فإذا نُفِخ في الصُّور فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾، ﴿وقال: إنما اتخذتُم من دون الله أوثاناً مودَّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾، وقال: ﴿وقيل: ادعُوا شركاءكم، فَدَعوهم، فلم يستَجيبوا لهم﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿ويوم نحشُرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا﴾... إلى قوله: ﴿وَضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾، والآياتُ في هذا كثيرةٌ جدّاً.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ٢٢٧٣، وأحمد عن أبي هريرة ٢/٣٦٨.

(٢) البَذَجُ: الحَمَلُ، وهو ولد الضأن، شبَّه به في الهوان والعجز.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة بإسناده إلى الحسن عن أنسٍ مرفوعاً، ثم قال الترمذي: «وقد روى هذا الحديث غيرُ واحدٍ عن الحسن، قوله، ولم يسندوه» ثم يقول: «وإسماعيل بن مسلم [راويه عن الحسن] يُضَعَّف في الحديث من قِبَل حفظه». انظر عارضة الأحوذي ٩/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٤) قرأ بالنصب نافع وحفص والكسائي، والباقون بالرفع، انظر الإقناع في القراءات السبع لابن الباذش ٦٤١.

﴿ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه فالقُ الحبِّ والنوى، أي: يَشُقُّه فَتنبُت الزروعُ على اختلافِ أصنافِها من الحبوب، والثِّمار على اختلاف أشكالِها وألوانِها وطُعُومِها من النَّوى. ولهذا فسَّر قَوْلَه: ﴿فالقُ الحبِّ والنَّوى﴾ بقوله: ﴿يُخرِجُ الحي من الميت﴾، أي: يُخرج النباتَ الحيَّ من الحبِّ والنَّوَى الذي كالجماد الميِّت، كما قال: ﴿وآيةٌ لهم الأرض الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون﴾ إلى قوله: ﴿ومن أنفسِهم وممَّا لا يعلمُـونَ﴾.

وقولُه: ﴿ومُخْرِجُ الميِّت من الحيِّ﴾ معطوفٌ على ﴿فالقُ الحبِّ والنَّوى﴾، ثم فَسَّره ثم عَطَف عليه قوله: ﴿ومخرج الميِّتِ من الحيِّ﴾.

وقد عَبَّروا عن هذا وهذا بعباراتٍ كلُّها متقاربةٌ مؤدِّيَة للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجةَ من البيضةِ والبيضةَ من الدجاجةِ، ومن قائل: يخرجِ الولدَ الصالحَ من الكافِرِ، والكافرَ من الصالح، وغير ذلك من العبارات التي تَنْتَظِمُها الآيةُ وتشمَلُها.

ثم قال: ﴿ذلكم الله﴾، أي: فاعلُ هذه الأشياءِ هو الله وحدَه لا شريكَ له ﴿فأنى تؤفكون﴾، أي: فكيفَ تُصْرَفُون عن الحقِّ وتَعْدِلون عنه إلى الباطِل فَتَعبُدون مع الله غيره.

وقولُه: ﴿فالقُ الإصباح وجاعلُ[1] الليل سكنا﴾، أي: خالقُ الضياءِ والظلام، كما قال في أوَّل السُّورةِ: ﴿وجَعَلَ الظلماتِ والنور﴾، فهو سبحانه يَفْلِق ظلامَ اللَّيل عن غُرَّة الصباح، فَيُضِيء الوجودُ، ويستَنِيرُ الأفقُ، ويَضْمَحِلُّ الظلامُ، ويذهبُ الليلُ بِـدَآدِيْهِ[2] وظَلامه ورِوَاقِهِ[3]، ويجيءُ النَّهـارُ بضيائه وإشراقِه، كما قال: ﴿يغشى الليلَ والنهارَ يطلبُه حَثِيثاً﴾، فبيَّن تعالى قدرته على خَلْقِ الأشياء المتضادَّة المختلفة الدالَّة على كَمَال عَظَمته وعَظِيم سلطانه. فذكر أنه فالقُ الإصباح. وقابلَ ذلك بقوله: ﴿وجاعلُ الليلِ سَكَناً﴾، أي: ساجياً مُظْلِماً تسكنُ فيه الأشياءُ، كما قال: ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾، وقال: ﴿واللَّيلِ إذا يَغْشَى. والنهارِ إذا تَجلَّى﴾، وقال: ﴿والنهارِ إذا جلاَّها. والليل إذا يغشاها﴾.

وقال صُهَيْبٌ الروميُّ لامرأته وقد عَاتبَتْه في كَثْرَة سَهَره: إن الله جَعَلَ الليل سَكَناً إلا لِصُهَيبٍ، إنَّ صُهَيباً إذا ذكر الجَنَّةَ طال شوقُه، وإذا ذكر النار طارَ نومُه. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقولُه: ﴿والشمس والقمر حُسباناً﴾، أي: يجريان بحساب مقنَّن مُقَدَّر، لا يتغيَّر ولا يَضطَرِبُ، بل كلٌّ منهما له منازلُ يسلُكُها في الصَّيف والشتاءِ، فيترتَّبُ على ذلك اختلافُ الليل والنهار طُولاً وقِصَراً، كما قال: ﴿هو الذي جَعَل الشمس ضياءً والقمرَ نوراً وقَدَّره منازلَ﴾... الآية، وكما قال: ﴿لا الشمسُ يَنْبَغي لها أن تُدرِك القَمَرَ، ولا الليلُ سابق النهارِ، وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون﴾، وقال: ﴿والشمسَ والقمرَ والنجومَ مُسخَّراتٍ بأمرِهِ﴾.

وقولُه: ﴿ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾، أي: الجميعُ جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يُمانَعُ ولا يُخَالَفُ، العليمُ بكلِّ شيءٍ، فلا يعزُب عن عِلْمِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خَلْقَ الليل

---

(١) قرأ الكوفيون من السبعة: ﴿وجعل اللَّيل﴾، والباقون: ﴿وجاعلُ الليل﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤١.
(٢) أي: بظلماته، يقال: ليلةٌ دأداءُ: شديدةُ الظُّلمة، والجمع: دآدِيْ.
(٣) في نسخة: وظلام رواقه. ورِواقُ الليل: جانبه ومقدَّمه.

والنهار والشمسَ والقمرَ، يختم الكلام بالعزَّة والعِلْم، كما ذكَر في هذه الآية، وكما في قوله ﴿وآيةٌ لهمُ اللَّيلُ نسلخُ منه النهار فإذا هم مُظْلِمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾. ولما ذكَر خلْقَ السموات والأرض وما فيهنَّ في أوَّل سُورةِ ﴿حمٓ﴾ السَّجدة، قالَ: ﴿وزيَّنَّا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وحِفْظاً، ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾.

وقولُه ﴿وهو الذي جَعَل لكم النجومَ لتهتَدُوا بها في ظُلُمات البرِّ والبَحْرِ﴾، قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكَذَب على الله: أن الله جعلها زينةً للسماءِ، ورُجُوماً للشياطين، ويُهتَدى بها في ظلماتِ البر والبحر.

وقوله: ﴿قد فَصَّلنا الآيات﴾، أي: قد بيَّناها ووَضَّحناها ﴿لقوم يعلمونَ﴾، أي: يَعقِلون ويَعْرِفون الحقَّ ويتجنَّبونَ الباطِلَ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وهو الذي أنشأكُم من نفس واحدة﴾، يعني: آدمَ عليه السلام، كما قال: ﴿يا أيُّها الناسُ، اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَق منها زَوْجَها، وبَثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾.

وقولُه: ﴿فمستقرٌّ ومستودَعٌ﴾، اختلفُوا في معنى ذلك، فَعَنِ ابن مسعودٍ، وابنِ عباس، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، وقيس بن أبي حازم، ومجاهدٍ، وعطاءٍ، وإبراهيمَ النخَعِيِّ، والضحاك، وقتادَة، والسُّدِّيِّ، وعطاءٍ الخُراسانِيِّ: ﴿فمستقر﴾، أي: في الأرحام. قالوا ـ أو أكثرهم ـ: ﴿ومُسْتَوْدَعٌ﴾. أي: في الأصلاب[1].

وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك. وعن ابن مسعودٍ أيضاً وطائفةٍ: فمستقرٌّ في الدنيا، ومستودَعٌ حيثُ يموتُ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿فمستقرٌّ﴾ في الأرحام وعلى ظهر الأرض، وحيث يموت. وقال الحسن البصري: المستقر الذي قد مات فاستقرَّ به عملُه. وعن ابنِ مسعود: ومستودع في الدار الآخرة.

والقول الأول هو الأظهرُ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿قد فَصَّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾، أي: يفهَمُون ويعُون كلام الله ومعناه.

وقولُه: ﴿وهو الذي أنزلَ من السماء ماء﴾، أي: بِقَدرٍ مباركاً، رِزقاً للعباد وغِياثاً للخلائِق، رحمةً من الله لخلقه ﴿فأخرجنا به نبات كلِّ شيءٍ﴾، كما قال: ﴿وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ﴾. ﴿فأخرجنا منه خَضِراً﴾، أي: زَرْعاً وشَجراً أخضَرَ، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحبَّ والثَّمر، ولهذا قال: ﴿نُخرِج منه حبَّاً متراكباً﴾، أي: يركب بعضُه بعضاً، كالسنابل ونحوها. ﴿ومن النخل من طلعها قنوانٌ﴾، أي: جمع قِنْوٍ، وهي عُذُوق الرُّطَب ﴿دانية﴾، أي: قريبة من المتناول، كما قال عليُّ بن أبي طلحةَ الوالبيُّ، عن ابن عباس، ﴿قنوانٌ دانيةٌ﴾، يعني بالقنوانِ الدانيةِ قِصارَ النَّخلِ اللاصقةَ عذوقُها بالأرض. رواه ابنُ جَرير[2].

(١) تفسير الطبري ٢٨٧/٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٩٣/٧.

قال ابنُ جَرير: وأهلُ الحجاز يَقُولون: قِنوانٌ. وقيس يقولُونَ: قُنوانٌ، وقال امرؤ القيس[1]:

فـأَثَّتْ أَعَـالِيـهِ، وآدَتْ أُصُـولُـه ... ومَـالَ بقِنْـوانٍ من البُسْـرِ أَحْمَـرَا

قال: وتميمُ يقولون: قُنْيَانٌ بالياء، قال: وهي جَمْعُ قِنو، كما أنَّ صِنْواناً جمعُ صِنْو.

وقولُه: ﴿وجَنَّاتٍ من أعنابٍ﴾ أي: ونُخرِج منه جناتٍ من أعنابٍ، وهذان النوعانِ هما أشرفُ الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيارَ الثمار في الدنيا، كما امتن تعالى بهما على عباده، في قوله: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تَتَّخذُون منه سَكَراً ورزْقاً حَسَناً﴾، وكان ذلك قبل تحريم الخمر. وقال: ﴿وجعلنا فيها جناتٍ من نَخِيل وأعنابٍ﴾. . . الآية.

وقولُه: ﴿والزيتونَ والرمانَ مُشْتَبِهاً وغير مُتَشابه﴾، قال قتادةُ وغيرُه: يتَشابه في الورق، قريبُ الشكل بعضُه من بعض، ويتخالَفُ في الثِّمار شَكْلاً وطَعْماً وطَبْعاً.

وقولُه: ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِهِ﴾، أي: نُضْجِه، قاله البَرَاءُ بن عازب، وابن عباس، والضحاك، وعطاءُ الخرساني، والسدِّيُّ، وقتادةُ، وغيرهم. أي: فَكِّروا في قُدْرة خالقه من العَدَم إلى الوجودِ، بعد أن كان حَطَباً صار عِنَباً ورُطَباً وغير ذلك، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطُّعُوم والروائح، كما قال تعالى: ﴿وفي الأرض قِطَعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعنابٍ وزَرْعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسقَى بماءٍ واحدٍ ونُفَضِّل بعضَها على بعض في الأُكُل﴾. . . الآية، ولهذا قال ها هنا: ﴿إن في ذلك﴾، أي: أيُّها الناسُ ﴿لآياتٍ﴾، أي: لَدَلالاتٍ على كمال قُدْرَةِ خالق هذه الأشياء وحِكْمَته ورَحْمَتِه ﴿لقوم يؤمنون﴾، أي: يُصَدِّقون به، ويَتَّبِعون رُسُلَه.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذا رَدٌّ على المشركين الذين عبَدوا مع الله غَيْرَه، وأشركُوا به في عبادَتِهِ أن عَبَدُوا الجنَّ، فَجَعلُوهم شركاءَ الله في العبادة، تعالى الله عن شِرْكهم وكُفْرهم.

فإن قيل: فكيف عُبِدت الجنُّ وإنَّما كانُوا يعبدُون الأصنام؟ فالجواب: أنهم إنما عبَدوا الأصنامَ عن طاعة الجنِّ وأمْرِهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إن يَدْعُون من دونه إلا إناثاً وإن يَدْعُون إلا شيطاناً مريداً. لعنه الله وقال لأتخذن من عِبادك نصيباً مفرُوضاً. ولأُضِلَّنهم ولأُمنِّيَنَّهم ولآمرنَّهُم فَلَيبتكُنَّ آذانَ الأنعام، ولآمرنَّهم فَلَيُغيِّرُنَّ خلْقَ الله ومن يَتَّخِذ الشيطان وليّاً من دُونِ الله فقد خَسِر خسراناً مبيناً. يَعِدُهم ويُمنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غُروراً﴾، وقال تعالى: ﴿أفتتخذُونه وذرِّيته أولياءَ من دُوني﴾. . . الآية، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يا أبتِ، لا تعبُدِ الشيطانَ، إن الشيطان كان للرحمن عَصِيّاً﴾، وقال تعالى: ﴿ألم أعهَدْ إليكم يا بني آدم أن لا تعبُدوا الشيطانَ إنه لكم عدو مبين. وأن اعبُدُوني هذا صراط مستقيم﴾. وتقول الملائكة يومَ القيامة: ﴿سبحانك أنتَ وليُّنا من دُونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أكثَرُهم بهم مؤمنون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وجَعلُوا لله شركاءَ الجن وخَلَقَهم﴾، أي: وقد خَلَقَهم، فهو الخالقُ وحدَه لا شريكَ له، فكيف يُعبَد معه غيرُه، كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿أتعبدون ما تنحتون. والله خلقكم وما تعملون﴾.

(١) وتفسير الطبري ٧/٢٩٢ ـ ٢٩٣. ورواية الديوان ٥٧:

ســوامــق جَـبَّـارٍ أثـيـثٍ فـروعُـه ... وعـالَـيْـنَ قِنْـوانـاً من البُـسْـرِ أحـمـرا

ومعنى الآية: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو المُستقلُّ بالخلقِ وحدَه، فلهذا يجبُ أن يُفرَد بالعبادة وحدَه لا شريكَ له.

وقولُه تعالى: ﴿وخرَقوا له بنين وبنات بغير علم﴾، يُنَبِّه به تعالى على ضَلَال من ضلَّ في وَصْفِه تعالى بأن له ولداً، كما يزعمُه من قاله من اليهود في العُزَير، ومن قاله من النصارى في المسيح، وكما قال المشركون من العَرَبِ في الملائكة: إنها بناتُ الله، ﴿تعالى الله عما يقولون عُلُوّاً كبيراً﴾.

ومعنى قوله: ﴿وخرَقوا﴾، أي: واختلَقُوا وائتفكُوا، وتخرّصوا وكَذَبوا، كما قاله علماء السلف.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ: ﴿وخرَقوا﴾، يعني أنهم تَخرَّصُوا. وقال العَوْفِيُّ، عنه: ﴿وخرَقوا له بنين وبناتٍ بغير علمٍ﴾، قال: جَعلُوا له بنينَ وبناتٍ.

وقال مجاهد: ﴿وَخَرَقُوا له بنينَ وبناتٍ﴾، قال: كذَبوا. وكذا قال الحسن: وقال الضحاك: وَضَعُوا، وقال السدِّيُّ: قَطعوا.

قال ابنُ جَرير: فتأويلُ الكلام إذاً: وجعلوا لله الجنَّ شركاءَ في عبادتهم إياه، وهو المتفرِّدُ بخَلْقِهم بغير شريكٍ ولا مُعين ولا ظَهيرٍ، ﴿وَخَرَقُوا له بنين وبنات﴾، [يقول: وتخرَّصُوا لله كذباً، فافتعلوا له بنينَ وبنات][(١)] بغير علم بحقيقة ما يقولون، ولكن جَهلاً بالله وبعظَمتِهِ، وأنه لا ينبغي لمن كان إلَهاً أن يكونَ له بَنُونَ وبناتٌ ولا صاحبةٌ، ولا أن يَشْرَكَه في خَلْقِهِ شَرِيكٌ[(٢)].

ولهذا قال تعالى: ﴿سبحانه وتعالى عما يَصِفُون﴾، أي: تَقَدَّسَ وتنزَّه وتعاظَمَ عما يَصِفُه هؤلاء الضالُّون من الأولاد والأنداد، والنُّظراء والشُّركاء.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾

﴿بديع السموات والأرض﴾، أي: مُبدِعُ السمواتِ والأرض وخالقهما ومنشئهما على غير مثالٍ سَبَق، كما قال مجاهد، والسدِّيُّ. ومنه سُمِّيت البِدْعَةُ بدعةً، لأنه لا نَظِيرَ لها فيما سَلَف.

﴿أنَّى يكون له ولدٌ﴾، أي: كيف يكونُ له ولدٌ، ولم تكن له صاحبةٌ؟ أي: والولَدُ إنما يكونُ متولِّداً عن شيئين متناسبين، الله لا يناسبه ولا يُشابِهه شيءٌ من خَلْقِه، لأنه خالقُ كلِّ شيءٍ، فلا صاحبةَ له ولا وَلَدَ، كما قال تعالى: ﴿ وقالوا اتَّخذ الرحمنُ ولداً. لقد جِئتُم شيئاً إدّاً ﴾، إلى قوله: ﴿ وكلُّهم آتيه يومَ القيامة فَرداً ﴾.

﴿وخلَقَ كلَّ شيءٍ وهو بكلِّ شيء عليمٌ﴾، فبيَّن تعالى أنه الذي خَلَقَ كلَّ شيءٍ، وأنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، فكيف يكون له صاحبةٌ من خَلْقِه تُناسِبُه؟! وهو الذي لا نظيرَ له فأنَّى يكونُ له وَلَدٌ! تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾

(١) عن تفسير الطبري.
(٢) تفسير الطبري ٧/٢٩٨.

يقول تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم﴾، أي: الذي خلق كلّ شيء ولا وَلَد له ولا صاحبةَ، ﴿لا إِلَه إلا هو خالقُ كلِّ شيء فاعبدُوه﴾ أي: فاعبدوه وَحْدَه لا شريكَ له، وأقِرُّوا له بالوحدانيّة، وأنه لا إِلَه إلا هُوَ، وأنه لا وَلَدَ له ولا والِدَ ولا صاحِبَةَ له ولا نظِير ولا عَدِيلَ ﴿وهو على كلِّ شيءٍ وكيل﴾ أي: حفيظٌ ورقيبٌ، يدبِّر كلَّ ما سواه، ويرزقُهم ويكلؤُهم بالليل والنهار.

وقولُه تعالى: ﴿لا تُدْرِكه الأبصارُ﴾، فيه أقوال للأئمة من السلف:

أحدها: لا تدركُه في الدنيا، وإن كانت تَرَاه في الآخرة كما تواترت به الأخبارُ عن رسول الله - ﷺ - من غير ما طريق ثابتٍ في الصِّحاح[1] والمسانيد والسُّنن، كما قال مسروقٌ، عن عائشةَ أنها قالت: من زَعَم أن محمداً أبصر رَبَّه فقد كَذَب. فإن الله يقول: ﴿لا تُدْركه الأبصار وهو يُدْرِك الأبصار﴾. رواه ابنُ أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النَّجود، عن أبي الضُّحى، عن مسروق. ورواه غير واحد عن مسروق، وثَبَت في الصَّحيح وغيره عن عائشة من غير وجه.

وقد خالفها ابنُ عباس، فعنه إطلاقُ الرؤية، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين. والمسألة تُذْكَر في أول «سورة النَّجم» إن شاء الله تعالى.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر محمد بن مسلم، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقيُّ، حدثنا يحيى بن مَعِين قال: سَمِعتُ إسماعيل بن عُلَيَّة يقولُ في قول الله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُه الأبصارُ وهو يُدْرِك الأبصارَ﴾، قال: هذا في الدنيا. قال: وذكَر أبي، عن هشام بن عُبَيد الله أنه قال نَحْوَ ذلك.

وقال آخرون: ﴿لا تُدْرِكه الأبصارُ﴾، أي: جَميعُها، وهذا مُخَصَّصٌ بما ثَبَتَ من رُؤيةِ المؤمنينَ له في الدار الآخرة.

وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فَهِمُوه من هذه الآية: أنه لا يُرَى في الدنيا ولا في الآخرة. فخالفوا أهلَ السنة والجماعةِ في ذلك، مع ما ارتَكَبُوه من الجَهْلِ بما دلَّ عليه كتابُ الله وسنةُ رسُولِهِ. أما الكتابُ فقولُه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يومئذ ناضِرة. إلى ربهاناظرة﴾ وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كلا إنَّهم عن رَبِّهِم يومئذ لمحجوبون﴾. قال الإمام الشافعي: فَدَلَّ هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُون عنه تبارك وتعالى. وأما السنة فقد تواترتِ الأخبارُ عن أبي سَعِيدٍ، وأبي هُرَيرة، وأنس، وجَرِيرٍ، وصُهَيب، وبلالٍ، وغير واحدٍ من الصَّحابَةِ عن النبي - ﷺ - أن المؤمنين يَرَون الله في الدَّار الآخرةِ في العَرَصات، وفي رَوضات الجناتِ، جَعَلنا الله تعالى منهم بمنّه وكَرَمه، آمين.

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿لا تُدركه الأبصار﴾، أي: العقولُ[2]. رواه ابنُ أبي حاتم، عن علي بن الحسين، عن الفَلَّاس، عن ابن مهدي، عن أبي الحصين يحيى بن الحُصَين قارىء أهل مكة أنه قال ذلك. وهذا غريب جدّاً، وخلافُ ظاهر الآية، وكأنه اعتقدَ أنَّ الإدراك في معنى الرؤية، والله أعلم.

وقال آخرون: لا منافاةَ بين إثبات الرؤية ونَفْيِ الإدراك، فإن الإدراكَ أَخَصُّ من الرؤية، ولا يلزمُ من نَفْيِ الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلفَ هؤلاء في الإدراكِ المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفةُ الحقيقةِ، فإنَّ هذا لا يعلَمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القَمَر فإنه لا يُدركُ حقيقَته وكنهه وماهِيَّته، فالعظيمُ أولَى بذلك، وله المثلُ الأعلى.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١٥٩، والترمذي في تفسير سورة الأنعام، انظر عارضة الأحوذي ١١/١٨٨ - ١٩٠.
(٢) الدر المنثور ٣/٣٣٦، ولفظه: «أبصار العقول».

وقال آخرون: المرادُ بالإدراكِ الإحاطةُ. قالوا: ولا يلزمُ من عَدَمِ الإحاطة عدمُ الرؤية، كما لا يَلْزَم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يُحيطون به علماً﴾، وفي صَحِيح مسلم: «لا أحصِي ثناءَ عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»[١] ولا يلزم من هذا عَدَمُ الثناء، فكذلك هذا.

قال العَوْفِيُّ، عن ابنِ عباسٍ في قوله تعالى: ﴿لا تُدرِكُه الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ﴾ قال: لا يحيطُ بَصَرُ أحدٍ بالمَلِكِ[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعةَ، حدثنا عمرو بن حَمَّاد بن طلحةَ القَنَّادُ، حدثنا أسباط، عن سماك، عن عكرمة، أنه قيل له: ﴿لا تدركه الأبصار﴾؟ قال: ألست تَرَى السماءَ؟ قال: بلى. قال: فَكُلَّها تَرَى؟

وقال سَعِيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ: ﴿لا تدرِكُه الأبصارُ وهو يدركُ الأبصارَ﴾: هو أعظمُ من أن تدركه الأبصار.

وقال ابنُ جرير: حدثنا[٣] سعدُ بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا خالدُ بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عَرْفَجَةَ[٤]، عن عطيةَ العَوفيِّ في قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضِرَة. إلى ربها ناظرة﴾، قال: هم ينظرونَ إلى الله، لا تُحِيط أبصارهم به من عَظَمته، وبصرُه محيطٌ بهم. فذلك قولُه: ﴿لا تُدرِكه الأبصارُ وهو يُدْرك الأبصار﴾.

وقد ورد في تفسير هذه الآيةِ حديثٌ رواه ابن أبي حاتم ها هنا، فقال:

حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا مِنْجَابُ بن الحارث التميميّ، حدثنا بِشْرُ بن عُمَارة، عن أبي رَوْقٍ، عن عَطِيَّةَ العَوْفِيِّ، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿لا تُدْرِكُه الأبصارُ وهو يُدْرِكُ الأبصارَ﴾، قال: «لو أنَّ الجنَّ والإنسَ والشياطينَ والملائكةَ منذ خُلِقوا إلى أن فَنُوا صُفُّوا صفّاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً».

غريبٌ لا يُعرَف إلا من هذا الوجه، ولم يَرْوِه أحدٌ من أصحابِ الكُتُبِ الستَّة، والله أعلم.

وقال آخَرُون في: ﴿لا تُدرِكه الأبصارُ﴾ بما رواه الترمذيُّ في جامعه، وابنُ أبي عاصم في كتاب السنَّة له، وابنُ أبي حاتمٍ في تفسيرِه، وابن مَرْدُويه أيضاً، والحاكمُ في مستدركه، من حديث الحكم بن أبان قال: سَمِعتُ عكرمة يقولُ: سمِعتُ ابنَ عباس يقولُ: رأى مُحمَّدٌ ربَّه تبارك وتعالى. فقلت: أليس الله يقولُ: ﴿لا تُدْرِكه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾... الآية؟ فقال لي: لا أُمَّ لك. ذاك نورُه الذي هو نُورُه، إذا تَجلَّى بنوره لا يُدْرِكه شيءٌ، وفي روايةٍ: لا يقُوم له شيء.

قال الحاكم: صحيح على شرطِ الشيخَين، ولم يخرجاه[٥].

وفي معنى هذا الأثر ما ثبتَ في الصَّحِيحين، عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن يَنَام، يخفِضُ القِسط ويرفَعُه، ويُرفَع إليه عَمَلُ اللَّيلِ قَبل عَمَلِ

---

(١) مسلم، كتاب الصلاة ٣٥٢.

(٢) تفسير الطبري ٧/٢٩٩.

(٣) في تفسير الطبري ٧/٢٩٩: يونس بن عبدالله. وهو خطأ، انظر الجرح والتعديل لابن ابي حاتم ٤/٩٢. وتهذيب الكمال، ترجمة أبي الهيثم خالد بن عبد الرحمن الخراساني ٨/١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) في نسخة: حدثنا عرفجة. وما أثبتناه موافق لما في الطبري، ويقول الأستاذ محمود شاكر ١٢/١٤: «وأما ابو عرفجة فلم اعرف من يكون».

(٥) المستدرك تفسير سورة الأنعام ٢/٣١٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة النجم ١٢/١٧٠ ـ ١٧١.

النهار، وعَمَلُ النهار قبلَ عمل الليل، حجابُه النورُ، أو النار، لو كَشَفه لأحرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خلقه»[1].

وفي الكتب المتقدِّمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤيةَ: يا مُوسى، إنَّه لا يراني حيٌّ إلا مات، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَه. أي تَدَعثر[2]. وقال تعالى: ﴿فلما تجلَّى ربه للجبل جَعَلَه دكّاً وخرَّ موسى صَعِقاً فلما أفاق قال: سبحانك، تبتُ إليكَ، وأنا أولُ المؤمنين﴾.

ونَفْيُ هذا الإدراكِ الخاصِّ لا ينفي الرؤيةَ يومِ القيامة، يَتجلَّى لعباده المؤمنين كما يشاءُ، فأما جَلالُه وعظَمتُه على ما هو عليه ـ تعالى وتَقَدَّسَ وتنزَّه ـ فلا تُدْركه الأبصارُ. ولهذا كانت أُمُّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تُثبت الرؤية في الدار الآخرة وَتنْفيها في الدنيا، وتحتجُّ بهذه الآية: ﴿لا تُدْركه الأبصارُ وهو يُدْرِك الأبصارَ﴾، فالذي نفته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العَظَمَةِ والجلالِ على ما هو عليه، فإن ذلك غيرُ ممكنٍ للبشر، ولا للملائكة، ولا لشيء.

وقولُه: ﴿وهو يُدْرِك الأبصارَ﴾ أي: يُحيطُ بها ويعلَمُها على ما هِيَ عَليـه، لأنه خَلَقَها كما قال تعالى: ﴿ألا يَعلَمُ من خَلَق وهو اللَّطِيفُ الخبيرُ﴾.

وقد يكون عَبَّر بالأبصار عن المُبْصرين كما قال السدِّيُّ في قوله: ﴿لا تُدْرِكُه الأبصارُ وهو يُدْرِكُ الأبصار﴾: لا يراه شيءٌ وهو يَرَى الخلائق.

وقال أبو العاليةِ في قولِهِ: ﴿وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾: اللطيفُ باستخراجِها، الخبيرُ بمكانها[3]. والله أعلم.

وهذا كما قالَ تعالى إخباراً عن لُقمان فيما وَعَظَ به ابنَه: ﴿يا بُنَيَّ، إنها إن تَكُ مثقالَ حبةٍ من خَرْدَلٍ فتَكُن في صَخْرَةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ يأتِ بها الله، إنَّ الله لطيفٌ خبيرٌ﴾.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

البصائرُ، هي البيِّناتُ والحُجج التي اشتَمَلَ عليها القرآنُ، وما جاء به الرسولُ ﷺ، ﴿فمن أبصر فلنفسه﴾ مثلُ قوله: ﴿من اهتدَى فإنما يَهْتدِي لنفسه، ومن ضَلَّ فإنما يضِلُّ عليها﴾. ولهذا قال: ﴿ ومن عَمِي فعليها﴾، لما ذَكَر البصائر قال: ﴿وَمَن عَمِي فعليها﴾ أي: فإنما يعودُ وَبَالُ ذلك عليه، كقوله: ﴿فإنها لا تعمَى الأبصارُ ولكن تعمَى القلوبُ التي في الصدور﴾.

﴿وما أنا عليكُم بحفيظٍ﴾، أي: بحافظٍ ولا رَقيبٍ، بل أنا مبلِّغ، والله يهدي من يشاءُ ويُضِلُّ من يشاء.

وقولُه: ﴿وكذلك نُصَرِّف الآياتِ﴾ أي: وكما فَصَّلنا الآيات في هذه السُّورةِ، من بيان التوحيدِ وأنَّه لا إلَه

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان ١٦١ ـ ١٦٢، ولم يقع لنا في صحيح البخاري، وانظر تحفة الأشراف ٦/٤٧٢.

ومعنى قوله: ويخفض القسط ويرفعه، القسط: الميزان، وسُمِّي قسطاً لأن القِسْطَ العدلُ، وبالميزان يقع العدلُ. والمراد أنه تعالى يخفض الميزان ويرفعه، بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة، ويوزن من أرزاقهم النازلة عنده، كما يرفع الوَزَّان يده ويخفضها عند الوزن. والسُّبُحات: جمع سبحة، والمراد نور وجهه وجلاله وبهاؤه.

(٢) أي: تهدّم.

(٣) تفسير الطبري ٧/٣٠٤.

إلا هو، هكذا نُوَضِّح الآياتِ ونُفسِّرها ونُبيِّنها في كلِّ موطنٍ لجَهالةِ الجاهلين، وليقولَ المشركون والكافرون المكذِّبون: دارست يا محمد من قَبْلَك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلَّمت منهم. هكذا قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وغيرهم.

وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن عمرو بن دينار، عن عَمْرو بن كيسان سمعتُ ابن عباس يقرأ: ﴿دارسْتَ﴾ تَلوتَ، خاصَمْتَ، جادَلْتَ[1].

وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كَذِبهم وعنادهم: ﴿وقال الذين كَفَرُوا إن هذا إلا إفك افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءُوا ظُلماً وزُوراً. وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها﴾... الآية. وقال تعالى إخباراً عن زَعِيمهم وكاذبهم: ﴿إنه فكر وقَدَّر. فقُتِل كيف قَدَّر. ثم قُتِل كيف قدَّر. ثم نظر. ثم عَبَس وبَسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر﴾.

وقوله: ﴿ولنُبَيِّنَه لقوم يعلَمُون﴾ أي: ولنوضِّحه لقوم يعلَمُون الحقَّ فيتبعونه، والباطلَ فيجتَنِبُونه. فللّه تعالى الحكمة في إضلالِ أولئكَ، وبيان الحقِّ لهؤلاء. كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ به كثيراً ويَهدي به كثيراً﴾... الآية. وقال تعالى: ﴿ليجعَلَ ما يُلقي الشيطانُ فتنةً للذين في قُلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبهم وإنَّ الظالمين لفي شقاقٍ بعيدٍ. وليعلَمَ الذين أوتوا العِلْمَ أنه الحقُّ من ربِّك فيؤمنوا به فتُخبت له قُلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾، وقال تعالى: ﴿وما جعلنا أصحابَ النار إلا ملائكةً، وما جعلنا عدَّتَهم إلا فتنةً للذين كفروا، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيماناً، ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنونَ، وليقولَ الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً، كذلك يُضِلُّ الله مَنْ يشاء ويَهدي من يشاء، وما يعلَمُ جنودَ ربِّك إلا هو﴾. وقال: ﴿ونُنَزِّل من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، ولا يزيدُ الظالمين إلا خساراً﴾. وقال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عَمى، أولئك ينادَون من مكانٍ بعيد﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هُدًى للمتقين، وأنه يُضلُّ به من يشاء ويهدي من يشاء. ولهذا قال ها هنا: ﴿وكذلك نُصرِّف الآياتِ وليقولوا: دَارَسْتَ ولنبينه لقوم يعلمون﴾، وقرأ بعضُهم: ﴿وليقولوا دَرَسْتَ﴾[2].

قال التميمي، عن ابن عباس: دَرَسْت، أي: «قرأت وتَعلَّمتَ»[3]. وكذا قال مجاهد، والسدِّيُّ، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمر، قال الحسن: ﴿وليقولوا دَرَسَتْ﴾، يقول: تقادَمَتْ وانمحَتْ.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أنبأنا ابن عُيَينة، عن عَمْرو بن دينار، سَمِعتُ ابنَ الزُّبير يقول: إنَّ صبياناً يقرءون ها هنا: ﴿دَارَسْتَ﴾، وإنما هي ﴿دَرَسْتَ﴾[4].

وقال شعبة: حدثنا أبو إسحاق الهَمْداني قال: في قراءة ابنِ مسعود ﴿دَرَسْتَ﴾، بغيرِ ألفٍ، بنَصْب السِّين، ووَقْفِ التاء.

---

(١) المعجم الكبير ١٣٧/١١.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو: ﴿ دارست ﴾، والباقون: ﴿ دَرَسْتَ ﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤١.

(٣) تفسير الطبري ٣٠٦/٧.

(٤) تفسير الطبري ٣٠٨/٧.

وقال ابنُ جرير: معناه انمحَتْ وتقادمتْ، أي: إنَّ هذا الذي تتلُوه علينا قد مرَّ بنا قديماً، وتطاولَت مُدَّته(١).

وقال سَعِيدُ بن أبي عَرُوبة، عن قتادةَ أنه قرأها: ﴿دُرِست﴾، أي: قُرِئت وَتُعُلِّمَتْ.

وقال معمر، عن قتادة: ﴿دُرِست﴾. قُرِئت. وفي حرف ابن مسعود (دَرَس)(١).

وقال أبو عُبَيد القاسم بن سَلَّام، حدثنا حَجَّاج، عن هارونَ قال: هي في حَرْفِ أُبيِّ بن كعبٍ وابنِ مسعودٍ: (وليقولوا دَرَس)، قال: يَعنونَ النبي - ﷺ - أنه قرأ.

وهذا غريب، فقد رُوِي عن أُبيِّ بن كعب خلاف هذا، قال أبو بكر بن مَرْدُويه:

حدثنا محمَّد بن أحمدَ بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن الليث، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا أحمدُ بن أبي بَزَّة المكي، حدثنا وَهب بن زَمْعَة، عن أبيه، عن حُميدٍ الأعرجِ، عن مجاهدٍ، عن ابن عباسٍ، عن أُبيِّ بن كعب قال: أقرأني رسول الله - ﷺ -: (وليقولوا دَرَسْتَ).

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث وَهب بن زَمْعَة، وقال: يعني بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٢).

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله - ﷺ - ولمن اتَّبع طَريقته: ﴿ٱتَّبع ما أُوحيَ إليكَ من ربِّك﴾، أي: اقتدِ به، واقتَفِ أثَره، واعمَل به؛ فإنَّ ما أُوحِيَ إليكَ من ربِّك هو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه، لأنه لا إلَه إلا هو.

﴿وأعرِضْ عن المشركين﴾، أي: اعفُ عنهم واصفَح، واحتَمِلْ أذاهم، حتى يَفْتَح الله لَكَ وينصُرَك ويُظفِرَكَ عليهم. واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنَّه لو شاءَ لهدى الناسَ كُلَّهم جميعاً، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾.

﴿ولو شاءَ الله ما أَشْرَكوا﴾، أي: بل له المشيئةُ والحكمةُ فيما يشاؤهُ ويختارُه، ﴿لا يسأَلُ عما يفعلُ وهم يُسألون﴾.

وقولُه: ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾، أي: حافظاً يحفَظُ أعمالَهم وأقوالَهم. ﴿وما أنتَ عليهم بوكيل﴾، أي: مُوكَّلٍ على أرزاقِهم وأُمورِهم. ﴿إن عليك إلا البلاغُ﴾، كما قال تعالى: ﴿فذَكِّر إنما أنتَ مُذَكِّر. لستَ عليهم بمصيطر﴾، وقال: ﴿فإنما عليك البلاغُ وعلينا الحسابُ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

---

(١) تفسير الطبري ٧/٣٠٧.

(٢) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٣٨ - ٢٣٩.

يقول تعالى ناهياً لرسوله ـ ﷺ ـ والمؤمنين عن سَبِّ آلهةِ المشركين، وإن كان فيه مصلحةٌ، إلا أنه يترتَّبُ عليه مفسدةٌ أعظَمُ منها، وهي مقابَلةُ المشركين بسبِّ إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هُو، كما قال عليٌّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: «قالوا: يا محمَّد، لَتَنْتَهِيَنَّ عن سَبِّك آلهتنا، أو لنهجُوَنَّ ربَّك. فنهاهم الله أن يسبوا أوثانَهم، ﴿فيسبوا الله عَدْواً بغير علم﴾[(1)].

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن قتادةَ: كان المسلمون يسبُّون أصنام الكفار، فيسبُّ الكفارُ الله عَدْواً بغير علم، فأنزل الله: ﴿ولا تَسبُّوا الذين يَدْعُونَ من دُونِ الله﴾.

وروى ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتم، عن السدِّيِّ أنه قال في تفسير هذه الآية: لما حَضَر أبا طالب الموتُ قالت قُرَيشٌ: انطلِقُوا فَلْنَدخُل على هذا الرَّجل، فَلْنَأْمره أن يَنْهَى عنَّا ابنَ أخيه، فإنا نَستَحْيِي أن نقتلَه بعد موته، فتقول العرب: كـان يمنعه فلما مات قَتَلُوه. فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأميَّة وأبيّ ابنا خَلَفٍ، وعقبة بـن أبي مُعَيط، وعمرو بن العاص، والأسودُ بنُ البَخْتري، وبَعَثُوا رجلاً منهم يقال له: المطلب، قالوا: استأذِنْ لنا عَلَـى أبـي طالب. فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مَشْيَخَةُ قومك يُريدون الدخولَ عليك. فَأْذِن لهم عليه، فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرُنا وسيِّدنا، وإنَّ محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا، فَنُحبُّ أن تَدعُوَه فتنهاه عن ذِكْرِ آلهتنا، وَلْنَدَعْه وإلَهَهُ. فدعاه فجاء النبي ـ ﷺ ـ فقال له أبو طالب: هؤلاء قومُك وبنو عَمِّك. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما تُريدون؟ قالوا: نريد أن تَدَعنا وآلهتنا، ولنَدَعْك وإلَهك. [قال له أبو طالب: قد أنصفك قومك، فاقبل منهم]. فقال النبي ﷺ ـ: أرأيتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم معطيَّ كلمةً إن تكلمتم بها ملكتُم بها العَرَب، ودانت لكم بها العَجمُ الخراجَ[(2)]. قال أبو جهل: وأبيك لنعطينَّكها وعشرةَ أمثالها، فما هي؟ قال: قولوا: لا إله إلا الله. فأبوا واشمأزُّوا، قال أبو طالب: يا ابن أخي، قُلْ غيرها، فإنَّ قومَكَ قد فزِعُوا منها. قال: يا عَمِّ، ما أنا بالذي أقولُ غيرها، حتى يأتُوا بالشمس فَيَضعُوها في يديَّ، ولو أتوا بالشمس فَوَضَعُوها في يديَّ ما قلتُ غيرها. إرادَة أن يُؤيسهم، فغضِبُوا وقالوا: لَتَكُفَّنَّ عن شَتْمِ آلهتنا، أو لَنَشْتُمَنَّكَ ونشتُمُ من يأمرك. فذلك قوله: ﴿فيسبُّوا الله عَدْواً بغير علم﴾[(3)].

ومن هذا القبيل، وهو تَرْكُ المصلحة لمفسدةٍ أرجَحَ منها، ما جاء في الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ملعونٌ من سَبَّ والِدَيه. قالـوا: يا رسول الله، وكيف يَسُبُّ الرجلُ والِدَيه؟ قال: يَسُبُّ أبا الرجل فيسـبُّ أباه، ويَسُبُّ أمه فيَسُبُّ أمَّه[(4)]. أو كما قال عليه السلام.

وقولُه تعالى: ﴿كذلك زيَّنا لكلِّ أمةٍ عملَهم﴾، أي: وكما زَيَّنَّا لهؤلاء القوم حُبَّ أصنامهم والمحاماةَ لها والانتصارَ، كذلـك زَيَّنَّا لكلِّ أمة من الأمَم الخالية على الضلال عَمَلَهم الذي كانوا فيه، ولله الحجةُ البالغةُ والحكمةُ التامة فيما يشاؤه ويختاره. ﴿ثم إلى ربِّهم مَرْجِعُهم﴾، أي: معادُهم ومصيرُهم، ﴿فَيُنَبِّئُهم بما كانوا يعملون﴾، أي: يُجَازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ

---

(1) تفسير الطبري ٧/٣٠٩.

(2) كذا في الأصول. ولعلَّ الفعل «دان» ضُمِّنَ معنى أعطى، ويكون المعنى: وذلَّ لكم بها العجم وأعطوكم الخراج. وفي تفسير الطبري: بالخراج.

(3) تفسير الطبري ٧/٣٠٩ ـ ٣١٠.

(4) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ٩٢.

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم أقسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم، أي: حَلَفوا أيماناً مُؤكَّدة ﴿لئن جاءتهم آية﴾ أي: مُعجِزَةٌ وخارقٌ ﴿ليؤمِنُنَّ بها﴾، أي: لَيُصدقُنَّها، ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾، أي: قُل - يا محمد - لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تَعنُّتاً وكُفراً وعِناداً، لا على سبيل الهُدَى والاسترشاد: إنما تَرْجِعُ هذه الآياتُ إلى الله، إن شاءَ أجابَكُم، وإن شاء تَرَكَكُم، كما قال ابنُ جرير:

حدثنا هَنَّاد، حدثنا يُونس بن بُكَير، حدثنا أبو مَعْشَر، عن محمد بن كَعْبٍ القُرَظي قال: كَلَّم رسولُ الله - ﷺ - قريشاً، فقالوا: يا محمَّدُ، تُخبِرُنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحَجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبِرُنا أن عيسى كان يُحيي الموتى، وتُخبرنا أن ثمودَ كانت لهم ناقةٌ، فَأْتِنا من الآيات حتَّى نُصَدِّقَكَ. فقال رسول الله - ﷺ -: «أي شيء تُحِبُّون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعَلُ لنا الصَّفا ذهباً. فقال لهم: فإن فعلتُ تصدقوني؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلْتَ لنتبعنَّكَ أجمعين. فقام رسولُ الله - ﷺ - يدعو، فجاءه جبريل - عليه السلام - فقال له: ما شِئْتَ؟ إن شئتَ أصبحَ ذهباً، ولَئِنْ أرسل آية فلم يُصَدِّقوا عند ذلك لَيُعذِّبَنَّهم، وإن شِئْت فاتركهم حتى يتوب تائبهم. فقال: بل يتوب تائبهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وأقسموا بالله﴾ إلى قوله: ﴿يجهلون﴾[(١)].

وهذا مرسل، وله شواهدُ من وُجُوهٍ أُخَرَ. وقال الله تعالى: ﴿وما مَنَعنا أن نُرسِلَ بالآياتِ إلا أن كَذَّب بها الأولونَ﴾ . . . الآية.

وقولُه تعالى: ﴿وما يُشعِرُكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، قيل: المخاطبُ بـ ﴿ما يشعركم﴾ المشركون. وإليه ذَهَب مجاهد كأنه يقول لهم: وما يَدْرِيكم بِصِدْقِكم في هذه الأيمان التي تُقْسِمون بها. وعلى هذا فالقراءة: ﴿إنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقرأ بعضُهم: ﴿ أنها إذا جاءت لا تُؤمنون﴾، بالتاء المثناة من فوق[(٢)].

وقيل: المخاطب بقوله ﴿وما يشعركم﴾ المؤمنون أي: وما يُدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوزُ في: ﴿أنَّها﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم. وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ صلة[(٣)] كما في قوله: ﴿ما منعك ألا تَسجُدَ إذ أمرتـك ﴾، وقوله: ﴿وحَرَامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾، أي: ما منعك أن تسجدَ إذ أمرتـك، وحَرَام أنهم يرجعون. وتقديره في هذه الآية: وما يَدْرِيكم - أيها المؤمنون الذين يَودُّون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون؟

وقال بعضهم: «أنها» بمعنى لعلَّها. قال ابنُ جرير: «وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أُبيِّ بن كعب، قال:

---

(١) تفسير الطبري ٧/٣١١ - ٣١٢.

(٢) في الإقناع لابن الباذش ٦٤٢: ﴿ أنَّها إذا جاءت ﴾، بكسر الألف [يعني الهمزة من: أنها]: ابن كثير وأبو عَمْرو وأبو بكرٍ بخلاف عنه.
وقال يحيى عن أبي بكر: إنه لم يحفظها عن عاصم. شك أبو بكر. ﴿ لا يؤمنون ﴾ بالتاء: ابن عامر وحمزة».
وعلى هذا فقراءة ابن كثير وأبي عمرو: ﴿ وما يشعركم إنَّها إذا جاءت لا يُؤمنون ﴾، بكسر الهمزة وبالياء.
وقراءة ابن عامر وحمزة: ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا تؤمنون ﴾، بفتح الهمزة وبالتاء.
وقراءة الكسائي ونافع: ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاء لا يؤمنون ﴾، بفتح الهمزة وبالياء.
فأما عاصمٌ فقال يحيى بنُ آدم: إن لم يحفَظْ أبو بكر عنه كيف قرأ أكسر الهمزة أم فتحها؟ ويقولُ ابنُ الجزريُّ في النشر ٢/٢٦١: «وقد صحَّ الوجهان جميعاً عن أبي بكر من غير طريق يحيى».

(٣) أي: زائدة.

وقد ذُكِر عن العرب سماعاً: «اذهب إلى السوق أنّك تشتري لي شيئاً» بمعنى: لعلك تشتري. قال: وقد قيل: إن قول عَدِيّ بن زيد العباديّ من هذا:

أعاذِلُ، ما يُدريك أنّ منيّتي إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضُحَى الغَدِ

وقد اختار هذا القولَ ابنُ جريرٍ، وذكر عليه شواهِدَ من أشْعَارِ العَرَب، والله أعلم[1].

وقولُه تعالى: ﴿ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة﴾، قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لما جَحَد المشركون ما أنزل الله لم تَثْبت قلوبُهم على شيءٍ، ورُدَّتْ عن كلِّ أمرٍ.

وقال مجاهدٌ: ﴿ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارهم﴾: ونَحُولُ بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آيةٍ، فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أوّلَ مَرّةٍ[2]. وكذا قال عكرمةُ، وعبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عَبّاسٍ أنه قال: أخبر الله ما العبادُ قائلون قبل أن يقولوه، وعَمَلهم قبل أن يعملوه. قال: ولا ينبئك مثلُ خَبير: ﴿أنْ تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فَرَّطتُ في جَنْبِ الله﴾ إلى قوله ﴿لو أن لي كَرَّةً فأكونَ من المحسنين﴾، فأخبر سبحانه أنهم لو رُدّوا لم يَقْدِرُوا على الهُدَى، وقال: ﴿ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ وقال: ﴿ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، قال: لو رُدُّوا إلى الدنيا لَحِيل بينهم وبين الهُدَى، كما حُلْنا بينهم وبينه أوّل مرّة وهم في الدنيا[2].

وقولُه: ﴿ونَذَرُهم﴾، أي: نتركُهم ﴿في طغيانهم﴾. قال ابن عباس والسدّيُّ: في كفرهم. وقال أبو العالية، والربيعُ بن أنس، وقتادةُ: في ضلالهم.

﴿يعمهون﴾ قال الأعمش: يَلْعَبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، والربيع، وأبو مالك: في كفرهم يَتردَّدُون.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

يقولُ تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسَمُوا بالله جَهد أيمانهم: ﴿لئن جاءتهم آية ليؤمنُنَّ بها﴾، فنزلنا عليهم الملائكة، أي تخبرهُم بالرسالةِ من الله بتصديقِ الرُّسُل، كما سألوا فقالوا: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا﴾، و﴿قالوا لن نُؤْمِن حتى نؤتى مثل ما أوتِيَ رُسُل الله﴾، ﴿وقال الذين لا يرجُون لقاءنا لولا أُنزِل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعَتوا عُتُواً كبيراً﴾.

﴿وكلَّمهم الموتى﴾، أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، ﴿وحشَرنا عليهم كُلَّ شيء قُبُلًا﴾، قرأ بعضُهم ﴿قِبَلًا﴾، بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمعاينة. وقرأ آخرون: بِضَمِّهما، قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضاً، كما رواه عليُّ بن أبي طلحةَ والعوفيُّ، عن ابن عباس. وبه قال قتادةُ، وعبدُ الرحمن ابن زيد بن أسلَم.

وقال مجاهد ﴿قُبُلًا﴾ أفواجاً، قَبِيلًا قَبِيلًا، أي: تُعْرَضُ عليهم كلُّ أمة بعد أمة، فتخبرهم بِصِدْق الرُّسُلِ

---

(١) تفسير الطبري ٣١٣/٧.

(٢) تفسير الطبري ٣١٣/٧ - ٣١٥.

فيما جاءوهم به ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾، أي: إن الهداية إليه لا إليهم. بل يَهْدِي من يشاء ويُضِلّ من يشاء، وهو الفعَّال لما يريد، ولا يُسأل عما يفعلُ وهم يُسألون، لعلمه وحِكْمَتِه، وسُلطانِهِ وقَهْرِهِ وغَلَبَتِهِ. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿إن الذين حَقَّت عليهم كَلِمَةُ ربِّك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كلُّ آية حتَّى يرَوُا العذابَ الأليم﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما جعلنا لك ـ يا محمَّد ـ أعداءً يخالفونك ويُعَانِدُونَكَ، جعلنا لكل نبيٍّ من قَبْلِك أيضاً أعداءً، فلا يَهِيدَنَّك[١] ذلك، كما قال تعالى: ﴿وإن يُكَذِّبوك فقد كُذِّبت رسلٌ من قَبْلِك﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد كُذِّبت رسلٌ من قبلك، فَصَبروا على ما كُذِّبوا وأُوذُوا﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿ما يُقَال لك إلا ما قد قِيلَ للرُّسل من قبلك، إن ربَّك لذو مغفرةٍ وذو عقابٍ أليم﴾، وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نَبِيٍّ عَدُواً من المجرمين﴾... الآية.

وقال وَرَقَةُ بن نوفلٍ لرسول الله ـ ﷺ ـ: «لم يأت أحدٌ بمثل ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ»[٢].

وقولُه: ﴿شياطينَ الإنس والجنّ﴾ بَدَلٌ من ﴿عَدُواً﴾، أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجنّ. والشيطان: كلُّ من خرج عن نظيره بالشرّ. ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء، قَبَّحهم الله ولَعَنهم.

قال عبد الرزَّاق: أخبرنا معمرٌ، عن قتادة في قوله ﴿شياطينَ الإنس والجن﴾، قال: من الجنِ شياطينُ، ومن الإنس شياطينُ، يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ. قال قتادةُ: وبلغني أن أبا ذَرٍّ كان يوماً يصَلِّي، فقال النبي ـ ﷺ ـ «تعوَّذتَ يا أبا ذَرٍّ من شياطين الإنس والجن؟ فقال: أوَ إنَّ من الإنس لشياطينَ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: نعم»[٣].

وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذرٍّ. وقد رُوِي من وجه آخَرَ عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال ابنُ جريرٍ:

حدَّثني المثنى، حدثنا أبو صالح، حدثني معاويةُ بن صالح[٤]، عن أبي عبد الله[٥] محمد بن أَيوب وغيره من المَشْيخَة، عن ابن عائذ، عن أبي ذرٍّ أنه قال: «أتيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في مجلسٍ قد أطالَ فيه الجلوسَ، قال، فقال: يا أبا ذَرٍّ، هل صَلَّيتَ؟ قال: لا، يا رسولَ الله. قال: قم فاركَعْ ركعتين. قال: ثم جئتُ فجلستُ إليه، فقال: يا أبا ذرٍّ، هل تَعَوَّذت بالله من شياطين الجنِّ والإنس؟ قال قلت: لا، يا رسُولَ الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: نعم، هو شرٌّ من شياطين الجنِّ».

---

(١) أي: لا يُفْزِعَنْك.

(٢) فتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/٢٢، ومسلم، كتاب الإيمان ١٤٢.

(٣) تفسير الطبري ٨/٥.

(٤) في تفسير الطبري ٨/٤: «ثنى معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن أبي عبدالله محمد بن أيوب». وقد ذكر ابن أبي حاتم في الجرح ٦/١٩١ أن علي بن أبي طلحة رجلان، أحدهما شامي يروي عنه معاوية بن صالح. على أنه في ترجمة محمد بن أيوب في الجرح ٧/١٩٦ قال: «روى عن معاوية بن صالح».

(٥) ذكر في الجرح ٧/١٩٦ أن كنيته: «أبو عبد الملك».

وهذا أيضاً فيه انقطاعٌ، ورُوِي متصلاً كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيعٌ، حدثنا المسعوديُّ، أنبأني أبو عمر الدِّمشقي، عن عُبَيد بن الخشخاش، عن أبي ذرٍّ قال: أتيتُ النبي ـ ﷺ ـ وهو في المسجد، فجلست فقال: «يا أبا ذر، هل صَلَّيتَ؟ قلتُ: لا. قال: قم فَصَلِّ. قال: فقمتُ فَصَلَّيتُ، ثم جلستُ فقال: يا أبا ذرٍّ، تعوَّذ بالله من شر شياطين الإنس والجن. قال قلت: يا رسولَ الله، وللإنس شياطين؟ قال: نعم. . .» وذكر تمام الحديث بطوله[1].

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره، من حديث جعفر بن عَوْنٍ، ويعلى بن عُبَيد، وعُبَيد الله بن موسى، ثلاثتهم عن المسعوديِّ، به.

طريق أخرى عن أبي ذَرٍّ، قال ابن جَرير:

حدثني المثنى، حدثنا الحَجّاج، حدثنا حماد، عن حُمَيد بن هلال، حدثني رَجُلٌ من أهل دِمَشْق، عن عوفِ بن مالكٍ، عن أبي ذَرٍّ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يا أبا ذرٍّ، هل تعوَّذت بالله من شَرِّ شياطين الإنسِ والجنِّ؟ قال قلتُ: يا رسولَ الله، هل للإنس من شياطينُ؟ قال: نعم[2].

طريقٌ أخرى للحديث، قال ابنُ أبي حاتم:

حدثنا محمدُ بن عوف الحِمْصي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا مُعان بن رفاعة، عن علي بن يَزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: يا أبا ذرٍّ تَعوَّذت من شياطين الجن والإنس؟ قال: يا رسول الله، وهل للإنس شياطين؟ قالَ: نعم، ﴿شياطين الإنس والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غُروراً﴾.

فهذه طُرُق لهذا الحديث، ومجموعُها يُفيد قوَّته وصِحَّته، والله أعلم.

وقد روى ابنُ جَريرٍ: حدثنا ابنُ وَكيع، حدثنا أبو نُعَيم، عن شَريك، عن سعيد بن مَسْروقٍ، عن عكرمة: ﴿شياطين الإنسِ والجنِّ﴾، قال: ليس في الإنس شياطين، ولكن شَياطين الجن يُوحُون إلى شياطِينِ الإنس، وشياطين الإنس يُوحونَ إلى شياطينَ الجنِّ.

قال: وحَدَّثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيلُ، عن السدِّيِّ، عن عكرمةَ في قوله: ﴿يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً﴾. قال: للإنسيِّ شيطان، وللجنّي شيطان[3]، فيلقى شيطانُ الإنس شيطانَ الجنِّ، فَيُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً[2].

وقال أسباطٌ، عن السدِّيِّ في قوله: ﴿يُوحي بعضُهم إلى بعض﴾ في تفسير هذه الآية: أما شياطينُ الإنس فالشياطينُ التي تُضِلُّ الإنس، وشياطينُ الجنِّ الذين يُضِلُّون الجنَّ، يلتقيان، فيقول كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه: إني أضللتُ صاحبي بكذا وكذا، فأَضْلِل أنت صاحِبَكَ بكذا وكذا، فَيُعلِّم بعضهُم بعضاً[2].

فَفَهِم ابنُ جريرٍ من هذا أَنَّ المراد بشياطين الإنس عندَ عكرمةَ والسدِّيِّ: الشياطينُ من الجنِّ الذين يُضِلُّون الناسَ لا أَنَّ المراد من شياطين الإنس منهم. ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة، وأما كلام السدِّي فليس مثله في هذا المعنى، وهو محتمل، وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك، عنه، قال: إن للجنِّ شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجن،

(١) مسند أحمد ١٧٨/٥.

(٢) تفسير الطبري ٤/٨.

(٣) في نسخة: للإنس شياطين، وللجن شياطين.

فيقول هذا لهذا: أَضْلِلْه بكذا، وأَضْلِلْهُ بكذا. فهو قولُه: ﴿يوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ غُرُوراً﴾.

وعلى كلِّ حال فالصحيحُ ما تقدَّم من حديث أبي ذَرٍّ: إن للإنس شياطين منهم، وشيطانُ كلِّ شيءٍ ماردُه، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذَرٍّ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «الكلبُ الأسودُ شيطانٌ»[1]. ومعناه ـ والله أعلم ـ شيطان في الكلاب.

وقال ابن جُرَيج: قال مجاهدٌ في تفسيرِ هذه الآيةِ: كُفَّار الجنِّ شياطينُ يوحُون إلى شياطينِ الإنس ـ كفارِ الإنسِ ـ زُخْرفَ القول غُروراً.

وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قَدِمتُ على المختار فأكرمني وأنزلني حتى كاد يتعاهَدُ مبيتي بالليل، قال: فقال لي: اخرُج إلى الناس فحدِّث الناس. قال: فخرجتُ، فجاء رجل فقال: ما تقُول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى: ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾، وقال تعالى: ﴿شياطينَ الإنسِ والجنِّ يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ غُروراً﴾. قال: فَهمُّوا بي أن يأخـذُوني، فقلت: ما لكم ذاك، إني مُفتيكم وضَيفُكم[2]. فتركوني.

وإنما عَرَّضَ عكرمةُ بالمختار، وهو ابن أبي عُبَيد ـ قَبَّحه الله ـ وكان يزعمُ أنه يأتيه الوحيُ، وقد كانت أخته صَفِيَّة تحت عبد الله بن عُمَر، وكانت من الصالحات، ولما أُخبِرَ عبد الله بن عُمَر أن المختار يزعمُ أنه يوحَى إليه قال: صدق الله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحُون إلى أوليائهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القول غروراً﴾، أي: يلقي بعضهم إلى بعض القولَ المزيَّن المُزَخرفَ، وهو المزوَّق الذي يغترُّ سامِعُه من الجَهلَةِ بأمره.

﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾، أي: وذلك كلُّه بقَدرِ الله وقَضَائه وإرادته ومَشِيئَتِهِ أن يكونَ لكلِّ نبيٍّ عدوٌّ من هؤلاء.

﴿فَذَرْهُم﴾، أي: فَدَعْهُم، ﴿وما يفترُون﴾، أي: يكذبون. أي: دَعْ أذاهم وتوكَّل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرُك عليهم.

وقولُه تعالى: ﴿ولتصغَى إليه﴾، أي: ولِتَمِيلَ إليه. قاله ابنُ عباس، ﴿أفئدةُ الذين لا يُؤمِنُونَ بالآخرة﴾، أي: قُلُوبُهم وعقولُهم وأسماعهم.

وقال السدِّيُّ: قلوب الكافرين، ﴿وليرضَوه﴾، أي: يحبُّوه ويريدوه. وإنما يَستَجيبُ لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿فإنَّكم وما تعبدُون. ما أنتم عليه بفاتِنِين. إلا من هو صالِ الجحيم﴾، وقال تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف. يُؤفَكُ عنه من أُفِك﴾.

وقولُه: ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾، قال عليّ بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس: وليكتَسِبُوا ما هم مُكْتَسِبُون.

وقال السدِّيُّ، وابنُ زيدٍ: وليعملُوا ما هم عاملون.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ

(١) مسلم، كتاب الصلاة ٣٦٥.

(٢) في نسخة: وصفيكم.

مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ـ ﷺ ـ: قل لهؤلاء المشركينَ بالله غيرَه الذين يعبدون غَيْرَه: ﴿أفغيرَ الله أبتغي حَكَماً﴾، أي: بيني وبينكم: ﴿وهو الذي أنزل إليكُم الكتابَ مُفصَّلاً﴾، أي: مُبيَّناً ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾، أي: من اليهود والنصارى يعلمُون أنه مُنزَّلٌ من ربِّك بالحقِّ، أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدِّمين، ﴿فلا تكونَنَّ من الممترين﴾، كقوله: ﴿فإن كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليكَ، فاسألِ الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين﴾. وهذا شرطٌ، والشرط لا يقتضي وقوعَه، ولهذا جاءَ عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا أشكُّ ولا أسألُ»(١).

وقولُه تعالى: ﴿وتَمَّت كلمةُ ربِّك صدقاً وعدلاً﴾، قال قتادة: صدقاً فيما وَعَدَ(٢)، وعدلاً فيما حَكَم(٣).

يقول: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الطلب، فكلُّ ما أخبر به فحقٌّ لا مِرْيَةَ فيه ولا شكَّ، وكلُّ ما أَمَرَ به فهو العدلُ الذي لا عَدْلَ سواه، وكل ما نَهى عنه فباطلٌ، فإنه لا ينهى إلا عن مَفْسَدةٍ، كما قال: ﴿يأمرُهُم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر﴾. . . إلى آخر الآية.

﴿لا مبدِّلَ لكلماته﴾، أي: ليس أحد سواه يُعَقِّب حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وهو السميعُ﴾ لأقوالِ عبادِه، ﴿العليمُ﴾ بحركَاتِهم وسكَنَاتِهم، الذي يُجازي كلَّ عاملٍ بعَمَلِهِ.

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

يخبرُ تعالى عن حال أكثرِ أهلِ الأرض من بني آدَمَ أنه الضَّلال، كما قال تعالى: ﴿ولقد ضَلَّ قبلهم أكثرُ الأولين﴾. وقال تعالى: ﴿وما أكثرُ الناس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين﴾، وهم في ضلالهم ليسوا على يقينٍ من أمرهم، وإنما هم في ظُنُون كاذبةٍ وحُسبان باطل، ﴿إن يتبعون إلا الظنَ وإن هم إلاَّ يخرصون﴾، فإن الخَرْص هو الحَزْرُ، ومنه خَرْصُ النخلِ، وهو حَزْرُ ما عليها من التَّمر. وذلك كُلُّه عن قَدَرِ الله ومشيئته، ﴿هو أعلَمُ من يَضِلُّ عن سَبيله﴾ فَيُيَسِّره لذلك ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ فَيُيَسِّره لذلك، وكلٌّ ميسرٌ لما خُلِق له.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

هذا إباحةٌ من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا مِنِ الذبائح ما ذكر عليه اسمُه، ومَفْهومُه أنه لا يباحُ ما لم يذكَرِ اسمُ الله عليه كما كان يَستبيحُه كفارُ المشركين من أكلِ المَيْتَاتِ، وأكل ما ذُبح على النُّصُب وغيرها. ثم نَدَب

(١) انظر تفسير الآية ٩٤ من سورة يونس.
(٢) في نسخة: «صدقاً فيما قال».
(٣) تفسير الطبري ٨/٩.

إلى الأكلِ مما ذُكِر اسمُ الله عليه، فقال: ﴿وما لكم ألَّا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فَصَّلَ ما حَرَّم عليكم﴾، أي: قد بَيَّن لكم ما حَرَّمَهُ عليكم وَوَضحه.

وقرأ[1] بعضهم ﴿فَصَّل﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكلُّ بمعنى البيانِ والوضوح.

﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾، أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يُبَاحُ لكم ما وَجَدتُم.

ثم بَيَّن تعالى جهالةِ المشركين في آرائهم الفاسِدَة، من استحلالهم الميتاتِ وما ذُكِر عليه غيرُ اسم الله تعالى، فقال: ﴿وإنَّ كثيراً لَيُضِلُّون بأهوائهم بغير علم إنَّ ربك هو أعلَمُ بالمعتدين﴾، أي: هو أعلم باعتدائهم وكَذِبهم وافترائهم.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

قال مجاهدٌ: ﴿وذَرُوا ظاهِرَ الإثم وباطنه﴾: مَعْصِيته في السرِّ والعلانية. وفي رواية عنه قال: هو ما ينوي مما هو عامل[2]. وقال قتادةُ: ﴿وذَرُوا ظاهر الإثم وباطنه﴾، أي: قليله وكثيرَه، سره وعَلَانيته. وقال السدّي: ظاهره: الزنا مع البغايا ذواتِ الراياتِ، وباطنه: الزنا مع الخليلة والصدائِقِ والأخدان. وقال عكرمة: ظاهره نكاحُ ذوات المحارم.

والصحيحُ أن الآية عامة في ذلك كلِّه، وهي كقوله تعالى: ﴿قل: إنما حَرَّم رَبِّي الفواحشَ ما ظَهَر منها وما بطن﴾... الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكسِبُون الإثم سَيُجزَون بما كانوا يقترفون﴾، أي: سواءٌ كان ظاهراً أو خَفِيّاً، فإن الله سَيَجزِيهم عليه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحَسَنُ بن عَرَفَة، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن معاويةَ بن صالح، عن عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير، عن أبيه، عن النوَّاس بن سِمْعان قال: سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن الإثم فقال: «الإثمُ ما حاك في صَدْرِكَ، وكَرِهْتَ أن يَطَّلِع الناسُ عليه»[3].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

استدلَّ بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تَحِلُّ الذبيحة التي لم يُذكَر اسمُ الله عليها، ولو كان الذابحُ مسلماً، وقد اختلف الأئمةُ ـ رحمهم الله ـ في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحلُّ هذه الذبيحةُ بهذه الصفة، وسواءٌ كان متروكُ التسميةِ عمداً وسهواً. وهو مرويٌّ عن ابن عُمَر، ونافع مولاه، وعامر الشَّعبي، ومحمد بن سِيرين. وهو روايةٌ عن الإمام مالكٍ، ورواية عن أحمد ابن حنبلٍ نصرها طائفةٌ من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبي ثَورٍ، وداودَ الظاهريِّ، واختار ذلك

(١) أما قراءة التشديد فهي سبعية، وأما التخفيف فمروي عن عطية العوفي، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٤/٢١١، وتفسير الطبري ٨/١٢.

(٢) انظر تفسير الطبري ٨/١٤.

(٣) أخرجه أحمد ومسلم بإسنادهما إلى عبد الرحمن بن مهدي، المسند ٤/١٨٢، ومسلم، كتاب البرّ ١٩٨٠.

أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي، من متأخري الشافعية في كتابه «الأربعين». واحتجُّوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصَّيد: ﴿فكُلُوا مما أمسكْنَ عليكم واذكُروا اسم الله عليه﴾. ثم قد أُكِّد في هذه الآية بقوله: ﴿وإنه لَفِسقٌ﴾. والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائدٌ على الذَّبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذَّبح والصَّيد، كحديثَيْ عَدِيِّ بن حاتِمٍ وأبي ثعلبَة: «إذا أرسلت كَلْبَكَ المعلَّم وذكرتَ اسمَ الله عليه فكُلْ ما أمسَكَ عليك». وهما في الصَّحيحين[1]، وحديث رافع بن خَدِيج: «ما أنهَرَ الدَّم وذُكِر اسمُ الله عليه فكلوه». وهو في الصحيحين[2] أيضاً، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال للجنِّ: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِر اسمُ الله عليه» رواه مسلم[3]. وحديث جُنْدَب بن سفيانَ البَجَلِيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من ذَبَحَ قبل أن يُصَلِّي فَلْيَذْبَحْ مكانَها أُخرَى. ومن لم يكن ذَبَح حتى صَلَّينا فَلْيَذْبَح باسم الله»[4]، أخرجاه. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إن قوماً يأتوننا باللحم لا نَدْري: أَذُكِر اسمُ الله عليه أم لا؟ قال: سَمُّوا عليه أنتم وكُلُوا. قالت: وكانوا حَدِيثِي عَهْدٍ بالكفر. رواه البخاري[5].

ووجهُ الدَّلالة أنهم فَهِموا أَنَّ التسميةَ لا بدَّ منها، وأَنَّهم خَشُوا أَلَّا تكون وُجِدت من أولئك، لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعِوَض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وُجِدت، وأَمَرَهم بإجراء أحكام المسلمين على السَّداد، والله تعالى أعلم.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يُشتَرَطُ التسميةُ، بل هي مُستحبَّةٌ، فإن تُرِكت عمداً أو نسياناً لم تضرَّ. وهذا مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ وجميع أصحابه، وروايةٌ عن الإمام أحمد، نقلها عنه حَنْبَل[6]. وهو رواية عن الإمام مالك، ونصَّ على ذلك أشهبُ بن عبد العزيز من أصحابه، وحُكِي عن ابن عباس، وأبي هُرَيرة، وعطاء بن أبي رَباح، والله أعلم.

وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ على ما ذُبِح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أو فِسْقاً أُهِلَّ لغير الله به﴾.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاءٍ: ﴿ولا تأكُلوا مما لم يُذْكر اسمُ الله عليه﴾، قال: ينهَى عن ذبائح كانت تَذبحُها قريشٌ على الأوثان، وينهَى عن ذبائح المجوس.

وهذا المسلكُ الذي طَرَقه الإمام الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ قويٌّ، وقد حاولَ بعضُ المتأخرين أن يُقَوِّيه بأن جعل «الواو» في قوله: «﴿وإنه لفسقٌ﴾ حاليةً، أي: لا تأكلوا مما لم يُذْكَر اسم الله عليه في حال كَوْنِه فِسقاً، ولا يكون فِسقاً حتى يكون قد أُهِلَّ به لغير الله. ثم ادَّعى أنَّ هذا متعيِّن، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة، لأنه يلزَمُ منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية. وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وإنَّ الشياطين ليوحُونَ إلى أوليائهم﴾، فإنها عاطفةٌ لا محالَةَ، فإن كانت «الواو» التي ادَّعي أنها حاليَّةٌ صحيحةً على ما قال امتنع عَطْفُ

---

(١) تقدَّم الحديثان عند تفسير الآية الرابعة من سورة المائدة، وخرجناهما هناك.

(٢) فتح الباري، كتاب الذبائح ٦٣١/٩، ومسلم، كتاب الأضاحي ١٥٥٨.

(٣) مسلم، كتاب الصلاة ٣٣٢.

(٤) فتح الباري، كتاب الذبائح ٦٣٠/٩، ومسلم، كتاب الأضاحي ١٥٥١.

(٥) فتح الباري، كتاب الذبائح ٦٣٤/٩.

(٦) هو حَنْبَلُ بنُ إسحاق بن حَنْبَل، ابنُ عَمِّ الإمام أحمد. انظر تهذيب الكمال ٤٤٠/١.

هذه عليها، فإن عطفت على الطلبية وَرَد عليه ما أُورِدَ على غيره، وإن لم تكن «الواو» حاليَّة بطل ما قال مِن أصْلِه، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أنبأنا جَرير، عن عطاءٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قولَه: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾، قال: هي المَيْتَةُ.

ثم رواه، عن أبي زُرعة، عن يحيى بن بُكَير[(١)]، عن ابن لَهيعة، عن عطاء، وهو ابن السائب[(٢)]، به.

وقد استُدِلَّ لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل، من حديث ثَور بن يزيد، عن الصَّلْتِ السَّدُوسي ـ مولى سُوَيد بن مَنْجُوفٍ، أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حِبَّان في كتاب الثِّقات ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ذبيحةُ المسلم حلالٌ ذَكَر اسم الله أو لم يَذْكُر، إنه إنْ ذكر لم يَذْكُرِ إلا اسم الله».

وهذا مرسل يُعَضِّدُ بما رواه الدارقطنيُّ عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذَبَح المسلم ولم يَذْكُرِ اسم الله فليأكُل، فإنَّ المسلم فيه اسمٌ من أسماء الله[(٣)]».

واحتجَّ البيهقيُّ أيضاً بحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ المتقدّم أن [ناساً قالوا: يا رسول الله، إنّ] قوماً حديثي عهدٍ بجاهلية يأتونا بلحم لا نَدْري أَذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سَمُّوا أنتم وكلُوا. قال: فلو كان وجودُ التسميةِ شرطاً لم يُرَخص لهم إلا مع تحققها[(٤)]، والله أعلم.

المذهبُ الثالثُ في المسألة: أنَّه إن تَرَكَ التَّسمية على الذبيحة نسياناً لم يضرَّ، وإن تَركها عمداً لم تَحِلَّ.

هذا هو المشهورُ من مذهب الإمام مالكٍ، وأحمدَ بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفةَ وأصحابُه، وإسحاق بن راهَوَيه. وهو محكيٌّ عن علي، وابن عباس، وسعيد بن المسيَّب، وعطاء، وطاوسَ، والحسن البصري، وأبي مالك، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد، وربيعةَ بن أبي عبدِ الرحمن.

ونقل الإمام أبو الحسن المَرْغِينَانِيُّ في كتابه «الهداية» الإجماعَ قبلَ الشافعي، على تحريمِ متروكِ التسمية عمداً، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ: لو حَكَم حاكمٌ بجوازِ بيعه لم يَنفُذْ لمخالفة الإجماع.

وهذا الذي قاله غريبٌ جداً، وقد تقدَّم نقلُ الخلاف عمَّن قَبْلَ الشافعي، والله أعلم.

وقال الإمام أبو جعفر بنُ جَريرٍ: من حَرَّمَ ذبيحةَ الناسي، فقد خَرَج من قول جميعِ الحُجَّة، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ـ ﷺ ـ في ذلك[(٥)].

يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا[(٦)] أبو عبدالله الحافظ، حدثنا أبو العباس الأصمُّ، حدثنا أبو أمية الطَّرَسُوسيُّ، حدثنا محمد بن يزيدَ، حدثنا مَعْقِلُ بن عُبَيد الله، عن عَمرو بن دينار، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: المسلم يَكفيه اسمُه، إن نَسِي أن يُسمِّي حين يَذْبَح، فَلْيَذْكرِ اسم الله ولْيأكُلْه»[(٤)].

---

(١) في بعض النسخ: يحيى بن عبدالله بن كثير. وهو خطأ. ويحيى بن بكير هو: ابن عبدالله بن بكير المصري، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٦٥/٩. يروي عن ابن لهيعة، وعنه أبو زرعة.

(٢) كذا قال ابن كثير، ويتردد هذا السند كثيراً في تفسير ابن أبي حاتم، ويصرِّح فيه بأنه: عطاءُ بن دينار.

(٣) سنن الدارقطني، باب الصيد والذبائح ٢٩٥/٤ ـ ٢٩٦.

(٤) انظر سنن البيهقي، كتاب الصيد والذبائح ٢٣٩/٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/٨.

(٦) راجع سند هذا الحديث في السنن.

وهذا الحديثُ رفعهُ خطأٌ، أخطأ فيه مَعقِل بن عبيد الله الجَزيري، فإنه ـ وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور، وعبد الله بن الزُّبير الحُمَيدي رَوَياه عن سفيان بن عُيَينة، عن عمرو، عن أبي الشعثاء، عن عكرمةَ، عن ابن عباس، من قوله. فزادا في إسناده «أبا الشعثاء»، وَوَقفاه. وهذا أصحُّ، نَصَّ عليه البيهقيُّ وغيره من الحفاظ، والله تعالى أعلم.

وقد نقل ابنُ جرير وغيره. عن الشعبي ومحمد بن سيرين، أنهما كَرِها متروكَ التسمية نسياناً[1]، والسَّلَفُ يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً والله أعلم؛ إلا أن من قاعدة ابن جَرير أنه لا يعتبر قولَ الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور، فَيَعدُّه إجماعاً، فَلْيُعلَم هذا، والله الموفق.

قال ابن جَرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن جُهير[2] بن يزيد قال: سُئِل الحَسَنُ، سأله رجل: أُتِيتُ بطير كَذَا[3]، فمنه ما قد ذُبِح فَذُكِر اسم الله عليه، ومنه ما نُسِي أن يُذكر اسمُ الله عليه، واختلط الطيرُ، فقال الحسن: كُلْه كُلَّه. قال: وسألتُ محمَّدَ بن سِيرينَ فقال: قال الله: ﴿ولا تأكُلُوا مما لم يُذكَر اسمُ الله عليه﴾.

واحتُجَّ لهذا المذهب بالحديث المرويِّ من طُرُقٍ عند ابن ماجه، عن ابن عباس، وأبي هُرَيرة، وعن أبي ذَرٍّ، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو، عن النبي ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله وَضَعَ عن أمتي الخطأَ والنسيان، وما استُكرِهُوا عليه»[4]. وفيه نظر، والله أعلم.

وقد رَوَى الحافظُ أبو أحمد بن عَدِيّ، من حديث مَرْوان بن سالم القَرْقَسانِيِّ، عن الأوزاعيِّ، عن يحيى ابن أبي كثير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة قال: جاء رجلٌ إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، أرأيتَ الرجلَ مِنَّا يذبحُ وينسَى أن يُسَمِّي؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: اسمُ الله على كلِّ مسلم.

ولكن هذا إسنادٌ ضعيفٌ، فإن مروان بن سالم القَرْقَسانِيَّ أبا عبد الله الشامـيَّ ضَعِيف، تَكَلَّم فيه غيرُ واحدٍ من الأئمة، والله أعلم.

وقد أفردتُ هذه المسألةَ على حِدَةٍ، وذكرتُ مذاهِبَ الأئمة ومآخذَهم وأدلَّتهم، وَوَجْهَ الدلالاتِ والمناقضات والمعارضات، والله أعلم.

قال ابنُ جَرير: وقد اختلف أهلُ العلم في هذه الآية: هل نُسِخ من حكمها شيءٌ أم لا؟ فقال بعضُهم: لم يُنسَخ منها شيءٌ وهي مُحكمة فيما عُنِيتْ به. وعلى هذا القول عامَّةُ أهلِ العلم.

ورُوِي عن الحَسَن البصري وعكرمةَ ما حدثنا به ابن حُمَيد: حدثنا يحيى بن واضح، عن الحُسَين بن وَاقِدٍ، [عن يزيد][5] عن عكرمةَ والحسنِ البصريِّ قالا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مما ذُكِر اسم الله عليه إن كنتم بآياته

(١) انظر تفسير الطبري ٨/١٩ - ٢٠.

(٢) هو أبو حفص جهير بن يزيد العبدي، من عبد القيس، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٥٤٧. وفي تفسير الطبري ٨/١٩: حميد بن يزيد. وهو تحريف.

(٣) هكذا في نسختنا، ولعلَّ «كذا» كناية عن عَدَدٍ مجهول. وقد أثبت الأستاذ محمود شاكر في تحقيقه للطبري ١٢/٨٤: طير كَرَىً، وقال: «كرىً ـ بفتحتين ـ جمع كَرَوان، وهو طائر بين الدجاجة والحمامة، حسن الصوت، يؤكل لحمه».

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الطلاق ٦٥٩.

(٥) عن تفسير الطبري ٨/٢١. ويزيد هذا هو ـ والله أعلم ـ يزيد النحوي أبو الحسن يزيد بن أبي سعيد، روى عن عكرمة، وعنه الحسين بن واقد. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/٢٧٠.

مؤمنين﴾ وقال: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكَر اسم الله عليه وإنه لفسقٌ﴾، فَنُسِخ واستثنى من ذلك، فقال: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم﴾.

وقال ابن أبي حاتم: قُرِئ على العباس بن الوليد بن مَزْيَدَ، حدثنا محمد بن شُعَيب، أخبرني النعمان ـ يعني ابن المنذر ـ عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذْكَر اسمُ الله عليه﴾، ثم نسخها الربُّ ورَحِم المسلمين فقال: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾، فنسخها بذلك وأحلَّ طعام أهل الكتاب.

ثم قال ابنُ جَرِير: والصواب أنه لا تعارض بين حِلِّ طعامِ أهلِ الكتاب، وبين تحريم ما لم يُذكر اسمُ الله عليه.

وهذا الذي قاله صحيحٌ، ومن أطلق من السَّلَفِ النسخَ ها هنا فإنما أراد التَّخْصِيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحُونَ إلى أوليائهم﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبي إسحاقَ قال: قال رجلٌ لابن عُمر: إن المختار يزعمُ أنه يُوحَى إليه؟ قال: صَدَق، وتلا هذه الآية: ﴿وإن الشياطين ليوحُون إلى أوليائهم﴾.

وحدثنا أبي، حدثنا أبو حُذَيفة، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زُمَيل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، وحَجَّ المختار بن أبي عُبَيد، فجاءه رجل فقال: يا ابن عَبَّاس، زعم أبو إسحاق أنه أُوحي إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صَدَق، فَنَفرْتُ وقلت: يقول ابن عباس صَدَق! فقال ابن عباس: هما وحيان، وَحْي الله، ووحْيُ الشيطانِ، فوحيُ الله إلى محمد ـ ﷺ ـ ووحي الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وإن الشياطين لَيُوحُون إلى أوليائهم﴾.

وقد تَقَدَّم عن عكرمة في: ﴿يوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً﴾ نحو هذا[١].

وقوله تعالى: ﴿ليجادلوكم﴾، قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا عمران بن عُيَينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير قال: خاصَمَتِ اليهودُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قَتَل الله؟ فأنزل الله: ﴿ولا تأكُلوا مما لم يُذكَرِ اسم الله عليه وإنه لفِسقٌ﴾.

هكذا رواه مرسلاً، ورواه أبو داود متصلاً فقال.

حدثنا عثمانُ بن أبي شَيبَةَ، حدثنا عمران بن عُيَينة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: جاءت اليهودُ إلى النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: نأكُلُ مما قتلنا ولا نأكُلُ مما قَتَل الله؟! فأنزل الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾... الآية[٢].

وكذا رواه ابن جَرير، عن محمد بن عبد الأعلى وسفيانَ بن وَكيع كلاهما عن عمران بن عُيَينة، به[٢].

ورواه البزار عن محمد بن موسى الحَرَشِيِّ، عن عمران بن عُيَينة، به.

وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة:

---

(١) انظر تفسير الآية ١١٢ من هذه السورة.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأضاحي ١٠١/٣. وتفسير الطبري ١٨/٨ ـ ١٩.

أحدها: أن اليهودَ لا يَرون إباحة المَيْتَةِ حَتَّى يُجَادِلوا. الثاني: أن الآية من الأنعام، وهي مكية.

الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذيُّ عن محمد بن موسى الحَرَشِيِّ، عن زياد بن عبد الله البَكَّائي، عن عطاء بـن السائب، عن سعيد بنِ جُبَير، عن ابن عباس. ورواه الترمِذِيُّ بلفظ: «أتى ناسٌ النبيَّ ـ ﷺ. . .» فذكره وقال: حَسَن غريب، ورُوِي عن سَعِيد بن جُبَير مرسلاً[١].

وقال الطَّبَراني: حدثنا عَليّ بن المبارك، حدثنا زيد بن المُبَارك، حدثنا موسى بن عبد العزيز، حدثنا الحَكَم بن أَبَانَ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: لما نزلَتْ: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذْكَر اسم الله عليه﴾، أرسلت فارسُ إلى قُرَيش: أن خاصِمُوا محمداً وقولوا له: كَمَا[٢] تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال، وما ذبح الله ـ عز وجل ـ بشمشير من ذهب ـ يعني الميتة ـ فهو حَرَام. فنزلت هذه الآيةُ: ﴿وإن الشياطينَ لَيُوحُونَ إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ قال: الشياطينُ من فارس، وأولياؤهم قُرَيش[٣].

وقال أبو داودَ: حدثنا محمد بن كَثِير، أخبرنا إسرائيلُ، حدثنا سِمَاك، عن عكرمةَ، عن ابن عباس في قولـه: ﴿ وإن الشياطين ليوحُونَ إلى أوليائهم﴾، يقولون: ما ذَبَح الله فلا تأكلوه. وما ذبحتم أنتم فكُلُوه، فأنزل الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾[٤].

ورواه ابن ماجه[٤] وابن أبي حاتم، عن عَمرو بن عبد الله، عن وكيع، عن إسرائيلَ، به. وهذا إسناد صحيح[٤].

ورواه ابنُ جرير[٥] من طُرُق مُتعدِّدة، عن ابن عباس، وليس فيه ذكرُ اليهود، فهذا هو المحفوظ[٦]، والله أعلم.

[[٧]ـوقال ابن جرير: حدثنا ابن وَكيع، حدثنا جَرير، عن عطاءٍ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ولا تأكُلوا مما لم يُذْكر اسم الله عليه﴾، إلى قوله: ﴿ليجادلوكم﴾، قال: يقول: يوحي الشياطين إلى أوليائهم تأكلون مما قتلتُم، ولا تأكلون مما قتل الله! قال: إن الذين قتلتُم يذكر اسمُ الله عليه، وإنّ الذي قد مات لم يذكر اسم الله عليه ـ[٧]].

وقال ابنُ جُرَيج: قال عَمرو بن دينار، عن عكرمةَ: إنَّ مشركي قُرَيش كاتبوا فارس على الروم، وكاتبتهم فارس، وكتَبَتْ فارسُ إلى مشركي قُرَيش: «إنَّ محمداً وأصحابه يزعمون أنَّهم يتبعون أمر الله، فما ذَبَح الله بسِكِّين من ذَهَبٍ فلا يأكُلُه [محمد وأصحابه، للمَيْتَة]، وأما ما ذَبَحُوا هم يأكُلون. فكَتَبَ بذلك المشركون إلى أصحاب محمد ـ ﷺ ـ فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيءٌ، فأنزل الله: ﴿وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون﴾. . . الآية ونزلت: ﴿يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرفَ القول غُروراً﴾[٨].

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنعام ١١/١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) في المعجم الكبير: ما تذبح.

(٣) المعجم الكبير ١١/٢٤١.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الأضاحي ٣/١٠١، وابن ماجه، كتاب الذبائح ١٠٥٩.

(٥) تفسير الطبري ٨/١٨.

(٦) بعده في نسخة: «لأن الآية مكية، واليهود لا يُبيحون الميتة. وفي بعض ألفاظه عن ابن عباس: إن الذي قتلتم ذكر اسم الله عليه، وإن الذي مات لم يذكر اسم الله عليه».

(٧) ما بين القوسين عن نسخة، والأثر في تفسير الطبري ٨/١٨.

(٨) تفسير الطبري ٨/١٦. وما بين القوسين عنه.

وقال السدّيُّ في تفسير هذه الآية: إنَّ المشركين قالوا للمؤمنين: كيف تَزْعُمون أنكم تتَّبعون مرضاةَ الله، وما ذَبَح الله فلا تأكلونه، وما ذبحتُم أنتم أكلتُموه؟ فقال الله: ﴿لئن أطعتموهم﴾ فأكلتم الميتةَ، ﴿إنكم لمشركون﴾[١].

وهكذا قاله مجاهدٌ، والضحَّاكُ، وغيرُ واحدٍ من عُلَماء السَّلَفِ، رَحِمهم الله.

وقولُه تعالى: ﴿وإن أطَعْتُموهم إنَّكم لمشرِكُونَ﴾، أي: حيثُ عَدَلتُم عن أمر الله لكم وشَرْعِهِ إلى قول غيره، فَقَدَّمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخذُوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾... الآية، وقد رَوَى الترمذي في تفسيرها عن عَدِيّ بن حاتم أنه قال: يا رسولَ الله، ما عَبَدُوهم، فقال: بل إنهم أَحَلُّوا لهم الحرام وحَرَّموا عليهم الحلال، فاتَّبعُوهم، فذلك عبادتهم إياهم[٢].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا مثلٌ ضربَه الله تعالى للمؤمن الذي كان مَيْتاً، أي: في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له وَوَفَّقه لاتباع رسله. ﴿وجعلنا له نُوراً يَمشِي به في الناس﴾، أي: يهتدي كيفَ يُسلك وكيفَ يتصرَّفُ به. والنور هو القرآن، كما رواه العَوْفِي وابنُ أبي طلحة، عن ابن عباس. وقال السدّيُّ: الإسلام[٣]. والكلُّ صَحيحٌ.

﴿كمن مثلُه في الظُّلُمات﴾، أي: الجَهالات والأهواء والضَّلالات المتفرِّقة، ﴿ليس بخارج منها﴾، أي: لا يهتدي إلى مَنْفَذٍ، ولا يخلص مما هو فيه، [وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ[٤]]. كما قال تعالى: ﴿الله وليُّ الذين آمنوا، يُخرجُهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوتُ يخرجُونَهم من النور إلى الظلمات، أولئكَ أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾. وكما قال تعالى: ﴿أفمن يمشي مُكبّاً على وَجْهِهِ أهدى أم من يَمْشِي سَويّاً على صراط مستقيم﴾، وقال تعالى: ﴿مثلُ الفريقَين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون﴾، وقال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصيرُ. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحَرُور. وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ، إن الله يُسمعُ من يشاءُ وما أنت بمسمعٍ من في القبور. إن أنت إلا نذير﴾. والآيات في هذا كثيرة، ووجهُ المناسبةِ في ضَرْبِ المثلين ها هنا بالنور والظُّلمات، ما تقدَّم في أول السورة: ﴿وجعَلَ الظلماتِ والنُّورَ﴾.

وقد زَعَم بعضُهم أنَّ المراد بهذا المَثَل رَجُلان مُعَيَّنان[٥]، فقيل: عُمَر بن الخطاب هو الذي كان مَيْتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وقيل: عَمَّار بن ياسر. وأما الذي في الظُّلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام، لعنه الله. والصحيحُ أن الآية عامة، يدخُلُ فيها كلُّ مؤمنٍ وكافرٍ.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/٨.

(٢) عارضة الأحوذي، تفسير سورة التوبة ١١/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/٨.

(٤) ما بين القوسين عن نسخة. وحديث أحمد في مسنده ١٧٦/٢، ١٩٧.

(٥) في نسخة: مُعيَّنان.

وقولُه تعالى: ﴿كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾، أي: حَسَّنا لهم ما هم فيه من الجَهالة والضلالة، قَدَراً من الله وحِكمةً بالغةً، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وكما جَعَلنا في قَرْيَتِكَ ـ يا محمَّدُ ـ أكابر من المُجرمين، ورؤساءَ ودعاةً إلى الكفر والصدِّ عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسُل من قبلك يُبْتَلَون بذلك، ثم تكون لهم العاقبةُ، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جَعَلنا لكل نبيٍّ عَدُوّاً من المجرمين﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نُهلِكَ قريةً أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها﴾... الآية، قيل: معناه أمرناهم بالطاعات فَخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمراً قَدَرياً، كما قال ها هنا: ﴿ليمكُروا فيها﴾.

وقال ابنُ أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿أكابر مجرميها﴾، قال: سلَّطنا شرارها فَعَصَوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب.

وقال مجاهد وقتادةُ: ﴿أكابر مُجرميها﴾ قال: عُظَماءَها.

قلتُ: وهذا كقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نَذير إلا قال مترَفُوها إنا بما أُرسِلْتُم به كافرون. وقالوا نحن أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحنُ بمعذَّبين﴾. وقال تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مُترفُوها: إنا وَجَدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون﴾.

والمرادُ بالمكر ها هنا دعاؤهم إلى الضلالة بزُخرُف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح: ﴿ومكروا مكراً كُبّاراً﴾ وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفونَ عند ربِّهم يرجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ، يقول الذين استُضعِفُوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استُضعِفُوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استُضعِفُوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾... الآية.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيان قال: كل مكر في القرآن فهو عَمَلٌ.

وقولُه: ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾، أي: وما يَعُود وبالُ مَكْرِهم ذلك وإضلالُهم من أضلُّوه إلا على أنفُسهم، كما قال تعالى: ﴿وليحمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقال: ﴿ومن أوزارِ الذين يُضِلُّونَهم بغير علمٍ ألا ساء ما يَزِرُونَ﴾.

وقولُه: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتى مثلَ ما أوتي رُسُلُ الله﴾، أي: إذا جاءتهم آيةٌ وبرهانٌ وحُجَّةٌ قاطعةٌ، قالوا: ﴿لن نُؤمن حتى نُؤتَى مثل ما أوتي رُسُلُ الله﴾، أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرُّسُل، كقوله جَلَّ وعلا: ﴿وقال الذين لا يرجُون لقاءنا: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾... الآية.

وقولُه: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾(١)، أي: هو أعلَمُ حيثُ يضعُ رسالته ومَن يصلُح لها من خَلْقِه،

(١) كذا في نسخة الأزهر: ﴿رسالاته﴾، وبها قرأ من عدا ابن كثير وحفص اللَّذَين قرآ: (رسالته) بالإفراد. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤٣.

كما قال تعالى: ﴿وقالوا: لولا نُزِّل هذا القرآن على رَجُلٍ من القريتين عظيم. أهم يَقْسِمون رَحْمَةَ ربِّك﴾... الآية، يعنون: لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مُبَجَّل في أعينهم ﴿من القريتين﴾، أي: مكَّة والطائف. وذلك لأنهم ـ قبَّحهم الله ـ كانوا يَزْدرُون بالرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً، أهذا الذي يذكر آلهتكم، وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هُزُواً، أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد استُهزِىء برسُلٍ من قبلك، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءُون﴾. هذا وهم مُعترفُون بفضله وشَرَفه ونسبه، وطهارة بيته ومَرْباه ومَنْشَئِه، حتى إنهم كانوا يُسَمُّونه بينهم قبل أن يُوحَى إليه: الأمين. وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان، حين سأله هرقل مَلِك الروم: كيف نَسَبُه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نَسَب. قال: فهل كنتم تتَّهِمُونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. الحديثُ بطوله[1] الذي استدلّ به مَلِكُ الروم بطهارةِ صِفَاتِهِ ـ عليه السلامُ ـ على صِدْقه ونُبُوَّتِه وصِحَّة ما جاءَ به.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا محمد بن مُصعَب، حدثنا الأوزاعيُّ، عن شَدَّادٍ أبي عَمَّار، عن واثلةَ بن الأسقَعِ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله اصطفى من وَلَد إبراهيم إسماعيلَ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانةَ، واصطفى من بني كنانةَ قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشم»[2].

انفردَ بإخراجه مسلمٌ من حَديث الأوزاعيِّ، وهو عبدُ الرحمن بن عَمْرو، إمامُ أهلِ الشامِ، به نحوه[2].

وفي صحيحِ البخاري، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بُعِثْتُ من خير قُرون بني آدم قَرْناً فقَرناً، حتى بُعِثْتُ من القَرْنِ الذي كنتُ فيه»[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو نعيم، عن سفيانَ، عن يزيدَ بن أبي زيادٍ، عن عبد الله بن الحارث بن نَوفل، عن المطلب بن أبي وَدَاعةَ قال: قال العباسُ: بلغَه ـ ﷺ ـ بعضُ ما يقولُ الناسُ، فصَعَد المنبر فقال: «من أنا؟ قالوا: أنت رسولُ الله. قال: أنا محمَّدُ بن عبدالله بن عبدِ المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خَلْقِه، وجعلهم فِرْقتَين، فَجَعلني في خير فِرْقةٍ، وخَلَق القبائلَ فجَعَلني في خَيْرِ قبيلةٍ. وجعلهم بُيُوتاً فجعلني في خَيْرِهم بيتاً، فأنا خيرُكم بيتاً وخيرُكم نفساً»[4]. صدق صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الحديث أيضاً المرويِّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قال لي جبريلُ قَلَّبْتُ الأرضَ مشارقَها ومغاربَها فلم أجِدْ رجُلاً أفضلَ من محمدٍ، وقَلَّبْتُ الأرضَ مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشمٍ». رواه الحاكم والبيهقي[5].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر، حدثنا عاصم، عن زِرِّ بن حُبيشٍ، عن عبد الله بن مسعود قال: إن الله نظر في قُلوب العباد، فوجد قَلْب محمد ـ ﷺ ـ خَيْرَ قلوب العبادِ، فاصطفاه لنفسه، فابتعثَه برسالته. ثم نظر في قُلوب العباد بعد قَلْب محمد ـ ﷺ ـ فوجد قُلُوبَ أصحابه خير قلوب العباد، فَجَعلَهم وُزَراء نَبِيِّه، يقاتلون

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، انظر فتح الباري ١/٣١ـ٣٢.
(٢) مسند أحمد ٤/١٠٧، ومسلم، كتاب الفضائل ١٧٨٢.
(٣) فتح الباري، كتاب المناقب ٦/٥٦٦.
(٤) مسند الإمام أحمد ١/٢١٠.
(٥) دلائل النبوة للبيهقي ١/١٧٦.

على دينه، فما رأى المسلمونَ حسناً فهو عندَ الله حَسَنٌ، وما رأوا سَيِّئاً فهو عند الله سَيِّءٌ»[١].

وقال أحمدُ: حَدّثنا شُجاع بن الوليد قال: ذكر قابوسُ بن أبي ظَبْيان، عن أبيه، عن سَلْمَان قال: قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ يا سلمانُ، لا تُبْغِضني فتفارقَ دينك. قلت: يا رسول الله، كيف أُبغِضُك وبِكَ هدانا الله؟ قال: تُبْغِضُ العرب فَتُبغِضُني»[٢].

وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: ذِكر عن محمد بن منصور الجَوّاز، حدثنا سُفيانُ، عن ابن أبي حُسَين قال: أبصر رَجُلٌ ابنَ عباس وهو يدخلُ من باب المسجد، فلما نظر إليه راعَه، فقال: من هذا؟ فقالوا: ابنُ عباسٍ ابنُ عمِّ رسولِ الله ﷺ. قال: ﴿الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالاتِه﴾.

وقولُه تعالى: ﴿سيصيبُ الذين أجرموا صَغَارٌ عند الله وعذاب شديد﴾. . . الآية، هذا وعيدٌ شديد من الله وتهديدٌ أكيدٌ، لمن تكبر عن اتباع رُسُله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سَيُصيبه يومَ القيامة بين يدي الله ﴿صَغارٌ﴾ وهو الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلاً، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، أي: صاغرين ذَليلين حَقيرين.

وقولُه: ﴿وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون﴾، لما كان المكرُ غالباً إنما يكون خَفِيّاً، وهو التلطف في التَّحيُّلِ والخديعة، قُوبِلوا بالعذاب الشديد جزاءً وِفاقاً، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، كما قال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائرُ﴾، أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء في الصحيحين، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «يُنصَبُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ عند استِهِ يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلانِ ابن فلان»[٣].

والحكمةُ في هذا أنه لما كان الغَدْرُ خَفِيّاً لا يَطَّلعُ عليه الناسُ، فيوم القيامة يصير عَلَماً مَنْشوراً على صاحبه بما فَعَل.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فمن يُرد الله أن يَهديه يَشرَحْ صَدْرَه للإسلام﴾، أي: يُيَسِّرْه له ويُنَشِّطه ويُسهِّله لذلك، فهذه علامةٌ على الخير كما قال تعالى: ﴿أفمن شَرَحَ الله صَدْرَه للإسلام فهو على نور من ربه﴾. . . الآية، وقال تعالى: ﴿ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان وَزَيَّنه في قلوبكم، وكَرَّه إليكم الكفر والفُسُوق والعِصْيان، أولئك هم الراشدونَ﴾.

قال ابنُ عباس: ﴿فمن يُرِدِ الله أن يهديه يَشْرَح صَدْرَه للإسلام﴾، يقول: «يُوَسِّع قلبه للتوحيد والإيمان به». وكذا قال أبو مالك، وغير واحد. وهو ظاهر.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثَّوري، عن عَمْرو بن قيس، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن أبي جعفر قال: سُئِلَ النبيُّ ـ ﷺ ـ: أيّ المؤمنين أكيسُ؟ قال: أكثرُهم ذكراً للموت، وأكثرُهم لما بعده استعداداً. قال: وسُئِل النبيُّ ـ ﷺ ـ عن هذه الآية: ﴿فمن يُرِد الله أن يَهْدِيَهُ يشرَحْ صدرَه للإسلام﴾، قالوا: كيفَ يَشْرَح صدره يا

(١) مسند الإمام أحمد ٣٧٩/١.
(٢) مسند أحمد ٤٤٠/٥ ـ ٤٤١.
(٣) فتح الباري، كتاب الجزية ٢٨٣/٦، ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٥٩ ـ ١٣٦١.

رسول الله؟ قال: نور يُقْذَف فيه، فَيَنْشَرِحُ له ويَنْفَسِحُ. قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرَفُ بها؟ قال: الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغُرُور، والاستعدادُ للموتِ قبل لقاء الموت[١].

وقال ابنُ جَرير: حدثنا هَنَّاد، حدثنا قَبِيصَةُ، عن سفيان، يعني الثوريَّ، عن عمرو بن مُرَّة، عن رَجُل يكنى أبا جعفر كانَ يسكنُ المدائن قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن قوله: ﴿فمن يُرِد الله أن يَهْدِيه﴾، فذكر نحو ما تقدم[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا ابنُ إدريسَ، عن الحسن بن الفُرات القَزَّاز، عن عَمْرو بن مرة، عن أبي جعفر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿فمن يُرِد الله أن يَهْدِيه يشرَحْ صَدْرَه للإسلام﴾، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا دخلَ الإيمان القلبَ انفسحَ له القلبُ وانشرَحَ صَدْرُه. قالوا: يا رسولَ الله، هل لذلك من أمارةٍ؟ قال: نعم الإنابةُ إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعدادُ للموتِ قبل الموتِ».

وقد رواه ابنُ جرير، عن سَوَّار بن عبد الله العَنْبَرِي، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعتُ أبي يُحدِّث عن عبد الله بن مُرَّة، عن أبي جعفر، فذكره[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد الأحمرُ، عن عَمْرو بن قيس، عن عمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن المِسْوَرِ قال: تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآيةَ: ﴿فمن يُرِد الله أن يَهْدِيَهُ يشرَحْ صَدْرَه للإسلام﴾، قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرحُ؟ قال: نورٌ يُقذَفُ به في القلبَ. قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارةٍ تُعرَفُ؟ قال: نعم. قالوا: وما هِيَ؟ قال: الإنابة إلى دَار الخُلُودِ، والتجافِي عن دارِ الغُرُور، والاستعدادُ للموتِ قبل الموت».

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثني هلال بن العلاء، حدثنا سعيدُ بن عبد الملك بن واقدٍ، حدثنا محمد بن سَلَمة، عن أبي عبد الرحيم، عن زيد بن أبي أُنيسَة، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله بن مسعود: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا دخل النورُ القلبَ انفسحَ وانشرحَ. قالوا: فهل لذلك من علامةٍ يُعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دارِ الخُلود، والتنحي عن دار الغُرُور، والاستعداد للموت قبل لُقِيِّ الموتِ»[٢].

وقد رواه ابنُ جرير من وجه آخر عن ابن مسعودٍ متَّصلاً مرفوعاً فقال: حدثني ابنُ سنان القَزَّاز، حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي، عن يونس، عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ﴿فمن يُرِد الله أن يهديَه يشرَحْ صدره للإسلام﴾، قالوا: يا رسول الله، وكيف يُشْرَح صَدْرُه؟ قال: يدخلِ فيه النورُ فينفسح. قالوا: وهل لذلك علامةٌ يا رسول الله؟ قال: التجافي عن دار الغرورِ، والإنابةُ إلى دار الخُلُود، والاستعدادُ للموت قبل أن ينزل الموتُ»[٢].

فهذه طرق لهذا الحديث مرسَلَةٌ ومتصلة، يَشُدُّ بعضُها بعضاً، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ومن يُرِد أن يُضِلَّه يجعلْ صَدْرَه ضَيْقاً حَرَجاً﴾، قرأ بعضهم ﴿ضَيْقاً﴾ بفتح الضاد وتسكين الياء[٣]، والأكثرون: ﴿ضَيِّقاً﴾ بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان: كَهْيْن وهَيِّنٍ. وقرأ بعضهم: ﴿حَرَجاً﴾ بفتح

---

(١) تفسير الطبري ٨/٢٦.

وأبو جعفر هو عبدالله بن مِسْوَر بن عبدالله بن عَوْن بن جعفر بن أبي طالب. روى عنه عَمْرو بن مُرَّة. انظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/١٦٩.

(٢) تفسير الطبري ٨/٢٧.

(٣) قرأ ابن كثير: ضَيْقاً، بتسكين الياء، والباقون بالتشديد والكسر. وقرأ نافع وأبو بكر (حَرِجاً) بكسر الراء، والباقون بالفتح. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤٣.

الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى آثم. قاله السدِّيُّ(١). وقيل: بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرَجاً﴾ بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يَتسع لشيءٍ من الهُدَى، ولا يخلُص إليه شيءٌ ما ينفعه من الإيمان ولا ينفُذ فيه(٢).

وقد سأل عمرُ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مُدْلج: ما الحَرَجَةُ؟ قال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تَصلُ إليها راعية، ولا وَحْشِية، ولا شيء. فقال عُمَر ـ رضي الله عنه ـ: كذلك قلبُ المنافقِ لا يصل إليه شيء من الخَيْر.

وقال العوفي عن ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضَيِّقاً، والإسلامُ واسعٌ(٣). وذلك حين يقول: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حَرَج﴾، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضِيقٍ.

وقال مجاهد والسدِّي: ﴿ضيقاً حَرَجاً﴾: شاكاً. وقال عطاء الخراساني: ﴿ضيقاً حَرَجاً﴾: ليس للخير فيه منفذٌ. وقال ابن المبارك، عن ابن جُرَيج ﴿ضيقاً حَرجاً﴾: بلا إله إلا الله، حتى لا تستطيع أن تدخلَه، كأنما يَصعَّد في السماء من شِدَّة ذلك عليه. وقال سعيد بن جُبَير: يجعل صَدْرَه ﴿ضيقاً حرجاً﴾، قال: لا يجد فيه مسلكاً إلا صُعُداً. وقال السدِّيُّ: ﴿كأنما يَصعَّد في السماء﴾ من ضيق صَدره.

وقال عَطاءُ الخراسانيُّ: ﴿كأنما يَصعَّدُ في السماء﴾، يقول: مَثَلُه كمثل الذي لا يستطيعُ أن يصعد في السماء.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمَةَ، عن ابن عباس: ﴿كأنما يصعَّد في السماء﴾، يقول: فكما لا يستطيعُ ابنُ آدم أَن يبلغَ السماءَ، فكذلك لا يستطيعُ(٤) أن يدخلَ التوحيدُ والإيمانُ قلبه، حتى يُدخِله الله في قلبه.

وقال الأوزاعيُّ: ﴿كأنما يصعَّدُ في السماء﴾، كيف يستطيعُ من جعل الله صَدْرَه ضَيِّقاً أن يكون مُسلماً.

وقال الإمام أبو جَعفرِ بنُ جَرير: وهذا مثل ضَرَبه الله لقلب هذا الكافر في شِدَّةِ تَضْيِيقه إيَّاه عن وُصُولِ الإيمان إليه، يقول: فمثلُه في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وُصُولِهِ إليه، مثلُ امتناعه من الصُّعود إلى السماء وعَجْزِهِ عنه، لأنه ليس في وُسْعِهِ وطاقته(٥).

وقال في قوله: ﴿كذلك يجعَلُ الله الرجسَ على الذين لا يؤمنون﴾، يقول: كما يجعلُ الله صَدْرَ من أراد إضلاله ضَيِّقاً حَرَجاً، كذلك يسلط الله الشيطانَ عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمانَ بالله ورسوله، فيُغويه ويصدُّه عن سبيل الله.

قال ابنُ أبي طلحةَ، عن ابن عباس: الرجس: الشيطان. وقال مجاهد: الرجسُ: كلُّ ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلَمَ: الرجسُ: العذابُ.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

(١) في بعض النسخ: قال السدي.
(٢) تفسير الطبري ٨/ ٢٨.
(٣) في نسخة: أوسع.
(٤) في نسخة: «فكذلك لا يقدر على أن يدخل التوحيد».
(٥) تفسير الطبري ٨/ ٣٠. وقد وقع سقط في نص الطبري.

لما ذكر تعالى طريقةَ الضالّين عن سبيله، الصادّين عنها، نَبَّه على أشرفِ ما أُرسل به رَسُوله من الهدى ودين الحق، فقال: ﴿وهذا صراطُ ربك مستقيماً﴾، منصوبٌ على الحال، أي: هذا الدين الذي شَرَعناه لك - يا محمد - بما أوحينا إليك هذا القرآن، هو صراطُ الله المستقيم، كما تقدم في حديث الحارث عن علي في نَعْتِ القرآن: «وهو صراطُ الله المستقيم، وحبلُ الله المتين، وهو الذكرُ الحكيمُ». رواه أحمد والترمذيُّ[1] بطوله.

﴿قد فَصَّلنا الآيات﴾، أي: قد وَضَّحناها وبَيَّناها وفَسَّرناها، ﴿لقوم يَذَّكَّرون﴾، أي: لمن له فَهمٌ ووعيٌ يعقل عن الله ورسوله.

﴿لهم دار السلام﴾، وهي: الجنةُ، ﴿عند ربِّهم﴾، أي: يومَ القيامة. وإنما وصَفَ الله الجنةَ ها هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سَلَكُوه من الصِّراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياءِ وطرائقهم، فكما سَلِموا من آفاتِ الاعوجاجِ أفضَوا إلى دار السلام.

﴿وهو وليُّهم﴾، أي: والسلام - وهو الله - وليُّهم، أي: حافِظُهم وناصرُهم ومُؤَيِّدُهم، ﴿بما كانوا يعملون﴾، أي: جزاءً على أعمالهم الصالحة تَولَّاهم وأثابهم الجنةَ، بمنّه وكَرَمِه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

يقول تعالى: واذكر - يا محمد - فيما تقصُّه عليهم وتُذَكِّرهم به ﴿يوم يحشُرهم جميعاً﴾، يعني الجنَّ وأولياءهم ﴿من الإنس﴾ الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويعوذُون بهم ويُطيعونهم، ويُوحي بعضُهم إلى بعض زخرفَ القولِ غُروراً: ﴿يا معشر الجن قد استكثرتُم من الإنس﴾، أي ثم يقول: يا معشَرَ الجنِّ. وسياقُ الكلام يدلُّ على المحذوف.

ومعنى قوله: ﴿وقد استكثرتُم من الإنس﴾، أي: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطانَ إنه لكم عدوٌّ مبينٌ. وأن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيمٌ. ولقد أضلَّ منكم جِبِلًّا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يا معشرَ الجن، قد استكثرتم من الإنس﴾، يعني: أضللتم منهم كثيراً. وكذلك قال مجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ.

﴿وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا، استمتَعَ بعضُنا ببعض﴾، يعني: أن أولياء الجنِّ من الإنس قالوا مُجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الأشهب هَوْذَةُ بن خَلِيفَةَ، حدثنا عوفٌ، عن الحسن في هذه الآية قال: استكثر ربُّكم أهلَ النار يوم القيامة، فقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتَعَ بعضُنا ببعض. قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرَت، وعَمِلت الإنسُ.

وقال محمَّدُ بن كَعبٍ في قوله: ﴿ربنا استمتع بعضُنا ببعض﴾، قال: الصحابة في الدنيا.

(١) تقدم الحديث أول التفسير في كتاب فضائل القرآن، وخرجناه هنالك.

وقال ابن جُرَيج: كان الرجلُ في الجاهلية ينزِل الأرضَ، فيقول: «أعوذُ بكبيرِ هذا الوادي». فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة.

وأما استمتاعُ الجنِّ بالإنس فإنه كان ـ فيما ذكر ـ ما ينال الجنُّ من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعاذتهم بهم، فيقولون: قد سُدنا الإنسَ والجنَّ.

﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ قال السدِّيُّ: أي الموتَ.

قال: ﴿النارُ مثواكم﴾، أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم. ﴿خالدين فيها﴾، أي: ماكثين فيها مكثاً مُخلَّداً إلا ما شاء الله.

قال بعضهم: يرجعُ معنى الاستثناءِ إلى البَرْزَخ: وقال بعضُهم: هذا ردٌّ إلى مُدَّة الدنيا. وقيل غيرُ ذلك من الأقوال التي سيأتي تقريرُها عند قوله تعالى في سورة هُود: ﴿خالدين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ ربُّك إن ربَّك فعالٌ لما يريدُ﴾[(١)].

وقد روى ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتِمٍ في تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح، كاتبِ اللَّيث: حدثني معاويةُ بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: ﴿النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾. قال: إن هذه الآية آيةٌ لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خَلْقِه، لا ينزلهم جَنَّةً ولا ناراً[(٢)].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

قال سعيدٌ، عن قتادةَ في تفسيرها: إنما يُولِّي الله الناسَ بأعمالهم، فالمؤمن وَلِيُّ المؤمن أين كانَ وحيث كانَ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلـي. واختار هذا القول ابنُ جَرِير[(٣)].

وقال مَعْمَرٌ، عن قتادةَ في تفسيرها: ﴿نُوَلِّي بعضَ الظالمين بعضا﴾، في النار، يَتْبَعُ بعضهم بعضاً[(٣)].

وقال مالك بن دينار: قرأتُ في الزَّبُور: إني أَنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جَميعاً، وذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وكذلك نُوَلِّي بعضَ الظالمين بعضا﴾.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أَسلَمَ في قوله: ﴿وكذلك نُوَلِّي بعضَ الظالمين بعضاً﴾، قال: ظالمي الجنِّ وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قَرِينٌ﴾، قال: ونُسلِّط ظلمةَ الجنِّ على ظلمة الإنس.

وقد رَوَى الحافظُ ابن عساكر في ترجمةِ عبد الباقي بن أحمدَ، من طريق سعيد بن عبد الجبار الكَرَابيسي، عن حَمَّاد بن سَلَمة، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سَلَّطه الله عليه».

---

(١) انظر تفسير الآية ١٠٧ من سورة هود.
(٢) تفسير الطبري ٨/٣٤.
(٣) تفسير الطبري ٨/٣٥.

وهذا حديث غريبٌ، وقال بعضُ الشعراء(١):

وما مِن يَدٍ إلا يدُ الله فوقها ولا ظالِم إلا سَيُبلى بظالِم

ومعنى الآية الكريمة: كما وَلَّينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفةَ التي أغْوَتهم من الجنِّ، كذلك نفعلُ بالظالمين، نُسلِّط بعضَهم على بعضٍ، ونُهلِك بعضَهم ببعضٍ، ونَنْتقِم من بَعْضِهم ببعض، جزاءً على ظُلمهم وبَغْيِهم.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

وهذا أيضاً مما يُقَرِّعُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ به كافري الجنِّ والإنس يومَ القيامة، حيث يسألُهم ـ وهو أعلم ـ: هل بَلَّغتهم الرسُلُ رسالاتِه؟ وهذا استفهامُ تقرير: ﴿يا معشر الجن والإنس، ألم يأتكم رسل منكم﴾، أي: من جملتكم. والرسُلُ من الإنس فقط، وليس من الجنِّ رُسُل، كما نَصَّ على ذلك مجاهدٌ، وابن جُرَيج وغيرُ واحد من الأئمة، من السلف والخلف.

وقال ابنُ عباس: الرسلُ من بني آدم، ومن الجن نُذُر.

وحكى ابنُ جرير، عن الضَّحاك بن مُزاحم: أنه زَعَم أن في الجنِّ رُسُلاً، واحتجَّ بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر، لأنها مُحتَملةٌ وليست بصريحةٍ، وهي ـ والله أعلم ـ كقوله تعالى: ﴿مَرَج البحرين يلتقيان﴾، أي: المالح والحلو ﴿بينهما بَرْزَخٌ لا يبغيان﴾ إلى أن قال: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يُستخرجان من الملح لا من الحُلْو. وهذا واضحٌ ولله الحمد. وقد نَصَّ على هذا الجوابِ بعينه ابنُ جَرير(٢).

والدليلُ على أن الرسل إنَّما هُم من الإنس قولُه تعالى: ﴿إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده﴾ إلى أن قال: ﴿رُسُلاً مبشِّرين ومُنذِرين لئلا يكونَ للناسِ على الله حجَّةٌ بعد الرسل﴾، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وجعلنا في ذُرِّيته النبوة والكتاب﴾. فحصر النبوةَ والكتابَ بعد إبراهيم في ذُرِّيته، ولم يقُل أحدٌ من الناس: إن النبوةَ كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾، وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحي إليهم من أهل القرى﴾، ومعلوم أن الجنَّ تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وإذ صَرَفنا إليك نفراً من الجنِّ يستمعون القرآن فلما حَضروه قالوا أنصِتوا فلما قُضِي ولوا إلى قومهم مُنْذِرين. قالوا يا قومنا إنا سَمعنا كتاباً أُنزلَ من بعد موسى مُصَدِّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبُوا داعيَ الله وآمنوا به يَغْفِر لكم من ذنوبكم ويُجِرْكُم من عذاب أليم. ومن لا يجبْ داعِيَ الله فليس بمعجزٍ في الأرض وليس له من دونه أولياء، أولئك في ضلال مبين﴾.

وقد جاء في الحديث ـ الذي رواه التِّرمذيُّ(٣) وغيره ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا عليهم سورة الرحمن،

(١) أورده الثعالبيُّ في ثمار القلوب ٣٣، والتمثيل والمحاضرة ١٠، ولم ينْسُبه.
(٢) تفسير الطبري ٣٦/٨.
(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الرحمن ١٧٧/١٢ ـ ١٧٨.

وفيها قوله تعالى: ﴿سنفرُغ لكم أيها الثقلان. فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يا معشرَ الجنِّ والإنس، ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي ويُنذِرُونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا: شهدنا على أنفسنا﴾، أي: أقررنا أن الرُّسُلَ قد بلَّغونا رسالاتِكَ، وأنذَرُونا لقاءك، وأنَّ هذا اليومَ كائنٌ لا محالةَ.

قال تعالى: ﴿وغرَّتهم الحياةُ الدنيا﴾، أي: وقد فرَّطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغترُّوا به مِن زُخرُفِ الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وشَهِدُوا على أنفسهم﴾، أي: يوم القيامة ﴿أنَّهم كانوا كافرين﴾، أي: في الدنيا، بما جاءَتْهُمْ به الرُّسُلُ، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ذلك أن لم يكن ربُّك مُهلِكَ القُرَى بظلم وأهلها غافلون﴾، أي: إنما أعذرنا إلى الثَّقَلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا نُعاقِب أحداً بظلمه وهو لم تبلغه دعوةٌ، ولكن أعذَرنا إلى الأمم، وما عَذَّبنا أحداً إلا بعد إرسال الرُّسُل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وإن من أمَّةٍ إلَّا خلَا فيها نذيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كُلِّ أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿وما كنا مُعذِّبين حتى نبعثَ رسولاً﴾، وقال تعالى: ﴿كُلَّما أُلقِي فيها فوجٌ سألهم خزَنَتُها ألم يأتكم نذيرٌ. قالوا: بلى، قد جاءنا نَذيرٌ فكذبنا﴾ والآيات في هذا كثيرة.

قال الإمام أبو جعفر بنُ جَرير: ويَحتَمِلُ قولُه تعالى ﴿بظلم﴾ وجهين:

أحدهما: ذلك من أجل أنَّ ربك [لم يكن[1]] ليُهلِكَ القُرَى بظُلمِ أهلها بالشِّرك ونحوه، وهُم غافلون، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعثَ إليهم رسولاً[2] يُنبِّههم على حُجَجِ الله عليهم، ويُنذرهم عذاب الله يوم مَعادِهم، ولم يكن بالذي يُؤاخِذُهم غفلةً فيقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نَذير﴾.

والوجه الثاني: ﴿ذلك أن لم يكن ربُّك مُهلِك القرى بظلم﴾، يقول: لم يكن لِيُهلِكَهُم دونَ التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظَلَّام لعبيده[3].

ثم شرَع يُرَجِّح الوجه الأول، ولا شكَّ أنه أقوى، والله أعلم.

وقال[4]: وقوله: ﴿ولكلٍّ درجات مما عملوا﴾، أي: ولكلِّ عاملٍ في طاعة الله أو مَعْصِيَتِه منازلُ ومراتبُ من عَمَلِهِ يُبَلِّغه الله إياها، ويُثيبه بها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ.

قلت: ويَحتَمِلُ أن يعودَ قوله: ﴿ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا﴾ أي: من كافري الجن والإنس، أي:

---

(١) زيادة يستقيم بها السياق.

(٢) في نسخة: مَنْ ينبِّههم.

(٣) انظر تفسير الطبري ٣٧/٨.

(٤) أي: الطبري ٣٨/٨.

ولِكُلٍّ درجةٌ في النار بحسبه، كقوله: ﴿قال: لِكُلٍّ ضِعفٌ﴾، وقوله: ﴿الذين كَفَروا وصدُّوا عن سبيل الله زِدْناهم عذاباً فوق العذابِ بما كانوا يُفسِدون﴾.

﴿وما ربُّك بغافل عما يعملون﴾، قال ابنُ جَرير: أي وكُلُّ ذلك من عَمَلِهم ـ يا مُحمَّد ـ بِعِلْمٍ من ربِّك، يُحصيها ويُثْبِتُها لهم عنده، ليجازيَهم عليها عند لقائهم إيَّاه ومعادِهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يقولُ: ﴿وربُّك﴾ يا محمدُ ﴿الغنيُّ﴾، أي: عن جميع خَلْقِه من جميع الوُجوه، وهم الفُقَراء إليه في جَميع أحوالهم، ﴿ذو الرحمة﴾، أي: وهو مع ذلك رَحيمٌ بهم رؤوف، كما قال تعالى: ﴿إن الله بالناس لرؤوفٌ رَحيم﴾.

﴿إن يشأ يُذْهِبكم﴾، أي: إذا خالفتم أمره ﴿ويستَخْلِف من بعدكم ما يشاء﴾ أي: قوماً آخرين، أي: يعملون بطاعته، ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾، أي: هو قادرٌ على ذلك، سَهْلٌ عليه، يَسيرٌ لديه، كما أذهب القرون الأوَل وأتى بالذي بعدها[1]،كذلك هو قادرٌ على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إن يشأ يُذْهِبكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الناسُ أنتم الفُقَراء إلى الله والله هو الغني الحميد. إنْ يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد. وما ذلك على الله بعزيز﴾، وقال تعالى: ﴿والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تتولوا يَسْتَبدِل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

وقال مُحمَّد بن إسحاقَ، عن يعقوبَ بن عُتْبَةَ قال: سَمِعْتُ أبانَ بن عثمانَ يقول في هذه الآية: ﴿كما أنشأكم من ذُرِّية قَوْمٍ آخرين﴾: الذريّة: الأصلُ، والذرِّيَّة: النَّسْلُ.

وقوله تعالى: ﴿إنّ ما تُوعَدُون لآتٍ، وما أنتم بمُعجزين﴾ أي: أَخْبِرهُم ـ يا محمد ـ أن الذي يُوعَدُون به من أَمْرِ المعاد كائنٌ لا محالَةَ، ﴿وما أنتم بمُعجزين﴾، أي: لا تُعجِزُون الله، بل هو قادرٌ على إعادتكم، وإن صِرْتم تراباً رُفاتاً وعظاماً هو قادر لا يُعجِزُه شيءٌ.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها: حدثني أبي، حدثنا محمد بن المُصَفَّى، حدثنا محمد بن حِمْيَر، عن أبي بكر بن أبي مَرْيَم، عن عطاء بن أبي رَباح، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «يا بني آدم، إن كنتم تعقلون فَعُدُّوا أنفسكم من الموتى. والذي نفسي بيده إن ما تُوعَدُون لآتٍ وما أنتم بمُعجزين».

وقولُه تعالى: ﴿قل: يا قوم، اعملوا على مكانتكم إني عاملٌ فسوفَ تعلمون﴾، هذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، أي: استمِرُّوا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظُنّون أنكم على هدًى، فأنا مستمرٌّ على طريقي ومَنْهجي، كما قال تعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملُوا على مكانَتِكم إنا عامِلُون. وانتَظِروا إنا مُنتظِرون﴾.

---

(١) في نسخة: «وأذهب القرن الأول وأتى بالذي بعده».

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿على مَكَانَتِكم﴾، أي: ناحِيَتِكم[١].

﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبةُ الدار إنه لا يُفلح الظالمون﴾، أي: أتكون لي أو لكم. وقد أنجز مَوْعودَهُ له ـ صلوات الله عليه ـ فإنه تعالى مَكَّن له في البلاد، وحَكَّمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفَتح له مكة، وأظهَرَه على من كَذَّبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقرَّ أمرُه على سائر جَزيرة العَرَب، وكذلك اليمن والبحرين، وكلُّ ذلك في حياته. ثم فُتِحت الأمصار والأقاليم والرَّساتيقُ[٢] بعد وفاته في أيام خُلَفائه ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ كما قال الله تعالى: ﴿كتبَ الله لأغلبنَّ أنا ورُسُلي﴾، وقال تعالى: ﴿إنا لَنَنصُرُ رُسُلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهادُ. يوم لا ينفعُ الظالمين مَعذِرتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزَّبورِ من بعد الذِّكر أن الأرضَ يَرِثُها عبادي الصالحون﴾، وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿فأوحى إليهم ربُّهم لنهلكنَّ الظالمين. ولنسكنَنَّكُم الأرضَ من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخافَ وعيدِ﴾، وقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، وليبدِّلَنَّهم من بعد خَوْفهم أمناً، يعبُدُونني لا يُشركُون بي شيئاً﴾... الآية، وقد فَعَل الله تعالى ذلك بهذه الأمة، وله الحمدُ والمنَّةُ أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

هذا ذمٌّ وتوبيخٌ من الله تعالى للمشركين الذي ابتدَعُوا بِدَعاً وكُفراً وشِرْكاً، وجعلوا له جُزْءًا من خلقه، وهو خالقُ كلِّ شيء، سبحانه وتعالى عما يشركون، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلوا لله ما ذَرَأ﴾، أي: مما خَلَق وبرأ ﴿من الحرث﴾ أي: من الزروع والثمار ﴿والأنعام نصيباً﴾، أي: جُزءاً وقِسْماً، ﴿فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا﴾.

وقولُه: ﴿فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شُرَكائهم﴾، قال عليُّ بن أبي طلحَةَ، والعوفيُّ، عن ابن عباس أنه قال في تفسيرِ هذه الآيةِ: إن أعداءَ الله كانُوا إذا حَرَثوا حَرْثاً، أو كانت لهم ثمرةٌ، جعلُوا لله منه جُزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثَمرة أو شيءٍ من نصيب الأوثان حَفِظوه وأحصَوه. وإن سقطَ منه شيءٌ فيما سُمّي للصَّمد رَدُّوه إلى ما جَعلُوه للوَثَن. وإن سَبَقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جَعلُوه لله جَعَلُوا ذلك للوثن. وإن سقط شيء من الحَرْثِ والثَّمر التي جعلوا لله فاختلط بالذي جَعَلوه للوثن، قالوا: هذا فقير. ولم يَرُدّوه إلى ما جَعلُوه لله. وإن سَبَقهم الماءُ الذي جَعلُوه لله، فسقى ما سُمّي للوثن، تَركُوه للوثن، وكانوا يُحَرِّمون من أموالهم البَحِيرة والسائبة والوَصِيلَة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يُحَرِّمونه لله، فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿وجعلوا لله مما ذَرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾... الآية[٣].

(١) تفسير الطبري ٨/٣٩.

(٢) الرُّستاق والرزداق: قُرىً أو بيوت مجتمعة.

(٣) هذا أثر العوفي عن ابن عباس، فأما أثر علي بن أبي طلحة فلفظه مختلف، انظر تفسير الطبري ٨/٤٠ ـ ٤١.

وهكذا قال مجاهدٌ، وقتادةُ، والسدِّيُّ، وغيرُ واحدٍ.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم في تفسيرها: كلُّ شيء جَعَلوه لله من ذِبْح يذبحونه، لا يأكلُونه أبداً حتى يذكروا مَعَه أسماء الآلهة. وما كان للآلهة لم يذكُروا اسمَ الله معه، وقرأ الآية حتى بَلَغ: ﴿ساء ما يحكُمُون﴾.

أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطئُوا أوّلاً في القسمة، فإن الله تعالى هو ربُّ كلِّ شيء ومليكُه وخالقُه، وله الملك، وكلُّ شيءٍ له وفي تَصرُّفه وتحت قُدْرته ومشيئته، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

ثم لما قَسَمُوا فيما زعموا لم يحفظوا القسمةَ التي هي فاسدةٌ، بل جَارُوا فيها، كما قال تعالى: ﴿ويجعلون لله البناتِ سُبحانه ولهم ما يَشتَهُون﴾، وقال تعالى: ﴿وجَعَلُوا له من عباده جُزءاً إن الإنسان لكفور مبين﴾. وقال تعالى: ﴿ألكم الذكرُ وله الأنثى. تلك إذاً قسمةٌ ضِيزَى﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يقول تعالى: وكما زَيَّنتِ الشياطينُ لهؤلاء المشركين أن جعلوا لله مما ذَرَأ من الحَرْثِ والأنعام نصيباً، كذلك زَيَّنوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأدَ البنات خشيةَ العارِ.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وكذلك زَيَّن لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم﴾، هم زَيَّنوا لهم قَتْل أولادهم.

وقال مجاهد: شركاؤهم: شياطينهم، يأمرُونَهم أن يَئِدُوا أولادَهم خشيةَ العَيْلة[1].

وقال السدِّيُّ: أمرتم الشياطينُ أن يَقتلوا البناتِ وأمّا ﴿لِيُرْدُوهُم﴾ فيهلكوهم، وأمّا ﴿لِيَلْبِسُوا عليهم دِينَهم﴾، فَيَخْلِطُوا عليهم دِينَهُم[2].

ونحوَ ذلك قال قتادةُ، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أَسْلَم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظَلَّ وجهُه مسوداً وهو كظيم. يتَوارى من القوم من سُوء ما بشر به﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿وإذا الموءُودة سُئِلت. بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾. وقد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو الفقر؛ أو خَشْيَة الإملاق أن يحصُلَ لهم في ثاني الحَالِ، وقد نهاهم عن قَتْلِ أولادهم لذلك، وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان وَتَزْيِينه لهم ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾، أي: كلُّ هذا واقعٌ بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، وله الحكمة التامة في ذلك، فلا يُسْأَلُ عما يَفعل وهم يُسألون. ﴿فَذَرْهم وما يَفتَرُون﴾، أي: فَدَعْهُم واجْتَنِبهم وما هُم فيه، فَسَيَحْكُم الله بينك وبينهم.

(١) أي: الفقر.
(٢) تفسير الطبري ٨/٤٣.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قال علي بن أبي طَلْحَة، عن ابن عباس: الحِجْرُ: الحَرَامُ، ما حَرَّموا من الوصيلة، وتحريم ما حَرَّموا(١)..

وكذلك قال مجاهدٌ، والضحاكُ، والسديُّ، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَم.

وقال قتادةُ: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْرٌ﴾... الآية: تحريمٌ كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليظٌ وتشديدٌ، وكان ذلك من الشياطين، ولم يَكُن من الله تعالى. وقال ابنُ زيد بن أَسْلَم: ﴿حِجْر﴾، إنما احتَجَرُوها لآلهتهم.

وقال السدّيُّ: ﴿لا يَطْعمها إلا من نشاء بزعمهم﴾، يقولون: حَرَام أن نُطْعِم إلا من شِئْنا.

وهذه الآيةُ الكريمةُ كقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حَرَاماً وحلالاً، قل: آلله أذِنَ لكم؟ أم على الله تفترون﴾. وكقوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بَحِيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾.

وقال السدّيُّ: أما أنعامٌ حُرِّمت ظهورُها فهي البَحِيرةُ والسائبةُ والحامِ، وأما الأنعامُ التي لا يَذْكُرون اسم الله عليها، قال: إذا أولدوها، ولا إن نَحروها(٢).

وقال أبو بكر بن عَيّاش، عن عاصم بن أبي النَّجود، قال لي أبو وائل: تَدْرِي ما في قوله: ﴿وأنعام حُرِّت ظهورها، وأنعام لا يذكُرونَ اسم الله عليها﴾؟ قلت: لا. قال: هي البحيرةُ، كانوا لا يَحُجُّون عليها.

وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفةٌ لا يَذْكُرون اسمَ الله عليها ولا في شيءٍ من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حَلَبُوا، ولا إن حَمَلوا، ولا إن سَحَبوا، ولا إن عَمِلُوا شيئاً(٢).

﴿افتراءً عليه﴾، أي: على الله، وكَذِباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشَرْعِهِ، فإنه لم يَأْذَن لهم في ذلك ولا رَضِيه منهم، ﴿سَيَجْزِيهم بما كانوا يفتَرُون﴾: أي: عليه، ويُسْنِدُون إليه.

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

قال أبو إسحاقَ السَّبيعيُّ، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن ابن عباس: ﴿وقالوا ما في بُطُون هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورنا﴾... الآية، قال: اللبن.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وقالوا ما في بُطُون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا﴾... الآية، فهو اللَّبن، كانوا يُحَرِّمونه على إنائهم، ويشرَبه ذُكْرانهم. وكانت الشاةُ إذا وَلَدت ولداً ذكراً ذَبَحوه، وكان للرجال

---

(١) تفسير الطبري ٨/٤٦.
(٢) تفسير الطبري ٨/٤٧.

دون النساء. وإن كانت أنثى تُركت فلم تُذبح، وإن كانت مَيْتَةً فهم فيه شركاء. فَنَهى الله عن ذلك. وكذا قال السدّيُّ.

وقال الشعبيُّ: البحيرةُ لا يأكل من لَبَنِها إلا الرجالُ، وإن مات منها شيءٌ أكلَه الرجالُ والنساءُ. وكذا قال عكرمةُ، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسْلَم.

وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿وقالوا ما في بُطُون هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورنا ومُحرَّم على أزواجنا﴾، قال: هي السائبةُ والبَحِيرةُ.

وقال أبو العالية، ومجاهدٌ، وقتادةُ في قوله: ﴿سَيَجْزِيهم وصفهم﴾، أي: قَوْلَهم الكَذِبَ في ذلك. يعني كقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسنتُكم الكَذِبَ هذا حلالٌ وهذا حَرَامٌ لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفتَرُون على الله الكَذِبَ لا يُفْلِحُون. مَتاعٌ﴾... الآية.

﴿إنه حكيمٌ﴾، أي: في أفعاله وأقواله وشَرْعِهِ، ﴿عليم﴾ بما قال عبادُه من خَيرٍ وشرٍّ، وسَيَجزيهم على ذلك أتمَّ الجَزاءِ.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

يقول تعالى: قد خَسِر الذين فعلوا[1] هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أمَّا في الدنيا فَخَسِروا أولادَهم بِقَتْلِهم، وضَيَّقُوا عليهم في أموالهم، فَحَرَّموا أشياءَ ابتدعُوها من تِلْقاءِ أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر[2] المنازل بِكَذِبهم على الله وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكَذِبَ لا يفلحون. متاعٌ في الدنيا ثم إلينا مَرْجِعُهم ثم نُذيقهم العذابَ الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد ابن أيُّوب، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا أبو عَوَانة، عن أبي بِشر، عن سَعِيد بن جُبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إذا سَرَّك أن تعلَمَ جَهلَ العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورةِ الأنعامِ، ﴿قد خَسِر الذين قتلوا أولادهم سَفَهاً بغير علمٍ، وَحَرَّموا ما رَزَقهم الله افتـراءً على الله قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدين﴾.

وهكذا رواه البخاريُّ منفرداً في كتاب مناقب قُرَيش من صَحِيحه، عن أبي النعمان مُحمَّد بن الفضل عارمٍ، عن أبي عوانَة ـ واسمه الوَضَّاح بن عبد الله اليشكُريُّ ـ عن أبي بشرٍ ـ واسمه جعفرُ بن أبي وَحْشِيَّة بن إياس ـ به[3].

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا

(١) في نسخة: صنعوا.
(٢) في نسخة: أسوأ المنازل.
(٣) فتح الباري، كتاب المناقب ٥٥١/٦.

يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

يقول تعالى بياناً لأنه الخالقُ لكلِّ شيءٍ من الزُّروع والثِّمار والأنعام، التي تَصرَّفَ فيها المشركون بآرائهم الفاسدةِ وقَسَموها وجزَّءُوها، فجعلُوا منها حراماً وحَلالاً، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ﴾.

قال علي بن أبي طَلْحَةَ، عن ابن عباس: مَعْرُوشاتٍ: مَسْمُوكاتٍ. وفي رواية: فالمعروشاتُ ما عَرَشَ الناسُ. وغيرَ معروشاتٍ: ما خَرَجَ في البَرِّ والجبالِ من الثمرات[1].

وقال عطاء الخُرَاسانيُّ، عن ابن عباس: معروشاتٍ: ما عُرِش من الكرم. وغير مَعْرُوشاتٍ: ما لم يُعْرَشْ من الكَرْمِ. وكذا قال السدِّيُّ.

وقال ابن جُرَيج: ﴿متشابهاً وغير متشابه﴾، قال: مُتَشابهاً في النظر، وغير مُتَشابه في الطَّعم.

وقال محمد بن كعب: ﴿كُلُوا من ثمره إذا أثمر﴾، قال: من رُطبه وعِنَبه.

وقوله تعالى: ﴿وآتوا حَقَّه يوم حصادِهِ﴾، قال ابنُ جَرير: قال بعضُهم: هي الزكاةُ المفروضةُ:

حدثنا عَمرو، حدثنا عبدُ الصمد، حدثنا يزيدُ بنُ درْهمٍ قال: سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ يقول: ﴿وآتوا حَقَّه يوم حصاده﴾، قال: الزكاةُ المفروضةُ.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: ﴿وآتوا حَقَّه يوم حَصَادِهِ﴾، يعني الزكاةَ المفروضةَ، يومَ يُكَال ويعلمُ كيلُه. وكذا قال سعيدُ بن المسيَّب.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿وآتوا حَقَّه يوم حَصَادِهِ﴾، وذلك أَنَّ الرجلَ كان إذا زَرَعَ فكان يومُ حصادِهِ، لم يُخرِج مما حَصَد شيئاً فقال الله: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾، وذلك أن يَعْلَم ما كيلُه وحَقَّهُ، من كلِّ عَشَرةٍ واحداً، وما يَلْقُطُ الناس من سنبله.

وقد رَوَى الإمام أحمد، وأبو داود في سُنَنه، من حديث مُحمَّد بن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى ابن حَبَّانَ، عن عَمِّه واسع بن حَبَّانَ، عن جابر بن عبد الله: أَنَّ النبي ـ ﷺ ـ أَمَرَ من كُلِّ جادٍّ عَشْرَةَ أوسُق من التمر، بِقِنْوٍ يُعلَّق في المسجدِ للمساكين[2]. وهذا إسناد جَيِّدٌ قويٌّ.

وقال طاوس، وأبو الشعثاءِ، وقتادةُ، والحسنُ، والضحَّاك، وابن جُرَيج: هي الزكاةُ.

وقال الحسنُ البصريُّ: هي الصدَقَةُ من الحَبِّ والثِّمار. وكذا قال ابنُ زيدِ بن أسلَمَ.

وقال آخرون: هو حَقٌّ آخرُ سِوَى الزَّكاةِ:

قال أشعثُ عن محمد بن سيرينَ، ونافع عن ابن عُمَر في قوله: ﴿وآتوا حَقَّه يوم حَصَادِهِ﴾، قال: كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة. ورواه ابن مَرْدُويه.

---

(١) تفسير الطبري ٥٢/٨.

(٢) مسند أحمد ٣٥٩/٣ ـ ٣٦٠، وسنن أبي داود، كتاب الزكاة ١٢٥/٢. جادٌّ بمعنى مجدود، والمراد: نخلٌ يجدُّ منه ما يبلغ عشرة أوسق. والوَسْقُ: ٦٠ صاعاً، والصاع ١/٦ كيلة مصرية، فالوسق إذاً ١٠ عشر كيلات مصرية. والقِنْوُ: عنقود النخل.

وروى عبدُ الله بن المبارك وغيرُه، عن عبد الملك بن أبي سُلَيمان، عن عَطَاءِ بن أبي رَبَاحٍ في قوله: ﴿وآتوا حَقَّه يوم حَصَاده﴾، قال: يُعطي من حَضَره يَوْمَئِذٍ ما تَيسَّر، وليس بالزكاة.

وقال مجاهدٌ: إذا حَضَرك المساكين طَرَحْتَ لهم منه.

وقال عبد الرزاق، عن ابن عُيَينَةَ، عن ابن أبي نَجيحٍ، عن مجاهد: ﴿وآتوا حَقَّه يوم حَصَادِهِ﴾، قال: عند الزَّرع يُعطِي القَبْضَ[1]، وعند الصِّرام يُعطي القَبْضَ، ويتركهم فيتَّبعُونَ آثار الصِّرامِ.

وقال الثوريّ، عن حَمّاد، عن إبراهيم قال: يُعطِي مثلَ الضِّغْثِ[2].

وقال ابنُ المبارك، عن شَرِيك، عن سالم، عن سعيد بن جُبَير ﴿وآتوا حَقَّه يوم حَصَادِهِ﴾، قال: كان هذا قبل الزكاة، للمساكين القبضةُ، والضغثُ لِعَلَف دابَّته[3].

وفي حديث ابنِ لهيعة، عن دَرّاج، عن أبي الهيثَمِ، عن أبي سَعيدٍ مرفوعاً: ﴿وآتوا حَقَّه يوم حَصَاده﴾، قال: ما سقَطَ من السُّنْبل. رواه ابن مَرْدُويه.

وقال آخرون: هذا شيءٌ كان واجباً، ثم نَسَخه الله بالعُشْر. حكاه ابنُ جَرير عن ابن عباس، ومحمد ابن الحنفيَّة، وإبراهيمَ النَّخَعيّ، والحَسَن، والسّديّ، وعطيةَ العَوْفيّ، واختاره ابنُ جَرير، رحمهم الله[4].

قلتُ: وفي تَسمِيةِ هذا نسخاً نظرٌ، لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فُصِّلَ بيانه وبُيِّن مقدارُ المُخْرَجِ وَكَمِّيَته. قالوا: وكان هذا في السنة الثانية من الهِجْرَة، فالله أعلم.

وقد ذَمَّ الله سبحانه الذين يَصْرِمُون ولا يتصدَّقُونَ، كما ذُكِر عن أصحاب الجَنَّة في سُورَةِ (نٓ): ﴿إِذْ أَقسَموا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحينَ * ولا يَسْتَثْنونَ * فطافَ عليها طائفٌ من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصَّريم﴾. أي: كالليلِ المُدْلَهِمِّ سوداء محترقة، ﴿فتنادَوا مُصْبِحين * أَن اغدُوا على حَرْثِكم إن كنتم صارِمينَ * فانطَلَقُوا وهم يتخافَتُون * أَن لا يدخُلَنَّها اليوم عليكم مِسْكِين * وغَدَوا على حَرْدٍ﴾، أي: قُوَّة وَجلد وهِمَّة ﴿قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالُّون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تُسبِّحون * قالوا سبحان رَبِّنا إنا كنا ظالمينَ * فأقبل بعضهم على بعض يَتَلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كُنّا طاغين * عسى رَبُّنا أن يُبدِلَنَا خيراً منها إِنَّا إلى رَبِّنا راغِبُون * كذلك العذابُ ولَعَذابُ الآخرةِ أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

وقولُه: ﴿ولا تُسْرِفوا إنه لا يحبُّ المسرفين﴾، قيل: معناه: ولا تُسرِفوا في الإعطاء، فَتُعطُوا فوقَ المعروفِ، قال أبو العالية: كانوا يعطُون يومَ الحَصَادِ شيئاً، ثم تباروا فيه وأسرَفُوا، فأنزل الله: ﴿ولا تُسْرِفوا﴾.

وقال ابن جُرَيج: نزلت في ثابت بن قَيس بن شَمّاسٍ، جَدَّ نَخْلاً. فقال: لا يأتيني اليوم أحدٌ إلاّ أطعمتهُ. فأطعم حتى أمسى وليسَتْ له ثمرةٌ، فأنزل الله: ﴿ولا تُسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾. رواه ابنُ جَرير، عنه[5].

وقال ابن جُرَيج، عن عطاءٍ: ينهَى عن السَّرَفِ في كُلِّ شيءٍ. وقال إياسُ بن معاوية: ما جاوزْتَ به أمرَ

---

(١) القَبْضَةُ من الشيء: ما قبضت عليه من مِلْءِ كَفِّك، بضم القاف وفتحها. والقَبْضُ: جمع الكفِّ على الشيء.

(٢) الضِّغْثُ: كل ما جُمع وقُبض عليه بِجَمْع الكَفّ.

(٣) تفسير الطبري ٥٧/٨.

(٤) تفسير الطبري ٥٨/٨ - ٥٩.

(٥) تفسير الطبري ٦١/٨.

الله فهو سَرَفٌ. وقال السدِّيّ في قوله: ﴿ولا تُسْرِفوا﴾، قال: لا تعطوا أموالكم، فتقعُدوا فُقَراء.

وقال سَعيد بن المسيِّب، ومحمَّد بن كعب، في قوله: ﴿ولا تُسْرِفوا﴾، قالا: لا تمنَعوا الصدقة فتعصُوا.

ثم اختار ابنُ جَرير قول عطاءٍ: إنه نَهْيٌ عن الإسراف في كلِّ شيء. ولا شك أنه صحيحٌ، لكن الظاهر ـ والله أعلم ـ من سياقِ الآية حيثُ قال الله تعالى: ﴿كُلُوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقَّه يوم حَصَاده ولا تُسْرِفوا﴾ أن يكون عائداً إلى الأكل، أي: ولا تُسْرِفوا في الأكل لما فيه من مَضَرَّةِ العقل والبَدَنِ، كما قال تعالى: ﴿وكُلُوا واشربوا ولا تسرفوا﴾. . . الآية. وفي صحيح البخاري تعليقاً: «كُلُوا واشرَبُوا والبَسُوا وتَصَدَّقُوا، في غير إسرافٍ ولا مَخِيلةٍ»[1]، وهذا من هذا، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ومِنَ الأنعام حمولةً وفرشاً﴾، أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حَمُولَةٌ وما هو فَرْشٌ، قيل: المراد بالحَمُولةِ ما يُحمَلُ عليه من الإبل، والفَرْشِ الصِّغارُ منها. كما قال الثَّورِيُّ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عَبد الله في قوله: ﴿حمولةً﴾: ما حُمِل عليه من الإبل، ﴿وفَرْشاً﴾ قال: الصِّغارُ من الإبل. رواه الحاكمُ وقال: صحيحٌ، ولم يخرجاه[2].

وقال ابنُ عباس: الحمولَةُ هي الكِبار، والفَرْشُ الصِّغار من الإبل. وكذا قال مجاهد.

وقال عليُّ بن أبي طلحَةَ، عن ابن عَبَّاس: ﴿ومن الأنعام حَمُولَةً وفَرْشاً﴾، فأما الحَمُولةُ فالإبل والخيل والبغال والحمير، وكلُّ شيء يُحمَلُ عليه، وأما الفرشُ فالغَنَمُ.

واختاره ابنُ جرير، قال: وأحسَبه إنما سُمِّي فرشاً لدنُوِّه من الأرض[3].

وقال الربيعُ بن أَنَسٍ، والحسن، والضحاك، وقتادةُ: الحمولَةُ الإبل والبقر، والفرشُ الغنمُ.

وقال السدِّيّ: أما الحَمُولة فالإبل، وأما الفرش فالفُصْلان والعَجاجِيلُ[4] والغَنَم. وما حُمِل عليه فهو حَمُولة.

وقال عبدُ الرحمن بنَ زيدِ بن أسلَمَ: الحَمُولَةُ ما تركَبُونَ، والفرشُ ما تأكلون وتَحلِبُون، شاةٌ لا تحمل، تأكلون لحمها، وتَتَّخِذُونَ من صُوفِها لحافاً وفِرَاشاً.

وهذا الذي قاله عبدُ الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حَسَنٌ يشهدُ له قولُه تعالى: ﴿أَوَلم يَرَوا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها رَكُوبهم ومنها يأكُلُون﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فَرْثٍ ودَمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾، إلى أن قال: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾، وقال تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافعُ ولتبلغوا عليها حاجةً في صُدُوركم وعليها وعلى الفلك تُحمَلُون * ويُريكم آياته فأيَّ آياتِ الله تُنكِرُون﴾.

وقولُه تعالى: ﴿كُلُوا مما رَزَقكم الله﴾، أي: من الثمار والزُّرُوع والأنعام، فَكُلُّها خلقها الله تعالى وجعَلَها رزقاً لكم، ﴿ولا تَتَّبِعُوا خطواتِ الشيطانِ﴾، أي طرائِقَه وأوامِرَه كما اتَّبعها المشركونَ الذين حَرَّمُوا ما رَزَقهم

(١) فتح الباري، كتاب اللباس ٢٥٢/١٠.

(٢) المستدرك، تفسير سورة الأنعام ٣١٧/٢.

(٣) تفسير الطبري ٦٤/٨.

(٤) العجاجيلُ: جمع عِجُول، وهو العجلُ ولد البقر.

الله، أي: من الثمار والزروع افتراءً على الله، ﴿إنه لكم﴾، أي: إن الشيطان ـ أيُّها الناس ـ لكم ﴿عَدُوٌّ مبين﴾، أي: بَيِّن ظاهر العَدَاوة، كما قال تعالى: ﴿إن الشيطانَ لكم عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُواً إنما يدعُو حِزْبَه لِيَكُونوا من أصحاب السعير﴾، وقال تعالى: ﴿يا بني آدم، لا يَفْتِنَنَّكُم الشيطانُ كما أخرجَ أبَوَيكم من الجنة يَنزِع عنهما لباسَهما لِيُرِيَهُما سوآتِهما﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿أفَتَتَّخِذُونه وذريَّته أولياءَ من دُوني وهم لكم عَدوٌّ بئسَ للظالمين بدلاً﴾. والآيات في هذا كثيرةٌ في القرآن.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وهذا بيانٌ لجهلِ العَرَب قبل الإسلام فيما كانوا حرَّموا من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعاً: بحِيرة، وسَائِبَةً، وَوَصيلةً، وحَامياً، وغيرَ ذلك من الأنواع التي ابتدَعُوها في الأنعام والزروع والثمار، فبيَّن أنه تعالى أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ، وأنه أنشأ من الأنعام حَمُولَةً وفرشاً. ثم بين أصنافَ الأنعامِ إلى غَنَمٍ وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كُلُّها مخلوقةٌ لبني آدم، أكلاً، وركوباً، وحمولة، وحَلْباً، وغير ذلك من وُجُوهِ المنافعِ، كما قال: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾... الآية.

وقوله: ﴿أمَّا اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين﴾، رَدٌّ عليهم في قولهم: ﴿ما في بطون هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورنا ومُحرَّمٌ على أزواجنا﴾.

وقوله: ﴿نَبِّئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾، أي: أخبروني عن يقين: كيف حَرَّم الله عليكم ما زعمتُم تحريمَه من البحيرةِ والسائبةِ والوَصِيلة والحام ونحو ذلك؟!.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس قولَه: ﴿ثمانيةَ أزواجٍ من الضأن ومن المَعْزِ اثنين﴾ فهذه أربعة أزواج، ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقرِ اثنين قل آلذكرين حَرَّمَ أم الأنثيين﴾، يقول: لم أُحَرِّم شيئاً من ذلك ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾، يقول: كُلُّه حلال(١).

وقولُه: ﴿أم كنتم شُهَدَاءَ إذ وصَّاكم الله بهذا﴾، تهكُّمٌ بهم فيما ابتدعوه وافترَوه على الله، من تحريم ما حَرَّموه من ذلك، ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كَذِباً ليضِلَّ الناسَ بغير علم﴾، أي: لا أحدَ أظلم منه، ﴿إن الله لا يهدِي القوم الظالمين﴾.

وأول من دخل في هذه الآية عَمْرو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ، فإنه أول من غَيَّر دينَ الأنبياءِ، وأول من سَيَّبَ السوائب، وَوَصَلَ الوَصيلة، وحَمَى الحامِي، كما ثبت ذلك في الصحيح(٢).

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ

(١) تفسير الطبري ٨/٦٧.
(٢) انظر تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة.

﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

يقولُ تعالى آمراً عبدَه ورسُولَه محمداً ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: قُل لهؤلاء الذين حَرَموا ما رَزَقَهم الله افتراءً على الله: ﴿لا أَجد فيما أُوحِيَ إلى مُحرَّماً على طاعم يَطْعَمه﴾، أي: آكلٍ يأكُله. قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حَرَّمتم حراماً سوى هذه. وقيل: معناه لا أجدُ شيئاً من الحيوانات حَراماً سوى هذه. فَعَلى هذا يكون ما وَرَد من التحريمات بعد هذا في سورةِ «المائدةِ»[١]، وفي الأحاديثِ الواردةِ، رافعاً لمفهوم هذه الآية.

ومنَ الناسِ من يُسمِّي ذلك نسخاً، والأكثرون من المتأخِّرين لا يُسمُّونه نسخاً، لأنه من باب رَفْعِ مباحِ الأصل، والله أعلم.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عَبَّاس: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾، يعني: المُهَرَاق.

وقال عكرمة في قوله: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾: لولا هذه الآية لتتبَّعَ الناس ما في العُرُوق، كما تَتَبَّعه اليهود.

وقال حَمَّاد، عن عمران بن حُدَير قال: سألت أبا مِجْلزٍ عن الدم، وما يتلطخ من الذبح من الرأس، وعن القِدْر يُرَى فيها الحُمْرَة، فقال: إنما نَهى الله عن الدَّمِ المسفوح.

وقال قتادةُ: حَرَّم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطَه دمٌ فلا بَأْسَ به.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثنا المثنى، حدثنا حَجَّاج بن منهالٍ، حدثنا حَماد، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم، عن عائشة: أنها كانت لا ترى بلُحُوم السباع بأساً، والحمرةِ والدَّمِ يكونان في أعلى القدر بأساً، وقَرأَتْ هذه الآية[٢]. صحيح غريبٌ.

وقال الحُميديُّ: حدثنا سفيان، حدثنا عَمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمُون أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ نهى عن لُحوم الحُمُر الأهلية زَمَن خَيْبَر، فقال: قد كان يقول ذلك الحَكَمُ بنُ عَمْرو، عن رسول الله ﷺ، ولكن أبى ذلكَ البحْرُ ـ يعني ابنَ عباسٍ ـ وقَرأ: ﴿قل لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إلي مُحرَّماً﴾. . . الآية.

وهكذا رواه البخاريُّ عن علي بن المَدِيني، عن سفيانَ، به. وأخرجه أبوداود من حديث ابن جُرَيج، عن عمرو بن دينار. ورواه الحاكم في مستدركه مع أنه في صحيح البخاري، كما رأيتَ[٣].

وقال أبو بكر بن مَرْدُويه والحاكمُ في مُستدرَكه: حدثنا محمَّد بنُ علي بن دُحَيم، حدثنا أحمدُ بن حازم، حدثنا أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين، حدثنا محمد بن شريك، عن عَمرو بن دينار، عن أَبي الشعثاء، عن ابن عباس قال: كان أهلُ الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تَقَذُّراً، فبعث الله نبيَّه وأنزلَ كِتابَهُ، وأحلَّ وحَرَّم حرامه، فما أحلَّ فهو حلالٌ، وما حَرَّم فهو حَرامٌ، وما سَكَت عنه فهو عَفْوٌ، وتلا هذه الآية: ﴿قل: لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إلي مُحرَّماً على طاعم يَطْعَمه﴾. . . إلى آخر الآية.

وهذا لفظ ابن مَرْدُويه، ورواه أبو داودَ منفرداً به، عن محمد بن داودَ بن صبيح، عن أبي نُعَيمٍ، به. وقال الحاكم: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد ولم يُخرِجاه[٤].

---

(١) أي في آية المائدة: ٣.

(٢) تفسير الطبري ٨/٧١.

(٣) فتح الباري، كتاب الذبائح والصيد ٩/٦٥٤، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٥٦، والمستدرك، تفسير سورة الأنعام ٢/٣١٧.

(٤) المستدرك، كتاب الأطعمة ٤/١١٥، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٥٤ ـ ٣٥٥.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفَّان، حدثنا أبو عَوَانةَ، عن سِمَاك بن حَرْب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ماتت شاةٌ لسودةَ بنت زَمْعَة، فقالت: يا رسولَ الله، ماتت فلانةُ - تعني الشاة - قال: فَلَولا أَخَذْتُم مَسْكها[1]؟. قالت: نأخذُ مَسْك شاةٍ قد ماتت؟! فقال لها رسولُ الله - ﷺ -: إنما قال الله: ﴿قل لا أجدُ فيما أُوحِيَ إليَّ محرماً على طاعم يَطْعَمه إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾، وإنكم لا تَطْعَمُونه، أن تَدبغُوه فتَنتَفِعُوا به. فأرسَلَت فسلَخت مَسْكها فَدَبغَته، فاتَّخذَتْ منه قِرْبَةً، حتى تخرَّقت عندها[2].

ورواه البخاريّ والنسائي، من حديث الشعبيِّ، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن سَودَةَ بنت زَمْعَة، بذلك أو نحوه[2].

وقال سعيدُ بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن نُميلَة الفَزَارِيِّ، عن أبيه قال: كنتُ عند ابن عُمَر، فسأله رجلٌ عن أكْلِ القُنْفُذِ، فقرأ عليه: ﴿قل لا أجد فيما أُوحِي إلي مُحرَّماً على طاعم يطعمه﴾... الآية، فقال شيخٌ عنده: سمعتُ أبا هُرَيرة يقول: ذُكِر عند النبي - ﷺ - فقال: «خَبيثَةٌ من الخبائثِ». فقال ابن عُمَر: إن كان النبي - ﷺ - قاله فهو كما قال.

ورواه أبو داودَ، عن أبي ثور، عن سَعِيد بن منصور، به[3].

وقولُه تعالى: ﴿فمن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ﴾، أي: فمن اضطر إلى أكْلِ شيءٍ مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، وهو غير مُتلبِّس ببغيٍ ولا عدوان، ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾، أي: غفورٌ له، رحيمٌ به. وقد تَقدَّم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية[4].

والمقصودُ من سياقِ هذه الآيةِ الكريمةِ الردُّ على المشركينَ الذين ابتدَعوا ما ابتدَعُوه، من تحريم المحرَّمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البَحِيرة والسَّائبة والوَصِيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسولَه أن يُخْبِرَهم أنه لا يَجِدُ فيما أوحاه الله إليه أن ذلك مُحرَّم، وإنما حُرِّم ما ذكر في الآية، من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يُحرَّم، وإنما هو عفوٌ مسكوتٌ عنه، فكيف تزعُمون أنتم أنه حَرَامٌ، ومن أين حَرَّمتموه ولم يحرِّمه؟ وعلى هذا فلا يَنْفي تحريم أشياءَ أُخَر فيما بعدَ هذا، كما جاء النهيُ عن لحومِ الحُمُر ولحومِ السباع، وكلِّ ذي مِخْلَبٍ من الطير، على المشهورِ من مذاهبِ العُلَماءِ.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

قال ابنُ جَرير: يقولُ تعالى: «وحَرَّمنا على اليهود كُلَّ ذي ظُفُر»، وهو [من] البهائم والطير ما لم يَكُن مشقوقَ الأصابع، كالإبل والنعام والإوَزِّ والبطِّ[5].

قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كُلَّ ذي ظُفُرٍ﴾، وهو البعيرُ والنعامةُ. وكذا قال مجاهد والسدِّي في روايةٍ.

---

(١) المَسْك: الجلد.

(٢) مسند أحمد ١/٣٢٧ - ٣٢٨، وفتح الباري، كتاب الأيمان ١١/٥٦٩، والنسائي، كتاب الفرع والعتيرة ٧/١٧٣.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/٣٥٤.

(٤) انظر تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة.

(٥) تفسير الطبري ٨/٧٢

وقال سعيد بن جُبَير: هو الذي ليس بمنفرج الأصابع ـ وفي رواية عنه: كلُّ شيءٍ مُتفرِّق الأصابع، ومنه الدِّيكُ.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿وعلى الذين هَادُوا حرَّمنا كُلَّ ذي ظُفُرٍ﴾. وكان يقال: البعيرُ والنعامة وأشياء[1] من الطير والحيتان. وفي رواية: البعير والنعامة، وحَرُم عليهم من الطير البطُّ وشبهه، وكلُّ شيء ليس بمشقوق الأصابع.

وقال ابنُ جُرَيج، عن مجاهد: ﴿كلَّ ذي ظُفُرٍ﴾، قال: النعامةُ والبعيرُ، شقًا شقًا. قلت للقاسم بن أبي بَزّة وحَدَّثَنيه: ما شقًا شقًا؟ قال: كلُّ ما لم ينفرج من قوائم البهائم. قال: وما انفرج أكلته؟ قال: انفرجتْ قوائم البهائم[2] والعصافير، قال: فيهودُ تأكلها. قال: ولم تَنفرِجْ قائمةُ البعير ـ خُفُّهُ ـ ولا خُفُّ النعامة ولا قائمة الوزِّ، فلا تأكلُ اليهود الإبلَ ولا النعامَ ولا الوَزَّ، ولا كلَّ شيءٍ لم تَنفرِج قائمتُه، ولا تأكلُ حِمارَ وَحْشٍ[3].

وقولُه: ﴿ومن البقر والغَنَم حَرَّمنا عليهم شُحُومَهما﴾، قال السدِّيُّ: يعني الثَّرْبَ[4] وشَحْمَ الكُلْيَتين. وكانت اليهود يقولون: إنه حَرَّمه إسرائيل، فنحن نُحَرِّمه. وكذا قال ابنُ زيد.

وقال قتادةُ: الثَّرْبُ وكلُّ شَحْمٍ كان كذلك ليس في عظم.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿إلَّا ما حَمَلت ظُهورُها﴾: يعني ما عَلِق بالظهر من الشحوم.

وقال السدِّيُّ وأبو صالحٍ: الألْيَةُ مما حَمَلَت ظُهورُهما.

وقولُه: ﴿أو الحوايا﴾، قال الإمامُ أبو جعفرِ بنُ جرير: الحوايا جَمْعٌ، واحدُها حاوياءُ، وحاويةٌ، وحَوِيَّةٌ وهو ما تَحَوَّى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بَنَاتُ اللبن، وهي المباعرُ، وتسمى المرابِض، وفيها الأمعاءُ.

قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حَرَّمنا عليهم شُحُومَهما، إلَّا ما حَمَلَت ظُهورهما، أو ما حَمَلَت الحوايا[5].

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: أو الحوايا، وهي المِبْعَرُ[6].

وقال مجاهد: «الحوايا المِبْعَرُ، والمَرْبِضُ»[7] وكذا قال سعيد بن جُبير، والضَّحَّاك، وقتادةُ، وأبو مالك، والسدِّيُّ.

وقال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسْلَم: ﴿الحوايا﴾، المرابِضُ التي تكونُ فيها الأمعاء، تكون وَسَطها، وهي بنات اللبن، وهي في كلام العرب تُدعى المَرَابِض.

وقوله تعالى: ﴿أوْ ما اختلط بعظم﴾، أي: وإلا ما اختلط من الشُّحُوم بالعظام فقد أحْلَلْناه لهم.

---

(١) في تفسير الطبري ٨/٧٣: «وأشباهه».
(٢) في تفسير الطبري: انفرجت قوائم الدجاج والعصافير.
(٣) تفسير الطبري ٨/٧٣.
(٤) الثَّرْبُ: شحم رقيق يُغَشِّي الكَرِش والأمعاء.
(٥) تفسير الطبري ٨/٧٥.
(٦) المِبْعَرُ: مكان خروج البعر من الأمعاء.
(٧) المَرْبَض ـ بفتح الباء وكسرها ـ: مجتمع الحوايا.

قال ابن جُرَيج: شحمُ الألْية اختلَطَ بالعُصْعُص[1] فهو حلال. وكلُّ شيء في القوائم والجَنْب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال. ونَحْوَه قال السديّ.

وقولُه تعالى: ﴿ذلك جَزَيناهم ببَغْيِهم﴾، أي: هذا التَّضْييقُ إنما فعلناه بهم وألزمناهم به، مجازاةً لهم على بَغْيِهم ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿فبِظلمٍ من الذين هادُوا حَرَّمنا عليهم طَيِّباتٍ أُحِلَّت لهم، وبِصَدِّهم عن سبيل الله كثيراً﴾.

وقولُه: ﴿وإنا لصادقون﴾، أي: وإنا لعادلون فيما جَازيناهم به.

وقال ابنُ جَرير: وإنَّا لصادقون فيما أخبرناك به ـ يا محمَّد ـ من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زَعَموا من أن إسرائيل هو الذي حَرَّمه[2]. والله أعلم.

وقال عبدالله بن عباس: بَلَغ عُمَرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن سَمُرَةَ باع خمراً، فقال: قاتل الله سَمُرَةَ! ألم يعلم أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لعن الله اليهودَ، حُرِّمت عليهم الشحومُ فَجَمَلُوها[3] فباعوها».

أخرجاه من حديث سفيانَ بن عُيَيْنَةَ، عن عَمْرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عَبَّاسٍ، عن عُمَر، به[4].

وقال الليثُ: حدثني يزيدُ بن أبي حَبِيبٍ قال: قال عطاءُ بن أبي رَبَاح: سَمِعتُ جابرَ بن عبد الله يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول عامَ الفتح: «إنَّ الله ورسولَه حرَّم بيع الخَمْر والمَيْتَةِ والخنزير والأصنام. فقيل: يا رسولَ الله، أرأيت شُحُوم الميتة، فإنه يُدهَنُ بها الجلود ويُطلَى بها السفن، ويَسْتَصْبِح[5] بها الناس. فقال: لا، هو حَرَام. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ عند ذلك: قاتلَ اللهُ اليهودَ، إن الله لمَّا حَرَّم عليهم شُحُومَها جملَوه[3]، ثم باعوه وأكلوا ثمنه». رواه الجماعة من طرق، عن يزيد بن أبي حَبِيب، به[6].

وقال الزُّهريُّ، عن سَعيد بن المسيَّب، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قاتلَ الله اليهودَ! حُرِّمت عليهم الشحومُ، فباعوه وأكلوا ثَمَنَه».

رواه البخاريُّ ومسلم جميعاً، عن عبدانَ، عن ابن المباركِ، عن يُونُسَ، عن الزهريِّ، به[7].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن إسحاقَ، حدثنا سُلَيمان بن حَرْب، حدثنا وُهَيْبٌ، حدثنا خالد الحذَّاءِ، عن بركة أبي الوليد، عن ابن عَبَّاسٍ: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان قاعداً خَلْفَ المقام، فرَفع بَصَره إلى السماء فقال: «لعن اللهُ اليهودَ ـ ثلاثاً ـ إن الله حَرَّم عليهم الشُّحُوم، فباعوها وأكلوا أثمانها. وإن الله لم يُحَرِّم على قومٍ أَكْلَ شيءٍ إلا حَرَّم عليهم ثَمنه».

---

(١) هو: عظم أصل الذَّنَب، ويحدُّ في الطب بعظم صغير في نهاية العمود الفَقَاري في الإنسان والقَرَدَةِ العُلْيا، ويتكون من التحام ثلاث فقراتٍ أو أربعٍ. والمقصودُ هنا عظم أصل الذَّنَب مما يُؤكَلُ.

(٢) تفسير الطبري ٨/٧٧.

(٣) جَمَل الشحم: أذابه.

(٤) فتح الباري، كتاب البيوع ٤/٤١٤، ومسلم، كتاب المساقاة ١٢٠٧.

(٥) أي: يستضيئون بها.

(٦) فتح الباري، كتاب البيوع ٤/٤٢٤، ومسلم، كتاب المساقاة ١٢٠٧، وسنن أبي داود، كتاب البيوع ٣/٢٧٩ ـ ٢٨٠، وعارضة الأحوذي، أبواب البيوع ٥/٢٩٩ ـ ٣٠٠، والنسائي، كتاب البيوع ٧/٣٠٩ ـ ٣١٠، وابن ماجه، كتاب التجارات ٧٣٢، ومسند أحمد ٣/٣٢٤، ٣٢٦.

(٧) فتح الباري، كتاب البيوع ٤/٤١٤. وهو في مسلم من رواية حرملة بن يحيى، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري، ومن رواية إسحاق الحنظلي، عن روح، عن ابن جُرَيج، عن الزهري، انظر كتاب المساقاة ١٢٠٨. وانظر تحفة الأشراف ١٠/٦٧.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، أنبأنا خالد الحَذَّاء، عن بَرَكَةَ أبي الوليد، أنبأنا ابنُ عباس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحِجْرَ، فنظر إلى السماء فضحك فقال: «لَعَن الله اليهودَ، حُرِّمت عليهم الشحومُ فباعوها وأكلوا أثمانها، وإنَّ الله إذا حَرَّم على قوم أكْلَ شيءٍ حَرَّم عليهم ثَمَنه»[1].

وَرَواه أبو داود، من حَديث خالدِ الحَذَّاءِ[1].

وقال الأعمشُ، عن جامع بن شَدَّاد، عن كُلثوم، عن أُسامَةَ بن زيدٍ قال: دخلنا على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو مريض نَعُوده، فوجدناه نائماً قد غُطِّي وجهه بِبُرْدٍ عَدَنيٍّ، فكَشَفَ عن وجهه وقال: «لعنَ الله اليهودَ، يُحَرِّمون شحومَ الغَنَمِ ويأكلون أثمانها»، وفي رواية: «حُرِّمَت عليهم الشحومُ فباعوها وأكلوا أثمانها».

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: فإن كذبَّك ـ يا محمد ـ مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿ربُّكم ذو رحمةٍ واسعةٍ﴾ وهذا ترغيبٌ لهم في ابتغاء رحمةِ الله الواسعة، واتِّباع رسوله، ﴿ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين﴾ ترهيبٌ لهم في مُخالفتهم الرسولَ خاتَمَ النبيين. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إن ربك سريعُ العقاب، وإنه لغفور رحيم﴾، وقال: ﴿وإن ربَّك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عبادي أنِّي أنا الغفور الرحيم. وأنَّ عذابي هو العذاب الأليم﴾، وقال تعالى: ﴿غافرِ الذَّنْب وقابلِ التوب شديد العقاب ذي الطَّوْلِ﴾، وقال تعالى: ﴿إن بطش ربك لشديد. إنه هو يُبْدِئُ ويُعِيدُ. وهو الغفور الودود﴾. والآياتُ في هذا كثيرةٌ جداً.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

هذه مناظرةٌ ذَكَرها الله تعالى، وشُبْهةٌ تَشَبَّثَ بها المشركون في شِرْكهم وتحريم ما حَرّموا: فإن الله مُطَّلع على ما هُم فيه من الشِّرك والتحريم لما حَرّموه، وهو قادرٌ على تغييره بأن يُلْهِمَنا الإيمان، أو يَحُولَ بيننا وبين الكفر، فلم يُغَيِّره، فدل على أنه بمشيئته وإرادَته ورضاه مِنّا ذلك، ولهذا قال: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرّمنا من شيءٍ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عبدناهم﴾ . . . الآية، وكذلك الآية التي في «النَّحل» مثل هذه سواء[2] قال الله تعالى: ﴿كذلك كَذَّب الذين من قبلهم﴾، أي: بهذه الشبهة ضَلَّ مَن ضلَّ مِن قبل هؤلاء. وهي حُجَّةٌ داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحةً لما أذاقَهُم الله بأسه، ودَمَّر عليهم، وأدال عليهم رُسُلَه الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

(١) مسند أحمد ٢٤٧/١، وسنن أبي داود، كتاب البيوع ٢٨٠/٣.

(٢) الآية ٣٥، وهي قوله تعالى: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ . . الآية.

﴿قل: هل عندكم من علم﴾، أي، بأن الله راضٍ عنكم فيما أنتم فيه ﴿فتُخرجُوه لنا﴾، أي: فَتظهِرُوه لنا وتُبَيِّنوه. وتُبرِزُوه، ﴿إن تتبعون إلاّ الظن﴾، أي: الوهمَ والخيال. والمرادُ بالظن هنا هنا الاعتقادُ الفاسدُ، ﴿وإن أنتم إلاّ تخرصون﴾ أي: تَكْذِبون على الله فيما ادَّعيتُموه.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ولو شاءَ الله ما أشركنا﴾، وقال: ﴿كذلك كَذَّب الذين من قبلهم﴾، ثم قال: ﴿ولو شاء الله ما أشرَكُوا﴾[١]، فإنهم قالوا: عبادَتُنا الآلهة تُقَرِّبنا إلى الله زلفى. فأخبَرَهُم الله أنها لا تُقَرِّبهم، وقولُه: ﴿ولو شاءَ الله ما أشركوا﴾، يقول تعالى: لـو شئتُ لجمعتُهم على الهدى أجمعيـن[٢].

وقولُه تعالى: ﴿قُل فَللَّه الحجَّةُ البالغة فلو شاءَ لهداكم أجمَعِينَ﴾، يقول تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿فَللَّه الحجة البالغة﴾، أي: له الحكمة التامة والحجة البالغة في هدايةِ مَن هدَى، وإضلال من أضلَّ، ﴿فلو شاء لهداكم أجمعينَ﴾، وكلُّ ذلك بقدرته ومَشِيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضَى عن المؤمنين، ويُبْغِضُ الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمَعَهم على الهدى﴾، وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً﴾. وقولِه: ﴿ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين. إلاّ من رَحِم ربُّك ولذلك خَلَقهم وتَمَّت كَلِمةُ ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.

قال الضحاك: لا حُجَّةَ لأحد عَصَى الله، ولكن للهِ الحجةُ البالغةُ على عباده.

وقولُه تعالى: ﴿قل هَلُمَّ شهداءَكم﴾، أي: أَحضِرُوا شهداءكم ﴿الذين يشهدُون أن الله حَرَّم هذا﴾، أي: هذا الذي حَرمتموه وكَذَبتم وافتريتم على الله فيه، ﴿فإن شَهدوا فلا تَشْهَدْ معهم﴾، أي: لأنهم إنما يشهَدُون والحالة هذه كذباً وزوراً، ﴿ولا تَتَبع أهواء الذين كَذَّبوا بآياتنا والذين لا يُؤمِنُونَ بالآخرة وهم بِرَبِّهم يعدلون﴾، أي: يشركون به، ويجعلُون له عَدِيلاً.

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًۭٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًۭا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

قال داودُ الأوديُّ، عن الشعبيِّ، عن علقمةَ، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: من أراد أن يقرأ صحيفةَ رسول الله ـ ﷺ ـ التي عليها خاتمة[٣]، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حَرَّم ربُّكم عليكم ألا تُشْرِكُوا به شيئاً﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾[٤].

وقال الحاكمُ في مستَدْركه: حدثنا بكرُ بن محمد الصيرفيُّ بمَرْوَ، حدثنا عبدُ الصَّمد بنُ الفَضلِ، حدثنا مالك بن إسماعيلَ النَّهديُّ، حدثنا إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عن عبد الله بن خَلِيفةَ قال: سَمِعتُ ابنَ عَباس يقول: إنَّ في الأنعامِ آياتٍ محكماتٍ هنَّ أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾...

(١) أي في الآية ١٠٧ في هذه السورة.

(٢) تفسير الطبري ٧٨/٨.

(٣) قوله: «التي عليها خاتمه»، كناية عن أن هذه الآيات محكماتٌ غير منسوخاتٍ.

(٤) أخرجه الترمذي بإسناده إلى داود الأوديّ، انظر تفسير سورة الأنعام ١٩١/١١.

الآيات، ثم قال: صحيحُ الإسنادِ، ولم يخرجاه[١].

قلت: ورواه زُهَير وقَيس بن الربيع، كِلاهما عن أبي إسحاقَ، عن عبد الله بن قَيس، عن ابن عباس، به. فالله أعلم.

وروى الحاكمُ أيضاً في مُستَدْرَكه من حديث يزيد بن هارون، عن سُفيانَ بن حُسَين، عن الزهريِّ، عن أبي إدريسَ، عن عُبادةَ بن الصامتِ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أيكم يُبايعُني على ثلاث؟ ثم تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿قُل تعالَوا أتلُ ما حَرَّم ربُّكم عليكم﴾، حتى فَرَغ من الآيات. فمن وَفَى فأجره على الله، ومن انتقَصَ منهنَّ شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبتَه، ومن أُخِّر إلى الآخرة فأمرهُ إلى الله، إن شاء عَذَّبه وإن شاء عفا عنه».

ثم قال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وإنما اتفقا على حديث الزُّهري، عن أبي إدريس، عن عُبادَةَ: «بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً...» الحديث. وقد روى سفيان بن حُسَين كلا الحديثين، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين إذا جَمَع بينهما، والله أعلم[٢].

وأما تفسيرها فيقولُ تعالى لنبيه ورسوله محمد ـ ﷺ ـ: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين الذين عَبَدوا غير الله، وحَرَّموا ما رَزَقَهُم الله، وقَتَلُوا أولادَهم، وكلُّ ذلك فَعَلُوه بآرائهم وتَسويلِ الشياطين لهم ـ ﴿قل﴾ لهم: ﴿تعالوا﴾، أي: هَلُمُّوا وَأَقْبِلوا ﴿أتل ما حَرَّم ربكم عليكم﴾، أي: أَقُصُّ عليكم وأُخبِرُكم بما حَرَّم ربُّكم عليكم حقاً لا تَخَرُّصاً ولا ظناً، بل وَحياً منه وأمراً من عنده: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا به شيئاً﴾، وكأنَّ في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره[٣]: وأوصاكم ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذلكم وَصَّاكم به لعلكم تعقلون﴾، كما قال الشاعر:

حَـجَّ وأوصَـى بسُـلَيمى الأعْبُـدَا   أنْ لا تَـرَى ولا تُـكَـلِّمْ أحَـدَا
ولا يَـزَلْ شَـرَابُـهـا مُـبَـرَّدَا

وتَقُول العربُ: أمرتك أن لا تَقُومَ.

(١) المستدرك، تفسير سورة الأنعام ٢/٣١٧.

(٢) المستدرك، تفسير سورة الأنعام ٢/٣١٨، وأما الحديث الذي اتفق عليه الشيخان ففي فتح الباري، كتاب الإيمان ١/٦٤، ومسلم، كتاب الحدود ١٣٣٣.

(٣) اعتمد ابن كثير في إعرابه على ما قاله الطبري في تفسيره ٨/٨١ ـ ٨٢. ولم يقدِّر الطبري فعل الوصية قبل قوله تعالى: ﴿ ألا تشركوا ﴾، بل أعرب المصدر المؤول من ﴿ ألا تشركوا ﴾ إما خبراً لمبتدأ تقديره: هو ألا تشركوا، أو بدلاً من (ما) في قوله: ﴿ قل تعالوا أتل ما حَرَّم ﴾.

وذكر الطبري أيضاً أن (لا) في قوله تعالى: ﴿ ألاّ تشركوا ﴾ تحتمل أن تكون نافيةً والفعلُ بعدها منصوبٌ بأن، ومَثَلُ الآيةِ حينئذٍ مَثَلُ أن يُقال: أمرتُك ألاّ تقومَ، وتحتمل أن تكون ناهية فالفعل مجزوم بها.

وإذا كانت (لا) نافية والفعل منصوبٌ بأن فالكلام معها خبرٌ، وهنا يسألُ الطبريُّ: كيف يجوزُ توجيهُ قوله ﴿ ألا تشركوا ﴾ على معنى الخبر، وقد عُطِف عليه بقوله: ﴿ ولا تقتُلُوا أولادكم من إملاقٍ ﴾، وهو نَهْيٌ لا محالة؟.

ويجيبُ الطبري بأن نَسَقَ الآية حينئذٍ على نحو قوله تعالى: (قل: إني أُمِرتُ أن أكون أوّلَ من أسلَمَ ولا تكونَنَّ من المشركين)، فقد عُطِفَ فيها نهيٌ على خبَرٍ. ثم تَمَثَّلَ الطبريُّ بقول الراجز الذي ساقه ابنُ كثيرٍ، فقد عطف النهي فيه وهو: ولا تُكلِّمْ، ولا يَزلْ، على الخبر وهو: أن لا ترى.

فأما تقدير فعل الوصية فإنما قدَّره الطبري في قوله تعالى: ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أتاني جبريلُ فَبشَّرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دَخل الجنة. قلت: وإن زَنى وإن سَرَق؟ قال: وإن زنى وإن سَرَق قلت: وإن زَنى وإن سَرَق؟ قال: وإن زَنى وإن سَرَق. قلت: وإن زَنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، وإن شَرِب الخمر».

قلت: وفي بعض الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذرٍّ لرسول الله ﷺ، وأنه ـ عليه السلام ـ قال في الثالثة: «وإن رَغِم أنفُ أبي ذرٍّ». فكان أبو ذرٍّ يقول بعد تمام الحديث: «وإن رَغِم أنفُ أبي ذرٍّ»[١].

وفي بعض المسانيد والسُّنن عن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يقولُ الله تعالى: ﴿يا ابنَ آدمَ، إنك ما دعوتَني ورجَوتني فإنيّ أغفرُ لك على ما كان منكَ ولا أبالي، ولو أتيتَني بقُراب[٢] الأرض خطيئةً أتيتك بقُرابها مَغفرةً ما لم تُشرك بي شيئاً. وإن أخطأتَ حتى تبلُغَ خطاياك عَنانَ السَّماءِ ثم استغفرتني، غَفرتُ لك»[٣].

ولهذا شاهدٌ في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرَكَ به ويَغْفِر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعودٍ: «من مات لا يُشرِكُ بالله شيئاً، دَخَل الجنة»[٤]. والآياتُ والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ جداً.

وروى ابن مَرْدُويه من حديث عُبَادَة وأبي الدرداءِ: «لا تُشركُوا بالله شيئاً، وَإنْ قُطِّعْتُم أو صُلِبتم أو حُرِقتم».

وقال ابنُ أبي حاتِمٍ: حدثنا مُحمَّد بن عوف الحِمْصي، حدثنا ابنُ أبي مريَم، حدثنا نافع بن يزيدَ، حدثني سَيَّار بن عبد الرحمن، عن يزيد بن قَوْذَرٍ، عن سلمة بن شُرَيح، عن عُبادة بن الصامت قال: أوصانا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بسبع خِصَالٍ: «ألا تشركوا بالله شيئاً، وإن حُرِّقتم وقُطِّعتم وصُلِبتم».

وقولُه تعالى: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾، أي: وأوصاكم وأمَركم بالوالدين إحساناً، أي: أن تُحسِنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وقَضى ربُّك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً﴾.

وقرأ بعضُهم: ﴿ووَصّى ربُّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيَّاه وبالوالدين إحساناً﴾[٥].

والله تعالى كثيراً ما يَقرن بين طاعته وبرِّ الوالدين، كما قال: ﴿أن اشكر لي ولوالديكَ إليَّ المصير. وإن جاهداكَ على أن تُشرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطعْهُما وصاحِبْهُما في الدنيا معروفاً، واتَّبع سبيلَ من أناب إليَّ ثم إليَّ مَرْجِعُكم فأنبِّئكم بما كنتم تعملون﴾. فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مُشركَين يَحْتَسِبهما[٦]، وقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا مِيثاق بني إسرائيل لا تعبدُون إلاّ الله وبالوالدينِ إحساناً﴾... الآية. والآيات في هذا كثيرةٌ. وفي الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ: أيُّ العمل أحب إلى الله؟ قال:

---

(١) فتح الباري، كتاب اللباس ١٠/٢٨٣، ومسلم، كتاب الإيمان ٩٥.

(٢) قُراب الأرض ـ بضم القاف وكسرها ـ: ما يُقارِبُ ملأها.

(٣) مسند أحمد ٥/١٥٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٣/٥٩ ـ ٦٠.

(٤) مسلم، كتاب الإيمان ١/٩٤.

(٥) المتواتر هو: (وقضى) أما «ووصّى»، ففي مصحف ابن مسعود وأصحابه، وغيرهم. انظر البحر المحيط ٦/٢٥٠، والكشاف للزمخشري.

(٦) في الأصول: يحسبهما. ولعلّ ما أثبت هو الصواب. ومعنى يحتسبهما: يطلب الأجر من الله على برهما.

الصلاةُ على وقتها قلت: ثم أيٌّ؟ قال: برُّ الوالدين. ثم أيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله. قال ابنُ مسعود: حَدَّثني بهنَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ولو استزدتُه لزادَني»(١).

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه بسنده عن أبي الدرداء، وعن عُبادة بن الصامت، كلٌّ منهما يقول: أوصاني خَليلي ـ ﷺ ـ: «أَطِعْ والِدَيْك، وإن أَمَراك أن تَخرُجَ لهما من الدنيا فافعَلْ». ولكن في إسنادَيهما ضعفٌ، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكُم وإياهم﴾ لَمَّا أوصى تعالى ببرِّ الآباء والأجداد، عَطَف على ذلك الإحسانَ إلى الأبناءِ والأحفادِ، فقال تعالى: ﴿ولا تقتُلوا أولادَكُم من إملاقٍ﴾، وذلك أنهم كانوا يقتلُون أولادهم كما سَوَّلت لهم الشياطينُ ذلك، فكانوا يَئِدُون البناتِ خشيةَ العار، وربما قتلوا بعضَ الذكور خَشْيةَ الافتقار. ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الذنب أعظمُ؟ قال: أن تجعلَ لله نِدّاً وهو خَلَقَك. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدَكَ خشية أن يَطْعَمَ معك. قلت: ثم أيٌّ قال: أن تُزَانيَ حَليلة جارِك. ثم تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿والذين لا يدعُون مع الله إلهاً آخَرَ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلاّ بالحق، ولا يزنون﴾(٢)... الآية.

وقولُه: ﴿من إملاقٍ﴾، قال ابنُ عباس، وقتادةُ، والسُّدِّي: هو الفقر. أي: ولا تقتلُوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان»: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ أي: خشيةَ فَقْرٍ في الآجل، ولهذا قال هناك: ﴿نحن نرزُقُهم وإياكم﴾، فبدأ برزقِهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فَقْركم بسببهم، فرزقُهم على الله، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلاً، قال: ﴿نحن نرزقُكُم وإياهم﴾، لأنه الأهمُّ ها هنا، والله أعلم.

وقولُه تعالى: ﴿ولا تقرَبُوا الفواحشَ ما ظَهَر منها وما بَطَن﴾، كقوله تعالى: ﴿قُل: إنما حَرَّم ربِّي الفواحِشَ ما ظَهَر منها وما بَطَن، والإثم والبَغْي بغير الحقِّ، وأن تُشْركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطاناً، وأن تَقُولُوا على الله ما لا تعلمون﴾. وقد تَقدَّم تفسيرُها عند قوله: ﴿وذَرُوا ظاهِرَ الإثمِ وباطِنَه﴾(٣).

وفي الصَّحيحَين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا أحد أغيرُ من الله، من أجل ذلك حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بَطَن»(٤).

وقال عبد الملك بن عُمير، عن وَرَّادٍ، عن مولاه المغيرة قال: «قال سعدُ بن عُبادة: لو رأيتُ مع امرأتي رَجُلاً لضربته بالسيف غير مُصْفَح(٥). فبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: أتعجبون من غَيْرَة سَعْدٍ؟! فوالله لأنا أغيرُ من سَعْدٍ، والله أغيرُ مني، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بَطَنَ. أخرجاه(٦).

وقال كامل أبو العلاء، عن أبي صالح، عن أبي هُريرة قال: قيل: يا رسولَ الله، إنا نغارُ. قال: والله إني لأغارُ، والله أغيرُ مِني، ومن غَيْرَتِهِ نَهى عن الفواحش».

(١) فتح الباري، كتاب مواقيت الصلاة ٢/٩، ومسلم، كتاب الإيمان ٨٩.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ٨/١٦٣، ومسلم، كتاب الإيمان ٩٠.
(٣) انظر تفسير الآية ١٢٠ من سورة الأنعام.
(٤) تقدم الحديث عند الآية ١٦٥ من سورة النساء، وخرجناه هنالك.
(٥) يروى مصفح بكسر الفاء وفتحها، والمعنى على الكسر يكون وصفاً للضارب غير ضاربٍ بصفح السيف، وهو جانبه، بل أضربه بحدّه، فأما على الفتح فيكون وصفاً للمضروب، أي: لا يكون مضروباً بعرض السيف بل بحدّه.
(٦) فتح الباري، كتاب الحدود ١٢/١٧٤، ومسلم، كتاب اللعان ١١٣٦.

رواه ابن مَرْدُويه، ولم يخرجه أحدٌ من أصحاب الكتب السّتة، وهو على شَرْطِ الترمذيّ، فقد رَوى بهذا السَّنَدِ: «أعمارُ أُمّتي ما بين الستين إلى السبعين»[1].

وقولُه تعالى: ﴿ولا تقتُلوا النفس التي حَرّم الله إلا بالحق﴾، وهذا مما نصَّ تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلّا فهو داخلٌ في النهي عن الفَوَاحِشِ ما ظَهر منها وما بطن، فقد جاء في الصَّحيحين، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «لا يحلُّ دَمُ امرىءٍ مسلِم يشهدُ أن لا إلَه إلّا الله وأنّي رسولُ الله إلّا بإحدى ثلاثٍ: الثّيِّبُ الزاني، والنَّفسُ بالنَّفسِ، والتاركُ لِدينه المفارقُ للجماعَةِ»[2].

وفي لَـفْـظٍ لمسلم: «والذي لا إلَه غيرُه لا يحلُّ دمُ رجلٍ مسلم»... وذكره، قال الأعمش: فَحَدَّثْتُ به إبراهيم، فَحَدَّثني عن الأسود، عن عائشة، بمثله[2].

وَرَوَى أبو داودَ والنسائيُّ، عن عائشة - رضي الله عنها - أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: «لا يحلُّ دَمُ امرىءٍ مسلمٍ إلّا بإحدى ثلاث خصالٍ: زانٍ محصَن يُرْجَم، ورجلٌ قَتل متَعَمِّداً فَيُقتَلُ، ورجلٌ يخرُج من الإسلام حارب الله ورسوله، فَيُقتَلُ أو يُصلَبُ أو يُنْفَى من الأرض»، وهذا لفظ النسائي[3].

وعن أمير المؤمنين عثمانَ بن عَفَّان - رضي الله عنه - أنه قال وهو محصُورٌ: سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «لا يحلّ دمُ امرىءٍ مسلم إلّا بإحدى ثلاث: رجل كَفَر بعد إسلامه، أو زَنَى بعد إحصانه، أو قَتل نفساً بغير نفس». فوالله ما زنيتُ في جاهليّةٍ ولا إسلام، ولا تَمَنَّيتُ أن لي بديني بدلاً منه بعد إذْ هداني الله، ولا قتلتُ نفساً، فَبِم تقتُلوني». رواه الإمامُ أحمد، والترمذيّ، والنسائيّ، وابن ماجه. وقال الترمذيُّ: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ[4].

وقد جاء النهيُ والزَّجرُ والوعيدُ في قتل المُعَاهد - وفي المستأمن من أهْل الحرب - كما رواه البخاريّ، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال: من قتل مُعاهَداً لم يَرَحْ رائحةَ الجَنّةِ وإنَّ ريحها تُوجَدُ من مسيرة أربعين عاماً»[5].

وعن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «من قَتل معاهداً له ذمّةُ اللهِ وذمّةُ رسوله، فقد أخفَرَ بذمّةِ الله، فلا يَرَحْ رائحَةَ الجنة، وإنّ ريحها لَيُوجَدُ من مَسِيرةِ سبعينَ خريفاً». رواه ابن ماجه، والترمذي وقال: حسن صحيح[6].

وقولُه: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾، أي: هذا ما وصّاكم به لعلكم تَعْقِلُون عنه أمْرَه ونَهْيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) فتح الباري، كتاب الديات ١٢/٢٠١، ومسلم، كتاب القسامة ١٣٠٣.

(٣) سنن النسائي، كتاب تحريم الدم ٧/١٠١ - ١٠٢، وسنن أبي داود، كتاب الحدود ٤/١٢٦.

(٤) مسند أحمد ١/٦٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩/٢ - ٣، وسنن النسائي، كتاب تحريم الدم ٧/٩١ - ٩٢، وابن ماجه، كتاب الحدود ٨٤٧.

(٥) فتح الباري، كتاب الديات ١٢/٢٥٩.

لم يرَحْ: لم يجد ريحها. وهذا أجودُ ما ضبط به الفعل. وحكى بعضهم في ضبطه: يُرِح، بضم الياء وكسر الراء، كما حُكِي: لم يَرِح، بفتح فكسر

(٦) سنن ابن ماجه كتاب الديات ٨٩٦، وعارضة الأحوذي، أبواب الديات ٦/١٧٥ - ١٧٦.

﴿وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

قال عطاءُ بنُ السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿ولا تقرَبُوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسنُ﴾ و﴿إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً﴾ . . . الآية، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابَه من شرَابه، فجعل يَفْضُل الشيءُ فيُحبَسُ له حتى يأكله، ويفسُد. فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله: ﴿يسألونك عن اليتامى، قل: إصلاحٌ لهم خيرٌ، وإن تُخالطُوهم فإخوانكُم﴾، قال: فخلطوا طعامَهم بطعامهم، وشرابَهم بشرابهم، رواه أبو داود[١].

وقولُه: ﴿حتّى يبلُغَ أشدَّه﴾، قال الشعبيُّ، ومالك، وغيرُ واحد من السلف: يعني حتى يحتلِمَ.

وقال السدِّيُّ: حتى يبلُغَ ثلاثين سنة[٢]. وقيل: أربعون سنةً، وقيل: ستون سنةً. قال: وهذا كلُّه بَعيدٌ ها هنا، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وأوفوا الكيلَ والميزان بالقِسْط﴾، يأمرُ تعالى بإقامةِ العَدْلِ في الأخذ والإعطاء، كما توعَّد على تَرْكِهِ في قوله تعالى: ﴿وَيلٌ لِلمُطَفِّفين. الذين إذا اكتالُوا على الناس يستوفُونَ. وإذا كالُوهم أو وَزَنُوهم يُخسِرُونَ. ألاّ يظنُّ أولئك أنهم مبعوثُونَ. ليومٍ عظيمٍ. يوم يقومُ الناسُ لربِّ العالمين﴾. وقد أهلك الله أمةً من الأمم كانوا يَبْخَسُون المكيال والميزان.

وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذيِّ، من حَديث الحُسَين بن قيس أبي علي الرَّحَبِيِّ، عن عكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأصحاب الكَيْلِ والميزانِ: «إنكم وُلِّيتم أمراً هلَكَتْ فيه الأمم السالفة قبلكم». ثم قال: «لا نعرفه مرفوعاً إلاّ من حديث الحُسَين، وهو ضعيفٌ في الحديث، وقد رُوِي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً»[٣].

قلتُ: وقد رواه ابن مَرْدُويه في تفسيره، من حديث شريك، عن الأعمش، عن سالم بن أبي الجَعْد، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنكم ـ معشرَ الموالي ـ قد بَشَّركم الله بخصْلتَين بهما هلَكت القرون المُتقدّمة: المكيالِ والميزانِ».

وقولُه تعالى: ﴿لا نُكَلِّف نفساً إلاّ وُسعها﴾، أي: مَن اجتهَدَ في أداءِ الحقِّ وأَخْذه، فإن أخطأ بعد استفراغِ وُسْعِه وبَذْلِ جُهْدِه فلا حَرَج عليه.

وقد روى ابن مَرْدُوَيه من حديث بَقِيَّة، عن مُبَشِّر بن عُبَيد، عن عمرو بن ميمون بن مِهران، عن أبيه، عن سعيد بن المُسَيِّب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿وأوفُوا الكَيل والميزانَ بالقِسْط لا نُكلِّف نفساً إلاّ وُسْعها﴾. فقال: من أوفى على يَدِه في الكَيلِ والميزان، والله يعلَمُ صِحَّةَ نِيَّتِه بالوفاء فيهما، لم يُؤاخَذ. وذلك تأويلُ ﴿وُسْعَهَا﴾، هذا مرسلٌ غريبٌ.

وقولُه: ﴿وإذا قُلتُم فاعدِلُوا ولو كان ذا قُربى﴾ كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا، كونُوا قوَّامين لله شُهَداءَ بالقسط﴾[٤] وكذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكلِّ أحَدٍ، في كل وقتٍ، في كلِّ حالٍ.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الوصايا ٣/١١٤ ـ ١١٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ٨/٨٥.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب البيوع ٥/٢٢٢ ـ ٢٢٣. ولفظه: «وُلِّيتم أمرين».

(٤) هذه آية المائدة ٨، والتي تشبهها هي آية النساء ١٣٥

وقولُه: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾، قال ابنُ جَرير: يقول وَبِوصِيَّةِ الله التي أوصاكم بها فَأَوفُوا، وإيفاءُ ذلك أَنْ تُطِيعوه فيما أمركم ونَهاكم، وتعمَلُوا بكتابه وسُنَّةِ رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله[١].

﴿ذلكم وَصَّاكم به لَعَلَّكم تَذَكَّرون﴾، يقول تعالى: هذا وَصَّاكُم به، أو أَمَرَكُم به، وأكَّد عليكم فيه ﴿لعلكم تذكرون﴾، أي: تَتَّعِظُون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا، وقرأ بعضُهم بتشديد «الذَّالِ»، وآخرون بتخفيفها[٢].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس قولُه: ﴿فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكم عن سَبيله﴾، وقولُه: ﴿أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾، ونحو هذا في القرآن. قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفُرْقَةِ، وأخبرهم أنه إنما هَلَكَ من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله[٣].

ونحوُ هذا قاله مجاهد، وغيرُ واحدٍ.

وقال الإمام أحمدُ بن حَنبلٍ: حدثنا الأسودُ بن عامر ـ شاذانُ ـ حدثنا أبو بكر ـ هو ابن عَيَّاش ـ عن عاصم ـ هُوَ ابن أَبِي النَّجُود ـ عن أبي وائل، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود، رضي الله عنه ـ قال: خَطَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ خَطًّا بيده، ثم قال: هذا سبيلُ الله مستقيماً، وخَطَّ عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السُّبُلُ ليس منها سبيل إلاّ عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عن سَبيله﴾[٤].

وكذا رواه الحاكمُ، عن الأصمِّ، عن أحمدَ بنِ عبد الجبَّارِ، عن أبي بكر بن عَيَّاشٍ، به. وقال: صحيحُ الإسناد ولم يخرجاه[٥]. وهكذا رواه أبو جعفر الرازيُّ، ووَرْقاءُ، وعَمْرُو بن أبي قَيسٍ، عن عاصم، عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة، عن ابنِ مسعود، به مرفوعاً نحوَهُ. وكذا رواه يزيدُ بن هارونَ ومسدَّد والنَّسائي، عن يحيى بن حَبيب بن عَرَبيٍّ، وابنُ حبان من حديث ابن وهب، أربعتهم عن حَمَّاد بن زيد، عن عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، به. وكذا رواه ابنُ جرير[٦]، عن المثنى، عن الحِمَّاني، عن حَمَّادِ بن زيد، به. ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحاق، عن إسماعيل بن إسحاقَ القاضي، عن سليمان بن حَرْبٍ، عن حَمَّاد بن زيد، به كذلك، وقال: صحيح ولم يخرجاه[٥]. وقد رَوَى هذا الحديث النسائي والحاكمُ، من حديث أحمد بن عبدالله بن يونس، عن أبي بكر بن عَيَّاشٍ، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبدالله بن مَسْعودٍ، به مرفوعاً[٧]. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه من حديث يحيى الحِمَّانيِّ، عن أبي بكر بن عياشٍ، عن عاصمٍ، عن زِرٍّ، به.

(١) تفسير الطبري ٨/٨٦.
(٢) قرأ بالتخفيف حفص وحمزة والكسائي، وبالتشديد قرأ الباقون من السبعة. انظر الإقناع لابن الباذشِ ٦٤٤.
(٣) تفسير الطبري ٨/٨٨.
(٤) مسند أحمد ١/٤٦٥.
(٥) المستدرك، تفسير سورة الأنعام ٢/٣١٨.
(٦) تفسير الطبري ٨/٨٨. وفي نسخة: «ابن جرير عن ابن المثنى».
(٧) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٢٣٩.

فقد صَحَّحه، الحاكم كما رأيت من الطريقين، ولَعلَّ هذا الحديثَ عندَ عاصم بن أبي النجود، عن زِرٍّ، وعن أبي وائل شَقِيقِ بن سلمة، كلاهما عن ابن مسعود، به. والله أعلم.

قال الحاكم: «وشاهدُ هذا الحديثِ حديثُ الشعبيِّ عن جابر، من وجه غير معتمد»[1].

يُشِير إلى الحديث الذي قال الإمام أحمد وعبدُ بن حُمَيد جميعاً ـ واللفظ لأحمد ـ: حدثنا عبدُالله بن محمد ـ وهو أبو بكر بن أبي شَيبة ـ أنبأنا أبو خالد الأحمر، عن مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: كنَّا جلوساً عند النبي ـ ﷺ ـ فخطَّ خطَّاً هكذا أمامه، فقال: هذا سبيلُ اللهِ. وخطَّين عن يمينه، وخطَّين عن شِماله، وقال: هذه سُبُلُ الشيطان. ثم وَضَع يَدَه في الخطِّ الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوه ولا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وَصَّاكم به لعلكم تَتَّقون ﴾[2].

ورواه ابنُ ماجه في كتاب السُّنَّةِ من سُنَنِه، والبزَّارُ عن أبي سعيدٍ عبدالله بن سعيد، عن أبي خالدِ الأحمرِ، به[2].

قلت: ورواه الحافظُ بن مَرْدويه من طريقين، عن أبي سعيد الكِنْديِّ، حدثنا أبو خالد، عن مجالد، عن الشعبيِّ، عن جابر قال: خَطَّ رسول الله ـ ﷺ ـ خطَّاً، وخَطَّ عن يمينه خطَّاً، وخَطَّ عن يساره خطَّاً، ووضع يده على الخطِّ الأوسطِ، وتلا هذه الآية: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوه ﴾.

ولكن العُمدَةَ على حديث ابن مسعود، مع ما فيه من الاختلاف إن كان مُؤَثِّراً، وقد رُوي موقوفاً عليه.

قال ابنُ جرير: حدثنا مُحمَّد بن عبد الأعلى، حدثنا محمدُ بن ثَورٍ، عن مَعْمَرٍ، عن أبانَ: أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراطُ المستقيمُ؟ قال: تَرَكَنا محمد ـ ﷺ ـ في أدناه، وطرفُهُ في الجَنَّة، وعن يمينه جَوادُّ[3]، وعن يساره جَوادُّ، وثَمَّ رجالٌ يدعُون من مَرَّ بهم. فمن أخذ في تلك الجوادِّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابنُ مسعودٍ: ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوه ولا تتَّبِعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾. . . الآية[4].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أبو عمرو، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا أبان بن أبي عَيَّاش، عن مُسْلِم بن أبي عِمْران، عن عبدالله بن عُمَر: سأل عبدَالله عن الصِّراط المستقيم، فقال له ابنُ مسعودٍ: تَرَكَنا محمد ـ ﷺ ـ في أدناه، وطرفُهُ في الجَنَّة. . . وذكر تَمامَ الحديث كما تقدَّم، والله أعلم.

وقد رُوي من حديث النَّوَّاسِ بن سِمْعَانَ نحوه، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا الحسنُ بن سَوَّارٍ أبو العلاء، حدثنا لَيثٌ ـ يعني ابنَ سَعدٍ ـ عن معاوية بن صالح: أن عبد الرحمن ابن جُبَير بن نُفَير حَدَّثه، عن أبيه، عن النوَّاس بن سِمْعانَ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: ضَرَب الله مثلاً صِراطاً مستقيماً، وعن جَنْبَي الصِّراط سُورانِ فيهما أبواب مُفَتَّحة، وعلى الأبواب سُتُورٌ مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يأيُّها الناسُ، ادخلوا الصِّراط المستقيم جميعاً، ولا تَعرَّجوا[5] وداعٍ يدعُو من جَوفِ الصِّراطِ، فإذا أراد

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/٣١٨.
(٢) مسند أحمد ٣/٣٩٧، وسنن ابن ماجه، المقدمة ٦.
(٣) الجوادُّ: جمع جادَّةٍ وهي الطريق الأعظَمُ الذي يجمع الطُّرُق.
(٤) تفسير الطبري ٨/٨٨ ـ ٨٩.
(٥) أي: لا تميلوا. ولفظ المسند: «ولا تتفرَّجوا»، أي: لا تتفرَّقوا وتتكشفوا.

الإنسانُ أن يفتحَ شيئاً من تلك الأبوابِ قال: ويحكَ! لا تَفتحْه، فإنَّك إن تَفتَحْه تَلِجْه. فالصِّراطُ الإسلامُ، والسُّوران حُدودُ الله، والأبوابُ المفتَّحةُ مَحارِمُ الله، وذلك الداعي على رأسِ الصِّراطِ كتابُ الله، والدَّاعِي من فَوقُ[1] واعظُ الله في قَلْبِ كلِّ مسلم»[2].

ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ، عن علي بن حُجْر ـ زاد النسائي: وعَمْرو بن عثمان ـ كلاهما عن بَقِيَّة بن الوليد، عن بَحِير بن سعد، عن خالد بن معدانَ، عن جُبَير بن نُفَير، عن النَّوّاس بن سِمْعان، به. وقال الترمذيّ: حسن غَريب[2].

وقولهُ: ﴿ فاتَّبِعوه ولا تَتَّبِعُوا السبل ﴾، إنما وَحَّد سَبيله لأن الحقَّ واحد، ولهذا جَمَع السُّبُل لتفرقها وتَشَعُّبِها، كما قال تعالى: ﴿ الله وليُّ الذين آمنوا يُخرِجُهم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، والذين كَفَروا أولياؤهم الطاغوتُ يخرِجُونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أَصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطيُّ، حدثنا يزيدُ بن هارون، حدثنا سفيان بن حُسَين، عن الزُّهريِّ، عن أبي إدريسَ الخَوْلانيّ، عن عُبادَةَ بن الصامت قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أَيُّكم يُبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: ﴿ قل تعالَوا أتلُ ما حَرَّم ربُّكم عليكم ﴾، حتى فَرَغ من ثلاث الآياتِ، ثم قال: «ومن وفى بهنَّ فأجرُه على الله، ومن انتقصَ منهنَّ شيئاً فأدركَهُ الله في الدنيا كانت عُقُوبتَه، ومن أخَّره إلى الآخرة كان أمرُه إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عَفَا عنه».

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

قال ابنُ جَرير: ﴿ ثم آتينا مُوسى الكتابَ ﴾، تقديرُه: ثم قُل يا مُحمَّد مُخبِراً عنَّا بأنا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حَرَّم ربكم عليكم ﴾[3].

قلت: وفي هذا نَظَرٌ. وثُم هاهنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب هاهنا، كما قال الشاعر[4]:

قُـلْ لِمَـنْ سَـادَ ثُـمَّ سَـادَ أبـوهُ ... ثُـمَّ قَـدْ سَـادَ قَبْـلَ ذَلـكَ جَـدُّهُ

وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾، عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾. وكثيراً ما يقرنُ سبحانه بين ذِكْر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿ ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمةً، وهذا كتابٌ مُصدِّقٌ لساناً عربياً ﴾. وقوله تعالى في أوَّل هذه السورة: ﴿ قل من أنزل الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهُدىً للناس تجعلونه قراطيسَ تُبدونها وتُخفُون كثيراً ﴾... الآية، وبعدها: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾... الآية، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا، قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾؛ قال تعالى: ﴿ أوَ لم يكفروا بما أُوتي مُوسَى من قبل،

(١) لفظ المسند: «من فوق الصراط».
(٢) مسند أحمد ٤/١٨٢ ـ ١٨٣، وعارضة الأحوذي، أبواب الأمثال ١٠/٢٩٥ ـ ٢٩٧.
(٣) تفسير الطبري ٨/٨٩ ـ ٩٠.
(٤) أبو نواس، والبيت من شواهد المغني لابن هشام في «ثم»، وانظر شرح شواهد المغني للبغدادي ٣/٣٩ ـ ٤٣.

قالوا: سِحْرانِ[1] تظاهرا، وقالوا: إنا بكلٍ كافرون ﴾. وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿ يا قومنا، إنا سَمِعنا كتاباً أُنزِلَ من بعد مُوسى، مُصَدِّقاً لما بين يديه، يهدي إلى الحق ﴾. . . الآية.

وقولهُ تعالى: ﴿ تماماً على الذي أحسنَ وتفصيلاً ﴾، أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لجميع ما يُحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿ وكتبنا له في الألواحِ من كلِّ شيءٍ ﴾. . . الآية.

وقولهُ: ﴿ على الذي أحسنَ ﴾، أي: جزاءً على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله تعالى: ﴿ هل جزاء الإحسانِ إلا الإحسانُ ﴾، وكقوله: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن قال إنِّي جاعِلُك للناس إماماً ﴾، وقوله: ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدُون بأمرنا لما صَبَروا، وكانوا بآياتنا يُوقِنُونَ ﴾.

وقال أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيع بن أنس: ﴿ ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً على الذي أحسَنَ ﴾، يقول: أحسنَ فيما أعطاه الله.

وقال قتادةُ: من أحسن في الدنيا تَمَّم له ذلك في الآخرة.

واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على إحسانه[2]. فكأنه جعل «الذي» مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿ وخُضتم كالذي خاضوا ﴾ أي: كَخَوضِهم. وقال ابنُ رَوَاحة[3]:

فَثَبَّتَ اللهُ مـا آتـاكَ مِنْ حَسَنٍ   في المرسلين ونَصْراً كالذي نُصِروا

وقال آخرون: الذي هاهنا بمعنى «الذين».

قال ابنُ جرير: وقد ذُكِر عن عبدالله بن مسعود: أنه كان يقرؤها: ﴿ تماماً على الذين أحسنوا ﴾[4].

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾، قال: على المؤمنين والمحسنين. وكذا قال أبو عُبَيدة. قال البَغَويُّ: والمحسنون: الأنبياءُ والمؤمنونُ، يعني: أظهرنا فضله عليهم[5].

قلتُ: كما قال تعالى: ﴿ قال: يا موسى، إني اصطفيتُكَ على الناسِ برسالاتي وبكلامي ﴾، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ـ ﷺ ـ خاتم الأنبياء والخليل ـ عليهما السلام ـ لأدلة أُخَر.

قال ابنُ جرير: وَرَوَى أبو عمرو بن العلاء، عن يحيى بن يَعمُرَ أنه كان يقرؤها: ﴿تماماً على الذي أحْسَنُ﴾[2]، رفعاً، بتأويل: «على الذي هو أحسنُ»، ثم قال: وهذه قراءةٌ لا أستجيزُ القراءة بها، وإن كان لها في العربية وجهٌ صحيح.

وقيل: معناه: تماماً على إحسان الله إليه زيادةً على ما أحسن الله إليه. حكاه ابنُ جرير والبغويُّ[5].

ولا منافاة بينه وبين القولِ الأولِ، وبه جَمَع ابنُ جريرٍ كما بيّناه، ولله الحمدُ.

وقولهُ: ﴿ وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً ﴾، فيه مَدْحٌ لكتابه الذي أنزله الله عليه. ﴿ لعلَّهم بلقاء ربِّهم يؤمنون. وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك فاتَّبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾، فيه الدعوةُ إلى اتّباع القرآنِ وَوَصْفِه بالبركة لمن اتبعه وعمل به، في الدنيا والآخرة.

(١) قرأ الكوفيون: (سحران)، والباقون: (ساحران). انظر الإقناع لابن الباذش ٧٢٤.
(٢) تفسير الطبري ٨/٩١.
(٣) انظر البيت في سيرة ابن هشام ٢/٣٧٤.
(٤) تفسير الطبري ٨/٩٠.
(٥) تفسير البغوي ٢/١٤٢ ـ ١٤٣.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

قال ابنُ جَرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لئلا يقولوا: ﴿ إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قَبْلِنا ﴾[١].

يعني: لينقطع عُذْرُهم، كما قال تعالى: ﴿ ولولا أن تُصِيبهم مصيبةٌ بما قَدَّمت أيديهم فيقولوا: رَبَّنا لولا أرسلْتَ إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون مِنَ المؤمنين ﴾.

وقولهُ: ﴿ على طائِفَتين من قبلنا ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: هم اليهودُ والنصارى. وكذا قال مجاهد، والسُّدِّيُّ، وقتادةُ، وغيرُ واحد.

وقولهُ: ﴿ وإن كُنّا عن دِراسَتِهم لغافلين ﴾، أي: وما كنا نَفْهَم ما يقولون، لأنهم لَيسُوا بلساننا، ونحنُ مع ذلك في شُغُلٍ وغَفْلَةٍ عمَّا هم فيه.

وقولهُ: ﴿ أو تقولُوا: لو أَنَّا أُنزل علينا الكتاب لَكُنَّا أهدى منهم ﴾، أي: وقَطْعاً لِتَعَلُّلِكُم أن تقولـوا: لـو أَنَّا أُنزل علينا ما أُنزل عليهم لكنا أَهدى منهـم فيمـا أوتوه، كقوله: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نَذِيرٌ لَيكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم ﴾. . . الآية، وهكذا قال هاهنا: ﴿ فقد جاءكم بَيِّنَةٌ من رَبِّكم وهُدىً ورحمَةٌ ﴾، يقول: فقد جاءَكُم من الله على لسان محمَّد ـ ﷺ ـ النبي العربي قرآنٌ عَظِيم، فيه بيانٌ للحلالِ والحَرامِ، وهُدىً لما في القلوب، ورحمةٌ من الله بعباده الذين يَتَّبِعُونه ويقتَفُون ما فيه.

وقولهُ: ﴿ فمن أظلم ممن كَذَّب بآيات الله وصَدَف عنها ﴾؛ أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتَّبَع ما أُرسِلَ به، ولا ترك غيره، بل صَدَف عن اتباع آيات الله، أي: صَرَف الناسَ وصَدَّهم عن ذلك، قاله السُّدِّيُّ.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿ وصَدَف عنها ﴾: أَعْرَضَ عنها.

وقولُ السُّدِّيِّ هاهنا فيه قُوَّةٌ، لأنه قال: ﴿ فمن أظلم ممن كَذَّب بآيات الله وصَدَف عنها ﴾، كما تَقَدَّم في أول السورة: ﴿ وهم ينهون عنه وينأَون عنه وإن يُهلكون إلا أنفسهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ سنجزي الذين يَصْدِفون عن آياتنا سُوءَ العذاب بما كانوا يَصْدِفون ﴾.

وقد يكون المرادُ كما قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادةُ: ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصَدَف عنها ﴾، أي: لا آمن بها ولا عَمِلَ بها، كقوله تعالى: ﴿ فلا صَدَّقَ ولا صَلَّى. ولكن كَذَّبَ وتَوَلَّى ﴾، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه، وتَرْكِ العمل بجوارحه. ولكن المعنى الأولَ أقوى وأظهرُ، والله تعالى أعلم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

---

(١) تفسير الطبري ٩٣/٨.

يقول تعالى متوعِّداً للكافرين به، والمخالفين رُسُلَه والمكذِّبين بآياته، والصادِّين عن سبيله: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ﴾، وذلك كائن يوم القيامة، ﴿ أو يأتي بعضُ آياتِ ربِّك ﴾، وذلك قبل يوم القيامة كائنٌ من أماراتِ الساعةِ وأشراطها، كما قال البخاريّ في تفسير هذه الآية:

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عُمارةُ، حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا أبو هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تَطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها، فإذا رآها الناسُ آمَنَ مَن عليها، فذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ من قبلُ ﴾»(1).

حدثنا إسحاق، حدثنا عبد الرزّاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن هَمَّام بن مُنَبِّه، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مَغْرِبها، فإذا طَلَعَتْ ورآها الناسُ آمنوا أجمعُونَ، وذلك حين لا ينفَعُ نفساً إيمانها، ثم قرأ هذه الآية(1).

هكذا رَوَى هذا الحديثَ من هذين الوجهين، ومن الوجه الأوّلِ أخرجه بَقِيَّةُ الجماعة في كتبهم إلا الترمذيَّ، من طُرُقٍ، عن عُمَارة بن القَعْقَاع بن شُبْرُمَةَ، عن أبي زُرْعَة بن عَمْرو بن جَرير، عن أبي هُرَيرة، به(2).

وأما الطريق الثاني فرواه عن إسحاق، غير منسوب، فقيل: هو ابن منصور الكَوْسَج، وقيل: إسحاقُ بن نَصْر. والله أعلم. وقد رواهُ مسلمٌ عن محمد بن رافع الجُنديسابُوريِّ، كلاهُما عن عبد الرزّاق، به(3).

وقد وَرَد هذا الحديثُ من طُرُقٍ أُخَرَ عن أبي هُرَيرة، كما انفرد مسلمٌ بروايته من حديثِ العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحُرَقَةِ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، به(4).

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابن فُضَيل، عن أبيه، عن أبي حَازِم، عن أبي هُرَيرَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ثلاث إذا خَرَجْنَ ﴿ لا ينفَعُ نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قَبل أو كَسَبَتْ في إيمانها خيراً ﴾: طلوعُ الشمس من مغربها، والدجّالُ، ودابّةُ الأرض»(5).

ورواه أحمدُ، عن وَكِيع، عن فُضَيل بن غَزْوَانَ، عن أبي حازم سَلْمانَ، عن أبي هُرَيرة، به. وعنده: «والدخان» ورواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شَيبةَ، وزُهَير بن حَرْب، عن وكيع. ورواه هو أيضاً والترمذي، من غير وجه، عن فُضَيل بن غزوان، به(6). ورواه إسحاق بن عبد(7) الله الفَرْوِيّ، عن مالك، عن أبي الزِّناد، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرة. ولكن لم يُخَرِّجه أحدٌ من أصحاب الكُتُبِ من هذا الوَجْهِ، لضَعْفِ الفَرْوِيِّ، والله أعلم.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا الرَّبيعُ بن سليمان، حدثنا شُعَيب بن اللَّيثِ، عن أبيه، عن جعفر بن رَبِيعَةَ، عن عبد الرحمن بن هُرْمُزَ الأعرجِ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ

(1) فتح الباري، تفسير سورة الأنعام ٨/٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(2) مسلم، كتاب الإيمان ١٣٧ ـ ١٣٨، وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١١٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٥٢.
(3) مسلم، كتاب الإيمان ١٣٨.
(4) مسلم، كتاب الإيمان ١٣٧.
(5) تفسير الطبري ٨/١٠٣، ومسند أحمد ٢/٤٤٥ ـ ٤٤٦.
(6) مسند أحمد ٢/٤٤٥ ـ ٤٤٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١٣٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنعام ١١/١٩١ ـ ١٩٢.
(7) هو إسحاق بن محمد بن إسماعيل بن عبدالله بن أبي فَرْوَةَ الفَرْوي، انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٢/٤٧١ ـ ٤٧٢.

من مغربها، فإذا طلعت آمنَ الناسُ كلُّهم، وذلك ﴿ حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾(١)... الآية.

ورواهُ ابن لَهِيعَة، عن الأعرجِ، عن أبي هُرَيرة، به. ورواه وكيعٌ، عن فُضَيل بن غَزْوان، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة، به.

أخرج هذه الطرق كلَّها الحافظُ أبو بكر بن مَرْدُويه في تَفْسيره.

وقال ابنُ جَرير: حدثنا الحسن بن يحيى، أخبرنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، [عن أيوب](١) عن ابن سيرينَ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من تاب قبل أن تَطْلُعَ الشمسُ من مَغْربها، قُبِلَ منه»(٢).

لم يُخَرِّجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُبِ الستة.

حَديثٌ آخَرَ عن أبي ذَرٍّ الغِفَاريِّ، في الصَّحيحين وغيرهما، من طُرُقٍ، عن إبراهيم بن يزيدَ بن شَريك التَّيميِّ، عن أبيه، عن أبي ذَرٍّ جُنْدَبِ بن جُنَادة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «تَدْري أين تذهبُ الشمسُ إذا غَربت؟ قلتُ: لا أدري. قال: إنها تَنْتَهي دُونَ العَرْشِ، ثم تَخِرُّ ساجدةً، ثم تقومُ حتى يقال لها: ارجِعِي، فَيُوشِكُ يا أبا ذَرٍّ أن يُقال لها: ارجِعي من حيثُ جِئْتِ، وذلك حينَ: ﴿ لا ينفَعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل ﴾»(٣).

حديثٌ آخَرُ عن حُذَيفَةَ بن أَسِيدٍ أبي سَرِيحَةَ الغِفَاريِّ، رَضِي الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا سفيان(٤)، عن فُراتٍ، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذَيفَةَ بن أَسِيد الغِفَاريِّ قال: «أشرفَ علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ من غُرفَةٍ، ونحن نتذاكرُ الساعةَ، فقال: «لا تقوم الساعةُ حتَّى تَروا عشر آيات: طلوعُ الشمس من مغربها، والدخانُ، والدابَّةُ، وخروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، وخروجُ عيسى ابن مريمَ، والدجالُ، وثلاثةُ خسوف: خَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بجزيرة العَرَب. ونارٌ تخرج من قَعْرِ عَدَنَ تسوقُ ـ أو تحشُرُ ـ الناسَ، تَبِيت معهم حيثُ باتوا، وتَقِيلُ معهم حيث قالوا»(٥).

وهكذا رواه مسلم وأهل السُّنَن الأربعةِ، من حديث فُرَاتٍ القَزّازِ، عن أبي الطُّفيل عامر بن وَاثِلَةَ، عن حُذَيفة بن أَسِيد، به. وقال الترمذيُّ: حسن صحيحٌ(٥).

حديثٌ آخَرُ عن حُذَيفة بن اليمان، رضي الله عنه:

قال الثوريُّ، عن منصُورٍ، عن رِبْعِيٍّ، عن حُذَيفة قال: «سألتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقلتُ: يا رسولَ الله، ما آية طُلوعِ الشَّمس من مَغْربها؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ: تَطُول تلك الليلةُ حتى تكونَ قدْر ليلتين، فيَنتَبِهُ الذين كانوا يُصَلُّونَ فيها فيعمَلُون كما كانوا يعملون قَبْلَها والنجومُ لا تَسْري، قد قامت مكانها، ثم يرقُدون، ثم يقومون فيصلون، ثم يرقُدون، ثم يقومُون فَتبطُل عليهم جُنوبُهم، حتى يتطاول عليهم الليلُ، فيفزع الناس ولا

(١) من الطبري. وهو ساقط من أصولنا، وأيوب هو ابن أبي تميمة، انظر ترجمته في تهذيب الكمال ٤٥٧/٣.

(٢) تفسير الطبري ٩٩/٨.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة يسٓ ٥٤١/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١٣٨، ومسند أحمد ١٦٥/٥.

(٤) في المسند قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان.

(٥) مسند أحمد ٧/٤، ومسلم، كتاب الفتن ٢٢٢٥ ـ ٢٢٢٦، وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ١١٤/٤ ـ ١١٥، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٣٠/٩ ـ ٣١، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٤٧.

يُصبِحُون. فبينما هم ينتظرون طلوعَ الشمس من مشرقها إذْ طلعت من مَغْرِبِها، فإذا رآها الناس آمَنُوا، ولا ينفعهم إيمانُهم».

رواه ابن مَرْدُويه، وليس في الكتب السِّتة من هذا الوجه، والله أعلم.

حديث آخر عن أبي سَعِيد الخُدْرِي، واسمُه سَعْدُ بن مالك بن سِنَان، رَضِي الله عنه وأرضاه:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا ابنُ أبي لَيْلي، عن عطيةَ العَوْفي، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن النبي ـ ﷺ ـ: ﴿ يوم يأتي بعضُ آياتِ رَبِّك لا ينفعُ نفساً إيمانُها ﴾، قال: طلوعُ الشَّمسِ من مَغْرِبِها»[1].

ورواه الترمذيُّ، عن سفيانَ بن وكيع، عن أبيه، به. وقال: غَرِيب، ورواه بعضُهم ولم يَرْفَعْهُ[1].

وفي حديث طالوتَ بن عَبَّاد، عن فَضَّال بن جُبَير، عن أبي أمامة صُدَيِّ بن عَجْلانَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ أوَّلَ الآياتِ طلوعُ الشَّمسِ من مَغْرِبِها»[2].

وفي حديثِ عاصم بن أبي النَّجُود، عن زِرِّ بن حُبَيش، عن صَفْوانَ بن عَسَّالٍ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله فَتَح باباً قِبَلَ المغرب عرضُه سبعُون عاماً للتَّوبة، قال: لا يُغْلَقُ حتى تطلُعَ الشمسُ منه».

رواه الترمذيُّ وصَحَّحه، والنسائيُّ وابنُ ماجه، في حديثٍ طُويلٍ[3].

حديثٌ آخَرُ عن عبدالله بن أبي أوفى:

قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن علي بن دُحَيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا ضرار بن صُرَد، حدثنا ابن فُضَيلٍ، عن سليمانَ بن زَيد، عن عبدالله بنِ أبي أوفى قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ليأتيَنَّ على الناس ليلةٌ تَعدِلُ ثلاثَ ليالٍ من لياليكم هذه، فإذا كانَ ذلك يعرفها المُتَنَفِّلون، يقوم أحدُهم فيقرأ حِزْبَه، ثم ينام، ثم يقوم فيقرأ حزبه، ثم ينام، فبينما هم كذلك صاح الناسُ بعضُهم في بعضٍ فقالوا: ما هذا؟ فيفزَعُون إلى المساجد، فإذا هم بالشمس قد طَلَعت، [من مَغْرِبها، فَضَجَّ الناس ضَجَّةً واحدةً] حتى إذا صارت في وَسَط السماء رَجَعت وطَلَعت من مَطْلَعها ـ قال: حينئذ لا ينفعُ نفساً إيمانها»[4].

هذا حَديثٌ غريبٌ من هذا الوَجْهِ، وليس هو في شيءٍ من الكُتُبِ السِّتَّةِ.

حديثٌ آخَرُ عن عبدالله بن عَمْرو:

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا إسماعيلُ بن إبراهيمَ، حدثنا أبو حَيَّانَ، عن أبي زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثةُ نَفَرٍ من المسلمين إلى مَرْوانَ بالمدينةِ فسمِعوه يقول ـ وهو يحدِّثُ في الآياتِ ـ: إنَّ أولَها خروجُ الدَّجالِ. قال: فانصرف النفرُ إلى عبدالله بن عمرو، فحدَّثوه بالذي سَمِعُوه من مَرْوانَ في الآيات، فقال عبدالله: لم يقل مَرْوان شيئاً. قد حَفِظْتُ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ [في مثل ذلك حديثاً لم أنسه بعدُ، سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ] ـ يقول: إنَّ أوَّلَ الآياتِ خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابةِ ضُحىً، فأيتُهما ما كانت قبلَ صاحبتِها فالأخرى على أثرِها. ثم قال عبدالله ـ وكان يقرأ الكُتُبَ ـ: وأظنُّ أُولاها خروجاً طلوعَ

(١) مسند أحمد ٣/ ٣١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الأنعام ١١/ ١٩١.
(٢) أخرجه الطبرانيُّ في المعجم الكبير ٨/ ٣١٥، بإسناده إلى طالوت بن عباد، به.
(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٣/ ٥٥ ـ ٥٧، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٥٣.
(٤) الدر المنثور عن عبد بن حميد وابن مَرْدُويه ٣/ ٣٩٢.

الشمس من مَغْربها، وذلك أنها كلما غَربت أتت تحتَ العرش فَسجَدت واستأذنت في الرجوع، فأُذِن لها في الرجوع، حتى إذا بَدَا[١] الله أن تطلع من مَغْربها فَعَلَت كما كانت تَفْعَلُ، أتت تحتَ العَرْش فَسَجدَتْ واستأذَنَتْ في الرجوع، فلم يَرُدَّ عليها شيء، ثم تستأذنُ في الرجوع فلا يرد عليها شيء، [ثم تستأذن فلا يرد عليها شيءٌ]، حتى إذا ذَهَب من اللَّيلِ ما شاء أن يذهبَ، وعَرَفت أنه إنْ أُذِنَ لها في الرُّجوع لم تدرك المشرق، قالت: رَبِّي، ما أبعدَ المشرقَ! من لي بالناس؟ حتى إذا صار الأفُقُ كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فَيُقال لها: من مكانك فاطْلُعي. فَطَلعت على الناسِ من مَغْرِبها. ثم تلا عبدالله هذه الآية: ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾[٢]. . . الآية.

وأخرجه مسلم في صَحِيحه، وأبو داود وابنُ ماجَهْ، في سُنَنَيهما، من حديث أبي حَيَّان التَّيمِيِّ ـ واسمُه يحيى بنُ سعيدِ بن حَيَّان ـ عن أبي زُرعَةَ بنِ عَمْرِو بن جَرِيرٍ، به[٢].

حديث آخر، عنه:

قال الطبراني: حَدَّثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حِبَّان الرَّقِّيُّ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم زِبْرِيقَ[٣] الحِمْصِيُّ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، عن حُيَي بن عبدالله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «إذا طَلَعَتِ الشمسُ من مَغْربها خَرَّ إبليسُ ساجداً ينادي ويجهرُ: إلَهي، مُرْني أن أسجُد لمن شئتَ. قال: فيجتمع إليه زبانيتُه فيقولون: يا سيِّدَهم، ما هذا التضرُّعُ؟ فيقول: إنما سألتُ ربي أن يُنْظِرَ إلى الوقتِ المعلوم، وهذا الوقتُ المعلومُ. قال: ثم تخرجُ دابَّةُ الأرضِ من صَدْعٍ في الصَّفا، قال: فأوَّلُ خطوة تَضَعُها بأنطاكيا، فتأتي إبليسَ فَتَلْطُمُه»[٤].

هذا حديثٌ غريبٌ جداً وسَنَدُه ضعيفٌ، ولعلَّه من الزَّامِلَتَينِ اللَّتَينِ أصابهما عبدالله بن عَمرو يوم اليرموك، فأما رَفْعُه فمنكر، والله تعالى أعلم.

حديثٌ آخَرُ عن عبدالله بن عَمْرٍو، وعبد الرحمن بن عَوفٍ، ومعاويةَ بن أبي سفيانَ، رَضِي الله عنهم أجمعينَ.

قال الإمام أحمد: حدثنا الحَكَمُ بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش، عن ضَمْضَم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيحِ ابن عُبَيد يرده إلى مالك بن يُخامر، عن ابن السَّعدي أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تنقطعُ الهجرةُ ما دام العدوُّ يقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبدالله بن عَمْرو بن العاص: إن النبي ـ ﷺ ـ قال: إن الهجرة خَصْلَتان: إحداهُما تهجُر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تُقُبِّلت التوبة، ولا تزال التوبةُ مقبولةً حتى تطلُع الشمسُ من المغرب، فإذا طَلَعت طُبِعَ على كلِّ قَلْبٍ بما فيه، وكُفِي الناسُ العَمَلَ[٥].

هذا الحديثُ حَسَنُ الإسنادِ، ولم يُخرجه أحدٌ من أصحابِ الكُتُبِ الستةِ، والله أعلم.

---

(١) أي: قضى.

(٢) مسند أحمد ٢/٢٠١، ومسلم، كتاب الفتن ٢٢٦٠، وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١١٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٥٣.

(٣) زِبْريق: لقب إبراهيم، انظر التهذيب ٢/٣٦٩.

(٤) كذا في الأصول، وفي الدرّ المنثور: فتخطمه وخطمه: ضرب خَطْمَه والخَطْم: الأنف، أو مُقدَّمه.

(٥) مسند أحمد ١/١٩٢.

حديثٌ آخَرُ عن ابن مَسْعُودٍ رضي الله عنه:

قال عوفٌ الأعرابيُّ، عن مُحَمَّد بن سيرينَ، حدثني أبو عُبَيْدَةَ، عن ابن مسعود أنه كان يقول: ما ذُكِر من الآيات فقد مَضَى غير أربع: طلوعُ الشمسِ من مغربها، والدَّجال، ودابَّةُ الأرض، وخروجُ يأجوجَ ومأجوجَ. قال: وكان يقول: الآيَة التي تُخْتَمُ بها الأعمالُ طلوعُ الشمس من مَغْربها، ألم تَرَ أن الله يقول: ﴿ يوم يأتي بعضُ آياتِ رَبِّك ﴾ . . . الآيَةَ كُلَّها، يعني طلوعَ الشمس من مَغْربها[1].

حديث ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره من حديث عبد المنعم ابن إدريسَ عن أبيه، عن وهب بن مُنَبِّه، عن ابن عباس مرْفُوعاً، فذكر حديثاً طويلاً غريباً منكراً رفعه، وفيه: «أن الشمس والقمر يطلُعان يومئذ من المغرب مقرونَين، فإذا نَصَفا السماءَ رَجَعا ثم عادا إلى ما كانا عليه». وهو حديثٌ غريبٌ جداً، بل مُنكَر، بل موضوعٌ إن ادُّعِي أنه مَرْفُوعٌ، فأما وَقْفُه على ابنِ عباس أو وَهْبِ بن مُنَبِّه ـ وهو الأشبهُ ـ فغيرُ مدفوعٍ، والله أعلم.

وقال سفيانُ، عن منصورٍ، عن عامر، عن عائشةَ قالت: إذا خَرَج أولُ الآياتِ، طُرِحت [الأقلام]، وحُبِست الحَفَظَةُ، وشَهِدَت الأجسادُ على الأعمال. رواه ابن جرير[2].

فقولُه: ﴿ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنَتْ من قبلُ ﴾، أي: إذا أنشأ الكافرُ إيماناً يومئذٍ لا يُقبل منه، فأمَّا من كان مُؤمناً قبل ذلك، فإن كان مُصْلِحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مُخَلِّطاً فأحدث توبةً حينئذٍ لم تقبَلْ منه توبتهُ، كما دلت عليه هذه الأحاديثُ المتقدِّمة، وعليه يحملُ قوله تعالى: ﴿ أو كَسَبت في إيمانها خيراً ﴾، أي: ولا يُقْبَلُ منها كَسْبُ عملٍ صالحٍ إذا لم يَكُن عاملاً به قبلَ ذلك.

وقولهُ: ﴿ قُلِ انتظروا إنا مُنتظِرونَ ﴾، تهديدٌ شديدٌ للكافرين، ووعيدٌ أكيدٌ لمن سَوَّف بإيمانه وتوبته إلى وقتٍ لا ينفَعُه ذلك. وإنما كان الحكمُ عند طلوع الشمس من مَغْربها، لاقتراب وقت القيامة، وظهور أشراطها، كما قال: ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطُها، فأنَّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ فلما رأوا بأْسَنا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَه وكَفَرنا بما كُنَّا به مُشرِكين. فلم يَكُ ينفَعُهم إيمانُهم لما رَأَوْا بأسَنا ﴾. الآية.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾

قال مجاهد، وقتادةُ، والضحاكُ، والسدِّيُّ: نزلت هذه الآيةُ في اليهودِ والنَّصارى[3].

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إن الذين فارقوا[4] دينهم كانوا شيعاً ﴾، وذلك أنَّ اليهودَ والنصارى اختلفوا قبل أن يُبعَثَ محمد ـ ﷺ ـ فتفرَّقوا. فلما بُعِث محمدٌ ـ ﷺ ـ أُنزِلَ: ﴿ إن الذين فارقوا[4] دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء ﴾ . . . الآية[5].

وقال ابنُ جَرير: حدثني سَعِيد بن عَمْرو السَّكُونيُّ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد: كتب إليَّ عَبَّاد بن كَثِير، حَدَّثني

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره بإسناده إلى محمد بن سيرين ٨/١٠١.
(٢) تفسير الطبري ٨/١٠٣.
(٣) تفسير الطبري ٨/١٠٥.
(٤) هذه قراءة حمزة والكسائي، وقرأ الباقون من السبعة بالتشديد (فرَّقوا)، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤٥
(٥) تفسير الطبري ٨/١٠٥.

ليثٌ، عن طاوسَ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن في هذه الأمّة[1] ﴿ الذين فارقوا دينهم وكانوا شِيَعاً لستَ منهم في شيءٍ ﴾، وليسُوا منك، هم أهلُ البِدَع، وأهلُ الشُّبُهاتِ، وأهلُ الضَّلالةِ، من هذه الأمة[2].

ولكنَّ هذا الإسنادَ لا يصحُّ، فإن عبَّادَ بنَ كثير متروكُ الحديث، ولم يختلق هذا الحديثَ، ولكنه وَهِم في رَفْعِهِ. فإنَّه رَوَاه سفيانَ الثَّوري، عن ليث ـ وهو ابنُ أبي سُلَيم ـ عن طاوس، عن أبي هُرَيرة، في قوله: ﴿ إن الذين فَرَّقُوا دينهم وكانوا شِيَعاً ﴾، قال: نَزَلَتْ في هذه الأمَّة.

وقال أبو غالب، عن أبي أُمامةَ، في قوله: ﴿ وكانوا شِيَعاً ﴾، قال: هم الخوارجُ. ورُوِي عنه مرفوعاً، ولا يصحُّ.

وقال شعبةُ، عن مجالدٍ، عن الشَّعبي، عن شُرَيح، عن عُمَر أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لعائشةَ: «﴿ إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شِيَعاً ﴾، قال: هم أصحاب البِدَع».

وهذا رواه ابن مَرْدُويه، وهو غَرِيبٌ أيضاً، ولا يصحُّ رفعه.

والظاهرُ أنَّ الآيةَ في كلِّ من فارقَ دينَ الله، وكان مُخَالِفاً له، فإنَّ الله بَعَث رسولَه بالهُدَى ودين الحقِّ ليظهرَه على الدينِ كلِّه، وشَرْعُه واحدٌ لا اختلافَ فيه ولا افتراقَ، فمن اختلَفَ فيه ﴿ وكانوا شِيَعاً ﴾، أي: فِرَقاً كأهلِ المِلَلِ والنِّحَلِ ـ وهي الأهواء والضلالات ـ قد بَرَّأ رسولَه مما هُم فيه. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لكم من الدِّين ما وَصَّى به نُوحاً والذي أوحينا إليكَ ﴾... الآية. وفي الحديث: «نحن ـ معاشر ـ الأنبياء ـ أولادُ عَلاَّتٍ، دينُنا واحدٌ»[3].

فهذا هو الصِّراطُ المستقيمُ، وهو ما جاءت به الرسلُ، من عبادة الله وحده لا شريكَ له، والتمسُّكِ بشريعةِ الرسول المتأخِّر، وما خالف ذلك فَضلالاتٌ وجَهالاتٌ وآراءٌ وأهواءٌ، الرسلُ بُرَاءُ منها، كما قال: ﴿ لستَ منهم في شيءٍ ﴾.

وقولُهُ: ﴿ إنما أمرهم إلى الله ثم يُنَبِّئهم بما كانوا يفعَلُونَ ﴾، كقوله: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادُوا والصَّابئين والنَّصارى والمجوسَ والذين أشركُوا إن الله يَفْصِل بينهم يوم القيامة ﴾... الآية، ثم بين فَضْلَه يوم القيامة في حُكْمه وعَدْلِه فقال:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾

وهذه الآيةُ الكريمةُ مُفصِّلة لما أُجمِلَ في الآيةِ الأخرى، وهي قولُه: ﴿ من جاء بالحسَنَةِ فله خيرٌ منها ﴾، وقد وَرَدت الأحاديثُ مطابقةً لهذه الآيةِ، كما قال الإمامُ أحمدُ بن حَنْبلٍ رحمه الله:

حدثنا عفانُ، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا الجعدُ أبو عثمان، عن أبي رَجاء العُطَارِدي، عن ابن عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ فيما يَرْوِي عن ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ

(١) نص الطبري: «في هذه الآية».

(٢) تفسير الطبري ٨/١٠٥.

(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٧٨، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٣٧.
والعَلاَّت: الضرائر. وأصله أنّ من تزوّج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه علّ منها، والعَلَل: الشُّرْبُ بعد الشُّرْب. وأولاد العَلاَّت: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى.

ربكم رحيمٌ، من هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يَعملْها كُتِبتْ له حَسَنةً، فإن عَملها كُتِبَتْ له عَشْراً إلى سَبْعِمائةٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ. ومن هَمَّ بسيئةٍ فلَمَ يعمَلْها كُتبتْ له حَسَنةً، فإن عَمِلَها كُتِبَتْ له واحدةً، أو يمحُوها الله ـ عزّ وجلّ ـ ولا يهلكُ على اللهِ إلا هالكٌ»[1].

ورواه البخاري، ومسلم، والنسائي، من حديث الجَعْدِ أبي عُثمان، به[1].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن المَعْرُور بن سُوَيدٍ، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يقول الله عَزّ وجلّ: من عَمِل حسنة فله عشرُ أمثالها وأَزِيـدُ. ومن عَمِل سَيِّئةً فجزاؤها مثلها أو أغفِرُ. ومن عَمِل قُراب[2] الأرض خطيئةً ثم لَقِيني لا يُشْرِك بي شيئاً جَعلْتُ له مثلَها مغفرةً، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربتُ إليه ذراعاً، ومن اقتربَ إليَّ ذراعاً اقتربتُ إليه باعاً، ومن أتاني يَمْشي أتيتُهُ هرولةً»[3].

ورواه مسلم عن أبي كُرَيب، عن أبي مُعاويَةَ، به. وعن أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ، عن وَكِيعٍ، عن الأعمش، به. ورواه ابنُ ماجه، عن عليِّ بن محمَّد الطُّنافِسِيِّ، عن وكيع، به[4].

وقال الحافظُ أبو يَعْلَى الموصِليُّ: حدثنا شيبانُ، حدثنا حَمَّاد، حدثنا ثابت، عن أنسِ بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «من هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يَعْمَلها كُتِبَت له حَسَنةً، فإنْ عَمِلها كُتِبت له عشراً. ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم يُكْتَبْ عليه شيءٌ، فإن عَمِلها كُتِبت عليه سيئةً واحدةً»[5].

واعلم أنَّ تاركَ السيِّئةِ الذي لا يَعْمَلُهـا على ثلاثة أقسام: تارةً يتركها لله، فهذا تكتبُ له حسـنةً على كَفِّه عنها لله تعالى، وهذا عَمَل ونيَّةٌ. ولهذا جاء أنه يُكتَبُ له حسنةٌ، كما جاء في بعض ألفاظ الصَّحيح: «فإنما تركها من جَرَّائي[6]»، أو: من أجلي». وتارةً يتركُها نِسياناً وذُهولاً عنها، فهذا لا لَهُ ولا عَليه، لأنه لم يَنْوِ خيراً ولا فَعَل شراً. وتارةً يتركها عَجْزاً وكسلاً بعد السَّعي في أسبابها والتَّلبُّس بما يَقْرُب منها، فهذا يتنَزَّلُ منزلةَ فاعلِها، كما جاء في الحديث، في الصحيحين: «إذا تواجَه المسلمان بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النار. قالوا: يا رسول الله، هذا القاتلُ فما بالُ المقتول؟ قال: إنه كانَ حريصاً على قَتْلِ صاحبه»[7].

قال الإمام أبو يَعْلى الموصلي: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا علي ـ وحدثنا الحسن بن الصَّباح وأبو خَيْثَمَة ـ قالا: حدثنا إسحاقُ بن سليمان، كلاهما عن موسى بن عُبَيدة، عن أبي بكر بن عُبَيد الله بن أنَس، عن جَدِّه أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من هَمّ بحسنةٍ كَتَبَ الله له حسنةً، فإن عملها كُتِبت له عشراً. ومَن هَمَّ بسيئة لم تكتب عليه حتى يَعمَلَها، فإن عملها كُتِبت عليه سيئةً، فإن تركها كُتِبت له حسنةً. يقول الله تعالى: إنما تركها من مخافتي». هذا لفظُ حديثِ مجاهدٍ. يعني ابنَ موسى.

---

(١) مسند أحمد ١/٢٧٩، وفتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣٢٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١١٨.
ومعنى «ولا يَهْلِكُ على الله إلاّ هالكٌ»: أنه من خَتَم الله هَلاكه وسُدَّت عليه أبوابُ الهدى، مع سَعة رحمة الله تعالى وكرمه، وجعْله السيئة حسنةً إذا لم يعملها، وإذا عملها واحدةً، والحسنة إذا لم يعملها واحدةً، وإذا عَمِلها عشراً إلى سبعمائة ضعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، فمن حُرِم هذه السَّعَةَ، وفاته هذا الفضلُ، وكثُرت سيئاته حتى غَلَبَتْ ـ مع أنها أفرادٌ ـ حسناتِه ـ مع أنها متضاعفة ـ فهو الهالكُ المحروم.
(٢) قُرابُ الأرضِ: ما يُقارِبُ مِلأها.
(٣) مسند أحمد ٥/١٥٣.
(٤) مسلم، كتاب الذكر والدعاء ٢٠٦٨، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٥٥.
(٥) مسند أبي يعلى الموصلي ٦/١٧٠.
(٦) مسلم، كتاب الإيمان ١١٨، ومسند أحمد ٢/٣١٧. ويروى: جَرَايَ، بالقصر أيضاً
(٧) فتح الباري، كتاب الإيمان ١/٨٤ ـ ٨٥، ومسلم، كتاب الفتن ٢٢١٣ ـ ٢٢١٤

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيّ، حدثنا شيبانُ بن عبد الرحمن، عن الرُّكين بن الرَّبيع، عن أبيه، عن عَمِّه فلان بن عُمَيلَةَ، عن خُرَيم بن فاتِكٍ الأسديّ: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ قال: «الناسُ أربعةٌ والأعمال سِتَّةٌ. فالناس مُوسَّعٌ له في الدنيا والآخرة، ومُوسَّع له في الدنيا مَقْتُورٌ عليه في الآخرة، ومَقْتورٌ عليه في الدنيا مُوسَّعٌ له في الآخرة، وشَقِيٌّ في الدنيا والآخرة. والأعمال مُوجِبَتانِ، ومِثْلٌ بمِثْلٍ، وعشرةُ أضعافٍ، وسبعمائة ضِعْفٍ؛ فالمُوجِبتان من مات مسلماً مؤمناً لا يُشرك بالله شيئاً وَجَبت له الجنَّةُ، ومَن مات كافراً وَجَبت له النـارُ. ومن هَمَّ بحسنة فلم يَعْمَلْها، فَعَلِم الله أنه قد أَشعَرَها قَلْبَه وحَرَصَ عليها، كُتِبت له حسنةٌ. ومن هَمَّ بسيئة لم تُكْتَب عليه، ومن عَمِلها كُتِبت واحدةً ولم تُضاعَف عليه. ومن عَمِل حسنةً كانت عليه بِعَشْرِ أمثالها. ومن أنفق نَفَقةً في سبيلِ الله ـ عَزَّ وجلَّ ـ كانت له بسبعمائة ضِعْفٍ»(١).

ورواه الترمذيُّ والنسائيُّ، من حديثِ الرُّكَينِ بن الرَّبيع، عن أبيه، عن نُسَيرِ بن عُمَيلَةَ، عن خُرَيم بن فَاتِكٍ، به ببعضه(١). والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عُبَيد الله بن عُمَر القَواريريُّ، حدثنا يزيدُ بن زُرَيع، حدثنا حَبِيب المعلم، عن عَمْرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدِّه، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «يحضرُ الجمعةَ ثلاثةُ نَفَرٍ: رجُل حَضَرها يَلْغُو فهو حَظُّه منها، ورجل حَضَرها بدُعاءٍ، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه وإن شاء مَنَعه. ورجل حَضَرها بإنصات وسكوت ولم يَتَخطَّ رقَبةَ مسلم ولم يُؤْذِ أحداً، فهي كفارةٌ له إلى الجمعة التي تليها وزيادةُ ثلاثة أيام، وذلك لأن الله يقولُ: ﴿ من جاء بالحسنة فَلَه عَشْرُ أمثالها ﴾.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا هاشم بن مَرْثَدٍ، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبي، حدثني ضَمْضَمُ بن زُرْعَة، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الجُمُعة كفارةٌ لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادةُ ثلاثةِ أيام، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ من جاءَ بالحَسَنَةِ فله عَشْرُ أمثالِها ﴾»(٢).

وعن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من صام ثلاثة أيَّام من كلِّ شَهْرٍ فقد صام الدهرَ كُلَّه». رواه الإمامُ أحمدُ ـ وهذا لفظه ـ والنسائيُّ، وابنُ ماجه، والترمذيُّ وزاد: «فأنزلَ الله تَصْديقَ ذلك في كتابهِ: ﴿ من جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالها ﴾، اليومُ بعَشْرَةِ أيام»، ثم قال: هذا حديثٌ حسنٌ(٣).

وقال ابنُ مسعودٍ: ﴿ من جاء بالحسنةِ فَلَه عشرُ أمثالها ﴾، من جاء بلا إلَه إلا الله، ومن جاء بالسيِّئةِ، يقول: بالشرك. وهكذا وَرَد عن جماعةٍ من السَّلَفِ(٤).

وقد وَرَد فيه حديثٌ مرفوعٌ، والله أعلمُ بصحته، لكني لم أَرَه من وَجهٍ يثبُتُ، والأحاديثُ والآثارُ في هذا كثيرةٌ جداً، وفيما ذَكَرنا كفايةٌ، إن شاء الله تعالى، وبه الثقةُ.

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

---

(١) مسند أحمد ٣٤٥/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل الجهاد ١٢٥/٧ ـ ١٢٦، وسنن النسائي، كتاب الجهاد ٤٩/٦.

(٢) مجمع الزوائد ١٧٣/٢ ـ ١٧٤، وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش، عن أبيه. قال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه شيئاً.

(٣) مسند أحمد ١٤٥/٥ ـ ١٤٦، وسنن النسائي، كتاب الصوم ٢١٩/٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الصوم ٥٤٥، وعارضة الأحوذي، أبواب الصوم ٢٩٢/٣.

(٤) تفسير الطبري ١٠٨/٨ ـ ١٠٩.

﴿ وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

يقولُ الله تعالى آمراً نبيَّه ـ ﷺ ـ سيِّدَ المرسلين أن يُخبر بما أنعم الله به عليه، من الهداية إلى صراطِهِ المستقيم، الذي لا اعوجاجَ فيهِ ولا انحرافَ: ﴿ ديناً قِيَماً ﴾، أي: قائماً ثابتاً، ﴿ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وما كان من المشركين ﴾ كقولِهِ: ﴿ ومن يَرْغَبُ عن مِلَّةِ إبراهيمَ إلا من سَفِه نَفْسَه ﴾، وقولِهِ: ﴿ وجاهِدُوا في الله حَقَّ جِهادِهِ هو اجتباكُم وما جَعَل عليكم في الدِّين من حَرَجٍ مِلَّةَ أبيكم إبراهيم ﴾، وقولِهِ: ﴿ إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يَكُ من المشركين. شاكراً لأنعُمِه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه في الدنيا حَسَنةً وإنه في الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتَّبع مِلَّة إبراهيم حَنيفاً وما كان من المشركين ﴾.

وليس يلزمُ من كونه ـ عليه السلام ـ أُمِرَ باتِّباع ملةِ إبراهيمَ الحنيفيةِ[1] أن يكونَ إبراهيمُ أكملَ منه فيها، لأنه ـ عليه السلام ـ قام بها قياماً عظيماً، وأُكملت له إكمالاً تاماً لم يَسْبقه أحدٌ إلى هذا الكمالِ. ولهذا كان خاتَمَ الأنبياءِ، وسَيِّد وَلَدِ آدم على الإطلاق، وصاحِبَ المقام المحمودِ الذي يَرْغَبُ إليه الخلق كلُّهم حتى إبراهيمَ الخليل عليه السلام.

وقد قال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن عبدالله بن حفص، حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبةُ، أنبأني سَلَمَةَ بن كُهَيل، سَمِعتُ ذَرَّ بنَ عبدالله الهَمْدَانِيَّ، يُحدِّثُ عن ابن أبْزَى، عن أبيه قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا أصبحَ قال: «أصبحنا على مِلَّةِ الإسلامِ، وكَلِمةِ الإخلاصِ، ودينِ نَبِيِّنـا محمد، ومِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حَنيفاً وما كانَ من المشركين».

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا محمد بن إسحاقَ، عن داودَ بن الحُصَين، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ قال: «قِيلَ لرسولِ الله ـ ﷺ ـ: أيُّ الأديانِ أحبُّ إلى الله؟ قال: الحنيفيَّةُ السَّمْحَةُ»[2].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا سُلَيمان بن داودَ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن هشام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنه ـ قالت: «وَضَع رَسُول الله ـ ﷺ ـ ذَقْني على مَنْكِبِه، لأنظر إلى زَفْنِ[3] الحبشة، حتى كنتُ التي مَلِلْتُ فانصرفتُ عنه.

قال عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال لي عُروَةُ: إنَّ عائشة قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومئذٍ: «لِتعلَمْ يهودُ أنَّ في ديننا فُسحةً، إنِّي أرسلتُ بِحَنيفيَّةٍ سَمْحَةٍ»[4].

أصل الحديث مُخرَّج في الصَّحيحين، والزيادةُ لها شَواهدُ من طرق مُتعدِّدة، وقد استقصيتُ طُرُقَها في شَرْحِ البخاري، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وقولُه تعالى: ﴿قل إنَّ صلاتِي ونُسُكِي ومحيايَ وَمَمَاتِي لله ربِّ العالمين﴾، يأمره تعالى أن يخبرَ المشركين الذين يعبدُون غير الله ويذبَحُون لغير اسمه، أنه مخالفٌ لهم في ذلك، فإن صلاتَهُ لله ونُسُكَه على اسمه وحدَه لا شريكَ له. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لربِّك وانحرْ﴾، أي: أخلِصْ له صلاتَكَ وذَبيحتك، فإنَّ

(١) في نسخة: «باتباع إبراهيم في الحنيفية».
(٢) مسند أحمد ١/٢٣٦.
(٣) أي: لعبهم ورقصهم.
(٤) مسند أحمد ٦/١١٦.

المشركين كانُوا يَعبُدونَ الأصنام ويَذْبَحُون لها، فأمره الله تعالى بمخالَفتِهم والانحرافِ عَمَّا هم فيه، والإقبال بالقصدِ والنية والعَزْمِ على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهدٌ في قوله: ﴿إنَّ صلاتي ونُسُكِي﴾، قال: «النُّسُكُ»: الذَّبحُ في الحجِّ والعُمْرَة(١).

وقال الثَّوريُّ، عن السُّدِّيِّ، عن سعيد بن جُبَير ﴿ونُسُكِي﴾، قال: ذَبْحي. وكذا قال السدِّيُّ والضحاك(١).

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أحمد بن خالد الوَهبِيُّ، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حَبيب، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله قال: ضَحَّى رسول الله ـ ﷺ ـ في يوم عيدٍ بكبشَين، وقال حين ذَبَحَهُما: ﴿وجَّهتُ وجهي للذي فَطَر السمواتِ والأرضَ حَنيفاً وما أنا من المشركين﴾، ﴿قل إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين. لا شريكَ له وبذلك أُمِرتُ وأنا أول المسلمين﴾.

وقولُه: ﴿وأنا أوَّلُ المسلمين﴾، قال قتادةُ: أي من هذه الأمة(١).

وهو كما قال، فإنَّ جميعَ الأنبياء قبله كُلُّهم كانت دعوتُهم إلى الإسلام، وأصلهُ عبادةُ الله تعالى وحدَه لا شريكَ له، كما قال: ﴿وما أرسلنا من قبلِكَ من رسولٍ إلاّ نُوحِي إليه أنَّه لا إلَه إلاّ أنا فاعبُدُونِ﴾، وقد أخبر تَعالى عن نُوح أنه قال لقومه: ﴿فإن تَوَلَّيتُم فما سألتكم من أَجْرٍ إن أجريَ إلاّ على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾، وقال تعالى: ﴿ومن يرغبُ عن مِلَّةِ إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نَفْسَه ولقد اصطفيناهُ في الدُّنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذْ قال له ربُّه أسلِمْ قال أسلمتُ لرب العالمين * ووصَّى بها إبراهيمُ بَنِيه ويعقوبُ يا بنيَّ إن الله اصطَفَى لكم الدِّينَ، فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾، وقال يوسفُ عليه السلام: ﴿رب قد آتيتَني من المُلْكِ وعَلَّمتَني من تأويل الأحاديث، فاطِرَ السمواتِ والأرض، أنت وَلِيِّي في الدنيا والآخرة، تَوَفَّني مُسْلِماً وألحقني بالصالحين﴾، وقال موسى: ﴿يا قوم، إن كنتُم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا، ربنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين * ونَجِّنا برحمتك من القوم الكافرين﴾.

وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هُدىً ونورٌ يحكم بها النبيُّون الذين أسلموا للذين هادُوا والربّانيون والأحبار﴾... الآية. وقال تعالى: ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريِّين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنَّا واشهَدْ بأننا مُسلِمُونَ﴾.

فأخبر تعالى أنه بعث رُسُلَه بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائِعِهم الخاصَّةِ التي يَنْسَخُ بعضُها بعضاً، إلى أن نُسِخت بشريعة محمد ـ ﷺ ـ التي لا تُنسَخُ أَبَدَ الآبدين، ولا تزال قائمةً منصورةً، وأعلامُها مشهورةٌ إلى قيام الساعة. ولهذا قال عليه السلام: «نحن ـ معاشر الأنبياء ـ أولادُ عَلاّتٍ، دينُنا واحدٌ»(٢)، فإن أولادَ العَلاّتِ هم الإخوةُ من أبٍ واحدٍ وأُمهاتٍ شَتَّى، فالدينُ واحدٌ، وهو عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، وإن تَنَوَّعت الشرائعُ التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوةَ الأخيافِ عكسُ هذا، بنو الأمِّ الواحِدَة من آباءٍ شَتَّى، والإخوةَ الأعيانَ الأشقاءُ من أب واحد وأمٍّ واحدة، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو سعيد، حدثنا عبدُ العزيز بن عبد الله الماجِشُون، حدثنا عبد الله ابن الفضل الهاشميُّ، عن الأعرج، عن عُبَيد الله بن أبي رافع، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا كَبَّرَ استفتَحَ، ثم قال: ﴿وَجَّهتُ وجهيَ للذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين﴾،

---

(١) تفسير الطبري ١١٢/٨.

(٢) تقدم الحديث عند الآية ١٥٩ من هذه السورة، وخرجنا هناك.

﴿إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحيايَ ومماتي لله ربِّ العالمينَ * لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ وأنا أولُ المسلمين﴾، اللهم أنت المَلِكُ، لا إلَه إلاّ أنت رَبيّ وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي واعترفتُ بذنبي، فاغْفِر لي ذُنوبي جميعاً، لا يَغفِرُ الذنوبَ إلاّ أنت. واهدِني لأحسنِ الأخلاقِ لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرِف عَني سَيِّئها لا يصرِفُ عني سَيِّئها إلا أنتَ. تباركتَ وتعاليتَ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ[1].

ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتَّشهُدِ. وقد رواه مسلمٌ في صَحِيحه[1].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿قل﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاصِ العبادةِ له والتوكُّل عليه: ﴿أغيرَ الله أبغِي ربّاً﴾، أي: أطلبُ ربّاً سِواه، ﴿وهو ربُّ كلِّ شيءٍ﴾ يَرُبُّني[2] ويحفظني ويكلؤُني ويدبِّرُ أمري. أي: لا أتوكَّلُ إلاّ عليه، ولا أُنيبُ إلاّ إليه، لأنه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، وله الخلق والأمر.

فهذه الآيةُ فيها الأمر بإخلاص التوكُّل، كما تضمَّنت الآيةُ التي قبلَها إخلاصَ العبادةِ له لا شريكَ له. وهذا المعنى يُقرَن بالآخرِ كثيراً، كما قال تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: ﴿إيّاكَ نعبدُ وإيّاكَ نستعينُ﴾، وقوله: ﴿فاعبدْه وتوكَّل عليه﴾، وقولِهِ: ﴿قل هو الرحمنُ آمنّا به وعليه توكَّلنا﴾، وقولِهِ: ﴿ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إلَه إلاّ هُو فاتَّخِذْهُ وكيلاً﴾، وأشباهِ ذلك من الآياتِ.

وقولُه: ﴿ولا تكسِبُ كلُّ نفسٍ إلاّ عليها، ولا تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾، إخبارٌ عن الواقعِ يومَ القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعَدله، أنَّ النفوس إنما تُجازَى بأعمالها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ. وأنه لا يُحمَلُ من خطيئةِ أحدٍ على أحدٍ. وهذا من عَدْلِهِ تعالى، كما قال: ﴿وإن تَدْعُ مُثقَلةٌ إلى حِمْلها لا يُحمَلْ منه شيءٌ ولو كان ذا قُربى﴾، وقولِهِ: ﴿فلا يخافُ ظُلماً ولا هَضماً﴾، قال العلماءُ بالتفسير: فلا يُظلَم بأن يُحمَلَ عليه سَيِّئاتُ غيره، ولا يُهضَم بأن يُنقَصَ من حسناته. وقال تعالى: ﴿كلُّ نفسٍ بما كسبت رَهِينةٌ. إلاّ أصحابَ اليمين﴾، معناه: كلُّ نفسٍ مُرتَهَنة بعملها السيِّىء إلاّ أصحابَ اليمين، فإنه قد تعود بركاتُ أعمالهم الصالحة على ذراريهم وقَرَاباهم[3]، كما قال في سورة الطور: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذُرِّيتُهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذُرِّياتِهم وما ألَتناهُم من عَمَلهم من شيءٍ﴾، أي: ألحقنا بهم ذُرِّياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركُوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، وما أَلَتْنا، أي: ما أَنْقَصْنا[4] أولئك السادةَ الرُّفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وَهؤلاءِ الذين هم أنقصُ منهم في منزلةٍ، بل رَفَعَهُم تعالى إلى منازلِ الآباءِ ببركة أعمالهم، بفَضْلِهِ وَمَنِّهِ. ثم قال: ﴿كلُّ امرىءٍ بما كَسَبَ رَهِين﴾، أي: من شرٍّ.

وقولُه: ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾، أي: اعملوا على مكاناتكم إنا عاملونَ على ما نحن عليه، فَستُعرَضُون ونُعرَض عليه، وَيُنبِّئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كُنّا نختلف فيه في الدار

(١) مسند أحمد ١/ ٩٤ ـ ٩٥، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ٥٣٤ ـ ٥٣٦.
(٢) يقال: رَبَّ الولدَ رَبّاً: وَلِيه وتعهَّده.
(٣) القَرَابى: جمع قريب.
(٤) الأكثر أن يقال: نَقَصْنا، ليعدِّي الفعل دون همزٍ.

الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قل: لا تسألون عما أجرمنا ولا نُسألُ عما تعمَلُون. قل يجمَعُ بيننا ربُّنا ثم يفتَحُ بيننا بالحقِّ وهو الفتّاح العليم﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وهو الذي جَعَلكم خَلائِفَ الأرض ﴾، أي: جَعَلكم تَعمُرون الأرضَ جيلاً بعد جيلٍ، وقَرْناً بعد قرن، وخَلَفاً بعد سَلَفٍ. قاله ابنُ زيدٍ وغيرهُ، كما قال: ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكةً في الأرض يخلفون ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ ويجعلُكم خُلَفاءَ الأرض ﴾، وقوله: ﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفةً ﴾، وقوله: ﴿ عسى ربكم أن يُهلِكَ عَدُوَّكم ويستخلفكم في الأرض فينظُرَ كيف تعملون ﴾.

وقولهُ: ﴿ ورَفَع بعضَكم فوقَ بعضٍ دَرجاتٍ ﴾، أي: فاوَتَ بينكم في الأرزاق والآجال، والمحاسن والمساوىء، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحُكْمُ في ذلك، كقولِهِ: ﴿ نحن قَسَمنا بينهم مَعيشَتَهم في الحياة الدنيا ورَفَعنا بعضهم فوق بعض درجات لِيتَّخذَ بعضُهم بعضاً سُخرِيّاً ﴾، وقولِهِ: ﴿ انظر كيف فَضَّلنا بعضَهم على بعضٍ وللآخرةُ أكبرُ دَرَجاتٍ وأكبرُ تَفْضيلاً ﴾.

وقولهُ: ﴿ لِيبلُوَكم فيما آتاكم ﴾، أي: ليختبِرَكم في الذي أنعمَ به عليكم وامتحنكم به، ليختَبِر الغنيَّ في غِناه ويسأله عن شُكره، والفقير في فَقْرِه ويسأله عن صَبْره.

وقد روى مسلمٌ في صَحيحه، من حديث أبي نَضْرة، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرة، وإن الله مُستَخْلِفُكم فيها لينظُرَ كيف تعمَلُون، فاتَّقُوا الدنيا، واتَّقُوا النِّساء، فإن أوَّل فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساء»[١].

وقولهُ: ﴿ إن ربَّكَ سَريعُ العقابِ وإنه لغفورٌ رحيمٌ ﴾، ترهيبٌ وترغيبٌ، أنَّ حِسابَه وعقابَه سريع ممن عَصاه وخالَفَ رُسُلَه. ﴿ وإنه لغفورٌ رَحِيم ﴾ لمن والاه واتَّبع رُسُلَه فيما جاءُوا به من خَبرٍ وطَلَبٍ.

وقال محمد بن إسحاق: يرحَم العباد على ما فيهم. رواه ابن أبي حاتم.

وكثيراً ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال: ﴿ نَبِّئْ عِبادي أني أنا الغفورُ الرحيمُ. وأن عَذابي هو العذابُ الأليم ﴾ وقوله: ﴿ وإن ربكَ لَذُو مغفرةٍ للناس على ظُلْمِهم، وإنَّ ربَّكَ لشديدُ العقابِ ﴾ وغير ذلك من الآيات المشتملة على التَّرغيب والتَّرهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبةِ وصفةِ الجنةِ والترغيب فيما لديه، وتارةً يدعُوهم إليه بالرَّهبة وذِكْرِ النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارةً بهذا وبهذا لينجَعَ في كل بحسبه. جَعَلَنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وتَركَ ما نَهى عنه وزَجر، وصَدَّقه فيما أخبَرَ، إنه قريبٌ مجيبٌ سَميعُ الدعاء، جَوادٌ كريمٌ وهَّاب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زُهير، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبي - ﷺ - قال: لو يعلَمُ المؤمنُ ما عند الله من العُقوبة ما طَمِعَ بالجنة أحد. ولو يعلم الكافرُ ما عند الله من

---

(١) مسلم، كتاب الرقاق ٢٠٩٨.

الرحمة ما قَنِطَ من الجنة أحدٌ. خَلَق الله مائةَ رحمةٍ فَوضَعَ واحدةً بين خَلْقِهِ يتراحَمُون بها، وعند الله تسعة وتسعون[1].

ورواه الترمذي، عن قُتَيبة، عن عبد العزيز الدَّراوَرْدِي، عن العلاء، به. وقال: حَسَنٌ[2]. ورواه مسلم، عن يحيى بن يحيى[3]، وقُتَيبة، وعلي بن حُجْرٍ، ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء[4].

* * *

آخرُ تفسيرِ سُورةِ الأنعامِ، ولله الحمدُ والمنَّةُ

---

(١) مسند أحمد ٢/٤٨٤.

(٢) في نسخة: حسن صحيح.

(٣) في مسلم: يحيى بن أيوب.. وهما أعني: يحيى بن يحيى وابن أيوب، يرويان عن إسماعيل بن جعفر.

(٤) عارضة الأحوذي أبواب الدعاء ١/٦٠ - ٦١. ومسلم، كتاب التوبة، ٢١٠٨.

تفسير

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

قد تَقدَّم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وبسطه، واختلاف الناس.

وقال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن شَرِيك، عن عَطاء بن السائب، عن أبي الضُّحَى، عن ابن عباس: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾، «أنا الله أفصل». وكذا قال سعيد بن جُبَير[1].

قوله: ﴿كتابٌ أُنزِلَ إليكَ﴾، أي: هذا كتابٌ أنزِل إليك، أي: من ربك، ﴿فلا يكن في صدرك حَرَجٌ منه﴾، قال مجاهد، وقتادة، والسدِّيُّ: شك منه.

وقيل: فلا تتحرَّج به في إبلاغِه والإنذار به، واصبرْ كما صَبَر أولوا العَزْم من الرسُلِ: ولهذا قال: ﴿لتنذر به﴾، أي أُنزِلَ إليك لتنذر به الكافرين، ﴿وذكرى للمؤمنين﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾، أي: اقتفوا آثار النبيِّ الأميِّ الذي جاءكم بكتاب أنزل من رب كلِّ شيء ومليكِه، ﴿ولا تتَّبِعوا من دونه أولياءَ﴾، أي: لاَ تخْرُجوا عما جاءكم به الرسولُ إلى غيره، فتكونوا قد عَدَلتم عن حكمِ الله إلى حُكْمِ غيره.

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ كقوله: ﴿وما أكثرُ الناس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين﴾، وقوله: ﴿وإن تُطِعْ أكثرَ من في الأرض يُضِلُّوك عن سبيل الله﴾، وقوله: ﴿وما يُؤْمِنُ أكثرُهم بالله إلا وهم مُشْرِكون﴾.

﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا

(١) تفسير الطبري ٨/ ١١٥.

﴿كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧﴾

يقولُ تعالى: ﴿وكم من قريةٍ أهلكناها﴾: أي: بمخالفةِ رُسُلِنا وتكْذيبهم، فأعقبَهم ذلك خِزْيَ الدنيا موصولاً بذلِّ الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿ولقد استُهزِئَ برسُلٍ من قبلك، فحاق بالذين سَخِروا منهم ما كانوا به يَسْتهزِءُون﴾، وقال تعالى: ﴿فكأيِّن من قريةٍ أهلكناها وهي ظالمة فهي خاويةٌ على عُروشها وبئر مُعطَّلة وقصرٍ مشيد﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قرية بَطِرَت معيشَتها، فتلك مساكنهم لم تُسْكَن من بعدهم إلا قليلاً، وكنا نحن الوارثين﴾.

وقوله: ﴿فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾، أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بياتاً﴾، أي: ليلاً. ﴿أو هم قائلون﴾، من القيلولة، وهي: الاستراحةُ وسطَ النهار. وكلا الوقتين وقت غَفْلةٍ ولَهْوٍ، كما قال: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بَياتاً وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون﴾، وقال: ﴿أفأمن الذين مكروا السيِّئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين. أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءُوف رحيم﴾.

وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسُنا إلا أنْ قالوا إنا كنَّا ظالمين﴾، أي: فما كان قولُهم عند مجيءِ العَذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقيون بهذا. كما قال تعالى: ﴿وكم قَصمنا من قرية كانت ظالمةً﴾ إلى قوله: ﴿خامدين﴾.

وقال ابن جرير: في هذه الآية الدلالةُ الواضحةُ على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله - ﷺ - من قوله: «ما هلك قوم حتى يُعْذِروا من أنفسهم».

حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير، عن أبي سنان، عن عبد الملك بن ميسرة الزرَّاد قال: قال عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - قال رسول الله - ﷺ -: «ما هلك قوم حتى يُعْذِروا من أنفسهم». - قال قلت لعبد الملك: كيف يكونُ ذاك؟ قال: فقرأ هذا الآية: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنَّا ظالمين﴾(١).

وقوله: ﴿فلنسألَنَّ الذين أُرسِلَ إليهم ولنسألَنَّ الْمُرْسَلِين﴾ كقوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم فيقول: ماذا أجبتم المرسلين﴾، وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول: ماذا أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا، إنك أنت علام الغيوب﴾، فالرَّبُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته. ولهذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين﴾، (٢-[وقال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين-٢)] عما بلغوا.

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكِنْدي، حدثنا المحاربي، عن ليث، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كُلُّكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يُسْأل عن رعيَّته، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تُسألُ عن بيت زوجها، والعبد يُسألُ عن مال سيده». قال الليث: وحدثني ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أرسل إليهم وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين﴾.

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٢٠.
(٢) سقط من الأصل، والمثبت عن تفسير الطبري ٨/ ١٢١.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة[١].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون.

[وما كنا غائبين][٢]، يعني أنه تعالى يخبر عباده يومَ القيامة بما قالوا وبما عَمِلوا، من قليل وكثير، وجليل وحقير، لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تُخفِي الصدور، ﴿وما تسقُطُ من ورقةٍ إلا يعلمها، ولا حَبَّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾

يقول تعالى: ﴿والوزن﴾، أي: للأعمال يوم القيامة ﴿الحق﴾، أي: لا يظلم تعالى أحداً[٣]، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾، وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويُؤْتِ من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه. فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه. فأمه هاوية. وما أدراك ماهيه. نارٌ حامية﴾. وقال تعالى: ﴿فإذا نُفخ في الصُّور فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلونَ﴾ ﴿فمن ثَقُلت موازينُه فأولئك هم المفلحون. ومن خَفَّت موازينه فأولئك الذين خَسِرُوا أنفسهم في جهنم خالدون﴾.

فصل

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً.

قال البغوي: يُرْوَى هذا عن ابن عباس[٤]. كما جاء في الصحيح من أن «البقرة» و«آل عمران» يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ـ أو غَيَايتان ـ أو فِرْقان من طير صَوَافّ[٥]. وكذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: «أنا القرآنُ الذي أَسْهَرتُ ليلك وأظمأتُ نهارَك»[٦]، وفي حديث البراء، في قِصَّة سُؤَالِ القبر: «فيأتي المؤمنَ شابٌّ حَسَنُ اللون طَيِّبُ الرِّيحِ، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عَمَلُكَ الصالحُ[٧]»، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفّه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يا رب، وما

(١) البخاري، كتاب الأحكام ٨/ ٧٧، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٥٩.

(٢) سقط من الأصل.

(٣) في نسخة: لا يُظلم أحدٌ.

(٤) تفسير البغوي ١٤٩/٢.

(٥) انظر ما تقدم في فضل سورة البقرة.

(٦) مسند أحمد ٥/ ٣٤٨، ٣٥٢، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٤٢.

(٧) مسند أحمد ٢٨٧/٤.

هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظلَم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة». رواه الترمذي بنحو من هذا، وصححه[١].

وقيل: يُوزَنُ صاحبُ العملِ، كما في الحديث: «يُؤتَى يومَ القيامةِ بالرَّجل السَّمين، فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بَعُوضةٍ» ثم قرأ: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾[٢].

وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أتعجَبُونَ من دِقَّةِ ساقيه، فوالذي نَفْسِي بيده لهما في الميزان أثقلُ من أُحُدٍ»[٣].

وقد يمكِنُ الجمعُ بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كلُّه صحيحاً، فتارةً تُوزَنُ الأعمالُ، وتارةً توزَنُ مَحالُّها وتارةً يُوزَن فاعِلُها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى مُمْتَنّاً على عَبيده فيما مكَّن لهم من أنه جعَلَ الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لَهم منافعها، وسَخَّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايشَ. أي: مكاسب وأسباباً يَتَّجِرون فيها، ويَتَسَبَّبون أنواعَ الأسباب، وأكثرُهم مع هذا قليلُ الشكرِ على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾.

وقد قرأ الجميع[٤] ﴿معايش﴾ بلا هَمْزٍ، إلا عبدَ الرحمن بن هُرْمزَ الأعرجَ فإنّه همزها. والصواب الذي عليه الأكثرونَ بلا همزٍ، لأن معايش جمع معيشة، من عاش يعيش عيشاً، ومعيشة أصلها مَعْيِشَةٌ فاستُثْقِلت الكسرةُ على الياء، فنُقِلَت إلى العين فصارت مَعِيشة، فلما جُمعت رَجَعَت الحركةُ إلى الياءِ لزوال الاستثقال، فقيل: معايِش، ووزنُه مفاعِلُ، لأنَ الياء أصليةٌ في الكلمة. بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مَدينةٍ وصحيفة وبصيرةٍ، مِن مَدَنَ وصَحُفَ وأبصَرَ، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تُجمَعُ على فعائِلَ، وتهمَزُ لذلك. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾

يُنَبِّه تعالى بني آدم في هذا المقام على شَرَف أبيهم آدَمَ، ويُبيِّن لهم عَدُوَّهم إبليس، وما هو مُنطوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدمَ، ليحذَرُوه ولا يَتَّبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة: إني خالق بشرا من صَلْصالٍ من حَمَإٍ مسنونٍ. فإذا سَوَّيتُه ونَفَخْتُ فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين﴾، وذلك أنه تعالى لما خَلَقَ آدم ـ عليه السلام ـ بيده من طين لازبٍ، وصَوَّره بَشَراً، ونَفَخَ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الربِّ تعالى وجَلاله، فَسَمِعوا كلُّهم وأطاعوا، إلا أبليسَ لم يكن من الساجدينَ. وقد تَقَدَّم الكلامُ على إبليسَ في أول تفسير «سورةِ البقرة».

---

(١) تحفة الأحوذي، أبواب الإيمان ٧/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧.
(٢) البخاري، تفسير سورة الكهف ٦/ ١١٧، ومسلم، كتاب صفات المنافقين ٢١٤٧.
(٣) مسند أحمد ١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.
(٤) البحر المحيط ٤/ ٢٧١.

وهذا الذي قَرَّرناهُ هو اختيارُ ابن جريرٍ، أنَّ المراد بذلك كله آدمُ عليه السلامُ[١].

وقال سُفيان الثوري، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سَعِيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ولقد خلقناكم ثم صَوَّرناكم﴾، قال: خُلِقوا في أصلاب الرجال، وصُوِّروا في أرحام النساء.

رواه الحاكم، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»[٢]، ونقله ابنُ جرير عن بعض السلف أيضاً أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية[٣].

وقال الربيع بن أنس، والسدي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾، أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية.

وهذا فيه نظر، لأنه قال بعده: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن الرسول ـ ﷺ ـ: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾، والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمان موسى، ولكن لما كان ذلك مِنَّةً على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقعٌ على الأبناء. وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾... الآية، فإنَّ المرادَ منه آدمُ المخلوق من السلالة، وذريَّتُهُ مخلوقون من نُطفةٍ، وصَحَّ هذا لأنَّ المرادَ في خلقنا الإنسان الجنسُ لا معيناً[٤]. والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

قال بعضُ النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿ألَّا تسجد إذ أمرتك﴾: لا ها هنا زائدة.

وقال بعضهم: زِيدَتْ لتأكيدِ الجَحْد، كقول الشاعر:

* ما إن رأيتُ ولا سَمِعتُ بمثله[٥] *

فأدخل «إن»، وهي للنفي، على «ما» النافية لتأكيد النفي، قالوا: وكذلك ها هنا: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾، مع تقدم قوله: ﴿لم يكن من الساجدين﴾.

حكاهما ابن جرير، وردَّهما، واختار أن «منعك» تَضَمَّن معنى فعلٍ آخر تقديره: ما أحوجَكَ وألزمَكَ واضطرك ألَّا تسجد إذ أمرتك؟ ونحو ذلك. وهذا القول قوي حسن، والله أعلم.

وقولُ إبليس ـ لعنه الله ـ: ﴿أنا خيرٌ منه﴾، من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضلُ بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟! ثم بَيَّن أنه خيرٌ منه بأنه خُلِق من نار، والنار أشرفُ مما خلقْتَه منه، وهو الطين. فنظر اللعينُ إلى أصل العنصر، ولم ينظرْ إلى

---

(١) تفسير الطبري، ٨/ ١٢٧.

(٢) المستدرك، تفسير سورة الأعراف ٢/ ٣١٩.

(٣) تفسير الطبري ٨/ ١٢٧.

(٤) في الأصل: لا بعين.

(٥) كذا، والذي نحفظه من هذا بيت دريد بن الصمّة:

ما إن رأيتُ ولا سَمِعْتُ بهِ كاليوم هانىء أينُقٍ جُرْبِ

انظر الشعر والشعراء لابن قتية ٣٤٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٢٨.

التشريف العظيم. وهو أن الله تعالى خَلَقَ آدم بيده، وَنَفَخَ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نَصّ قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا له ساجدين﴾، فشذَّ من بين الملائكة بتَرْكِ السجود، فلهذا أبلسَ من الرحمة، فأخطأ قَبَّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرفُ من الطين أيضاً، فإن الطينَ من شأنه الرزانةُ والحلم والأناة والتثبيت، والطينُ محلُّ النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة. ولهذا خان إبليسَ عُنْصُرُه ونفع آدمَ عنصرهُ في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خُلِقَت الملائكة من نُورٍ، وخُلِقَ إبليسُ من مارجٍ من نارٍ، وخُلِق آدمُ مما وُصِفَ لكم». هكذا رواه مسلم(١).

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا نُعَيم بن حَمَّاد، حدثنا عبد الرزّاق، عن معمر، عن الزُّهري، عن عُرْوَةَ، عن عائشة قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خَلَقَ الله الملائكة من نور العرش، وخَلَق الجان من مارجٍ من نار، وخَلَق آدم مما وُصِف لكـم. قلت لِنُعيمِ بن حَمَّاد: أين سَمِعت هذا من عبد الرزّاق؟ قال: باليمـن». وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: «وخُلِقَتِ الحورُ العينُ من الزَّعفران».

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الورَّاق، عن الحسن في قوله: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، قال: قاس إبليسُ، وهو أوَّلُ من قاسَ. إسناده صحيح.

وقال: حدثني عمرو بن مالك، حدثني يحيى بن سليم الطائفي، عن هشام، عن ابن سيرين قال: أوَّلُ من قاسَ إبليسُ، وما عُبِدَتِ الشمسُ والقمرُ إلا بالمقاييس(٢). إسناد صحيح أيضاً.

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قَدَرِيٍّ كونيٍّ: ﴿فاهبِطْ منها﴾، أي: بسبب عصيانِكَ لأمري، وخُرُوجِك عن طاعتي، فما يكونُ لك أن تتكبَّر فيها.

قال كثيرٌ من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى.

﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾، أي: الذليلين الحقيرين، معاملةً له بنقيضِ قَصْدِه، ومكافأةً لمراده بضده. فعند ذلك استدرك اللعينُ وسأل النَّظِرَةَ إلى يوم الدين، وقال: ﴿أنظِرْني إلى يوم يُبعَثُونَ، قال: إنك من المنظَرين﴾، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعَقِّب لحكمه، وهو سريع الحساب.

---

(١) مسلم، كتاب الزهد ٢٢٩٤.
(٢) تفسير الطبري ٨/ ١٣١.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليسَ ﴿إلى يوم يُبْعثُون﴾، واستوثق إبليسُ بذلك، أخذ في المعاندة والتمرُّد، فقال: ﴿فبما أغويتني لأقعدَنَّ لهم صراطَكَ المستقيم﴾، أي: كما أغويتني.

قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدنَّ لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه - على ﴿صراطك المستقيم﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، فَلأُضِلَّنَّهم عنها لئلا يعبدوك ولا يُوحِّدوك بسبب إضلالك إياي.

وقال بعض النحاة: الباء ها هنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال مجاهد: ﴿صراطك المستقيم﴾، يعني: الحق. وقال محمد بن سوقة، عن عون بن عبدالله: يعني طريق مكة.

قال ابن جرير: والصحيحُ أن الصراط المستقيم أعم من ذلك كلّه[1].

قلت: لما روى الإمام أحمد:

حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل - يعني الثقفي عبد الله بن عقيل - حدثنا موسى بن المسيب[2]، أخبرني سالم بن أبي الجعد، عن سبرةَ بن أبي فاكهٍ قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: فعصاه وأسلم. قال: وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وَتَذَرُ أَرْضَك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل[3]؟ فعصاه وهاجر - ثم قعد له بطريق الجهاد - وهو جَهْدُ النفس والمال - فقال: تقاتلَ فَتُقتَلُ، فتنكحُ المرأةُ ويقسَم المالُ؟. قال: فعصاه فجاهد - قال رسول الله - ﷺ -: فمن فَعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وَإنْ قُتِل كان حقاً على الله - عز وجل - أن يدخله الجنة. وإن غَرِق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»[4].

وقوله: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم﴾... الآية.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم﴾، أُشَكِّكُهم في آخرتهم، ﴿ومن خلفهم﴾، أرغبهم في دنياهم، ﴿وعن أيمانهم﴾، أشبّه عليهم أمر دينهم، ﴿وعن شمائلهم﴾، أشهّي لهم المعاصي.

وقال ابن أبي طلحة - في رواية - والعوفي، كلاهما عن ابن عباس: أما ﴿من بين أيديهم﴾، فمن قبل دنياهم، وأما ﴿من خلفهم﴾، فأمر آخرتهم، وأما ﴿عن أيمانهم﴾، فمن قِبَل حسناتهم، وأما ﴿عن شمائلهم﴾، فمن قِبَل سيئاتهم.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٥/ ١٣٤ - ١٣٥.

(٢) في المسند: موسى بن المثنى. وهو خطأ، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٨/ ١٦١، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٣٧٢.

(٣) الطِّوَلُ: الحبل.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٨٣.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة: أتاهم ﴿من بين أيديهم﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ﴿ومن خلفهم﴾، من أمر الدنيا فزيَّنها لهم ودعاهم إليها، و﴿عن أيمانهم﴾ من قبل حسناتهم بَطّأهم عنها، ﴿وعن شمائلهم﴾، زين لهم السيئات والمعاصي، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وكذا رُوي عن إبراهيم النخعي، والحكم بن عتيبة، والسدي، وابن جرير، إلا أنهم قالوا: ﴿من بين أيديهم﴾ الدنيا ﴿ومن خلفهم﴾ الآخرة.

وقال مجاهد: «من بين أيديهم وعن أيمانهم»: حيث يبصرون ـ «ومن خلفهم وعن شمائلهم»: حيث لا يبصرون.

واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه، والشر يُحسِّنه لهم(١).

وقال الحكم(٢) بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾، ولم يقل: من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾، قال: موحدين.

وقولُ إبليس هذا إنما هو ظنٌّ منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿ولقد صَدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطانٍ إلا لنعلَمَ من يؤمنُ بالآخرةِ ممَّن هو منها في شكٍّ وربُّك على كل شيء حفيظ﴾.

ولهذا وَرَد في الحديث الاستعاذةُ من تَسَلُّط الشيطانِ على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده.

حدثنا نصر بن علي، حدثنا عمرو بن مُجَمِّع، عن يونس بن خَبَّاب، عن ابن جُبير بن مطعم ـ يعني نافع ابن جُبَير ـ عن ابن عباس ـ وحدثنا عمر بن الخطاب ـ يعني السجستاني ـ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله بن عمرو، وعن زيد بن أبي أُنيسة، عن يونس بن خَبَّاب ـ عن ابن جبير بن مطعم ـ عن ابن عباس قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي. اللهم استُر عَوْرتي وآمِن رَوْعتي، واحفظني من بين يديَّ، ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي». تفرد به البَزَّار، وحَسَّنه(٣).

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا وكيعٌ، حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثنا جبير(٤) بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسولُ الله يَدَعُ هؤلاء الدعواتِ حينَ يصبحُ وحينَ يمسي: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي. اللهم استُر عوراتي، وآمِن رَوْعاتي. اللهم احفظني من بين يديَّ ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتِكَ أن أُغتالَ من تحتي» قال وكيع: يعني الخسف(٥).

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٣٧.

(٢) في الأصل: الحاكم. وهو خطأ، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٣/ ١١٣.

(٣) كشف الأستار ٤/ ٦٠.

(٤) في الأصل: جرير بن أبي سليمان. وهو خطأ، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٢/ ٥١٣.

(٥) مسند أحمد ٢/ ٢٥.

ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حِبّان، والحاكم من حديث عُبادة بن مسلم، به. وقال الحاكم: صحيح الإسناد[١].

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

أكَّد تعالى اللعنةَ والطردَ والإبعاد والنفي عن محلِّ الملأ الأعلى بقوله: ﴿اخرُجْ منها مذءوماً مَدْحُوراً﴾.

قال ابن جرير: «أما «المذءوم»، فهو المَعِيب، والذَّأْمُ ـ غيرَ مشدَّد ـ: العيبُ. يقال: «ذَأَمه يَذْأَمه ذَأْماً فهو مذؤوم» ويتركون الهمز فيقولون: «ذِمْتِهِ أَذِيمه ذَيما وذَاما»، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم. قال: «والمدحور: المُقْصَى. وهو المبعد المطرود»[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف «المذؤوم» «والمذموم» إلا واحداً.

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس: ﴿اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾، قال، مقيتاً.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: صَغِيراً مقيتاً. وقال السدِّيّ: مَقِيتاً مطروداً. وقال قتادة: لَعِيناً مقيتاً. وقال مجاهد: مَنْفِياً مطروداً. وقال الربيعُ بن أنس: مذءومـاً: منفيّاً، والمدحورُ المصغَّرُ.

وقوله تعالى: ﴿لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾. كقوله: ﴿قال: اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً. واستفزِزْ من استطعت منهم بصوتك وأَجْلِبْ عليهم بخيلك ورَجِلِكَ وشارِكْهم في الأموال والأولاد، وعِدْهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدمَ عليه السلامُ ولزوجتِه حَوَّاءَ الجنةَ أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرةً واحدةً. وقد تقدَّم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»[٣]، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليُسْلبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذباً وافتراء: ما نهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة إلا لتكونا ملكين أي: لئلا تكونا ملكين خالدين ها هنا. ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك، كقوله: ﴿قال: يا آدم، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ أي، لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي: لئلا تضلوا. ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي: لئلا تميد بكم.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٣١٨ ـ ٣١٩، وابن ماجه، كتاب الدعاء ١٢٧٣ ـ ١٢٧٤، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، باب الأدعية ٢/١٥٤ ـ ١٥٥. والمستدرك، كتاب الدعاء ١/٥١٧ ـ ٥١٨.

(٢) تفسير الطبري ٨/ ١٣٩.

(٣) انظر تفسير الآية ٣٥ من سورة البقرة.

وكان ابن عبَّاس ٍ ويحيى بنُ أبي كثيرٍ يقرآن[1]: ﴿إلا أن تكونا مَلِكين﴾، بكسر اللام. وقرأه الجمهور بفتحها.

﴿وقاسَمَهما﴾، أي: حلف لهما بالله، ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾، فإني من قَبْلكما ها هنا، وأعلم بهذا المكان. وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زُهَير، ابنُ عَمّ أبي ذُؤَيب[2]:

وقــاسَمَـهـما بــالله جَـهْـداً لأنـتـمُ ألــذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُـورهـا

[3]-(أي: حلف لهما بالله على ذلك.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾-[3]: فحلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله، فقال: إني خُلِقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خُدعنا له»[4].

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قال سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: كان آدم رجلاً طُوَالاً، كأنه نخلة سَحُوق[5]، كثير شعر الرأس. فلما وقع بما وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك، وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلَّقَتْ برأسه شجرةٌ من شَجَر الجنة، فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك. فناداه ربه عز وجل: يا آدم، أمنّي تفر؟ قال: ربِّ إني استحيَيْتُكَ[6]..

وقد رواه ابنُ جرير، وابن مَرْدُويه، من طُرُق، عن الحسن، عن أُبَيّ بن كعب، عن النبي ﷺ. والموقوف أصح إسناداً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، السنبلة. فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما، وكان الذي وارى عنهما من سوآتهما أظفارهما، وطَفِقا يخصِفان عليهما من ورق الجنة وَرَق التين، يلزقان بعضه إلى بعض. فانطلق آدم ـ عليه السلام ـ مولياً في الجنة، فعلقت برأسه شجرةٌ من الجنة، فناداه: يا آدم، أمنّي تفر؟ قال: لا، ولكني استحيتُك يا ربِّ. قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحةٌ عما حرَّمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزّتك ما حَسِبت أن أحداً يَحلِفُ بك كاذباً. قال: وهو قوله تعالى: ﴿وقاسَمَهما إني لكما لمن الناصحين﴾. قال: فبعزتي لأُهبطَنَّكَ إلى الأرض، ثم لا تنال

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٤٠.

(٢) البيت في تفسير الطبري ٨/ ١٤١، وديوان الهذليين ١/ ١٥٨.

والسلوى هنا: العسل. ونشورها: نأخذها. والشَّوْر: أخذ العسل من موضعه.

(٣) عن الأصل.

(٤) تفسير الطبري ٨/ ١٤١.

(٥) أي: عالية.

(٦) تفسير الطبري ٨/ ١٤٣.

العيش إلا كَدًّا[١]. قال: فاهبط من الجنة، وكانا يأكلان منها رغداً، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعُلِّم صنعةَ الحديد، وأُمِرَ بالحرث، فحرث وزرعَ ثم سقى، حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه، ثم ذرّاه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يَبْلُغه حتى بَلَغ منه ما شاء الله أن يَبْلَغ[٢].

وقال الثوري، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وطَفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾، قال: ورق التين. صحيح إليه.

وقال مجاهد: جعلا يَخْصِفانِ عليهما من ورق الجنة كهيئة الثوب.

وقال وهب بن مُنَبِّه في قوله: ﴿يَنزِعُ عنهما لباسهما﴾، قال: كان لباس آدم وحواء نُوراً على فُرُوجهما، لا يَرَى هذا عَورة هذه، ولا هذه عَوْرَة هذا. فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما. رواه ابن جرير بإسناد صحيح إليه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: قال آدم: أي ربِّ، أرأيت إن تُبتُ واستغفرت؟ قال: إذاً أدخلك الجنة. وأما إبليس فلم يسأله التوبة، وسأله النَّظِرَةَ، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله.

-[٣](وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾: هي الكلمات التي تلقّاها آدم من ربِّه)-[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى ابن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني. قال: فإني قد أعقبتها ألّا تحمل إلا كَرْهاً، ولا تضع إلا كَرْهاً. قال: فرَنَّت عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنَّةُ عليك وعلى ولدك[٤].

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قيل: المراد بالخطاب في ﴿اهبطوا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والحية. ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم.

والعمدةُ في العداوة آدمُ وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة «طه» قال: ﴿اهبطا منها جميعاً﴾... الآية، وحواء تبعٌ لآدم. والحية ـ إن كان ذكرها صحيحاً ـ فهي تَبَعٌ لإبليس.

وقد ذكر المفسرون الأماكنَ التي هَبَط فيها كلٌّ منهم، ويرجعُ حاصلُ تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها. ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسولُه ﷺ.

(١) في الأصل: كدراً.
(٢) تفسير الطبري ٨/ ١٤٢.
(٣) من الأصل.
(٤) تفسير الطبري ٨/١٤٤. ورَنَّتْ: صاحت من الحُزن.

وقوله: ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين﴾، أي: قرارٌ وأعمارٌ مضروبةٌ إلى آجالٍ معلومةٍ، قد جرى بها القلمُ، وأحصاها القدرُ، وسُطِرت في الكتاب الأول.

وقال ابن عباس: ﴿مستقرٌ﴾: القبورُ. وعنه: وجه الأرض وتحتها. رواهما ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾، كقوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ ـ يخبر تعالى أنه جَعَل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلاً بعمله.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يَمتنُّ تبارك وتعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش، فاللباس المذكور ها هنا لستر العورات ـ وهي السوآت ـ والرياش والريش: هو ما يُتَجَمَّل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التَّكمِلات والزيادات.

قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب: الأثاث، وما ظهر من الثياب.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ـ وحكاه البخاري ـ عنه: الريشُ: المالُ[1]. وكذا قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والسدي، والضحاك: (الرِّياش: المالُ[2]).

وقال العَوفي، عن ابن عباس: الرِّيـاش: اللِّباسُ، والعيش، والنعيم.

وقال عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أَصْبَغ، عن أبي العلاء الشامي قال: «لبس أبو أمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ تَرْقُوَته قال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عَوْرَتي، وأتجمَّل به في حياتي. ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من استَجَدَّ[3] ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ ترقوته: «الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي»، ثم عمد إلى الثوب الذي خَلُقَ أو: أَلقي فتصدق به، كان في ذمة الله، وفي جوار الله، وفي كَنَفِ الله حياً وميتاً»[4].

ورواه الترمذي، وابن ماجه، من رواية يزيد بن هارون، عن أصبغ ـ هو ابن زيد الجهني ـ وقد وثقه يحيى ابن معين وغيره، وشيخه «أبو العلاء الشامي» لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرجه أحد، والله أعلم[5].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عُبيد: حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبي مطر: أنه رأى علياً ـ رضي الله عنه ـ أتى غلاماً حدثاً، فاشترى منه قَميصاً بثلاثة دراهم، ولبسه [إلى] ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول ولبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي. فقيل:

(١) البخاري، تفسير سورة الأعراف ٦/ ٧٣.

(٢) عن الأصل.

(٣) في الأصل: اتخذ.

(٤) المسند ١/ ٤٤.

(٥) تحفة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٠/ ٥ ـ ٦، وابن ماجه، كتاب اللباس ٢/ ١١٧٨.

هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن نبي الله ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي»(١).

وقوله تعالى: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ ـ قرأ بعضهم: ﴿ولباسَ التقوى﴾، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، ﴿وذلك خير﴾ خبره.

واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمةُ: «يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة». رواه ابن أبي حاتم.

وقال زيدُ بن علي، والسدّيُّ، وقتادةُ، وابن جُرَيج، : ﴿ولباس التقوى﴾: الإيمان.

وقال العوفي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ﴿لباس التقوى﴾: العمل الصالح.

وقال ذيال(٢) بن عمرو، عن ابن عباس: هو السَّمْتُ الحَسَنُ في الوجه.

وعن عروة بن الزبير ﴿لباس التقوى﴾: خشية الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿ولباس التقوى﴾: يتقي الله، فيواري عورته، فذلك لباسُ التقوى.

وكل هذه متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال:

حدثني المثنى، حدثني إسحاقُ بن الحجاج، حدثنا إسحاقُ بن إسماعيلَ، عن سُليمانَ بن أرقَم، عن الحسنِ قال: رأيت عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ على مِنْبَرِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ عليه قميصٌ قُوهِيٌّ(٣) محلول الزِّرِّ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس، اتَّقوا الله في هذه السرائر، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، ما عَمِلَ أحدٌ قطُّ سرّاً إلا ألبسه الله رداءَ علانيةٍ، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً. ثم تلا هذه الآية: ﴿ورياشاً ـ ولم يقرأ: وريشاً ـ ولباسُ التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله﴾، قال: السمتُ الحَسَنُ(٤).

هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمانَ بن أرقم، وفيه ضعفٌ. وقد رَوَى الأئمة: الشافعي، وأحمد، والبخاري في «كتاب الأدب» من طُرُقٍ صَحِيحَةٍ، عن الحسن البصري: أنه سمع أميرَ المؤمنين عثمانَ بن عَفَّانَ يأمُرُ بقتل الكلاب وذبح الحمام ـ يوم الجمعة ـ على المنبر(٥).

وأما المرفوع منه، فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهداً من وجه آخر، حيث قال: حدثنا. . . »(٦).

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(١) المسند ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) في الأصل: ديال، دون نقط. وفي أخرى: الذيال. وفي تفسير الطبري ١٤٩/٨: الزباء: ولم نجد واحداً من هؤلاء، وقد توقف محقق تفسير الطبري الأستاذ محمود شاكر فلم يثبت شيئاً، انظر ١٢/ ٣٦٧.

(٣) القميص القوهي: منسوب إلى قوهستان، وهي أرض من نواحي هراة، ينسب إليها نوع من الثياب.

(٤) تفسير الطبري ٨/ ١٤٩.

(٥) الأدب المفرد ٤٤١، ومسند الإمام أحمد ١/ ٧٢.

(٦) كذا، وفي الأصل فراغ نحو اثني عشر سطراً.

يقولُ تعالى محذِّراً بني آدمَ من إبليس وقبيله، ومبيِّناً لهم عداوتَه القديمة لأبي البشر آدمَ عليه السلامُ، في سَعْيِهِ في إخراجه من الجَنَّةِ التي هي دارُ النعيم، إلى دارِ التعبِ والعناء، والتسبب في هَتْكِ عورته بعدما كانت مستورةً عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أفتتخذُونه وذرِّيته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بِئْسَ للظالمين بدلاً﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضعُ المرأةُ على قُبُلِها النِّسعة[1]، أو الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُهُ أو كلُّه وما بَدا منه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾... الآية.

قلت: كانت العربُ ـ ما عدا قريشاً ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبِسُوها، يتأوَّلون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عَصَوا الله فيها، وكانت قريش ـ وهم الحُمْس ـ يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

اليوم يبدُو بعضُهُ أو كلُّه وما بَدا منه فلا أُحِلُّهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قل﴾، أي: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾. أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك. ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾، أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾، أي: بالعدل والاستقامة، ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾، أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كما بدأكم تعودون﴾... إلى قوله: ﴿الضلالة﴾ ـ اختُلِفَ في معنى ﴿كما بدأكم

(١) النِّسعة: قطعة جلد مضفورة توضع على صدر البعير.

تعودون﴾، فقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿كما بدأكم تعودون﴾: يحييكم بعد موتكم.

وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء.

وقال قتادةُ: ﴿كما بدأكم تعودون﴾، قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا، ثم يعيدهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخراً.

واختار هذا القولَ أبو جعفرِ بن جَريرٍ، وأيَّده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عُراة غُرْلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين».

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، من حديث شعبة، وفي صحيح البخاري أيضاً من حديث الثوري[1] به.

وقال وِقَاء بن إياس أبو يزيد، عن مجاهد: ﴿كما بدأكم تعودون﴾، قال: يبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً.

وقال أبو العاليةِ: ﴿كما بدأكم تعودون﴾: رُدّوا إلى علمه فيهم.

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿كما بدأكم تعودون﴾: كما كُتِبَ عليكم تكونـون. وفي رواية: كما كنتم تكونون عليه تكونون.

وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ في قوله تعالى: ﴿كما بدأكم تعودون﴾: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدىء عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة. [كما أن إبليس عمل بأعمال أهل السعادة، ثم صار إلى ما ابتدُىء عليه خلقه]. ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدىء خلقه عليه، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملت بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتُلِؤوا عليه[2].

وقال السدِّيُّ: ﴿كما بدأكم تعودون. فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾، يقول: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما خلقناكم، فريق مهتدون وفريق ضُلّال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿كما بدأكم تعودون. فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾، قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم، مؤمناً وكافراً.

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع ـ أو: ذراع ـ فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع ـ أو: ذراع ـ فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة»[3].

---

(١) البخاري، تفسير سورة المائدة ٦/ ٦٩ ـ ٧٠، وكتاب الأنبياء ٤/ ٢٠٤، ومسلم، كتاب الجنة ٨/ ١٥٧.

(٢) تفسير الطبري ٨/ ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٣) البخاري، كتاب القدر ٨/ ١٥٢.

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «إن العبد ليعمل ـ فيما يرى الناس ـ بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار. وإنه ليعمل ـ فيما يرى الناس ـ بعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة. وإنما الأعمال بالخواتيم».

هذا قطعة من حديث رواه البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرّف المدني، في قصة «قُزمان» يوم أحد(١).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «تبعث كل نفس على ما كانت عليه».

وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن الأعمش، به، ولفظه: «يُبعَثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه»(٢).

قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول ـ إن كان هو المراد من الآية ـ وبين قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾، وما جاء في الصحيحين، عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»(٣). وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حِمَار قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»... الحديث(٤). ووجهُ الجمعِ على هذا أنه تعالى خَلَقَهم ليكونَ منهم مؤمنٌ وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده، والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم بذلك الميثاق، وجعله في غرائزهم وفطَرهم، ومع هذا قدر أن يكون منهم شقي ومنهم سعيد: ﴿هو الذي خلقكم، فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾، وفي الحديث: «كل الناس يَغْدُو، فبائعٌ نفسه فمعتِقُها، أو مُوبِقُها»(٥)، وقدر الله نافذ في بَرِيَّتِهِ، فإنه هو ﴿الذي قدر فهدى﴾، و﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾. وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة، فسيسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيسر لعمل [أهل] الشقاوة(٦)». ولهذا قال تعالى: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾، ثم علّل ذلك فقال: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾... الآية.

قال ابنُ جَرِيرٍ: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زَعَم أن الله لا يُعذِّبُ أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علمٍ منه بصوابِ وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلَّ وهو يحسِبُ أنه هادٍ، وفريق الهدى، فرقٌ. وقد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية الكريمة(٧).

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر، انظر فتح الباري ١١/٤٩٩، هذا وانظر الفتح، كتاب المغازي ٧/٤٧١.
(٢) مسلم، كتاب الجنة ٢٢٠٦، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤١٤.
(٣) فتح الباري، كتاب الجنائز ٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦، ومسلم، كتاب القدر ٢٠٤٧.
(٤) مسلم، كتاب الجنة ٢١٩٧.
(٥) مسلم، كتاب الطهارة ٢٠٣. ومسند أحمد ٣/ ٣٢١، ٣٩٩، ٥/ ٣٤٢، ٣٤٤.
(٦) البخاري، كتاب الجنائز ٢/ ١٢٠. ومسلم، كتاب القدر ٢٠٣٩ ـ ٢٠٤٠.
(٧) تفسير الطبري ٨/ ١٥٩.

هذه الآية الكريمة ردٌ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة، كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير ـ واللفظ له ـ من حديث شعبة، عن سلمة بن كُهيل، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة [الرجال والنساء]: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليومَ يبدُو بعضُه أو كلُّهُ   وما بَدَا مِنْهُ فلا أُحِلُّهُ

فقال الله تعالى: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾[1].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾... الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة: اللباس، وهو ما يُوارِي السَّوْأَةَ، وما سِوى ذلك من جَيِّد البزّ والمتاع، فأمِروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد[1].

وكذا قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم النخَعي، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، والضحاك، ومالك عن الزهري، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها [نزلت] في طواف المشركين بالبيت عراة.

وقد روى الحافظ ابن مَرْدُويه، من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً: أنها أنزلت في الصلاة في النعال. ولكن في صحته نظر، والله أعلم.

ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا علي بن عاصم، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «البسوا من ثيابكم البياضَ، فإنها من خير ثيابكم، وكَفِّنوا فيها موتاكم، وإنَّ من خَيرِ أكحالكم الإثمد، فإنه يجلُو البَصَر، ويُنبتُ الشعرَ»[2].

هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[2].

وللإمام أحمد أيضاً، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سَمُرة بن جُندَب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «عليكم بالثياب البياض فالبَسُوها، فإنها أطهرُ وأطيبُ، وكفِّنوا فيها موتاكم»[3].

وروى الطبراني بسند صحيح، عن قتادة، عن محمد بن سيرين: أن تميماً الداري اشترى رداءً بألف فكان يُصَلِّي فيه[4].

وقوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا﴾... الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سَرَفٌ ومَخِيلَةٌ[5].

---

(١) تفسير الطبري ٨/١٥٩ ـ ١٦٠. ومسلم، كتاب التفسير ٤/٢٣٢٠، والنسائي، كتاب الحج ٥/٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) مسند أحمد ١/ ٢٤٧. وسنن أبي داود، كتاب اللباس ٤/ ٥١، وتحفة الأحوذي أبواب الجنائز ٤/ ٧٢ ـ ٧٣، وابن ماجه، كتاب الجنائز ٤٧٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٧، ١٢ ـ ١٣، ١٧ ـ ٢١. وابن ماجه، كتاب اللباس ١١٨١، وعارضة الأحوذي، كتاب الأدب ١٠/ ٢٥٣.

(٤) المعجم الكبير ٢/٤٩.

(٥) البخاري، كتاب اللباس ٧/ ١٨٢.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مَخِيلة(١): إسناده صحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا همام، عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رسول الله - ﷺ - قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا [في] غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»(٢).

ورواه النسائي وابن ماجه، من حديث قتادة، عن عمرو بن شُعَيب، عن أبيه، عن جَدّه، عن النبي - ﷺ - قال: «كُلوا وَتَصَدَّقُوا والبَسُوا، في غير إسرافٍ ولا مَخِيلة»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكناني، حدثنا يحيى بن جابر الطائي، سمعت المقدام بن معد يكرب الكندي قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حَسْبُ ابن آدم أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلثٌ طعامٌ، وثلثٌ شرابٌ، وثلثٌ لنَفَسِه»(٣).

ورواه النَّسائي والتِّرمذي، من طُرُقٍ، عن يحيى بن جابر، به. وقال الترمذي: حسن، وفي نسخة: حسن صحيح(٣).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا سُوَيد بن عبد العزيز، حدثنا بَقِيَّة، عن يوسف بن أبي كثير، عن نوح بن ذكوان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إنَّ من السَّرَف أن تأكُلَ كُلَّ ما اشتَهَيْتَ»(٤).

ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: هذا حَديثٌ غَريبٌ تفرَّد به بَقيَّة.

وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الوَدَك(٥) ما أقاموا في الموسم: فقال الله لهم: ﴿كلوا واشربوا﴾... الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم.

وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَم: ﴿ولا تُسْرِفوا﴾، يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف.

وقال عطاء الخراساني، عن ابن عباس قوله: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾، في الطعام والشراب.

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾، يقول الله: إن الله لا يحب المتعدين حَدّه في حلال أو حرام(٦)، الغالين فيما أحل [أو حَرَّم](٧)، بإحلال الحرام، وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلِّل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به»(٨).

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٦٢.
(٢) مسند أحمد ٢/ ١٨٢، والنسائي، كتاب الزكاة ٥/ ٧٩، وابن ماجه، كتاب اللباس ٣٦٠٥.
(٣) مسند أحمد ٤/ ١٣٢، وتحفة الأحوذي، أبواب الزهد ٧/ ٥١.
(٤) مسند أبي يعلى ٥/١٥٤. وفيه سويد بن سعيد، بدل: سويد بن عبد العزيز. وفي الحديث الذي قبله يروي سويد بن سعيد عن سويد بن عبد العزيز. وأخرجه ابن ماجه بإسناده إلى بقية، انظر كتاب الأطعمة ٣٣٥٢.
(٥) هو: دسم اللحم.
(٦) في الأصل: في الحلال والحرام.
(٧) من تفسير الطبري.
(٨) تفسير الطبري، ٨/ ١٦٢.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى رَدّاً على من حَرّم شيئاً من المآكل والمشارب والملابس من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قل﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿من حَرّم زينة الله التي أخرج لعباده﴾... الآية، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شَرِكَهم فيها الكفار حِساً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يَشْرَكهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرّمة على الكافرين.

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين[1] القاضي، حدثنا يحيى الحِمّاني، حدثنا يعقوب القُمّي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: «كانت قريش يطوفون بالبيتِ وهم عراةٌ، يُصَفِّرون ويُصَفِّقون، فأنزل الله: ﴿قل من حَرَّم زينة الله التي أخرج لعباده﴾، فأُمِروا بالثياب»[2].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا أحد أغيرُ من الله فلذلك حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبّ إليه المَدْحُ من الله»[3].

أخرجاه في الصحيحين، من حديث سليمان بن مِهْران الأعمش، عن شقيق أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود، وتقدم الكلام في سورة الأنعام[4] على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقوله: ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾، قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغيُ أن تَبغِيَ على الناس بغير الحق.

وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه كائن على نفسه.

وحاصلُ ما فُسِّر به الإثم أنه الخطايا المتعلِّقة بالفاعِل نفسه، والبغيُ هو التعدِّي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا.

وقوله: ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾، أي: تجعلوا له شريكاً في عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك، مما لا علم لكم به كما قال تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾... الآية.

---

(١) كذا، ومثله في المعجم الصغير ٢/ ٢٠. وفي المعجم الكبير: بن الحصين.

(٢) المعجم الكبير ١٢/ ١٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٨١، والبخاري، كتاب التوحيد ٩/ ١٤٧، ومسلم، كتاب التوبة ٢١١٣.

(٤) انظر تفسير سورة الأنعام، الآية ١٥١.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) ﴾

يقول تعالى: ﴿ولكلِّ أمةٍ﴾، أي: قَرْنٍ وجيلٍ ﴿أجلٌ، فإذا جاء أجلهم﴾، أي: ميقاتهم المقدَّر لهم لا يستأخرون ساعة عن ذلك ولا يستقدمون.

ثم أنذر تعالى بني آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً، يقصون عليهم آياته، وبَشَّر وحَذَّر فقال: ﴿فمن اتقى وأصلح﴾، أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾، أي: كذبت بها قلوبهم، واستكبروا عن العمل بها ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، أي: ماكثون فيها مكثاً مخلداً.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) ﴾

يقول: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾، أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذب بآيات الله المنزلة.

﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال العوفي (عن ابن عباس): ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن يفتري على الله أن وجهه مسودّ.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيبهم من الأعمال، من عَمِل خيراً جُزي به، ومن عمل شراً جُزي به.

وقال مجاهد: ما وعدوا فيه من خير وشر.

وكذا قال قتادة، والضحاك، وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾، قال: عمله ورزقه وعمره.

وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون. متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾، وقوله: ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور. نمتعهم قليلاً﴾ . . . الآية.

وقوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾. . . الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقَبْض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه. قالوا: ﴿ضلوا عنا﴾ أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم. ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾، أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا كافرين﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما يقولُه لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذِّبين بآياته: ﴿ادخُلُوا في أُمَمٍ﴾، أي: من أشكالكم وعلى صِفَاتِكُم، ﴿قد خلت من قبلكم﴾، أي: من الأمم السالفة الكافرة.

﴿من الجن والإنس في النار﴾، يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿في أمم﴾، ويحتمل أن يكون ﴿في أمم﴾، أي: مع أمم.

وقولُه: ﴿كلما دَخَلَتْ أمة لعنت أختها﴾، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتُّبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءُوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾.

وقولُه: ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾، أي: اجتمعوا فيها كلهم، ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾، أي: أخراهم دخولاً - وهم الأتباع - لأولاهـم - وهم المتبوعون - لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾، أي: أَضْعِفْ عليهم العقوبةَ، كما قال تعالى: ﴿يوم تُقَلَّب وجوهُهم في النار يقولُونَ: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا: رَبَّنا إنا أطعنا سادتنا وكُبَراءنا فأضلُّونا السبيلا * ربنا آتِهم ضِعْفَين من العذاب﴾... الآية.

وقوله: ﴿قال لكل ضِعْفٌ ولكن لا تعلمون﴾، أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلًّا بحسبه، كما قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقال: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾... الآية.

﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾، أي: قال المتبوعـون للأتباع: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾، قال السدي: فقد ضللتم كما ضللنا.

﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾، وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استُضْعِفُوا للذين استكبروا: بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أنداداً، وأسروا الندامة لما رأوا العـذاب، وجَعَلنا الأغلالَ في أعناقِ الذين كَفَرُوا هل يُجزَون إلا ما كانوا يعملون﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)﴾

قوله: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾، قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء.

قاله مجاهد، وسعيد بن جبير. ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وكذا رواه الثوري، عن ليثٍ، عن عطاء، عن ابن عباس.

وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء. رواه الضحاك، عن ابن عباس. وقاله السدي وغير واحد، ويؤيده ما قال ابنُ جَرِيرٍ:

حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن المنهال ـ هو ابن عمرو ـ عن زاذان، عن البراء: أن رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر قَبْضَ روحِ الفاجر، وأنه يُصْعَد بها إلى السماء [قال][1]: فيصعدون بها، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: «ما هذه الروحُ الخبيثة؟» فيقولون: «فلان» ـ بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيا ـ حتى ينتهوا بها إلى السماء، فَيَسْتفتِحُون له فلا يُفْتَح له. ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾... الآية[2].

هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من طرق، عن المنهال بن عمرو، به. وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال:

حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحد. فجلس رسول الله ـ ﷺ ـ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان.

قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحَنُوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجِدَت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: «فلان ابن فلان»، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتاب عبدي في عِلّيين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى»،

قال: فتعاد روحُه: فيأتيه مَلَكان فيجلسانه فيقولان له: «من ربُّك» فيقول: «ربِّي الله». فيقولان له: «وما دينُك؟» فيقول: ديني الإسلامُ. فيقولان له: «ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟» فيقول: هو رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتابَ الله فآمنتُ به وصدَّقتُ. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مَدّ بصره.

(١) عن تفسير الطبري.

(٢) تفسير الطبري ٨/١٧٦ ـ ١٧٧. وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣٩ ـ ٢٤٠، والنسائي، كتاب الجنائز ٤/٧٨، وابن ماجه، كتاب الجنائز ١/٤٩٤.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مَدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فَتُفرق في جسده، فينتزعها كما يُنتزَعُ السُّفُّودُ من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: «فلان ابن فلان»، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى يُنْتَهى به إلى السماء الدنيا، فَيُستَفْتَحُ له، فلا يُفتَحُ. ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿لا تُفتَّح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾، فيقول الله عز وجل: «اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى». فَتُطرَحُ روحُه طرحاً، ثم قرأ: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء، فتخطفه الطير، أو تَهْوِي به الريح في مكان سحيق﴾.

فَتُعاد روحُه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: «من ربك؟» فيقول: هاه هاه! لا أدري: فيقولان: «ما دينُك؟» فيقول: هاه هاه! لا أدري. فيقولان: «ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟» فيقول: هاه هاه! لا أدري. فينادي منادٍ من السماء: «أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار». فيأتيه من حرها وسمومها، ويُضَيَّق عليه قبرُه حتى تختلف فيه أضلاعُه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، مُنتِنُ الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤُك. هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تُقِم الساعة»(١).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان. عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جنازة ـ فذكر نحوه.

وفيه: حتى إذا خرج روحُه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلِهم.

وفي آخره: ثم يقيض له اعمى أصم أبكم، في يده مَرْزَبَّة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحةً يسمعها كلُّ شيء إلا الثقلين ـ قال البراء: ثم يفتح له باب من النار، ويُمَهَّدُ له من فُرُشِ النار(٢).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه وابن جَرير ـ واللفظ له ـ من حديث محمد ابن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يَسار، عن أبي هُرَيرَةَ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: الميتُ تحضُره الملائكةُ، فإذا كان الرجلُ الصالحُ قالوا: اخرجي أيتها النفسُ المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري برَوْحٍ وريحانٍ، وربٌّ غيرِ غضبانَ(٣). فيقولون ذلك حتى يُعْرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال:

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٢) المسند ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.
(٣) بعده في الأصل: «قال: فيقال: من هذا». ولا موضع له هنا.

من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروْح وريحان، ورب غير غضبان»، فيقال[1] لها ذلك حتى ينتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السُّوءُ قالوا: «اخرجي يأيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغَسّاق، وآخر من شكله أزواج»، فيقولون ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعرَج بها إلى السماء فَيُستَفْتَحُ لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة[2] كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم تفتح لك أبواب السماء. فَتُرسَلُ بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر»[3].

وقد قال ابن جُرَيج في قوله: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾، قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ولا يدخلون الجَنَّة حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ﴾، هكذا قرأه الجمهور، وفسَّروه بأنه البعيرُ. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وفي رواية: زوج الناقة.

وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خُرْق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس.

وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها ﴿يلج الجُمَّلُ في سم الخياط﴾ ـ بضم الجيم، وتشديد الميم ـ يعني: الحبلَ الغليظَ في خرم الإبرة. وهذا اختيارُ سعيد بن جُبَير. وفي روايه أنه قرأ: ﴿حتى يَلِجَ الجُمَّلُ﴾ يعني قُلُوس السفُن، وهي: الحبَالُ الغِلاظُ.

وقولُهُ: ﴿لهم من جَهَنَّم مهادٌ﴾، قال محمد بن كعب القُرَظِيّ: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾، قال: الفُرُش، ﴿ومن فوقهم غواش﴾، قال: اللُّحُفُ.

وكذا قال الضحاكُ بن مُزاحمٍ، والسُّدِّيّ، ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حالَ الأشقياءِ، عَطَف بذكر حال السُّعداء، فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها.

ويُنَبِّه تعالى على أن الإيمان والعملَ به سهلٌ، لأنه تعالى قال: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما في صُدُورهم من غِلٍّ﴾، أي: من حسَدٍ وبغضاء، كما جاء في الصحيح للبخاري، من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجيّ، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا خَلَص المؤمنون من النار حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتُصّ لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا،

(١) في الأصل: فيقول.
(٢) في الأصل: الخبيثة التي كانت.
(٣) تفسير الطبري ٨/ ١٧٧. والحديث في تفسير الطبري ٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥. ومسند أحمد ٢/٣٦٤ ـ ٣٦٥، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٢٣ ـ ١٤٢٤.

حتى إذا هُذِّبوا ونُقوا، أُذِن لهم في دخولِ الجنة؛ فوالذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنةِ أدلُّ منه بمسكنه كان في الدنيا»[١].

وقال السُّدِّيّ في قوله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار﴾. . . الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة [فبلغوا[٢]]، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم «نضرة النعيم»، فلم يَشْعَثُوا ولم يَشْحُبُوا[٣] بعدها أبداً.

وقد رَوى أبو إسحاق، عن عاصم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحواً من ذلك، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وسِيقَ الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾[٤]، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال علي ـ رضي الله عنه ـ: إني لأرجو أن أكونَ أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾. رواه ابن جرير.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال علي: فينا والله ـ أهلَ بدرٍ ـ نزلت: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾.

وروى النسائي وابن مَرْدُويه ـ واللفظ له ـ من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني. فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني. فيكون له حسرة».

ولهذا لما أُورثُوا مقاعدَ أهلِ النار من الجنة نُودُوا: أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «واعلموا أن أحدكم لن يُدخِلَه عملُه الجنةَ. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمة منه وفَضْلٍ»[٥].

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهلَ النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾، «أن» ها هنا مفسِّرة للقول المحذوف، و«قد» للتحقيق، أي: قالوا لهم: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم. كما أخبر تعالى في سورة «الصافات» عن الذي كان له قَرِينٌ من الكفار: ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال: تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمةُ ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾[٦]. أي: ينكر عليه مقالته التي

---

(١) البخاري، كتاب المظالم ٣/ ١٦٧ ـ ١٦٨. وأدلُّ منه: أهْدَى له.

(٢) عن تفسير الطبري ٨/ ١٨٣

(٣) في تفسير الطبري: ولم يشعثوا ولم يشحُبوا: لم يتغيَّروا ويَهْزلوا.

(٤) آية الزمر ٧٣.

(٥) البخاري، كتاب الرقاق ٨/ ١٢٢ ـ ١٢٣. ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٦٩.

(٦) سورة الصافات، من آية ٥٤ إلى ٥٩.

يقولها في الدنيا، ويقرّعه بما صار إليه من العذاب والنَّكال، وكذا تُقرّعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾. وكذلك قرّع رسولُ الله - ﷺ - قتلى القَلِيب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم -: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جَيَّفوا؟! فقال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»(١).

وقوله: ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾، أي: أعلم معلم ونادى مُنَاد: ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾، أي: مستقرة عليهم.

ثم وصفهم بقوله: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾، أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله ورسوله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون [السبيل] معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد. ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾، أي: وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون، أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة.

قال ابن جَرير: وهو السور الذي قال الله تعالى: ﴿فَضُرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾. وهو الأعراف الذي قال الله تعالى: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾.

ثم روى بإسناده عن السديّ أنه قال في قوله: ﴿وبينهما حجاب﴾ وهو «السُّورُ»، وهو «الأعراف».

وقال مجاهد: الأعراف، حجاب بين الجنة والنار، سور له باب.

قال ابن جَرير: «والأعراف» جمع «عُرْف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى «عُرْفاً»، وإنما قيل لعُرْفِ الديك عُرْفاً لارتفاعه(٢).

وحدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن عُبَيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: الأعراف: هو الشيء المشرِفُ.

وقال الثوري، عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: «الأعراف»، سُورٌ كَعُرْف الديك. وفي رواية عن ابن عباس: الأعراف تَلٌّ بين الجنة والنار، حُبِس عليه ناسٌ من أهل الذنوب بين الجنة والنار. وفي رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير.

---

(١) البخاري، كتاب المغازي ٥/ ٩٧ - ٩٨. ومسلم، كتاب الجنة ٢٢٠٣.

(٢) تفسير الطبري ٨/ ٤١٣.

وقال السدِّيُّ: إنما سُمِّي «الأعرافُ» أعرافاً، لأن أصحابه يعرفون الناس.

واختلفت عباراتُ المفسِّرين في أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتُهم وسيئاتُهم، نصَّ عليه حُذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغيرُ واحد من السلف والخلف رحمهم الله، وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه:

حدثنا عبد الله بن إسماعيل، حدثنا عبيد بن الحسين، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا النعمان بن عبد السلام، حدثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: «سئل رسول الله - ﷺ - عمن استوت حسناته وسيئاته، فقال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون».

وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورواه من وجه آخر، عن سعيد بن سلمة بن أبي الحسام، عن محمد ابن المنكدر، عن رجل من مُزَينة قال: «سُئِلَ رسولُ الله - ﷺ - عن [أصحاب] الأعراف، فقال: إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فَقُتِلوا في سبيل الله».

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معشر، حدثنا يحيى بن شِبْل، عن يحيى بن عبد الرحمن المُزَنِيِّ، عن أبيه قال: سُئِل رسولُ الله - ﷺ - عن أصحاب الأعراف، فقال: «هم ناسٌ قُتِلوا في سبيلِ الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخولِ الجنة معصيةُ آبائهم، ومنعهم من النار قتلُهم في سبيلِ الله»[(١)].

هكذا رواه ابن مردويه، وابن جَرير، وابن أبي حاتم من طرق، عن أبي معشر، به. وكذلك رواه ابنُ ماجه مرفوعاً، من حديث ابن عباس وأبي سعيد الخدري. والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة، وفيه دلالة على ما ذكر.

وقال ابن جَرير: حدثني يعقوب: حدثنا هُشَيم، أخبرنا حُصَين، عن الشعبي، عن حُذَيفة: أنه سُئِل عن أصحاب الأعراف، قال فقال: هم قوم استوت حسناتُهم وسيئاتُهم، فقعدت[(٢)] بهم سيئاتُهم عن الجنة، وخلَّفت بهم حسناتُهم عن النار. قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضِيَ الله فيهم.

وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال:

حدثنا ابن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق قال: قال الشعبي: أرسل إليَّ عبد الحميد بن عبد الرحمن - وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش - وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذِكْراً ليس كما ذكرا، فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾، فبينا هم كذلك، اطلع عليهم ربك (اطلاعةً)[(٣)] فقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة، فإني قد غفرت لكم.

وقال عبدالله بن المبارك، عن أبي بكر الهُذَلي قال: قال سعيد بن جُبَير - وهو يحدِّث ذلك عن ابن مسعود - قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿فمن ثقلت موازينه﴾... الآيتين، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على

---

(١) تفسير الطبري ٨/١٩٣.

(٢) في تفسير الطبري ٨/ ١٩٠: فقصرت.

(٣) عن الأصل.

الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: «سلام عليكم»، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا إلى أصحاب النار قالوا: ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾، فتعوذوا بالله من منازلهم. قال: فأما أصحابُ الحَسَناتِ، فإنهم يُعطَون نوراً فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطي كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿ربنا أتمم لنا نورنا﴾. وأما أصحاب الأعراف، فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع، فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾، فكان الطمع دخولاً. قال وقال ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة. ثم يقول: هلك من غلبت واحدته أعشاره. رواه ابن جرير، وقال أيضاً:

حدثني ابن وكيع وابن حُمَيد قالا: حدثنا جَرِيرٌ، عن منصور، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: «الأعراف»: السور الذي بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا الله أن يعافيهم، انْطُلِق بهم إلى نهر يقال له: «الحياة»، حافتاه قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم، وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم. فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً. فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين أهل الجنة[١].

وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة، عن جرير، به. وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن مجاهد، عن عبد الله بن الحارث، من قوله. وهذا أصح، والله أعلم. وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

وقال سُنَيد بن داود: حدثني جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة بن عمرو بن جَرير قال: سُئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أصحاب الأعراف قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ ربّ العالمين من فصله بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتَقائي. فارعوا من الجنة حيث شئتم». وهذا مرسل حسن.

وقيل: هم أولاد الزنا. حكاه القرطبي.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «الوليد بن موسى»، عن شيبة بن عثمان، عن عروة بن رويم، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبي ـ ﷺ ـ: أنَّ مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم فقال: على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة ـ محمد ﷺ. فسألناه: وما الأعراف؟ فقال: حائط الجنة تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار.

رواه البيهقي، عن ابن بشران، عن علي بن محمد المصري، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسى، به[٢].

وقال سفيان الثوري، عن خُصيف، عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء.

وقال ابن جَرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مِجْلَز في قوله تعالى: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾، قال: هم رجال من الملائكة، يعرفون أهل الجنة وأهل النار، قال: ﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون﴾. وإذا صرفت

---

(١) تفسير الطبري ٨/١٩١.
(٢) أخرجه البيهقي في كتاب البعث. انظر الدر المنثور ٣/٤٦٥.

أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، ونادى أصحاب الأعراف رجالاً﴾ في النار ﴿يعرفونهم بسيماهم قالوا: ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون. أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾، قال: فهذا حينَ دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

وهذا صحيح إلى أبي مِجْلَز لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله، وخلاف الظاهر من السياق. وقولُ الجمهور مقدَّمٌ على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وكذا قول مجاهد: «إنهم قوم صالحون علماء فقهاء[1]». فيه غرابة أيضاً، والله أعلم.

وقد حكى القرطبي[2] وغيره فيهم اثني عَشَر قولاً منها: أنهم شهداء، وأنهم صلحاء تفرَّغوا من فَزَعِ الآخرة، وخلوا يَطَّلعون على أخبار الناس. وقيل: هم أنبياء. وقيل: ملائكة.

وقولُه تعالى: ﴿يعرفون كلاً بسيماهم﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: «يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه». وكذا روى الضحاك، عنه.

وقال العَوفي، عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم في ذلك يحيّون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله.

وكذا قال مجاهد، والضحاك، والسدِّيُّ، والحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال معمر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾، قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريدها بهم.

وقال قتادة: «أنبأكم الله بمكانهم من الطمع».

وقوله: ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

وقال السديّ: وإذا مروا بهم ـ يعني بأصحاب الأعراف ـ بزمرةٍ يُذْهَبُ بها إلى النار قالوا: ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾[3].

وقال عكرمة: تُجَرَّد[4] وجوههم في النار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾، فرأوا وجوههم مُسْوَدَّة، وأعينهم مُزْرَقَّة ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى مُخبراً عن تقريع أهل الأعرافِ لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ أي: كثرتكم، ﴿وما كنتم تستكبرون﴾، أي: لا ينفعكم كثرتكم

(١) تفسير الطبري ٨/١٩٣.
(٢) انظر تفسير القرطبي ٧/ ٢١١.
(٣) تفسير الطبري ٨/ ١٩٧.
(٤) في الأصل: تجدد. والمثبت من تفسير الطبري.

ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال.

﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ـ ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعكم﴾... الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا ـ يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار ـ قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾.

وقال حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم، فقصرت بهم حسناتُهم عن الجنة، وقَصَّرَت بهم سيئاتهم عن النار، فجُعِلُوا على الأعراف، يعرفون الناس بسيماهم. فلما قضى [الله] بين العباد أَذِنَ لهم في طلب الشفاعة، فأتوا آدم فقالوا: يا آدم، أنت أبونا، فاشفع لنا عند ربك. فقال: هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وسبقت رحمتُه إليه غضَبه، وسجدت له الملائكة غيري؟ فيقولون: لا. قال: فيقول: ما عملت كُنْهَه[1]، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا ابني إبراهيم. فيأتون إبراهيم ـ ﷺ ـ فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: [هل] تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه في النار في الله غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما عملت كُنْهَه، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن ائتوا ابني موسى. فيأتون موسى عليه السلام، فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً وقربه نجياً غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما عملت كُنْهَهُ، ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا عيسى. فيأتونه عليه السلام فيقولون له: اشفع لنا عند ربك. فيقول: هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب [غيري]؟ فيقولون: لا. فيقول: هل تعلمون من أحد كان يُبرِىءُ الأكمه والأبرص ويُحيِي الموتى بإذن الله غيري؟ قال: فيقولون: لا. فيقول: أنا حَجيجُ نفسي، ما عملت كُنْهَهُ، ما أستطيع أن أشفع لكم. ولكن ائتوا محمداً ﷺ. فيأتونني، فأضرب بيدي على صدري، ثم أقول: أنا لها. ثم أمشي حتى أقِفَ بين يَدَي العرش، فآتي ربي عز وجل، فَيَفتَحُ لي من الثناء ما لم يَسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجدُ فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، سل تُعطه، واشفع تُشَفَّعْ. فأرفع رأسي[2]، فأقول: رَبِّي أُمَّتي. فيقول: هم لك. فلا يبقى نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا غبطني بذلك المقام، وهو المقام المحمود. فآتي بهم الجنة، فأستفتح فيفتح لي ولهم، فيذهب بهم إلى نهر يقال له: «نهر الحيوان» حافتاه قَصَبٌ مكلّل باللؤلؤ، ترابه المسك، وحصباؤه الياقوت. فيغتسلون منه، فتعود إليهم ألوانُ أهل الجنة. وريح أهل الجنة، فيصيرون كأنهم الكواكب الدُّرِّية، ويبقى في صدورهم شامات بيض يُعْرَفُون بها، يقال [لهم]: مساكين أهل الجنة[3].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

(١) أي: ما عَمِلتُ قَدْرَهُ.

(٢) في هامش الأصل عنده: «ثم أثني على ربي ـ عز وجل ـ ثم أخرّ ساجداً فيقال لي: ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع».

(٣) تفسير الطبري ٨/ ١٩٩ ـ ٢٠٠.

قال السدي: ﴿ونادى أصحابُ النّارِ أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾، يعني: الطعام.

وقال عبد الرحمن بنُ زيدِ بن أسلَمَ: يستطعمونهم ويستسقونهم.

وقال الثوري، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جُبَير في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول: قد احترقت، أفض عليّ من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم. فيقولون: ﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾. ورُوي من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿إن الله حَرَّمهما على الكافرين﴾: يعني طعام الجنة وشرابها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس ـ أو: سُئِل ـ: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله».

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدّثنا الأعمش، عن أبي صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا، فيرسل إليك بعنقود من الجنة، لعله أن يشفيك به. فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي ـ ﷺ ـ فقال أبو بكر: إن الله حَرَّمَهما على الكافرين.

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهواً ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة.

قولُه: ﴿فاليوم ننساهم كما نسُوا لقاء يومهم هذا﴾، أي: نعاملهم معاملة من نَسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾.

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا الله فَنسِيَهم﴾، وقال: ﴿كذلك أتتك آياتنا فَنسِيتَها وكذلك اليوم تُنْسَى﴾، وقال تعالى: ﴿وقيل: اليوم نَنْساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فاليوم نَنْسَاهم كما نَسُوا لقاء يومهم هذا﴾، قال: نَسِيهم الله من الخير، ولم يَنْسَهم من الشر.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا.

وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا.

وفي الصحيح أن الله ـ تعالى ـ يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوِّجْكَ؟ ألم أكرمك؟ ألم أُسَخِّر لك الخيلَ والإبلَ، وأذرْك ترْأسُ وتربَعُ؟ فيقولُ: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا. فيقول الله: فاليوم أنساك كما نسيتني[1].

---

(١) مسلم، كتاب الزهد ٢٢٧٩ ـ ٢٢٨٠. وعارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٩/ ٢٥٩. ومسند أحمد ٢/ ٤٩٢.

وترأس: تكون رئيس القوم وكبيرهم. وتربع: تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة، وهو ربعها. والمعنى: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً؟

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسولُ، وأنه كتاب مُفَصَّلٌ مُبَيَّنٌ، كما قال تعالى: ﴿كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثم فُصِّلت﴾... الآية.

وقوله: ﴿فَصَّلناه على علم﴾، أي: على علم منا بما فصَّلناه به، كما قال تعالى ﴿أنزله بعلمه﴾.

قال ابن جرير: وهذه الآيةُ مردودةٌ على قوله: ﴿كتابٌ أُنزِلَ إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾... الآية ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾... الآية(١).

وهذا الذي قاله فيه نَظَرٌ، فإنه قد طال الفصل، ولا دليلَ على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخَسَار في الدار الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عِلَلَهم في الدار الدنيا، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وما كنا مُعَذِّبين حتى نبعث رسولاً﴾، ولهذا قال: ﴿هل ينظرُونَ إلاّ تأويله﴾، أي: ما وُعِدَ من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال مالك: ثوابه. وقال الربيعُ: لا يزال يجيء من تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

﴿يوم يأتي تأويلُه﴾، أي: يوم القيامة، قاله ابن عباس، ﴿يقول الذين نَسُوه من قبلُ﴾، أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: ﴿قد جاءت رُسُلُ ربنا بالحق، فهل لنا من شُفَعاء فيشفعوا لنا﴾، أي: في خلاصنا مما نحن فيه، ﴿أو نردّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾، كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، كما قال ها هنا: ﴿قد خَسِروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾، أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾، أي: ذَهَبَ عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعُون لهم، ولا يُنقِذُونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾

يخبر تعالى بأنه خلَقَ هذا العالَم، سماواتِه وأرضه وما بين ذلك، في ستَّةِ أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن. والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة وفيه اجتمع الخلقُ كلّه، وفيه خُلِق آدم عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام؟ كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة؟ كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويُرْوَى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع.

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ٢٠٣.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال:

حدثنا حجاج، حدثنا ابن جُرَيج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع - مولى أم سلمة - عن أبي هريرة قال: «أخذ رسول الله - ﷺ - بيدي فقال: خلَق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبالَ فيها يوم الأحد، وخلق الشَّجَرَ فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخَلَق آدم بعد العصرِ يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعاتِ الجُمعةِ فيما بين العَصْر إلى الليل»[1].

فقد رواه مسلم[1] بن الحَجّاج في صَحيحه والنسائي - من غير وجه - عن حجاج - وهو ابن محمد الأعور - عن ابن جُرَيج به. وفيه استيعابُ الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام. ولهذا تكلَّم البخاري وغيرُ واحدٍ من الحفَّاظِ في هذا الحديث، وجَعَلوه من رواية أبي هُرَيرة، عن كعبِ الأحبارِ، ليس مرفوعاً، والله أعلم.

وأما قولُه تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾، فللناس في هذا المقام مقالاتٌ كثيرةٌ جداً، ليس هذا موضعَ بسطِها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهبُ السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه، و﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نُعيم بن حَمّادٍ الخزاعيّ شيخُ البخاريِّ -: من شَبَّه الله بخلقه فقد كَفَر، ومن جَحَد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسولُه تشبيه، فمن أثبتَ لله تعالى ما وردَتْ به الآياتُ الصريحةُ والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلالِ الله تعالى، ونَفَى عن الله تعالى النقائِصَ، فقد سَلَك سبيل الهدى.

وقولُه تعالى: ﴿يغشي الليل والنهار يطلبه حثيثاً﴾، أي: يَذْهَبُ ظلامُ هذا بضياءِ هذا، وضياءُ هذا بظلامِ هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أي: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مُظلِمُون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ فقوله: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾، أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أَثَرِهِ لا واسطة بينهما، ولهذا قال: ﴿يطلبه حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره﴾ - منهم من نَصَب[2]، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أي: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته، ولهذا قال فيها: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾، أي: له الملك، والتصرف، ﴿تبارك الله رب العالمين﴾، كما قال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ . . . الآية.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاقُ، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدثنا بقيةُ بن الوليد، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري، عن عبد العزيز الشامي، عن أبيه - وكانت له صحبةٌ - قال: قال

---

(١) مسند أحمد ٢/ ٣٢٧، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٤٩ - ٢١٥٠.

(٢) النصبُ على العطف، ومسخرات حالٌ، أي: وخلق الشمس والقمر والنجوم مُسَخَّراتٍ. والرفعُ على الابتداء والخبر. وبالرفع قرأ ابن عامر، انظر الإقناع ٦٤٧.

رسول الله ـ ﷺ ـ: «من لم يحمَدِ الله على ما عَمِلَ من عَمَلٍ صالح، وحمِدَ نفسه، فقد كَفَر وحَبط عملُه. ومن زَعَم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً، فقد كَفَر بما أنزل الله على أنبيائه»، لقوله: ﴿ألا له الخَلْقُ والأمرُ تبارك الله ربُّ العالمينَ﴾(١).

وفي الدعاء المأثور، عن أبي الدرداء ـ ورُوِي مرفوعاً ـ: «اللهم لك الملكُ كلُّه، ولك الحمدُ كلُّه، وإليك يَرجِعُ الأمر كلُّه، أسألُك من الخيرِ كُلِّه، وأعوذ بك من الشرِّ كلِّه»(٢).

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أرشد تعالى عبادَه إلى دعائه، الذي هو صلاحُهم في دنياهم وأخراهم، فقال تعالى: ﴿ادعُوا ربَّكم تضرُّعاً وخُفية﴾، معناه: تَذلُّلاً واستكانة، و﴿خفية﴾، كما قال: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾... الآية، وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناسُ أصواتَهم بالدعاءِ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ أيها الناسُ، «اربَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً. إن الذي تدعونه سميع قريب»(٣)... الحديث.

وقال ابن جُرَيج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿تضرعاً وخفية﴾، قال: السر.

وقال ابن جَرير: ﴿تضرّعاً﴾: تذللاً واستكانة لطاعته. ﴿وخفية﴾، يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاة.

وقال عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إنْ كانَ الرجلُ لقد جَمَع القرآنَ، وما يشعرُ به الناسُ. وإن كان الرجل لقد فَقُه الفقه الكثير، وما يشعرُ به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّورُ(٤). وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عَمَلٍ يقدِرُون أن يعملُوه في السرِّ، فيكونَ علانيةً أبداً. ولقد كان المسلمونُ يجتهدونَ في الدعاء، وما يُسمَعُ لهم صوتٌ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربِّهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفيةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رَضِي فعله فقال: ﴿إذْ نادى ربه نداءً خَفِيّاً﴾(٥).

وقال ابن جُرَيج: يكره رفعُ الصوتِ والنداءُ والصياحُ في الدعاء، ويؤمر بالتضرُّع والاستكانة. ثم رَوَى عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾: في الدعاء ولا في غيره.

وقال أبو مِجْلَز: ﴿إنه لا يحبُّ المعتدين﴾: لا يُسْأَلُ منازلَ الأنبياء.

وقال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن زياد بن مخراق، سَمِعتُ أبا عباية(٦)، عن مولى لسعد: أن سعداً سَمِع ابناً له يدعو وهو يقول: «اللهم، إني أسألك الجنة

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ٢٠٦.

(٢) انظر سنن ابن ماجه، كتاب الدعاء ٣٢٦٤، ومسند أحمد ٦/ ١٤٧

(٣) البخاري، كتاب الدعوات ٨/ ١٠١ ـ ١٠٢، ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٧٦.
واربَعُوا: ارفقوا.

(٤) الزُّورُ: جمع زائر.

(٥) تفسير الطبري ٨/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٦) كذا، ومثله في المسند. وفي سنن أبي داود أن زياد بن مخراق يروي عن أبي نعامة، وهو ـ أعني أبا نعامة ـ كما في الجرح لابن أبي حاتم ٧/ ١٠٢: قيس بن عباية!

ونعيمها وإستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها». فقال: لقد سألت الله خيراً [كثيراً] وتعوذت بالله من شر كثير؛ وإني سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء»، وقرأ هذه الآية: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً﴾... الآية، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قولٍ أو عَمَلٍ، وأعوذُ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل»[١].

ورواه أبو داود[١]، من حديث شعبة، عن زياد بن مخراق، عن أبي نعامة، عن ابن لسعد، عن سعد... فذكره، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حمّاد بن سَلَمة، أخبرنا الجُرَيري، عن أبي نعامة: أن عبد الله بن مُغفّل سمع ابنه يقول: «اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بُنَيّ، سَلِ الله الجنة، وَعُذْ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور».

وهكذا رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عفان به. وأخرجه أبو داود، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجَريري، عن أبي نَعَامة ـ واسمه: قيس بن عباية الحنفي البصري ـ وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم[٢].

وقوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾، ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾، أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب.

ثم قال: ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾، أي: إن رحمته مُرْصَدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون﴾... الآية.

وقال: ﴿قريب﴾، ولم يقل: «قريبة»، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين.

وقال مَطر الورّاق: «تَنَجَّزُوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين». رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨ ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المُدَبِّر المُسَخِّر، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر ـ نبّه تعالى على أنه الرزّاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وهو الذي يُرْسِل الرياح نُشراً﴾[٣]، أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر. ومنهم من قرأ ﴿بُشْراً﴾، كقوله: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مُبَشِّراتٍ﴾.

(١) المسند ١/ ١٧٢، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢/ ٧٧.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٥٥، وسنن ابن ماجه، كتاب الدعاء ١٢٧١، وسنن أبي داود، كتاب الطهارة ١/ ٢٤.
(٣) قرأ عاصم بالباء مضمومة، وحمزةُ والكسائيُّ بالنونِ مفتوحةً، وابنُ عامر بضم النون وسكون الشين، والباقون بضم النون والشين. انظر الإتحاف ٦٤٧.

وقوله: ﴿بين يَدَيْ رَحْمَتِه﴾، أي: بين يَدَي المطر، كما قال: ﴿وهو الذي يُنَزِّلُ الغَيْثَ من بعد ما قَنَطُوا، وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾، وقال: ﴿فانظر إلى أثرِ[1] رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير﴾.

وقولُه: ﴿حتى إذا أَقَلَّت سحاباً ثِقالاً﴾، أي: حَمَلت الرياحُ سحاباً ثقالاً، أي: من كثرةِ ما فيها من الماء تكون ثقيلةً قريبةً من الأرضِ مدلهمَّة، كما قال زيد بن عمرو بن نُفَيل رَحِمه الله[2]:

وأسلمتُ وَجْهي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلالا
وأَسلَمْتُ وَجْهي لمن أسلَمَتْ ... له الأرض تحملُ صَخراً ثقالا

وقوله: ﴿سقناه لبلد ميت﴾، أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾. . . الآية، ولهذا قال: ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى﴾، أي: كما أحيينا هذه الأرضَ بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رَمِيماً يوم القيامة، يُنَزِّل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء، فَتُمطر الأرضَ أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: ﴿لعلكم تذكرون﴾.

وقوله: ﴿والبَلَدُ الطيِّبُ يخرج نباته بإذن ربه﴾، أي: والأرض الطيبةُ يخرج نباتها سريعاً حسَناً، كما قال: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾.

﴿والذي خبُثَ لا يخرج إلا نكداً﴾، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بنُ أسامة، عن بُرَيد بن عبد الله، عن أبي بُرْدَة، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مثلُ ما بَعَثَنِي الله به من الهُدَى والعلم، كَمَثَلِ الغيثِ الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعُشْبَ الكثير، وكانت منها أجادبُ أَمْسَكَت الماءَ، فنفع الله بها الناس، فَشَرِبُوا وسَقَوا وزَرَعُوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قِيعانٌ لا تُمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِم وَعَلَّم، ومثلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يَقْبَل هُدَى الله الذي أُرسِلْتُ به».

رواه مسلم والنسائي من طرق، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، به[3].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أوَّل السورةِ، وما يتعلَّق بذلك ويتَّصِلُ به، وفَرَغ منه، شرع تعالى في ذكر

(١) كذا في الأصل: أَثَر، بالإفراد. وهي قراءة الحرميين وأبي عمرو وأبي بكر. وقرأ الباقون: ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، بالجمع. انظر الإقناع ٧٣٠.

(٢) البيتان في سيرة ابن هشام ١/ ٢٣١.

(٣) البخاري، كتاب العلم ١/ ٣٠، ومسلم، كتاب الفضائل ١٧٨٧ ـ ١٧٨٨.

قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، وهو «نوح بن لامك بن مَتُوشَلَخ بن خَنُوخ ـ وهو إدريسُ عليه السلام ـ فيما يزعمون، وهو أول من خط بالقلم ـ ابن بُرد بن مهليل بن قِنين بن يانش بن شيث بن آدم عليه السلام.

هكذا نسبه ابن إسحاقَ وغير واحد من أئمة النَّسَب، قال محمدُ بن إسحاقَ: ولم يَلْقَ نبيٌّ من قومِهِ من الأذى مثلَ نوح إلا نَبِيٌّ قُتل.

وقال يزيد الرَّقاشي: إنما سُمِّي نُوحاً لكثرةِ ما ناح على نفسه.

وقد كان بين آدم إلى زمان نوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

قال عبد الله بن عباس وغيرُ واحد من علماء التفسير: أولُ ما عُبِدت الأصنامُ أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان جعلوا تلك الصُّوَرَ أجساداً على تلك الصُّوَر. فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسَمُّوها بأسماء أولئك الصالحين: ﴿ودّاً وسُواعاً ويَغُوث ويَعُوق ونَسرا﴾، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى ـ وله الحمد والمنة ـ رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يا قوم اعبدُوا الله ما لكم من إلّه غيرُه إني أخافُ عليكم عذَاب يوم عظيم﴾، أي: من عذاب يوم القيامة إنْ لقيتم الله وأنتم مشركون به. ﴿قال الملأ من قومه﴾، أي: الجمهورُ والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾، أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة، كما قال تعالى: ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾، ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿قال يا قوم ليس بي ضَلَالَةٌ ولكني رسولٌ من رب العالمين﴾، أي: ما أنا ضالٌّ، ولكن أنا رسول من رَبِّ كلِّ شيء ومليكه، ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾. وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأصحابه يوم عَرَفة، وهم أوفرُ ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتُها عليهم ويقول: «اللهم اشهَدْ، اللهم اشهَدْ»(١).

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أوعجبتم﴾... الآية، أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجَب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم، لإنذاركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به، ﴿ولعلكم ترحمون﴾.

قال الله تعالى: ﴿فكذبوه﴾، أي: فتمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى في موضع آخر، ﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾، وهي السفينة، كما قال: ﴿فأنجيناه وأصحاب

(١) مسلم، كتاب الحج ٨٩٠.

السفينة﴾، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾، كما قال: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾.

وقوله: ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾، أي: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له.

فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾... الآية إلى قوله: ﴿ولهم سوء الدار﴾.

وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجّى نوحاً وأصحابه المؤمنين.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: كان قومُ نوحٍ قد ضاقَ بهم السهلُ والجبلُ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز.

وقال ابن وَهبٍ: بلغني عن ابن عباسٍ: أنه نجا مع نوحٍ في السفينة ثمانون رجلاً، أَحَدُهم «جُرْهم»، وكان لسانُه عربياً.

رواهنّ ابنُ أبي حاتم. وقد روى هذا الأثر الأخير من وجه آخر متصلاً عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ
ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوحٍ نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً.

قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرَم بن عَوْص بن سام بن نُوحٍ.

قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون [إلى] العَمَد في البر، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا: من أشد منا قوة؟ أَوَلم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾.

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخُزاعي، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، سمعت علي بن أبي طالب يقول لرجل من حَضْرَموتَ: هل رأيت كثيباً أحمر تخالطه مَدَرَة[1] حمراء ذا أراكٍ

---

(١) المدرة: طين لا رمل فيه. والأراك والسدر: نبتان.

وسدْر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حَضْرَموتٍ، هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنعته نعتَ رجل قد رآه. قال: لا، ولكني قد حدثت عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبرُ هود عليه السلام. رواه ابن جرير[١].

وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هوداً ـ عليه السلام ـ دُفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضلِ القبائِل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شُدِّد خلقُهم شُدِّدَ على قلوبهم، وكانوا من أشدِّ الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾، والملأُ هم: الجمهور والسادة والقادة منهم، ﴿إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنُّك من الكاذبين﴾، أي: في ضَلالةٍ حيثُ دعوتنا إلى تركِ عبادةِ الأصنام، والإقبال إلى عبادةِ الله وَحدَهُ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد ﴿فقالوا﴾: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾... الآية.

﴿قال: يا قوم، ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾، أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾. وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغة والنصح والأمانة.

﴿أوَعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾، أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمَدُوا الله على ذاكم، ﴿واذكروا إذ جعلكم خُلَفاءَ من بعد قَوْم نوح﴾، أي: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهلَ الأرضِ بدعوته، لَمَّا خالفوه وكذبوه، ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾، أي: زاد طولكم على الناس بَسْطةً، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: في قصة طالوت: ﴿وزاده بسطةً في العلمِ والجسمِ﴾. ﴿فاذكروا آلاء الله﴾، أي: نعَمه ومنَّه عليكم ﴿لعلكم تفلحون﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده﴾.. الآية، كما قال الكفار من قريش: ﴿وإذ قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فَصَنمٌ يقال له: صُدَاء، وآخر يقال له: صُمُود، وآخر يقال له: الهباء[٢].

(١) تفسير الطبري ٨/ ٢١٧.
(٢) تفسير الطبري ٨/٢١٧ ـ ٢٢٠. وانظر تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٨/٢١١ ـ ٢١٢.

ولهذا قال هودٌ عليه السلامُ: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضبٌ﴾، أي: قد وَجَبَ عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجسٌ، قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه السخط والغضب.

﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾، أي: أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿ما نَزَّل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾.

وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقب بقوله: ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا، وما كانوا مؤمنين﴾.

وقد ذكر الله ـ سبحانه ـ صفة إهلاكهم في أماكن أُخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى. ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية. سخرَها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسُوماً، فترى القومَ فيها صَرْعَى كأنهم أعجازُ نَخْلٍ خاوية. فهل تَرَى لهم من باقيةٍ﴾ لما تمردوا وَعَتوا أهلكهم الله بريحٍ عاتيةٍ، فكانت تحملُ الرجلَ منهم فترفعُه في الهواءِ ثم تَنْكُسُه على أمِّ رأسه فتثلغُ(١) رأسه حتى تُبِينَهُ من جثته، ولهذا قال: ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾.

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن من عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فَشَوا في الأرض وقَهَروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحابَ أوثانٍ يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يُوَحِّدوا الله ولا يجعَلُوا معه إلَهاً غيره، وأن يَكُفُّوا عن ظُلمِ الناس. فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس، وهم يسير مكتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون﴾. ﴿قالوا: يا هود، ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾، أي: بجنون، ﴿قال: إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون. من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظِرُونَ. إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾.

قال محمدُ بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفرَ به، أمسكَ الله عنهم القَطْرَ ثلاثَ سنين، فيما يزعمونَ، حتى جَهَدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جَهَدهم أمرٌ في ذلك الزمان، فطلبوا من الله الفرجَ، إنما يطلبونه بحرمته ومكان بيته، وكان(٢) معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليقُ مقيمونَ، وهم من سلالة عِمْلِيقِ بن لاوَذَ بن سام بن نوح، وكان سَيِّدُهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت له أم من قوم عاد، واسمها كلهدة(٣) ابنة الخيبري، قال: فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية ـ وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف،

---

(١) أي: تهشمه.

(٢) في الأصل: وكانوا.

(٣) في الأصل: جلهدة.

عَمِلَ شعراً يُعَرِّض لهم بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنياهم به، فقال[١]:

ألا يـا قَيْـلُ، ويحَكَ! قُمْ فَهَيْنِمْ — لعـلَّ الله يُصْـبِحُـنـا غَـمَـامَـا
فَـيَـسْقِي أرضَ عـادٍ، إنَّ عـادًا — قـد امْسَـوا لا يُبِينُـونَ الكَـلامـا
من العطش الشديد، فليس نَرجُو — بـه الشيـخَ الكبيـرَ ولا الغُـلامـا
وقـد كـانت نـساؤهُمُ بخيـر — فقـد أمست نـساؤهم عَيَـامى
وإن الـوحشَ تـأتيهـمْ جِهـاراً — ولا تـخْشـى لعـاديٍّ سِـهَـامَـا
وأنـتُمْ هـا هُنـا فيمـا اشتَهَيْتُمْ — نـهـارَكُمْ ولَـيْـلَكُـمُ الـتَّـمَـامَـا
فَـقُبِّـحَ وَفْـدُكُـم من وَفْـدِ قَـوْمٍ — ولا لُـقُّوا الـتحيَّـةَ والـسَّلامـا

قال: فعند ذلك تنبَّهَ القومُ لما جاءُوا له، فَنَهَضُوا إلى الحرم، ودَعَوا لقومهم فدعا داعيهم، وهو قَيْلُ بن عِتْرٍ[٢]، فأنشأ الله سحاباتٍ ثلاثاً: بيضاء، وسوداء، وحَمْرَاءُ، ثم ناداه منادٍ من السماء: اخْتَرْ لنفسك ـ أو لقومك ـ من هذا السحاب. فقال: اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء. فناداه مناد: اخترتَ رَماداً رِمْدِداً[٣]، لا تبقي من عاد أحداً، ولا والداً تترك ولا ولداً، إلا جعلته هَمَداً، إلا بني اللَّوذِيَّة. المهَّـدَا ـ قال: وبنو اللُّوذية: بطن من عاد مقيمون بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم ـ قال: وهم من بقي من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة ـ قال: وساق الله السحابة السوداء ـ فيما يذكرون ـ التي اختارها «قَيْلُ بن عِتْرٍ»[٢] بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له: «المغيث»، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: ﴿هذا عارضٌ ممطرنا﴾ يقول: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها﴾، أي: تهلك كل شيء مَرَّت به، فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح، فيما يذكرون، امرأة من عاد يقال لها: مَهْدُ[٤]، فلما تبينت ما فيها صاحت، ثم صَعِقَتْ. فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مهدُ[٤]؟ قالت: ريحاً فيها شُهُب النار، أمامها رجال يقودونها. فسخَّرها الله سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كما قال الله ـ والحسوم: الدائمة ـ فلم تَدَعْ من عاد أحداً إلا هَلَك واعتزل هُود عليه السلام، فيما ذُكِرَ لي، ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتَلْتَذُّ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض، وتدمَغهم بالحجارة[٥].

وذكر تمام القصة بطولها، وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة، وقد قال الله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾.

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمامُ أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله. قال الإمام أحمد:

حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فمررتُ بالربَذَةِ

(١) الأبيات في تفسير الطبري ٨/٢١٨ ـ ٢١٩. والهَيْنَمَةُ: صوت خفي لا يفهم، والمراد بها: دعاءُ الله بالسُّقْيَا. والعيامى: جمع عيمان عَيْمى، والعيمة: شدة شهوة اللبن.
(٢) ورد لأول مرّة دون نقط، وفي الثانية كما أثبت. وكذلك هو في مخطوطة تفسير الطبري.
(٣) هو الذي بلغ الغاية في الاحتراق.
(٤) كذا في الأصل. وفي تفسير الطبري: مهدد.
(٥) انظر تفسير الطبري ٨/ ٢١٧ ـ ٢١٩

فإذا عجوزٌ من بني تميم مُنقطِعٌ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إنَّ لي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حاجةً، فهل أنت مُبلِغي إليه؟ قال: فحَمَلْتُها فأتيتُ المدينةَ، فإذا المسجدُ غاصٌّ بأهله، وإذا رايةٌ سوداء تَخفِقُ، وإذا بلالٌ متقلدٌ السيفَ بين يدي رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رَحْلَه ـ فاستأذنتُ عليه، فأَذِنَ لي، فدخلتُ فسلَّمتُ، فقال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدَّبْرةُ[1] عليهم. ومررتُ بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب. فأذن لها، فدخلَتْ، فقلت: يا رسولَ الله، إنْ رأيتَ أن تجعلَ بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء. فَحَمِيت العجوزُ واستوفزَتْ[2]، فقالت: يا رسولَ الله، فإلى أين يُضْطَرُّ مُضرُك[3]؟ قال قلت: إن مثلي ما قال الأول: «معزَى حَمَلت حتفها»، حَمَلْتُ هذه ولا أشعرُ أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافِد عادٍ! قال: هيه، وما وافد عاد؟ ـ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يَسْتَطْعِمُه ـ قلت: إن عاداً قُحِطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيلٌ، فمرَّ بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتُغَنِّيه جاريتان، يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة، فقال: «اللهمَّ إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديَه. اللهم أسْقِ عاداً ما كنت تَسقِيهِ فمرَّتْ به سحابات سُودٌ، فنودي منها: اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رِمْدِداً لا تُبقي من عاد أحداً. قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

هكذا رواه الإمام أحمد في المسند[3]، ورواه الترمذي، عن عبد بن حُمَيد، عن زيد بن الحُبَاب، به نحوه. ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر، عن عاصم ـ وهو ابن بَهدَلَة ـ ومن طريقه رواه ابنُ ماجة أيضاً، عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري، به. ورواه ابن جَرير، عن أبي كريب، عن زيد بن حُبَاب، به. ووقع عنده: «عن الحارث بن يزيد البكري» فذكره. ورواه أيضاً عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن حسان البكري. فذكره. ولم أر في النسخة «أبا وائل»، والله أعلم.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ
﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟
يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(١) الدبرة: الهزيمة في القتال. يريد: هزمناهم.
(٢) المستوفز: من استقلّ على رجليه ولما يستو قائماً، وقد تهيأ للوثوب والمضيّ.
(٣) مسند الإمام أحمد ٤٨٢/٣، وتحفة الأحوذي، تفسير سورة الذاريات ١٦١/٩ ـ ١٦٢. وابن ماجه كتاب الجهاد ٩٤١، ولم يذكر أبا وائل. وتفسير الطبري ٢٢٠/٨ ـ ٢٢١.

قال علماء التفسير والنسب: ثمودُ بن عاثِرِ بن إرَم بن سام بن نوح، وهو أخو جَديس بن عاثِر، وكذلك قَبِيلَةُ طَسْم ، كلُّ هؤلاء كانوا أحياءً من العربِ العاربةِ قبل إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وكانت ثمودُ بعد عادٍ، ومساكنهم مشهورةٌ فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القُرَى وما حوله، وقد مَرَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جُوَيرية، عن نافع، عن ابن عُمَر قال: لما نزل رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالناس على تَبُوك، نزل بهم الحِجْرَ عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشربُ منها ثَمُود، فعجنوا منها ونَصَبُوا القُدور. فأمرهم النبي ـ ﷺ ـ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجينَ الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقةُ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا [قال(١)]: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»(٢).

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفّان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بالحِجْر: «لا تَدْخُلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تَدْخُلوا عليهم أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم»(٣).

وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه(٣).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدّثنا يزيدُ بن هارونَ، أخبرنا المسعوديّ، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد ابن أبي كبشة الأنماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك تسارَع الناسُ إلى أهل الحِجْر يدخلون عليهم. فبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ فنادى في الناس: الصلاةَ جامعةً. قال: فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو ممسكٌ بعيره(٤) وهو يقول: ما تدخلون على قوم غَضِب الله عليهم. فناداه رجلٌ منهم: نعجبُ منهم يا رسول الله. قال: أفلا أنبئكم بأعجبَ من ذلك، رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسَدِّدوا. فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً(٥).

لم يخرجه أحد من أصحاب السنن الستّة، وأبو كبشة اسمه: عَمْرو بن(٦) سعد، ويقال: عامر بن سعد(٦)، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: «لما مرّ رسول الله ـ ﷺ ـ بالحجر قال: لا تسألوا الآياتِ، فقد سألها قومُ صالحٍ فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفجِّ، وتَصْدُر من هذا الفجِّ، فَعَتَوا عن أمر ربهم فَعَقَروها، وكانت تشربُ ماءهم يوماً ويشربون لَبَنها يوماً، فَعَقَرُوها، فأخذتْهم صيحةٌ أهمَدَ الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حَرَم الله. فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رِغال(٧)، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه(٨).

(١) عن المسند.
(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ١١٧.
(٣) المسند ٢/ ٧٤. والبخاري، كتاب الصلاة ١/ ١١٨، ومسلم، كتاب الزهد ٢٢٨٥ ـ ٢٢٨٦.
(٤) في الأصل: متمسك بعنزة.
(٥) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٣١.
(٦) كذا في الأصل: عَمْرو، وفي بعض النسخ: عُمَر. وكلاهما واردٌ في اسمه. انظر أسد الغابة ٣/ ١٢٣، ٤/ ٢٢٩، ٦/ ٢٦١.
(٧) انظر خبره في دلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٩٧.
(٨) مسند الإمام أحمد ٣/ ٢٩٦.

وهذا الحديثُ ليس في شيء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

فقولُه تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلةِ ثمودٍ أخاهم صالحاً، ﴿قال: يا قوم، اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾، جميعُ الرسل يدعون إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدون﴾، وقال: ﴿ولقد بعثنا في كل أُمّةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾.

وقولُه: ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم، هذه ناقةُ الله لكم آيةً﴾، أي: قد جاءتكم حجةٌ من الله على صدق ما جئتُكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه أن تَخْرُجَ لهم من صخرةٍ صمّاء عيّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر، يقال لها: الكَاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمْخَضُ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنّه، فلما أعطوه على ذلك عهودَهم ومواثيقهم قام صالحٌ ـ عليه السلام ـ إلى صلاته ودعا الله عز وجل، فتحرّكت تلك الصخرةُ ثم انصدَعَتْ عن ناقة جَوْفاء وبْراء يتحرك جنينُها بين جنبيها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسُ القوم وهو: «جُندَع بن عمرو» ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشارف ثمود أن يؤمنوا فَصَدَّهم «ذُؤاب ابن عمرو بن لَبِيدٍ» «والحُبابُ» صاحب أوثانهم، وربان[1] بن صَمْعَرٍ[2] بن جَلمس[3]، وكان «الجندع بن عمرو» ابنُ عَمٍّ يقال له: «شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد بن جواس»، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها، فأراد أن يُسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود، يقال له: مَهْوش بن عَنَمة بن الدُّميل رَحِمَه الله[4]:

وكانت عُصْبةٌ من آل عَمْرو ... إلى دين النبيِّ دَعَوْا شِهَابا
عَزِيزَ ثَمُود كُلَّهمُ جميعاً ... فَهَمَّ بأن يُجيبَ فَلَو أجابا
لأصبحَ صالحٌ فينا عَزِيزاً ... وما عَدَلُوا بصاحبهم ذُؤابا
ولكنَّ الغُوَاةَ مِنَ آل حِجْرٍ ... تَوَلّوا بعد رُشْدهم ذئابا

فأقامت الناقةُ وفصيلُها بعدما وضعته بين أظهرهم مدّةً، تشرب ماء بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً. وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملأونَ ما شاءُوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شربٌ محتضر﴾، وقال تعالى: ﴿هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾. وكانت تسرَحُ في بعض تلك الأوديةِ ترد من فَجّ وتصدُر من غيره ليسعها، لأنها كانت تتضلّع من الماء، وكانت ـ على ما ذكر ـ خَلْقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرّت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتدّ تكذيبُهم لصالحٍ النبي ـ عليه السلام ـ عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلّهم على قتلها.

قال قتادة: بلغني أن الذي قتل الناقة طاف عليهم كُلّهم، أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن، وعلى الصبيان أيضاً.

---

(١) كذا في إحدى النسخ، وفي أخرى: زبان، بالزاي. وفي ثالثة: ريان، بالراء والياء. وفي تفسير الطبري: رباب.
(٢) في الأصل: صمعون. والمثبت عن باقي النسخ والطبري.
(٣) في الأصل: حليس، بالحاء. وفي تفسير الطبري: جلهس. والمثبت عن باقي النسخ.
(٤) الأبيات في تفسير الطبري ٨/ ٢٢٦.

قلت: وهذا هو الظاهر لأن الله تعالى يقول: ﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾، وقال: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾، وقال: ﴿فعقروا الناقة﴾. فأسند[١] ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رِضَى جميعِهم بذلك، والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ـ رحمه الله ـ وغيره من علماء التفسير في سبب قتل الناقة: أن امرأةً منهم يقال لها: «عنيزة ابنة غنم بن مجلز»، وتكنى أم غَنْم[٢]، كانت عجوزاً كافرةً، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بناتٌ حِسانٌ ومالٌ جزيل، وكان زوجها ذُؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأةً أخرى يقال لها: «صدوف[٣] ابنة المحيا بن دهر بن المحيا[٤]» ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود، ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت «صدوف»[٣] رجلاً يقال له: «الحباب» وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يقال له: «مصدع بن مهرج بن المحيا»، فأجابها إلى ذلك ـ ودعت «عنيزة بنت غَنْم» قدار بن سالف بن جُنْدع[٥]، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه كان وَلَدَ زِنية، وأنه لم يكن من أبيه الذي يُنْسَب إليه، وهو سالف، وإنما كان من رجلٍ يقال له: «صهياد»[٦]، ولكن ولد على فراش «سالف»، وقالت له: أعطيك أيّ بناتي شئتَ على أن تعقر الناقة! فعند ذلك انطلق «قدار بن سالف» «ومصدع بن مهرج» فاستفزا[٧] غُواةً من ثمود، فاتّبعهما سبعةُ نفرٍ، فصاروا تسعةَ رهطٍ، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾، وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصَدُوا الناقة حين صَدَرت عن الماء، وقد كمن لها «قدار» في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها «مصدع» في أصل أخرى، فمرت على «مصدع» فرماها بسهم فانتظم به عضلَة ساقها وخرجت «أم غَنْم عنيزة»، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً، فسفرت عن وجهها لقدار وذَمَّرته[٨] فشد على الناقة بالسيف، فكَسَفَ[٩] عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رَغاةً واحدة تُحَذِّر سَقْبَها[١٠]، ثم طعن في لَبَّتها فنحرها، وانطلق سَقْبُها ـ وهو فصيلها ـ حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا. فروى عبد الرزاق، عن معمر، عمن سمع الحسن البصري أنه قال: يا رب، أين أمي؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات، وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه، فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وَفَرَغوا من عَقْر الناقة، بلغ الخبرُ صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ . . . الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عَجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته! ﴿قالوا:

---

(١) في الأصل: «فاشتد ذلك على».
(٢) في الأصل: عثمان. وانظر وروده بعد قليل.
(٣) في الأصل: صروف.
(٤) في الأصل: المختار.
(٥) في الأصل: جذع.
(٦) في الأصل: ضيلان.
(٧) في الأصل: فاستغووا.
(٨) أي: حثه وحرضته.
(٩) في الأصل: فكشف. وكسف عرقوبها: قطع عصبته دون سائر الرجل.
(١٠) أي: ولدها.

تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله، وإنا لصادقون. ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾ . . . الآية.

فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله صالح، أرسل الله ـ سبحانه وتعالى، وله العزة ولرسوله ـ عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النَّظرة، ووجوههم مُصْفَرَّةٌ كما وعدهم صالح عليه السلام. وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يومُ الجمعة، ووجوههم محمرَّة. وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودّة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنَّطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ـ عياذاً بالله من ذلك ـ لا يدرون ماذا يُفعَلُ بهم، ولا كيف يأتيهم العذابُ، وأشرقت الشمسُ، جاءتهم صيحةٌ من السماء ورَجْفة شديدة من أسفلَ منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾، أي: صرعى لا أرواحَ فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى. قالوا: إلا جارية كانت مقعدة ـ واسمها: «كلبة ابنة السِّلْق»، ويقال لها: «الذُّرَيْعَةُ»[1] ـ وكانت كافرةً شديدةَ العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب، أُطلِقَت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حَلَّ بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح ـ عليه السلام ـ ومن اتبعه ـ رضي الله عنهم ـ إلا أن رجلاً كان يقال له: «أبو رِغَالٍ»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدم في أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» في ذلك، وذكروا أن أبا رِغالٍ هذا هو والد «ثقيف» الذين كانوا يسكنون الطائف.

قال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية: أن النبي ـ ﷺ ـ مرَّ بقبر أبي رِغَالٍ فقال: أتدرون من هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا قبر أبي رِغَالٍ، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرمُ الله عذاب الله. فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فَدُفِن ها هنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن[1].

وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رِغَالٍ، أبو ثَقِيف[1].

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد رُوِي متصلاً من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بُجَير بن أبي بُجير قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال: «هذا قبر أبي رِغَالٍ، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فَدَفَع عنه، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدُفِن فيه. وآيةُ ذلك أنه دُفِن معه غُصنٌ من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه، فابتدره الناسُ فاستخرجوا منه الغصن».

وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق، به[2].

(١) تفسير الطبري ٢٣٠.
(٢) سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة ٣/ ١٨١ ـ ١٨٢.

قال شيخنا أبو الحجاج المِزِّي: وهو حديث حسنٌ عزيزٌ.

قلت: تفرد بوصله «بُجَير بن أبي بجير» هذا، وهو شيخ لا يُعرَفُ إلا بهذا الحديث، قال يحيى بن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية.

قلت: وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين.

قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

وقوله تعالى:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

هذا تقريعٌ من صالح ـ عليه السلام ـ لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتَمَرُّدِهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العَمَى. قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشُدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان ابن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّم من أقوام قد جَيَّفوا؟! فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون»[1].

وفي السيرة أنه ـ عليه السلام ـ قال لهم: «بئس عشيرةُ النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصَدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم!»[2].

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾، أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً. ولهذا قال: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين أن كُلَّ نبي هَلَكت أمته كان يذهب فيقيم في الحرم، حَرَم مكة، فالله أعلم.

وقد قال [الإمام] أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زَمْعَةُ بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «لما مر رسول الله ـ ﷺ ـ بوادي عُسْفان حين حَجّ قال: يا أبا بكر، أيُّ واد هذا؟ قال: هذا وادي عُسْفان. قال: لقد مَرّ به هُودٌ وصالح ـ عليهما السلامَ ـ على بَكرات[3] [حُمْرٍ][4] خُطُمها اللِّيف، أُزُرُهم العَبَاء، وأرديتهم النِّمار[5]، يُلَبُّون، يحجّون البيت العتيق»[6].

هذا حديث غريبٌ من هذا الوجه، لم يخرِّجه أحدٌ منهم.

---

(١) انظر تفسير الآية ٤٤ من هذه السورة.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٩.
(٣) البكرة: جمع بَكْرة، مؤنث بَكْر، وهو الفتيّ من الإبل.
(٤) عن المسند.
(٥) النمار: جمع نمِرة وهي: شملة مخططة.
(٦) المسند ١/ ٢٣٤.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿لُوطاً﴾، أو تقديره: ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾.

ولوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ وكان قد آمن مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه [الله] إلى أهل «سَدُوم» وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور. وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سَدُوم» عليهم لعائن الله.

قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾، [قال]: ما نزا ذَكَرٌ على ذكر، حتى كان قوم لوط.

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً.

ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: [أتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحد من العالمين]. ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾، أي: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾، فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾، أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك.

وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنى بعضهن ببعض أيضاً.

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

أي: ما أجابوا لوطاً إلا أن هَمّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين.

وقوله تعالى: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾، قال قتادة: عابوهم بغير عيب.

وقال مجاهد: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ من أدبار الرجال وأدبار النساء. ورُوي مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحدٌ منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيهم غير بيت من المسلمين﴾، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتُعْلِمهم بمن يَقْدَم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط ـ عليه السلام ـ أن يُسْري بأهله أمر ألَّا يعلم امرأته ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذابُ التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم، ولهذا قال ها هنا: ﴿إلا امرأته كانت من الغابرين﴾، أي: الباقين. ومنهم من فسر ذلك ﴿من الغابرين﴾ الهالكين، وهو تفسير باللازم.

وقوله: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾، مفسر بقوله: ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سِجِّيلٍ منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾، ولهذا قال: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾، أي: انظر ـ يا محمد ـ كيف كان عاقبة من تجهرم على معاصي الله وكذَّب رسله.

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ إلى أن اللائِطَ يُلقَى من شاهق، ويُتبَعُ بالحجارة كما فُعِل بقوم لوط.

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يُرجَم سواء كان محْصَناً أو غير مُحصَن. وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله. والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث الدَّراوَرْدِيِّ، عن عمرو بن أبي عَمْرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من وجدتُموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[١].

وقال آخرون: هو كالزاني، فإن كان محصناً رُجِمَ، وإن لم يكن مُحْصَناً جُلِد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعي.

وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية [الصغرى]، وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً شاذاً لبعض السلف. وقد ورد في النهي عن أحاديث كثيرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة[٢].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

قال محمدُ بن إسحاق: هم من سُلالة «مدين بن مديان بن إبراهيم». وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجن[٣] قال: واسمه بالسريانية «يثرون».

قلت: وتطلق مدين على القبيلة، وعلى المدينة ـ وهي التي بقرب «مَعَان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مَدْيَنَ وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾، وهم أصحابُ الأَيْكَةِ، كما سنذكُره إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

---

(١) مسند أحمد ١/ ٢٦٩، وانظره في كتاب الحدود في سنن أبي داود ٤/ ١٥٨، وتحفة الأحوذي ٥/ ٢١، وسنن ابن ماجه ٨٥٦.
(٢) انظر تفسير الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.
(٣) كذا في النسخ، وفي تفسير الطبري ٨/ ٢٣٧: يشجر.

﴿قال: يا قوم، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾، أي: قد أقام [الله] الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو: نقص المكيال والميزان خفْية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿ويل للمطففين﴾ إلى قوله: ﴿لرب العالمين﴾، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذي يقال له: «خطيب الأنبياء»، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ينهاهم شُعَيبٌ ـ عليه السلام ـ عن قطع الطريقِ الحسِّيّ والمعنويّ بقوله: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾، أي: تَتوعَّدُون الناسَ بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال السدِّيُّ وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾، أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بكل صراط﴾، وهي الطرق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾، أي: وتودون أن تكون سبيل الله عِوَجاً مائلة. ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾، أي: كنتم مُستضعَفِين لقلتكم فصِرْتم أعزة لكثرة عَدَدِكم، فاذكروا نعمةَ الله عليكم في ذلك، ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾، أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا﴾ أي: اختلفتم عليّ، ﴿فاصبروا﴾، أي: انتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ وبينكم، أي: يفصل، ﴿وهو خير الحاكمين﴾، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا إخبارٌ من الله عما واجهت به الكفار نبي الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في مِلّتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معهم على الملة.

وقوله: ﴿أولو كنا كارهين﴾، يقول: أوَأنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا على الله الفرية في جعل الشركاء معه أنداداً. وهذا تعبير منه عن أتباعه. ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾، وهذا ردّ إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط

بكلِّ شيء علماً، ﴿على الله توكلنا﴾، أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾، أي: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وأنت خير الفاتحين﴾، أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يخبرُ تعالى عن شِدَّةِ كُفرِ قوم شُعَيب وتَمَرُّدِهم وعُتُوِّهم، وما هم فيه من الضلال، وما جُبِلَتْ عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسَمُوا وقالوا: ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون﴾، فلهذا عَقَّب ذلك بقوله: ﴿فأخذَتْهُمُ الرجفةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾، أخبر تعالى ها هنا أنهم أَخذتهم الرجفةُ كما أرجَفُوا شعيباً وأصحابه وتوعَّدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة «هود» فقال: ﴿ولما جاء أمرنا نَجَّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا، وأخذت الذين ظَلَمُوا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾. والمناسبة في ذلك ـ والله أعلم ـ أنهم لما تَهَكَّموا بنبي الله شعيبٍ في قولهم: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾، فجاءت الصيحة أسكتتهم.

وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظُّلَّة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فأسقط علينا كِسَفاً من السماء﴾... الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كلُّه: أصابهم عذابُ يوم الظلة، وهي سحابة أظلَّتهم فيها شَرَرٌ من نار ولَهَب ووهَج عظيم، ثم جاءتهم صيحةٌ من السماء ورجفةٌ من الأرض شديدةٌ من أسفلَ منهم، فَزَهَقَتِ الأرواحُ، وفاضت النفوسُ، وخمدت الأجسادُ، ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كأن لم يَغْنوا فيها﴾، أي: كأنهم لما أصابتهم النقمةُ لم يُقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاءَ الرسولِ وصحبه منها.

ثم قال مقابلاً لقيلهم: ﴿الَّذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: فتولى عنهم شعيب ـ عليه السلام ـ بعد ما أصابهم ما أصابَهم من العذاب، والنقمةِ والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾، أي: قد أديتُ إليكم ما أُرسِلْت به، فلا أسفة عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختُبِر به الأمم الماضيةَ، الذين أُرسِلَ إليهم الأنبياءُ بالبأساء والضراء، يعني: ﴿بالبأساء﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام. ﴿والضراء﴾ ما يصيبهم من فقرٍ وحاجة ونحو ذلك، ﴿لعلهم يضرعون﴾، أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشفِ ما نزل بهم.

وتقديرُ الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾، أي: حوّلنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فيما فعلوا.

وقوله: ﴿حتى عَفَوا﴾، أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، ﴿وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراءُ والسراءُ فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون﴾. يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرَّعوا ويُنيبوا إلى الله، فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مَسَّنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء، مثلُ ما أصاب آباءنا فى قديم الدهر، وإنما هو الدهرُ تاراتٌ وتاراتٌ. ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن. لا يَقْضِي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبَر فكان خيراً لـه»[(١)] فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء، ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم رَبَطه أهلُه، ولا فيم أرسلوه»، أو كما قال.

ولهذا عَقَّب هذه الصفة بقوله: ﴿فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون﴾، أي: أخذناهم بالعقوبة بغتةً، أي: على بغتةٍ منهم، وعدمِ شعورٍ، أي: أخذناهم فجأةً كما جاء في الحديث: «موت الفجأةِ رحمةٌ للمؤمن، وأخذةُ أَسَفٍ للكافر»[(٢)].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول تعالى مُخبراً عن قِلَّة إيمان أهل القُرَى الذين أُرسِلَ فيهم الرسُلُ، كقوله تعالى: ﴿فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنفعها إيمانُها إلا قومَ يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخِزْيِ في الحياة الدنيا ومَتّعناهم إلى حين﴾، أي: ما آمنت قرية بتمامها إلاّ قومَ يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾. . . الآية.

وقولُه تعالى: ﴿ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتقوا﴾، أي: آمنت قلوبُهم بما جاءتهم به الرسلُ وصدَّقت به واتَّبعتْه، واتَّقوا بفعلِ الطاعاتِ وتَرْكِ المحرَّمات، ﴿لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماءِ والأرض﴾، أي: قَطْرَ السماءِ ونَباتَ الأرضِ، قال تعالى: ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾، أي: ولكن كذَّبوا رسلَهم، فعاقبناهم بالهلاكِ على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره: ﴿أفأمن أهل القرى﴾، أي: الكافرة ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾، أي عذابنا ونَكالنا، ﴿بياتاً﴾، أي: ليلاً ﴿وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن

---

(١) مسلم، كتاب الزهد ٢٢٩٥، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣، ٦/ ١٥، ولم يقع لنا في صحيح البخاري. وانظر تحفة الأشراف ٤/ ٢٠٠.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الجنائز ٣/ ١٨٨، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٤، ٤/ ٢١٩.

يأتيهم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون﴾، أي: في حال شُغلهم وغفلتهم، ﴿أفأمنوا مكر الله﴾، أي: بأسه ونِقْمته وقُدْرته عليهم وأَخْذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القومُ الخاسرون﴾، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعاتِ وهو مشفقٌ وجلٌ خائفٌ، والفاجرُ يعمل بالمعاصي وهو آمنٌ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أوَ لم يهد للذين يَرِثُون الأرض من بعد أهلها﴾: أو لم يُبيِّنْ. وكذا قال مجاهد والسُّدِّيّ.

وقال أبو جعفر بن جَرير في تفسيرها: يقول تعالى: أو لم يُبيِّن للذين يُستَخْلَفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم. ﴿ونطبع على قلوبهم﴾، يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فهم لا يسمعون﴾، موعظة ولا تذكيراً(١).

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أفلم يَهْدِ لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾، وقال تعالى: ﴿أوَلم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشُون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾، وقال: ﴿أوَلم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾... الآية، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تُحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾، أي: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً. وقال تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم، فأهلكناهم بذنوبهم، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فأصبحوا لا يُرَى إلا مساكنُهم كذلك نجزي القوم المجرمين * ولقد مكّناهم فيما إنْ مكّناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءُون * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾، وقال تعالى: ﴿وكذب الذين من قبلهم، وما بلغوا مِعْشَارَ ما آتيناهم فكذبوا رسلي، فكيف كان نكير﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾، وقال تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطّلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد استُهزِئ برُسُلٍ من قبلك فحاقَ بالذين سَخِرُوا منهم ما كانوا به يستهزءُونَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نِقَمه بأعدائه، وحُصول نِعَمه لأوليائه. ولهذا عقّب ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ۖ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾

(١) تفسير الطبري ٩/ ٩.

لما قصَّ تعالى على نبيه ـ ﷺ ـ خَبَر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذَرَ إليهم بأن بيَّنَ لهم الحقَّ بالحُجَج على ألسنة الرسل ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ قال تعالى: ﴿تلك القُرَى نقصُّ عليك﴾، أي: يا محمد ﴿من أنبائها﴾، أي: من أخبارها، ﴿ولقد جاءتهم رسلُهم بالبينات﴾، أي: بالحُجَج على صِدْقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وما كنا مُعذِّبين حتى نبعثَ رسولاً﴾، وقال تعالى: ﴿ذلك مَن أنباء القرى نَقُصُّه عليك منها قائم وحصيدٌ * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أوَّل ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية رحمه الله[١]. وهو مُتَّجهٌ حَسَن، كقوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾... الآية، ولهذا قال هنا: ﴿كذلك يَطبع الله على قلوب الكافرين. وما وَجَدنا لأكثرهم﴾، أي: لأكثر الأمم الماضيه ﴿من عهد، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾، أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربُّهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقرّوا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعَبَدوا مع الله غيره بلا دليلٍ ولا حُجّةٍ لا من عقلٍ ولا شرعٍ. وفي الفِطَر السليمة خلافُ ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلمٍ يقول الله تعالى: «إني خلقْتُ عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم»[٢]، وفي الصحيحين: «كُلُّ مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه وينصِّرانه ويُمَجِّسانه»[٣]... الحديث، وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾، وقال تعالى: ﴿واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، ما روى[٤] أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب في قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ قال: وكان في علمه تعالى يوم أقرّوا له بالميثاق، أي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم [الله] منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير[٥].

وقال السدِّيُّ: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، قال: ذلك يوم أُخِذَ منهم الميثاقُ فآمنوا كُرْهاً.

وقال مجاهد في قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾: هذا كقوله: ﴿ولو رُدُّوا لعادوا﴾... الآية.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

---

(١) المحرّر الوجيز ٦/ ٢٢.

(٢) مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢١٩٧.

(٣) فتح الباري، كتاب الجنائز ٣/ ٢٢٢، ومسلم، كتاب القدر ٢٠٤٧.

(٤) مكانه في الأصل: فقال. مكان: ما رَوَى.

(٥) تفسير الطبري ٩/ ١١.

يقول تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾، أي: الرسلَ المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ـ صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ـ ﴿موسى بآياتنا﴾، أي: بحُججنا ودلائلنا البينة إلى «فرعون» وهو ملك مصر في زمان موسى، ﴿وملئه﴾، أي: قومه، ﴿فظلموا بها﴾، أي: جَحَدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾، أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر ـ يا محمد ـ كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأىً من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإلجامه إياه الحُجَّةَ، وإظهاره الآياتِ البيِّنات بحضرةِ فرعونَ وقومه من قبطِ مصرَ، فقال تعالى: ﴿وقال موسى: يا فرعون، إني رسول من رب العالمين﴾، أي: أرسلني الذي هو خالقُ كل شيء وربه ومليكه.

﴿حقيقٌ على أن لا أقولَ على الله إلا الحق﴾، فقال بعضهم: معناه حقيق بألَّا أقول على الله إلا الحق: أي جدير بذلك وحَرِيٌّ به.

قالوا: «والباء» و«على» يتعاقبان، فيقال: «رميت بالقوس» و«على القوس» و«جاء على حال حسنة» و «بحال حسنة». وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق[1]. وقرأ آخرون من أهل المدينة ﴿حقيق عَلَيَّ﴾[2] بمعنى واجب وحق عَلَيَّ ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه.

﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾، أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها الله دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فأرسِلْ معي بني إسرائيل﴾، أي: أطلقهم من أسْرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن.

﴿قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾، أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كان معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثعبان مبين﴾، الحية الذكر. وكذا قال السدي، والضحاك.

وفي حديث «الفُتُون»، من رواية يزيد بن هارون، عن[3] الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ﴿فألقى عصاه﴾ فتحولت حيةً عظيمةً فاغرة فاها، مسرعةً إلى فرعون،

(١) هو أبو عُبَيدة. انظر تفسير البغوي ٢/١٨٥.
(٢) هي قراءة نافع. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤٨.
(٣) في الأصل: حدثنا الأصبغ.

فلما رأى فرعون أنها قاصدةٌ إليـه اقتحـم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففَعل[(١)].

وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة.

وقال السدي في قوله: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾، والثعبان الذكر من الحيات، فاتحةً فاها، واضعةً لَحْيهـا[(٢)] الأسفل في الأرض، والآخر على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه. فلما رآها ذُعر منها، ووثب وأحدث، ولم يكن يُحْدث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا أومن بك، وأرسِلُ معك بني إسرائيل. فأخذها موسى ـ عليه السلام ـ فعادت عصا.

ورُوِي عن عكرمة، عن ابن عباس نحوُ هذا.

وقال وهب بن مُنَبِّه: لما دخل موسى على فرعونَ، قال له فرعـونَ أَعْرِفُكَ؟ قال: نعم. قال: ﴿ألم نُرَبِّك فينا وليداً﴾؟ قال: فردّ إليه موسى الذي رَدّ. فقال فرعون: خذوه. فبادره موسى فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فَحَمَلَتْ على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت.

رواه ابن جرير، والإمام أحمد في كتابه «الزهد»، وابن أبي حاتم. وفيه غرابة في سياقه، والله أعلم.

وقوله: ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾، أي: نزع يده: أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه فخرجت بيضاء تتلألأ من غير بَرَص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾. . . الآية.

وقال ابن عباس في حديث الفتون ﴿من غير سوء﴾، يعني من غير برص، ثم أعادها إلى كمه، فعادت إلى لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أي: قال الملأ ـ وهم الجمهور والسادةُ من قوم فرعون ـ موافقين لقول فرعون فيه، بعدما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾، فوافقوه وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتُهم في إطفاء نُوره وإخمادِ كلمته، وظهورِ كَذِبهم وافترائهم، وتَخَوّفوا أن يستميلَ الناسَ بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضِهم. والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾. فلما تشاوروا في شأنه، وائتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله ـ تعالى ـ عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿أرجه﴾: أخره. وقال قتادة: احبسه. ﴿وأرسل﴾، أي: ابعث ﴿في المدائن﴾، أي: في الأقاليم ومعاملة ملكك، ﴿حاشرين﴾، أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم.

وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، ولوهم من اوهم منهم، أن ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من قبيل ما تُشَعبِذُه سَحَرتهم. فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من

(١) تفسير الطبري ٩/ ١٤ ـ ١٥.
(٢) اللحي: العظم الذي فيه الأسنان.

البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى. فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى. قال: موعدكم يوم الزينة وأن يُحشَر الناس ضُحىً. فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾. وقال تعالى ها هنا:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

يخبر تعالى عما تشارَطَ عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضةِ موسى ـ عليه السلام ـ إن غَلَبُوا موسى لَيُثِيبَنَّهم وَلَيُعطينَّهم عطاءً جزيلاً. فَوَعدهم ومَنَّاهم أنه يُعطِيَهم ما أرادوا، وليجعلنَّهم من جلسائِهِ والمقرَّبين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

هذه مبارزةٌ من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾، أي: قَبْلك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإما أن نكون أول من ألقى﴾. فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿ألقوا﴾، أي: أنتم أولاً قبلي. والحكمةُ في هذا ـ والله أعلم ـ ليرى الناسُ صَنِيعَهم ويتأمَّلوه، فإذا فَرَغوا من بَهْرَجِهم ومُحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تَطَلُّب له وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما ألقوا سحروا أعيُنَ الناسِ واسترهَبُوهم﴾، أي: خَيَّلوا إلى الأبصار أن ما فعلُوه له حقيقةٌ في الخارج، ولم يكن إلا مجرَّدَ صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم يُخَيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفةً موسى. قلنا: لا تَخَفْ، إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تَلْقَفْ ما صنعوا، إن ما صنعوا كيدُ ساحر، ولا يُفلِحُ الساحر حيث أتى﴾.

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً. قال: فأقبلت يُخَيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

وقال محمد بن إسحاق: صَفَّ خمسةَ عَشَرَ ألف ساحر، مع كل ساحرٍ حباله وعصيه. وخرج موسى ـ عليه السلام ـ معه أخوه يتكىء على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعونُ في مجلِسه معه أشرافُ أهلِ مملكته، ثم قال السحرة: ﴿يا موسى، إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى. قال: بل ألقُوا فإذا حبالهم وعِصِيُّهم﴾، فكان أولُ ما اختطفوا بسحرهم بَصَرَ موسى وبَصَرَ فرعون، ثم أبصارَ الناس بعد. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً.

وقال السدّي: كانوا بضعةً وثلاثين ألفَ رجلٍ، ليس رجلٌ منهم إلا ومعه حبلٌ وعَصاً، ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾، يقول: فَرَقوهم أي: من الفَرَق.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن هشام الدَّستَوائي، حدثنا القاسم بن أبي بزّة قال: جمع فرعونُ سبعينَ ألفَ ساحرٍ، فألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى[1].

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٠.

ولهذا قال تعالى: ﴿وجاءُوا بِسِحرٍ عظيم﴾.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يُخبرُ تعالى أنه أُوحى إلى عبدِه ورسُوله موسى ـ عليه السلام ـ في ذلك الموقف العظيم، الذي فرَق [الله] تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه، ﴿فإذا هي تلقف﴾، أي: تأكل ﴿ما يأفكون﴾، أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

قال ابن عباس: فجعلت لا تَمُرُّ بشيء من حبالهم ولا من خُشُبهم إلا التقمته، فعرفت السحرةُ أنَّ هذا أمرٌ من السماء، وليس هذا بِسِحرٍ، فخرُّوا سُجَّداً وقالوا: ﴿آمنا برب العالمين. رب موسى وهرون﴾.

وقال محمد بن إسحاق: جعلت تَتَبلع[1] تلك الحبالَ والعِصِيَّ واحدةً واحدةً، حتى ما يُرَى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصاً في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً ﴿قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهرون﴾، لو كان هذا ساحراً ما غُلبنا.

وقال القاسم بن أبي بَزّة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ فاغرٌ فاه، يبتلع حبالَهم وعصيهم. فألقي السحرة عند ذلك سجَّداً، فما رفعوا رءُوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما[2].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

يخبر تعالى عما توعَّد به فرعون ـ لعنه الله ـ السَّحرَةَ لمَّا آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾، أي: إنَّ غَلَبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾، وهو يعلم وكلّ من له لُبٌّ أن هذا الذي قاله من أبطلِ الباطِل، فإن موسى ـ عليه السلام ـ بمجرد ما جاء من «مَدْين» دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزاتِ الباهرةَ والحججَ القاطعةَ على صِدْقِ ما جاء به، فعند ذلك أرسلَ فرعونُ في مدائن ملكه ومُعاملة سَلْطَنته، فجمع سحرةً متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصرَ، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدّم عند فرعون. وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رَعاع دولته وجَهَلتهم، كما قال تعالى: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾، فإنَّ قوماً صدَّقوه في قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ من أجْهَل خلق الله وأضلهم.

وقال السدّي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة، في قوله

---

(١) في الأصل: تتبع. والمثبت عن تفسير الطبري.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٢١.

تعالى: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾، قالوا: التقى موسى عليه السلام وأميرُ السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلِبُه سحرٌ، فوالله لئنْ غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حقّ. وفرعونُ ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال.

وقولُه: ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فسوف تعلمون﴾ أي: ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾، يعني: يقطع يد الرَّجُل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس، و﴿لأصلبنكم أجمعين﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿في جذوع النخل﴾، أي: على الجذوع.

قال ابن عباس: وكان أولَ من صلب، وأولَ من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون.

وقولُ السحرة: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾، أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشدُّ من عذابك، ونَكالُه مما تدعونا إليه وما أكرهتنا عليه من السِّحرِ أعظم من نكالك، فَلَنصبِرَنَّ اليوم على عذابك لنخلصَ من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿ربّنا أفرغ علينا صبراً﴾، أي: عُمَّنا بالصبر على دينكَ، والثبات عليه، ﴿وتَوَفَّنا مسلمين﴾، أي: متابعين لنبيك موسى عليه السلام. وقالوا لفرعون: ﴿فاقض ما أنت قاضٍ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾، فكانوا من أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة.

قال ابن عباس، وعُبيد بن عمير، وقتادة، وابن جُرَيج: كانوا في أول النهار سحرةً، وفي آخره شهداءَ.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعونُ ومَلَؤُه، وما أظهروه لموسى ـ عليه السلام ـ وقومه من الأذى والبَغْضَةِ: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾، أي: لفرعون ﴿أتذرُ موسى وقومَه﴾، أي: أتدعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله للعجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إنَّ فرعونَ وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون. ولهذا قالوا: ﴿ويذَرك وآلهتك﴾، قال بعضهم[(١)]: الواو هنا حالية، أي: أتذره وقومه يفسدون وقد تَرَكَ عبادتك؟ وقرأ ذلك أُبي بن كعب: ﴿وقد تركوك أن يعبدوك[(٢)] وآلهتك﴾، حكاه ابنُ جَرير.

وقال آخرون: هي عاطفة، أي: لا تَدَعْ موسى يصنَعُ هو وقومُه من الفسادِ ما قد أقررتَهم عليه وعلى تَرْكِهِ آلهتك.

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ٣٩١/١، وتفسير الطبري ٢٤/٩ ـ ٢٥. وقد رُوي عن الحسن البصري أن قرأ: (ويَذَرُكَ)، بالرفع.
(٢) في الأصل: أن يعبدوا آلهتك.

وقرأ بعضهم: ﴿إلاهتك﴾، أي: عبادتك، ورُوي ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر. وقال في رواية أخرى: كـان له جُمَانَة[1] في عُنقه [معلقة] يسجُدُ لها.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿ويذرك وآلهتك﴾: وآلهتُه ـ فيما زعم ابن عباس ـ [كانت البقر][2]، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرجَ لهم عجلاً جَسَداً.

فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾، وهذا أمرٌ ثانٍ بهذا الصنيع، وقد كان نَكَّلَ بهـم قبـل ولادة موسى ـ عليه السلام ـ حَذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضدّ ما قصدَه فرعون. وهكذا عُومِل في صَنِيعه أيضاً، إنما أراد قهر بني إسرائيلَ وإذلالَهم، فجاء الأمرُ على خلافِ ما أراد، نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

ولما صَمَّم فرعونُ على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل، ﴿قال موسى لقومه: استعينُوا بالله واصبِرُوا﴾، ووعدَهُم بالعاقبة، وأن الدار ستصيرُ لهم في قوله: ﴿إنّ الأرضَ لله يُورثها من يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتقين. قالوا أُوذِينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾، أي: قد جَرى علينا مثل ما رأيت من الهوانِ والإذلال من قَبْلِ ما جئتَ يا موسى ومن بعدِ ذلك. فقال منبِّهاً لهم على حالهم الحاضرة وما يصيرون إليه في ثاني الحال: ﴿عسى ربُّكم أن يُهلِكَ عدُوَّكم﴾... الآية، وهذا تَحْضِيضٌ لهم على العَزْمِ على الشكـر عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون﴾، أي: اختبرناهم وامتحنّاهم وابتليناهم ﴿بالسنين﴾، وهي سِني الجوعِ بسبب قِلَّة الزروع، ﴿ونقص من الثَّمرات﴾، قال مجاهد: وهو دون ذلك.

وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن حَيْوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة.

﴿لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة﴾، أي: من الخصب والرزق ﴿قالوا: لنا هذه﴾، أي: هذا لنا بما نستحقه، ﴿وإن تُصِبهم سيئة﴾، أي: جَدْبٌ وقَحْطٌ ﴿يطَّيَّروا بموسى ومن معَه﴾، أي: هذا بسببهم وما جاءُوا به.

﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ يقول: مصائبهم عند الله، قال: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾.

وقال ابنُ جُريج، عن ابن عباس قال: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله[قال]: الأمرُ من قِبَل الله[3].

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ

---

(١) في الأصل: حنانة. والمثبت عن تفسير الطبري ٩/ ٢٥.

(٢) سقط من الأصل.

(٣) في الأصل: «إلا من قبل الله». والمثبت عن تفسير الطبري ٩/ ٣٠، والدر المنثور ٣/ ١٠٨.

وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

هذا إخبارٌ من الله ـ عز وجل ـ عن تَمَرُّدِ قوم فرعون وعُتُوِّهِم، وعنادهم للحقِّ وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾، يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رَدَدْنَاها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾.

اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس في رواية: كثرةُ الأمطارِ المغرقةُ المتلفةُ للزروعِ والثمارِ. وبه قال الضحاك بن مزاحم.

وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرةُ الموتِ، وكذا قال عطاء.

وقال مجاهد: ﴿الطوفانُ﴾: الماء، والطاعون على كل حال.

وقال ابن جَرِير: حدثنا أبو هشام[1] الرفاعي، حَدَّثنا يحيى بن يمان، حدثنا المنهالُ بن خليفةَ، عن الحجاج، عن الحكم بن مِيناءٍ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الطوفانُ الموتُ».

وكذا رواه ابن مَرْدُويه، من حديث يحيى بن يمان، به. وهو حديث غريب.

وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمرٌ من الله طافَ بهم، ثم قرأ: ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾.

وأما الجرادُ فمعروفٌ مشهورٌ، وهو مأكولٌ لما ثبت في الصحيحين عن أبي يَعفُور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: «غزونا مع رسول الله ـ ﷺ ـ سبع غزوات نأكل الجراد»[2].

وروى الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوتُ والجرادُ، والكبِدُ والطِّحال»[3].

ورواه أبو القاسم البَغَوي، عن داود بن رُشَيد، عن سُوَيد بن عبد العزيز، عن أبي تمام الأيلي، عن زيد ابن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً، مثله.

وروى أبو داودَ، عن محمد بن الفرج، عن محمد بن الزبرقان الأهوازي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الجراد فقال: «أكثرُ جنودِ الله، لا آكله، ولا أحرِّمه»[4].

وإنما تركه ـ عليه السلام ـ لأنه كان يعافُه، كما عافت نفسُه الشريفةُ أكلَ الضَّبِّ، وأذِن فيه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجراد، من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي:

(١) في الأصل: ابن هشام. والمثبت من تفسير الطبري ٩/ ٣١، والتهذيب ٩/ ٢٥٦.
(٢) البخاري، كتاب الذبائح والصيد ٧/ ١١٧، ومسلم، كتاب الصيد ١٥٤٦.
(٣) مسند الشافعي على الأم ٦/ ٢٥٧، ومسند أحمد ٢/ ٩٧، وسنن ابن ماجه، كتاب الأطعمة ١١٠١ ـ ١١٠٢.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/ ٣٥٧.

حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ـ ﷺ لا يأكل الجرادَ، ولا الكُلْوتين[1]، ولا الضبَّ، من غير أن يُحرِّمها. أما الجرادُ فرِجْز وعذاب، وأما الكُلْوتان فلقربهما من البول، وأما الضَّبُّ فقال: «أتخوفُ أن يكون مسخاً»، ثم قال: غريبٌ، لم أكتبه إلا من هذا الوجه.

وقد كان أميرُ المؤمنين عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يشتهيه ويُحِبّه، فَرَوَى عبدُ الله بن دينارٍ، عن ابن عُمَرَ: أن عُمَر سُئِل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قَفْعَةً أو قَفْعَتَين نأكله[2].

وروى ابن ماجه: حدثنا أحمد بن مَنِيع، عن سفيان بن عُيَينة، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البَقّال، سَمع أنس بن مالك يقول: كان أزواجُ النبي ـ ﷺ ـ يتهادَينَ الجرادَ على الأطباق[3].

وقال أبو القاسم البَغَوِيّ: حدثنا داود بن رُشَيد، حدثنا بقية بن الوليد، عن نُمير[4] بن يزيد القَيْني، حدثني أبي، عن صُدَى بن عَجْلان، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن مريم بنت عمران ـ عليها السلام ـ سألت ربها ـ عز وجل ـ أن يطعمها لحماً لا دمَ له، فأطعمها الجرادَ، فقالت: اللهم أَعِشْه بغير رَضَاع، وتابع بَيْنَه بغير شِياعٍ» وقال نُمير: «الشِّيَاع»، الصوت[5].

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو تقِيّ هشام بن عبد الملك اليَزَنِيُّ[6]، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زُرْعَةَ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن أبي زُهير النُّميريّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جندُ الله الأعظم». غريب جداً.

وقَدْ قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد﴾، قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب.

وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الفرائضيّ، عن محمد بن كثير، سمعت الأوزاعي يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا بِرِجْل[7] من جراد في السماء، وإذا بِرَجُل راكب على جَرادة منها، وهو شاكٍ في الحديد، وكلما قال[8] بيده هكذا مالَ الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها.

وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الجَرِيري، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سئل شُرَيح القاضي عن الجَرَاد، فقال: قَبَّح الله الجرادة. فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأسُ فرسٍ، وعنقها عنق ثورٍ، وصدرُها صدرُ أسدٍ، وجناحُها جناحُ نَسرٍ، ورجلاها رجلا جمل. وذنبها ذنب حَيَّة. وبطنها بطن عقرب.

---

(١) الكلوة: لغة في الكلية، لأهل اليمن.
(٢) الموطأ، كتاب صفة النبي ـ ﷺ ـ ٢/ ٩٣٣. والقفعة: مثل القُفَّة.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الصيد ١٠٧٣.
(٤) في الأصل: يحيى. وانظر تهذيب الكمال، ترجمة بقية بن الوليد ٤/ ١٩٤.
(٥) أي: من غير أن يصاح به.
(٦) في الأصل: المزني، وانظر تهذيب الكمال ١٩٦/٤. والأنساب للسَّمْعَاني ٦٩١/٥.
(٧) أي: جراد كثير.
(٨) أي: أشار.

وقد قدمنا عند قوله تعالى: ﴿أُحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة﴾ حديث حماد بن سلمة، عن أبي المُهَزِّم، عن أبي هُرَيرة قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في حج أو عمرة، فاستقبلنا رِجْلُ جرادٍ، فجعلنا نضربه بالعصي، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «لا بأسَ بصيدِ البحرِ»[١].

وروى ابن ماجه، عن هارون الحمَّال[٢]، عن هاشم[٣] بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن عُلَاثة، عن موسى ابن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أنس وجابر، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كبارَه، واقتل صغاره، وأفسد بيضَه، واقطع دابرَه، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر[٤]: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: إنما هو نثرة حوت في البحر. قال هاشم[٣]: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال: من حقق ذلك أن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس، أنه يفقس كله جراداً طياراً.

وقدَّمنا عند قوله: ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ حديث عُمَر ـ رضي الله عنه ـ: «إن الله خَلَق ألفَ أُمَّةٍ، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وإن أولها هلاكاً الجراد»[٥].

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمن بن قيس، حدثنا سالم بن سالم، حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا وباء مع السيف، ولا نجاء مع الجراد». حديث غريب.

وأما (القُمَّل) فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحِنْطة. وعنه أنه الدَّبَى ـ وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة.

وعن الحسن وسعيد بن جبير: (القمل)، دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (القمل)، البراغيث.

وقال ابن جرير: (القُمَّل): جمع واحدتها «قُمَّلة»، وهي دَابَّة تشبه القَمْل، تأكلها الإبل فيما بلغني، وهي التي عناها الأعشى[٦] بقوله:

قَــوْمٌ تُعــالِـجُ قُمَّــلاً أبنــاؤهـم ... وَسَــلاسِــلاً أُجُــداً وبــابــاً مُؤْصَــداً

قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القُمَّل عند العرب «الحَمْنان»، واحدتها «حَمْنانة»، وهي صغار القِرْدان فوق القَمْقَامة[٧].

وقال الإمام أبو جعفر بن جَرير: حدثنا ابن حُمَيد الرازي، حدثنا يعقوب القُمِّي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى ـ عليه السلام ـ فرعونَ قال له: أرسِلْ معي بني إسرائيل. فأرسل الله عليهم الطوفان ـ وهو المطر ـ فَصَبَّ عليهم منه شيئاً، خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا

---

(١) تحفة الأحوذي، أبواب الحج ٣/ ٥٨٦، وابن ماجه، كتاب الصيد ١٠٧٤، ومسند أحمد ٢/ ٣٠٦، ٣٦٤، ٣٧٤، ٤٠٧.

(٢) في الأصل: الحماني. وهو خطأ، انظر سنن ابن ماجه، والتهذيب ١١/ ٨.

(٣) في الأصل: هشام. انظر ما تقدم.

(٤) في سنن ابن ماجه: فقال له رجل. وفي الأصل: فقال له خالد.

(٥) انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٦) ديوانه ١٥٤.

(٧) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٢٦، وتفسير الطبري ٩/ ٣٣.

ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم يُنبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ. فقالوا: هذا ما كنا نتمنى! فأرسل الله عليهم الجراد، فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يُبقي الزرع، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك ليكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا. فأرسل [الله] عليهم القُمَّل ـ وهو السوس الذي يخرج منه ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجْرِبة[1] إلى الرّحى، فلا يرد منها ثلاثة أقفزة. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا القمّل، فنؤمن لك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ قال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذَقْنه في الضفادع، ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه. فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمنَ لك، ونرسلَ معك بني إسرائيل. [فدعا ربه، فكشَفَ عنهم، فلم يؤمنوا]، وأرسل الله عليهم الدم، فكان ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دماً عَبيطاً[2]، فشكَوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتُلينا بالدم، وليس لنا شرابٌ فقال: إنه قد سَحَركم! فقالوا: من أين سَحَرنا، ونحن لا نجدُ في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عَبيطاً؟ فأتوه وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

وقد رُوِي نحوُ هذا عن ابن عباس، والسدي، وقتادة، وغير واحد من علماء السلف.

وقال محمد بن إسحاقَ بن يسار ـ رحمه الله ـ: فرجع عَدُوُّ اللهِ فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، وأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات. فأرْسَل الطوفان ـ وهو الماء ـ ففاض على وجه الأرض ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئاً، حتى جَهَدُوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾، فدعا موسى ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء [مما قالوا]، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغني، حتى إن كان ليأكلُ مساميرَ الأبواب من الحديد، حتى تقعَ دورهم ومساكنُهم، فقالوا مثلَ ما قالوا، فدعا ربَّه، فكشف عنهم، فلم يَفُوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم القُمَّل، فذُكر لي أن موسى ـ عليه السلام ـ أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشَى إلى كَثيب أَهْيَلَ[3] عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قُمَّلاً، حتى غلَبَ على البُيوتِ والأطعمةِ، ومنعهم النومَ والقَرَارَ فلما جَهَدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلّا وجد فيه الضفادع، قد غلبت عليه، فلما جَهَدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلّا عاد دماً عَبيطاً[4].

---

(١) الأجْرِبَةُ: جمع جَرِيب، وكلّ جَريبٍ أربعةُ أقفزة، والقَفِيز: كيلتان بِمِصْرِيَّتان.

(٢) أي: طريا.

(٣) أي: لا يثبت رمله.

(٤) تفسير الطبري ٩/٣٧.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر بن يزيد، عن عكرمة، قال عبد الله بن عَمْرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على بني إسرائيل انطلق ضفدع منها، فوقع في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله، فأبدلهن الله أبرد شيء تعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح.

وروي من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه.

وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يخبر تعالى أنهم لما عَتَوا وتَمَرَّدوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فَرَقَه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم وَرَدَه فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يُستضعَفُون ـ وهم بنو إسرائيل ـ ﴿مشارق [الأرض ومغاربها]﴾ كما قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونُرِيَ فِرْعونَ وهامانَ وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾، وقال تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومَقام كريم. ونَعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾.

وعن الحسن البصري وقتادة، في قوله: ﴿مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾، يعني: الشام.

وقوله: ﴿وتَمَّت كلمةُ ربِّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾، قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استُضعِفُوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾.

وقوله: ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾، أي: وخَرَّبنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وما كانوا يعرشون﴾، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يعرشون﴾: يبنون.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

يخبر تعالى عما قاله جَهَلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا، ﴿فأتوا﴾، أي: فمروا ﴿على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾، قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم.

قال ابن جُرَيج: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر.

فلهذا أثار ذلك شُبْهَة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون﴾. أي: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يُنزَّه عنه من الشريك والمثيل.

﴿إن هؤلاء مُتَبَّر ما هم فيه﴾، أي: هالك ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمر كلهم، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى حنين، قال: وكان للكفار سِدْرَةٌ يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، قال: فمررنا بسدرةٍ خضراءَ عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال: قلتم، والذي نفسي بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَرٌ، عن الزهريّ، عن سنان بن أبي سنان الدِّيلي، عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينوطون[١] سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها. فقال النبي ـ ﷺ ـ: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ إنكم تركبون سَنَنَ من قبلكم[٢].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

يُذَكِّرهم موسى ـ عليه السلام ـ بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها في البقرة[٣].

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل، بما حَصَل لهم من الهداية، بتكليمه موسى ـ عليه السلام ـ وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة.

قال المفسرون: فَصَامها موسى ـ عليه السلام ـ فلما تَمَّ الميقاتُ استاكَ بلحاءِ شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. ورُوِي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ـ ﷺ ـ كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

---

(١) أي: يعلقون.
(٢) المسند ٥/ ٢١٨.
(٣) انظر تفسير الآية ٤٩ من سورة البقرة.

فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾... الآية، فحينئذ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن موسى - عليه السلام - أنه لما جاء لميقاتِ الله تعالى، وحصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني﴾.

وقد أشكل حرف «لن» ها هنا على كثير من العلماء، لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة﴾.

وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾.

وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة.

وقيل: إن الكلام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾، وقد تقدم ذلك في الأنعام[1].

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام -: «يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تَدهْدَه»[2]، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾.

قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي، حدثنا قُرّة بن عيسى، حدثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس، عن النبي - ﷺ - قال: «لما تجلى ربه للجبل أشار بإصبعه، فجعله دكاً». وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه السبابة[3].

هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم، ثم قال:

حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن ليث، عن أنس: أن النبي - ﷺ - قرأ هذه الآية: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾، قال[4] هكذا بإصبعه - ووضع النبي - ﷺ - إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخِنْصَر، فساخ الجبل.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٢) أي: تهدَّم.

(٣) تفسير الطبري ٩/٥٣. وأبو إسماعيل هو: قُرَّة بن عيسى.

(٤) أي: أشار.

هكذا وقع في هذه الرواية «حماد بن سلمة، عن ليث، عن أنس». والمشهور: «حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس»، كما قال ابن جرير أيضاً:

حدثني المثنى، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾، قال: وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره، قال: فساخ الجبل. قال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حُميد، وقال: يقوله رسول الله ـ ﷺ ـ ويقوله أنس، وأنا أكتمه؟.

وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده:

حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البُنَاني، عن أنس بن مالك، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾، قال: قال هكذا ـ يعني أنه أخرج طرف الخنصر ـ قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حُمَيد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ [فتقول أنت][(١)] ما تريد إليه؟![(٢)].

وهكذا رواه الترمذي[(٢)] في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوَرّاق، عن معاذ بن معاذ، به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن سُلَيمان بن حَرْب، عن حماد، به. ثم قال: «هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد». وكذا رواه الحاكم[(٢)] في مستدركه من طرق، عن حماد بن سلمة، به. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال[(٣)]، عن محمد بن علي [[(٤)] بن سُوَيد، عن أبي القاسم البغوي، عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، فذكره[(٤)]] وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه.

وقد رواه داود بن المحبَّر، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً. [[(٥)] وهذا ليس بشيء، لأن داود بن المحبر كذاب. ورواه الحافظان أبو القاسم الطبراني وأبو بكر[(٥)]] بن مَرْدُوَيه من طريقين، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً بنحوه، وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلماني، عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعاً، ولا يصح أيضاً.

وقال السدّيُّ، [عن] عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾، قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ـ ﴿جعله دكاً﴾، قال: تراباً ﴿وخر موسى صعقاً﴾، قال: مغشياً عليه. رواه ابن جرير[(٦)].

وقال قتادة: ﴿وخر موسى صَعِقاً﴾، قال: مَيِّتاً.

وقال سفيان الثوري: ساخَ الجبل في الأرض، حتى وقع في البحر فهو يذهب معه.

---

(١) في الأصل: يقول. والمثبت عن المسند.
(٢) مسند أحمد ٣/ ١٢٥، وتحفة الأحوذي، تفسير سورة الأعراف ٨/ ٤٥١ ـ ٤٥٢، والمستدرك ٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٣) في الأصل: الحسن بن محمد بن علي الخلال. والمثبت عن النسخ الأخرى، وانظر ترجمته في العبر للذهبي ٣/ ١٨٩.
(٤) سقط من الأصل.
(٥) عن الأصل.
(٦) تفسير الطبري ٩/ ٥٢ ـ ٥٣.

وقال سُنَيد، عن حجاج بن محمد الأعور، عن أبي بكر الهُذَلي: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾، انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة.

وجاء في بعض الأخبار إنه ساخَ في الأرض، فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شَبَّة، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكناني، حدثنا عبد العزيز بن عمران، عن معاوية بن عبد الله، عن الجلد بن أيوب، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس بن مالك: أن النبي - ﷺ - قال: «لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، ووَرِقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثَبير، وثور». وهذا حديث غريب، بل منكر.

قال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا عثمان بن حصين بن عَلاق، عن عروة بن رُوَيم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صُمّاً مُلْساً، فلما تجلى الله لموسى على الطور دُكَّ، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف.

وقال الربيع بن أنس: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخَرَّ موسى صعقاً﴾، وذلك أن الجبل حين كُشف الغطاء ورَأى النور، صار مثل ذَاكَ من الدكاك. وقال بعضهم: ﴿جعله دكاً﴾ أي: فَتَّتَهُ.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾، فإنه أكبر منك وأشد خلقاً، ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾، فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقاً.

وقال عكرمة: ﴿جعله دكَّاء﴾[1]، قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء تراباً.

وقد قرأ بهٰذه القراء بعض القراء[1]، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مَرْدُويه.

والمعروف أن الصَّعْقَ هو الغَشْي ها هنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ في الصور فَصَعِقَ من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون﴾ فإنَّ هنا قرينةً تدلُّ على الموتِ كما أن هناك قرينةً تدلّ على الغشي، وهي قولُه: ﴿فلما أفاقَ﴾، والإفاقة إنما تكون من غشي.

﴿قال سبحانك﴾، تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات.

وقوله: ﴿تبت إليك﴾، قال مجاهد: أن أسألك الرؤية.

﴿وأنا أول المؤمنين﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل. واختاره ابن جرير، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة.

وهذا قول حسن له اتجاه. وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره[2] ها هنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب،

---

(١) قرأ بها من السبعة حمزة والكسائي، انظر الإقناع ٦٤٩.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٥٠ - ٥٢.

عن محمد بن إسحاق بن يسار، وكأنه تلقاه من الإسرائيليات، والله أعلم.

وقولُه[١]: ﴿وخر موسى صعقاً﴾، فيه أبو سعيد وأبو هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ فأما حديث أبي سعيد فأسنده (البخاري[٢] في صحيحه) ها هنا[٣]، فقال:

(حدثنا)[٢] محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ـ ﷺ ـ قد لُطم وجهُهُ، فقال: يا محمد، إن رجلًا من أصحابك من الأنصار لَطَم وجهي. قال: ادعُوه. فدَعوه، قال: لم لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قال: يا رسولَ الله، إنِّي مَرَرْتُ باليهود فسمِعتُه يقولُ: والذي اصطفى موسى على البشر. قال، [قلتُ: و] على محمد؟ فأخذتني غضبة فلطمته، قال: لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور؟.

وقد رواه البخاري[٤] في أماكن كثيرة من صحيحه، [ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه]، وأبو داود في كتاب «السنة» من سننه من طرق، عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني، عن أبيه، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري، به.

وأما حديث أبو هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده:

حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: استبَّ رجلان: رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، فقال المسلم: «والذي اصطفى محمداً على العالمين» وقال اليهوديّ: «والذي اصطفى موسى على العالمين»، فغضِبَ المسلمُ على اليهوديِّ فَلَطمه، فأتى اليهوديُّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ـ ﷺ ـ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا تُخَيِّروني على موسى؛ فإن الناس يُصعَقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى ممسكاً بجانِب العرش، فلا أدري أكان ممن صُعِق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثناه الله عز وجل[٥]؟.

أخرجاه في الصحيحين، من حديث الزُهري[٥]، به.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا ـ رحمه الله ـ أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ولكن تقدَّم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصحُّ وأصرحُ، والله أعلم.

والكلام في قوله ـ عليه السلام ـ: «لا تخيِّروني على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلوني [على الأنبياء، ولا] على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نُهِي أن يفضّل بينهم على وجه الغضبية والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي، والله أعلم.

---

(١) في الأصل قبله: «وقال البخاري في صحيحه».

(٢) ليست في الأصل.

(٣) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/ ٣٠٢.

(٤) فتح الباري، كتاب الخصومات ٥/ ٧٠، والأنبياء ٦/ ٤٣٠، والديات ١٢/ ٢٦٣، والتوحيد ١٣/ ٤٠٥. ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٤٥، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/ ٢١٧.

(٥) مسند أحمد ٢/ ٢٦٤، وفتح الباري، كتاب الخصومات ٥/ ٧٠، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٤٤.

وقوله: «فإن الناس يُصعَقون يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصَّعْقَ يكون في عَرَصَات القيامة، يحصل أمر يُصعَقُون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ لفصل القضاء، وتَجلَّى للخلائق الملكُ الديان، كما صُعِق موسى من تَجلِّي الربِّ عز وجل، ولهذا قال عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصَعْقَة الطور»؟

وقد رَوَى القاضي عياض في أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق: حدثنا قتادة[١] حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وَثَّاب، عن أبي هُريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لما تجلىٰ الله لموسى عليه السلام، كان يبصر النملة على الصَّفا في الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسِخَ»، ثم قال: «ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحُظْوة بما رأى من آيات ربه الكبرى»[٢].

انتهى ما قاله، وكأنه صَحَّح هذا الحديث، وفي صحته نظر، ولا يخلو رجالُ إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى منتهاه، والله أعلم.

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يذكر تعالى أنَّه خاطبَ موسى بأنه اصطفاه على عالَمِي زَمانه برسالاته وكلامه تعالى، ولا شك أن محمداً ـ ﷺ ـ سَيِّدَ ولدِ آدمَ من الأولين والآخرين، ولهذا اختصَّه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، التي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ثم موسى كليم الرحمن ـ عليه السلام ـ ولهذا قال تعالى له: ﴿فخذ ما آتيتك﴾، أي: من الكلام والمناجاة ﴿وكن من الشاكرين﴾، أي: على ذلك، ولا تطلُب ما لا طاقةَ لكَ به.

ثم أخبر تعالى أنه كَتَب له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكل شيء، قيل: كانت الألواحُ من جوهر، وأن الله تعالى كتَبَ له فيها مواعظَ وأحكاماً مفصَّلة مُبيِّنَةً للحلال من الحرام، وكانت هذه الألواحُ مشتملةً على التوراة التي قال الله فيها: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى، بصائرَ للناس﴾.

وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومُنع منه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْها بقوةٍ﴾، أي: بِعَزْمٍ على الطاعة، ﴿وَأْمُرْ قومك يأخذوا بأحسنها﴾، قال سفيان بن عُيَينة: حدثنا أبو سَعْد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشدّ ما أُمِر قومه.

وقوله: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾، أي سَتَرون عاقبةَ من خالف أمري، وخرجَ عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟

قال ابن جرير[٣]: وإنما قال: ﴿سأوريكم دَار الفاسقينَ﴾، كما يقول القائلُ لمن يخاطبه: «سأوريك غداً

(١) في الشفاء بدل قتادة: همام. وفي التعليق: صوابه هانئ».
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٩٤.
(٣) تفسير الطبري ٩/ ٥٩.

إلام يصيرُ إليه حالُ من خالفَ أمرِي»؟ على وجه التهديدِ والوعيدِ لمن عَصاه وخالفَ أمره. ثم نَقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصري.

وقيل: معناه ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾، أي: من أهل الشام، وأعطيكم إياها. وقيل: منازل قوم «فرعون»، والأولُ أولى، والله أعلمُ؛ لأن هذا كان بعد انفصالِ موسى وقومِه عن بلاد مصرَ، وهو خطابٌ لبني إسرائيل قبل دخولهم التِّيه، والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿سأصرفُ عن آياتي الذين يتكبَّرونَ في الأرض بغيرِ الحقِّ﴾، أي: سأمنعُ فهمَ الحُجَجِ والأدلة الدالة على عَظَمَتِي وشريعتي وأحكامي قُلوبَ المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرونَ عن النَّاسِ بغيرِ حقٍّ، أي: كما استكبروا بغير حَقٍّ أذلَّهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغَ الله قلوبهم﴾.

وقال بعض السلف: لا ينال العِلْمَ حَيِيٌّ ولا مستكبر.

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلُّم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً.

وقال سفيان بن عُيَينة في قوله: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾، قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي.

قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة.

قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عُيَينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كلّ أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾.

وقوله: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾، أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً.

ثم عَلَّل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾، أي: كذبت بها قلوبهم، ﴿وكانوا عنها غافلين﴾، أي: لا يعلمون شيئاً مما فيها.

وقولُه: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾، أي: من فَعَل منهم ذلك واستمرَّ عليه إلى الممات، حَبِط عمله.

وقوله: ﴿هل يُجزَون إلّا ما كانوا يعملون﴾، أي: إنما نجازيهم بحَسَبِ أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تَدين تُدَان.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يُخبِرُ تعالى عن ضَلال من ضَلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجلَ، الذي اتَّخذه لهم السامريُّ من حُليّ القبطِ، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضةَ من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خُوار، والخُوار صوتُ البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقولَ تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قال: فإنا قد فَتَنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً ودماً له خوار؟ أو استمر على كونه من ذَهَب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوِّت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم.

ويقال: إنهم لما صَوَّت لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتُتنوا به، وقالوا: ﴿هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسي﴾، فقال الله تعالى: ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك له ضراً ولا نفعاً﴾.

وقال في هذه الآية الكريم: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾، ينكر تعالى عليهم في ضَلالهم بالعجل، وذُهولهم عن خالق السموات والأرض وربِّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خُوار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَطَّى على أَعيُن بصائرهم عَمَى الجهل والضلال، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود، عن أبي الدرداء قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «حُبُّك الشيء يُعْمِي ويُصِمّ»(١).

وقوله: ﴿ولما سُقط في أيديهم﴾، أي: ندموا على ما فعلوا، ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ ـ وقرأ بعضهم(٢): ﴿لئن لم تَرْحَمْنا﴾، بالتاء المثناة من فوق، ﴿ربَّنا﴾ منادى، ﴿ويَغْفِر لنا﴾ ـ ﴿لنكونن من الخاسرين﴾، أي: من الهالكين. وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

يخبر تعالى أن موسى ـ عليه السلام ـ رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبانُ أَسِفٌ.

قال أبو الدرداء: و«الأسف»: أشد الغضب.

﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾، يقول: بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم.

وقوله: ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾، يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدّر من الله تعالى.

وقوله: ﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه﴾، قيل: كانت الألواحُ من زُمُرّدٍ. وقيل: من ياقوت.

(١) مسند أحمد ٥/ ١٩٤، ٦/ ٤٥٠، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٣٣٤.
(٢) هذه قراءة حمزة والكسائي، انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤٩.

وقيل: من بَرَدٍ. وفي هذا دَلالةٌ على ما جاء في الحديث «ليس الخبر كالمعاينة»[١].

ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً. وروى ابن[٢] جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد ردّه ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تلقّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضّاعون وأفاكون وزنادقة.

وقوله: ﴿وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال يا هارونُ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا. ألاّ تتّبعنِ أفعصيت أمري. قال يا ابن أم لا تأخُذْ بحليتي ولا برأسي إني خَشِيت أن تقول فرَّقتَ بين بني إسرائيل ولم ترْقُب قولي﴾، وقال ها هنا: ﴿ابنَ أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾، أي: لا تُسْوِّني مَسَاقهم، ولا تخلطني معهم. وإنما قال: ﴿ابن أمَّ﴾ ليكون أرأف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه. فلما تحقّق موسى ـ عليه السلام ـ براءةَ ساحةِ هارونَ ـ عليه السلام ـ كما قال تعالى: ﴿ولقد قال لهم هارونُ من قبلُ: يا قوم، إنما فُتِنْتُمْ به، وإن ربَّكم الرحمنُ فاتّبعوني وأطيعوا أمري﴾، فعند ذلك قال موسى: ﴿رب اغفر لي ولأخي، وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر؛ أخبره ربُّه عز وجل أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

أما الغضبُ الذي نالَ بني إسرائيلَ في عبادةِ العجل، فهو أن الله ـ تعالى ـ لَمْ يَقْبَلْ لهم توبةً، حتى قتل بعضُهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم، إنه هو التواب الرحيم﴾. وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا.

وقولُه: ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ نائلة لكلِ من افترى بدعة، فإن ذلك البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: «إنّ ذلَّ البِدْعَةِ على أكتافهم، وإن هَمْلَجت[٣] بهم البَغلاتُ، وطَقْطَقَتْ بهم البَرَاذينُ».

وهكذا رَوَى أيوبُ السختياني، عن أبي قِلابَةَ الجَرْمِيِّ أنه قرأ هذه الآية: ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾، قال: هي والله لكل مفترٍ إلى يوم القيامة.

وقال سفيان بن عيينة: «كل صاحب بدعة ذليل».

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان مِنْ كفر أو شرك أو

---

(١) روى الإمام أحمد ١/ ٢٧١ عن ابن عباس: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله ـ عز وجل ـ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت». وانظر أيضاً المسند ١/ ٢١٥.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٦٥، والمحرَّر الوجيز ٧/ ١٦٧ ـ ١٦٨. وسيُورِدُ ابنُ كثير أثَرَ قتادةَ عند تفسير الآية ١٥٤ من هذه السورة.

(٣) أي: سارت بهم سيراً حسناً في سرعة. والطقطقة: صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة. والبراذين: جمع برذون، وهو: الجافي من الخيل الجلد على السير في الشعاب، الغليظ الأعضاء.

نفاق أو شقاق. ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك﴾، أي: يا محمد، يا رسول الرحمة ونبي النور ﴿من بعدها﴾، أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لغفور رحيم﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عَزْرَة، عن الحسن العُرَني، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود: أنه سئل عن ذلك ـ يعني عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يتزوجها ـ فتلا هذه الآية: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿ولما سكت﴾، أي: سَكَن ﴿عن موسى الغضبُ﴾، أي: غَضَبُه على قومه ﴿أخذَ الألواحَ﴾، أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضباً له ﴿وفي نسختها هدى ورحمة﴾.

يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسَّرت، ثم جمعها بعد ذلك. ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فَذَهَب، وزعموا أن رُضاضها[(١)] لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيلَ إلى الدولةِ الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا، وما الدليل القاطع على أنها تَكَسَّرت حين ألقاها، وهي من جوهرِ الجَنَّة، وقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعدما ألقاها وجد فيها هُدًى ورحمةً؟!.

﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾، ضَمَّن الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عداها باللام.

وقال قتادة: في قوله تعالى ﴿أخذ الألواح﴾، قال: ربِّ: إني أجدُ في الألواح أمةً خيرَ أمة أُخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون ـ أيْ آخرون في الخَلْق ـ سابقون في دخول الجنة، ربِّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمةُ أحمدَ. قال: رب، إني أجد في الألواح أمةً أناجيلُهم في صدورهم يقرؤونها وكان من قَبْلَهم يقرؤون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً، ولم يعرفوه ـ [قال قتادة[(٢)]]: وإن الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطِه أحداً من الأمم ـ قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلونَ الأعورَ الكذّابَ، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أمة صَدَقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها ـ وكان مَنْ قبلهم إذا تصدَّق بصدقةٍ فقُبِلت منه، بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تُرِكت فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم ـ قال: رب، اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: ربِّ، إني أجد في الألواح أمةً إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كُتِبت له حسنة، فإن عَمِلها كُتِبت له عَشْرَ أمثالها إلى سبعمائة، ربِّ اجعلهم أمتي. قال: تلك أمةُ أحمدَ. قال: رَبِّ، إني أجد في الألواح أمة إذا هَمّ أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد: قال: ربِّ، إني أجِدُ في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك

(١) رُضاضُ الشيء: كُساره، وهو ما تكسَّرَ من الشيء، مثل كُسار الزُّجاج والخُبْز.

(٢) عن تفسير الطبري ٩/ ٦٥.

أمةُ أحمدَ. قال: ربِّ، إني أجد في الألواح أمة هم المشفَّعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمَرَه أن يختار من قومه سبعينَ رجلاً، فاختار سبعين رجلاً فبرز بهم ليدعُوا ربَّهم، فكان فيما دَعَوا الله قالوا: اللهمَّ أعطِنا ما لم تُعطِه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا. فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾... الآية.

وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأَرِناهُ. فأخذتهم الصاعقة [فماتوا]، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾.

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً، الخيِّرَ فالخيِّرَ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهَّروا، وطهّروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وقَّته له ربه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال له السبعون ـ فيما ذُكِرَ لي ـ حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه، لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمودُ الغمام، حتى تغشى الجبل كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فضُرِب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سُجُوداً، فسمعوه وهو يكلِّم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، انكشف عن موسى الغمام. فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة: فأخذتهم الرجفة ـ وهي الصاعقة ـ فالتَقَتْ أرواحهم، فماتوا جميعاً. فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾. قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل[1].

وقال سفيان الثوري: حدثني أبو إسحاق، عن عمارة بن عبد السَّلُولي، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلق موسى وهارون وشَبَّر وشبير، فانطلقوا إلى سفح جَبَل، فنام هارون على سرير، فتوفاه الله عز وجل. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله عز وجل. قالوا: أنت قتلته، حَسَدتنا على خُلقه ولينه ـ أو كلمة نحوها ـ قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلاً. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، من قتلك؟ قال: ما قتلني

(١) تفسير الطبري ٩/٧٢.

أحد، ولكن توفاني الله. قالوا: يا موسى، لن تعصَى بعد اليوم. قال: فأخذتهم الرجفة. قال: فجعل موسى عليه السلام يرجع يميناً وشمالاً، وقال: يا ﴿رب، لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾، قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم[(١)].

هذا أثر غريب جداً، وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه[(٢)]. وقد رواه شعبة، عن أبي إسحاق، عن رجل من بني سلول، عن علي، فذكره.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جُرَيج: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل، ولا نهوهم.

ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بما فَعَل السفهاءُ منَّا﴾.

وقوله: ﴿إن هي إلا فتنتُك﴾، أي: ابتلاؤُك واختبارُك وامتحانُك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إنِ الأمرُ إلا أمرُك، وإنِ الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾، الغَفْر هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب. والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألَّا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿وأنت خير الغافرين﴾، أي: لا يغفر الذنوب إلاّ أنت. ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾، هَذاك الفصلُ الأولُ من الدعاء في دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود، ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾، أي: أَوْجِبْ لنا وأَثْبِتْ لنا فيهما حسنةً، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة[(٣)].

﴿إنا هُدْنا إليك﴾، أي: تبنا ورجعنا وأَنَبْنَا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وإبراهيم التيمي، والسدي، وقتادة، وغير واحد. وهو كذلك لُغَة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن نُجَيٍّ[(٤)]، عن علي قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إنا هدنا إليك﴾.

جابر ـ هو ابن يزيد الجُعْفي ـ: ضعيف.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

قال تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾. . . الآية: ﴿عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾، أي: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك. سبحانه لا إله إلاّ هو.

(١) تفسير الطبري ٩/ ٧٣.
(٢) انظر ترجمته في ميزان الاعتدال ٣/ ٧٧، وطبقات ابن سعد ٦/ ١٥٨، والجرح لابن أبي حاتم ٣/ ١/ ٣٦٧.
(٣) انظر تفسير الآية ٢٠١ من سورة البقرة.
(٤) في تفسير الطبري ٩/ ٧٩: «عبد الله بن يحيى». وهو خطأ. انظر تهذيب التهذيب ٦/ ٥٥.

وقوله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ آيةٌ عظيمةُ الشُمولِ والعُمومِ، كقوله إخباراً عن حَمَلة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿ربنا وَسِعْت كلّ شيء رحمةً وعلماً﴾.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبدُ الصمدِ، حدثنا أبي، حدثنا الجُرَيري، عن أبي عبدالله الجشمي، حدثنا جُندُبٌ ـ هو ابن عبدالله البَجَليّ رَضِي الله عنه ـ قال: جاء أعرابيٌّ فأناخ راحلته ثم عَقَلها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ. فلما صلى رسول الله ـ ﷺ ـ أتى راحلتَه فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أتقولون: هذا أضلُّ أم بعيرُه؟ ألم تسمعوا ما قال؟ قالوا: بلى. قال: لقد حَظَرْتَ رحمةً واسعة؛ إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة [واحدة][1] يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهائمها، وأخَّر[2] عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره»[3].

ورواه أبو داود، عن علي بن نصر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به[3].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد، عن سُليمان، عن أبي عثمان، عن سَلْمان، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن لله عز وجل مائةَ رحمةٍ، فمنها رحمة يتراحَمُ بها الخلق، وبها تَعطِفُ الوحوشُ على أولادِها، وأخَّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة»[4].

انفرَدَ بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سُلَيمان ـ هو ابن طَرخان ـ وداود بن أبي هند، كلاهما عن أبي عثمان ـ واسمه عبد الرحمن بن مِلّ ـ عن سلمان، هو الفارسي، عن النبي ـ ﷺ ـ به[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لله مائة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندكم واحدة تَراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه[5].

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لله مائة رحمة، فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق، فبه يتراحم الناس والوحش والطير»[6].

ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به[6].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمانَ بن أبي شَيبةَ، حدثنا أحمد بن يُونُسَ، حدثنا سعد أبو غَيْلان الشيباني، عن حَمّاد بن أبي سليمان، عن إبراهيمَ، عن صلة بن زُفر، عن حُذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده ليدخُلَنَّ الجنةَ الفاجرُ في دينه، الأحمقُ في معيشته. والذي نفسي بيده ليدخُلنَّ الجنةَ الذي قد مَحَشته[7] النار بذنبه. والذي نفسي بيده ليغفرَنَّ الله يومَ القيامةِ مغفرةً يتطاولُ لها إبليسُ رجاءَ أن تُصيبه»[8].

هذا حديث غريب جداً: و«سعدٌ» هذا لا أعرفه.

(١) عن المسند.
(٢) في المسند: وعنده تسع.
(٣) المسند ٤/ ٣١٢، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/ ٢٧١.
(٤) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤٣٩، ومسلم، كتاب التوبة ٢١٠٨.
(٥) المسند ٣/ ٥٥ ـ ٥٦.
(٦) المسند ٣/ ٥٥. وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٣٥.
(٧) أي: أحرقت جلده حتى ظهر عظمه.
(٨) المعجم الكبير ٣/ ١٦٨.

وقوله: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾... إلى آخرها يعني: فسأوجب حُصُول رحمتي مِنَّةً مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾.

وقوله: ﴿للذين يَتَّقُون﴾، أي، سأجعلُها للمتَّصِفينَ بهذه الصفات، وهم أمة محمد ـ ﷺ ـ الذين يتقون أي: الشرك والعظائم من الذنوب.

﴿ويؤتُون الزكاة﴾، قيل: زكاةُ النفوس. وقيل: الأموالُ. ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية، ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي: يصدقون.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾، وهذه صفة محمد ـ ﷺ ـ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته. ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم كما قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل، عن الجُرَيري، عن أبي صخر العُقَيلي، حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ـ ﷺ ـ فلما فرغتُ من بيعتي قلت: لألقينَّ هذا الرجل فَلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فَتبِعتُهم[1] حتى أتوا على رجل من اليهود. ناشراً التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومَخْرَجي؟ فقال[2] برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه: إيْ، والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومَخْرَجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال: أقيموا اليهودي عن أخيكم. ثم وَلِي كَفَنَه والصلاة عليه[3].

هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح، عن أنس.

وقال الحاكم صاحبُ المستدرك[4]: أَخْبَرَنا [أبو] محمد[5] عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن شُرَحبيل بن مسلم، عن أبي أمامة الباهلي، عن هشام بن العاص الأموي قال: بُعِثْتُ أنا ورجلٌ آخرُ[6] إلى هِرَقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغُوطة ـ يعني غُوطة دمشق ـ فنزلنا على جَبَلة بن الأيهم الغساني، فدخلنا عليه، فإذا هو على سريرٍ له، فأرسلَ إلينا برسولٍ نُكَلِّمه، فقلنا: والله لا نكلِّم رسولاً، إنما بُعِثنا إلى المَلِك،

(١) لفظ المسند: فتبعتهم في أقفائهم.

(٢) أي أشار.

(٣) المسند ٥/ ٤١١.

(٤) هذا الأثر أورده البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ عن الحاكم إجازة، كما سيذكر ابن كثير.

(٥) في الأصل: أخبرنا محمد بن عبد الله. والمثبت من الدلائل، وميزان الاعتدال ٢/ ٣٩٢.

(٦) في الدلائل: «ورجل آخر من قريش».

فإن أَذِنَ لنا كلمناه، وإلا لم نكلم الرسول. فرجَعَ إليه الرسولُ فأخبره بذلك، قال: فأَذِن لنا فقال: تَكَلَّموا. فكلَّمَه هشامُ بن العاصِ، ودعاه إلى الإسلام، فإذا عليه ثيابُ سَوادٍ، فقال له هشام: وما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت أَلَّا أنزعها حتى أخرجَكم من الشام. قلنا: ومجلسكَ هذا، فوالله لنأخذَنَّه منك، ولنأخذَنَّ مُلك الملك الأعظم، إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. قال: لستم بها، بل هم قوم يصومونَ بالنهار، ويقومُون(١) بالليل، فكيفَ صومُكم؟ فأخبرناه، فمُلىء وجهُه سَواداً، فقال: قوموا.

ويعث معنا رسولاً إلى الملك، فخرجنا، حتى إذا كنا قريباً من المدينة، قال لنا الذي معنا: إنَّ دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم على بَراذين وبغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلا عليها. فأرسلوا إلى الملك: إنهم يأبَونَ ذلك. فدخلنا على رواحلنا مُتقلِّدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة، فأنختا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر. فالله يعلم لقد تَنَفَّضت(٢) الغرفةُ حتى صارت كأنها عِذْقٌ تصفقه الرياح. فأرسل إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم. وأرسل إلينا: أنِ ادخُلوا. فدخلنا عليه وهو على فراشٍ له، وعنده بطارقتهُ من الروم، وكل شيء في مجلسه أحمرُ، وما حولَه حمرةٌ، وعليه ثياب من الحمرة. فدنونا منه فَضَحِك، فقال: ما كان عليكم لو حَيَّيْتُموني بتحيتكم فيما بينكم؟! وإذا عنده رجلٌ فصيح بالعربية، كثير الكلام، فقلنا: إنَّ تحيَّتنا فيما بيننا لا تَحِلُّ لك، وتحيتك التي تُحَيَّا بها لا يحل لنا أن نحييك بها. قال: كيف تحيتُكم فيما بينكم؟ قلنا: السلامُ عليك. قال: وكيف تُحيُّون مَلِكَكم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يَرُدُّ عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظمُ كلامكم؟ قلنا: «لا إله إلا الله، والله أكبر». فلما تكلمنا بها - والله يعلم - لقد تَنَفَّضت(٢) الغرفةُ حتى رَفَع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلتموها حيث تَنَفَّضَت الغرفة، كُلَّما قلتموها في بيوتكم تنفَّضت عليكم غُرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك، قال: لَوَدِدْتُ أنكم كلما قلتم تَنَفَّض كل شيءٍ عليكم، وأني خرجتُ من نِصْفِ ملكي. قلنا: لِمَ؟ قال: لأنه كان أَيْسَر لشأنها، وأجدر ألَّا تكون من أمرِ النبوة، وأن تكون من حِيَلِ الناس. ثم سألنا عما أراد، فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتُكم وصومُكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا. [فقمنا] فأمر لنا بمنزل حسن ونُزُلٍ كثير، فأقمنا ثلاثاً.

فأرسل إلينا ليلاً، فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه. ثم دعا بشيءٍ كهيئة الرَّبْعَة(٣) العظيمة مُذَهَّبَة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتاً وقُفْلاً، فاستخرج حريرةً سوداءَ، فَنَشَرها، فإذا فيها صورةٌ حمراءُ، وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الأَلْيَتين، لم أر مثلَ طولِ عُنُقِه، وإذا ليست له لحيةٌ، وإذا له ضفيرتان أحسنَ ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم عليه السلام: وإذا هو أكثر الناس شَعراً.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداءَ، وإذا فيها صورةٌ بيضاءُ، وإذا له شعر كشعر القَطَط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حسن اللحية، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرة سوداءَ، وإذا فيها رجلٌ شديدُ البياض، حسن العينين، صَلْتُ الجبين(٤)، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه يَتَبَسَّمُ، فقال: هل تعرفونَ هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا والله رسول الله - ﷺ - فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد

---

(١) في الدلائل: ويفطرون بالليل.
(٢) أي: تشققت وصَوَّتت. والعِذْق: العُرْجُون بما فيه من الشَّماريخ. وتُصفِّقه: تُحرِّكه.
(٣) هو إناء مربع.
(٤) أي: واسع الجبين، أو بارزه.

رسول الله ـ ﷺ ـ قال: وبكينا. قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس، وقال: والله إنه لَهُوَ؟ قلنا: نعم، إنه لَهُوَ، كأنك تنظر إليه. فأمسك ساعةً ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخِرَ البيوتِ، ولكني عَجَّلته لكم لأنظر ما عندكم.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرةً سوداءَ، فإذا فيها صورة أدماء سحماء، وإذا [رجلٌ] جعد قَطَط، غائرُ العينين، حديد النظر، عاس متراكب الأسنان، مُقَلَّص[1] الشفة كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى عليه السلام. وإلى جَنْبِه صورة تشبهه، إلا أنه مِدْهَان[2] الرأس، عريضُ الجبين، في عينيه قَبَلٌ[3]، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجلٍ آدَمَ سَبْطٍ[4] رَبْعَةٍ. كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط عليه السلام.

ثم فتح باباً، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورةُ رجلٍ أبيضَ مُشْرَبٍ حُمرةً، أقنى[5]، خَفِيفِ العارضين، حَسَنِ الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج حريرةً بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاقَ، إلا أنه على شفته خَالٌ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورةُ رجلٍ أبيضَ حسن الوجه، أقنى الأنفِ، حسن القامة، يعلو وجهَه نورٌ، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جَدُّ نبيكم، عليهما السلام.

ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة كأنها صورةُ آدم عليه السلام، كأن وجهه الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمرَ حَمْش[6] الساقين، أخفش العينين[7]، ضخم البطن، رَبْعَةٍ، متقلِّدٍ سيفاً، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الأليتين، طويل الرجلين، راكب فرسٍ، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليه السلام.

ثم فتح باباً آخر فاستخرجَ منه حريرةً سوداءَ، فيها صُورةٌ بيضاءُ، وإذا رجلٌ شاب شديد سَوَاد اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تَعرِفُونَ هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابنُ مريم، عليه السلام.

قلنا: من أين لَكَ هذه الصُّوَرُ؟ لأنا نعلم أنها على ما صُوِّرت عليه الأنبياء عليهم السلام، لأنا رأينا صورة

---

(١) أي: منضمّة مجتمعة.
(٢) أي. دَهِينُ الشعر.
(٣) القَبَل: إقبال السواد على الأنف.
(٤) هو التام الخلق، ويوصف به الشعر المسترسل.
(٥) أي: طويل الأنف مع رقة في أرنبته وحَدَب في وسطه.
(٦) أي: دقيقهما.
(٧) الخَفَش: فساد في العينين.

نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن آدم ـ عليه السلام ـ سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إنَّ نفسي طابت بالخروج من مُلكي، وَإنْ كنت عبداً لا يسوءكم(١) ملكه حتى أموت.

ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسرّحنا.

فلما أتينا أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فحدثناه(٢) بما أرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر وقال: مسكين، لو أراد الله به خيراً لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ـ ﷺ ـ أنهم واليهودَ يَجِدُون نعت محمد ـ ﷺ ـ عندهم.

هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتاب «دلائل النبوة»، عن الحاكم إجازة، فذكره، وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا عثمان بن عُمَر، حدثنا فُليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يَسار [قال]: لقيت عبد الله بن عَمْرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ـ ﷺ ـ في التوراة. قال: أَجَلْ، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرْزاً للأمّيين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن نقبضه حتى نُقيم به الملّة العوجاء، حتى يقولوا: «لا إلَه إلا الله»، ويفتحُ به قلوباً غُلْفاً، وآذاناً صُمّاً، وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بِلُغَتِه، قال: قلوباً غُلوفيا، وآذاناً صُمُوميا، وأعيناً عُمُوميا(٣).

وقد رواه البخاري في صحيحه(٤)، عن محمد بن سنان، عن فُلَيح، عن هلال بن علي ـ فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ: «ولا صخاب في الأسواق، ولا يَجْزِي بالسيئة السيئةَ، ولكن يَعفُو ويصفح»(٥).

ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا. والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا مُحمَّد بن إدريس بن [عمر](٦) ورّاق الحُميدي، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم ـ من ولد جُبير بن مطعم ـ قال: حدثتني أم عثمان بنت سعيد ـ وهي جدتي ـ عن أبيها سعيد بن محمد بن جُبَير، عن أبيه محمد بن جُبَير، عن أبيه جُبَير بن مطعم قال: خرجتُ تاجراً إلى الشام(٧)، فلما كنت بأدنى الشام لَقِيني رجلٌ من أهل الكتاب، فقال: هل عندكم رجلٌ نبيّ؟ قلت: نعم: قال: هل تعرفُ صورتَه إذا رأيتها؟ قلت: نعم. فأدخلني بيتاً فيه صور، فلم أر صورةَ النبي ﷺ. فبينا أنا كذلك إذ دَخَل رجلٌ منهم علينا، فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهبَ بنا إلى منزله، فساعة ما دخلتُ نظرتُ

(١) في الأصل: «وإني كنت عبدا لا سوكم». وفي الدلائل: «وإن كنت عبداً لا يترك ملكه». ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٢) في الدلائل: حدثناه.
(٣) تفسير الطبري، ٩/ ٨٣.
(٤) البخاري، كتاب البيوع ٣/ ٨٧.
(٥) هذه الزيادة في تفسير الطبري، ويبدو أنها لم تكن في نسخة ابن كثير منه.
(٦) عن المعجم الكبير للطبراني، وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/ ٢٠٤.
(٧) بعده في المعجم الكبير: في الجاهلية.

إلى صُورة النبيِّ - ﷺ - وإذا رجل آخذ بِعقِب النبي - ﷺ - قلت: من هذا الرجلُ القابضُ[١] على عَقِبه؟ قال: إنه لم يكن نبيٌّ إلا كان بعده نبي إلا هذا، فإنه لا نبيَّ بعده، وهذا الخليفةُ بعده، وإذا صفةُ أبي بكر رضي الله عنه[٢].

وقال أبو داود: حدثنا عُمر بن حفص أبو عُمَر الضرير، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة أنّ سعيد بن إياس الجُرَيري أخبرهم، عن عبد الله بن شَقِيق العُقَيلي، عن الأقرع مُؤَذِّن عُمَر بن الخطاب قال: بعثني عُمَر إلى الأسقفُ فدعوتُه، فقال له عُمَر: هل تجدني في الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تَجِدُني؟ قال: أجدك قَرْنا. قال: فرفع عمر الدِّرَّة وقال: قَرْنَ مَهْ؟ قال: قَرْنٌ حديد، أمير[٣] شديد. قال: فكيف تجد الذي بعدي؟ قال: أجد خليفةً صالحاً، غير أنه يؤثر قرابته. قال عمر: يَرحَمُ الله عثمان، ثلاثاً. قال: كيف تجد الذي بعده؟ قال: أجِدُه صَدًا[٤] حديد: قال: فوَضع عُمَر يده على رَأسِهِ وقال: يادَفْراه[٥]، يادَفْراه! قال: يا أمير المؤمنين، إنه خليفة صالح، ولكنه يُستخلَف حين يُسْتخلف والسيف مسلول، والدم مهراق[٦].

وقولُه تعالى: ﴿يأمرهم بالمعروفِ وينهاهم عن المنكر﴾، هذه صفةُ الرسولِ - ﷺ - في الكُتُب المتقدِّمة، وهكذا كان حالُه عليه الصلاة والسلام، لا يأمرُ إلا بخيرٍ، ولا ينهى إلا عن شرٍ، كما قال عبد الله بن مسعود: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأَرْعِها سَمْعَك، فإنه خيرٌ يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه». ومن أهمِّ ذلك وأعظَمِه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أُمَّةٍ رَسُولاً أن اعبُدُوا الله واجتَنِبُوا الطاغوتَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر - هو العَقَدي عبد الملك بن عمرو - حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد، عن أبي حميد وأبي أسيد - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا سَمِعتم الحديث عَنّي تَعرفه قلوبُكم، وتَلين له أشعارُكم وأبشارُكم، وتَرَون أنه منكم قريبٌ، فأنا أَولاكم به. وإذا سَمِعتم الحديثَ عني تُنْكره قلوبكم، وتَنْفِرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه»[٧].

هذا جيِّدُ الإسناد، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن علي - رضي الله عنه - قال: إذا حُدِّثتم عن رسول الله - ﷺ - حديثاً فظنُّوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنا، والذي هو أتقى[٨].

ثم رواه عن يحيى بن سعيد، عن مِسْعَرٍ، عن عمرو بن مرة، عن أبي البَخْتري، عن أبي عبد الرحمن،

---

(١) في المعجم الكبير: القائم على عقبه.
(٢) المعجم الكبير ٢/ ١٢٥.
(٣) في سنن أبي داود: أمين.
(٤) في سنن أبي داود: صدأ. وفي النهاية: «صدأ من حديد. ويروى: صَدَع، أراد: دوام لبس الحديد، لاتّصال الحروب في أيام علي. ورواه أبو عبيد غير مهموز، كأنه الصدا لغة في الصَّدَع، وهو اللطيف الجسم. أراد أن علياً - رضي الله عنه - خفيف، يخف إلى الحروب ولا يكسل، لشدّة بأسه وشجاعته».
(٥) أي: واذلّاه. وقيل: نَتْناه. بفسّر الدفر بالنَّتن.
(٦) سنن أبي داود، كتاب السنة ٤/ ٢١٣، ٢١٤.
(٧) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٩٧، ٥/ ٤٢٥.
(٨) مسند الإمام أحمد ١/ ١٢٢.

عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا حُدِّثتم عن رسول الله ـ ﷺ ـ حديثاً، فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه[(١)].

وقوله: ﴿وَيُحِلّ لهم الطيِّبَاتِ ويُحَرِّم عليهم الخبائِثَ﴾، أي: يُحِلّ لهم ما كانوا حَرَّموه على أنفسهم من البَحَائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك، مما كانوا ضَيَّقوا به على أنفسهم.

﴿ويُحرِّم عليهم الخَبائِثَ﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى[(٢)].

وقال بعضُ العلماءِ: كلُّ ما أحلَّ الله تعالى فهو طيِّب نافع في البدن والدين، وكل مَا حرَّمه فهو خبيثٌ ضارٌّ في البدن والدين.

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له.

وكذا احتجَّ بها من ذَهَب من العلماءِ إلى أن المرجعَ في حِلِّ المآكل التي لم يُنَصّ على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما تستخبثه. وفيه كلام طويل أيضاً.

وقوله: ﴿ويَضعُ عنهم إصْرَهم، والأغلالَ التي كانت عليهم﴾، أي: إنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طُرق عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «بعثت بالحَنيفية السمحة»[(٣)]. وقال لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ لما بعثهما إلى اليمن: «بَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا»[(٤)]. وقال صاحبُه أبو بَرْزَةَ الأسلمي: إني صَحِبتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وشَهِدتُ تيسيره[(٥)].

وقد كانت الأمم الذين كانوا قبلنا في شرائعهم ضُيِّق عليهم، فوسَّع الله على هذه الأمة أمورها، وسَهَّلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حَدَّثَتْ به أنفسَها، ما لم تَقُل أو تَعْمَل»[(٦)]. وقال: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكْرِهُوا عليه»[(٧)] ولهذا أرشَدَ هذه الأمة أن يقولوا: ﴿ربنا لا تُؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، رَبَّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً كما حَمَلته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تُحَمِّلنا ما لا طاقَةَ لنا به، واعفُ عَنَّا، واغْفر لنا وارحَمْنا، أنت مولانا فانصُرنا على القوم الكافرين﴾. وثبت في صحيح مُسلم أنَّ الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلتُ، قد فعلتُ[(٨)].

وقولُه: ﴿فالذين آمنوا بِه وَعزَّروه ونَصَروه﴾، أي: عَظَّموه، ووَقَّروه، ﴿واتَّبعوا النورَ الذي أُنزِلَ معه﴾، أي: القرآنَ والوحيَ الذي جاء به مُبَلِّغاً إلى الناس، ﴿أولئك هم المفلحون﴾، أي: في الدنيا والآخرة.

تم بحمده تعالى الانتهاء من الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع

---

(١) مسند الإمام أحمد ١/١٢٢.

(٢) تفسير الطبري ٩/ ٨٤.

(٣) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٦٦، ٦/ ١١٦، ٢٣٣.

(٤) أخرجاه في الجهاد، البخاري ٤/ ٧٩، ومسلم ١٣٥٩.

(٥) فتح الباري، كتاب العمل في الصلاة ٣/ ٨١. ومسند الإمام أحمد ٤/ ٤٢٠، ٤٢٣.

(٦) البخاري، كتاب الطلاق ٧/ ٥٩، ومسلم، كتاب الإيمان ١١٦ ـ ١١٧.

(٧) سنن ابن ماجه، كتاب الطلاق ١/ ٦٥٩.

(٨) مسلم، كتاب الإيمان ١١٦.

فهرس موضوعات الجزء الثالث

- تفسير سورة النساء [من الآية ٩٤] ٩٩٣
- تفسير سورة المائدة ١٠٨٣
- تفسير سورة الأنعام ١٢٨٢
- تفسير سورة الأعراف ١٤٠٦